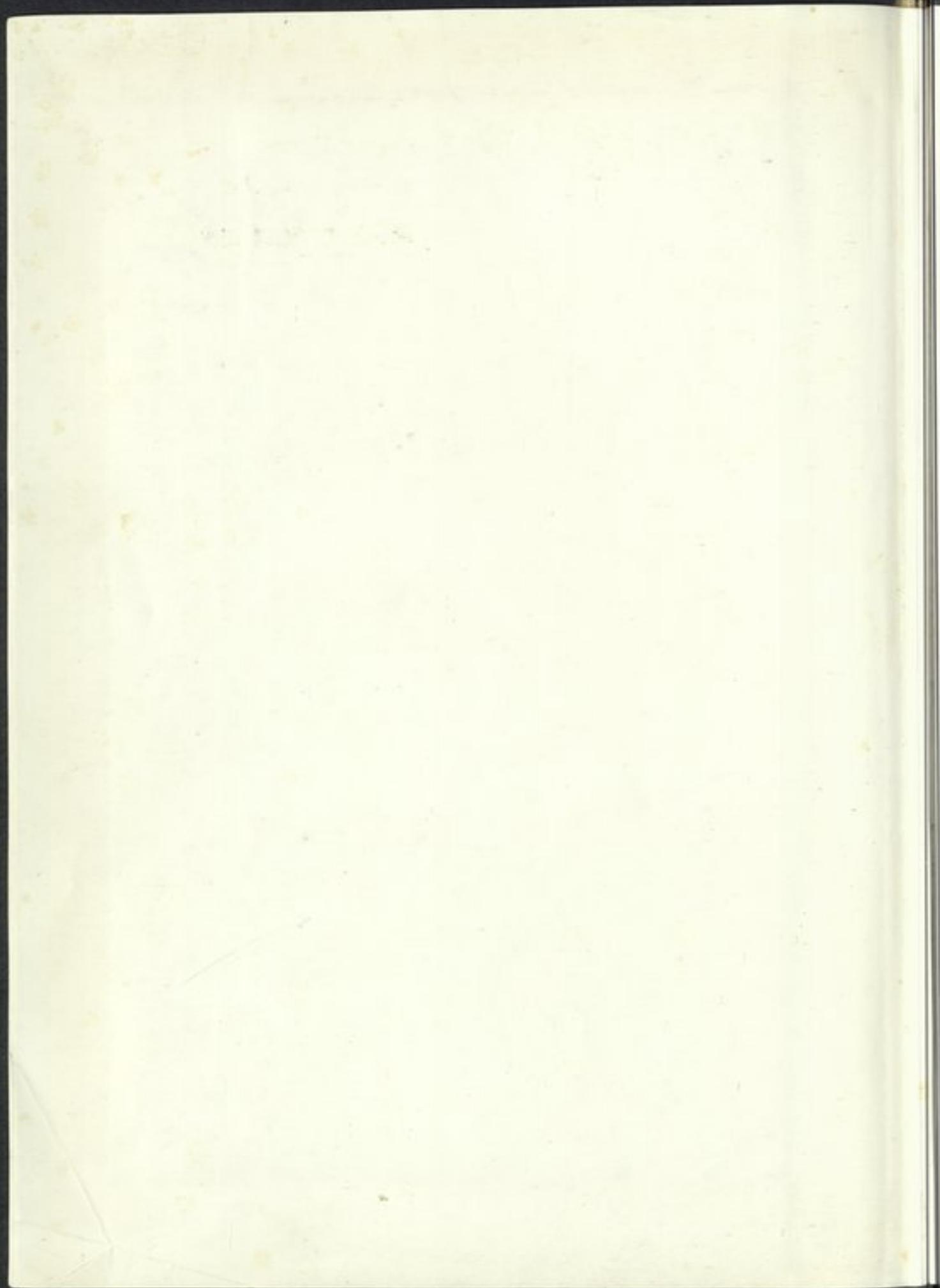
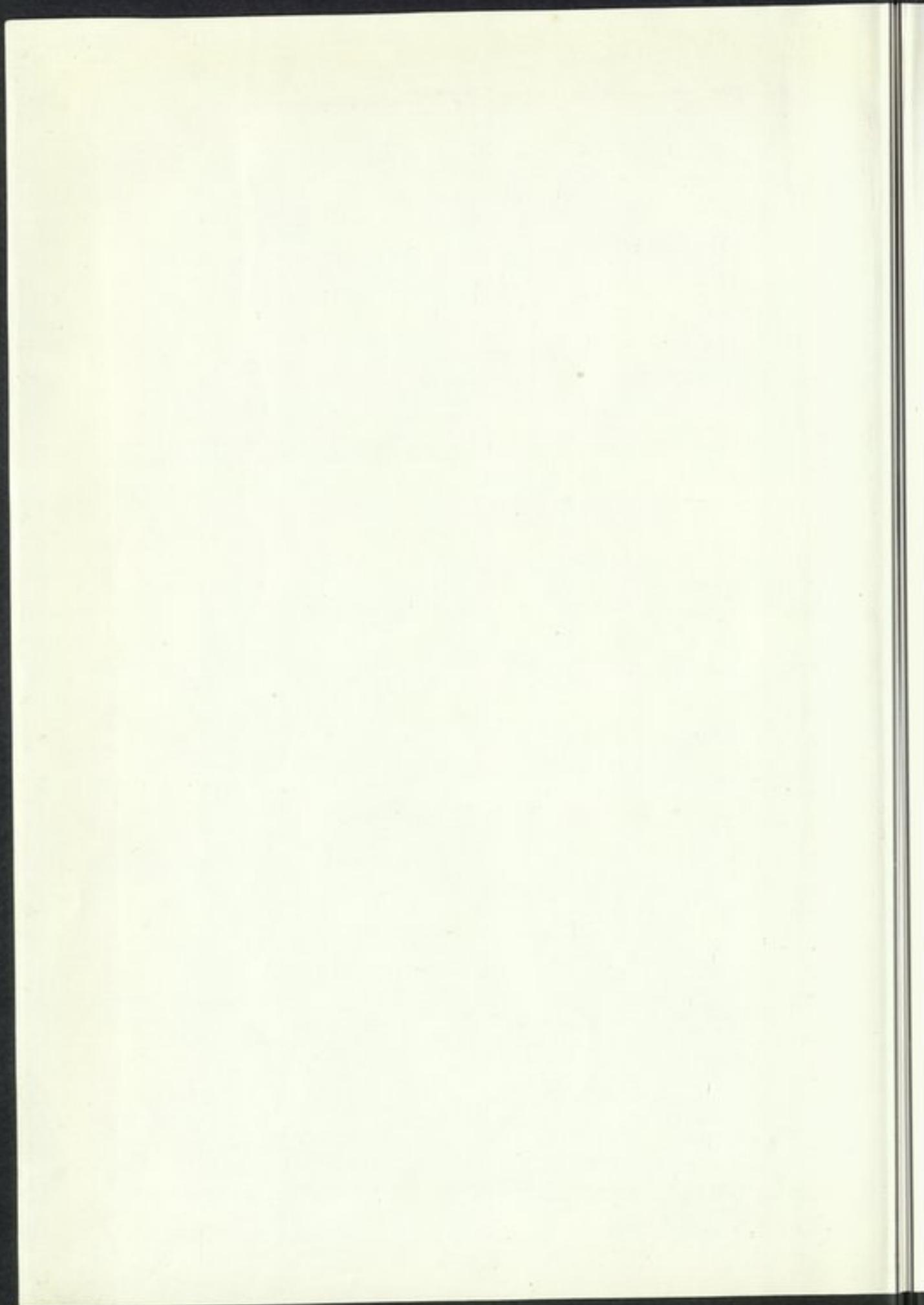
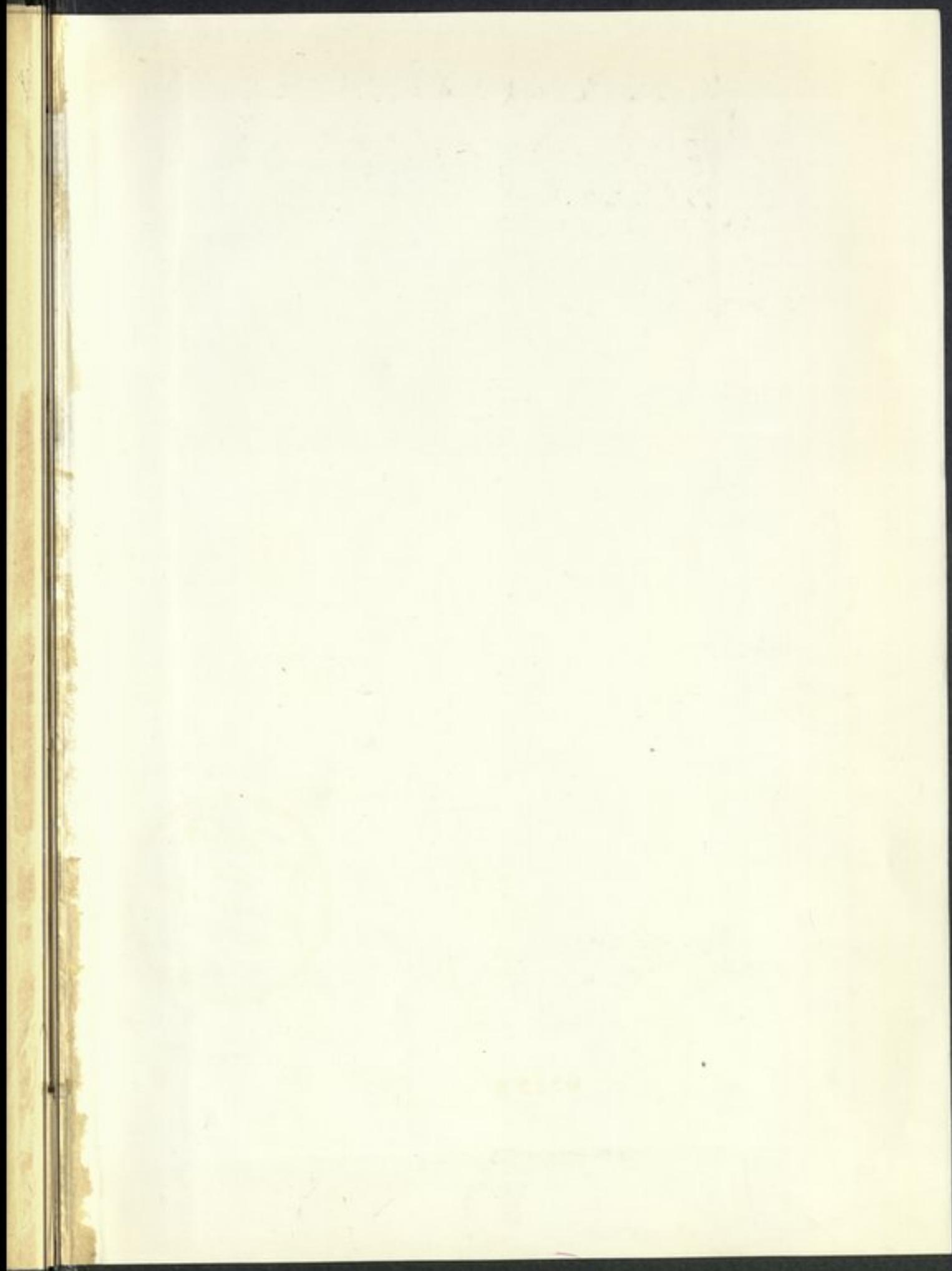


A. U. B. LIBRARY









297  
A75pA  
C.I



# الدعوة إلى الإسلام

## بَحْثٌ فِي تَارِيخِ نَشْرِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

تأليف

سير ت. و. أرنولد  
Sir T. W. ARNOLD

ترجمه إلى العربية

عبد المجيد عابدين  
مدرس بكلية فزدون بالخرطوم

هين بر الصميم  
رئيس قسم التاريخ بجامعة فزاد الأول

اسماعيل النجاروي  
بكلية جامعة فزاد الأول

East. July 1950

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

69359

مطبعة الشكشكي بالأزهر بمصر





6320

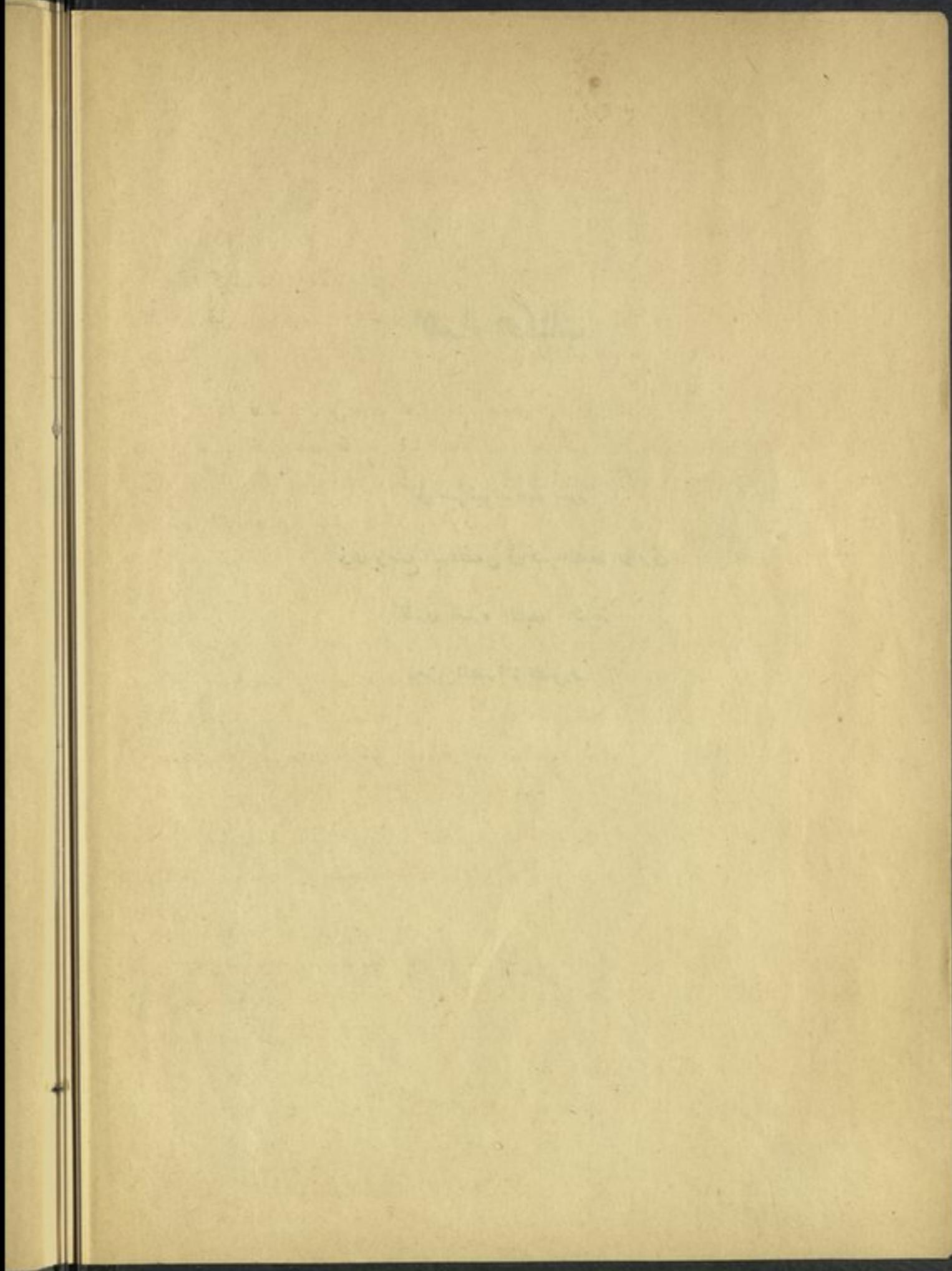
# الهراء المكتاب

الى سير نيودر موريس

الذى يرجع اليه الفضل في نشر الطبعة الأولى

أهري هذه الطبعة الثانية

رمزا للصداقة الطويلة



## مقدمة المترجمين

هذا كتاب جليل الفائدة ، غزير المادة ، يتناول الكلام على ناحية من نواحي التاريخ الإسلامى ، كانت من قبل غامضة مهملة . وقد ترجم إلى عدة لغات . وكانت المكتبة العربية فى حاجة ماسة إلى ظهوره بين أسفارها ، وقد استشرفت نفوس كثيرين للاضطلاع بنقله إليها لنفاسته .

وإذ كنا قد عرفنا فضل مؤلف هذا الكتاب من مؤلفاته العديدة ، فإن أحدها ، الدكتور حسن إبراهيم حسن ، قد عرفه معرفة شخصية ، وتبليذ له فى جامعة لندن خمس سنين ، وعرف قدره ، وأفاد من علمه . ولما قدم المؤلف إلى مصر فى سنة ١٩٣٠ ، أذن للدكتور حسن إبراهيم حسن فى ترجمة الكتاب إلى العربية . ثم نشأت فى نفس الزميلين الآخرين رغبة شديدة فى ترجمة الكتاب إلى العربية ، وعلمنا أن تلك الرغبة نفسها عند الدكتور حسن إبراهيم حسن ، ففرضنا عليه معاوتهما له فى أداء هذه الخدمة العلمية ، فلقيت فكرتهما عنده قبولا ، وتضافرت الجهود الثلاثة على إخراجها .

أما مؤلف هذا الكتاب ، وهو العالم المحقق السير توماس أرنولد ، فلا نستطيع أن نقدره قدره ، ولا أن نصفه بأحسن مما وصفه به الأستاذ نيكلسون ، إذ يقول فى كلمته القيمة التى صدر بها الطبعة الإنجليزية الثالثة : « إنه لم يتحدث إليه أحد ، إلا أحس فيه عقلا على جانب عظيم من الحيوية والقوة ، وتمتع منه بخلق متواضع رضى سريع الاستجابة ، وبقوله يصف هذا الكتاب : « إنه يفوق حد الوصف من كل ناحية . »

كان سير توماس أرنولد ، فوق ما امتاز به من صفات العالم الضليع المحقق المنصف ، مثالا للوداعة والتواضع وهدوء النفس وحلاوة الحديث وطيب العشرة ، يُضفى على تلاميذه كل ألوان الرعاية والعطف والتشجيع .

وكان سير توماس أرنولد ملما بالعربية والفارسية ، إمامه بمعظم اللغات الأوربية . وقد أورد فى هذا الكتاب نصوصا يونانية ولائينية وإيطالية وأسبانية وهولندية وفرنسية . لهذا كان لزاما أن نرجع إلى المتخصصين فى دراسة هذه اللغات لينقلوا هذه النصوص إلى العربية . ولذلك نرى واجبا علينا فى هذا المقام ، أن نقدم أجزل الشكر لحضرات الأساتذة الدكتور حسن عثمان والأستاذ موريس عبود لترجمة النصوص الطليانية ؛ والدكتور دوب لترجمة النصوص الهولندية ، والدكتور حسين مؤنس لترجمة النصوص الأسبانية ، والدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة لترجمة النصوص الألمانية ، والأستاذ أمين سلامة ملطى لترجمة النصوص اليونانية واللائينية .

ونخص بتقديم أجزل الشكر والثناء حضرة الأستاذ مصطفى السقا، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ،  
لتفضله بالمراجعة العربية لترجمة الكتاب . فوق ما أفدنا منه من تحقيقات لغوية وأدبية وتاريخية .  
وقد علقنا على بعض عبارات ، رأينا ألامر عليها من غير إيضاح . كما حرصنا على دقة الترجمة ،  
والرجوع إلى المصادر العربية والفارسية التي أشار إليها المؤلف في كتابه ، ونقلنا النصوص من مراجعها  
الأصلية ، وذلنا الكتاب بفهرس عام يعين القارىء على الوصول إلى أغراضه فى سهولة ويسر .

ومن الله نستمد العون والتوفيق ٩

اسماعيل الخراوى

عبدالمجيد عابربى

حسن ابراهيم حسن

الجزيرة فى ٢٣ من يولية سنة ١٩٤٧

## مقدمة الطبعة الأولى

هذه صفحات أنشرها في شيء كثير من التردد؛ فالموضوع الذي تناوله تلك الصفحات متسع جدا، ولم يكن بد من أن أجد في تحصيل هذا البحث في ظروف غير موفقة، حتى إنني لا أستطيع أن أوصل إلا في قدر يسير من النجاح. وإذا ما أتيت لي أن أكون أكثر استعدادا لهذا العمل، وبعد أن يمكنني التوفر على الدراسة من ملء الثغرات (١) التي تركتها في هذا الكتاب، أرجو أن أجعله عملا جديرا بأن يفيد هذا الجانب المهمل من التاريخ الإسلامي. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، سأكون شاكرا أجزل الشكر لما تقدمه إلي أية طائفة من العلماء، قد تفضل بالنظر في هذا الكتاب، من نقد وتصويب. وإلى أمثال هؤلاء قد نسوق الكلمات التي فاه بها القديس أوغسطين حين قال: «إن من يقرأ ذلك ويقول، إني أفهم ما يقال حق الفهم، وهو ليس من الصدق في شيء، إنما يعبر عن وجهة نظره هو، ويعارض رأني. على أنه إذا فعل ذلك عن محبة وإخلاص، وتوحيي أن يجعل هذا الأمر مفهوما لدى أيضا (لو مد الله لي في أسباب الحياة)، فإنني سأجني خيرا كثيرا من عملي هذا» (٢).

وإني إذ أستطيع أن أدعي أنني لست بثقة ولا متخصص في أية فترة من فترات التاريخ التي تناولت الحديث عنها في هذا الكتاب، وإذ صار كثير من الحوادث التي أشرت إليها فيه، موضوع جدل ونقاش بين الباحثين، وأوردت إشارات كاملة للمصادر التي رجعت إليها. وفي هذا المقام، رأيت أن من الخير أن يكون خطئي من جانب الإفراط والمبالغة، أكثر من أن يكون من جانب النقص. ولقد تحملت كثيرا جدا من العناء، وأضعت كثيرا جدا من الوقت في تبيين الإشارات إلى الكتب التي يكتنفها شيء من الغموض أو اللبس، رغبة في وقاية الآخرين أن يقعوا في مثل ما وقعت فيه من مضايقة، وعلى حين يراني القارئ العادي متحذقا، أرى أنني قد أرفع بذلك بعض العناء عن العالم، الذي يريد أن يحتج دقة أحد النصوص، أو يتبع أي جانب من جوانب البحث على نحو أكثر استقصاء.

وإن الطريقة التي اتبعتها في هذا الكتاب من كتابة الكلمات العربية بحروف إفريقية، هي التي وضعتها جمعية مؤتمر المستشرقين الدولي العاشر، الذي انعقد في جنيف سنة ١٨٩٤، للكتابة بحروف إفريقية، لانستني إلا إدغام لام التعريف في الحروف الشمسية. ولم تنطبق طريقة الكتابة هذه على كتابة الأسماء الجغرافية تمام الانطباق — وكذلك كثير من الحالات، لأنني لم أتبين مادة اللفظ العربية، وفي حالات أخرى (كما في لفظي مكة والمدينة)، لأن الاستعمال يكاد يكون قد جعل لها لقبها اكتسبه بتعاقب السنين.

(١) من ذلك انتشار الإسلام في سفلية، وأعمال الدعوة التي قام بها أولياء المسلمين على اختلافهم.

(٢) De Trinitate, i. 5. (Migne, tom. xlii. p. 823).

ومع أن هذا المؤلف - وهذا أمر مسلم به ، كما يتضح في التمهيد - عبارة عن سجل لجهود نشر الدعوة ، وليس تاريخاً للاضطهاد (١) ، حاولت أن أكون غير متحيز البتة ، وأن أؤيد ذلك المثل الأعلى الذي بسطه المؤرخ المسيحي (٢) الذي أرخ انتصارات العثمانيين وسقوط القسطنطينية بقوله : لا بد للتاريخ من أن يسجل التاريخ ، لا حبا في أن يعترف الناس له بالجميل ، ولا مدفوعا بياعث الحقد والضغينة ، أو الكراهية وإرضاء المشاعر ، بل لأجل التاريخ وحده ، ولكيلا تنطوى في عالم النسيان صفحات التاريخ التي يعرف الزمن كيف ينشرها .

وإني أحب أن أقدم الشكر إلى سمو الأميرة بربريني ، وسمو الأمير تشيجي Chigi ، والجدير بالتبجيل الدكتور بول جوثالس Goethals رئيس أساقفة كلكتة ، والجزيل الاحترام فرانسيس يسكي Francis Pesci أسقف الله آباد ، والمحترم س . س . أولنت Allnut ، أحد أعضاء إرسالية كبرديج في دهلي ، وإلى أمناء مكتبة دكتور وليامز بميدان غوردن بلندن ، إذ تفضلوا فسمحوا لي باستعمال مكتبة كل منهم استعمالا سخيا . وإني لمدين بالفضل بنوع خاص للسيد جيمس كنيدي J. Kennedy الموظف بقسم الخدمة المدنية بالبنغال سابقا ، فإنه لم يأل جهدا في إبداء أية رغبة تنطوي على العطف نحو كتابي . وإني مدين لعلمه العزيز وإطلاعه الواسع بكثير من المعلومات التي لولاه لبقيت مجهولة لدى ، ولا يقل عن ذلك فضلا ما أدين به لقوته الدافعة في حبه للعلم الذي ينطوي على الحماسة والغيرة ، وروحه الودى الذي مد إلى يد العون والمساعدة . وإني كذلك مدين بالفضل لرعاية كونت أوجو بلتراني Conte Ugo Balzani الذي ، لولا معونته لكان من المحال أن أحصل على أجزاء معينة من بحثي هذا . وإني مدين للبروفسور روبرتسن سمث بأرائه الثمينة في عناصر البحث التي كان ينبغي أن يبني عليها تاريخ الكنيسة الإفريقية الشمالية ، وحالة المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي ؛ وإن الحزن العميق الذي أحسه علماء الدراسات السامية جميعا على فقده ليتضاعف في نفسى ، لا اعتقادي بأن ذلك هو الاعتراف الوحيد الذي أستطيع أن أصفه كفاء مساعدته الكريمة وتشجيعه . كذلك أحب أن أعترف بتشكراتي إلى السير سيد أحمد خان بهادر (K. C. S. I., LL. D.) ، وإلى صديقي وزميل العالم شمس العلماء مولوى محمد شبلي الثعاني ، الذي أعانني في سخاء جم من فيض علمه بتاريخ صدر الإسلام ، وإلى تليذى القديم مولوى بهادر على (M.A.) وأخيرا ، وفوق ذلك كله ، ينبغي أن أشكر زوجتي العزيزة ، التي لولاها لما برز هذا المؤلف من فوضى المواد المفككة المتناثرة ، والتي كان عطفها وقبولها خير مكافأة لي على أعمالى .

المؤلف

عليكرة ١٨٩٦

(١) ومن ثم لن نجد نقارى. أى خبر عن تاريخ أرمينية أو إفريطس الحديث . أوفى الواقع عن تاريخ أى جزء من إمبراطورية الأتراك في خلال القرن الحالى - وهي فترة تفرقت خلالها من مهمة نشر الدعوة من جانبهم .

## مقدمة الطبعة الثانية

لما نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ عدة سنوات ، وكثير سؤال الناس عن نسخ منه ، أعدت هذه الطبعة الجديدة ، وبذلك بجهودا في مراجعة الكتاب على ضوء المواد الجديدة التي تجمعت لدى في خلال السنوات الست عشرة الأخيرة . على أنى لا أستطيع أن أدعى أنني قد ألممت بجميع الكتب الشاملة الخاصة بهذا الموضوع ، التي دونت بما يزيد على عشر لغات مختلفة ، والتي نشرت في خلال هذه الفترة . ويمكن أن تصور مدى نمو البحث في الإسلام وفروع الدراسة المختلفة التي تتصل به ، من تلك الحقيقة وهي أن خمس مجلات قد ظهرت منذ سنة ١٩٠٦ ، لتتوفر على دراسات قريبة الصلة من موضوع هذا الكتاب ؛ ومن هذه المجلات :

Revue de Monde Musulman, publiée par La Mission Scientifique du Maroc (Paris, 1906-); Der Islam, Zeitschrift für Geschichte und Kultur des islamischen Orients (Strassburg, 1910-); the Moslem World, a quarterly review of current events, literature and thought among Mohammedans, and the progress of Christian Missions in Moslem lands (London, 1911-); Mir Islama (St. Petersburg, 1912-); and Die Welt des Islams, Zeitschrift der deutschen Gesellschaft für Islamkunde (Berlin, 1913-).

وتبذل جمعيات التبشير المسيحية الآن كذلك اهتماما زائدا بموضوع نشاط الدعوة الإسلامية ، ومن ثم يحتل فيما تنشره هذه الجمعيات جانبا أعظم نسبيا مما كان من قبل .

وكان من الممكن أن تنجز الطبعة الثانية منذ عدة سنوات، لولا تلك السياسة المخالفة للحرية التي أوصدت قاعة المطالعة في المتحف البريطاني في الساعة السابعة ؛ وبذلك لم تكن القراءة فيها ميسورة لدى من الناحية العملية إلا في أيام السبت<sup>(١)</sup> . ولذلك أحب أن أعبّر عن شكرى الجزيل لهؤلاء الأصدقاء الذين يسروا أعمالي بإعارة كتب من مكتبات جامعة ليدن وجامعة أوترخت (عن طريق المعاونة الكريمة التي قدمها إلى البروفسور فنسنك) ، ومدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس : — وإني لمدين لمستر ج . أ . أولدهام Oldham ، محرر مجلة البعث الدولية The International Review of Missions لإعارته إياي

(١) يجد طالب كتب العلوم أو الفنون الحيلة المكتبات في كنسجتون الجنوبية مفتوحة حتى الساعة العاشرة في ثلاث ليال من كل أسبوع ، ولكن المكتبة الوحيدة في تلك البلاد التي تهدف إل أى لون من النكال ، ليست إلا في متناول هؤلاء الطلبة الذين يفرغون من أعمالهم في أثناء النهار .

بمجلدات مجلة Allgemeine Missions - Zeitschrift ، ولم أكن أستطيع أن أجد هذه المجموعة في لندن .  
وأقدم شكرى بنوع خاص إلى دكتور ف . و . توماس الذى سمح لى بدراسة الكتاب الأثرى و حوليات  
الإسلام لليونى كيتانى « Leone Caetani, Principe di Teano » فترات طويلة (بالإضافة إلى كتب  
أخرى من مكتبة India Office Library — وهو مؤلف له قيمة لا تقدر فى دراسة تاريخ صدر الإسلام ،  
ولكنه لسوء الحظ بعيد عن متناول يد العالم العادى بسبب غلاء ثمنه .

كذلك أدين بالفضل الجزيل لهؤلاء العلماء الذين نقدوا الكتاب عند ظهوره للمرة الأولى على ما أبدوه  
من إيضاحات قيمة عديدة ، — وأحق هؤلاء جميعا بالذكر ، البروفسور جولدتسيهر الذى أبدى من العناية  
التي تنم عن العطف والمودة بهذا الكتاب ما شجعتنى على إتمامه .

المؤلف

(لندن ١٩١٣)

### مقدمة الطبعة الثالثة

طوت وفاة السير توماس أرنولد في التاسع من شهر يونية سنة ١٩٣٠ سجلا طويلا رائعا من الخدمة في كثير من ميادين العلم المتنوعة ، وخاصة في تلك الميادين الواسعة من التاريخ والثقافة والفن الإسلامي . ولا حاجة بي إلى الكتابة عن هذه الجهود بالتفصيل ؛ فهي من الشهرة والتقدير بحيث أستطيع أن أقتصر في هذا المقام على بعض ملاحظات خاصة بهذا الكتاب ، وأن أشير إشارة عابرة إكراما له ، إلى مؤلفات ثلاثة أخرى ، كل منها يعد طريقة فريدة في بابها - أعنى بها رسالته في الخلافة Caliphate ، ونصكرته الإجمالية عن الإسلام بعنوان العقيدة الإسلامية The Islamic Faith ، وكتابه الفخيم والتصوير في الإسلام ، Painting in Islam . ولما كان أرنولد عالما كامل العلم بلغات كثيرة ، ملما بالعربية والفارسية لإمامه بمعظم اللغات الأوربية ، فقد أوتي مفاتيح لا عداد لها لعالم العصور الوسطى الذي أحبه ، ولم يمل مطلقا الكشف عن مجاهله . ومع ذلك ، ففي الوقت الذي نراه يحد في حماسة ونشاط في البحث وجمع المواد لإعادة بناء هذه العصور ، نجدده كذلك يعنى أشد العناية ، وهو نفسه يمثل دورا فعالا ملهما ، في حياة عصره وتفكيره . وقد كان زميلا يدخل في النفوس البهجة والسرور . لم يتحدث إليه أحد إلا أحس فيه عقلا على جانب عظيم من الحيوية والقوة ، وتمتع منه بخلق متواضع رضى سريع الاستجابة . ولإني إذ أختتم هذه المقدمة الموجزة إلى ذكره ، أوجه نظر القارئ إلى ذلك الوصف الرائع المسهب الذي كتبه عن توماس أرنولد العالم والرجل ، سير أوريل ستين Sir Aurel Stein في أعمال الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٣٠ Proceedings of the British Academy ص ٤٣٩ - ٤٧٤ ، وكان يعرفه معرفة وثيقة .

ظهر كتاب الدعوة إلى الإسلام في سنة ١٨٩٦ ، وكان أرنولد قد تجاوز الثلاثين بقليل . وقبل ذلك بثماني سنوات ، كان قد ترك كبردج ليشتغل منصباً في الكلية الإنجليزية الإسلامية في عليكره Anglo-Muhammatlan College . وكانت قد تأسست حديثا . وإن ما تميزت به علاقته مع المسلمين دائما من تعاطف وفهم لحالتهم ، سرعان ما حيينه إلى الطلاب والمعلمين على سواء . وهنا وضع خطة هذا الكتاب وأتم ما وصفه في هذا العنوان بتاريخ نشر العقيدة الإسلامية . وهذا الكتاب يفوق حد الوصف من كل ناحية . وقد أوتي أرنولد موهبة ، وكانت عادة جرى عليها في معظم أيام حياته ، جمعت بين التوفر على الأعمال الإدارية ، والغيرة على البحث . وهو كما يلاحظ سير أوريل ستين : « ومع ذلك إذا قدرنا كيف بذل بمحض إرادته العون والوقت للآخرين ، وكيف كان في عليكره بعيدا عن المكتبات العظيمة ، لاستولى علينا الدهش كيف استطاع أن يجمع وأن ينقد ، هذا القدر الهائل من المواد المتنوعة التي تتعلق بالكتب والمراجع التي استخدمها في الطبعة الأولى من كتاب الدعوة إلى الإسلام ، وإن نظرة واحدة في المراجع التي اعتمدها المؤلف ، تكفي لتتحقق قيمة الكتاب باعتباره مستودعا وصورة للحقائق التي تتعلق بموضوعه .

على أن سعة الاطلاع أمر أساسي أكثر من أن يكون صفة حيوية ، وأن هذا الكتاب زاخر بالحياة . وعلى الرغم من أن المؤلف ، على حد تعبيره ، قد حاول أن يكون غير متحيز البتة ، ، فليس معنى ذلك أن سرده للحوادث والأخبار لم يكن شخصيا البتة . وبينما نجد الكتاب ينقلنا على التوالي من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقية وأسبانيا وفارس والهند والصين والملايو ، نحس من وراء سطحة الهادى عمق الحجج المفنعة وقوتها التي تبعث فيه الحياة . ومنذ قرنين ، قال جورج سيل Sale ، وهو الذى ترجم القرآن إلى الإنجليزية ، إنه لن يتحرى الأسباب التي من أجلها صادفت شريعة محمد ترحيبا لا مثيل له فى العالم ( لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون انخداعا عظيما ، . ويوضح الباب الأخير من كتاب الدعوة إلى الإسلام فى دقة ما هى هذه الأسباب . وإن الكتاب من أوله إلى آخره ، برغم طابعه التاريخي ومنهجه العلمى ، إنما هو لحجة أرنولد أقامها على الجور والتعصب . وإن آراءه فى الجملة خليقة بأن تؤثر حتى فى هؤلاء الذين قد يظنون أن هذا الكتاب مصدر خطر ، عند ما يقدرُونَ بواعث الحماسة فى نشر الدعوة ونتائجها ، تاركين بصفة قاطعة مظهرا من نشاط هذه الدعوة لم يحسبوا له حسابا ، كما فعل أرنولد . وإنى لأذكر جيدا تلك المنعة والبهجة التي أحسستها حين قرأت كتاب الدعوة إلى الإسلام عند ما ظهر لأول مرة . وستمكّن إعادة طبع هذا الكتاب فى الصورة التي روجع بها وزيد عليها كما ظهر فى طبعة سنة ١٩١٣ كثيرا من الطلاب من أن يضيفوا إلى مكتباتهم مؤلفا لا يمكن الاستغناء عنه ، ويعد حجة ثابتة . أما وقد عجزنا عن إدخال التعديلات لجعل الكتاب متمشيا مع العصر ، لم يكن بد من أن يظهر الكتاب دون تغيير . وهذه مسألة تبعث على الأسف ، ولكن إذا نحينا تلك التوافه جانبا ، من مثل ما ذكره المؤلف ص ٤٢٦ من أن حركة الإصلاح الوهاية ، قد فقدت كل معنى سياسى خارج حدود نجد زمننا طويلا ، ، فإن الصعوبات التي كانت تنطوى على استدراك مثل هذا المؤلف بعد ظهوره بأكثر من عشرين سنة ، عظيمة ، كما يظهر ذلك فى وضوح وجلاء .

( ر . ١٠٠ . نيكلسون )

## محتويات الكتاب

صفحة	
٣	إهداء الكتاب
٥	مقدمة المترجمين
٧	الطبعة الأولى
٩	الطبعة الثانية
١١	الطبعة الثالثة
١٣	محتويات الكتاب

### الباب الأول — تمهيد

تعريف دين الرسالة - الإسلام دين رسالة ؛ امتداده - القرآن بأمر بالدعوة والإقناع  
وينهى عن القوة والإكراه في تحويل الكفار

٢٣—١٧

### الباب الثاني — دراسة حياة محمد باعتبارها داعية إلى الإسلام

محمد نموذج الداعي المسلم - وصف لجهوده الأولى في نشر الإسلام ، ولحالات التحول  
التي حدثت في مكة قبل الهجرة - اضطهاد الداخلين في الإسلام ، والهجرة إلى المدينة - حالة  
المسلمين في المدينة : بدء الحياة القومية للإسلام - عرض الإسلام على العرب أولاً ، وعلى  
العالم أجمع ثانياً - تصريح القرآن بأن الإسلام دين عالمي ، وبأنه العقيدة البدائية التي أوجبت  
إلى إبراهيم - محمد باعتباره مؤسس هيئة سياسية منظمة - انتشار الإسلام وما بذل من الجهود  
في تحويل العرب إلى هذا الدين بعد الهجرة - مثل الإسلام العليا ومثل العصر الجاهلي التي  
تناقض معها

٤٥—٢٤

### الباب الثالث — انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية

فوح العرب وتوسع الجنس العربي بعد وفاة محمد - تحول البدو المسيحيين - أسباب انتصارات  
المسلمين الأولى - التسامح يشمل هؤلاء الذين ظلوا على المسيحية - أهالي المدن المستوطنون :  
إخفاق محاولة هرقل في التوفيق بين الفرق المسيحية المتنازعة - فتح العرب بلاد الشام وفلسطين :  
تسامحهم : عهد عمر : الجزية تؤدي كفاء حمايتهم وبدلاً من الخدمة العسكرية - حالة  
المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي : يشغلون مناصب عالية ويبنون كنائس جديدة : النهضة في

الكنيسة النسطورية - أسباب تحولهم إلى الإسلام : الثورة على النظام الكهنسي البيزنطي :  
 تأثير فكرة إنكار الوحي والأخذ بالعقل وحده : طابع السيادة في الحضارة الإسلامية -  
 الاضطهادات التي عاناها المسيحيون - الجهود التي بذلت في سبيل نشر تعاليم الدعوة - تفصيلات  
 التحويل إلى الإسلام - وصف حالات التحول من بين الصليبيين - الكنائس الأرمنية والجورجية . ٩١-٤٦

الباب الرابع - انتشار الإسلام بين مسيحي إفريقيا

مصر : فتحها على أيدي العرب وترحيب القبط بهم باعتبارهم منقذين لهم من الحكم البيزنطي -  
 حالة القبط في عهد المسلمين - فساد رجال الدين وإهمالهم يؤدي إلى حالات تحول إلى الإسلام -  
 بلاد النوبة : العلاقات بينها وبين القوى الإسلامية : الانحلال التدريجي للعقيدة المسيحية -  
 الحبشة : العرب على ساحل البحر : الجهود التي بذلت في نشر الدعوة في القرن الرابع عشر :  
 غزوة أحمد جرائي : حالات التحول إلى الإسلام : تقدم الإسلام في السنين الأخيرة - إفريقيا  
 الشمالية : اتساع نطاق المسيحية في إفريقيا الشمالية في القرن السابع : المسيحيون فيما يقال يتحولون  
إلى الإسلام : عن طريق الإكراه : العوامل التي تحمل على الظن بأن هذا الزعم غير صحيح : التسامح  
 الذي نعم به المسيحيون : الاختفاء التدريجي للكنيسة المسيحية .

١١٥-٩٢

الباب الخامس - انتشار الإسلام بين مسيحي أسبانيا :

المسيحية في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي : حالة اليهود والأرقاء البائسة - الداخلون الأولون  
 في الإسلام - فيساد رجال الكنيسة - تسامح العرب وتأثير حضارتهم في المسيحيين الذين يدرسون  
 العربية ويتخذون الزنى العربي والعادات العربية - عوامل التحويل إلى الإسلام - شهداء  
 قرطبة الذين استشهدوا بمحض إرادتهم - مدى اتساع حالات التحول إلى الإسلام .

١٢٨-١١٦

الباب السادس - انتشار الإسلام بين شعوب أوروبا المسيحية في عهد الأتراك :

علاقات الأتراك برعاياهم المسيحيين أثناء القرنين الأولين من حكمهم : التسامح الذي بسطه  
 محمد الثاني على الكنيسة الإغريقية : مزايا الحكم العثماني : مساوته، ضريبة الأبناء، ضريبة الرأس،  
 الظلم الذي عاناه الأفراد - ندرة التحول عن طريق الإكراه - الجهود التي بذلها الأتراك  
 في نشر تعاليم الدعوة - الظروف التي ساعدت على انتشار الإسلام : حالة الكنيسة الإغريقية  
 التي كانت آخذة في التدهور : إخفاق محاولة جعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية : تعسف  
 رجال الدين من الإغريق : تفوق العثمانيين الأدبي - طابع السيادة في فتوحاتهم - تحول  
 الأرقاء المسيحيين إلى الإسلام - الإسلام في ألبانيا ، غزو البلاد ، طابع شعبها المتميز ،  
 الانحلال التدريجي للعقيدة المسيحية وأسبابه - في الصرب ، تحالف الصرب مع الأتراك ، حالات  
 التحول من بين الأشراف بصفة خاصة ، عدا في الصرب القديمة - في الجبل الأسود -

صفحة

في البوسنة ، البوجوميل ، أوجه الشبه بين الهرطقة البوجوميلية والعقيدة الإسلامية ، التحول إلى الإسلام — في إقريطش ، التحول إلى الإسلام في القرن التاسع ، تعسف حكم البنادقة ، الأتراك يفتحون البندقية ، حالات التحول إلى الإسلام .

١٧٨-١٢٩

### الباب السابع — انتشار الإسلام في فارس وأواسط آسيا :

حالة فارس الدينية في زمن الفتح العربي — جماعات كثيرة من الأهالي يرحبون بالإسلام — أوجه الشبه بين العقائد الأكثر قدما وبين الإسلام — التسامح الديني — حالات التحول إلى الإسلام — الإسماعيلية ونظامهم في نشر الدعوة — الإسلام في آسيا الوسطى وأفغانستان . ١٧٩-١٨٨

### الباب الثامن — انتشار الإسلام بين المغول والتتار :

وصف الفتح المغولية — البوذية والمسيحية والإسلام تتنافس في التحالف مع المغول — دينهم الأصلي ، الشامانية ، وصفها — انتشار البوذية والمسيحية والإسلام على التعاقب بين المغول — الصعاب التي وقفت في سبيل الإسلام . بعض حكام المغول يعاملون المسلمين معاملة قاسية — الداخولون الأولون في الإسلام — بركة خان أول من تحول إلى الإسلام من أمراء المغول — تحول إيلخانات المغول — تحول المغول من بيت جغتاي إلى الإسلام — تاريخ الإسلام في عهد القبيلة الذهبية : أوزبك خان : إخفاق المحاولات التي بذلت لتحويل الروس إلى الإسلام — انتشار الإسلام في الإمبراطورية الروسية في العصور الحديثة — تحول تتار سيبيريا إلى الإسلام . ١٨٩-٢١٦

### الباب التاسع — انتشار الإسلام في الهند :

توزيع الأهالي المسلمين - الدور الذي قام به حكام المسلمين في نشر الإسلام : تحول الراجهوت وغيرهم إلى الإسلام - الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في الهند ؛ الأخبار المروية عن الجهود المبكرة في نشر الدعوة في الهند الجنوبية ، حالات التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه في عهد حيدر علي وتيبو سلطان ، المابلان : — في جزائر ملديف : — في الدكن ، الجاليات العربية القديمة ، الأعمال التي قام بها دعاة أفرادا : — في السند ، حكم العرب ، تسامحهم الديني ، وصف الأعمال التي قام بها الأفراد في سبيل نشر الدعوة ، تحول الخوجات والبحرة إلى الإسلام : — في البنغال ، الحكم الإسلامي في هذه الإمارة ، تحول الطبقات المنحطة على نطاق واسع ، نهضة دينية في السنين الأخيرة - وصف الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في الجهات الأخرى في الهند : حركات نشر الدعوة في الأزمنة الحديثة . الظروف التي سهلت تقدم الإسلام : تعسف نظام العشائر الهندوكية ، عبادة أولياء المسلمين - انتشار الإسلام في قشمير والتبت . ٢١٧-٢٥٠

### الباب العاشر — انتشار الإسلام في الصين :

ملاحظات مبكرة عن الإسلام في الصين - اختلاط الصينيين بالعرب - وصف أسطوري عن أول دخول الإسلام إلى الصين - المسلمون في عهد أسرة تانج : أثر الفتح المغولي : الإسلام

في عهد أسرة منج - علاقات المسلمين الصينيين بالحكومة الصينية - الجمود التي بذلوها في سيل  
نشر دينهم .

٢٦٤-٢٥١

### الباب الحادى عشر - انتشار الإسلام في إفريقية :

العرب في إفريقية الشمالية : تحول البربر إلى الإسلام : بعثة عبد الله بن يس - دخول  
الإسلام إلى السودان : قيام الممالك الإسلامية : وصف حركات الدعوة ، دنفديو ، عثمان  
الأمير غنى ، القادرية ، التيجانية ، السنوسية - انتشار الإسلام على الساحل الغربى : أشتى :  
دهوى - انتشار الإسلام على الساحل الشرقى : المستعمرات الإسلامية الأولى : التوسع  
الحديث في إفريقية الألمانية الشرقية : الجلا : السومال - الإسلام في مستعمرة الكاب الساحلية -  
وصف دعاة المسلمين في إفريقية وأساليبهم في كسب الداخلين في الإسلام .

٣٠٤-٢٦٥

### الباب الثانى عشر - انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو :

الصلات القديمة بين أرخبيل الملايو وبلاد العرب والهند - أساليب نشر الدعوة - تاريخ  
الإسلام في سومطرة ؛ في شبه جزيرة الملايو ؛ في جاوه ؛ في ملوكس ؛ في بورنيو ؛ في سيليبس ؛  
في جزائر الفيليبين وجزائر سولو ؛ بين البيوان - دعاة المسلمين : التجار : طبقة إلهاجى

٣٤٠-٣٠٥

### الباب الثالث عشر - خاتمة :

X

عدم وجود هيئة منظمة لنشر الدعوة في الإسلام : الحماسة من جانب الأفراد . من هم  
الدعاة المسلمون ؟ العوامل التي ساعدت على نجاحهم : بساطة العقيدة الإسلامية : الأسلوب  
العقلى والطقسى في الإسلام - الإسلام لم ينتشر بحد السيف . تسامح الحكومات الإسلامية -  
العوامل التي ساعدت على تقدم الإسلام في العصور القديمة والحديثة .

٣٥٦-٣٤١

#### ملحق ١

٣٦١-٣٥٧

رسالة الهاشمى إلى الكندى بدعوه إلى الإسلام

#### ملحق ٢

٣٩٢-٣٦١

كتب الجدل بين المسلمين وأتباع العقائد الأخرى

#### ملحق ٣

٣٦٣-٣٦٢

جميعات نشر الدعوة الإسلامية

٣٦٥-٣٦٤

المراجع العربية والفارسية

٣٧٧-٣٦٥

المراجع الإفرنجية

٣٩٢-٣٧٨

فهرس عام

٣٩٣

تصويب

# المرغوة الى الاسلام

## الباب الأول

### تمهيد

منذ أن أتى الأستاذ مكس ملر Max Müller محاضرة في كنيسة وستمنستر في لندن، في يوم الشفاعة من أجل الرسل، وذلك في ديسمبر ١٨٧٣، أصبح من المعروف علماً أن الأديان الستة الكبرى في العالم . يمكن تقسيمها إلى دين مختص برسالة ودين غير مختص . فاليهودية والبرهمية والزرادشتية من القسم الأخير . أما البوذية والمسيحية والإسلام فهي من القسم الأول . وقد وفق في تحديد ما ينبغي أن يدل عليه اصطلاح دين الرسالة ، بقوله إنه الدين ، الذي يسمو فيه نشر الحق ، وهداية الكفار إلى واجب مقدس ، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده . . . إنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي لا تستقر حتى تتجلى في الفكر والقول والعمل ، ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية ، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق (١) .

وإن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها ، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكاناً بين ما نسميه أديان الرسالة ، لم يكن حماساً من ذلك النوع ، من أجل صدق عقيدتهم . وليس موضوع هذا الكتاب إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها . وإن انتشار ما يقرب من مليون من المسلمين في العالم في الوقت الحاضر هو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرناً التي تلت ظهور الإسلام .

وكان ظهور مبادئ هذه العقيدة لأهالي بلاد العرب في القرن السابع الميلادي ، على يد النبي العربي الذي انضوى تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة . فلما امتثلوا من آثار هذه الحياة القومية الجديدة ، ومن هذه الحماسة ، وتلك الحماسة التي أمدت جنودهم بقوة لا تقهر ، تدفقوا في أنحاء ثلاثة ، يفتحون البلاد ويخضعون العباد . وكان أسبق البلاد إلى التسليم سورية وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا

(١) تعليق على مقال الأستاذ ليال LYALL (Missionary Religions) في مجلة

Fortnightly Review, July, 1874.

وفارس . وبعد انقضاء مائة عام على وفاة الرسول ، وصل أتباعه غربا إلى أسبانيا ، وشرقا إلى أن عبروا نهر السند ، فالبشوا أن وجدوا أنفسهم سادة على إمبراطورية أعظم من إمبراطورية روما في أوج قوتها . ومع أن هذه الإمبراطورية العظيمة قد تصدعت أركانها فيما بعد ، وتضمضت قوة الإسلام السياسية ، ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع . وعندما خربت جموع المغول بغداد ( ١٢٥٨ م ) وأغرقوا في الدماء مجد الدولة العباسية الذاوي — وطرده فرديناند ملك ليون وقشتالة المسلمين من قرطبة ( ١٢٣٦ م ) ودفعت غرناطة ، آخر معاقل الإسلام في أسبانيا الجزية للبلك المسيحي — كان الإسلام قد استقرت دعائمه وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة ، وكان على أهبة أن يحرز تقدما ناجحا في الجزائر الواقعة في بلاد الملايو . وفي هذه اللحظات التي تطرق فيها الضعف السياسي إلى قوة الإسلام ، نرى أنه قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة . فهناك حالتان تاريخيتان كبيرتان ، وطىء فيهما الكفار من المنبرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول ، أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادى عشر ، والمغول في القرن الثالث عشر ؛ وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغوليين . وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلوا كذلك من أى مظهر من مظاهر السلطان الزمني ، عقيدتهم إلى إفريقيا الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية . وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار ، ومن سيراليون إلى سيبيريا والصين ، ومن البوسنة إلى غينا الجديدة .

وفي خارج البلاد الإسلامية الصميمة ، والمناطق التي تضم عددا كبيرا من السكان المسلمين ، كالصين وروسيا ، طوائف صغيرة قليلة العدد من أتباع النبي ، يؤيدون الدين الإسلامي بين صفوف قوم من الكفار . من أمثال هؤلاء طائفة من المسلمين الذين يتكلمون البولندية ، وينحدرون من أصل تترى في لتوانيا ، ويقطنون مقاطعة كفنو Kovno وقلنو Vilno وجردنو Grodno<sup>(١)</sup> ، وطائفة أخرى من المسلمين الهولنديين في مستعمرة السكاب ، وثالثة من الرعاة الهنود نقلوا معهم عقيدة الإسلام إلى جزائر الهند الغربية وإلى غينا البريطانية والهولندية . ثم أصبح للإسلام أيضا في السنين الأخيرة أشياع في إنجلترا وأمريكا الشمالية وأستراليا واليابان .

ويرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض . إلى أسباب شتى اجتماعية وسياسية ودينية ؛ على أن هنالك عاملا من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة ، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين ، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام ، مستخدمين من هدى الرسول مثلا أعلى وقدوة صالحة .

ولم تجيء مهمة تبليغ الرسالة في تاريخ الإسلام بعد تربيته ونفكيره ، ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية . وقد نرى ذلك واضحا في هذه الآيات القرآنية ، التي نقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . » (سورة ١٦ آية ١٢٦)

، وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ (أى اليهود والنصارى) لَنِي شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ . فَلِذَلِكَ قَادَعُ<sup>(١)</sup> وَاسْتَقَمَّ كَمَا أُمِرَتْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ، (سورة ٤٢ آية ١٣ - ١٤)

وفي الآيات المدنية أيضا نجد مثل هذه التعاليم ، وقد نزلت على محمد بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير وفي ذروة سلطانه .

، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ اسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (سورة ٣ آية ١٩)

، كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ لِوَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (سورة ٣ آية ٩٩ - ١٠٠)

، لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ ، وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ . وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ، (سورة ٢٢ آية ٦٦ - ٦٧)

وهذه آيات تنقلنا من سورة قبل لأنها كانت آخر ما نزل من السور :

، وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، (سورة ٩ آية ٦) .  
أما الكفار الذين نكثوا عهدهم ، واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصَدُّوا عن سبيله ، و د لا يرقُبون في مؤمن إلا ولا ذمَّة ، فإن تابوا وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ، وتُفَصَّلُ الآيات لقوم يعلمون ، (سورة ٩ آية ١٠ ، ١١)

وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة ، من الناحية النظرية ، أو الناحية التطبيقية . وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها ، وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين ، الذين وقفوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار ، على أنه ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد ، أو عسف المتعصب ، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم ، ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه ، وحمل القرآن في اليد الأخرى (٢) . وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعه

(١) أى ادعهم إلى الدين

(٢) وقد نشأ هذا التأويل الحامل . لفتوحات الإسلامية مما ذهب إليه بعضهم من أن الحروب التي نشبت لبسط السيادة الإسلامية على بلاد الكفار ، قد دلت على أن الغاية المنشودة منها ، كانت ترمى إلى تحويلهم إلى الإسلام . وقد أحسن جولدمبهر حين أشار إلى هذا التأويل في كتابه «Vorlesungen über den Islam» بقوله : «لقد خالف محمد ما صنعه من محيطه العربي أول الأمر وصية لمستقل أمته : ذلك هو عبارة الكفر ونشر العقيدة الإسلامية . ولكن هناك شيئا أكثر من ذلك . ألا وهو توسيع نطاق السيادة الإسلامية ، التي هي سيادة الله . ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الإسلامي يتجه أول الأمر إلى تغيير عقيدة الناس ، بإدخالهم في الإسلام بقدر ما كان يرمى إلى إخضاع الكفار» ، ص ٢٥ .

المهادنة ، التي قام بها الدعاء ، وأصحاب المن ، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض . على أن هؤلاء الدعاء لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلبية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع . بخلاف ما زعم بعضهم ، حينما جعلت الظروف والقوة والعنف أمرا مستحيلا ، يتنافى مع الأساليب السياسية . فلقد جاء القرآن مشددا في الحض على هذه الطرق السلبية ، في غير آية منه ، مثال ذلك :

« واصبرْ على ما يقولونَ واهجرهم هجراً جميلاً . وذُرْنِي والمُكذِّبينَ أُولَى النِّعْمَةِ ومهلهم قليلاً ، (سورة ٧٣ آية ١٠-١١) »

« إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، (سورة ٧٢ آية ٢٤) »

« قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بما كانوا يكسبون ، (سورة ٤٥ آية ١٣) »

« وقال الَّذِينَ أَشْرَكُوا لو شاءَ اللهُ ما عبدنا من دونه من شيءٍ . نحنُ ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيءٍ ، كذلك فعلَ الَّذِينَ من قبلهم ، فهل على الرُّسُلِ إلا البلاغُ المُبينُ ؟ ، (سورة ١٦ آية ٣٧) »  
« فإن تولَّوا فإنما عليك البلاغُ المُبينُ ، (سورة ١٦ آية ٨٤) »

« ولا تُجادلوا أهلَ الكتابِ إلا بالتي هي أحسنُ ، إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزلَ إلينا وأنزلَ إليكم ، وإلهانا وإلهمكم واحدٌ ، ونحن له مُسلِّونَ ، (سورة ٢٩ آية ٤٥) »  
« فإن أعرَضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغُ ، (سورة ٤٢ آية ٤٧) »  
« ولو شاءَ ربُّكَ لآمنَ من في الأرض كلُّهم جميعاً ، أفأنتَ تُكذِّبُ النَّاسَ حتى يكونوا مؤمنين ؟ ، (سورة ١٠ آية ٩٩) »

« وما أرسلناك إلا كافةً للنَّاسِ بشيراً ونذيراً ، (سورة ٣٤ آية ٢٧٩) »  
ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية ، وإنما وردت أيضاً بكثرة في الآيات المدنية كقوله :  
« لا إكراه في الدين ، (سورة ١٢ آية ٢٥٧) »

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ، فإن تولَّيتم فإنما على رسولنا البلاغُ المُبينُ ، (سورة ٦٤ آية ١٢) »  
« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ، فإن تولَّوا فإنما عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلتم . وإن تُطيعوه تهتدوا . وما على الرسول إلا البلاغُ المُبينُ ، (سورة ٢٤ آية ٥٣) »

« قل يا أيها النَّاسِ إنما أنا لكم نذير مُبين ، (سورة ٢٢ آية ٤٨) »

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم ، فأعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ،  
(سورة ه آية ١٦ )

وإن الغرض مما سنذكر في الصفحات التالية ، هو بيان كيف تحقق هذا المثل الأعلى في التاريخ ، وكيف كان أئمة الإسلام يطبقون مبادئ نشاط الدعوة . وينبغي أن يعلم القارىء منذ البداية ، أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية ، وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم . فليس الغرض تأريخ الحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي ، مما نجده منها مفرقا في صفحات التاريخ الإسلامي . وقد عنى الكتاب الأوربيون ببيان هذه الحالات ، حتى لم يعد ثمة خوف من إغفالها . وإن من الصعب إدراجها في نطاق تاريخ الدعوات . وفي بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس ليودجر Liudger والقديس ويلهاد Willehad بين السكسونيين الوثنيين ، أكثر مما نصفى إلى أخبار التعميدات المسيحية ، التي كان شارلمان يفرضها عليهم بحد السيف<sup>(١)</sup> . وكان المبشرون في بلاد الدايمرك ، وهم القديس أنسجار Ansgar وخلفاؤه ، أحق بصفة التبشير من الملك كنوت Cnut الذي استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب<sup>(٢)</sup> . وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد Gottfried ، والأسقف كريستيان Christian من نجاح في تنصير البروسيين الوثنيين ، وكان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما ، كانوا بحق أكثر تمثيلا لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف Bretheren of the Sword وغيرهم من الصليبيين ، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار . ولقد فرض فرسان Ordo Fratrum Militiae Christi المسيحية على شعب ليثونيا فرضا .

ولكن الرسل الحقيقيين للعقيدة المسيحية في هذه البلاد ، هم رهبان ما ينهارد وتيودوريك Meinhard and Theodoric ، وهم في ذلك أشد أثرا وأعظم شأنا من أولئك الفرسان المجاهدين ، الذين قامت دعوتهم على القوة العسكرية . وإن الوسائل العنيفة التي كان يلجأ إليها أحيانا الرسل اليسوعيون<sup>(٣)</sup> ، لا يمكن أن تنقص الشرف الذي يتصف به أمثال القديس فرانسيس كسافير Francis Xavier وسائر المبشرين من هذه الطائفة . كذلك لم يكن فالتين Valentyn بأقل من رسل أمبوينا Amboyna في هذه السيل ؛ فقد وجه في سنة ١٦٩٩ م إلى راجوات Rajas هذه الجزيرة مرسوما يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من

(١) انظر Enhardi Fuldensis Annales عام ٧٧٧ م . . . وانا صنف السكسونيون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة اعتنوا المسيحية آخر الأمر وخضعوا لحكم الفرنجة . . . راجع Monumenta Germaniae Historica, G. H. Pertz vol. 1, p. 349. (انظر أيضا: pp. 156, 159)

(٢) . . . ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها لقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك المتبررة في حرب طائفة مدفوعا بما كان يضطرم في نفسه من الفوق إلى نشر العقيدة . . . (Breviarium Romanum. Jun. 19.)

(٣) Histoire du Christianisme des Indes, pp. 529—Mathurin de la crose,

الوثنيين لتعميدهم ، إذا ما طاف بهم راعي الكنيسة<sup>(١)</sup>.

وإذا تتبعنا تاريخ الكنيسة المسيحية ، فإننا نجد نشاط الدعوة في اطراد مستمر. وقد يلي عصر الحماسة التي أظهرها الرسل في نشر الدين ، فترة جمود وعدم اكرثات ، وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجبارى محل الدعوة الهادئة إلى كلمة الله . كذلك كانت الدعاية الإسلامية في شتى عهود التاريخ الإسلامى بين مد وجزر . ولكن لما كانت الغيرة التي عرفها هؤلاء العاملون على نشر الدين ، ظاهرة جليلة في بث كل من الديانتين ، رأينا من المناسب أن نفرّد لتاريخ الدعوة دراسة خاصة ، بحيث لا يثنأ بنا ذلك الاتجاه ، عن ذكر غير ذلك من المعلومات التي تتعلق بالحياة الدينية ، على أن نحصر عنايتنا في دراسة مظهر من مظاهره ، يكون له مميزات الخاصة . وعلى ذلك ففي مقدورنا أن ندرس الأخبار التاريخية المتعلقة بهذه الدعوة ، منفصلة عن أخبار الاضطهاد ، في تاريخ الكنيسة المسيحية أو في تاريخ العقيدة الإسلامية ، ولو أنه قد يكون هناك ما يبرر الخلط بين هاتين الديانتين أحيانا . فكما أن الدين المسيحي لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التي اتخذها في فيكن Viken ( القسم الجنوبي من النرويج ) الملك أولاف ترايجفيسون Olaf Trygvesson ، الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية ، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم ، أو بنفيهم وتشريدهم ، وبهذه الوسائل نشر الدين في فيكن بأسرها ،<sup>(٢)</sup> وكما أن وصية القديس لويس لم تتخذ أصلا لمهمة التبشير المسيحي ، تلك الوصية التي تقول : « عند ما يسمع الرجل العاى أن الشريعة المسيحية قد أسىء إلى سمعتها ، فإنه ينبغي ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه الذي يجب عليه أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة بجلاء » ،<sup>(٣)</sup> فكذلك ظهر دعاة مسلمون . لم يكن شعارهم في وسائل دعائهم تلك العبارة القاسية التي فاه بها مروان آخر خلفاء بني أمية بقوله : « كل من لا يدخل في ديني ، ويصلى صلاتي ، ويتبع رأيي من أهل مصر ، قتلته وصلبته » ،<sup>(٤)</sup> كذلك لا يعد المتوكل والحاكم وتيبو سلطان رسلا مثاليين في الإسلام ، بقدر ما يعد مولانا إبراهيم رسول جاوه ، وخواجة معين الدين خشتى في الهند ، وغيرهم من كثيرين ظفروا بمعتقدين للإسلام بالوسائل السلبية دون غيرها .

ومع أنه قد يمكن الوقوف على ما هنالك من فرق واضح بين أساليب التحول إلى الدين بتأثير الاضطهاد ، وبين الدعاية السلبية بطريق الإقناع ، فإنه ليس من اليسير أن نتحقق من البواعث التي حملت الداخلين في الدين على تغيير عقيدتهم ، أو الوقوف على حقيقة أن الدعوة منبعثة حقا عن محبة للنفوس ، وعن ذلك المثل الأعلى الذي يبناه في الفقرة الأولى من هذا الباب . وكان هنالك في كل حين ، في المسيحية والإسلام على السواء ،

(١) Revue de l'Histoire des Religions, vol. xi. p. 89.

(٢) Konrad Maurer: Die Bekehrung des norwegischen Stammes zum Christenthume, vol. 1. p. 284. (München, 1855) .

(٣) Jean, Sire de Joinville : Histoire de Saint Louis, ed. N. de Wailly, (٣)

p. 30 (§ 53) .

(٤) سورس ص ١٩١ ( س ٢١ - ٢٢ )

نفوس جادة حازمة ، تتخذ من دينها الحقيقة السامية لحياتها . وإن تلك اللذة التي تشبعوا بها في المسائل المتعلقة بالروح قد وجدت تفسيرها في تلك الحماسة الدائمة على تبليغ الحقائق الأثيرة لديهم ، المحببة إليهم ، وعلى التمسك بالأصول والقواعد ، التي وجدوا فيها السكال ، والتي تكون القوة الدافعة في حركات الدعوة . وكان هنالك أيضا أولئك الخارجون عن حظيرة الإسلام الذين استجابوا لدعوتهم ، واعتنقوا الدين الجديد بمثل تلك الحماسة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام ، كالمسيحية ، قد عد من بين أشياعه كثيرين من الناس ، لم تكن التعاليم الإسلامية في نظرهم إلا مظاهر لنظام سياسي ، أو صورا من التنظيم الاجتماعي ، قبلوها إما على أنها ضرورات مبعضة إلى نفوسهم ، أو حلول ملائمة للمشاكل العارضة ، التي لا يهتمهم أن يجعلوها موضع تفكير لأنفسهم ، نجد أمثال هؤلاء بين الذين دخلوا في كل من هاتين الديانتين ، ونجد كلا من المسيحية والإسلام قد أضافت إلى أشياعها عددا من الأتباع ، مدفوعين إلى قبول الدين ، متأثرين بمطالب وأحوال اجتماعية وسياسية واقتصادية ، لا علاقة لها بمثل ذلك الظمأ الروحي الذي يدفع الداعي المخلص لدعوته . زد على ذلك أن الاخبار التاريخية التي طالما تحدثت عن أعمال الدعوة قد سجلت دخول الناس في الدين من غير أن تحاول تحليل البواعث التي حملتهم على تغيير دينهم ، ولا سيما أن هناك نقضا واضحا في المادة التي تتعلق بتاريخ الدعوة إلى الإسلام ، إذ أن الكتب الإسلامية قد انفردت بنقص في تدوين حالات معتنقي الإسلام ، الذين يحتمل أمثالهم في المسيحية مكانا كذلك المكان الفسيح في كتب الكنيسة . وليس من المستطاع فيما سنذكره من وصف إجمالي لنشاط الدعوة الإسلامية ، أن تبين دائما هل كانت تلك الدوافع التي دفعت إلى ذلك التحول سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، أو أنها كانت دينية محضة . وسنشير من حين إلى حين إلى ما كان لكل من هذه البواعث من أثر في هذه السبيل .



## الباب الثاني

### دراسة حياة محمد باعتبارها داعية إلى الإسلام

ليس من غرضنا في هذا الباب أن نضيف شيئاً جديداً إلى ماورد في كتب السير المتعددة عن حياة محمد ، وإنما آثرنا أن ندرس حياته من ناحية واحدة ، هي التي يظهر لنا فيها النبي داعية ورسولاً إلى الناس بدين جديد . وإن حياة مؤسس الإسلام ومُنشئ الدعوة الإسلامية ، قد يتوقع المرء أنها تقدم لنا بطبيعة الحال الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين . فيذا كانت حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين ، فإنها لسكذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام . لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئاً عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به ، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها . ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجيء في تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكير ، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها . وفي هذا لوصف الموجز سنين كيف حدث ذلك ، وكيف كان النبي محمد بعد نموذجاً للداعي إلى الإسلام . ومن ثم لن يدخل في نطاق هذا البحث وصف أيامه الأولى ، ولا المؤثرات التي خضع لها منذ نعومة أظفاره حتى بلغ سن الرجولة ، فلا نتحدث عنه سياسياً ولا قائداً ، وإنما الذي يعيننا أن نتعرض لحياته داعياً إلى الإسلام لحسب .

#### العلم

بعد أن قضى محمد وقتاً طويلاً ، استولى عليه نزاع نفسى وقلق ، واقتنع آخر الأمر بأنه مكلف حمل رسالة دينية من قبل الله (وجه أول جهوده إلى إقناع قومه بصدق الدين الجديد) فمن هذه الحقائق البسيطة التي طلب أن يبايعوه عليها ، وحدانية الخالق ، ونبذ عبادة الأصنام ، والتسليم لإرادة الله . وكانت خديجة زوجه المخلصة الودود أول من آمن به . وكانت قد خطبته لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عاماً ، حين كان ذلك الشاب الفقير الذي يمت إليها بالقرابة يشتغل في تجارتها أجيراً موقفاً في عمله . وقالت له : يا بن عم ، إني قد رغبت فيك لقرابتك ، وسطنك في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك (١) . وقد نشأته من الفقر وساعدته على أن يصل إلى مستوى الطبقة الاجتماعية التي أهلته لها عراقة نسه . بيد أن هذا لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى مشاركتها إياه في حالات قلقه النفسى في إخلاص وولاء ، وشد أزره ومعاوته بأرق ما يكون من التعاطف والتشجيع في ساعة اليأس .

وكانت خديجة إلى أن توفيت سنة ٦١٩ م (بعد أن قضت في حياة الزوجية خمسة وعشرين عاماً) ، تظهر على الدوام استعدادها لأن توأله بعطفها ، وتحموه بتأييدها ، وتغمره بتشجيعها ، كلما قام من اضطهاد خصومه وأعدائه ، أو عذبه الشكوك والهواجس . قال صاحب السيرة :

وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه ، تخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها ، ثبته وتخفف عنه ، وتصدقه ، وتمون عليه أمر الناس ، (١) .

ومن اعتنق هذا الدين أول الأمر وآمن برسالة محمد ، زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب ، وكان الرسول قد تبناهما ، والصديق أبو بكر ، وطالما كان النبي يشيد بذكره قائلاً : « مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبرة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكس (٢) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » . وكان أبو بكر تاجراً موسراً مبعجلاً في قومه ، لسكاج خلقه ورجاحة عقله وكفايته ، أنفق بعد إسلامه جل ثروته في شراء الموالى من المسلمين الذين اضطهدهم سادتهم لمشايعتهم دين محمد . وكان لأبي بكر أثر كبير في تحول خمسة من المسلمين الأوائل إلى هذا الدين ، وهم : سعد بن أبي وقاص ، الذي تم على يديه فيما بعد فتح بلاد الفرس ، والزيير بن العوام أحد أقرباء النبي وزوجته ، وطلحة بن عبيد الله الذي اشتهر فيما بعد بفروسيته ، وعبد الرحمن بن عوف التاجر الموسر ، وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين ، الذي تعرض في حياته الأولى للعذاب ، فقد أخذه عمه فأوثقه وقال : « أرغب عن ملة آباءك إلى دين محمد ؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين » . فقال عثمان : « والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه » ، فلما رأى عمه صلابته في دينه حل وثاقه .

ونلا هؤلاء قوم آخرون من بينهم طائفة من الموالى والفقراء بوجه خاص ، وبذلك أفلح النبي في أن يجمع حوله فئة قليلة من أتباعه في السنين الثلاث الأولى من البعثة . وكان لنجاح محمد في هذه الجهود الخاصة ما حفزه على التفكير في اتخاذ أساليب أقوى أثراً من الأساليب الأولى ، فبدأ يجهر بدعوته ، وجمع عشيرته ودعاهم إلى دينه الجديد بقوله : « والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتمكم به . إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر ؟ ، فأحجم القوم عنه جميعاً إلا علياً فقد صاح في حماسة الصبي : « أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه » ، فقام القوم يضحكون .

ولم يثن النبي إخفاقه أول ما دعا قومه عن الدعوة في مناسبات أخرى ، ولكن إنذاره لم يردم إلا سخريه وازدراء .

وقد حاول الكفار مراراً إقناع عمه أبي طالب زعيم بني هاشم الذين ينتسب إليهم محمد ، لينعته ويكفه عن سب آلهة آباءهم ، وإلا اضطروا إلى اتخاذ وسائل أشد عنفاً . وهنا حاول أبو طالب إقناع ابن أخيه ألا يجلب الشر على نفسه وعلى قومه ، فرد عليه النبي : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ما تركته » . فأثر ذلك في نفس أبي طالب وقال له : « اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلك لشيء أبداً » .

ونظرت قريش إلى ما أحرزه الدين الجديد من تقدم بعين تزداد سخطا وكراهية يوماً بعد يوم ، فلجئوا

(١) ابن إسحاق ص ١٥٥

(٢) تأخر وانظر

إلى كل ما أمكن من وسائل الوعد والوعيد، وعرضوا عليه كثيرا من شرف الدنيا وجاهاها، لعله يعدل عما عقد العزم عليه. وقد قيل إن ما لقي محمد من سوء المعاملة كان سببا في أن يجتذب إلى جانبه شخصا عظيما دخل في الإسلام، ذلك هو عمه حمزة. فانه عند ما سمع قصة الإهانة التي لحقت بابن أخيه واحتملها صابرا، تملك عاطفة الغضب روحه التي جبلت على البطولة والفروسية، فأحاله من عدو عنود إلى متعصب غيور على الإسلام. ولم يكن هذا الحادث هو المثل الوحيد لما أثاره التشكيل بالمسلمين من شفقة في نفوس هؤلاء الذين شاهدوا ما فاساه أولئك من اضطهاد. ولا شك أن كثيرا من الناس كانوا قد دخلوا سرا في الدين الجديد، ولكنهم لم يجهروا بإسلامهم حتى يحين يوم انتصار الدين.

واشتدت عداوة قريش للدين الجديد اشتدادا مراعيا حين رأوا كثرة عدد المشايخين للإسلام، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية، وضياح ما كان يتمتع به سدة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ. وكان محمد نفسه في حماية أبي طالب وبنى هاشم، فهؤلاء وإن كانوا لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي أذاعها قريش في الناس، إلا أن قوة العصية للفيل التي يتميز بها العرب قد حمتهم من أية محاولة اعتداء على حياته، وإن كان قد ظل معرضا لأذى واعتداء كثير. أما الفقراء الذين لم يكن لهم من يقوم بحمايتهم، وكذلك الموالي، فقد تحملوا أقسى ألوان الاضطهاد، فسجنوا، وعذبوا، بغية ارتدادهم عن هذا الدين الجديد. في ذلك الحين اشترى أبو بكر بلالا<sup>(١)</sup> وأعتقه، وهو عبد حبشي كان يصفه محمد بأنه «أول ثمار الحبشة». وكان يقامى أشد العذاب، فكان يلقي به في الرمضاء على وجهه وظهره، إذا حمت الشمس وقت الظهيرة، ثم يؤمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره، ثم يقال له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، أو تعبد اللات والعزى، فيقول بلال: «أحد أحد». ولقد مات اثنان من المسلمين من جراء ما تعرضا له من عذاب. وقد ضعفت عزائم فئة قليلة بتأثير هذه المحنة، على حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء روح الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى. فقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها. وكان العمل ينطوى على أشد مظاهر الجرأة التي لم يجسر عليها أحد من أتباع محمد من قبل. فتعرض له قوم من قريش كانوا في أنديةهم وجعلوا يضربون في وجهه، ولكنه استمر يتلو القرآن وقتا ما قبل أن يضطروه إلى الكف، ورجع إلى رفاقه، وقد أظهر استعداده للجهاد بالإسلام يمثل هذه الطريقة في اليوم التالي. ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين، وحسبك قد أسمعتم ما يكرهون.

وربما كانت شدة معارضة قريش السبب الذي من أجله اتخذ محمد دار الأرقم، وهو أحد السابقين إلى الإسلام. وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الجميع والغرباء. وقد استطاع الرسول أن يواصل نشر مبادئ الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة. وتعد الفترة التي قضاها محمد في هذه الدار فترة هامة في الدعاية الإسلامية بمكة، حتى إن كثيرا من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام من تلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم.

(١) وقد ذاعت شهرته في العالم الاسلامي باعتباره أول مؤذن في الاسلام.

ولما اشتد إيذاء الكفار لاتباع محمد أشار عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة . وفي السنة الخامسة للبعثة (٦١٥ م) عبر إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة حيث لقبهم النجاشي ، وكان يدين بالمسيحية ، بالمعطف والقبول . وكان من بينهم مصعب بن عمير صاحب القصة التي تلفت النظر ، لأنها قصة الرجل الذي لم يكن بد من أن يتحمل ما يقاسيه حديث العهد بالإسلام من محن مريرة ، وهي كراهة الذين أحبهم وأحبهوه من قبل . وقد هدى مصعبا إلى الإسلام ما استمع إليه في دار الأرقم من تعاليم للإسلام ، إلا أنه كان يخشى أن يظهر إسلامه مخافة أن يصل الخبر إلى أمه وعشيرته الذين كانوا يكونون له حبا خالصا ويناوتون هذا الدين الجديد مناواة شديدة ؛ فإذ إن اكتشفوا حقيقة الأمر حتى أخذوه لحبسوه ولكنه أفلح في الهرب إلى أرض الحبشة .

ويقال إن سخط قريش قد لحق بهؤلاء المهاجرين حتى بأرض الحبشة ؛ فأرسلوا الرسل يطلبون من النجاشي إخراجهم من هذه البلاد . ولكنه بعد أن سمع من المسلمين قصتهم أبي أن يكف عنهم حمايته ؛ فقد قالوا له ردا على ما وجه إليهم من أسئلة عن حقيقة دينهم : كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأني الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ إلى الجار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لتوحيده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده وبالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فدعا علينا قومنا ، فمذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك ، ورجعنا في جوارك ، ورجعنا ألا نظلم عندك . عندئذ قبل النجاشي شكايتهم ورجع رسل قريش مقهورين (١) . وفي تلك الأثناء قام المسيكون بمحاولة جديدة لإغراء النبي بالمال والجاه حتى يترك دعوته ، ولكن تلك الوعود لم تجد نفعا في هذه السبيل .

وفي الوقت الذي كان المسلمون في مكة يربقون بشغف كبير نتيجة بعثة قريش إلى الحبشة ، حدث أن دخل في الإسلام رجل كان من أشد أعداء محمد وأصلبهم مقاومة وتعصبا — رجل تضافرت الأسباب لدى المسلمين على أنه أخطر أعدائهم وألدم ، ومع ذلك فقد سطع ذكره فيما بعد ، وكان من أنبل الرجال في صدر الإسلام — ذلك الرجل هو عمر بن الخطاب . ففي ذات يوم خرج في سورة الغضب متوشحا بسيفه يريد قتل النبي ، فلقبه أحد أقاربه وهو في طريقه إلى النبي وسأله أين يريد ؟ فقال : « أريد محمدا هذا الصاني الذي فرق أمر قريش وسب آلهتنا فأقتله . فقال له : « أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : « وأي أهل بيتي ؟ قال : « وختك وابن عمك سعيد وأختك فاطمة ، — فرجع عمر عامدا إلى أخته وختته وعندهما خبثاب (بن الأرت) أحد أتباع محمد ، وكان يعلمهما الدين ، ومعه صحيفة يقرئها إياها . فدخل عمر عليها فقال : « ما هذه الهيئة التي سمعتها عنكم ؟ قال : « ما سمعت شيئا ، قال : « بلى والله لقد أخبرت أنكما

(١) ابن إسحاق ص ٢١٩ - ٢٢٠ . ولم يمرض الطبري لذكر هذه البعثة . ومن ثم يزعم كيتاني Caetani ( في الجزء

الأول ص ٢٧٨ ) أنها وضعت فيها بعد .

تابعتهما محمدا على دينه ، وبطش بختنه سعيد ، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضرها فشجها فصاحت في وجهه : « نعم قد أسلدنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . » فلما رأى عمر ما بأخته من الدم من أثر ضربته رق لحالها ، وسألها أن تعطيه هذه الصحيفة التي سمعهم يقرءونها آفا . وبعد تردد أعطته إياها ، وهي تشتمل على السورة العشرين من القرآن ، فقرأها عمر وقال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » وإذا بالإيمان يغمره فيصبح : « دلني على محمد حتى آتبه فأسلم ، » (١).

وبعد إسلام عمر نقطة تحول في تاريخ الإسلام : فقد استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكا أشد جرأة . فترك محمد دار الأرقم ، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة . وقد يتوقع المرء أن يكون هذا الموقف سببا قويا في إثارة مخاوف أشرف مكة . ذلك أنهم أصبحوا لا يطبقون الحياة مع شرذمة من المنبوذين ، المحقرين ، المضطهدين الذين يجاهدون لكي يعيشوا عيشة ضعف وبؤس . لأنهم كانوا عصابة قوية ، يكثر عددهم يوما بعد يوم بمن ينضم إليهم من المواطنين من أصحاب النفوذ والسلطان . ويعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقده من تحالف مع ملك أجنبي قوى .

فلما رأت قريش ذلك عقدت النية على القيام بعمل حاسم يحول دون نمو هذه الحركة الجديدة في البلاد ، فتحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم وهم الذين حموا النبي لما بينه وبينهم من صلة النسب ، وتماهدوا على أن لا يتزوجوا منهم ولا يزوجهم من أنفسهم ، ولا يتلجروا معهم ، وأن يقطعوا كل صلة تربطهم بهم . وقد قيل إن بني هاشم قد أقاموا على ذلك ثلاث سنين مهجورين في شعب من شعاب مكة ، إلا في الأشهر الحرم حيث حرم القتال في كافة أنحاء بلاد العرب ، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجيج من زيارة الكعبة المكرمة التي كانت تعد مركز ديانة العرب في ذلك الحين .

وكان محمد يجعل من مواسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التي كانت تندفق إلى مكة وما جاورها من الأسواق . ولكنه لم يصادف نجاحا في هذه السيل ، لأن عمه أبا لهب كان قد تعود أن يتعقبه ويصبح بأعلى صوته : « إنه لصاني يريد أن تسلبوا دين آبائكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له . » فيردون عليه ردا قبيحا ويقولون له : « إن قومك وذوي قرابتك هم أعرف الناس بك ، فلم لم يؤمنوا بك وينبعوك ؟ » وكان ما ذاقه محمد وذوو قرابته من العذاب والحربان قد أثار آخر الأمر شفقة جماعة كبيرة من القرشيين فنقضوا حلفهم .

وفي هذا العام أصيب الرسول بوفاة خديجة . تلك الزوج الوفية التي ظلت زهاء خمسة وعشرين عاما تمدده بالرأى والتأييد ، لحزن عليها حزنا عميقا . وبعد ذلك بقليل توفي عمه أبو طالب ، حرمه موتها من أشد حماة ثباتا وقوة وعرضه لإهانة قريش وأذاها من جديد .

ولما قربت دعوة محمد بالإهانة والسخرية من أهل مكة الذين حمل رسالته إليهم زهاء عشر سنوات

دون أن يصادف فيها نجاحاً يذكر، عزم على البحث عن قوم آخرين يكونون أكثر استعداداً لقبول دعوته، ويجد في بلدهم تربة أشد خصباً وصلاحيةً يستطيع أن يلقى فيها زور هذا الدين؛ فانطلق على هذا الأمل إلى مدينة الطائف، وهي على سبعين ميلاً من مكة، ودعا فريقاً من أشرفها إلى وحدانية الله، وأخبرهم أنه مكلف من قبل الله أداء رسالته ليعلم هذا الدين، وطلب في الوقت ذاته أن يحموه من اضطهده في مسكه. إلا أن عدم التناسب بين مطالبه السامية (التي لم تتقبلها عقول أهل الطائف الوثنيين) وبين حالته التي أصبحت تبعث على اليأس، لم تثر في نفوسهم غير السخرية والاستهزاء، فرموه بالحجارة في غير رحمة، وأخرجوه من ديارهم.

وقد وجد محمد عند عودته من الطائف أن أمه في النجاح قد أصبح أضعف منه في أي وقت مضى، وتجلت مرارة نفسه في تلك الآيات التي أوردها على لسان نوح: «قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً. وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا<sup>(١)</sup> واستكبروا استكباراً». (سورة ٧١ آية ٥-٦).

وكان من عادة النبي أن يتردد في موسم الحج على القبائل العربية المختلفة في خيامهم ويحدثهم في الدين. وكان بعضهم يقابل عباراته بشيء من عدم الاكتراث، ويقابلها بعضهم الآخر بالسخرية والاستهزاء، حتى أتاه الفرج من جهة لم يكن يتوقعها. فقد التقى بفتة قليلة، ستة نفر أو سبعة. وعرف أنهم قادمون من المدينة أو يثرب، كما كانت تسمى في ذلك الحين. فقال لهم مخاطباً: «من أنتم؟» قالوا: «من الخزرج، قال وأمن موالى يهود؟ فأجابوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟» قالوا: «بلى». وعندئذ جلسوا فدعاهم إلى الله الحق، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم لأجل الإسلام أن يهودا كانوا معهم ببلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان أولئك أهل شرك وأصحاب أوثان. وكان اليهود قد غلبهم في بلادهم، فكانوا إذا شجر بينهم نزاع قالوا لهم: «إن نبياً الآن مبعوث قد أظل زمانه تبعه وقتلكم معه قتل عاد وإرم». فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: «تعلمن والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم فتدعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين». وهكذا رجعوا إلى بلادهم يغمروهم الإيمان<sup>(٢)</sup>.

تلك هي القصة السائرة عن هذا الحادث الذي كان نقطة التحول في بعثة محمد. فقد لقي الآن قوماً كان أسلافهم قد هينوا عقولهم إلى حد ما لتقبل تعاليم النبي، وكانت أحوالهم إذ ذاك، كما دلت الحوادث فيما بعد، ملائمة لقبول دعوته.

وقد أقام اليهود بمدينة يثرب زمناً طويلاً، ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على أثر هذه الكارثة القومية التي نزلت بهم باضطهاد أدريان Hadrian لهم. وفي ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من

(١) أي على حطيتهم

(٢) ابن إسحاق ص ٢٨٦ - ٢٨٧

البدو المهاجرين ، وهم الأوس والخزرج من قبائل العرب ، وسمح لهما بالإقامة في رقعة من هذه المنطقة . ولما تكاثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة الحكام اليهود يزداد شيئاً فشيئاً حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم ، وذلك في نهاية القرن الخامس الميلادي .

وكانت طائفة من العرب قد اعتنقت اليهودية ، وظل كثير من سادة المدينة الأصليين يقيمون فيها في خدمة هؤلاء الفاتحين ، حتى إن المدينة كانت في زمن محمد تضم عدداً عظيماً من اليهود . وكان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح الذي ينتظرون عودته ، ومن ثم كانوا أقدر على فهم دعوى نبوة محمد من أهل مكة الوثنيين . فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة ، ومبغضة إلى قلوب القرشيين منهم بخاصة ، وهم الذين كانت سيادتهم على سائر القبائل وحالة الرخاء المادي التي تمتعوا بها ، راجعة إلى أنهم قد ورثوا حراسة هذه المجموعة من الأوثان العربية التي احتفظوا بها في حرم الكعبة المقدسة .

زد على ذلك أن مدينة يثرب كانت مشغولة بزراع داخلي دائم بسبب الحصومة التي قامت بين الأوس والخزرج . وعاش أهل يثرب في فاق واضطراب . وما من شيء يمكن أن يربط هذه الأحزاب المتناحرة برباط من المصلحة المشتركة إلا كان خيراً لهذه المدينة . وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية في القرون الوسطى قد آثرت أجنياً ليقبض على زمام الأمور في مدنهم حفظاً للتوازن بين قوى الأحزاب المتنافسة ، ومنعاً للصراع الداخلي الذي كان مفسداً للتجارة والشئون العامة ، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبي نظراً لتطوى على شيء من الريية ، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسلم زمام هذه السلطة .

ويظهر أن من أسباب الترحيب الحامس الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام ، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجاً لهذه الفوضى التي كان المجتمع يتناسها بنظامه الرتيب في الحياة ، وجعل أهواء الناس الصعبة خاضعة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية (١) .

وإن هذه الحقائق لتفسر لنا إلى حد بعيد كيف استطاع محمد أن يدخل مكة بعد ثمانين سنة من الهجرة على رأس عشرة آلاف من أتباعه ، تلك المدينة التي جاهد فيها من قبل جهاداً قليل الثمرة مدة عشر سنوات .

وكان محمد قد رغب من قبل في أن يصحب الحجاج من الخزرج ، الذين تحولوا حديثاً إلى الإسلام على يديه إلى يثرب ، ولكنهم وعدوه ذلك بعد أن يتم الصلح بينهم وبين الأوس . وقالوا : دعنا نرجع إلى قومنا عسى الله أن يجعل السلم بيننا وسنعود إليك ، وموعداً موسم الحج في العام المقبل . وهكذا رجعوا إلى ديارهم ودعوا قومهم إلى الإسلام ، فاستجاب لهم كثير ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله .

حتى إذا وافي موسم الحج وافته وفد من يثرب يتألف من عشرة رجال من الخزرج واثنين من الأوس

عند العقبة ، وهي المكان السري المتفق عليه ، وتعاهدوا على بيعته . وهذا هو نص بيعة العقبة الأولى : وعلى ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى بهتاناً نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف . ورجع هؤلاء الاثنا عشر رجلاً إلى يثرب دعاء إلى الإسلام ؛ وقد انتشر هذا الدين الجديد فيها انتشاراً سريعاً ، من دار إلى دار ، ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة ، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيره في تأدية رسالتهم .

وقد صحبهم مصعب بن عمير وهم راجعون إلى المدينة ، وفي رواية أن الرسول أرسله لإجابة لكتاب بعثه الأنصار من يثرب . وكان هذا الشاب من السابقين إلى الإسلام ، وقد عاد أخيراً من الحبشة ، ومن هنا كسب خبرة واسعة . وإن التجربة القاسية التي لاقاها في مدرسة الاضطهاد لم تضعف من حماسه ، بل علته كيف يقاوم الاضطهاد ، وكيف يعامل هؤلاء الذين كانوا يفضون من شأن الإسلام قبل أن يتبينوا روجه وتعاليمه . واستطاع محمد أن يوليه كل ثقته ، ويعهد إليه في هذه المهمة الشاقة ، وهي مهمة إرشاد الذين دخلوا حديثاً في هذا الدين ، وتعليمهم ، وتعهدهم بزور الحامسة والعبادة الدينية التي ألفت من قبل حتى آتت ثمارها . واتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مقاماً له ، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن في تلك الدار أحياناً ، وأحياناً أخرى في دار بني ظفر ، في حى من أحياء المدينة ، حيث كانت تقيم فيه هذه الأسرة مع أسرة بني عبد الأشهل .

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير شيخى بنى عبد الأشهل في ذلك الحين . وقد حدث ذات يوم أن مصعباً كان يجلس مع أسعد في دار بني ظفر ، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثاً ، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم وقال لأسيد بن حضير : « لا أبالك ؛ انطلق إل هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانهما أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علت لكفيتك » ( وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد ) . عندئذ تناول أسيد حربته وانطلق إلى أسعد ومصعب ، ثم صاح بهما : « ما جاء بكما إلنا ؟ أتسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة » . فأجاب مصعب في هدوء : « أو تجلس قسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته فكف عنه » . فركز أسيد حربته في الأرض وجلس إليهما يسمع ، ومصعب يشرح له مبادئ الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات من القرآن . وصاح بعد برهة مأخوذاً : « كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ » فأجابه مصعب : « تغتسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، فاستجاب أسيد لساعته ، وردد شهادة الإسلام ثم قال : « إن ورأتى رجلاً ( يشير إلى سعد بن معاذ ) إن اتبعك لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليك الآن » .

عند ذلك انصرف ، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ نفسه نائراً غضبياً على أسعد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد ، فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه . عندئذ رضى أن يصغى إلى كلام مصعب . وسرعان ما أثر فيه ، وحمل الإقناع إلى قلبه ، فدخل في الدين ، وأصبح من المسلمين . ثم رجع إلى قومه يلتهم حماسة وقال لهم : « يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ فقالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمتنا نقيية » ،

فقال سعد : وإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل . (١)

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينية قدما ، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادها ليزداد به عدد المؤمنين ، لا نستثنى إلا فرعا من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبي قيس بن الأسلت الشاعر .

وما إن وافي موسم الحج التالي حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصا من المسلمين الذين أسلموا حديثا قاصدين مكة ، وكان يصحبهم مواطنوهم من المشركين . وقد عهد إليهم دعوة النبي بالمجرة إلى يثرب اعتصاما بها من حق الخصوم ، وقد قدموا ليلابئوه على أنه نبيهم وزعيمهم . وفي هذه المناسبة العظيمة عاد إلى مكة كل المسلمين الأولين الذين اجتمعوا بالنبي في الموسمين السابقين ، وكان يرافقهم شيخهم مصعب ، وقد بادر على أثر وصوله بالذهاب إلى النبي ، وإخباره بما أصابه من نجاح في نشر الدعوة إلى الإسلام . ويقال إن أمه لما سمعت بمقدمه بعثت إليه تقول : يا عاق ، أتقدم بلدا أنا فيه لا تبدأ بي ؟ فقال : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ . فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت : إنك لعلى ما أنت عليه من الصباة بعد ، قال : أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضى الله لنفسه ورسوله . قالت : ما شكرت ما رزيتك مرة بأرض الحبشة ومرة يثرب فقال : أفر بديني أن تفتتوني . فأرادت حبسه فقال : لئن حبستني لأحرصن على قتل من يتعرض لي ، قالت : فاذهب لشأنك ، وجعلت تبكي ، فقال مصعب : يا أمة إنى لك ناصح ، عليك شفيق ، فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . قالت : والثواقب لا أدخل في دينك فيزرى برأى ، ويضعف عقلى ، ولكنى أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني . ✓

وقد دبر اجتماع سرى بالعقبة ، وهو ذلك المكان الذى لقي فيه النبي أهل يثرب من المسلمين في العام الماضى . وإنما اختار النبي هذا الموضع حتى لا يثير شك قريش ولا يستهدف لعداوتها . جاء محمد لا يرافقه إلا عمه العباس الذى كان يعلم أمر هذا الاجتماع مع أنه كان لا يزال على الشرك . وكان العباس أول من تكلم في الاجتماع ، فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه في عز من قومه ومنعة في بلده . على أنه أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب ، فنبض أن يتدبروا مليا قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له ، ومنعه من يخالفونه ، وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا ما استهدفوا لخطار . عندئذ أكد البراء بن معرور أحد الخزرج أنهم صادقون في عزمهم ، وأنهم عولوا على منع نبي الله ، وطلب إلى النبي أن يتكلم في صراحة وأن يأخذ لنفسه ولربه ما أحب .

وبدأ محمد بتلاوة بعض آيات القرآن ، ودعوتهم إلى الله ورسوله ، وترغيبهم في الإسلام ، ثم طلب منهم أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعون منه أزواجهم وأبناءهم . وعلى أثر ذلك أمسك البراء بن معرور بيده وقال : والذى بعثك بالحق ، لننمنعك مما تمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فحن واثقه أهل الحرب وأهل الحلقة

(١) ابن إسحاق ص ٢٩١ وما بعدها .

ورثناها كبرا عن كابر ، . وهكذا بايعوه واحدا بعد واحد .

ولم تكذب قريش نطقا إلى ما يجرى في الخفاء حتى استأنفوا التشكيل بالمسلمين من جديد . فنصحهم محمد بالفرار من مكة ، قائلا : هاجروا إلى يثرب ، فإن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا آمنون فيها . ومن ثم هربوا مستخفين منى وثلاث إلى المدينة . وهناك قوبلوا بترحاب عظيم ، وتسابق إخوانهم في الدين إلى شرف رعايتهم وقضاء مآربهم . ولم يمض شهران حتى كان عامة المسلمين تقريبا قد غادروا مكة ، وكانوا نحو مائة وخمسين عدا الذين أخذوا وحبسوا والذين لم يستطيعوا الخلاص من الأسر [ وقد حكى عن أحد هؤلاء المسلمين ، واسمه صهيب ، وكان النبي يطلق عليه « أول ثمار الروم » ، وكان عبدا روميا ، فلما أعتقه مولاه احترف التجارة وجمع منها ثروة كبيرة ) لما شرع في الهجرة قال له أهل مكة : « أتيتنا ها هنا صعلوكا حقيرا ، فكثرت مالك عندنا وبلغت ما بلغت ، ثم نتطلق بنفسك ومالك ؛ والله لا يكون ذلك ، فقال : رأيتم إن تركت مالي أغفلون أتم سبيلى ؟ قالوا : نعم ، فجعل لهم ماله أجمع ، فبلغ النبي (ص) فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب . »

وتخلف محمد فلم يهاجر ( ولا شك أنه كان يقصد بذلك صرف الأنظار عن أتباعه المخلصين ) حتى حدثت مؤامرة مدبرة لاغتيال حياته ، فتنبه أنه سيعرض نفسه للموت إن أطلال مكته بعد ذلك ، فاحتال للفرار .

وكان أول ما عنى به محمد بعد أن دخل يثرب ( المدينة ) كما سميت منذ ذلك الحين - أى مدينة النبي - أن يبنى مسجدا ليكون مقاما للصلاة وجمعا عاما لأصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحد منهم . وكان المصلون قد تعودوا في العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس ، وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود . وقد حاول محمد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة ، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية ، وسأوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية ؛ ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية . فلما أن أخفقت آماله في استمالتهم إليه وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون محمدا نبيا لهم ، أمر أصحابه بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة . ( سورة ٢ : آية ١٤٤ ) (١)

بإسراء الله

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة ، إذ كان ذلك في الواقع بداية للحياة القومية في الإسلام : فجعل من الكعبة في مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة ، كما كانت تماما في الأزمان الغابرة مقصدا للحج القبائل العربية جميعا . ونظير ذلك في الأهمية ما كان من جعل الحج إلى مكة ، تلك العادة العربية القديمة من بين فرائض الإسلام ، فأصبحت فريضة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل في حياته .

(١) ولا شك أن فرض صيام رمضان (سورة ٢ : آية ١٧٩ - ١٨٤) مظهر آخر من مظاهر نهضة اليهود إذ به أجعل صيام يوم عاشوراء .

وفي القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ هذا الشعور القومي، وتحت أهل بلاد العرب على إدراك ما منحوه من فضل بزول الوحي الإلهي بلغتهم، وعلى لسان واحد منهم .

« إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (سورة ٤٣ : آية ٣٣) .

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » (سورة ٤٢ : آية ٥) .

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » (سورة ٤١ : آية ٤٤) .

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ

يَتَّقُونَ » (سورة ٣٩ : آية ٢٨ - ٢٩) .

« وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . . . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » (سورة ٢٦ : آية ١٩٢ ، ١٩٥) .

« فَإِنَّا يَسِّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » (سورة ١٩ : آية ٩٧) .

ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيباً فيها<sup>(١)</sup>. ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذه الدعوة عامة، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب، نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي قيل إن محمداً بعث بها في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨ م) إلى عظام ملوك ذلك العصر. وفي هذه السنة أرسل الرسول كتباً إلى هرقل قيصر الروم، وإلى كسرى فارس، وإلى حاكم اليمن، وإلى حاكم مصر، وإلى النجاشي. وقد قيل إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان كما يلي: — « بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين وإن تتول فان إثم الأكارين عليك. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله: فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ». على أنه، إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء<sup>(٢)</sup>. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام، فقد قال الله تعالى:

(١) «ولكن الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات ومن ذلك خضوع الانسانية كلها خضوعاً مطلقاً. ولقد كان محمد، بوصفه رسولاً من الله، حق المطالبة بهذه الطاعة، وكان عليه أن يطالب بها. وهذا ما ظهر من أول الأمر جزئياً لا يفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادئه...»

(Sachau, pp. 203-4), Goldziher (Vorlesungen über den Islam, p. 25 sqq.) and Nöldeke (WZKM. vol. xxi. pp. 307-8). وما يذهب إليه زعمه سخاو.

(٢) انظر Caetani ١ : ٧٢٥ وما يلبها لوقوفه على مدى الشك في صحة هذه الكتب.

، إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلن نبأه بعد حين ، ( سورة ٣٨ : آية ٨٧ - ٨٨ )

، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ،

( سورة ٣٦ : آية ٦٩ - ٧٠ )

، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، ( سورة ٢١ : آية ١٠٧ )

، تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ( سورة ٢٥ : آية ١ )

، وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ( سورة ٣٤ : آية ٧ )

، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ،

( سورة ٦١ : آية ٩ )

وفي ساعة من ساعات اليأس العميق ، عندما كان أهل مكة يمعنون في النفور من كلام النبي (سورة ١٦ آية ٤٣ ، ١١٤ الخ) ، وعندما عذبوا من هداهم النبي إلى الإسلام حتى كفروا من بعد إيمان (سورة ١٦ آية ١٠٨) ، وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة في الله من بعد ما ظلمهم مضطهدوهم (سورة ١٦ : آية ٤٣ ، ١١١) ، عند ذلك تلقى النبي الوعد ، ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ، (سورة ١٦ : آية ٨٦) (١)

وإن ما يعبر به النبي في تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام ديناً ليزداد وضوحاً في قول محمد متنبئاً ، إن بلالا وأول ثمار الحشبة ، وإن صبيبا ، أول ثمار الروم ، . أما سلمان ، وهو أول من أسلم من الفرس ، فقد كان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق الإسلام في السنة الأولى من الهجرة . وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل . وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لتشير إلى دعوى عموم الرسالة . وهي وأن رسول الله قال لأصحابه ، ووافقني بأجمعكم بالعداء ، وكان إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلاً ، يسبح ويدعو ، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم : انصحوا الله في عبادته ، فانه من استرعى شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة ؛ انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم ، فانهم أتوا القريب وتركوا البعيد . فأصبحوا يعني الرسل

( ) ومن الغريب أن يشكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون ديناً عالمياً يرغم هذه الآيات البينات ، ومن بينهم السير وليم ميور إذ يقول : .. إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد ، وإن هذه المسكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه . وعلى فرض أنه فكر فيها ، فقد كان تفكيره تفكيراً قاعياً ، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب ، كما أن هذا الدين الجديد لم يربأ إلا لها ، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم . وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست ، ولكنها إذا كانت قد اخشرت ونمت بعد ذلك ، قائماً يرجع هذا إلى الظروف والأسوال أكثر منه إلى الخطط والماهج .. The Caliphate, pp. 43-4. وكتابي آخر من يزيد هذا الرأي

وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم ، فذكر ذلك للنبي فقال : هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده (١) .

ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد وخاتم النبيين ، (سورة ٣٣ : آية ٤٠) كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل .

« وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (سورة ١٠ . آية ٢٠) .

« قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ ، (سورة ٤٦ . آية ٨) .

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (سورة ٢ آية ٢٠٩) «  
« ثُمَّ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، . (سورة ١٦ . آية ١٢٤) .

« قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قَبِيًّا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، . (سورة ٦ آية ١٦٢) «

« قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، . (سورة ٢ . آية ١٢٩) .

« قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَيْكَةِ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، . (سورة ٣ : آية ٨٩ - ٩٠) .

« وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، . (سورة ٤ : آية ١٢٤) .

« . . . . . هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ،

(سورة ٣٢ : آية ٧٧) .

ولنعد الآن إلى تتبع حياة محمد في المدينة . ولكي نقدر موقفه بعد الهجرة تقديرا حقيقيا ، ينبغي أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربي في ذلك الحين من طابع خاص ، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شبه الجزيرة . لم يكن يوجد إطلاقا أي منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر

( ) ابن سعد ١٠ § . وقد يشك البعض ، وربما كانوا على حق ، في صحة هذه القصة ، ولكنها على أقل تقدير تدلنا على

إدراك السابقين للصفة التبشيرية في الإسلام .

الحديث . كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال . وينسحب هذا الاستقلال أيضا على أفراد القبيلة ، فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزا لفكرة عامة شامت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب ؛ بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته . وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس ، إذ كان يختار لها غالبا أكبر أفراد القبيلة سنا ، وأكثرهم مالا ، وأعظمهم نفوذا ، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي . وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعا كثيرة ، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل ، ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية ، اشتراكا في الدفاع عن القبيلة أو قياما بغارات بالغة الخطورة . ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف تمكن محمد من أن يجعل نفسه ، في المدينة ، على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو ، يتطلعون إليه زعماء وقائدا ، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه ، - دون إثارة أى شعور من القلق ، أو خوف من التحدى على السلطة المعترف بها ، كما كان ينتظر أن يحدث في مدينة إغريقية قديمة ، أو في أى مجتمع منظم يماثلها . وهكذا باشر محمد سلطة زمنية كالتى كان يمكن أن يباشرها أى زعيم آخر مستقل مع فارق واحد هو أن الرباط الدينى بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم .

وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام ولو من الوجهة النظرية على الأقل ، كما سن دائما - نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام ديني .

كانت رغبة محمد ترمى إلى تأسيس دين جديد . وقد نجح في هذه السبيل ، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاما سياسيا له صفة جديدة متميزة تميزا تاما . وكانت رغبته بادية الأمر مقصورة على توجيه بنى وطنه إلى الاعتقاد بوحداية الله . إلا أنه بجانب ذلك عمل على هدم نظام الحكومة القديم في مكة مسقط رأسه ، وأقام حكومة دينية مطلقة ، وقام هو على رأسها خليفة لله في الأرض بدلا من حكومة الأرستقراطية القبلية ، التى كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها .

وقبيل وفاة محمد نرى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا تدين له بالطاعة ، وإذا ببلاد العرب التى لم تخضع إطلاقا لأمير من قبل تظهر في وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق . ومن تلك القبائل المتنوعة ، صغيرها وكبيرها ، ذات العناصر المختلفة التى قد تبلغ المائة والتى لم تنقطع عن التنازع والتناحر ، خلقت رسالة محمد أمة واحدة . وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسى واحد ، ذلك النظام الذى سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب . وإن فكرة واحدة كبرى هى التى حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية . وهكذا كان النظام القبلى لأول مرة ، وإن لم يقض عليه نهائيا ( إذ كان ذلك مستحيلا ) ، شيئا ثانويا بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية . وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح ، فعند ما انتقل محمد إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة ، بصورة لم تسك القبائل العربية تعرفها من قبل ، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ النار . وكان

الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل إلى هذا الائتلاف (١) .

حتى عند وفاة المسلم نرى دعوى القرابة تطرح جانبا ، فيرث الأخ في الدين كل ما يملك صاحبه المتوفى ، ثم ألغى هذا النظام بعد غزوة بدر حين لم يعد هذا الرباط المصطنع ضروريا لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول ، وإنما كان مثل هذا النظام لازما حينما كان عدد المسلمين قليلا وكانت حياة التضامن الإسلامي ظاهرة جديدة . زد على ذلك أن محمدا كان قد قضى في المدينة فترة قصيرة جدا قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية في النظام الاجتماعي أمرا ليس من اليسير تحقيقه من الناحية العملية . ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجري مكة ، وتقيم في مدينة تضم لهم العدا ، إلا أن يؤدي هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين . وكما هو مشهور معروف فإن كل كتاب من كتب السيرة حافل بروايات تتعلق بسلسلة طويلة من المناوشات الصغيرة والمعارك الدامية ، التي قامت بين أتباعه وبين القرشيين من أهل مكة ، وانهت بدخوله المظفر في هذا البلد سنة ٦٣٠ م ، كما حفلت هذه الكتب بما كان بين الرسول وبين القبائل الأخرى من علاقات عداوية ظلت قائمة حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ٦٣٣ م ( ١١١ هـ )

وإن وصف هذه الغزوات لا يدخل في نطاق هذا الكتاب ، وإنما المهم أن نبين كيف أن محمدا عند ما رأى على رأسه جماعة مسالحة من أتباعه لم يتحول دفعة واحدة ، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد ، من داعية مسلم إلى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع (٢) .

وقد أكد الكتاب الأوربيون مرارا أن النبي سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك ، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذي أوحى إليه ، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصبا مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة سياسية في فرض نفسه وفرض آرائه .

على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمدا في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه ، أو أنه عند ما سيطر على جيش كبير ياتمر بأمره ، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين . فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم من أعضاء القبائل العربية المختلفة بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام . وسنجد في الصفحات التالية أمثلة من البعث الدينية التي أرسلها لتبليغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم ، تلك البعث التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجمهور التي بذلك كانت ذات

A. Von Kremer (3), pp. 309,310. (١)

(٢) ويظهر أن هذا الرأي قد صرح به بعض الباحثين ولاسيما الأستاذ ميور عند ما تحدث عن مذبة بن فريظة التي وقعت في

السنة السادسة للهجرة فقال : « إن الدائم التي سار عليها محمد عندما كانت سياسة عصاة إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة

إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه . » ( Muir (2), vol iii, p. 282 )

صبغة تبشيرية خالصة ، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة . ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات ، تلك البعثة التي أرسلت إلى بني عامر بن صعصعة في السنة الرابعة للهجرة . فقد زار أبو البراء عامر شيخ هذه القبيلة محمداً في المدينة ، واستمع إلى تعاليمه ، ولكنه لم يشأ أن يعتنق الإسلام . ومع ذلك أظهر شيئاً من العطف نحو هذا الدين الجديد ، وطلب إلى النبي أن يرسل بعض أتباعه إلى نجد لينشر تعاليم الدين بين أهالي هذه البلاد . فأرسل النبي جماعة تتألف من أربعين مسلماً معظمهم من شباب المدينة ، الذين حذقوا تلاوة القرآن واعتادوا أن يجتمعوا ليلاً للدرس وإقامة الصلاة ، ولكنهم قتلوا غدراً بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبو البراء عامر ، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم (١) .

ومع ذلك فقد كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفراداً من شتى القبائل ولا سيما من كان يقيم منهم في جوار المدينة لتزداد بهم صفوف أتباع النبي . وإن المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياتهم ، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم ، والسياسة التي أوحى إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين — كل ذلك جعل اسمه مألوفاً لديهم ، كما جعل صيته ذائعاً في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيدا عظيماً ورجلاً كريماً (٢) .

وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً في تحويل إخوانه إليه . وفي القصة التالية مثل من أمثلة ذلك التحويل إلى الإسلام ، وذلك في السنة الخامسة للهجرة :

بعث بنو سعد بن بكر واحداً منها يقال له ضمام بن ثعلبة رسولا إلى النبي ، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله . ودخل المسجد حيث كان النبي جالسا في أصحابه ، فأقبل حتى وقف عليهم وقال : « أيكم ابن عبد المطلب ، ؟ فقال النبي : « أنا ابن عبد المطلب ، قال : « وأحمد ؟ ، قال : « نعم ، قال : « إني سأنتك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجحدن في نفسك ، قال : « ولا أجد في نفسي فسل عما بدالك ، قال : « وأنتدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله بعثك إلينا رسولا ، قال محمد : « اللهم نعم ، قال : « فأنتدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله أمرك أن تأمرنا أن نعبدك وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ ، قال محمد : « اللهم نعم ، وبعد ذلك

(١) ابن إسحاق ص ٦٤٨ وما يليها .

(٢) إن اردباد ، Caetani, vol. i. p. 663. See also Muir (2), vol. iv. pp. 107-8. عدد المؤمنين

يجب أن يرمى إلى الانتصارات العسكرية أكثر من أن يرمى إلى تأييد دعوة النبي وجودة التعاليم الإسلامية . وقد أصبحت مرعة انتقاد الإسلام بنوع خاص شيئاً ملوساً بسبب ما أظهره النبي من هبة وما أبداه من روح التسامح والحرية وتحمين المناسبات في علاقته مع الذين تحولوا إلى الإسلام .

سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها ، عن الصلاة والصيام والحج الخ ، وهو يستحلفه مثل ما سبق . وأخيراً قال : . . . . . فإنني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص ، . ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه . فلما جمعهم كان أول ما قال لهم : « بئس اللات والعزى » ، قالوا : « مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجدام ، اتق الجنون » ، قال ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران . إن الله قد بعث رسولا وأزل عليه كتابا استنفذكم به مما كنتم فيه ، وإنني أشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . وقد جئتم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه . وما زال يقص عليهم حتى لم يأت المساء إلا وقد أسلم كل من في الحى رجالاً ونساء (١) .

وقد كان عمرو بن مرة أحد أفراد قبيلة بني جويئة التي كانت تقيم بين المدينة والبحر الأحمر مثلاً آخر لهؤلاء الدعاة ؛ فقد كان إسلامه قبل الهجرة من العام نفسه ( ٥ هـ ) . وقد وصف إسلامه بقوله : « كان لنا صنم وكنا نعظمه ، وكنت سادته ، فلما سمعت بالنبي كسرتة وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي ، فأسلت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء به من حلال وحرام ، فذلك حين أقول :

شهدت بأن الله حق وإنني	لآلهة الإحجار أول تارك
وشمرت عن ساقى الإزار مهاجراً	إليك ، أجوب الوعت بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً	رسول ملك الناس فوق الحياتك

فبعثه رسول الله إلى قومه يرغب في الإسلام ، فتكلت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذي استعصى على الترغيب (٢) .

ولما جعل صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة الصلوات الودية مع أهل مكة أمراً يمكننا ، خرج إلى المدينة لاعتناق الإسلام كثيرون من أصحاب هذا البلد الذين كانوا قد أتيتهم لهم فرصة الاستماع لدعوة محمد في مستهل بعثته . ومن هؤلاء رجال من ذوى النفوذ والسلطان .

وكانت الحروب المتصلة التي شنها الرسول على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التي كانت تقيم جنوبي هذه المدينة بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن سلطان الدين الجديد ، ولكن هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً في ذلك الحين . فجاء وفد صغير من قبيلة بني دوس من تلك الجبال التي تتاخم بلاد اليمن الشمالية وانضموا إلى النبي في المدينة . وتجدد قبل ظهور محمد بقليل جماعة من هذه القبيلة مزودين ببلحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم ، وكانوا يرون أن

(١) ابن اسحاق ص ٩٤٣ - ٩٤٤ . وتعتمد هذه القصة على بعض مصادر متفكوك في صحتها ، انظر

Caetani, vol. i. p. 610

(٢) ابن سعد ١١٨ §

هذا العالم لا بد له من خالق ، ولو أنهم لم يهتدوا إليه . فلما بعث محمد رسولا من قبل هذا الخالق ، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمرو ، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق .

وبالرغم من أن قريشاً حذرت ما قد يتركه محمد في نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه ، فقد تبع النبي إلى بيته بعد أن رآه يصلي في الكعبة ، فشرح له النبي تعاليم الإسلام ، وقد أصبحت نفس طفيل تفيض تحمساً لهذا الدين الجديد . فلما رجع إلى بلده أفلح في هدى أبيه وزوجه ، ولكنه وجد قومه غير راغبين في ترك عبادتهم الوثنية القديمة . فعاد النبي وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق في دعوته ، وطلب إليه أن يستنزل لعنة الله على بني دوس ، ولكن النبي شجعه على المثابرة بقوله : « ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » . وفي الوقت نفسه دعا لهم النبي بقوله : « اللهم اهد دوساً » . وقد بلغ من نجاح طفيل في بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة في السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه . وبعد أن دخل النبي مكة دخول الظافر أشعل طفيل النار في كتلة من الخشب ، وهي الصنم الذي كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التمجيل والتعظيم حتى ذلك الحين (١) .

وفي السنة السابعة للهجرة دخل خمس عشرة قبيلة أخرى في طاعة النبي ، ثم تمت الغلبة للإسلام بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وبادر إلى مبايعته على هذا الدين الجديد هؤلاء العرب الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون : « دعوا محمداً يقاتل قومه فإن نجح فهو نبي حقاً » (٢) . ومن هؤلاء الذين وفدوا على النبي بعد فتح مكة طائفة كانوا من أشد الناس اضطهاداً للنبي في الأيام الأولى من بعثته ، ولكنه برأهم بصبره الجميل وعفوه الكريم مكاناً من الأخوة الإسلامية . وشهدت السنة التالية استشهاد عروة بن مسعود أحد زعماء أهل الطائف ، تلك المدينة التي حاول المسلمون أن يستولوا عليها دون جدوى . فقد كان عروة في ذلك الحين غائباً باليمن ، ثم رجع من رحلته بعد الحصار بقليل . وكان قد قابل النبي في الحديبية قبل ذلك بعامين وبالغ في تعظيمه ، والآن يفد على المدينة ليعتق الدين الجديد ، وقد تطوع بدافع حماسته الملتهبة للذهاب إلى الطائف لتحويل عشيرته إلى الإسلام . وعلى الرغم مما بذله النبي من جهود في نفيه عن هذه المهمة الخطيرة ، رجع إلى بلده ، وأعلن نية عبادة الأصنام ، ثم دعا الناس إلى الاقتداء به . وبينما كان يقوم بنشر دعوته إذا بسهم يصيب منه مقتلاً ، فمات وهو يحمد الله على أن وهب له شرف الاستشهاد . وبعد سنة تقريباً قام صحابي آخر بنشر الدعوة في اليمن ، وكان أكثر توفيقاً في هذه السبيل . وفيما يلي وصف دقيق عن هذه الدعوة : « كتب رسول الله إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير : « سلم أتم ما آمنتم بالله ورسوله ، وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته . وقالت اليهود

(١) ابن اسحاق ص ٢٥٢ - ٢٥٤

(٢) Caetani, vol. ii. t.i. p. 341

وعزير ابن الله ، وقالت النصارى والله ثالث ثلاثة ، عيسى ابن الله ، . (قال) : وبعت بالكتاب مع عياش ابن ربيعة المخزومي ، وقال : وإذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلا حتى تصبح ، ثم تطهر فأحسن طهورك وصل ركعتين ، وسل الله النجاح والقبول واستعد بالله وخذ كتابي يمينك ، وادفعه يمينك في أيمنهم فإنهم قابلون واقرأ عليهم : ولم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ، الخ . (سورة ٩٨) . فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلا دحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره . وهم قارئون عليك فإذا رطنوا فقل ، ترجموا ، وقل ، حسبي الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير . وإذا أسلوا فسلمهم قُضضهم الثلاثة التي إذا حضروا بها سجدوا وهي من الأئمة ، قضيب ملبع بياض وصفرة ، وقضيب ذو عَجَر كأنه خيزران ، والأسود البهيم كأنه من ساسم ثم أخرجها فحسرها بسوقهم . قال عياش ، وخرجت أفعل ما أمرني رسول الله حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم . قال فررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة ، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط ، فانهيت إلى قوم في قاعة الدار فقلت : أنا رسول رسول الله ، وفعلت ما أمرني فقبلوا وكان كما قال النبي ﷺ (١) .

وفي السنة التاسعة للهجرة وفد على النبي ثلاثة عشر رجلا من بني كلاب ، وهم فرع من بني عامر بن صعصعة ، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنة الرسول ، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد (١) . كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهم بنو رؤاس بن كلاب على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك ، وكان في المدينة ، واعتنق الإسلام ثم عاد بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء به . (٢)

وفي هذه السنة نفسها قام رجل حديث العهد بالإسلام وهو وائلة بن الأسقع بمحاولة لم تصادف نجاحا كبيرا ؛ إذ أخذ يرغب قومه في الإسلام ، وكان قد اعتنقه بعد أن لقي النبي مرة ، وكان قد طرده أبوه في احتقار وازدراء . وقال له : والله لا أكله كلمة أبدا ، ولم يجد راغبا فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته التي جهزت للرجوع إلى النبي بالمدينة (٣) . وكانت تسمى هذه السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود لأن عددا كبيرا من القبائل العربية وأهالي المدن أرسلوا إلى النبي وفادات تعلن خضوعها وتسليمها . وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الأخوة الإسلامية في المجتمع العربي قد بدأ منذ حين في إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة ، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم . وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية ، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت إلى تفكيك النظام القبلي وتركه ضعيفا أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية

(١) ابن سعد 85 §

(٢) نفس المرجع 86 §

(٣) نفس المرجع 91 §

التماسك، كنتلك الحياة التي صار إليها المسلمون . وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تدعن للنبي ، لا مجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب ، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفاً عديم التأثير<sup>(١)</sup> . وكان محمد قد أفلح في أن يدخل في مجتمع عصره الذي كان مليئاً بالفوضى وسوء النظام شعوراً بالوحدة القومية وإدراكاً للحقوق والواجبات ، كل نحو الآخر ، على نحو لم يعرفه العرب من قبل<sup>(٢)</sup> . وبهذه الطريقة كان الإسلام يوحد بين عشائر كانت حتى ذلك الحين في نزاع مستمر بعضها مع بعض . وبينما كان هذا الاتحاد العظيم ينمو ويتردد ، زاه في الوقت نفسه يجتذب المستضعفين من قبائل العرب شيئاً فشيئاً . وكثيراً ما نجد في الفصص التي وردت عن إسلام القبائل العربية ذكر ما كان يعدم به النبي من حمايته إياهم من أعدائهم ، تلك الوعود التي كانت تبذل لهم في حالة تسليمهم لدعوته . وقد عبر أحد أفراد القبائل العربية عن حزنه عند ما بلغه خبر وفاة النبي بقوله : وأسفاً على محمد ، لقد عشت في سلام وأمن من أعدائي ما كان حياً .

ولا بد أن تكون هذه الصيحة قد وجدت صدى بعيداً في كافة أرجاء الجزيرة العربية . وربما كان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشاراً واسعاً بعد وفاة الرسول مباشرة دليلاً على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للإسلام . والظاهر أن قبولهم للإسلام كان في أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف ، أكثر منه وليد حماسة وبقظة روحية . فقد سمحوا لأنفسهم أن ينحرفوا في هذا التيار الذي كان قد أصبح في ذلك الحين حركة قومية عظيمة . وهنا لا نلبس في هؤلاء الذين أسلموا بعد فتح مكة تلك الحماسة الدافقة التي كنا نجد لها لدى السابقين إلى الإسلام . إلا أنه ظهر حتى من بين هؤلاء كثيرون زادوا في صفوف المؤمنين الخالص مدفوعين بحماسة حقيقية في إعلاء شأن الدين ، ومستعدين ، كما رأينا ، لبذل نفوسهم في سبيل بث الدعوة بين إخوانهم .

كان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين ، ورسول الإسلام فيما بعد ، والأوصياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على محمد . لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولاتهم له لون جديد من الوجدان والتفكير ، هو في الواقع أسى وأرقى مما ألفوه من قبل ، إنهم انتقلوا في الحقيقة إلى حالة أحسن مما كانوا عليها من جميع الوجوه . وفي أخرج أوقات الغزوات التي وقعت فيما بعد ، قدم الساسة والقادة منهم دليلاً راعياً لا سبيل إلى إنكاره . على أن أفكار محمد وتعاليمه كانت قد ألقت بزورها في تربة خصيبة ، فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً ؛ فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة ، وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب ، وهم الحراس المنحوسون لحفظ كل ما روى عن النبي من كلام ووصايا ، والأمناء على تراث محمد الأدبي . ولقد تألفت من هؤلاء الرجال جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوماً

(١) انظر Sprenger, vol. iii. pp. 360-361

(٢) Caetani, vol. ii. p. 433.

طبقة الأجلة. من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي<sup>(١)</sup>.

وكان طبيعياً أن نرى حركة واسعة كهذه الحركة لا تستطيع أن تولف بين هؤلاء الناس جميعاً. وقليل جدا الذين سلخوا من الصدمة التي منيت بها هذه الحركة بوفاة النبي، إذ لا يعزب عن البال كيف ظهر جلياً أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تاماً<sup>(٢)</sup>. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية لحسب، وإنما كان انقلاباً كاملاً مثل الحياة التي كانت من قبل.

وهنا الدليل القاطع على ما تتسم به تعاليم محمد من صفة تبشيرية أساسية، ذلك النبي الذي أصبح بذلك رمزاً لأسلوب جديد. فمن المحقق أن محمداً لم يجد المجتمع في عصره مهياً لقبول دعوة معلم جديد، فضلاً عن دعوة من يأتيهم بلقب رسول الله (الذي لم يكن مفهوماً لديهم).

وكذلك كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام وما ساد بينهم جميعاً من أخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربي ونجمي أو بين حر وعبد ممن اعتنقوا الإسلام، ففكرة عارضت في الصميم نكرة الشعور القبلي عند العربي الذي بنى احترامه الشخصي على شهرة أجداده، ومضى اقتداء بهم في إثارة النزاع الدموي الدائم الذي كان يلتمس فيه اللذة والسرور. والواقع أن المبادئ الأساسية في دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر إليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين، كما أنها كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار.

وكانت الصداقة والعداوة في نظر العربي الجاهلي ديناً يحدد في أدائه عن رغبة، وكان يتباهى برد الشر بالشر، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظراً إلى كل نذل ضعيف.

ولقد خاطب النبي أمثال هؤلاء بقوله<sup>الله تعالى</sup>: «أدفع بالتي هي أحسن السيئة» (سورة ٢٣ آية ٩٨)، فإذا أحببوا أن يغفر الله لهم فليعفوا وليصبروا (سورة ٢٤ آية ٢٢) وأعدت للكافرين العذاب العنيف والعاقبة السيئة (سورة ٣ آية ١٢٨).

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية بين هؤلاء العرب الذين وجه إليهم محمد رسالته أول الأمر. وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق، الشيء الذي كان يغرسه الإسلام في النفوس كما كانت اليهودية والمسيحية، إلا أنه لم يكن في الواقع معروفاً لدى الوثنيين من العرب، فإن ما اتصفوا به من هذا الاعتماد على النفس، وذلك النقص في الروح الدينية، فضلاً عن مباحاتهم البالغة

(١) Caetani, vol. ii. p. 429.

(٢) وليس هناك بحث لهذه المسألة أكثر شمولاً وأعظم قيمة مما كتبه الأستاذ إجناس جولدمير في مؤلفه العلى النفس

(Muhammedanische Studien, vol. i.) وقد استعينا له ما سنذكره من معلومات.

يقول الله تعالى:

بالجنس ، لم يجعلهم مهينين تمام التهوؤ لتلقى تعاليم الرجل الذي غاطبهم قائلًا : **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ** ، :  
(سورة ٤٩ آية ١٣)

ولم يعد هؤلاء يحتلمون هذه القيود التي جسد الإسلام في فرضها على حريتهم في الحياة ، فالنمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العربي في الجاهلية ، وكان النبي صارما شديدا في نواحيه الخاصة بكل منها .

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه وحشهم على الدخول في زمرة المؤمنين . وكما كانت الحال في مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم ؛ وهذا هو الغرض الذي قصدنا إلى توضيحه في الصفحات التالية .



## الباب الثالث

### انتشار الاسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية

بعد وفاة محمد أرسل أبو بكر الجيش الذي كان النبي قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام ، على الرغم من معارضة بعض المسلمين ، بسبب الحالة المضطربة في بلاد العرب إذ ذاك . فأسكت احتجاجاتهم بقوله : ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ، ولو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ، . وكانت هذه هي أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التي اجتاحت العرب فيها سورية وفارس وإفريقية الشمالية ، فقوضوا دولة فارس القديمة وجردوا الإمبراطورية الرومانية من أجل ولاياتها . ولا يدخل في نطاق هذا الكتاب أن نتبع تاريخ هذه الحملات المختلفة ، بل يحدربنا ، فيما يتعلق بانتشار العقيدة الإسلامية التي تبعت الفتوحات العربية ، أن نكشف عن هذه الظروف التي جعلت مثل هذا التوسع أمرا ممكنا .

وقد أجاد مؤرخ كبير ، عرض المشكلة التي تواجهنا هنا في الكلمات الآتية : هل كانت الحماسة الدينية الخالصة ، تلك القوة الجديدة لعقيدة كانت إذ ذاك ولأول مرة آخذة في الازدهار ، صافية تمام الصفاء ، هي التي أمدت جيوش العرب بالنصر في كل موقعة من المواقع وأقامت في مثل هذا الزمن القصير أعظم إمبراطورية شهدها العالم ؟ لكن الدليل يعوزنا لنثبت أن الحالة كانت كذلك . إذ كان عدد هؤلاء الذين تابعوا النبي ، وقبلوا تعاليمه عن حرية واقتناع صادق ضئيلا جدا ، على حين نجد من ناحية أخرى أن الأثرية كانت تتألف من هؤلاء الذين لم ينصروا تحت لواء المسلمين . إلا عن طريق الضغط عليهم أو طمعا في نفع دنيوي . وقد عبر خالد ، وهو سيف من سيوف الله ، في أسلوب جد مؤثر عن هذا المزيج من القوة والإقناع ، الذي أسلم عن طريقه هو وكثير من قريش حين قال : إن الله أخذهم من قلوبهم ونواصيهم ، وأرادهم على أن يتبعوا النبي . وكذلك كان لشعورهم بالاعتزاز بقومية مشتركة أثر كبير - وكان ذلك الشعور أشد حيوية بين العرب في ذلك الوقت منه بين أي شعب آخر ، وقد حمل هذا الشعور وحده آلافا مؤلفة ، على أن يؤثروا مواطنهم ودينه على غيره من الغرباء الداعين إلى أديان أخرى .

وكان أقوى من ذلك جذبا لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الجديد ، ثم أملهم في أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التي لم تنح لهم إلا حياة تقوم على البؤس ، بتلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهي فارس والشام ومصر . ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة

التي وضعت أساس الإمبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت في سبيل نشر الإسلام ، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية ، حتى لقد ظن دائماً أن هذا الارتداد كان الغرض الذي يهدف إليه العرب . ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية ، وفي ضياء النصر الذي عزي إليه حجبت مظاهر النشاط الحقيقي للدعوة . ولكن الروح التي دفعت جهافل العرب الغازية ، تلك الجحافل التي تدفقت على حدود دولتي الروم والفرس ، لم تكن روح تحمس وغيره ترمى إلى تلقين الدعوة ابتغاء تحويل الناس إلى الإسلام ، بل كان الأمر على العكس من ذلك ، فإن البراعث الدينية ، كما يظهر ، لم تكن قد تسربت إلا قليلاً في نفوس أبطال الجيوش العربية<sup>(١)</sup> . ويعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقدير ، هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحربان ، إلى أن تهجر صحاريها المجردة ، وتحتاج بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجزيران أسعد منهم حظاً<sup>(٢)</sup> .

وقد ظلت الحكومة الدينية القائمة في المدينة ومن بعدها الدولة الجديدة التي أنشأها صحابة النبي الأصفياء وأمناء دعوتهم الأوفياء . هؤلاء الذين استطاعوا بفضل غيرتهم وخلقهم القوي أن يحفظوا الإسلام حياً كدين رسمي ، بالرغم من فتور أولئك العرب الذين لم يكن إسلامهم إلا إسلاماً اسمياً<sup>(٣)</sup> . ومن أجل هذا يجب أن لا نتلس الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية في أخبار الجيوش الفاتحة ، بل الأجدر أن نفقش عن ذلك في الظروف التي كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها .

وقد كان الطابع القومي لهذا التوسع الجنسي يجذب بطبيعة الحال إلى جيوش الغزوات العربية ممثلي العنصر العربي الذين كانوا يقيمون في أطراف الجزيرة ، والذين كانت جيوش الفتح تتخذ في بلادهم ممراً تنفذ منه إلى البلاد التي يريدون غزوها . ومن ثم لم يكن غريباً أن نجد كثيراً من البدو والمسيحيين ينجرفون في التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة ، وأن نجد كثيراً من القبائل العربية التي دانت بالمسيحية قروناً قد نبذتها في ذلك الوقت لتدين بالإسلام . وكان من بين هؤلاء قبيلة بني غسان الذين بسطوا نفوذهم على الصحراء الممتدة شرقي فلسطين وجنوبي سورية ، والذين كان يقال عنهم إنهم «أرباب الجاهلية نجوم في الإسلام»<sup>(٤)</sup> . وبعد موقعة القادسية (سنة ١٤ هـ) التي انهزم فيها الجيش الفارسي بقيادة رستم هزيمة منكرة ، وفد على قائد المسلمين كثير من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التي كانت

(١) Caetani, Studi di Storia Orientale, I, p. 365 sqq. (Milano, 1911)

(٢) وقد أجاد كيتاني إعادة فائفة في تفسير هذه العتحات العربية على أنها آخر هجرة من الهجرات السامية . ج ٢ ص ٨٣١-٨٦١

(٣) تسكونت في المدينة جماعة Caetani, vol. ii, p. 455; vol. v, p. 511 دينية لا يستهان بها تتألف من

عناصر مختلفة . ولكن السواد الأعظم منها كان من أهل المدينة الذين اعتنقوا الإسلام عن يقين وإخلاص فأخذوا يحافظون على التعاليم الجديدة اعتقاداً منهم بأنهم بذلك يرضون منازمهم ويحرمون إرادة النبي .

(٤) المسعودي ج ٤ ص ٢٣٨

تقيم على ضفاف نهر الفرات ، وقالوا إن القبائل الذين سبقوا إلى الإسلام ، كانوا أصوب منا رأيا ، واليوم وقد قتل رستم فندخل في الدين (١) .

وشبهه بهذا ، أنه بعد فتح شمال الشام انضمت معظم القبائل البدوية بعد شيء من التردد إلى أتباع النبي (٢) .

ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملا حاسما في تحويل الناس إلى الإسلام . فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أناح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم (٣) في أمن وطمأنينة وقد وحده حالف كذا بين أتباع النبي وبين مواطنهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم ، والذين تقدم كثير منهم عن طواعية لمؤازرة المسلمين في حملاتهم الحربية ، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التي جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التي رفعت لبواء العصيان في كافة أرجاء بلاد العرب على أثر وفاة النبي (٤) . وقد زعم بعض الباحثين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية الواقعة على أطراف الصحراء ، ألقوا بمجموعهم مع جيش الفتح الإسلامي حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعود إعطاءها لإياهم مقابل خدماتهم الحربية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراسا للحدود (٥) .

وفي موقعة الجسر ( سنة ١٣ هـ ) حين أوشكت الهزيمة المشكرة أن تحل بالعرب الذين أخذ الفرع منهم كل مأخذ ، وقد حصروا بين الفرات والجيش الفارسي ، إذا بزعم مسيحي من بني طيء ، ينضم إلى المثني القائد المسلم كما انضم سبوروس لارتوريوس Spurius Lartius إلى جانب هوراتيوس Horatius من قبل ليساعد في الدفاع عن الجسر الذي كان يتألف من القوارب ، والذي استطاعوا عن طريقه وحده أن يرتدوا ارتدادا منظما . وحينما جمعت جموع جديدة لترد عار هذه الهزيمة ، كان من بين الإمدادات التي تدفقت من كل فجج قبيلة بني النمر النصرانية التي كانت تقيم داخل أراضي الدولة البيزنطية . وفي موقعة بويب التي تلتها سنة ١٣ هـ وقبيل هجوم العرب الأخير الذي حول مصير المعركة إلى جانبهم ، استوى المثني على فرسه وتوجه إلى القائد المسيحي وقال له : إنك امرؤ عربي فإذا حملت فاحمل معي ، فارتد الفرس أمام هجومهم المروع وأضيف بذلك نصر كبير إلى سلسلة الانتصارات الإسلامية الرائعة . وفي ذلك اليوم قام بأعظم الأعمال بسالة غلام من قبيلة نصرانية أخرى من قبائل البدو ، وكان قد جاء مع أصحابه ، وهم جماعة من فرسان البدو في الوقت

Muir's Caliphate, pp. 121-122. (١)

Caetani, vol. ii. pp. 260, 299, 351 (٢)

Id. pp. 792-3 ; vol. iii : p. 253 (§ 8) (٣)

Id. pp. 111-15 (٤)

Caetani, vol. iii. p. 814 (§ 323) (٥)

الذي كان الجيش العربي يتهاى للقتال . فآلقوا بأنفسهم في المعركة في جانب قومهم ، وبينما الصراع يزداد عنفا إذا بهذا الغلام يتدفع إلى قلب الفرس ، ويقتل قائدهم ، ثم يستوى على فرسه المطهمة ويرجع بها ركضاً وسط إعجاب صفوف المسلمين صائحاً في انتصار وهو يرميهم : « أنا الغلام التغلبي ، أنا قتلت المرزبان » (١) . وكانت القبيلة التي افتخر هذا الشاب بانتمائه إليها إحدى القبائل التي آثرت أن تظل على المسيحية ، بينما أسلمت قبائل أخرى من تلك التي كانت تسكن بلاد ما بين النهرين مثل بني النمر وبني قضاة . وقد بادرت بنو تغلب فأرسلت وفداً إلى النبي في سنة ٥ هـ . واعتنق أفراد هذا الوفد الذين كانوا يدينون بالوثنية الدين الإسلامي ، وعقد النبي مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم القديم ، ولكن هذه المعاهدة لم تسمح لهم بتعميد أبنائهم . وإن مثل هذا الشرط الذي يختلف تمام الاختلاف عن سياسة التسامح التي تعود النبي أن يسير عليها إزاء العرب المسيحيين الذين سمح لهم بأن يختاروا بين الإسلام ودفع الجزية ولم يرغبوا قط على ترك دينهم ، قد بعث على الظن بأن الأسر المسيحية من بني تغلب هي التي اقترحت هذا الشرط من تلقاء نفسها بدوافع اقتصادية (٢) . وبدل بقاء المسيحية طويلاً في هذه القبيلة على أن هذا الشرط لم يكن معمولاً به في حقيقة الأمر . وقد حرم الخليفة عمر استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليهم عند ما أظهروا أنهم لا يرغبون في ترك دينهم القديم ، وأمر بترك الحرية لهم في إقامة شعائرهم الدينية ، على ألا يقفوا في سبيل أي فرد من أفراد قبيلتهم يرغب في التحول إلى الإسلام أو يعمدوا وليداً من أسلم آبائهم (٣) . وقد طلب إلى بني تغلب أن يدفعوا الجزية (٤) أو الضريبة المفروضة على الرعايا من غير المسلمين ، ولكنهم شعروا أن من الإذلال لكبريائهم والخط من كرامتهم أن يدفعوا ضريبة فرضت عليهم مقابل حمايتهم وحماية أموالهم ، فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يعاملوا معاملة المسلمين في دفع الضرائب . لذلك نراهم يؤدون في مقابل الجزية صدقة أو زكاة (٥) مضاعفة - وهي ضريبة كانت تجبي من المسلمين على أراضيهم وماشيئهم وما إلى ذلك ، لتنفق على الفقراء (٦) . وقد ضايق المسلمين وحز في نفوسهم

(١) Muir : Caliphate, pp. 90-4

(٢) Caetani, vol. ii, p. 299. Wellhausen, iv, p. 156 (N. 5)

(٣) الطبري ج ١ ص ٢٤٨٢

(٤) ولدراسة الجزية دراسة مستفيضة مبنية على ترتيب فذ واختيار دقيق لكل المواد التاريخية التي أمكنه الحصول عليها ، راجع كيتاني ج ٥ ص ٣١٩ وما يليها . ولدراسة مصر في خلال القرن الأول من الحكم الإسلامي فليراجع ما ذكره بل Bell ص ١٦٧ وما يليها . وركز Becker في كتابه Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, p. 81 sqq. (٥) يعتقد كيتاني (ج ٤ ص ٢٢٧) أن هذه القصة من اختراع عصر متأخر ، وضعت لتفسير استثناء هذه القبيلة المسيحية في معاملتها معاملة المسلمين من الناحية المالية .

(٦) وقد نصح لا مانس الاشارات القليلة البسيطة التي تتعلق بهذه القبيلة من كتب مؤرخي العرب وذلك في كتابه (Le Chantredes Omie des (J. A. ix. sér., tome iv, pp. 97-9, 438-59.) وراجع أيضاً كيتاني ج ٤ ص ٢٢٧ وما بعدها .

بوجه خاص أن يروا أي فرد من العرب يسمح له بأن يظل مخلصاً للمسيحية . وقد أسلم السواد الأعظم من بني تنوخ في السنة الثانية عشرة للهجرة عندما أذعنوا لخالد بن الوليد (١) مع غيرهم من قبائل العرب المسيحية ، ولكنه يظهر أن بعضهم ظل على عقيدته القديمة قرابة قرن ونصف قرن حيث قيل إن الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ) رأى نفرأ منهم يقيمون بظاهر حلب ، فلما علم أنهم من المسيحيين أمرهم ، وهو في سورة من الغضب ، أن يعتنقوا الإسلام فأجابوا ، وكان عددهم خمسة آلاف شخص ، وآثر أحدهم الاستشهاد على الارتداد عن دينه (٢) . أما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل ؛ والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم ؛ ولو أن المسلمين حاولوا إدغالهم في الإسلام بالقوة عند ما انضوا بآدمي الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين (٣)

كذلك قاوم أهل الحيرة كل الجهود التي قام بها خالد لحملهم على قبول العقيدة الإسلامية . وكانت هذه المدينة من أشهر المدن في تاريخ بلاد العرب ، فبدا لبطل الإسلام المغوار أن الإهابة بدمهم العربي كافية لإغرائهم بأن ينتظموا في أتباع نبي الجزيرة العربية . ولما أرسل أهل هذه المدينة المحاصرون سفراءهم إلى قائم المسلمين للنظر في شروط تسليم مدينتهم ، سألهم خالد : « ما أنتم ، أعرب ؟ فأتقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فأتقمون من الإنصاف والعدل ؟ » فقال له عدى ، وقد فوض إليه الوفد أن يتحدث بلسانهم : « بل عرب عاربة وأخرى متعربة » . قال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا » . قال عدى : « ليدللك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية » . قال له خالد : « صدقت . اختاروا واحدة من ثلاث : (١) أن تدخلوا في ديننا فلنمنا وعلينا إن نهضتم وهاجرتم ، وإن أقمتم في دياركم ؛ (٢) أو الجزية ؛ (٣) أو المنابذة والمناجزة . فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة . فقال عدى : « بل نعطيك الجزية » . قال خالد : « تباً لكم ! وبحكم ! إن الكفر فلاة مضلة ، فأحق العرب من سلكها ، فليقه ديلان ، أحدهما عربي فتركه واستذل الأعمى » (٤)

وقد أمد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بما ينبغي أن يمدهم به من علماء بلقونهم مبادئ الدين ، لأنه لما كانت القبائل بأجمعها تدخل في الإسلام بمثل هذه السرعة كان من الضروري أن يأخذوا الحيلة اتقاء ما يحدث من أخطاء سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية ، وكان من الطبيعي أن تكون

(١) كيتاني ٢٣ ص ١١٨٠

(٢) ابن البري (٣) ص ١٣٤ - ١٣٥

(٣) Caetani, vol. ii, p. 828.

(٤) الطبري ١٣ ص ٢٠٤١

هذه الأخطاء مصدر خوف إذا ما ترك هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام لا يعرفون تعاليم هذا الدين معرفة صحيحة. ومن ثم نرى الخليفة عمر يعين في كل بلد معلمين مهنتهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين. وكذلك أمر العمال أن يستيقنوا من أن جميع المسلمين صغاراً وكباراً يواظبون على حضور صلاة الجماعة لاسيما في أيام الجمع وفي شهر رمضان. ونستطيع أن نحكم على ما كان لتفقيه من دخلوا في الإسلام حديثاً من أهمية من أن هؤلاء الذين عهد إليهم بهذا العمل في مدينة الكوفة كانت شخصيتهم لا تقل عن شخصية من عهد إليهم بالولاية على بيت المال<sup>(١)</sup>.

ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة<sup>(٢)</sup>. وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح؛ يقول لا يارد Layard إنه صادف نجماً من العرب المسيحيين في مدينة الكرك، شرقي البحر الميت، لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما، سواء في الزي أو في العادات<sup>(٣)</sup>. وقد أخبر رهبان طور سيناء برّ كارث Burckhardt أنه كان لا يزال هناك في القرن الماضي بعض أسر من البدو المسيحيين الذين لم يدخلوا في الإسلام وأن آخرهم كانت امرأة عجوزاً ماتت سنة ١٧٥٠، ودفنت بحديقة الدير<sup>(٤)</sup>.

ولا يزال كثيرون من قبيلة بني غسان الشهيرة يدخلون في الديانة المسيحية، وهم من أشد القبائل أصالة في العروبة، دخلوا في المسيحية حول نهاية القرن الرابع الميلادي، ولا يزالون متمسكين بالدين المسيحي، ومنذ خضوعهم لكنيسة رومة منذ قرنين تقريباً، وهم يستخدمون اللغة العربية في طقوسهم الدينية<sup>(٥)</sup>. وإذا ما تركنا الكلام على البدو لننظر في موقف الأهالي الذين استقروا في المدن وموقف المجتمع غير العربي من الدين الجديد، وجدنا أن الفتح العربي لم يعقبه مثل هذا التحول السريع إلى الإسلام. ويظهر أن نصارى المدن الكبرى في الولايات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية قد ظل أكثرهم على ولائهم لعقيدة آبائهم وأجدادهم التي لا تزال جموع ضخمة منهم تتعلق بأهدابها.

(١) السعدي ج ٤ ص ٢٥٦

(٢) لم يضطهد العرب أحداً في السنوات الأولى من أجل لدين كما أنهم لم يعملوا على حتم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون في ظل الإسلام، بعد الفتح الأول، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة... (انظر Caetani, vol. v, p. 4)

(٣) Sir Henry Layard: Early Adventures in Persia, Susiana and Babylonia, vol. i, p. 100. (London, 1887); R. Hartmann: Die Herrschaft von al-Karak. (Der Islam, vol. ii p. 137.)

(٤) Burckhardt (2), p. 564

(٥) W. G. Pa'grave: Essays on Eastern Questions, pp. 206-8 (London, 1872.)

ولكى نستطيع أن نقدر حالة هؤلاء البدو الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي نقديراً كاملاً ونقف على قيمة المؤثرات التي أدت إلى تحول الناس إلى الإسلام من حين إلى حين ، يحسن بنا أن نجتزئ بالإشارة إلى حالتهم في ظل الحكم المسيحي في عهد الدولة البيزنطية التي ولت الأدبار أمام السيوف العربية .

ولقد أفلح جستنيان Justinian قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهراً من مظاهر الوحدة ، ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته ، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك يربط بين الولايات وحاضرة الدولة . أما هرقل فقد بذل جهوداً لم تصادف نجاحاً كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية ، ولكن ما اتخذته من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه . ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية ، فحاول بتفسيره العقيدة تفسيراً يستعين به على تهدئة النفوس ، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات ، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية ، وبينهم وبين الحكومة المركزية . وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة ٤٥١ م ، وأن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين ، لا اختلاط بينهما ولا تغير ، ولا تجزؤ ، ولا انفصال ؛ ولا يمكن أن يتبنى اختلافهما بسبب اتحادهما ، بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها ، وتجتمع في أقنوم واحد وجسد واحد ، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين ، بل متجمعة في أقنوم واحد ، هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة . وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع ، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة ، وقالوا إنه مركب الأقانيم ، له كل الصفات الإلهية والبشرية ، ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية ، بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم . وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية ، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة Monothelism : ففي الوقت الذي نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية ، وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد ؛ فالمسيح الواحد الذي هو ابن الله يحقق الجانب الإنساني والجانب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة ؛ ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة (١) .

لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جداً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام . ذلك أن الجدل لم يخدم مرة أخرى كأغف ما يكون الاحتدام لحسب ، بل إن هرقل نفسه قد وُصم بالإلحاد وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء .

I. A. Dorner : A System of Christian Doctrine, vol. iii, pp. 215-16. (١)  
(London, 1885). J. C. Robertson : History of the Christian Church, vol. ii.  
p. 226. (London, 1875).

والواقع أن الشعور الذي أثاره هذا الإمبراطور قد بلغ من المراتة مبلغاً يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون في البلاد المفتوحة في عهد هذا الإمبراطور هم الذين رحبوا بالعرب ، وقد نظروا إلى الإمبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجاً على الدين ، وكانوا يخشون أن يأخذ في اضطهادهم وإزغامهم على القول بوحدة مشيئة المسيح<sup>(١)</sup> . ومن أجل هذا استقبلوا بالرضى - بل بالحماسة - هؤلاء السادة الجدد الذين وعدوهم بالتساح الديني ، وأظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم الديني واستقلالهم القومي لو أنهم استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من الخطر العاجل الذي كان يهدق بهم .

وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية اليعقوبية أن يجهد فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ما قرره إخوانه في الدين ، وأن يرى لإصبع الله في الفتوح العريضة ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون . وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : « وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت ، والذي يدل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضيع — لما رأى شرور الروم الذين لجسأوا إلى القوة فتهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفي الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها ( وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران ) . ومع ذلك فلم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام<sup>(٢)</sup> . »

ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن ، وعسكر أبو عبيدة في لخل ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب ، يقولون : « يامعشر المسلمين ، أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا<sup>(٣)</sup> . »

(١) ومن الممكن أن يحكم على أن مثل هذه المخاوف لم يكن لها أساس على الإطلاق مما أظهره الإمبراطور من تصرفات تطوى على التعصب إزاء كثير من أفراد الطائفة اليعقوبية ، وذلك في أثناء تقدمه في بلاد الشام بعد أن أحل المذبحة بالقبرس سنة ٦٢٧ م . انظر (Caetani, vol. ii., p. 1049. Michael the Elder, vol. ii, p. 412, Michael the Elder vol. ii, p. 443. المجنود البيزنطيون من القفطانغ ضد إخوانهم في الدين في عهد كونستانس الثاني قراجع .

(٢) Michael the Elder, vol. ii, pp. 412-13.

وكتب ابن العبري بعد ذلك بحوالى قرن بنفس هذه اللغة وذلك في كتابه (Chronicon Ecclesiasticum, ed. J. B. Abbeloos et Lamy, p. 474.)

(٣) الأزدي ص ٩٧ .

وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم (١) .

وهكذا كانت حالة الشعور في بلاد الشام إبان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣ ، ٦٣٩ م والتي طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجياً . ولما ضربت دمشق المثل في عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧ ، وأمنت بذلك السلب والنهب ، كما ضمنت شروطاً أخرى ملائمة ، لم تتوان سائر مدن الشام في أن تنسج على منوالها . فأبرمت حمص ومنبج (Hieropolis) وبعض المدن الأخرى معاهدات قد أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب ؛ بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة . وإن خوف الروم من أن يكرههم الإمبراطور الخارج على الدين على اتباع مذهبه ، قد جعل الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم بمنحهم الحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية . ولم تسكد المخاوف الأولى التي أثارها نزول جيش قاتح في بلادهم تبديد حتى أعقبها تحمس قوى لمصلحة العرب الفاتحين (٢) .

أما ولايات الدولة البيزنطية ، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببساتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليقينية والنسطورية ؛ فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد ، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعا لإثارة أي احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، أو إثارة أي تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية في مظهر المفاخرة حتى لا يؤدي ذلك الشعور الإسلامي (٣) . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح — الذي بلغت النظر في تاريخ القرن السابع — من هذه العهود التي أعطتها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية (٤) . وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات . وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن ، فهي على جانب من الأهمية من حيث إنها تمثل الرواية التاريخية التي أخذ بها المؤرخون المسلمون في القرن الثاني الهجري — وهي رواية كان من العسير أن تستقر

(١) البلاذري ص ١٣٧ .

(٢) Caetani vol. iii p. 813; vol v. p. 394. (وه قبل السكان عن رضى ظاهر بتغيير الحكومة ، وذلك بمجرد أن علوا أن العرب سيحترمون حقوقهم الشخصية ، وسيتركون لهم الحرية العامة في إقامة شعائرهم الدينية . وفي سورية أسرع مدن ومقاطعات بأكملها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تنفع هزيمة الروم النهائية . وفي السواد أذعنوا دون أية معارضة ، وقبلوا السيادة المديدة دون شرط ولا قيد . ومن المحتمل أن يكون هذا قد تم في سورية أيضاً بالنسبة إلى كثير من المناطق النائية عن طريق المراسلات الكبيرة) .

(٣) وقد جمع جوتهيل Gottheil مجموعة قيمة من الشواهد المدعمة بالوثائق التاريخية فيما يتعلق بحالة الشعوب التي دخلت في حياحة الحكم الإسلامي وذلك في بحثه «Dhimmis and Moslems in Egypt» .

(٤) البلاذري ص ٧٤ في آخر الصفحة ١٠٦ ، ١٢١ (في وسط الصفحة) .

دعائها لو أن هناك دليلاً يقوم على إثبات عكسها . ولا بأس من أن نورد هنا الشروط <sup>(١)</sup> التي قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سلم له بيت المقدس : « بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » <sup>(٢)</sup>.

وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين وأربعة من الطبقة الوسطى وثلاثة من الفقراء . وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق ، وقيل إنه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة ، طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك ، ولكنه بعد أن فكر اعتذر وهو يقول : إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدعون فيما بعد ، أنه محل لعبادة المسلمين .

وبما يتفق مع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى ✓ ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجرسى عليهم القوت <sup>(٣)</sup> وهو لا ينسى الذميين ( وهم أصحاب الديانات الأخرى الداخلون في حماية المسلمين ) حتى في أخرى وصاياه ، إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي فقال : « وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وألا يكلفوا إلا طاقتهم » <sup>(٤)</sup>.

وتنسب بعض الأجيال المتأخرة إلى عمر عدداً من القبود التي حالت بين المسيحيين وبين إقامة شعائرهم الدينية في حرية وطلاقة ، إلا أن دي غوبه De Goeje <sup>(٥)</sup> وكتاني Caetani <sup>(٦)</sup> قد أقاما الدليل الذي لا يدع مجالاً للشك على أن هذه القبود قد استحدثت في بعض العصور المتأخرة ؛ ومع ذلك فقد قبل فقهاء المسلمين الذين عاشوا في أزمان أقل تسامحاً هذه اليهود على أنها صحيحة ، ومن ثم كانت على جانب من الأهمية في تكوين حكم عن حالة الكنائس المسيحية في ظل الحكم الإسلامي . وإليك هذا العهد الذي أطلق عليه عهد عمر بنصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائبنا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب <sup>(٧)</sup> ؛ ولا نجسدد

(١) وللإطلاع على مناقشة كتاني لهذه الوثيقة ، انظر Caetani, vol. iii. p. 952 sqq.

(٢) الطبري ١ ص ٢٤٠٥

(٣) البلاذري ص ١٢٩ .

(٤) ابن سعد ٣ ص ٢٤٦ .

(٥) Mémoire sur la conquête de la Syrie, p. 143 sq.

(٦) Annali dell'Islam, vol. iii p. 957.

(٧) رأى بعض الثقات في ائسرع الاسلامى أن هذه القاعدة لم تسحب على القرى والضياع التي لم يكن بناء الكنائس فيها محظوراً

( الهداية ج ٢ ص ٢٥٩ ) .

ماخرب منها ، ولا نحي ما كان منها في خطط المسلمين ؛ وألا نمنع كنائسنا أن يزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ؛ وأن نوسع أبوابها للبارة وابن السبيل ؛ وأن نزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ؛ ولا نؤوى في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نعلم أولادنا القرآن<sup>(١)</sup> ؛ وألا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ؛ وألا نمنع أحداً من ذوى قراباتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه ؛ وأن نوقر المسلمين ؛ وأن نقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ؛ ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ؛ ولا نتكلم بكلامهم<sup>(٢)</sup> ولا نكتفي بكنائهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ؛ ولا نقش خواتمنا بالعربية ؛ ولا نبيع الخمر ؛ وأن نجز مقادير رقوسنا ، وأن نلزم زيننا حيث ما كنا ؛ وأن نشد الزنابير على أوساطنا ؛ وألا نظهر الصليب على كنائسنا ؛ وألا نظهر صليبنا وكتبتنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم<sup>(٣)</sup> ؛ وألا نضرب بنواقيسنا<sup>(٤)</sup> في كنائسنا إلا ضرباً خفياً ؛ وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ؛ وألا نخرج شعائير ولا باعوثاً ، وألا نرفع أصواتنا على موتانا ، ولا نظهر النيران عليهم في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ماجرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع في منازلهم ... ولا نضرب أحداً من المسلمين . شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن مخالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمنناه على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل المعاندة والشقاق ، (٥) . (٦)

وأول من ذكر هذه الوثيقة ابن حزم المتوفى حول منتصف القرن الخامس الهجري ؛ وتمثل شروطها ما كان في العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصباً وأبعد عن التسامح . والحق أن هذه الشروط لم تعد أن تكون نظماً قد طبقت بصفة غير مطردة ، وكان الأمر بوجه عام يتطلب سورة من التعصب الديني لإجابة أي مطلب لتطبيق هذه الشروط . وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قل ما كانوا في عهد الفتوح

(١) تختلف آراء العلماء في مسألة تعليم القرآن ؛ فهو محظور في مذهب مالك ، ومباح عند أبي حنيفة ، أما الشافعي فله في هذا الموضوع رأيان ؛ فهو من جهة يجيز دراسة القرآن من حيث إن في ذلك إشارة إلى الرغبة في الإسلام ، وهو من جهة أخرى يحظره لأنه يخشى أن يكون الكافر الذي يدرس القرآن مصراً على إيمه وعياده فلا يقصد بقرائه إلا أن يتخذ هزواً ما دام هو عدواً لله والرسول الذي أنزل عليه الكتاب . والآن فليس للشافعي ، وقد رأينا له فكرتين تناقض إحداهما الأخرى ، رأى حاسم في هذه المسألة من الوجهة الشكلية . . (Belin, p. 508)

(٢) كمبارات التحية وغيرها ما يستعمله المسلمون بعضهم مع بعض دون غيرهم .

(٣) يقول أبو سيف ( ص ٨٢ ) أنه لا مانع من خروج الصغرى بصلبانهم في أيام عيدهم خارج المدينة بلا رايات ولا نود يوماً في السنة ، فأما داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان .

(٤) قنابوس في اللغة قطعة طرية من الخشب تفرع بحبة أخرى صغيرة .

(٥) Gottheil, pp. 382-4 حيث أورد الاشارات إلى العصور المختلفة لهذه الوثيقة .

(٦) راجع كتاب الفتن في استعمال أهل الذمة لابن شقاف — مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ ورقه ٣ — ؛

الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم . والواقع أن تمسكهم بدينهم القديم هو الذي عرضهم لدفع الجزية — وهي كلفة كانت تدل أصلاً على الضريبة من أى نوع يدفعها غير المسلمين من رعايا الدولة العربية إلا أنها أصبحت أخيراً تدل على ضريبة الرأس حين وضع الولاة الجدد النظام المالى (١). لكن هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تنقل كاهلهم ، وذلك إذا لاحظنا أنها أعفقتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مفروضة على إخوانهم من الرعايا المسلمين . ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة ، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا شئ إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية ، وعندئذ كان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلا من الجزية الصدقات الشرعية ، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنوياً على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية (٢) . وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادي للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام . وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية للحكومة العربية ، حول نهاية القرن الأول إلى أن تشدد على المسلمين الجدد في أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم في زمرة المؤمنين (٣). هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يجب أن نذكر أن غير المسلمين من الأهلين كانوا يعرضون أنفسهم دائماً لأن يكونوا ضحايا الاضطهاد المالى عند ما تكون الدولة في حاجة إلى زيادة الخراج .

ولم تكن مقادير الجزية التي فرضها الفاتحون الأولون متماثلة (٤) ، ولم يتفق أبو حنيفة ومالك ، وهما الإمامان المشهوران ، في بعض التفاصيل التي لا تصل إلى درجة كبيرة من الأهمية (٥) . وقد نتخذ من المعلومات التالية التي استقيناها من كتاب الخراج الذي وضعه أبو يوسف تلبية لطلب هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ م) (١٧٠ - ١٩٣ هـ) دليلاً يمثّل لنا بوجه عام الطريقة التي سار عليها المسلمون في جمع الخراج في عهد الدولة العباسية : فكان على المومنين أن يدفع في السنة ثمانية وأربعين درهماً ، وعلى الوسط أربعة وعشرين ، بينما يؤخذ من المحتاج كالحرفات العامل يده اثنا عشر درهماً (٦) ، وإن جاؤوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والتجارة والمتاع ، حتى الإبر كانت تقبل منهم بدلا من النقد ،

(١) وهناك شواهد تدل على أن العرب الفاتحين قد أبقوا على نظام المال الذي وجدوه سائداً في البلاد التي انتزعوها من أيدي الروم دون أن يغيروا منه شيئاً وأن تفسير الجزية بأنها عبادة عن طريق الرؤس ، إنما هو من اختراع الفقهاء المتأخرين الذين كانوا يجهلون الأمور على وضعها الصحيح في صدر الإسلام .

(٢) H. Lammens : Ziād ibn Abihi. (Rivista degli Studi Orientali, vol. iv. p. 215). (Caetani, vol. iv, p. 610 (§ 231) ; vol. v. p. 449).

(٣) Goldziher, vol. i. pp. 50-7, 427-30. Caetani, vol. v. p. 311 sqq. (٢)

Caetani, vol. v. pp. 424 (§ 752), 432. (٣)

(٤) البلاذري ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٥) A. von Kremer (I), vol. i. pp. 60, 436. (٥)

(٦) الدرهم يساوي خمسة بنسات تقريباً ، أو ٢١ ملية تقريباً .

ولا يؤخذ منهم خنزير ولا خمر ولا ميتة . وكانت الضريبة لا تجب إلا من الذكور القادرين ولا تجب من النساء والصبيان (١) ؛ وكذلك كان يستثنى من أداء الجزية المسكين الذي يتصدق عليه ، والشيخ الفقير الفاني الذي لا يستطيع العمل ، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذي لا يرجى شفاؤه ، والمغلوب على عقله إلا إذا كان من أصحاب اليسار ، وكما أعفى المترهبون الذين في الديارات وأهل الصوامع إذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين ، أما إن كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى ويسار أخذت منهم الجزية . وقد أوصى جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة بوجه خاص فلا يظلموهم ولا يؤذوهم في المعاملة ولا ينزلوا بهم عقاباً جسدياً إذا لم يؤدوا الجزية (٢).

ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ، لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام ، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش ، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم (٣) . وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله : « فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » (٤) . ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر . لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً يصد قوات المسلمين المحتلة كان لزاماً على المسلمين نتيجة لما حدث ، أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أهدقت بهم . فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما سبجى من الجزية من هذه المدن وكتب إلى الناس يقول : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الخمر . وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنما لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم ، وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : « رددكم الله علينا ونصركم عليهم (أى على الروم) ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء . بقي لنا » (٥) .

وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبون بأدائها لو كانوا مسلمين ؛ ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعنى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامى . وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة ، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم

Bell, pp. XXV, 173. (١)

أبو يوسف ص ٦٩ - ٧١ (٢)

العبرى ص ١٠٠ (٣)

نفس المرجع ص ٢٠٥ (٤)

أبو يوسف ص ٨١ (٥)

بحوار أنطاكية ، سلمت المسلمين وتمهدت أن تكون عوناً لهم وأن تقاتل معهم في مغازيهم ، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية ، وأن تعطى نصيبها من الغنائم<sup>(١)</sup> . ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس في سنة ٥٢٢ هـ ، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد وأعفيت من أداء الجزية في مقابل الخدمة العسكرية<sup>(٢)</sup> .

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للاعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي . مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا Megaris وهم جماعة من مسيحي أنابانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسالحين لحراسة الدروب على جبال Cithaeron و Geranea التي كانت تؤدي إلى خليج كورنثة Isthmus of Corinth ؛ وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي ، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور ، قد أعفوا من أداء الخراج ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب<sup>(٣)</sup> ، وكذلك لم يدفع أهالي Hydra المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان ، وإنما قدموا في مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول التركي كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية<sup>(٤)</sup> .

وقد أعفى أيضاً من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية الذين يطلق عليهم Armatoli ،<sup>(٥)</sup> وكانوا يؤلفون عنصراً هاماً من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، ثم المرديون Mirdites وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالي سكوتاري Scutari ، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب<sup>(٦)</sup> . وتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الروس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر<sup>(٧)</sup> التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب ،<sup>(٨)</sup> ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة<sup>(٩)</sup> نظراً إلى ما قدموا للدولة من خدمات . ومن جهة أخرى أعفى الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك كما فرضت على المسيحيين<sup>(٩)</sup> .

(١) البلاذري ص ١٥٩

(٢) الطبري ١٣ ص ٢٦٥

(٣) وهو يسمهم « Musellim » Marsigli, vol. i. p. 86

(٤) Finlay, vol. vi. pp. 30, 33

(٥) Lazâr, p. 56.

(٦) De la Jonquiére, p. 14.

(٧) هي نوع من القناطر تقام على أعمدة لتوصيل مياه الشرب إلى المدن وقد كانت شائعة في العولم الرومانية منذ القرن

الأول الميلادي .

(٨) Thomas Smith, p. 324.

(٩) Dorostamus, p. 326.

(٩) De la Jonquiére, p. 265.

ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعاتهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني ، فقد تمتعوا ، وخاصة في المدن ، بحالة من الرفاهية والرغاء في الأيام الأولى من الخلافة . وقد توسع معاوية ( ٦٦١ - ٦٨٠ م ) ( ٤١ - ٥٦٠ هـ ) في إلحاق المسيحيين بخدمته ، وحذا حذوه في ذلك أفراد آخرون من البيت المالك (١) . وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة ، مثل الأختل وهو عربي نصراني كان شاعراً للبلاط ، ومثل أبي القديس يوحنا البمشقي مستشار الخليفة عبد الملك ( ٦٨٥ - ٧٠٥ م ) ( ٦٥ - ٨٦ هـ ) .

وكان في خدمة الخليفة المعتصم ( ٨٣٣ - ٨٤٢ م ) ( ٢١٨ - ٢٢٧ هـ ) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين : أحدهما يدعى سلويه ويفهر أنه كان يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها ، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد ، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين ، وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم أنه عاده في مرضه الأخير وغمره الحزن عند وفاته ، وأنه أمر في يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب (٢) .

واختار عبد الملك عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى أثناس Athanasius مؤدباً لأخيه عبد العزيز . وقد رافق أثناس هذا تلميذه إلى مصر عندما عين والياً عليها ، وهناك جمع ثروة طائلة ، قيل إنه امتلك أربعة آلاف من العبيد ، كما ملك كثيراً من الدور والبساتين . وكان الذهب والفضة عنده وكأنها الحصى ، وكان أولاده يأخذون من كل جندي ديناراً عند ما يتسلم راتبه ، ولما كان جيش مصر قد بلغ حينذاك ٣٠٠٠٠ جندي فإنه من الممكن أن نكون فكرة عن الثروة التي جمعها أثناس خلال الإحدى والعشرين سنة التي قضتها في هذه البلاد (٣) . وفي نهاية القرن الثامن نرى رجلاً يدعى أبا نوح الأنباري كاتب أبي موسى بن مصعب وإلى الموصل ، قد استغل نفوذه القوي لمصلحة بني جلده من المسيحيين (٤) .

وفي عهد المعتضد ( ٨٩٢ - ٩٠٢ م ) ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) ، كان عمر بن يوسف وإلى الأنبار مسيحياً . وقد وافق الخليفة على تقليده هذه الولاية ، بحجة أن النصراني في نظره أجدر بأن يستخدم إذا وجد صالحاً ، إذ أن هناك أسباباً قوية لتفضيل النصراني على غيره من اليهود أو المسلمين أو المجوس (٥) . وعهد الموفق ، وكان صاحب السلطان المطلق في عهد أخيه المعتضد ( ٨٧٠ - ٨٩٢ م ) ( ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ ) أمر تنظيم

(١) Lammens, p. 13

(٢) ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٦٤

(٣) Michael the Elder, vol. ii. p. 475.

(٤) ماري بن سليمان ص ٧١ ( ص ١٦ ) وقد كتب أبو نوح الأنباري رداً على القرآن وكتباً أخرى في العقائد ( انظر

(Wright, p. 191 n. 3

(٥) ماري بن سليمان ص ٨٤

الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل ، واتخذ ابنه المعتضد نصرانياً ، آخر كاتباً له ، وهو ملك بن الوليد . وفي عصر متأخر تولى في أيام المعتضد (٩٠٨ م - ٩٣٢ م) (٩٥٠ - ٩٢٠ م) نصراني آخر أمر ديوان الجيش (١) .

كذلك كان نصر بن هارون مسيحياً ، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهي (٩٤٩ م - ٩٨٢ م) (٣٢٧ - ٣٧١ م) الذي حكم العراق وجنوبي فارس (٢) . وقد ظلت دواوين الحكومة وخاصة ديوان الخراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس (٣) ، وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جداً ، حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكاراً يكاد يكون تاماً (٤) . وكثيراً ما جمع الأطباء المسيحيون بوجه خاص ثروات ضخمة ، ولقوا تكريماً كبيراً في بيوت العظام . لجبريل الذي اتخذ الخليفة هارون الرشيد طبيباً خاصاً كان مسيحياً نسطورياً بلغ إيراده السنوي ٨٠٠٠٠٠٠ درهم من أملاكه الخاصة فضلاً عن راتب قدره ٢٨٠٠٠٠٠ درهم في السنة مقابل عنايته بمعالجة الخليفة ؛ وكان الطبيب الثاني وهو نصراني أيضاً يتقاضى ٢٢٠٠٠٠ درهم في السنة (٥) . وكان المسيحيون يجمعون أموالاً وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة ؛ والواقع أن هذه الثروة هي التي طالما أثارت طمع الدهماء الذي يقوم على الحسد - وهو شعور دفع المتعصبين من المسلمين إلى انتهاز هذه الفرصة لاضطهادهم وإيقاع الظلم بهم ؛ أضف إلى ذلك أن الطوائف غير الإسلامية قد تمتعت بسلطات تكاد تكون تامة . لأن الحكومة وضعت في أيديهم التصرف في شئونهم الداخلية تصرفاً مطلقاً ، وكان رؤسائهم الروحانيون يباشرون واجباتهم القضائية في القضايا الخاصة بأبناء دينهم لحسب (٦) . ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا في المدن الكبيرة ، حيث تحول بعضها إلى مساجد - وهو تصرف كان من العسير أن يعترض عليه نظراً لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص في المجتمع المسيحي .

وقد أشار النقد التاريخي الحديث إلى استحالة الأسطورة القائلة بأنه لما استولى العرب على دمشق ، قسمت الكنائس بالتساوي بين المسيحيين والفاطميين ، بحجة أنه بينما كان أحد القواد المسلمين يشق طريقه إلى المدينة عنوة من الباب الشرقي ، كان قائد آخر يتلقى تسليم حاكم المدينة عند الباب الغربي ؛ كذلك دل اختبار الوثائق التاريخية كما دل اختبار طبوغرافية البناء على أن كاتدرائية القديس يوحنا الكبرى لا يمكن بحال أن تكون قد استخدمت على النحو الذي وصفه بعض مؤرخي العرب وهو أنها كانت مكاناً عاماً

(١) هلال الصابي ص ٩٥

(٢) ابن الأثير ٩٣ ص ١٦

(٣) Von Kremer (1) vol. i. pp. 167-168. Lammens, p. 11.

(٤) Renaudot, pp. 430. 540.

(٥) Von Kremer (1) vol. ii. pp. 180-1.

(٦) Von Kremer (1) vol. i. p. 183.

لعبادة المسلمين والمسيحيين على السواء (١). ولكن مجرد اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن مثل هذا الإجراء قد استمر قرابة ثمانين عاماً ، دليل على ما أعطى منذ وقت مبكر للمسيحيين من حرية في إقامة شعائرهم الدينية . ويختلف فقهاء المسلمين في هذه المسألة اختلافاً بينا . من أكثر المذاهب تسامحاً وهو المذهب الحنفي الذي يعلن أنه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود في الديار المصرية مخالف للشرع إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائماً إذا ما خرب أو اعتراه البلى ، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة في القرى والضياح التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية ، إلى أكثر المذاهب تشدداً وهو المذهب الحنبلي ، الذي يرى أنه لا يجوز بناؤها ولا إصلاحها إذا ما تدمرت أو أصابها التلف . ورأى بعض الفقهاء أن المزايا قد اختلفت تبعاً لما منحتهم المعاهدات إياه من حقوق . ففي المدن التي أخذت عنوة لا يصح للذميين أن يقيموا فيها دوراً للعبادة ، أما إذا أبرمت معاهدة تنص على ذلك فقد سمح لهم ببناء كنائس ومعابد يهودية جديدة (٢) . لكن هذه الفتاوى ، ككثير من بحوث الفقهاء المسلمين ، كانت صلتها ضعيفة بالحقائق الواقعية (٣) . فربما اتفق أصحاب المذاهب على أن الذميين لا يسمح لهم أن يبنوا دوراً للعبادة في المدن التي أسسها المسلمون ، ولكن السلطة المدنية أبحاث للقبط أن يبنوا كنائس في القاهرة ، العاصمة الجديدة (٤) ، كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا في بعض المدن الأخرى كنائس وأدياراً جديدة . وإن مجرد ما يقال من أن عمر الثاني (٧١٧ - ٧٢٠ م) (٩٩ - ١٠١ هـ) قد أمر في نهاية القرن الأول للهجرة بهدم كل الكنائس (٥) التي استحدثت ، وأنه بعد أكثر من قرن أعاد المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) الذي اشتهر بتعصبه الديني نفس هذا الأمر ، لبوضع كيف أن تحريم بناء كنائس جديدة قلباً كان يوضع موضع التنفيذ (٦) . ولدينا أمثلة دوتها عن بناء كنائس محدثة مؤرخون من المسيحيين والمسلمين على السواء : مثال ذلك أن أحد النصارى من ذوى اليسار في مدينة الرها يدعى أناس قد بنى في عهد عبد الملك (٦٨٥ م - ٧٠٥ م) (٦٥ - ٨٦ هـ) كنيسة جميلة وقفها على السيدة مريم ؛ كما أقام بناء لتعميد تكريماً لصورة المسيح التي كان إرسالها إلى الملك أبحراً مشهوراً في ذلك الحين ؛ وكذلك بنى عدداً من الكنائس والأديار

(١) Caetani, vol. iii. pp. 350 sq., 387 sqq.

(٢) Gottheil, pp. 360-1. Goldziher : Zur Literatur des Ichtilaf al-madahib.

ZDMG., vol. 38 pp. 673-4.

(٣) كتب Snouck Hurgronje عن هذا العاج الطرى الذى اتم به كثير جداً من كتب الفقه الاسلامى وذلك في بحثه :

Mohammedanisches Recht in Theorie und Wirklichkeit.

Gottheil, p. 363. (٤)

(٥) Gottheil, pp. 358-9. ومع ذلك يعدك هذا المؤرخ في ما إذا كان هناك شاهد من الشواهد التي ترمو هذا

التعصب إلى عمر الثاني .

(٦) Journal Asiatique, IVme série, tome xviii, (1851) pp. 433, 450.

في جهات كثيرة من مصر، من بينها كنيسةستان عظيمنتان في القسطنطينية<sup>(١)</sup>. وقد طلب بعض الفراهسين<sup>(٢)</sup> من النصارى الذين كانوا في خدمة عبد العزيز بن مروان (أخى عبد الملك) والى مصر أن يأذن لهم ببناء كنيسة في حلوان، ووقت على القديس يوحنا<sup>(٣)</sup>، مع أن هذه المدينة من المدن التي أسسها المسلمون. وفي سنة ٧١١ م (٩٢ هـ) بنيت كنيسة يعقوبية يأذن من الخليفة الوليد (٧٠٥-٧١٥ م)، (٨٦-٩٦ هـ)<sup>(٣)</sup>. وفي السنة الأولى من حكم يزيد الثاني (٧٢٠ م) (١٠١ هـ) دخل أنطاكية مار إلياس Mar Elias بطريق أنطاكية اليعقوبية. تحفه الهيبة والوقار، يصحبه رجال الكنييسة والرهبان، ليبارك كنيسة جديدة كان يرجع إليه السبب في بنائها؛ وفي السنة التالية بارك كنيسة أخرى في قرية سرمد من أعمال أنطاكية، وكانت المعارضة الوحيدة التي لقيها، من ناحية الطائفة المسيحية المنافسة التي قبلت قرارات مجمع خلقيدونية<sup>(٤)</sup>. وفي العهد التالي بنى خالد القسرى الذي كان والياً على العراقين العربى والعجمى من ٧٢٤ م - ٧٣٨ م (١٠٥-١٢٠ هـ) كنيسة لأمه النصرانية تتعد فيها<sup>(٥)</sup>. وفي سنة ٧٥٩ م تم بناء كنيسة في نصيبين، أنفق عليها الأسقف النسطورى ساپريان Cyprian ستة وخمسين ألف دينار<sup>(٦)</sup>. وإلى هذا القرن نفسه<sup>(٧)</sup> يرجع تاريخ كنيسة أبى سرجه في الحصن الرومانى القديم بمصر القديمة. وفي حكم المهدي (٧٧٥-٧٨٥ م) (١٥٨-١٦٩ هـ) بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين كانوا قد أسروا خلال الحملات الكثيرة التي وجهت لبلاد الدولة البيزنطية<sup>(٨)</sup>. وبنى أهل سمالو كنيسة أخرى في هذه المدينة نفسها في عهد هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩ م) (١٧٠-١٩٣ هـ)، وكانوا قد أذعنوا لطاعة هذا الخليفة وأخذوا منه الأمان<sup>(٩)</sup>؛ وفي عهد هذا الخليفة نفسه تلقى سرجيس Sergius مطران البصرة النسطورى إذنا ببناء كنيسة في البصرة<sup>(١٠)</sup>، مع أن هذه المدينة قد أسسها المسلمون في عهد الخليفة عمر سنة ٦٣٨ م (١٧ هـ)، وبنيت في بابلون كنيسة نغمة تضم جثمانى النبيين دانيال وحزقيال<sup>(١١)</sup>. ولما جاء المأمون

(١) Michael the Elder, vol. ii. p. 476. Renaudot, p. 189.

(٢) مر كنيسة مار جرحس وكانت تسمى كنيسة الفراهسين (راجع سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٢٤١)

(٣) سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٤١ (وقول سويرس) ص ١٢٩) لها .. كنيسة ..

(٤) Von Kremer (1) vol. ii. pp. 175.

(٥) Michael the Elder, vol. ii. pp. 490, 491.

(٦) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٥

(٧) Elias of Nisibis, p. 128.

(٨) A. J. Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt, vol. i. p.

181. (Oxford, 1884)

(٩) ياقوت ج ٢ ص ٦٦٢

(١٠) ياقوت ج ٢ ص ٦٧٠

(١١) مارى بن سليمان ص ٧٣

(١٢) Ishok of Romgla, p. 266.

مصر (٨١٣ - ٨٢٣ م) (١٩٨ - ٢١٨ هـ) أذن لاثنتين من فراشيبة النصارى ببناء كنيسة على جبل المنظم (٤) القريب من القاهرة؛ كما سمح هذا الخليفة لأحد ذوى اليسار من المسيحيين ويدعى بكام ببناء عدة كنائس حسان ببلدة بورة في مصر<sup>(١)</sup>. وقد شيد البطريرق النسطورى طيما ناوس Timotheus المتوفى سنة ٨٢٠ م كنيسة في تكريت وديراً في بغداد<sup>(٢)</sup>. وفى القرن العاشر، بنيت فى الفسطاط كنيسة أبى سيفين القبطية الجميلة<sup>(٣)</sup>، كما بنيت فى جدة كنيسة جديدة فى عهد الظاهر سابع الخلفاء الفاطميين فى مصر (١٠٢٠ - ١٠٣٥ م) (٤١١ - ٤٢٧ هـ)<sup>(٤)</sup>، وشيدت فى عهد الخليفة العباسى المستضىء (١١٧٠ - ١١٨٠ م)<sup>(٥)</sup> (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) كنائس وأديار جديدة. وفى سنة ١١٨٧ بنيت كنيسة فى الفسطاط وقُسمت على السيدة العذراء الطاهرة<sup>(٦)</sup>.

والواقع أنه منذ أن عرف قىام الحكم الاسلامى تقدم الكنيسة المسيحية يكشف تاريخ الفساطرة عن نهضة رائعة فى الحياة الدينية وعن نواحي نشاطها منذ أن صاروا رعية للسليين<sup>(٧)</sup>. وكان أكسرة الفرس يدلون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى، حيث كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون فى ولايات هؤلاء الأكسرة، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين. ولكن الأمن الذى نعموا به فى بلادهم فى عهد الخلفاء، قد مكّنهم من أن يسيروا قدماً فى سبيل أعمالهم التبشيرية فى الخارج، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانية فى القرن الثامن الميلادى؛ وفى العصر نفسه تقريباً رسخت أقدامهم فى مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية فى آسيا حتى إذا جاء القرن الحادى عشر، كانوا قد جذبوا عدداً كبيراً ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار<sup>(٨)</sup>.

(٤) وهى كنيسة سمرتريم التى فى القنطرة وهى المعروفة اليوم بكنيسة الروم وكانت تسمى كنيسة القراشين ( سعيد بن البطريرق

٢٣ ص ٥٨ )

(١) سعيد بن البطريرق ٢٣ ص ٥٨ .

(٢) Von Kremer (1) vol. ii. pp. 175-6

(٣) Butler: Ancient Coptic Churches of Egypt, vol. i. p. 76.

(٤) Renaudot, p. 399,

(٥) Ishok of Romgla, p. 333

(٦) أبو صالح ص ٩٢

(٧) وقد زار راهب دومينيكانى من فلورنسة، يدعى Ricoldus de Monte Crucis بلاد الشرق حول نهاية القرن

الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر وتحدث عن روح التسامح التى تمنع بها الفساطرة إلى عصره فى ظل الحكم الاسلامى فقال: «وقرأت فى تاريخ القديم وفى مؤلفات العرب الوثوق بما أن الفساطرة أنفسهم كانوا أصدقاء لحمد وحلفاء له، وأن محمداً نفسه قد أوصى خلفاءه أن يحرصوا

على صداقتهم مع الفساطرة التى يرعاها العرب أنفسهم حتى ذلك اليوم بشىء من العناية ..» ( Laurent, p. 128. )

(٨) J. Labourt: De Timotheo 1, Nestorianorum Patriarcha, p. 37 sqq. (A)

(Paris, 1904).

وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي ، فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين ؛ إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء ، وكانت فضلاً عن ذلك تصدم عن أن يضطهد بعضهم بعضاً<sup>(١)</sup>. وفي القرن الخامس أغرى برصوما ، وهو أسقف نسطوري ، ملك الفرس بأن يدبر اضطهاداً عنيفاً للكنيسة الأرثوذكسية ، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس ، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلاً إلى مبادئهم ؛ ويقال إن عدداً يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية ، مع عدد ضخم من العلمانيين ، قد ذبحوا في هذا الاضطهاد<sup>(٢)</sup>. وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس ، يعد أن غزا هرقل بلاد فارس وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين<sup>(٣)</sup> ، ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم ؛ بل كان المسلمون على خلاف غيرهم ، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس . مثال ذلك أنه بعد فتح مصر ، استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية ، ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم ، ولكن المسلمين أعادوها أخيراً إلى أصحابها الشرعيين ، بعد أن دلت الأرثوذكس على ملكيتهم لها<sup>(٤)</sup> .

وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعبدة التصديق . ومن ثم لم يكن بد من أن تتلسس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد . ولكن بما يؤسف له ، أننا لا نملك إلا أخباراً قليلة ، ومن ثم نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نلجأ إلى الحدس والتخمين<sup>(٥)</sup> . ويرجع وجود بعض المفكرين الذين هيأتهم اتجاهاتهم الفكرية لقبول موقف المسلمين حيالهم في عصر كهذا العصر الحافل بالتأمل الديني . وكان من هذا النوع أولئك الشهريرغان أو ملاك الأراضى في فارس في القرن الثامن

E. von Dobschütz, pp. 390—1. (١)

Michael the Elder, vol. ii. pp. 439—40. (٢)

J. Labourt : Le Christianisme sous la dynastie sassanide, p. 139 sq. (Paris, 1904) . (٣) المكين ص ١٢ . وراجع

Renaudot, p. 169. (٤)

(٥) وقد أجاد فون كرم في هذه الملاحظة : .. إننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسي والحربي الذي يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف السكال في جمعهم للأخبار ؛ وإن بيننا وبين ذلك التاريخ اثني عشر قرناً ، لهذا تتناسب الدقة فيه مع طول هذه الشقة . هل أن التاريخ الداخلي لتلك الفترة الهامة ، وكذلك تاريخ الكفاح بين الدين الجديد البسيط وبين البيانات القديمة التي تكونت فيها المذاهب إلى حد التقيد ، لا نؤكد نعرف منه شيئاً إلا في أعم حدوده . ..

( Von Kremer ( 2 ), pp. 1—2).

الميلادى ، وكانوا مسيحيين اسماً ، ولكنهم اعتقدوا أن المسيح لم يكن إلا رجلاً عادياً وأنه كسائر الانبياء (١) . وبظهر أنهم كانوا يثيرون من حين إلى حين متاعب كثيرة لرجال الدين من النساطرة الذين كانوا يلاقون عنثاً شديداً لإدخالهم في مسالك الأثوذكسية (٢) ، ولكن موقفهم الدينى كان أشد صلة بالإسلام منه بالعقيدة المسيحية . ويحتمل أنهم أقبلوا على الإسلام فزادوا في صفوف الذين تحولوا إلى هذا الدين بعد أن فتح العرب بلاد الدولة الفارسية .

ويزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين (٣) . أن حالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت - من الناحيتين الخلقية والروحية - لا بد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يتلمسوا جواً روحياً أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامى الذى جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الفضة قوة وعنفاً (٤) . وعلى سبيل المثال ، يتساءل ملبان Dean Milman (٥) : « ماذا كانت حال العالم المسيحى في الأقاليم التي تعرضت لأولى غزوات الإسلام ؟ كانت الأحزاب الدينية يناوىء بعضها بعضاً ، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهاماً وأكثراً غموضاً ، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة في العقيدة الدينية . والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أوطيخوس والبعاقبة بضطهد بعضهم بعضاً ، وقد استحكت بينهم العداوة التي لا تفر ولا تقطع ؛ ولا نكون مبالغين في الحكم على مساوىء الجدل الدينى إذا افترضنا أن كثيرين ربما فرحوا بوقوع خصومهم في إفسار الكفار ، إذ كان هذا أفضل عندهم من أن يجمع بينهم هدف مشترك في سبيل الدفاع عن المسيحية التي تربط بينهم . فكم من أناس لا بد أن يكون هذا الجدل المستمر قد زرع أسس عقيدتهم ! وكم كان يكون غريباً لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يتلمسوا . وهم في ضجرهم وحيرتهم ، ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهى عند حد ولا تعرف اللين والتساع ، في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة ، حقيقة الوحدةية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته . وشيئ بهذا ما يراه كيتانى Caetani من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسة المذهبية التي جلبتها الروح الهليزية إلى اللاهوت المسيحى . « أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهلينية وبالأعلى من الوجهة الدينية ، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية

(١) Thomas of Marga, vol. ii. p. 309 sq.

(٢) Thomas of Marga, vol. ii. pp. 310 sq.

(٣) وبالإضافة إلى ما قلناه هنا من نصوص ، أظن ما كتبه ماكينتوش McIntosh وسترنج Strong تحت مادة

Mohammedanism ٦٣٠ ص ٤٢٠ ، وراجع James Freeman Clarke : The Great Religions, Part ii, p. 75. ( London, 1883. )

(٤) ومن ثم عبر المؤرخ المسلم عن لسان الامبراطور هرقل بقوله : « إن دينهم دين جديد يهدد لهم ثبارهم » . ( طبرى

( ٢١٠٣ : ١ )

إلى عقيدة مخوفة بمذاهب عويصة ، مليئة بالشكوك والشبهات ؛ فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها . فلما أهلت آخر الأمر أبناء الوحي الجديد بجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وترزعزت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك قدرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتقى في أحضان نبي بلاد العرب (١) .

أضف إلى هذا قول تايلور Canon Taylor (٢) وإنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشرت تلك اليهودية المهذبة بهذه السرعة في إفريقية وآسيا . كان أئمة اللاهوت في إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة : ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ماساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة . فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة ، والقدارة صفة لظاهرة الرهبة . وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة ؛ كما كانت الطبقات العليا ممتنة بشيخ فيها الفساد ، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب (٣) ، ولم يكن للعباد أمل في حاضرم ولا مستقبلهم . فأزال الإسلام ، بعون من الله ، هذه المجموعة من الفساد والخرافات . لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى . ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته ، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتقويض الأمر إليه . وأعلن أن الرء مسئول ، وأن هناك حياة آخرة وبوماً للحساب ، وأعد للأشرار عقاباً أليماً ؛ وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير ؛ ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين ؛ وأحل الشجاعة محل الرهبة ؛ ومنح العبد رجاء ، والإنسانية إغا ، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية ، التي تقوم عليها الطبيعة البشرية .

أضف إلى ذلك أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي (٤)

(١) Caetani, vol. ii. pp. 1045—6.

(٢) A paper read before the Church Congress at Wolverhampton, October 7th, 1887.

(٣) انظر ما كتب عن النظام المال المحب في ظل الدولة البيزنطية وذلك في :

Gfrörer: Byzantinische Geschichten, vol. ii. pp. 337—9, 389—91, 450.

(٤) .. وكان الاسلام عبارة عن رد فعل ضد ما أظهره جستنيان من سوء التصرف نحو الانسانية وعامة اديانة المسيحية التي

كان يزعم جستنيان أنه ويمسها الأعلى الروح والديني . ويرجع الفضل إلى حد كبير فيما أصابه محمد العربي الذي ولد عام ٥٧١ م أي بعد وفاة جستنيان بست سنوات من نجاح منقطع الظاهر في دعوته إلى ذلك الثغور الذي أحست به الأمم التي كانت تقيم في داخل حدود الدولة البيزنطية وفيها جاررها من الأمم من القطنع التي ارتكبتها باسبولس . ..

Gfrörer: Byzantinische Geschichten, vol. ii. p. 437.

الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعلى ، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الديني الأعظم لحسب ، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك<sup>(١)</sup> . وفي عهد جستنيان Justinian نرى هذا النظام يزداد تعسفا حتى يستحيل استبداداً يحتم بأنقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامّة على سواهم . وفي سنة ٥٣٢ م انفجر السخط ، الذي كان سائداً في القسطنطينية ، على الكنيسة والدولة معاً ، وتحول ثورة على حكومة جستنيان لم تقم إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألف شخص . أما حزب الجرين Greens الذي كان اسمه يطلق على جماعة المتذمرين ، فقد وضعوا في ناديتهم احتجاجاً قوياً صريحاً على اضطهاد الإمبراطور ، ونادوا قائلين : ولقد فقد العدل من الدنيا ولن يكون مرة أخرى . ولكننا سنهود ، بل سوف نعود إلى عبادة الوثنية الإغريقية<sup>(٢)</sup> . ولم يمض مرور قرن من الزمان شيئاً من بواعث السخط الذي تجلى في هذا المقام في مثل ذلك التعبير القوي ، إلا أن يد الحكومة البيزنطية العاشمة قد حالت دون اندلاع ثورة كذلك الثورة التي حدثت سنة ٥٢٣ م ، وأرغمت المتذمرين على التفرق . ومع ذلك انكشف في القسطنطينية في سنة ٥٦٠ م أمر جماعة وثنية مسترة فأُزِل بهم العقاب<sup>(٣)</sup> . بيد أن أمثال هؤلاء المتذمرين الذين كانوا يقيمون في أطراف الإمبراطورية بمنأى عن العاصمة كانوا أكثر طائفة ، وقد اتخذ الهراطقة الذين اضطهدتهم الحكومة وغيرهم من الساخطين على كنيسة الدولة البيزنطية من الشرق ملجأً يلجئون إليه ، وهنا لا بد أن تكون جيوش المسلمين قد لقيت ترحيباً من أبناء هؤلاء الروحانيين الذين كانوا قد رغبوا قبل ذلك الحين بمائة سنة في أن يستبدلوا بالدين المسيحي عقيدة أخرى . أضف إلى ذلك أيضاً أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية في كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية ، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان ، كما كان كذلك للتماثل الذي تم تدريجياً في الأخلاق والعادات ، والذي أدى في خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجاً قوياً في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحاكم - كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التي دخلت في حماية العرب الفاتحين . ومن المحتمل جداً أن تكون الحركة الفكرية التي أثرت في العقيدة الإسلامية تأثيراً بالغاً ، ابتداءً من القرن الثاني حتى القرن الخامس للهجرة ، قد أثرت في المفكرين المسيحيين وصرقتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح في ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية . وقد حفظ لنا أحد كتّاب المسلمين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري حديثاً مع أحد الأقباط نستطيع أن نعتبره في شيء من الاطمئنان مظهرًا للاتجاه العقلي العام عند سائر الكنائس الشرقية في تلك الفترة : - « دليلي على صحتها ( صحة الديانة المسيحية ) وجودي إياها متناقضة متنافية . تدفعها العقول وتنفر منها النفوس ، لتباينها وتضادها . لا نظر يقويها ،

Id. vol. ii, pp. 296-306, 337. ( )

Id. vol. ii, pp. 442-4. (٢)

Id. vol. ii, pp. 445 (٣)

ولا جدل بصحتها ، ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها . ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحسن رأى قد انقادوا إليها وتدينوا بها ، فعلمت أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها في العقل إلا لدلائل شاهدها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم إليها ،<sup>(١)</sup>

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ينبغي أن نذكر أن هؤلاء الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام تحت تأثير الاتجاهات العقلية التي سادت ذلك العصر قد وجدوا في الآراء الدينية عند المعتزلة كثيراً من المبادئ التي كانت مشتركة بين العقيدتين ، حتى إنه بقدر ما كان لأصول العقيدة والاتجاه العقلي نحو كثير من المسائل الدينية من علاقة ، فإننا نرى أن هذا التحول لم يبلغ من الشدة الحد الذي يظنه بعض الباحثين . وإذا ضربنا صفحاً عن ذكر تلك المبادئ الأساسية المتعددة التي تتبادر حتى إلى أذهان هؤلاء الذين لا يعرفون عن تعاليم النبي إلا النزر اليسير ، كانت هنالك وجهات نظر أخرى كثيرة مشتركة بين الديانتين ، كانت نتيجة مباشرة للصلات الوثيقة التي قامت بين رجال الدين من المسيحيين والمسلمين في دمشق في عهد الخلفاء الأمويين ، كما قامت أيضاً هذه الصلات في أزمان متأخرة ، إذ ثبت أن هناك شواهد بيّنة تدل على ما كان لعلماء اللاهوت البيزنطيين من أثر في تقدم البحث في المذاهب الإسلامية بصورة منظمة . وإن أقدم أحكام الدين التي وضعت باللغة العربية لتوحى إلينا صيغتها وترتيبها بالشبه بينها وبين الرسائل الماثلة لها ، التي كتبها القديس يوحنا الدمشقي وغيره من الآباء المسيحيين<sup>(٢)</sup> . وقد نشأ أقدم أنواع التصوف العربي الذي كان متجهاً اتجاهاً خالصاً نحو حياة التقشف ( كما كان يتميز عن التصوف الحلولي الذي جاء فيما بعد ) ، نشأ هذا النوع بتأثير الأفكار المسيحية إلى حد بعيد<sup>(٣)</sup> . ويمكن أن نتتبع هذا التأثير في عقائد بعض فرق المعتزلة<sup>(٤)</sup> بوجه خاص . الذين شغلوا أنفسهم في الجدل في صفات الطبيعة الإلهية ، كما كان يفعل علماء اللاهوت البيزنطيون تماماً . فمن المحتمل أن تكون القدرة أو القائلون بالارادة الحرة من المسلمين قد استعاروا نظريتهم في حرية الإرادة من المسيحية مباشرة ، كما نجد المرجحة ، في إنكارها لنظرية العقاب الأبدي تتفق تمام الاتفاق مع تعاليم الكنيسة في هذا الموضوع ، وهو رأى يناقض الرأى الذي أجمع عليه أهل السنة من المسلمين<sup>(٥)</sup> . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الأئمة الذين كانوا أكثر تحمساً للعقائد السنية في الإسلام

(١) المعردى ج ٢ ص ٢٨٧

Von Kremer (2), p. 8 (٢)

Id. p. 54 and (3). p. 32. Nicholson, p. 231. (٣)

(٤) ويقال إن محمد بن الحذيل مذهب المأورن وأحد فلاسفة المعتزلة قد حول إل الإسلام ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص .

(٥) أحمد بن يحيى المرعشي ص ٢٦ ص ٧ )

Von Kremer (2), pp. 3, 7-8. C. H. Becker : Christliche Polemik und islamische Dogmenbildung ( Zeitschrift für Assyriologie, XXVI, 1912 ). (٥)

كان لهم تأثير في تحول الكفار إلى هذا الدين؛ ويستدل على ذلك بالرواية القائلة بأن عشرين ألف مسيحي ويهودي ومجوسي أسلموا يوم مات الإمام الأكبر أحمد بن حنبل (١) وقد ذكر أن أبا الفرج بن الجوزي (١١١٥ - ١٢٠١ م) الفقيه السني المشهور الذي كان أعلم أهل زمانه وواعظاً معروفاً وكانياً من أسبق الكتاب، أنه كان يفخر بأن مثل هذا العدد من الناس قد دخل في الإسلام على يديه (٢).

أضف إلى ذلك أن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظير، قد زرع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله (٣)، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن إله الحرب (كما زعموا) لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم.

كان المثل الأعلى الذي يهدف إلى إخوة المؤمنين كافة في الإسلام من العوامل القوية التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة، ومع أن اعتداد العرب بنسبهم قد عمل مدة أجيال كثيرة على ألا ينال المسلمون المحدثون تلك المزايا التي كان يتمتع بها الجنس الحاكم، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة في المجتمع، وهم لا يزالون موالى للقبائل العربية المختلفة، التي كانوا قد تعودوا بآداب الأمر أن ينضوا تحت لوائها، وفي نهاية القرن الهجري الأول حققوا لهذا المثل الأعلى مكانة الصادق من العقيدة الإسلامية، كما حققوا له في الدولة اعترافاً نظرياً على أقل تقدير (٤).

ولكن حال المسيحيين لم تكن دائماً قائمة على هذا التسامح الذي كان في عهد خلفاء صدر الإسلام. فقد كانت تفرض أحياناً، في سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التي تضايق الأهالي من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين. وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لانقاصهم عن الوظائف العامة. وأصدر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م)، والمتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) والمقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢ م) والآمسر (١١٠١ - ١١٣٠ م) ودهو أحد الخلفاء اتقاطعيين في مصر، مراسيم بهذا الصدد، وصدر مثل هذه المراسيم في عهد سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي (٥). ولكن مجرد

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٥

(٢) Wüstenfeld, p. 103.

(٣) Michael the Elder, vol. ii, pp. 412-13. Caetani, vol. v. p. 508

(٤) إن ما أوردته العرب من انتصارات على الرومان والفرس لم يكن انتصاراً قروياً على شعوب الأقاليم المطلوبة على أرضها وحدها، وإنما كان، كما تبين في أدق الترفيقين الذين يرون يد الله في كل حادث، انتصاراً لبدأ الإسلام على المسيحية والمردكية بل على المسيحية بوجه عام (٥).

(٤) Goldziher, vol. i. chaps 3, 4.

(٥) وقد أثار آخر هؤلاء السلاطين ما اكتشفه من أمر محاولة المسيحيين إحراق مدينة القاهرة.

(De Guignes, vol. iv, pp. 204-5.) Gottheil, p. 359, Journal Asiatique,

IVme série, tome xviii. (1851), pp. 454, 455, 463, 484, 491.

تحدد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن موضع التنفيذ دائماً . والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أناره السلوك الحشن المتعجرف ، الذي يسلكه الموظفون المسيحيون (١) ، أو إلى سوريات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التي ظهر بها الحكم الإسلامي . ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت .

وتبدأ معاملة الأهلين من المسيحيين بصورة أشد عنفاً منذ عهد هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩ م) ويدرنا أول هذه المراسيم على أنه قلها روعى عهد واحد على الأقل من تلك اليهود التي نسبت إلى الخليفة عمر ، وأن هذه المراسيم لم تكن إلى حد كبير أثراً لشعور ديني بحمت بقدر ما كانت أثراً للظروف السياسية التي سادت هذا العصر . وطالما تحشم المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي المتعصب بسبب ما أضمره الغرباء من الأحكام المسيحية من سوء الظن في العقيدة الإسلامية ، كما ظهر ذلك في علاقاتهم بأمراء المسلمين . وهذه الحالة تفسر لنا ما ارتكبه الإمبراطور البيزنطي ، نقفور Nicephorus من غدر جعلت اسم المسيحي مبعوضاً إلى هارون الرشيد (٢) . ويمكن أن نرجع كثيراً من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية إما إلى الشك في ولائهم الذي كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم في شئونهم ، أو إلى ذلك الشعور السيئ ، الذي أناره ذلك المسلك القائم على الخيانة والقسوة الذي ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين . على أن التعصب الديني مسئول عن كثير من أمثال هذه الاضطهادات ، كما حدث في عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) (٣٢٢ — ٢٤٧ هـ) الذي اتخذ نحو المسيحيين إجراءات شديدة من التعسف . فقد استغل هذا الخليفة ما كان قد حدث في العقيدة الإسلامية من رد فعل قوى للحركات العنيفة التي شنها أهل السنة على النزعات التي قامت على التعقل والتفكير الحر ، والتي كانت قد وجدت مرعى خصيباً في عهد من سبقهم من الخلفاء — وتقدم باعتباره بطل جماعة المتزمتين من أهل السنة الذين كان السواد الأعظم من الناس يتمنون إليهم على حين كانت الطبقات العليا (٣) تختلف معها في الرأي ، والذين كانوا متعطشين للانتقام لتلك الاضطهادات التي كانوا هم قد تعرضوا لها في عهد المعتصم والوائق من قبل (٤) ، فأخذ يخطب ودهم عن طريق اضطهاد المعتزلة ، وتحريم كل جدل في القرآن وأعلن أن القول بخلق القرآن رأى خارج على الدين ، كما أمر بحبس شيعة علي وضريهم ، ونبش قبر الحسين بكر بلا . ومنع زيارة مشهده . وسامح المسيحيون بنصيب في المحن التي تعرض لها سائر الخارجين على الدين ، إذ تشدد المتوكل في تنفيذ القوانين التي كانت قد صدرت في عهد من سبقه من الخلفاء ، وميز بين أهل الذمة والمسلمين في الملبس ، ومنع

(١) Assemani, tom. iii, pars 2, p. c. Renaudot, pp. 432, 603, 607.

(٢) Muir : The Caliphate, p. 475.

(٣) Von Kremer (3), p. 246.

(٤) Muir (1), pp. 508, 516-17.

استخدام المسيحيين في المناصب العامة ، وضاعف ضريبة الرأس ، وحرّم على المسيحيين أن يقتنوا أرقاماً من المسلمين ، أو يستخدموا الحمامات التي يستخدمها المسلمون ، وصايقهم بما وضعه من قيود أخرى كثيرة .  
 ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤرخي الكنيسة الذنطورية — التي لم يكن بد من أن تقاسى الكثير من هذا الاضطهاد — يعدونه أمراً حديث العهد انفرد به المتوكل وانهى بوفاته (١) . وقد جدد أحد خلفاء المتوكل وهو المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) هذه القوانين التي يظهر بوضوح أن انقضاء نصف قرن عليها قد أدى إلى إهمالها . وقد أدت سوراة أخرى من التعصب إلى تخريب كنائس للمسيحيين ومعابد لليهود (٢) ، كما أدى الرعب الذي ألقاه مثل هذا الاضطهاد في النفوس إلى ارتداد كثيرين عن الكنيسة المسيحية (٣) . ولكن مثل هذا التعسف كان منافياً لروح الإسلام السمحة ، وللتعاليم التي أثرت عن النبي (٤) ، وقد حاول الفريق المتعصب ، دون جدوى ، أن يفرضوا تنفيذ هذه الأساليب التعسفية بصفة مطردة إذلالاً للأهالي من غير المسلمين . وقال علماء (أى المثقفون ورجال الدين) يقدرّون هذه الأمور فيكونون ويثنون في صمت ، على حين يتغاضى عن هذه الأمور أولئك الحكام الذين أوتوا من السلطة ما يمكنهم من أن يقضوا على هذه المفاسد التي تنطوى على الإجرام (٥) . ولا يجوز أن تتخذ الأحكام التي قد تضعها فئة متعصبة من رجال الدين مقياساً لما قامت به الحكومات المدنية من تصرفات : ولن تصادف شيئاً من النجاح إذا أردنا التحقق من هذه الفكرة التي جعلت من الممكن وقوع هذه الصور المنطوية على المبالغة فيما عاناه المسيحيون من متاعب في ظل الحكم الإسلامي والتي صورها هؤلاء الكتاب الذين زعموا أن فتاوى طائفة معينة من الفقهاء تمثل هذه التصرفات المتباينة . ويظهر أن أمثال سوراة الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم فأثاروا على أنفسهم بظلمهم المسلمين شعوراً قوياً من الاستياء . وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشيء كثير من الغلظة والقحة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم . وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥ م) (١٣٦ — ١٥٨ هـ) والمهدى (٧٧٥ — ٨٠٨ م) (١٥٨ — ١٦٩ هـ) والمأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) (١٩٨ — ٢١٨ هـ) والمتوكل

(١) ماري بن سليمان ص ٧٩ وما بعدها . صليبا بن بوحنا ص ٧١ .

(٢) Gottheil, p. 364 sqq.

(٣) ماري بن سليمان ص ١١٤ (س ١٤ - ١٦)

(٤) ويظهر أن هذا الحديث النبوي قد ورد بصح منددة فروى مثلاً من ظلم معاهداً (يعنى ذمياً) وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه .. (البلاذري آخر ص ١٦٢) (ويضيف يحيى بن آدم في آخر ص ٥٤ قوله .. إلى يوم الدين ..) .. ويذكره المكين ، المروخ المسيحي (ص ١١) بقوله .. من عذب أهل الذمة فقد عذبي ..

(٥) Journal Asiatique, IVme série, tome xix. p. 109 (Paris, 1852.) وأخر أيضاً

R. Gottheil: A Fetwa on the appointment of Dhimmis to office. (Zeitschrift für Assyriologie, vol. xxvi, p. 203 sqq.)

(٨٤٧ - ٨٦١ م) (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) والمقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢ م) (٢٩٥ - ٣٣٠ هـ) وإلى كثير من خلفائهم<sup>(١)</sup>. كما تعرضوا أيضاً لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم عيوناً للدولة العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموي الذي أقصى عن الحكم<sup>(٢)</sup>. وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون في زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين<sup>(٣)</sup> اتصالاً ينطوي على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيوداً شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني.

وبمقدار ما كان يشتد العبء على كاهل الشعوب المغلوبة على أمرها كانت تشتد رغبتهم في تخليص أنفسهم من الشقاء، فيقولون: ولا إله إلا الله: محمد رسول الله. وعند ما كانت الدولة في حاجة إلى المال - إذ كانت الحالة تتطلب هذه الزيادة - كانت الحكومة لا تفتقر عن إنقال كاهل الشعوب المحكومة بالضرائب، حتى أصبحت حالة الطوائف من غير المسلمين تزداد سوءاً بصورة مطردة، وكلما ازداد هذا الاضطهاد شدة وعنفاً ازداد دخول الناس في الإسلام. وإن هذا السجل المظلم الحافل بالفضائح التي امتلأت بها صفحات مؤرخي المسيحيين في هذا العصر المتأخر ليوحى إلينا بأن الكنائس المسيحية قد أخفقت في تنمية قوة خلقية متينة كافية لتحمل الحالات المناوئة، فإذا ما حل الاضطهاد وازدت المسيحيون عن دينهم، وجب أن نبحت عن هذا الارتداد - كما يظن مؤرخ الكنيسة النسطورية<sup>(٤)</sup> - فيما ساد رجال الكنيسة من إهمال شامل في إقامة الشعائر الدينية وما تطرق إلى حياتهم من فساد.

وقد نجد عوامل أخرى ساعدت على تناقص الشعب المسيحي في هذه الحقبة القائلة بأن كثيراً من أطفال الأسرى من المسيحيات الكثيرات اللواتي حملن إلى بيوت المسلمين بين طبقة الحرير لم يكن بد من أن ينشئوا على دين آبائهم، وإن كثيراً من الإغراء كان يقدمه السيد المترف لمولاه المسيحي بإعتاقه ثمناً لتحويله إلى الإسلام. ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخططين لا كتبوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فردبناند Ferdinand وإيزابلا Isabella دين الإسلام من أسبانيا أو التي جعل بها لويس الرابع عشر Louis XIV المذهب البروتستنتي مذنباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انزلت انزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحاءه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى

(١) Belin, pp. 435-40, 442, 448, 456, 459-61, 479-80.

(٢) Id. p. 435. n. 2.

(٣) Id. p. 478.

(٤) عرض ماري بن سليمان (ص ١١٥ س ١ - ٢) تمليلاً لحالات الارتداد هذه التي أعقبت الاضطهاد حول نهاية القرن

العاشر بقوله: وأسلم خلق كثير وكان أصل ذلك نهود الناس في أديانهم وبيع سيرة الكهنة في المذابح وبيع بيوت المقدس.

الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم (١) .

وقد بقي إلى الآن نحو من خمسين ومائة ألف من نساطرة (٢) الكنائس القديمة التي كانت تقيم في غرب آسيا وقت الفتح الإسلامي ، وكان يمكن أن يكون عددهم أكثر من ذلك لولا تلك الجهود التي قامت بها كنائس مسيحية أخرى في نشر تعاليمها ، فكان عدد الكلدانيين الذين خضعوا لكنيسة رومه سبعين ألفاً . وفي سنة ١٨٩٨ انضم إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الأسقف النسطوري ماريونان Mar Jonan مع عدة من رجال الكنيسة وخمسة عشر ألفاً من النساطرة ، كما تحولت أيضاً جموع من النساطرة إلى المذهب البروتستنتي (٣) . وبأشر بطريق أنطاكية اليعقوبية سلطته القضائية على نحو من ثمانين ألفاً من أفراد هذه الكنيسة القديمة ، على حين انقادت خمسة وعشرون ألف أسرة من اليعاقبة الذين يطلق عليهم ( Uniat Jacobites ) لأمر البطريق الكاثوليكي السوري (٤) . أما فيما يتصل بالكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية ، فهناك ثمانية وعشرون ألفاً وستة وثلاثون وثمانمائة أسرة بزعامة بطريق أنطاكية ، وأكثر من خمسة عشر ألف شخص برياسة بطريق بيت المقدس (٥) ، على حين بلغ عدد الملكانيين أو الكاثوليك الإغريق قرابة ثلاثين ومائة ألف (٦) . وكان يتبع الكنيسة المارونية ، التي اتحدت مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية منذ سنة ١١٨٢ م ، ثلاثمائة ألف شخص (٧) .

ومما يثير العجب أن هذه الطوائف المنعزلة المشتتة قد بقيت زمناً طويلاً معرضة كما كانت من قبل لتخريب الحرب والوباء والمجاعة (٨) ، تقيم في بلاد كانت ميداناً للحروب لم تنقطع مدة قرون ، ويحتاجها

(١) والواقع أن الحاكم بأمر الله العاطمي (٩٩٦ - ١٠٣٠ م) كان قد أسر كل اليهود والمسيحيين بأن يهودوا مصر وبهاجروا إلى الأراضى البرنطية ، ولكنه نزل عن رأيه بعد أن توسلوا إليه . (مقريزي (١) ص ٩١) ، على أنه قد كان في مكنته أن ينفذ أمره بالقوة كما فعل السلطان القاسم سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠ م) الذي ذبح أربعين ألف شبي في سبيل تقييد خطته التي كانت ترمي إلى القضاء على كل الخلافات الدينية في بلاده ، كما أنه أتم هذه الخطة السياسية باستئصال شأفة المسيحيين كذلك . ولكنه ، حين سمح لنفسه بأن يرجع عن هذه الخطة ، لم يكن ثمة شك في أنه عمل طبعاً للسياسة العامة التي اتخذها الحكام المسلمون بإزاء دعاياهم المسيحيين . (Finlay, vol. v, pp. 29—30.)

(٢) Silbernagl, p. 268.

(٣) Id. p. 354.

(٤) Id. pp. 307, 360.

(٥) Id. p. 25-6.

(٦) Id. p. 335.

(٧) Id. p. 384.

(٨) أنظر : A. von Kremer (1), vol. ii, pp. 490—2.

الأتراك والمغول والصليبيون (١) . وإنه لا يعزب عن أذهانتنا كذلك أن الشريعة الإسلامية قد حرمت عليهم أن يعوضوا عن طريق بذل جهود في سبيل نشر الدعوة ما أصاب عدد هؤلاء المسيحيين من نقص - لو أنهم قد وجهوا العناية إلى هذه الغاية حقاً ، إذ يظهر أن هؤلاء المسيحيين ( مع استثناء النساطرة ) قد فقدوا الروح التبشيرية حتى قبيل الفتح الإسلامي ، تلك الروح التي يدلنا التاريخ الحافل بكثير من الشواهد على أنه لا يمكن لهؤلاء أن يحبوا بدونها حياة سليمة في ظل كنيسة مسيحية . ويزعم بعض الباحثين أيضاً أن الرهبنة التي كانت تعتبر مثلاً أعلى للتشف والتقى والتي كانت منتشرة في الشرق انتشاراً واسعاً ، ثم ما جرى عليه المسيحيون من الزواج بواحدة لحسب ، وشعورهم بعدم الاطمئنان ، وما كانوا فيه من الذل - كل ذلك ربما وقف حجر عثرة في طريق نمو السكان المسيحيين (٢) .

وليس لدينا إلا التزر اليسير من المعلومات التي تتعلق بتحول الناس إلى الإسلام . ويظهر أن المسيحيين في بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الإسلام في جموع هائلة . ويمكن أن نكون فكرة ما عن مدى ذلك التحول المبكر إلى الإسلام في العراق مثلاً ، إذا علمنا أن إيراد الضرائب في عهد عمر كان يتراوح بين ١٠٠ ألف و ١٢٠ ألف درهم ، على حين هبط في عهد عبد الملك ، أي بعد نحو خمسين عاماً ، إلى أربعين ألف ألف درهم . وبينما يهزى هذا التدهور في الخراج ، إلى حد كبير ، إلى التخريب الذي كان نتيجة الحروب والفتن فإنه ما زال ينسب أولاً وقبل كل شيء إلى هذه الحقيقة ، وهي أن جموعاً غفيرة من الأهلين كانوا قد دانوا بالإسلام ، ومن ثم لم يُطالبوا بعد بدفع ضريبة الرأس (٣) .

وشهدت هذه الفترة ذاتها تحول جماعات كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام ، كما نفق على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين وهو البطريق النسطوري يشوع يافث الثالث Isho Yabh ، وكان قد بعث بهذه الرسالة إلى سيمان Simeon مطران ريفاردشير Revardashir ورئيس أساقفة فارس . ولا يملك إلا التزر اليسير من الوثائق المسيحية التي ترجع إلى القرن الأول الهجري ، وتحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الجديد ، أضف إلى ذلك أن المؤرخين المحدثين لم يفتنوا إلى هذه الرسالة إلا قليلاً ، لهذا لا نرى بأساً من أن نذكرها هنا كاملة : وأين أبتاؤك ، أيها الأب الذي نكل أبناءه ؟ أين أهل مرو والعظماة ، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفاً ولا ناراً ولا تعذيباً ، ولم يسيطر على نفوسهم إلا حب التجارة والأخذ منها بنميب ، تنكبوا الطريق المستقيم وكسكبوا في هوة الضلال - في الهلاك المقيم ، وسيقوا إلى الفناء ولم ينج إلا قسيسان ( قسيسان بالاسم على الأقل ) من نار الكفر المحرقة كما تنتزع جمرتان من اللهب ؟ واحسرتاه ! واحسرتاه ! على هذه الآلاف المؤلفة التي

(١) وقد اتخذ ما حل القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م من خراب على يد الصليبيين نموذجاً للعائلة التي لقبها المسيحيون الشرقيون من اللاتينيين . وبشكو ابن هبيري من أن دير حران قد هاجمه الكونت جوسلين Goscelin ، صاحب حصن ، وأزل به الدمار سنة ١١٨٤ كانه تماماً واحداً من العرب أو من الأتراك ( Barhebraeus, (1) vol. ii. pp. 506-8. )

H. H. Milman, vol. ii. p. 218. (٢)

A. von Kremer (1), vol. i. p. 172. (٣)

تحمل اسم المسيحية ، والتي لم يتقدم حتى واحد منها ليهب نفسه ضحية للرب ويريق دماؤه في سبيل الدين الحق .  
 أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء ؟ إن الذي أنزل بهم الحسران والدمار لم يكن وساوس إبليس  
 ولا إرادة ملوك الأرض ولا أوامر حكام البلاد — ولكنه نفثة ضعيفة من نفثات شيطان تافه حقير  
 لم تعده الشياطين التي بعثته في مهمته جديراً بشرف الشياطين ، ولم يمنحه إبليس قدرة على الخداع الشيطاني  
 حتى يستطيع أن يبثه في بلادكم ، ولكنه بإشارة من أمره هدم جميع الكنائس في بلادكم فارس . . . وإن  
 العرب ، الذين منحهم الله سلطان الدنيا ، يشاهدون ما أتم عليه ، وهم بينكم ، كما تعلمون ذلك حق العلم : ومع  
 ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية ، بل على العكس ، يعطفون على ديننا ، ويكرمون قسنا وقديسي الرب ،  
 ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار ، فلماذا إذاً هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء  
 العرب ؟ ولماذا حدث ذلك أيضاً في وقت لم يرغهم فيه العرب ، كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم ، على ترك  
 دينهم ، بل تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمناً مصنوعاً إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم . ولكنهم  
 هجروا العقيدة التي تجلب الخلاص الأبدي إبقاء على نصيب من عرض هذه الدنيا الزائلة : تلك العقيدة  
 التي اشتريتها وتشتريها حتى هذا اليوم شعوب بأسرها بإرافة دمايتها حتى تراث بذلك حياة أبدية ، إن شعبك  
 من أهل مرو قد قبلوا عن رغبة أن يغيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم — بل من أجل ما هو أقل  
 من ذلك<sup>(١)</sup> . وقد امتاز عهد الخليفة عمر الثاني (٧١٧ — ٧٢٠ م) ، (٩٩ — ١٠١ هـ) بحركة — ول إلى  
 الإسلام واسعة النطاق : فقام بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة ، وقدم للشعوب المحتلة كل لون  
 من ألوان الاغراء لقبول الإسلام ، حتى بمنحهم هبات من المال ، وقد قيل إنه أعطى في إحدى المناسبات  
 قائداً نصرانياً ( بطريقاً ) ألف دينار تألفه بها على الإسلام<sup>(٢)</sup> ؛ كما أمر عمال الولايات بدعوة الذميين إلى  
 الإسلام . وقد قيل إن الجراح بن عبد الله والى خراسان قد أدخل في الإسلام نحواً من أربعة آلاف  
 شخص<sup>(٣)</sup> ، بل لقد قيل أيضاً إنه كتب إلى ملك الروم لاون الثالث ( Leo III ) يدعو إلى الإسلام<sup>(٤)</sup> .  
 وقد ألغى القرار الذي كان قد أصدره عام ٧٠٠ م لوضع حد لما أصاب الخزانة من العجز ، وقد أدى ذلك  
 إلى أن اشخص الذي كان يدخل في الإسلام لم يعف من دفع ضريبة الرأس ، بل أرغم على أن يظل على  
 أديانها كما كان يفعل من قبل ، حتى ولو أسلم قبل السنة التي تدفع فيها الجزية يوماً واحداً ، أو أسلم والجزية في  
 كفة الميزان<sup>(٥)</sup> . ولم يُجسب الخراج بعد ذلك من أصحاب الأراضى من المسلمين ، بل فرضت عليهم ضريبة  
 أخف من ذلك وهي ضريبة العشر . وكانت هذه الأساليب ، وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية

(١) Assemani, tom. iii, Pars Prima, pp. 130—1.

(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٥ .

(٤) معجم التنجى ص ٣٥٨ (س ٢ — ٢) .

(٥) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ص ٢٦٢ .

المالية ، قد صادفت نجاحاً تاماً في الاتجاه الذي كان يريد أن يحققه الخليفة صاحب العقيلة التي أشربت الورع والتدين ، فبادرت جموع هائلة إلى الدخول في زمرة المسلمين<sup>(١)</sup> .

ومع ذلك فلا ينبغي أن نفترض أن مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هي المؤثرات الوحيدة الفعالة في تحول المسيحيين إلى الإسلام . وإن ما كتبه القديس يوحنا الدمشقي (الذي عاش في هذا القرن نفسه) ، من الكتب التي ألّفها في الجدل لتمدنا بلهجات ، عن طريق ما أثاره من جدال في الجهاد الإسلامي الذي يقوم على الخامة في سبيل تقويض دعائم العقيدة المسيحية . وإن صياغة هذه الرسائل في قالب الحوار وكثرة التكرار في مثل قوله ، «إذا سألك العري ، ، وإذا قال لك العري... فأجبه ،... فإن هذه العبارات تعطي مظهراً يكاد يقرب من الحقيقة ويجعلها تبدو كما لو كان المقصود بها تزويد المسيحيين بإجابات حاضرة ردأعلى الاعتراضات المختلفة التي كان جيرانهم المسلمون يوجهونها إلى العقيدة المسيحية<sup>(٢)</sup> . وطبيعي أننا لا ننتظر إلا أن يكون سلوك التحدى الذي ظهر به المجادل المسلم قد عرض بصورة بارزة هذه المحاورات ، حيث إنه لم يكن من غرض هذا اللاهوتي الكبير أن يبرر موقف الإسلام فيما يكتب . وكذلك كتب تليذه ، الأسقف تيودور أبو قرة بعض محاورات<sup>(٣)</sup> تقوم على الجدل مع المسلمين طرق فيها المتناظرون كل مواطن النزاع بين العقيدتين ، وكان المسلمون ، كما رأينا من قبل ، هم البادئين بالتحدى . ونستطيع بهذا الحوار أن نكون فكرة ضئيلة عن النشاط الذي واوله المسلمون في هذه الفترة في عرض قضية الإسلام . قال الأسقف : «تتجه أذهان أبناء هاجر وكل ما لديهم من حماسة نحو إنكار ألوهية الرب : الكلمة ، ويقصرون كل جهودهم على تحقيق هذه الغاية ، .<sup>(٤)</sup> وكان البطريرق النسطوري ، طيماتاوس Timotheus يعقد مناظرات في المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادي ، وهارون الرشيد وجمع هذه المناظرات في كتاب لم يثر عليه إلا الآن<sup>(٥)</sup> . وقد ضمن طيماتاوس انتخابه لكبرى البطريركية إزاء المعارضة النشيطة التي أبدتها كثير من أقوى رجال الدين في كنيسته ؛ وكان بين هؤلاء يوسف ، مطران مرو ، الذي وشى به لدى الخليفة المهدي (٧٧٥ — ٧٨٥ م) (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ولكن الخليفة قد حثه على قبول الإسلام وكافأه على ارتداده عن دينه القديم بهدايا ثمينة وأسند إليه منصباً من مناصب الدولة في البصرة<sup>(٦)</sup> .

أما هذه التفاصيل التي تتعلق بالقرنين الأوائل للهجرة فإنها يسيرة للغاية ، وتدل على أنه كانت هنالك جهود في نشر تعاليم الإسلام أكثر من دلالتها على وقائع معينة . ويظهر أن أول وثيقة وصلت إلينا وتدل على صورة واضحة من صور الدعوة إلى الإسلام ترجع إلى عهد المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) (١٩٨ — ٢١٨ هـ) ،

August Müller, vol. i, p. 440. (١)

Migne : Patr. Gr., tom. 96, pp. 1336-48. (٢)

Migne : Patr. Gr., tom. 97, pp. 1528-9, 1548-61. (٣)

Id. p. 1557. (٤)

عمر بن مني ، ص ٦٥ . (٥)

عمر بن مني ، ص ٧٢ . (٦)

وهي في صورة رسالة<sup>(١)</sup> كتبها ابن عم الخليفة إلى عربي مسيحي كريم المحدث ، عظيم المنزلة في البلاط ، وكان المأمون يحله من نفسه محل الاحترام والتقدير . وفي هذه الرسالة يرجو من صديقه أن يدخل في الاسلام . وكان رجاؤه في لهجة تم عن الود ، وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمع تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر . وتحمل هذه الرسالة في تاريخ الدعوة الاسلامية المبكر مكاناً يكاد يكون فريداً في بابها ، ولهذا أوردناها كاملة في الملحق الأول من ملاحق هذا الكتاب<sup>(٢)</sup> . ونجد في ذلك المؤلف نفسه وصفاً لحديث حدث به الخليفة في مجلس يضم أشرف دولته تحدث فيه بأشد الالهجات ازدرام لهؤلاء الذين لم يسلموا إلا طمعاً في الدنيا وجرياً وراء مصالحهم الشخصية ، ويوازن بين حالتهم وحالة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من أنصار النبي في الوقت الذي كانوا فيه يتآمرون على حياته . ومع ذلك فكما كان النبي يدفع بالحسنة السيئة ، كذلك عقد الخليفة العزم على أن يعامل هؤلاء الناس معاملة لطيفة رقيقة حتى يقضى الله بينهم<sup>(٣)</sup> . وإن تسجيل هذه الشكوى الصادرة من الخليفة لعلى جانب من الأهمية ، من حيث إنها تدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا في الإسلام حديثاً ، اقتناعاً بريئاً خالصاً ، كما تدلنا على أن اكتشاف الانانية والبواعث الدنيئة في اعتناقهم للدين قد جرت عليهم أشد ألوان اللوم والتقريع .

كان المأمون نفسه شديد التحمس فيما قام به من جهود في نشر الإسلام ، فأرسل إلى الكفار حتى إلى من كان يقيم منهم في أقصى أجزاء مملكته كبلاد ما وراء النهر وفرغانة يدعوهم إلى الإسلام<sup>(٤)</sup> ، ولم يسيء في الوقت نفسه استعمال سلطته الملكية ، بمحاولة فرض عقيدته على غيره : ذلك أنه لما قدم شخص يدعى يزدا نبخت زعيم المانوية في زيارة لبغداد<sup>(٥)</sup> ، وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين وأحمله فيها المكلمون منهم ، حاول الخليفة أن يقنعه باعتناق الاسلام . ولكن يزدا نبخت أنى ذلك وقال : « نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة ، وقولك مقبول ، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم ، فلم يبد الخليفة شيئاً من الاستياء لاختراق محاولته ووكّل به حفظة خوفاً عليه من تعصب الغوغاء<sup>(٦)</sup> .

(١) رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحق الكندي ص ١ - ٣٧ . (بغداد ١٨٨٥) .

(٢) الملحق الأول . راجع المدق الثاني لدراسة نبتة عن مصادر الجدل الاسلامي .

(٣) الكندي ، ص ١١١ - ١١٣ .

(٤) البلاذري ، ص ٤٣٠ .

(٥) ومن الغرض جداً أن تكون المناسبة التي دفعت يزدا نبخت إلى زيارة بغداد هي دعوة المأمون إلى عقد مجلس عظيم يضم زعماء جميع الطوائف الدينية في ذلك العصر . عند ما واصل إلى مسامحة أن أعداء الاسلام قد جهرروا بأن الفضل فيما أحرزه الاسلام من نجاح إنما يرجع إلى العف لا إلى قوة الحجية : وفي هذا المجلس دحض أئمة المسلمين ما نسب إلى دينهم من هذه القم ، ويقال إن الكفار قد استوفوا بأن المسلمين قد أتوم وأدولوا بمجتهم . ( احمد بن يحيى المرتضى : المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل

(British Museum, Or. 3937, fol. 53 (b), II. 9-11).

(٦) كتاب العهرست ج ١ ص ٣٣٨ .

وقد أشار بعض المؤرخين المسيحيين إشارات قليلة إلى حالات رؤساء الدين المسيحي الذين اعتنقوا الاسلام مثل جرجيس George أسقف البحرين ، الذي أسلم حول منتصف القرن التاسع ، وكان قد أقصى عن منصبه لانهاهه ببعض التهم الكنسية (١) . وإن ما يستحق الذكر في هذا الصدد ما كان من إسلام أخ لجبريل ، مطران فارس ، حول منتصف القرن العاشر ، لأنه قيل إن إسلامه كان موضع اعتراض على لياقة جبريل نفسه لانتخابه بطريقاً على الكنيسة النسطورية (٢) .

وفي مسهل هذا القرن ذاته أسلم تيودور Theodore أسقف بيت جرماى Beth Garmai النسطوري ، ولم يذكر المؤرخ الكنسي الذي سجل هذه الواقعة (٣) شيئاً عن استخدام أية قوة أو إرغام في إسلام هذا الأسقف ، ولو أن شيئاً من ذلك حدث لسجله من غير شك . وبعد عدة سنوات ( بين سنتي ٩٦٢ ، ٩٧٩ م ) ، أسلم كذلك فيلو كزوينوس Philoxenos أسقف آذربيجان اليعقوبي (٤) ، وفي القرن الذي يليه ، في سنة ١٠١٦ ، ذهب أغناطيوس Ignatius (٥) مطران تكريت اليعقوبي إلى بغداد ودخل في الاسلام في حضرة الخليفة القادر ، وكان قد شغل هذا المنصب خمسة وعشرين عاماً (٦) . وكان يكون من الممتع حقاً لو امتدت فاتحة حياة كل من هذين الداخلين في الاسلام Apologia pro Vita Sua لتكشف لنا عن التطور الديني الذي احتل مكاناً في عقلية كل منهما . ويشير المؤرخ المسيحي إلى فساد الخلق ، الذي كان سبباً في التحول عن الدين في الحالات الثلاث الأخيرة . ولكن مثل هذا الاتهام الذي لم يدعمه بشواهد أخرى محل لكثير من الشك (٧) ، وهو يشبه اتهام أحد الكاثوليك الرومان حينما كان يؤرخ تحول كاهن من طائفة إلى المذهب البروتستنتي . وإن ما وصلنا من تحول هؤلاء البارزين من رجال الدين ، إلى الإسلام ، وكانوا من طائفتين متخاصمتين من الطوائف المسيحية ، إنما كان راجعاً من غير شك إلى مكانتهم السامية في الكنيسة ،

(١) ابن العبري (١) ص ٣٠٠ ١٩٤ .

(٢) ماري بن سليمان ، ص ١٠١ ( ص ٣ - ٤ ) .

(٣) ابن العبري (١) ص ٢٣٠ .

(٤) ابن العبري (١) ص ٢٤٨ .

(٥) ويشمل كل البطارنة اليعقوبيين اسم اغناطيوس ، ويسمى قبل تقديمه بمرح برقيي .

(٦) ابن العبري ( ) ص ٢٣٠ ٢٩٠-٢٨٨-٤٠١٥٣ . Elias of Nisibis , pp. 153-4 . عل أنه قد آب إلى الدين المسيحي قبل موته الذي حدث بعد ذلك بحوالي عشرين عاماً . وهناك حالتان مماثلتان مسجلتان في أخبار بطارقة أنطاكية اليعقوبيين في القرن السادس عشر : إحداهما حالة بطريق يدعى يشوع اعتنق الاسلام سنة ١٥١٧ ، ولكنه بعد ذلك ارتد وهرب إلى قبرص ( التي كانت في يد البيزنطيين في ذلك الحين ) ، حيث خر ساجداً عند باب إحدى الكنائس في خضوع وندم ، وتعمل بذلك جميع الذين وصلوا جمده من الداخلين في الكنيسة والخارجين منها ؛ أما الآخر ويدعى نعمة الله الذي عاش حول سنة ١٥٦٠ م ، فانه بعد أن ترك المسيحية واعتنق الاسلام ، اتهم العفو من البابا جريجوري الثالث عشر في رومه . ( ابن العبري (١) ص ٢٣٠ ٨٩٧-٨٩٨ ) .

(٧) والواقع أن إلياس التصبي ، المؤرخ المعاصر لتحول بطريق اليعقوب إلى الاسلام ، لم يتعرض لذكر شيء من مثل هذه المفاسد ، كذلك لم يذكر ماري بن سليمان ( ص ١١٥ - ١١٦ ) شيئاً منها وهو مؤرخ الكنيسة النسطورية المناهضة للكنيسة اليعقوبية ، مع أنه ينهه بأنه قد غرب الآية المقدسة وتصاور الكنائس . وكما يقول رايت Wright, (Syriac Literature, p. 192) عن يوسف ، بطريق مرو : « لسنا في حاجة إلى الاعتقاد في كل المساوي التي يجبرنا عنها ابن العبري عن هذا الرجل المسكين .. »

على حين لم يسجل المؤرخون تحول غير هؤلاء إلى الإسلام من الأفراد الذين لم يكن لهم شأن يذكر . وكلما اقترب ابن العبري بتاريخه الكنسي من عصره ، يقدم تفاصيل أوفى عن حياة أمثال هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام ؛ مثال ذلك ما ذكره في منتصف القرن الثاني عشر حين دوّن ما وقع فيه بعض الأساقفة اليعاقبة ، من سقطات عامة ، ويخص بالذكر هارون أسقف إحدى المدن في خراسان ، نظراً إلى أنه قد أسلم بعد أن ثبتت عليه إحدى الزلات الخاقية . ولما ندم على تحوله عن دينه . أراد أن يسترد مركزه الأسقي ، ولكنه لما رفض طلبه ، ذهب إلى القسطنطينية وأنكر مبادئ الكنيسة اليعقوبية ؛ غير أن المقابلة التي لقيها في القسطنطينية قد أثارته ، في نفسه روح السخط والتذمر ، فرجع إلى البطريق اليعقوبي ، ثم انتقل ثانية إلى الإسلام (بدون أى مبرر) ، وعندئذ ندم للمرة الثانية ، وأخيراً قضى أواخر أيامه بين مارونى جبل لبنان<sup>(١)</sup> . وقد سعى دانيال أسقف خابور الذي كان يعاصر ابن العبري ، في منتصف القرن الثالث عشر ، والذي قيل إنه كان بارعاً في العلوم الدنيوية ، ليعين في أبرشية حلب ، ولكنه لما أخفق في مساعده هجر العقيدة المسيحية ، وجلب ، بإسلامه ، الحزن والعار على الشعب المسيحي بأسره . ولكن الله (له المجد) سرعان ما عزى شعبه المحزون ، وأذهب العار عن الشعب الذي خلصه الرب ؛ إذ بعد أشهر قلائل مات هذا الكفي التمس بانساً في إحدى محطات القوافل ؛ واندثر اسمه وأقصى عما ، ولا يعرف أحد مستقره<sup>(٢)</sup> .

على أنه وإن كان التحول إلى الإسلام ليس مجرد أمثلة فردية ، فإن لدينا شاهداً فيما أورده جاك دي فترى Jacques de Vitry أسقف عكا (١٢١٦-١٢٢٥م) ، الذي تحدث عن الكنيسة الشرقية بما له من خبرة عن شئونها في الأراضي المقدسة ، فقال : « حين عملت تلك المغريات . . . التي جاء بها النبي . . . على استضعاف هذه الكنيسة وإيقاعها في الشرك على صورة تبعث على الألم المرير ، انفجرت الكنيسة واعتنقت . . . وكانت من قبل تتقلب في أعطاف النعيم<sup>(٣)</sup> » .<sup>(٤)</sup>

وإلى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التي وصفت بأنها قد دخلت في نطاق تأثير الحكم الإسلامي عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والغوائف الخارجة عن الدين التي تفرعت عنها . ولكن بانتهاء القرن الحادى عشر الميلادى انضم إلى أهالى الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجوع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائر الأمم اللاتينية ، واستقروا في مملكة بيت المقدس وسائر الولايات التي أسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان . وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء . ففي الحرب الصليبية الأولى مثلاً ، انشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الألمان واللومبارديين بزعامه فارس مشهور يدعى

(١) ابن العبري (١) ، ٢٣٠ ص ٥١٨ .

(٢) نفس المرجع ٢٣ ص ٧١٢ وما يليها .

(٣) Historia Orientalis, C. 15 (p. 45).

(٤) ورد على لسان هذا الأسقف عبارات تمس الإسلام ونيه الكبريم فأترنا عدم ذكرها ، وهي تنطوي على روح من التعصب .

Rainaud وحاصرهم السلطان أرسلان السلجوقى فى إحدى القلاع ، وتظاهر هو وخاصة أتباعه بالقيام بهجوم على محاصريهم فى الخارج ، فتركوا رفاقهم الناعسين وانتقلوا إلى الأتراك حيث اعتنقوا الإسلام بينهم (١).

ويمثل لنا تاريخ الحرب الصليبية الثانية ، تلك الحرب المشنومة ، حادثة على جانب عظيم من الأهمية وهى شبيهة بتلك الحادثة . والقصة كما ذكرها أودو الدوبلى Odo of Deuil أحد رهبان القديس دينيس Denis الذى كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع ، وصحبه فى هذه الحرب الصليبية ، فكتب فى وصفها نبذة هذا نصها : بينما كان الصليبيون يحاولون شق طريقهم برأ عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس ، منوا بهزيمة فادحة على أيدي الترك فى ممرات فريجيا Phrygia الجبلية (١١٤٨ م) وبلغوا مدينة أتاليا Attalia الساحلية بشق الأنفس . وهنا ، تمكن جميع الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة ، التى كان يفرضها عليهم تجار الاغريق ، من الإبحار إلى أنطاكية ، بينما خلفوا وراءهم المرضى والجرحى وعامة الحجاج تحت رحمة الخونة من حلفائهم الاغريق الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس ، على شريطة أن يمدوا الحجاج بقوة من الحرس ، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن إرسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم . ولكن ، لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الاغريق الترك بموقف الحجاج الأتزل ، وراقبوا فى صمت ، ما أصاب هؤلاء الناعسين من المجاعة والمرض وسهام العدو التى جرت عليهم الدمار والخراب وهم فى طريقهم إلى معسكرهم . وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف ، أن تلوذ بالفرار بدافع من اليأس ؛ ولكن الترك ، الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا اتصارهم ، أهدقوا بهم ومزقوهم شرمزق . وكان يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس ، لو أن منظر شقايم لم يذب قلوب المسلمين ويستدر شفقتهم . فواسوا المرضى وأغانوا الفقير والجائع الذى أشرف على الهلاك ، وبدلوا لهم العطاء فى كرم وسخاء . بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية ، التى ابتزها الاغريق من الحجاج بالقوة أو الخداع ، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم . فكان البون شامعاً بين المعاملة الرحيمة التى لقيها الحجاج من الكفار وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الاغريق الذين فرضوا عليهم السخرة ، وضربوهم ، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل ، حتى إن كثيراً منهم دخلوا فى دين متقدم بمحض إرادتهم . وكما يقول المؤرخ القديم : ولقد جفوا إخوانهم فى الدين الذين كانوا قساة عليهم ، ووجدوا الأمان بين الكفار الذين كانوا رحماء عليهم . ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك . آه ، إنها لرحمة أقسى من الغدر لقد منحوهم الخبز ، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم ، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبد دينه ، وإنما اكتفوا بما قاموا لهم من خدمات ، (٢) .

(١) De Guignes, tome ii. (Seconde Partie), p. 15.

(٢) Odo de Diogilo. (De Ludovici vii. Itinere. Migne, Patr. Lat., tom.

cxcv. p. 1243.)

ولكى يتجنبوا أضرار دينهم الذين كانوا يفسون عليهم ، ذهبوا آتئين إلى الكفار الذين كانوا يشفقون عليهم . وقد انعم أكثر

وإن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديراً أخذ ينمو على مر الزمن ، وهي ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخي الحروب الصليبية عن السابقين منهم تمييزاً واضحاً جلياً (١) . ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأراضى المقدسة للشرقين في عاداتهم وأساليب حياتهم - إن ذلك كله لم يخف في إيجاد تأثير متبادل في الأفكار الدينية . ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك السمع الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية ؛ وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكو منه الكنيسة . ولما زار أسامة بن منقذ ، وكان أحد أمراء الشام في القرن الثاني عشر ، بيت المقدس ، في فترة من فترات الهدنة ، خصص له فرسان المعبد *The Knights Templar* ، الذين كانوا قد احتلوا المسجد الأقصى زاوية صغيرة ملحقة به ، ليعيم فيها الصلاة ، واستأموا استيلاء شديداً من تدخل أحد الصليبيين ، وكان قد قدم حديثاً ، واتجه هذه الوجهة الجديدة في سبيل الحرية الدينية (٢) . وكان يكون مثيراً للدهش حقاً ، لو لم تكن المسائل الدينية مثار جدل في المناسبات الكثيرة ، حيث كان يلتقي الصليبيون بالمسلمين لقاء ودياً أثناء المهادنات الكثيرة ، لا سيما إذا عرفنا أن الدين نفسه هو الذي أتى بالصليبيين إلى الأراضى المقدسة وحملهم على شن هذه الحروب الدائمة . بل إن علماء اللاهوت المسيحي ، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطاً شخصياً إلى تكوين رأى أكثر إنصافاً عن ديانة المسلمين ، وزدعج الارتباط بأساليب التفكير الحديثة أفكار الناس ، وأثار ألوان الزندقة ، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام (٣) . وكان عدد المرتدين ( عن المسيحية ) في القرن الثاني عشر الميلادي كثيراً كثيرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلع عليها ، مجالس قضاء بيت المقدس ، *Assises of Jerusalem* والتي لم تقبل بموجبها كغالتهم في حالات معينة (٤) .

وقد يكون من الممتع أن نعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولكن يظهر أنهم لم يخلقوا سجلاً بأعمالهم . على أننا نعلم أن صلاح الدين العظيم نفسه ، كان على رأسهم ، وهو الذى وصفه كاتب سيرته بأنه قدم محاسن الإسلام بين يدي ضيفه المسيحي ، وحسنه على اعتناقه (٥) .

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في

من ثلاثة آلاف شاب - كما سمعنا - إلى الذين رحلوا إلى هؤلاء الكفار . آه ! أيها فتوى ، كم أنت أقوى من صروب الحياة كلها ! إنهم قد منحروهم الحز ، وجردهم من الإيمان غير أن من الحق أنهم على رصام بالعبودية ، لم يرغبوا أحداً على إنكار عقيدته ...

(١) Guizot : Histoire de la civilisation en Europe, p. 234. (Paris, 1882.)

(٢) أسامة بن منقذ ، ص ٩٩ .

(٣) Prutz, pp. 266-7.

(٤) Assises de la Cour des Bourgeois, (Recueil des historiens des

Croisades. Assises de Jérusalem, tome ii, p. 325.)

(٥) بها . الدين بن شداد ص ٢٥

عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى إن نفرا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة المجذابين إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين ؛ وكذلك كانت الحال ، عند ما طرح النصرانية ، مثلا ، فارس إنجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت ألبانس Robert of St. Albans في سنة ١١٨٥ م ، واعتنق الإسلام ثم تزوج بأحدى حفيدات صلاح الدين <sup>(١)</sup> . وبعد عامين ، غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحى هزيمة منكرة فى واقعة حطين ، وكان جوى Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى . وحدث فى مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه ، قد حلت فيهم روح شريرة ، وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلوا بمحض إرادتهم <sup>(٢)</sup> . ويظهر أن صلاح الدين ، كان قد تقام ، فى الوقت نفسه مع ريموند الثالث Raymund III كونت طرابلس الشام ، على أن يوعز إلى أتباعه بترك العقيدة المسيحية والتحول إلى جانب المسلمين ؛ ولكن موت هذا الكونت المفاجيء قد وقف بصورة فعالة فى سبيل تنفيذ هذه الخطة <sup>(٣)</sup> .

وقد حفز سقوط بيت المقدس والاتصارات التى أحرزها صلاح الدين فى الأراضى المقدسة ، أهل أوروبا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة ، التى كان أهم أحداثها حصار عكا . (١١٨٩ — ١١٩١ م) . وإن ما تعرض له الجيش المسيحى من آلام مروعة ، من جوع ومرض ، قد دفع كثيرين منهم إلى الفرار والتماس ما يخلصهم من ألم الجوع فى معسكر المسلمين . ومن هؤلاء الفارين ، كثيرون قد رجعوا مرة أخرى ، بعد فترة من الزمن ، إلى جيش الصليبيين ؛ ومنهم كثيرون آثروا أن يساهموا بنصيب مع المسلمين ، فالتحق فريق منهم بخدمة أعدائهم السابقين ، ولكنهم ظلوا على ولائهم للدين المسيحى . وقد (علنا أنهم) كانوا راضين كل الرضى عن سادتهم الجدد ، على حين اعتنق آخرون الإسلام وأصبحوا قوماً صالحين <sup>(٤)</sup> . وكذلك سجل المؤرخ ، الذى رافق ريتشارد الأول فى هذه الحرب الصليبية ، تحول هؤلاء الفارين إلى الإسلام فقال : « وفريق من رجالنا (الذين لا نستطيع أن نتحدث عن مصيرهم أو نسمع عنه دون أن يحز فى نفوسنا ألم مرير) قد استسلموا لقسوة الجماعة المرة ، فتجشموا فى سبيل إنقاذ أبدانهم ، هلاكاً أديباً لأرواحهم . إذ أنه بعد انتضاء الجزء الأكبر من هذه المحنة نراهم يهجرون نبي جلدتهم ويفرون إلى الأتراك : فلم يترددوا فى أن يصبجوا فى زمرة المرتدين ؛ ولما يطيلوا زمناً قصيراً أعمارهم الموقوتة اشتروا موتاً أديباً بهذا الكفر المنزع . أيتها المساومة الملعونة ! أيتها الفعلة المخزية التى لا يكفر عنها أى عقاب ! أيها الرجل الاحق الذى يشبه الهائم البله ! إنك إن فررت من الموت المحتوم الذى لا مفر من أن يأتى عاجلاً فلن تفر من الموت الأبدى <sup>(٥)</sup> . »

(١) Roger Hoveden, vol. ii. p. 307.

(٢) Benedict of Peterborough, vol. ii. pp. 11-12.

(٣) Id., vol. ii. pp. 20-1. Roger Hoveden, vol. ii pp. 316, 322.

(٤) أبرشامة : ص ١٥٠ .

(٥) Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Richardi, p. 131. (Chronicles and Memorials of the reign of Richard I, Edited by William Stubbs.) (London, 1864.)

ومنذ ذلك الحين لا نعدم أخباراً عن المرتدين عن المسيحية ، فيما كتبه هؤلاء الذين رحلوا إلى الأراضى المقدسة وغيرها من بلاد المشرق . وإن صيغة القسم التى عرضها على القديس لويس أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية (١٢٥٠م) ، كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ثم اعتنقوا الإسلام (١) . وبينما كانت عملية الفداء لا تزال جارية ، جاء مرتد آخر ، وكان فرنسيا ولد بروفنز وقدم هدية إلى الملك : وكان هذا الفرنسى قد صحب يوحنا ملك بيت المقدس فى حملته على دمياط سنة ١٢١٩ م ، وبقي فى مصر وتزوج بامرأة مسلمة وصار سيداً يشار إليه بالبنان فى تلك البلاد (٢) . وكان خطر الدخول فى الإسلام ، وهو ما كان يستهدف له حجاج الأراضى المقدسة ، قد شاع أمره فى ذلك العصر بصورة واضحة ، حتى إن أمورى دى لاروش Amaury de la Roche رئيس فرسان المعبد the Knights Templar اتمس من البابا ونوابه فى فرنسا وصقلية ، فى مذكورة دونها حوالى سنة ١٢٦٦ ، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين ، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما للقتل أو الأسر ، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم (٣) . ويتحدث لودولف دى سوشم Ludolf de Suchem الذى تنقل فى الأراضى المقدسة من سنة ١٢٣٦ إلى سنة ١٣٤١ عن ثلاثة من المرتدين وجددم فى جبرون (٤) . وكانوا قد قدموا من أبرشية مندن Minden ودخلوا فى خدمة فارس من فرسان ومستقاليا ، كان السلطان وغيره من أمراء المسلمين يكرمونه ويحترمونه (٤) .

ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة ، تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام الذى لم يصلنا عنه أى خبر كان على نطاق أوسع : فمن ذلك ما يقال من أن خمسة وعشرين ألفاً من المرتدين عن المسيحية كانوا فى مدينة القاهرة حول نهاية القرن الخامس عشر (٥) ، ولا بد أنه كان هنالك أيضاً كثيرون من هؤلاء المرتدين ، فى مدن الأراضى المقدسة بعد زوال الإمارات اللاتينية فى الشرق . ولكن يظهر أن المسلمين الذين أرخوا هذه الفترة ، قد بلغ من شدة انهماكهم فى تسجيل مآثر الأمراء ، وتقلبات الدول أنهم لم يوجهوا عنايتهم إلى التغير الدينى الذى طرأ على حياة الأفراد المغمورين ؛ (وبقدر ما هدانا إليه البحث) فقد كانت ملاحظتهم ، فى تتبع أخبار دخول المسيحيين فى الإسلام ، قليلة كقلة ملاحظتهم فى دخول أبناء

Joinville, p. 238. (١)

Id. p. 262. (٢)

Mas Latrie (I) vol. ii. p. 72. (٣)

فرية تعرف الآن بالخليل ، على بعد ١٨ ميلا من القدس إلى الجنوب . (٤)

Ludolf de Suchem p. 71. (٤)

Lionardo Frescobaldi, quoted in the preface of Defrémery and (٥)

Sanguinetti's edition of Ibn Batutah, vol. i. p. xl.

دينهم في المسيحية . فنحن مضطرون ، نتيجة لذلك ، أن نعتمد ، في الوقوف على كل من هذين النوعين من الأحداث ، على الكتاب المسيحيين ، الذين نجد أنهم في الوقت الذي أمدونا فيه بأخبار مفصلة تم على عطف على المنتصرين ، يحملون شهادة تنطوي على عدم الرضا عن وجود أمثلة من الداخلين في الإسلام ، ويصورون بواعث الذين ارتدوا عن دينهم ودخلوا في الإسلام في أحط صورة ممكنة . وربما لم يتسرب إلى ذهن كاتب من هؤلاء الكتاب أن دخول أى مسيحي في الاسلام ، عن اقتناع صادق ، كان أمراً ممكناً . ولو فرضنا أن مثل هذه الفكرة قد تسرب إلى أذهانهم ، لكان من الصعب أن يجازفوا بتعريض أنفسهم لفضاعة العقاب الكهنوتي ، بعرضه عرضاً صريحاً .

ومن الأمثلة التي تدل على أن تدوين ما يتعلق بمثل هذا التحول إلى الإسلام كان نادراً ، هذه القصة التي أمدنا بها الفيررهمندورف Führer von Haimendorf الذي كان في القاهرة سنة ١٥٦٥ ، عن إسلام عالم ألماني ، تلتى دراسته بجامعة ليبزج Leipzig : قال : « ولكن بينا كنا نتمضى هذا الوقت في القاهرة حدث أن رجلاً يدعى يوستوس ستيفن الألماني ، الذي ينتسب إلى هاميلينا Hamelensis والذي كان يقيم معنا في بيت واحد ، قد أنكر الديانة المسيحية ، وقدم نفسه لاعتناق الديانة الإسلامية وإجراء الختان . وكان رجلاً عالماً يقول لنا دائماً إنه درس طويلاً في وتبرج وليبزج ، ولكنه لما سئل عن ذلك الأمر قال إنه الآن يملك روحاً خاصة ، ليس في مقدوره أن يفعل أو يفكر بدون وحى منها . ولقد أثار وجود هذا الرجل تفكيرنا كثيراً ، والحق أنه دفعنا إلى الفرار . وفي هذا اليوم نفسه طيف كذلك ، برجل يهودى في المدينة كان قد اعتنق الإسلام قبل ذلك بأيام قليلة ، في موكب من مواكب النصر . وقد أخبرنا بعض الانكشارية أن هذا العمل ذاته سوف يحدث لستيفن نفسه ، (١) »

ومن هذه المصادر التي أوردناها آنفاً معلومات قليلة تتعلق بعدد الذين تحولوا إلى الاسلام ، وأخرى تتعلق بالجهود التي قامت لنشر الدعوة والتي بذلت لهم على تغيير عقيدتهم . ومن البواعث التي طالما علل بها هؤلاء المؤرخون التحول إلى الاسلام ، رغبة المسيحيين في التخلص من عقوبة الموت بالارتداد عن دينهم . وكثيراً ما ذكر الرحالة الأوربيون أمثال هذه الحالات . ومن هذا النوع مثال متأخر نختاره هنا ، لجمال تصويره وحسن عبارته ، من تقرير أحد أفراد الجزويت الذي كان بالقاهرة سنة ١٦٢٧ ؛ فقد رأى رجلاً من القبط كان قد أسلم نفسه إلى ذلك التيار ، « تارة بدافع العاطفة وتارة بقوة الغيرة الطائفة ، فقتل أخاه يده حافداً عليه أن ترك يسوع المسيح ، على صورة من الجبن والتهرب ، وراح يعتنق الاسلام تخلصاً من مضايقة الأتراك . وقبض على هذا المسكين في الحال وهو متلبس بجريمته ، واعترف في جرأة بأن هذا الكافر بدينه ، الذي لا يستحق أن يكون أخاً له ، لم يستطع أن يمحو هذه الوصمة السوداء إلا بدمه . وقد ألح

Christophori Fureri ab Haimendorf Itinerarium Aegypti, p. 42.

(١)

(Norimbergae, 1620.)

المسلمون عليه أن يترك دينه إبقاء على حياته ، : ولكنه قرر أنه مصر على أن يموت مسيحياً ، غير أن هذا العذاب ، الذي صبه عليه أولئك الذين وكل إليهم أمر تعذيبه ، قد أوهم من عزمه فأذعن في اللحظة الأخيرة . ولقد حولته هذه الكارثة في لحظة من مؤمن إلى مرتد ، ومن شهيد إلى كافر ، ومن قديس إلى آثم ، ومن ملاك إلى شيطان رجيم . فأقر بالدين بل أقر بالعدو والخيانة على وفق أساليب المسلمين ... فأطاعت له الحرية ، لاجرية أبناء الرب ، ولكن حرية الأبناء الخاملين ، ثم حملة تأنيب ضميره ، آخر الأمر ، على أن يرتد فقتله المسلمون<sup>(١)</sup> .

وقد صور الراهب بركارد Burchard<sup>(٢)</sup> السكان المسيحيين عند ما كتب حول عام ١٢٨٣م أى قبل أن يطرد الصليبيون من آخر معاقلهم ، وقبل أن يزول النفوذ اللاتيني في الشرق نهائياً بسنوات قليلة ، بأنهم يفوقون المسلمين عدداً في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، وأن نسبة عدد المسلمين ( فيما عدا مصر وبلاد العرب ) كانت لا تزيد على ثلاثة أو أربعة في المائة من جميع السكان . ولا شك أن هذه اللمحة مبالغ فيها ، ومن المحقق أن الراهب الطيب قد اندفع فيما زعمه بظنه ان ما شاهده في مدن الصليبيين وملكه أرمينية الصغرى ينطبق تمام الانطباق على سائر جهات الشرق . على أن من الجائز أن نتخذ كلماته هذه في الواقع ، دليلاً على أن التحول إلى الإسلام لم يكن في عهد الصليبيين حركة واسعة النطاق ، وأن المسلمين ، حينما استردوا سلطاتهم على الأراضي المقدسة ، بسطوا على المسيحيين نفس روح التسامح التي كانت من قبل ، وذلك بأن جعلوهم يشترطون السكنى والسلام ، بأداء الجزية . وهذا يحمل على الظن بأن ما حدث من التحول إلى الإسلام إنما كان عبارة عن حالات فردية من المسيحيين الذين أشربوا العقيدة الإسلامية في أذهانهم قبل أن يقدموا على الخطوة الأخيرة . وقد أوردنا من قبل أمثلة من المسيحيين الذين دخلوا في خدمة سادتهم من المسلمين وتمتعوا بحريتهم الدينية إلى أبعد حد ، وقد ميزت مجالس قضاء بيت المقدس Assises of Jerusalem بين هؤلاء الذين كفروا بالله واتبعوا شريعة أخرى ، و بين جميع الذين قاموا بخدمات عسكرية للعرب

Le Voyage en Ethiopie entrepris par le Père Aymard Guérin. (١)

(Rabbath, pp. 17-18.)

(٢) وما هو جدير بالذكر حقاً أنه على الرغم من أن بعض الناس يظن خلاف ذلك فيميل إلى تأكيد شيء لم يره رأى العين ، وهو أن الشرق كله ، فيما وراء البحر والهند وإثيوبيا يعترف بالمسيح ويكثر باسمه ما عدا العرب وبعض الأتراك الذين يقيمون في كبادوكيا فاني أؤكد في ثقة تأكيد من رأى رأى العين وسمع ذلك من قوم آخرين أنك ستجد دائماً في كل مكان وفي كل ملكة عدا مصر وبلاد العرب حيث تقطن جموع غفيرة من العرب وبعض أتباع محمد ، نسبة المسيحيين إلى المسلمين كنسبة الثلاثين أو أكثر إلى الواحد : ذلك أن جميع المسيحيين ، عبر البحر ، إنما هم في الواقع غرباء يتعدون من أصل شرقي ، وعلى الرغم من أنهم مسيحيون ، إلا أنهم نظراً إلى عدم خبرتهم الواسعة في حمل السلاح ، كانوا مرعان ما يخضعون إذا مادمتهم جيوش العرب والتار أو غيرهم فيشترون السلم والأمان منهم بدفع الجزية ثم يمين العرب أو من يملكون ناصية الحكم فهم مشرفين على أمرهم وجباة للضرائب في تلك الأراضي . ومن ثم أصبحت تلك المقاطعة تسمى ملكة العرب مع أن جميع سكانها في الواقع مسيحيون عدا المنرفين وجباة الضرائب أنفسهم وبعض حاشيتهم ، كما رأيت بنفسى في سيليزيا وأرمينية الصغرى التي تخضع لحكم التار .

(Burchardi de Monte Sion Descriptio Terrae Sanctae. p. 90.)

وغيرهم من الأشرار ، يناوئون بها المسيحيين مدة أكثر من عام ويوم .<sup>(١)</sup> ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين<sup>(٢)</sup> . ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين ، لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائياً ( سنة ١٢٤٤ م ) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم<sup>(٣)</sup> .

كذلك دفع هذا الشعور نفسه ، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية في ظل الحكم الاسلامي ، كثيراً من مسيحي آسيا الصغرى ، في إبان هذه الفترة ذاتها ، إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة ، باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة ، لاسبب نظام الضرائب المجحف وحده ، ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الاغريقية ، والتي قعت بمثل هذه الفسوة ، بدع أصحاب بولس ومعظمي الصور والتماثيل<sup>(٤)</sup> Iconoclasts . وكذلك . وطالما دعا الأهلون الأتراك في عهد ميخائيل الثامن ، إلى الاستيلاء على مدنهم الصغيرة في داخل آسيا الصغرى ، تخلصاً من استبداد الدولة ، وكثيراً ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية<sup>(٥)</sup> .

وقد بقي لدينا بعض معلومات نوردها هنا عن كنيستين أخريين من كنائس آسيا الغربية ، ونعني بهما كنيسة أرمينية وكنيسة جورجيا . أما كنيسة أرمينية فإن من الممكن أن يقال عنها إن ما قدمه أفرادها في سبيل زيادة عدد الداخلين في الإسلام ربما كان أقل ( وهذا بالنسبة إلى عدد أفراد الطائفة ) مما قدمته أية كنيسة من الكنائس الشرقية التي خضعت للحكم الإسلامي . وعلى الرغم من الأهمية التي تتعلق بقصة كفاح هذا الشعب الباسل للطامع الطاغية ، وقصة تفانيه في الدين المسيحي - خلال قرون الحروب والمظالم والتشكيل والتشريد - فليس الغرض من هذا الكتاب أن نذكر أكثر من أن نبين بإيجاز مدى ارتباط هذا

(١) Recueil des historiens des Croisades. (Assises Jérusalem, tome i. p' 325.)

(٢) Prutz, pp. 146-7, 150

(٣) وفيما يل ما كتبه رؤساء الكنائس في الأراض المقدسة سنة ١٢٤٤ م ، بشأن معارضة الخوارزميين الذين كان السلطان أوب قد استقدمهم لمعارته في طرد الصليبيين : - ، وكانوا يطلقون في كافة أنحاء المعمورة ، حتى مدينة الناصرة وسافيت ، بحرية دون أية مقاومة ، ويحتلوننا ، ويقسمونها فيما بينهم كما لو كانت ممتلكاتهم . وكانوا يتركون في القرى والضيع قرادا وسفراء يتولون أمرها ويسلبون من الملاحين الضرائب والاناوات التي اعتادوا أن يؤدوها للصليبيين بعد أن خضعوا جميعاً لأوامر كرومبيني ، وكان قد خلق منهم أعداداً للمسيحيين ومردة عليهم . . .

Matthei Parisiensis Chronica Majora, ed. H. R. Luard, vol. iv. p. 343.) (London, 1872-83.)

(٤) حركة قامت في القرنين الثامن والتاسع ترمي إلى تعطيم الصور والتماثيل التي كانت تعبد في الكنائس المسيحية في الشرق .

(٥) Finlay, vol. iii pp. 358-9. J. H. Krause : Die Byzantiner des Mittelalters, p. 276. (Halle, 1869.)

الشعب بتاريخ المسلمين . لقد ظلت مملكة أرمينية قائمة بعد أن منيت بصدمة الفتح العربي ، ونهضت في القرن التاسع الميلادي فأصبحت دولة على جانب من الأهمية ثم ازدهرت أثناء اضمحلال خلافة بغداد ، ولكن الأتراك السلاجقة أدالوها في القرن الحادي عشر . وقد أسس جماعة من الهاربين مملكة أرمينية الصغرى Lesser Armenia ، ولكن هذه المملكة ذهبت كذلك في القرن الرابع عشر . وظلت حياة أهل أرمينية القومية باقية بالرغم من ضياع استقلالهم . وكان دينهم وكنيستهم الوطنية مبعثاً لحاستهم ووطنيتهم التي لانفى ، كما كان الحال في اليونان في عهد الأتراك . ومع أن بعضهم دخل في الإسلام بتأثير اضطهاد عتيف ، إلا أن غالبية الشعب ما زالت مخلصه لعقيدها القديمة . ويلاحظ تافرنيه (١) ملاحظة غير مشربة روح المودة والعطف ، فيقول : « قد تكون هناك قلة من الأرمينيين اعتنقت الإسلام لفتح دنيوى ، ولكنهم بوجه عام يعدون أشد الناس عناداً وأصلبهم تمسكاً بمعتقداتهم الخرافية ، » .

أما كنيسة جورجيا ( التي أسست في مستهل القرن الرابع ) فكانت فرعاً من الكنيسة الاغريقية التي ظلت في ترابط معها ، بالرغم من أن البطريق أوجانليق كنيسة جورجيا قد أعلن استقلاله منذ منتصف القرن السادس . وإن تاريخ هذا الشعب المحارب الباسل ، الذي زرته الحصومات الداخلية وتعرض لهجمات متتابعة ، من الاغريق والفرس والعرب والترک والمغول ، هو تاريخ حروب لا تسكاد تنقطع ، ووجهت نحو خصومهم من الأجانب ، ومنازعات متضاربة تقوم بصورة وحشية بين زعماء هذه البلاد : وحسبنا أن نلقى نظرة على اليهود التي حكم فيها واحد أو اثنان من الحكام الأقوياء ، الذين هيئوا لرعاياهم فترات قصيرة من الأمن والسلام ، لتبين ذلك البون الشاسع بين هذه اليهود وبين حالة القلق والاضطراب التي كانت تسود هذه البلاد . وكثيراً ما أثار تلك الروح الاستقلالية العنيفة ، التي يمتاز بها أهالي جورجيا ، والتي لا تطبق الحكم الأجنبي ، سخط جيرانهم من المسلمين على صورة أشبه شيء بالجنون ، حين أخفق هؤلاء . في أن يفرضوا عليهم شيئاً من ديانتهم أو سلطتهم الزمنية . وإن هذا السبب - وهو أن تغيير العقيدة ينطوى على فقدان الاستقلال السياسي - هو الذي يفسر لنا إلى حد بعيد ما صنعتته كنيسة جورجيا من تسجيل أسماء مثل هذا العدد الكبير من شهدائها ، على حين لا يجد في تواريخ الكنيسة الاغريقية في هذه الفترة نفسها ما تعرضه من مثل قوائم التشريف والتكريم هذه .

ولم تأخذ المسيحية في الاضمحلال (٢) (في جورجيا) إلا بعد أن اجتاحتها جنود المغول المدمرة ، فتركت وراءها كنائس محطمة وأدياراً مهدمة وأكاداساً من الرموس البشرية تشهد على مدى تقدم جهافلهم المخربة . وكان من أثر ذلك أن ظل الشعب وقتاً طويلاً خلواً من يمدّه بمطالبه الروحية ، نظراً إلى ما أصاب عددهم

Tavernier (1), p. 174. (١)

Joselian, p. 125 (٢)

وحوال ذلك الوقت تغلغ عن الدين المسيحى كل قبائل الأبخاز والجيجيث Djkhetes والأوسيت Ossetes والكبرد

Kabardes وكنيت Kisthetes .

وما تعرضت له ثقافة رجال الكنيسة من تأخر . حتى هؤلاء الذين ظلوا يدينون بالمسيحية ، فقد زاد فريق منهم في متاعب رجال الكنيسة بسلب أملاكها ، واستغلال موارد الكنائس والأديار لمصلحتهم الشخصية ، وبذلك عجزوا بالدين المسيحي إلى الضعف والانحلال (١) .

وفي سنة ١٤٠٠م أضافت غزوة تيمور فرعاً بالغا إلى متاعب جورجيا ، ومع أن حكم اسكندر الأول (١٤١٤-١٤٤٢م) قد خلص البلاد ، فترة قصيرة من نير الأجنبي ، وطرده المسلمين جميعاً ، إلا أن البلاد قد انقسمت بعد وفاته مرة أخرى إلى عيود من الامارات الصغيرة التي انتزع منها الأتراك والفرس آخر ما تبقى من استقلالها . ولكن المسلمين طالما وجدوا من جورجيا إيالة تسودها القوضى والنرد ، وتأهب دائماً لإشعال نار الثورة لانتفه الأسباب . فسمى الأتراك والفرس لكسب ولاء هؤلاء الرعايا ، الذين يثيرون المتاعب والفلاقل ، عن طريق تحويلهم إلى الإسلام . وقد أسلم بعد سقوط القسطنطينية وازدياد النفوذ التركي في آسيا الصغرى ، أهالي أبخالتسيخه Akhhaltsikhe ومقاطعات أخرى تقع غربها (٢) . وفي سنة ١٥٧٩ وفد أميران من جورجيا - وكانا أخوين - في بعثة إلى القسطنطينية ، تصحبها حاشية كبيرة تتألف من نحو مائتي شخص : وهنا أسلم الأخ الأصغر وأسلمت حاشيته معه أملاً ( كما قيل ) في أن يحل محل أخيه الأكبر (٣) . وقد ضمت فتوح الأتراك إلى حوزتهم ، بعد هذا العصر بزمن طويل بعض المقاطعات الواقعة في قلب جورجيا التي اعتنق أهلها ديانة الفانحين (٤) . ومنذ ذلك الوقت اعترفت Samtzhé ، أقصى أجزاء جورجيا من جهة الغرب ، بسيادة تركيا : فأتيح لحكامها وشعبها أن يظلوا على عقيدتهم المسيحية ، لا يتعرض لهم أحد بسوء ، إلا أنه منذ سنة ١٦٢٥ اعتنق البيت الحاكم الإسلام وحذا حذوه كثير من الزعماء والأشراف .

وظلت المسيحية بعد ذلك محتفظة بسلطانها على الفلاحين وقناً طويلاً . ولكن حين أبي رجال الكنيسة ، في إقليم سامتسخي ، أن يعلنوا ولاهم لجائليق كارثلي Karthli انقطع إرسال المدد الذي كان يسد حاجات الشعب الروحية بصورة منتظمة . وكان الأشراف حتى قبيل إسلامهم قد درجوا على اغتصاب ضياع الكنيسة ، ثم بطبيعة الحال توقعوا بعد إسلامهم عن مساعدتها بعباياهم ، وكان طبيعياً أن تحمل المساجد محل الكنائس والأديار التي حل بها الخراب (٥) .

وخضع سائر أجزاء جورجيا لفارس ، وعندما زار تافرنييه هذا الجزء من البلاد ، في أواسط القرن السابع عشر ، وجده منقسماً إلى مملكتين كانتا تابعتين للدولة الفارسية . يحكمهما أمراء من أهالي جورجيا ،

Id. p. 127. (١)

Id. p. 143. (٢)

David Chytraeus, p. 49. (٣)

Joselian, p. 157. (٤)

Brosset 11\* partie, 1\* livraison, pp. 227-35. Description géographique de la Géorgie par le Tsarévitch Wakhoucht, p. 79. (St. Petersburg, 1842.) (٥)

وكان عليهم أن يدخلوا في الإسلام قبل التقدم لشغل هذا المنصب<sup>(١)</sup>. وكان من هؤلاء الأمراء السابقين إلى الحكم قسطنطين تساريفتش C. Tsarevitch بن اسكندر الثاني ملك كاخث Kakheth، وكان قد تربى في البلاط الفارسي، حيث اعتنق الإسلام في بداية القرن السابع عشر<sup>(٢)</sup>. كذلك تربى في فارس الملك تساريفتش رستم (١٦٣٤-١٦٥٨ م)، وهو أول ملوك كارثلي Karthli من المسلمين، وكان هو وجميع من خلفوه حتى نهاية ذلك القرن من المسلمين<sup>(٣)</sup>.

ويصف تافرنييه أهل جورجيا بأنهم على جانب كبير من الجهل بالشئون الدينية، كما يصف رجال الكنيسة بأنهم أميون وأصحاب رذيلة. وقد حدث أن باع فريق من رؤساء الكنيسة فتيات وصبياناً من المسيحيين بيع الرقيق للأتراك والفرس<sup>(٤)</sup>. ويظهر أنه قامت منذ ذلك الحين، حركة ارتداد عن المسيحية واسعة النطاق وخاصة بين الطبقات العليا وبين هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى اكتساب عطف البلاط الفارسي<sup>(٥)</sup>. وفي سنة ١٠٧١ م كان واختنج السادس Wakhtang VI الذي جلس على عرش جورجيا مسيحياً؛ وظل طوال السنين السبع الأولى من حكمه سجيناً في أصبهان، حيث بذلت جهود ضخمة لمحله على الإسلام؛ وقد قيل إنه عندما صرح بأنه يؤثر ضياع عرشه على أن يشتريه بالارتداد عن دينه، عرض أخوه الأصغر، مع أنه كان يشغل منصب بطريق جورجيا، أن يترك المسيحية ويعتنق الإسلام إذا أنعم المسلمون عليه بالتاج، ولكنه بالرغم من أن الفرس قد منحوه السلطة الملكية، رفض أهل جورجيا قبوله حاكماً عليهم وطردوه من المملكة<sup>(٦)</sup>.

وحول نهاية القرن الثامن عشر وضع ملك جورجيا شعبه تحت حماية التاج الروسي. وإلى تلك اللحظة كان شعورهم الوطني الفياض قد ساعد على الاحتفاظ بالعقيدة المسيحية حية بينهم طالما كان الغزاة الغرباء من المسلمين. أما في الوقت الذي أصبحت فيه القوة التي تسعى إلى سلب استقلالهم تدين بالمسيحية، فقد ساعد هذا الشعور نفسه على خدمة الإسلام في بعض المقاطعات الواقعة شمالي القوقاز. وفي داغستان حاول شخص يدعى درويش منصور أن يجمع شمل قبائل القوقاز المختلفة لمناهضة الروس، وبث دعوته إلى الإسلام وأفلح في تحويل أمراء يوجنستان وداغستان وأشرافهما الذين ظلوا على ولائهم للإسلام منذ ذلك الحين.

The Six Voyages, p. 123. (١)

Joselian, p. 149. (٢)

Id. pp. 160-1. (٣)

Tavernier (1), pp. 124, 126. (Id. 123.) (٤)

وهو يقدر عدد المسلمين بحوالي اثني عشر ألفاً.

Brosset, II<sup>e</sup> partie, 1<sup>re</sup> livraison, pp. 85, 181 (٥)

Documents Originaux sur les relations diplomatiques de la Géorgie (٦)

avec la France vers la fin du regne de Louis XIV, recueillis par M. Brosset Jeune.

(J. A. 2<sup>me</sup> série, tome ix. (1832), pp. 197, 451.)

وكذلك دخل بدعوته ، كثيرون من الجراكسة في الاسلام وفضلوا أن ينفسوا من البلاد على أن يخضعوا للحكم الروسي (١) . ولكنه أسر في سنة ١٧٩١ م ، ثم دخلت جورجيا رسمياً في حوزة الإمبراطورية الروسية عام ١٨٠٠ م .

ولم يكن درويش منصور هو الوحيد الذي قام بمجهود في سبيل إدخال الجراكسة في الإسلام . فعند ما اعترفت معاهدة كوتشاك قينرجي Kuchak-Kainarji سنة ١٧٤٤ باستقلال القرم ، وفتحت طريق البحر الأسود للسفن الروسية ، استولى الفزع على الحكومة التركية من أن تطمع روسيا فتقوم بحركة أخرى للسيطرة على طول الساحل الشرقي للبحر الأسود ، وعقدت التنية على أن تحاول تحريض الجراكسة على المقاومة . فأرسلت ضابطاً تركيا يدعى فرح على سنة ١٧٨٢ م لتأسيس مستعمرة حربية في أنابا ، بالقرب من منفذ بحر آزوف والدخول في صلوات مع قبائل الشراكسة . وكان أول ما وجه إليه فرح على عنايته أن خطب ابنة أحد البسكوات الجراكسة ، وقدم إلى أبيها هدايا ثمينة من الأسلحة والخيل وغيرها ؛ وقد احتفل بالزواج في موكب عظيم واحتفال عظيم . وشجع فرح على جنوده على أن يحذوا حذوه فوعدهم القيام بنفقات أزواجهم . وكان من أثر ذلك أن انضم فريق من النساء الجركسيات ، إلى المستعمرة الصغيرة واعتنقن ديانة أزواجهن ، وجذبن آباءهن وإخواتهن إلى الإسلام . بفضل روح الحماسة التي تميز بها الجند في الإسلام . وابتدأت حركة نشيطة في نشر الدعوة إلى الإسلام ، ويظهر أن الذين انحازوا إلى المستعمرة التركية من الجراكسة ، كانوا قد أظهروا استعداداً عند ما تركوا معتقداتهم الوثنية في سبيل الدين الذي نزل به القرآن . وقد عكف العلماء ( الملاوات ) على تفيقه حديثي العهد بالإسلام . ولم يكن بد من أن يطلبوا مدداً من القسطنطينية لتثقيف جموع الداخلين في الاسلام . الذين كان عددهم يزداد شيئاً فشيئاً (٢) .

ولكن نشاط فرح على لم يدم طويلاً ؛ فقد توفى سنة ١٧٨٥ ، وكان قبره مثابة احترام وتوقير كما كانت قبور القديسين ، غير أن جهوده قد زالت بموته . فقد انتقلت أنابا إلى أيدي الروس سنة ١٨١٢ م ، وعند ما تعلقوا على مقاومة الجراكسة بصفة نهائية سنة ١٨٦٤ ، هاجر أكثر من نصف مايون من الجراكسة المسلمين إلى الأراضي التركية .

وكان اعتناق أي دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا ، أمراً محرماً في القانون الروسي ، ومن ثم توقف الإسلام عن أي تقدم جديد إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥ . ومن النتائج التي ترتبت على صدور هذا المرسوم ، في بلاد القوقاز ، أن دخلت جموع كثيرة في الإسلام من بين طوائف الأبخاز Abkhazes الذين كانوا قد ظلوا طويلاً يدينون بالمسيحية اسماً فقط ، ولكنهم الآن قد أصبحوا مسلمين . في جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد أخذ الخوف منهم كل ما أخذ حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم ، أملاً في مناهضة النفوذ الإسلامي (٣) .

Mackenzie, p. 7. Garnett, p. 194. (١)

Barbier de Meynard pp. 45 sqq. (٢)

R. du M. M., VII, p. 320 [1909] (٣)

## الباب الرابع

### انتشار الاسلام بين مسيحيي افريقية

دخل الإسلام إفريقية أولاً مع الجيش العربي الذي غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ م (٥٢٠ هـ) ، وقد ترك انسحاب الجيوش البيزنطية بعد ذلك ثلاث سنين أهالي هذه البلاد المسيحيين الكثيرى العدد في أيدي الفاتحين المسلمين . ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب ، قبل كل شيء ، إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي ، لما عُرف به من الإدارة الظالمة ولما أضمره من حقد مرير على علماء اللاهوت . فان اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين ، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط الذين ألقوا في قلوبهم بزور السخط والحقد اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم (١) .

كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في اليم ، وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدي مضطهديهم ، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الخنثية ، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية (٢) . وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط ، ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر ، حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان . وقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنوا من عبثه الثقيل في ظل الحكم الروماني . ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس ، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب (٣) . وبظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعاً ما . وليس هنالك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين (٤) . بل لقد

(١) Amélineau, p. 3; Caetani, vol. iv. p. 81 sq.

قيل إن جستيان أمر بتل مائتي ألف من القبط في مدينة الاسكندرية ، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء . (Wansleben : The Present State of Egypt, p. 11.) (London, 1678)

(٢) Renaudot, p. 161. سورس ص ١٠٦

(٣) يوحنا أسقف قيسريه القوي ( عاش في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي ) ص ٥٨٤

Caetani, vol. iv. pp. 515-16.

(٤) Bell, p. xxxvii. ولكن الدلم والغناه المذنب لم يكن بد من أن يقاسهما القبط بعد الفتح بنحو سبعين سنة ، نسمع

لنا كما يقول المقرئ في شيء من الجهد بأن نمد هذه العسرة إلى الحد الذي عينه فون رانكي بقوله : .. ونعرف عن طريق أسدق الأدلة أن أهالي مصر في القرون التالية كانوا في ظل السيادة العربية يعيشون في حالة مرضية . ..

(Weltgeschichte, vol. v. p. 153, 4th ed.)

تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة<sup>(١)</sup>. وفي عهد عثمان ابن عفان (٦٤٣ - ٦٥٥ م) (٢٣ - ٢٥ هـ) بلغ خراج مصر اثني عشر مليون دينار، ثم نقص بعد سنين قليلة إلى خمسة ملايين في عهد معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ - ٦٧٩ م) (٤١ - ٦٠ هـ)، وذلك بسبب دخول عدد كبير في الدين الإسلامي؛ ثم أخذ الخراج في النقصان في عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠ م) (٩٩ - ١٠١ هـ)، حتى إن والي مصر<sup>(٢)</sup> اقترح ألا يعفى من يدخلون في الإسلام بعد ذلك من أداء الجزية. ولكن الخليفة التقي أبي أن يجيب هذا الوالي إلى طلبه قائلاً إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جانياً<sup>(٣)</sup>.

ولكن الولاة الذين جاؤوا بعد ذلك اعترفوا أن مثل هذه السياسة تضر بالدولة لأسباب تتعاقب بهال الجباية، وألحوا بأن يؤدي الذين يدخلون في الإسلام الضرائب كما كانوا يؤديونها من قبل. على أن مثل هذه السياسة لم يقدر لها الاستمرار، وعمل كل وال من هؤلاء الولاة برأيه، وبصورة تقوم على التسف وعدم النظام<sup>(٤)</sup>. فقد ذكروا أن حفص بن الوليد الذي ولى مصر في سنة ٧٤٤ م (١٠٨ هـ) لما وعد بإعفاء جميع الذين يدخلون في الإسلام من الجزية. اتحل هذا الدين عدد بلغ أربعة وعشرين ألفاً<sup>(٥)</sup>. وقد قيل إن أبا العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين أذاع بياناً مماثلاً على أثر اعتلائه عرش الخلافة في سنة ٧٥٠ م (١٣٢ هـ)، إذ كتب إلى جميع مملكته أن كل من يصير على دينه ويصلى كصلاته يكون بغير جزية، فن عظم الخراج والكلف عليهم أنكر كثير من الأغنياء والفقراء دين المسيح وتبعوه<sup>(٦)</sup>. والحق أن كثيراً من مسيحي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي. وقبل هذا العصر، كانت جماعة صغيرة جداً من سكان وادي النيل تدين بالمسيحية. ولكن ما عاناه الشهداء في اضطهادات دقلديانوس، وما دون عن المعجزات التي آتى بها هؤلاء الشهداء،

(١) المصدر نفسه ص ٥٨٥. . . فكثير من المصريين الذين كانوا من المسيحيين الزانحين أنكروا الديانة المقدسة الكاملة. والتعبد الذي يهب الحياة، وأجازوا إلى ديانة المسلمين أهداه الله، وقبلوا المذهب. . . الذي جاء به ذلك الخلق، عمد، لقد ساهموا في خلال هؤلاء المشركين وامتشقوا السلاح في وجه المسيحيين. . .

(٢) ويظهر أن قرعة بن شريك (ولى مصر من سنة ٧٠٩ إلى سنة ٧١٤ م) (٩٠ - ٩٦ هـ) أو سلفه قد أمر هل أن يمتنر الذين تحولوا إلى الإسلام في أداء الجزية. (Becker, Papyri Schott-Reinhardt, p. 18.)

(٣) ابن سعد: الطبقات ٥ ص ٢٨٣.

(٤) Caetani, vol. iv. p. 618; vol. v. pp. 384-5.

(٥) سورس ص ١٧٢-١٧٣.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

والشعور القومي الذي أثارته روح المقاومة لأوامر الحكومة الأجنبية<sup>(١)</sup>، وما أعطوا من الضمانات بأن جنة النعيم قد فتحت أبوابها لكل شهود مات على أيدي معذبيه - كل أولئك قد أثار في نفوسهم حماسة أدت إلى سرعة انتشار الدين المسيحي بصورة لا يكاد يصدقها العقل . وبدلاً من أن ينتصر المصربون عن طريق التبشير ، كغيرهم من أهالي بلاد المشرق ، تراهم ينتحلون المسيحية في غمرة من الحماسة الجارحة ، دون أن يتلقوا أى شيء من التبشير أو التعليم عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذي خلغ حياة من السعادة الأبدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده<sup>(٢)</sup> .

ومن المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلاً في القرن السابع . وإن التعليقات النظرية التي استغلها زعمائهم في إثارة شعور الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية ، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جداً من الناس ؛ كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء ، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام . وإن الأساس اللاهوتي لبقاء البعوثيين حزباً منفصلاً ، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلاً ، ودفَعوا ثمناً غالياً في هذه السبيل ، قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا ، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ ، واستولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم ، إلى عقيدة تلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة ، ورسالة نبيه محمد . بل إننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة ، إن لم تكن إسلامية خالصة ، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها ، وربما ساعد عدم وجود أى نظام كنسي مستقل ، يجد طريقة لإيضاحه والتعبير عنه ، على زيادة عدد الذين دخلوا في الإسلام . وفي أوائل القرن الثاني عشر كان بدير القديس أنطونيوس (بمقربة من إطفيح على النيل) راهب يدعى بلوطس ، وكان عالماً ومعلماً خبيراً بأوضاع الدين المسيحي وسيرة الرهبنة ماهرأ في حقوق ما يلزم من القوانين الشرعية ، وأصاحبه الشيطان في شرك من شركه ، فاعتقد اعتقاداً مخالفاً لما وضعه الآباء الثلاثة والثمانية عشر (بمجمع نيقية) . وأفسد عقول جماعة كبيرة ممن ليس له معرفة ولا دراية بالأمانة الأرثوذكسية ، وأشاع من فمه النجس ومنطقه الخبيث أن المسيح ربنا له المجد ، كأحد الأنبياء ، وصار مجتمعاً بالأشهرار من أهل الملة وهو لا يس شكل الرهبنة منتطقاً بالزونية والأسكيم ، وإذا سئل عن مذهبه واعتقاده فيقول إنه موحد وظهرت مقالته في سنين آخرها سنة تسع وثلاثين وثمانمائة للشهداء الأبرار (١١٢٣ م) ، ومات وانقطع ذكره إلى الأبد<sup>(٣)</sup> (٤)

(١) وليس من شك في أنه كان في كثرة الشهداء ضرب من مقاومة الحكام القرباء في سبيل الوطن (Amélineau, p. 58.)

(٢) Amélineau, pp. 57-8.

(٣) أبو صالح الأرمني ص ١٦٣ - ١٦٤

(٤) وردت أخطاء لغوية ونحوية في هذا النص أجبنا عليها وتركناها لفضة القارىء .

أضف إلى ما تقدم أن نظرية الحياة المسيحية التي وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه في التعسف في أكبر صورة<sup>(١)</sup> قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية<sup>(٢)</sup>. وللكثرة عدد القبط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين ، أخذ أتباع النبي يعتبرونهم أشد ميلاً لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى . ومع أنهم قد تعرضوا لتحمل أشد أنواع الظلم والاضطهاد في كثير من المناسبات ، قيل إن القبط الذين حملوا على ترك دينهم على هذا النحو كانوا أقل عدداً بالنسبة إلى هؤلاء الذين غيروا دينهم عن طواعية<sup>(٣)</sup>. حتى في القرن التاسع عشر ، في الوقت الذي قيل فيه إن مصر كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحاً في الدين ، لم تخل سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام<sup>(٤)</sup> . أضف إلى ذلك ، أن الاضطهاد والظلم قد قاما من غير شك بدور كبير في نقص عدد القبط . وإن قصة آلام كنيسة اليعاقبة في مصر ، التي اضطهدتها كذلك لإخوانهم في الدين من المسيحيين<sup>(٥)</sup> ، وأتباع المذهب السائد في هذه البلاد ، لتثير أشد ألوان الحزن والأسى . وقد ترك كثير دين آبائهم ليتخلصوا من الضرائب الثقيلة والتحقير والشتم التي لا تحتمل . وإن الفرق الشاسع في ذلك بين حالتهم وحالة مسيحي سورية وفلسطين والاندلس في العصر نفسه ، لتجد ما يعبر عنها في الثورات التي أشعل نيرانها القبط أنفسهم . ويظهر أن نزاعهم الطويل الذي قاموا به في وجه استبداد بيزنطة من الناحيتين المدنية والدينية ، قد أثر في ذوى الغيرة على الدين وحوطهم إلى جماعة وطنية استطاعت أن تصبر قليلاً على حكم الأجانب من العرب كما صبروا على حكم البيزنطيين من قبلهم . وإن الثورة التي قام بها القبط في وجه سادتهم الجدد في سنة ٦٤٦ م ، حين طردوا العرب من الاسكندرية إلى حين ، وفتحوا أبواب هذه المدينة للجيوش البيزنطية (التي عاملت القبط المشكوكين كأعداء ،

(١) Amélineau, pp, 53-4. 69-70.

(٢) أدنا أبو صالح بيان يشتدل على بعض الزهان الذين اتحلوا الاسلام ، ولا يعد أن يمثل هؤلاء عدداً أكبر من الزهان الذين لم يترك هذا المؤرخ نبأ بأحمانهم بسبب افتقاره إلى معرفة الظروف التي لا يست ما لحق بهذا الدين من التلف أو ما حدث مما جعل أمثال هذه الحوادث ذات أهمية لديه ( ص ١٢٨ ، ١٤٢ ) .

(٣) Lane, pp. 546, 549.

(٤) Dr. Andrew Watson : Lüttke (1), vol. i, pp. 30, 35. وقد كتب الدكتور اندرو واطسون  
.. لم تمر سنة واحدة في الأربع والأربعين سنة التي أفتها في وادي النيل دون أن أسمع عن أمثلة عدة للذوق عن الدين لأسباب أهمها الأمل في نيل أغراض دينية مختلفة الأنواع ، والاضطهاد القاسي المستمر ، وتعرض لقسوة جيورائهم من المصلين وميلهم لقب ، وتعرضهم للهانة ، والضعف السياسي على اختلاف أنواعه . . .

(Islam in Egypt: Mohammedan World, p. 24.)

(٥) سوريس بن المقفع ص ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٤٣ .

ومن أول المناسبات التي ضجوا فيها بالشكوى من الضرائب القادحة ما حدث عند ما أخذ ميثاس وال مصر السفلى من مدينة الاسكندرية ٥٧ ، ٢٢٠ قطعة من العملة الذهبية كرهاً بدلا من ٢٢٠.٠٠٠ قطعة كان عمرو قد فرج جمعها ( يوحنا أسقف قيسوس ص ٥٨٥ ) وقال رينودو ( Renaudot, p. 168 ) إنه بعد أن استرد رجال الكنيسة سلطانهم بعد الفتح الاسلامي نحو سبعين سنة ، قام القبط على يد الكنيسة بقدر ما قاموا على أيدي المصلين أنفسهم .

والذين لم يكونوا قد نسوا بعد الحفاوة التي قابلوا بها غزاة المسلمين من قبل) — كانت الأولى من سلسلة الثورات والفتن<sup>(١)</sup> التي طالما أثارتها الضرائب الفادحة، التي دفعتم إلى القتل وعرضت جماعة المسيحيين من اليعاقبة في مصر إلى الصلابة في تحمله أكثر من أية فرقة من الفرق المسيحية في هذه البلاد أو في البلاد الأخرى التي كانت تحت حكم المسلمين. ولكن تاريخ هذه الحوادث يتصل بتاريخ اضطهاد المسلمين وتعصيم الدين، أكثر مما يتصل بموضوع هذا الكتاب. على أنه يجب أن لا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طنفة مضطهدة<sup>(٢)</sup>؛ بل على العكس كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها إلى المناصب التي يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى في الدولة. فملئوا مناصب الوزراء والكتاب في دواوين الحكومة<sup>(٣)</sup>، وحددوا قيمة الضرائب التي تجب على الأرض التي تعطى على سبيل الالتزام<sup>(٤)</sup>، وجمعوا ثروة ضخمة<sup>(٥)</sup> في بعض الحالات وأقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة<sup>(٥)</sup>. وإلى مثل هذه الفترة التي تمتعت فيها الكنيسة بالسلام، يرجع ذلك الحادث الذي أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين في جماعة المؤمنين.

وفي عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر (١١٦٩ — ١١٩٣ م) (٥٦٤ — ٥٨٩) تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، في ظل ذلك الحاكم الذي عرف بالتسامح الديني. فقد خفف الضرائب التي كانت فرضت عليهم، وأزال بعضها جملة. وملئوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة. وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان. ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتم أنفسهم من الفساد والانحطاط. فقد فشت السيمونية بينهم، فبيعت مناصب التسلسلين الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بهجزم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين بشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيا وخلقيا إهمالا تاما، وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال<sup>(٦)</sup>. كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع والسبعين من بطارقة اليعاقبة في سنة

(١) ذكر المرزبى عمداً من الفتن الأخرى التي أثارها القبط والتي لم يكن بد من أن تقع بقوة السيف في خلال القرن الأول

لسيادة العرب (المرزبى (٢) ص ٧٦ - ٨٢)

(٢) راجع ما ذكره المرزبى (٣ ص ٧٩ - ٨٠) عن انتفاخ القبط وما كان من الأحداث في ذلك، وما ذكره

عن دخول الصاري من قبط مصر في طاعة المسلمين وأدائهم الجزية وانحاضهم ذمة لهم وما كان في ذلك من الحوادث والأخبار.

(٣ ص ٤٩٢ - ٥٠١)

(٤) Renaudot, pp. 189, 374, 430, 540. (٢)

Id. p. 603. (٣)

Id. pp. 432, 607. Nasir-i-Khusrau : Safar-namah, ed. Schefer, pp. 155-6. (٤)

Renaudot, pp. 212, 225, 314, 374, 540. (٥)

Renaudot, p. 588. (٦)

١٢١٦ م ، كان لابد من انتخاب خليفة له ، وقام بين الجماعات المتعادية المتناحرة التي لجت في إثارة حقوق المرشحين المتنافسين ، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة . إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات ؛ فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة مخزية ضارة ، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التي تنطوى على العناد وإثارة الشقاق . وفي أكثر من مناسبة ، حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هذه الفرق المتخاصمة ، ورفض ما عرضته عليه من رشا ضخمة بلغت ثلاثة الآلاف وخمسة الآلاف ، بل عشرة الآلاف قطعة من العملة الذهبية ليغروه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمي . بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التي اعتاد أن يؤديها البطريق الذي يفوز حديثاً بالانتخاب ، لو أنهم طرحوا منازعاتهم ووصلوا إلى شيء من الاتفاق . ولكن هذه الجهود لم تحقق أى غرض من الأغراض . وخلا في الوقت نفسه كثير من الأسقفيات ، ولم يكن هناك من محل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا في تلك الفترة . ففي دير القديس مكاريوس وحده لم يبق غير أربعة من القسيسين بعد أن كان عددهم قد تجاوز الثمانين في عهد البطريق السابق (١) . وقد بلغ من شدة إهمال مسيحي أبرشيات الكنيسة الغربية أنهم تحولوا إلى الإسلام (٢) . ويؤسفنا أن ليس لدينا ما نزيده على هذا البيان الجريء الذي أتى به مؤرخ الكنيسة القبطية من المعلومات عن الجهود الفعالة التي بذلها المسلمون في سبيل تحويل هؤلاء المسيحيين إلى دينهم . وإذا كانت ثمة جهود قد بذلت في هذا السبيل ، فهذا أمر لا يثير غير قليل جداً من الشك ، وخاصة إذا علمنا أن المسيحيين قد قاموا بمحاولات عننية وشغلوا أنفسهم بتدوين المناقشات والمناظرات عن مزاييا كل ديانة بالنسبة إلى غيرها (٣) من الديانات المنافسة لها . وبما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعاً إلى الاضطهاد ، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية وهو أنه في الوقت الذي شغل فيه كرسي البطرقية ، تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم ، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة ، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الخمر والبغال ، وحوكموا في محاكمهم الخاصة ، على حين أعنى الرهبان من دفع الجزية ، ومنحوا امتيازات معينة (٤) .

ومن الصعب أن نقدر إلى أى حد يعد هذا الحادث مثلاً لانتشار الإسلام بين القبط . وقد ذكر

Id. pp. 567, 571, 574—5. (١)

(٢) Wansleben, p. 30. ذكر فندلين مثلاً آخر وقع في ظروف متباينة عن تدهور الكنيسة القبطية في جريرة برص التي كانت من قبل تحت نفوذ البطريق القبط في المسائل القضائية . وقد بلغ من اضطهاد رجال الدين من الأوثودوكس ، الذين تمتعوا بحماية الأباطرة البيزنطيين ، أن البطريق لم يستطع أن يمنع القسيسين للذهاب إلى هناك . وكان من أثر ذلك أن جميع القبط الذين أقاموا في الجزيرة ، قبلوا الإسلام ديناً لهم ، أو اعترفوا بجمع خلقهم خندقية ، وأغلقت كنائسهم جميعاً . (Id. p. 31.)

Renaudot, p. 377. (٣)

Ibid, p. 575 (٤)

حالة مشابهة لهذا الإهمال اثنان من الرهبان الكبوشيين (٤) قاما برحلة في النيل في القرن السابع عشر الميلادي إلى الأقصر ، فوجدا أن القبط في هذه المدينة لم يكن لهم قسيس ، وأن بعضهم لم يذهب للاعتراف أو يحضر القداس أو العشاء الرباني مدة خمسين سنة (١) . وفي مثل هذه الظروف نستطيع أن ندرك بسهولة قلة عدد القبط . وقد حدث إهمال مماثل ربما يعزى إلى انحلال الكنيسة النوبية التي اعترفت بسيادة بطريرق الإسكندرية اليعقوبي عليها ، كما كان يفعل الحبشة حتى الوقت الحاضر . وقد تحول النوبيون إلى المسيحية حول منتصف القرن السادس الميلادي ، واستردوا استقلالهم عند ما فتح العرب مصر ؛ وعقدت معاهدة كانوا بمقتضاها يقدمون في كل عام ثلاث مائة وستين من العبيد بالإضافة إلى أربعين عبدا يقدمونهم إلى والي مصر ، على أن يمدم العرب بالغلل والزيت والملابس (٢) . وفي عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢ م) أرسلت السفراء ليجددوا هذه المعاهدة ، وزار ملك النوبة حاضرة مصر حيث قوبل بالتعظيم والتبجيل ، ثم عاد يحمل معه هدايا ثمينة ذات قيمة (٣) . وكان جميع النوبيين في القرن الثاني عشر لا يزالون على المسيحية (٤) ، واحتفظوا باستقلالهم القديم على الرغم من الحملات المتكررة التي كانت ترسل إليهم من مصر (٥) . وفي سنة ١٢٧٥ م استطاع ابن أخي ملك النوبة في ذلك الحين أن يظفر من سلطان مصر بقوة من الجيش تشد أزره في الثورة التي أعلنها على عمه . وقد استطاع بمعوتهم أن يعزله ؛ ولم يكن بد من أن ينزل للسلطان عن ولايتين في أقصى شمال النوبة جزاء مساعدته . ولما كان أهالي هذه المنطقة قد اختاروا البقاء على دينهم المسيحي ، فقد فرضت عليهم جزية سنوية مقدارها دينار واحد على كل ذكر منهم (٦) . على أن السيادة الإسلامية على هاتين الولايتين لم تكن إلا وقتية ، فسرعان ما استعاد النوبيون الذين كانوا يسكنون في هاتين الولايتين استقلالهم (٧) .

ولكن العرب كانوا قد استقروا في النوبة قبل ذلك بعدة قرون ، وزاد عدد العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق ، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة في القرن العاشر ، حتى إنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد في سوبة (٨) ، عاصمة المملكة المسيحية (٩) .

(٤) الكبوشيون هم لابسو القلائس من رهبان الفرنسكان نسبة إلى Capuche أى قلنسوة .

(١) Relation du voyage du Sayd ou de la Thebayde fait en 1668, par les PP. Protais et Charles—François d'orleans, Capuchins Missionaries, p. 3. (Thevenot, vol. ii.)

(٢) Caetani, vol. iv. p. 520.

(٣) Ishok, of Romgla, pp. 272—3.

(٤) الأديسي ص ٣٢

(٥) المغربي (٢) ج ١ القسم الثاني ص ١٣١

(٦) المغربي ص ١٢٨ - ١٣٠

(٧) Burckhardt (1), p. 494.

(٨) وتقع على بعد اثني عشر ميلا تقريبا من مدينة الخرطوم الحديثة .

(٩) Artin, pp. 62, 144.

وفي القرن الثالث عشر ، ومن أوائل القرن الرابع عشر خاصة ، بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماج العرب ، ولا سيما قبيلة جهينة الذين تزوجوا من نساء هذه البلاد ، ونجحوا شيئاً فشيئاً في كسر شوكة الأمراء النوبيين (١) . ويخبرنا ابن بطوطة (٢) في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا في وقته لا يزالون على المسيحية ، مع أن ملك مدينة دنقلة (٣) ، تلك المدينة الرئيسية في بلاد النوبة ، كان قد دخل في الإسلام ، وذلك في عهد الناصر (وربما كان هو الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين مصر من المماليك الذي توفي في سنة ١٣٤٠ م) . ولم تفلح الحملات المتكررة التي قام بها المسلمون في عصر متأخر كالقرن الخامس عشر في تقدم فتوحهم جنوبي الشلال الأول حيث كان يقع بالقرب منه آخر معقل من معاقلمهم (٤) ، على حين كانت المسيحية ، فيما يظهر ، تمتد بعيداً على طول نهر النيل حتى مدينة سنار .

ويظهر أن المملكة النوبية المسيحية قد صارت إلى الزوال ، لظهور الانقسامات الداخلية من ناحية ، ولهجات القبائل العربية والإفريقية التي كانت تغير على حدود هذه المملكة من ناحية أخرى ، وأخيراً لقيام دولة الفونج القوية في القرن الخامس عشر (٥) .

ولكن من الجائز أن الإسلام في هذه البلاد كان يلقى خلال ذلك الوقت رواجاً على أيدي التجار وغيرهم من المسلمين الذين كانوا يترددون عليها . وقد نقل المقرئ الذي كتب في مستهل القرن الخامس عشر حكاية تتعلق بالدعوة ، لا نجد لها ذكراً في مؤلفات العرب إلا في القليل النادر . وقد روى هذه القصة ابن سليم الأسواني ، وهي من الأهمية بحيث تعطينا صورة حية للداعي المسلم الذي يعمل على نشر دعوته . ومع أن الداخل في الإسلام الذي أشارت إليه هذه القصة لم يكن مسيحياً ولا نوبياً ، فإن القصة مع ذلك تبين لنا أنه كان هنالك شيء كهذا يتعلق بتحويل الناس إلى الإسلام في بلاد النوبة في القرن الخامس عشر . ويقول ابن سليم إنه رأى ذات مرة رجلاً في مجلس نوبي كان عظيم المقرة ، وسأله عن بلده فقال مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة . وسأله عن دينه فقال : ديني وربيك الله ، ورب الملك ورب الناس كلهم واحد ، وهو كائن في السماء وحده ، فإذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء ، أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل ، ودعوا الله فيجأون للوقت ، وتقضى حاجتهم قبل أن ينزلوا . فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط

(١) Becker, Geschichte des östlichen Sudan, p. 160.

(٢) ٤٣ ص ٣٩٦

(٣) ويسجل سلاطين باشا أسطورة متداولة بين عرب دنقلة ، وهي أن هذه المدينة قد أسسها جدم الأكبر دنقل الذي سمي المدينة باسمه (على أن هذا الزعم محال نظراً لأن دنقلة كانت في عصور المصريين القدماء . وذكرت في الآثار . انظر Vuren de Saint-Martin, vol. ii, p. 85.) وتذكر الأسطورة أن هذا المدعو دنقل ، مع أنه كان عبداً ، تمكن من أن يكون حاكماً لبلاد النوبة ، غير أنه كان يؤدي الجزية إلى يهنا ، الأسقف القبطي لكل الأقاليم الواقعة بين سراس والديه الحاليين .

( Fire and Sword in the Sudan, p. 13 ) ( London, 1896. )

(٤) ابن سليم الأسواني نقل عن المقرئ : كتاب الخطوط ١٣ ص ٩٠ . ( القاهرة ١٢٧٠ هـ )

(٥) Budge, vol. ii, p. 199. Artin, p. 144.

رسولا فيهم ، ذكر له ابن سليم بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم ، وما أيدوا به من المعجزات فقال : « إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ؛ وقد صدقهم إن كانوا فعلوا ، (١) » .

ويظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي ببطء شديد (٢) . وكانت الحياة الروحية في كنيسهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط . ولما وجد المسيحيون ألا أمل في قيام حركة للإصلاح في مجتمعاتهم ، وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم التي تقع فيما وراء حدودهم ، لم يكن من الطبيعي إلا أن ينشدوا ما يشفي غلتهم ويسد رمقهم الروحي في الدين الإسلامي الذي حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتاً طويلاً ، كما كانوا قد ظفروا بفريق من مواطنيهم الذين قبلوا الدخول في هذا الدين . وقد حفظ قسيس برتغالي تنقل في بلاد الحبشة بين سنتي ١٥٢٠ ، ١٥٢٧ صورة عن النوبيين في هذا الدور من الانتقال ؛ إذ كتب يقول إنهم لم يكونوا نصارى ولا يهود ولا مسلمين ، ولكنهم أصبحوا بحيث لا يدينون بدين ولا يعترفون بقانون ، ولكنهم مع ذلك كانوا يعيشون تحذوهم الرغبة في أن يكونوا مسيحيين . وقد انحدروا إلى أحط دركات الجهل بسبب ما وقع فيه رجال الكنيسة من خطأ ، فلم يكن بين هؤلاء النوبيين أساقفة ولا قساوسة في ذلك الوقت . وكان من أثر ذلك أن أرسلوا إلى ملك الحبشة بعثة مؤلفة من ستة رجال ، يتمتعون منه أن يرسل إليهم قسيسين ورهباناً لتعليمهم ، ولكن النجاشي أبي أن يفعل إلا بعد أن يستأذن في ذلك بطريق الاسكندرية . ولما لم يظفروا بهذا الإذن ، رجع هؤلاء السفراء السيئو الحظ إلى أوطانهم يحزون أذبال الحية (٣) . وقد روى مسيحي كان قد سافر إلى بلاد النوبة لهذا الكاتب نفسه ، أنه كان قد عثر على ١٥٠ كنيسة هنالك ، كان لا يزال في كل منها صور المسيح المصلوب ، ومريم العذراء ، وبعض القديسين منقوشة على الجدران . كذلك وجدت كنائس (٤) في كل القلاع التي كانت منبثة في جميع أنحاء البلاد . وقبل نهاية القرن التالي ، ذهبت معالم المسيحية من بلاد النوبة ، وذلك بسبب النقص في عدد رعاة الكنيسة . أما الكنائس المغلقة فلم يكن بد من أن تظل قائمة في أنحاء البلاد (٥) . وقد خضع النوبيون للمؤثرات الإسلامية القوية التي أحاطت بهم ، ويرجع إليها أكبر الفضل في الجهود التبشيرية التي قام بها المسلمون الذين تنقلوا في بلاد النوبة في القرون الماضية ؛ ففي الشمال كانت مصر وكذلك القبائل العربية التي كانت قد أخذت طريقها تجاه منابع النيل ، ووسعت سلطانها على طول ضفاف ذلك النهر (٦) ؛

(١) المقرئى : كتاب الحطط ج ١ ص ١٩٣

(٢) Morié, vol. i. pp. 417-18.

(٣) يذكر لورد ستايل أف ألدرلي Stanley of Alderley في ترجمته لكتاب ألفاريز Alvarez من الأصل المكتوب باللغة البرتغالية أن رد الملك عليهم كان كما يأتي : « قال لهم إنه قد حصل حل المطران من بلاد البربر ، يعني بذلك من جهة بطريق الاسكندرية ... فكيف يستطيع إذن أن يمد غيره بقسيسين ورهبان ، ما دام غيره يدمم » . (p. 352, London, 1881.)

(٤) Viaggio nella Ethiopia al Prete Ianni fatto par Don Francesco, (٤)

Alvarez Portuguese ( 1520-1527 ). ( Ramusio, tom. i. pp. 200, 250. )

(٥) Wansleben, p. 30. للاطلاع على وصف الجايا التي لا تزال باقية من هذه الآثار . وراجع Budge, vol.

(٦) ii. p. 299 sqq. G.S. Nileham, Churches in Lower Nubia (Philadelphia, 1910.)

Burckhardt (1), p. 133. (٦)

وفي الجنوب كانت ولاية قبائل بلو Belloos الإسلامية تفصل بينهم وبين بلاد الحبشة (١).

وكانت هذه القبائل في مستهل القرن السادس عشر خاضعة لمملك الحبشة المسيحية ، على الرغم من أنها كانت تدين بالاسلام . وإذا صح أن هؤلاء البلو هم البليسون الذين تحدث عنهم الادريسي في القرن الثاني عشر ، وعدم من النصرى البياقبة (٢) ، وقرن اسمهم باسم قبائل البجة ( سكان الجزيرة التي تعرف باسم جزيرة مرو ) الذين كانوا يقطنون بجوارهم ، فمن الجائز أنهم لم يقضوا إلا أعواماً قليلة قبل أن يتحولوا إلى الإسلام ، في الوقت الذي أسلم فيه قبائل البجة الذين كانوا قد اندمجوا في دولة الفونج الإسلامية حين مد هؤلاء فنوحهم بين سنتي ١٤٩٩ ، ١٥٣٠ من الجنوب حتى حدود بلاد النوبة والحبشة ، وأسسوا ولاية سنار القوية . وعندما غزا جيش أحمد جرائي بلاد الحبشة ، وشق طريقه في البلاد من الجنوب إلى الشمال ، اتصل حول سنة ١٥٣٤ بجيش سلطان مسيحيه أو مزجه Maseggia or Mazaga ، وهي ولاية كانت خاضعة لحكومة إسلامية ، ولكنها كانت تدفع الجزية لبلاد الحبشة ، وتقع هذه الولاية بين بلاد الحبشة وسنار . وكان في جيش هذا السلطان ١٥ ألف جندي من النوبيين ، وكانوا فيما يظهر لنا مما روى عنهم ، يعتقدون الدين الاسلامي (٣) . ولما كانت أخبار تحول النوبيين إلى الاسلام شذرات غير كافية ، فإننا نستطيع من غير شك أن نستخلص من كل ما نعرفه عن هذا الشعب الذي جبل على الاستقلال ، والذي عرف بتشبهه بالدين المسيحي طالما كان هذا الدين قوة حية بينهم ، أن تحولهم عن دينهم قد تم تدريجياً وفي خلال قرون كثيرة .

ولنتقل الآن إلى الكلام على تاريخ الاسلام بين الحبش الذين كانوا قد دخلوا في المسيحية قبل النوبيين بقرنين ، وخضعوا مثلهم للكنيسة يعقوية .

ويبدو أن تيمار الهجرة العربية لم يكن قد تجاوز البحر الأحمر الذي كانت سواحله الغربية تكوّن جزءاً من مملكة الحبشة إلا بعد أن دخل العرب في دين محمد بقرون كثيرة . ولم تكن هنالك حتى القرن العاشر الميلادي إلا أسر إسلامية قليلة العدد ، تقيم في مدن الحبشة الساحلية . إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر أدى تأسيس دولة عربية إلى فصل بعض الأراضي الساحلية عن المملكة الحبشية . وحدث في عام ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة ، ويدعى أبا عبدالله محمداً ، طريقه إلى بلاد الحبشة ، داعياً أهلها إلى الاسلام . فلما تمكن من أن يجمع حوله مائتي ألف شخص ، هجم في السنة التالية على حاكم أمهرة ، واشتبك معه في معارك كثيرة (٤) . وقد اتخذ الملك سيف أرعد (١٣٤٢ - ١٣٧٠ م) تدابير صارمة ضد المسلمين في مملكته ، تقضى بإعدام كل من أبي الدخول في المسيحية أو نفيهم من البلاد (٥) . وفي نهاية هذا القرن نفسه عمّت البلاد حالة قلق واضطراب

(١) Alvarez, p. 250.

(٢) الادريسي ص ٣٢ .

(٣) عرب قفيه ص ٣٢٢ .

(٤) القرظي (٢) ص ٢٠٣ قسم الثاني ص ١٨٣ .

(٥) Basset, p. 240.

لاشغالها بالحروب الداخلية ، ومهدت تلك الحـالة السبيل للقبايل العربية المختلفة التي استقرت على طول الساحل ، لأن يجعلوا من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها ، وطرردوا الأجباش إلى المناطق الداخلية . وقد قيل إن الملك بيد ماريا م ( ١٤٦٨ — ١٤٧٨ ) قضى الجزء الأكبر من حكمه في محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته (١) . وفي مستهل القرن السادس عشر ، بينما كانت مملكة عدل الإسلامية القوية الواقعة بين بلاد الحبشة والأطراف الجنوبية للبحر الأحمر وغيرها من الممالك في عداد مستحكم مع القوة المسيحية ، كانت هناك ممالك أخرى تؤلف جماعة مسالمة خاضعة للقديس يوحنا Prester John . ومن أمثلة هؤلاء قوم من العرب ، كانوا يسكنون في مصوع ، ويعيشون في كنف السادة الأجباش . وكانوا يطوفون في جماعات ، كل منها يتألف من ثلاثين أو أربعين شخصاً ، ومعهم نساؤهم وأطفالهم ، وعلى رأس كل جماعة قائدها . وقد ذكر كذلك أن بعض المسلمين كانوا من خدمة الملك ، وأنه كان يسند إليهم مناصب هامة في الدولة . وفي الوقت الذي نرى فيه بعض هؤلاء يظنون على إخلاصهم للإسلام ، نجد بعضاً آخر ينتحل الديانة السائدة في البلاد . أما أن هذه الجماعات الإسلامية كانت تؤدي الجزية لملك الحبشة ، فهذا أمر لا نستطيع التثبت منه . وقد كان على مسلمي هدية أن يدفعوا جزية أخرى للملك ، وهي أن يعطوه في كل سنة بنتاً ينصرها له ، وجدت هذه العبارة في بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائماً بها ، وكان أقوى منهم ، ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب ، ولا يمسكوا السيف ، ولا يركبوا خيولهم بالسروج ، قالوا : دوحكم علينا ... ونطيعه مخافة أن يقتلنا ، ويحرب مساجدنا . وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال ، أخرجنا له البنت على السرير ، ونفسها ونكفنها بثوب ونصلي عليها . ونحسب أنها مينة ، ونعطيها له . فإننا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك ، (٢) .

وكانت البقاع الرئيسة التي يقطنها هؤلاء المسلمون الذين يدفعون الجزية لملك الحبشة واقعة في الأراضي المنخفضة التي تؤلف حدود الحبشة الشمالية ، من البحر الأحمر غرباً حتى سار (٣) ، وفي الجهة الجنوبية والجنوبية (٤) الشرقية من المملكة . وإن القول بما كان لهؤلاء المسلمين من تأثير في الشعوب المسيحية التي اختلطت بهم ، وأنهم عملوا على تحويل الناس إلى الإسلام ، كما حدث في القرن الحالى ، لا يعدو الحدس والتخمين . ولكن هناك أمراً لا شك فيه ، وهو ما فعله أحمد جرائى أمير عدل المسلم المستقل ، وهو يروى عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة أيجو Aijo المسيحيين . وكان قد ترك موطنه ودخل في الإسلام في عدل (٤) . فقد غزا بلاد الحبشة من سنة ١٥٢٨ إلى ١٥٤٣ ، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأجباش مع أتباعهم ، وأصبحوا مسلمين . ومع أن أهالى بعض المقاطعات من المسيحيين قد آثروا أداء الجزية (٥) .

Id., p. 237. (١)

عرب فقيه ص ٢٧٥ - ٢٧٦ (٢)

نفس المرجع ص ٣١٩ - ٣٢٤ (٣)

نفس المرجع ص ٢٨ - ١٢٩ - ٢٧٥ (٤)

Plowden, p. 36. (٥)

وانتحل آخرون دين الفاتحين (١) ، غير أن المؤرخ المسلم المعاصر نفسه يذكر لنا أن هذا التحول إلى الإسلام كان في بعض الحالات نتيجة الخوف ، وأن الشكوك كانت تسيطر النفوس حول إخلاص هؤلاء القريبى العهد بالإسلام (٢) . ولكن من الجلى أن مثل هذه الحالة لم يكن عاماً بين الناس . وإن هذا التحول الواسع النطاق إلى الإسلام في مقاطعات كثيرة ، ليوحى بأن هذه الحركة كانت قد لقيت تأييداً من العامة ؛ فقد استغل الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصى في تحريض جيوشهم على الاقتداء بهم . ويقال إن فريقاً منهم كانوا على جهل تام بأصول دينهم (٣) ، ومن ثم كان تغيير الدين أمراً أقل صعوبة عليهم . وقد تحول إلى الإسلام بمثل هذه الطريقة الآلية كثير من الناس وخاصة زعماء المسلمين ، هؤلاء الذين كانوا قد دخلوا في خدمة ملك الحبشة ، وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم على أيدي جيش المسلمين الفاتح فرصة لأن يبنذوا في الحال المسيحية ، وطاعتهم للملك المسيحي ، وأن يعلنوا إسلامهم من جديد (٤) .

وفي سنة ١٥٣١ م كتب أحد هؤلاء إلى أحمد جرائى كتاباً هذا نصه : « أنا من أول مسلم وابن مسلم ، وأسرونى المشركون ، ونصرونى ، وإن قلبى مطمئن بالإيمان ، والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك ، أن تقبل توبتى ولا تؤاخذنى بما عملته ، فأنا نائب إلى الله ، وهذه جيوش الملك الذين هم معى ، أنا أحتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا . . . وفي الحق آثر السواد الأعظم من جيشه أن يقتدوا بقائدهم ، فأسلموا جميعهم ، وهم - فيما يقال - نحو عشرين ألفاً مع نسائهم وأولادهم (٥) .

ولكن الأقباش استطاعوا بمعونة البرتغاليين أن يخلعوا نير الغزاة المسلمين ، وقتل أحمد جرائى نفسه ، في سنة ١٥٤٣ . ومع ذلك استقرت دعائم الإسلام في تلك البلاد . وإن حالة القلق التى أصابت مرافق البلاد في البقية الباقية من القرن السادس عشر ، وفي القرن الذى يليه ، قد مكنت الإسلام من البقاء ، فقد كانت الكنائس المسيحية المتنافسة مشغولاً بعضها بالتنازع مع بعض انشغالا لم يمكنها من التفرغ لعدوها المشترك . فإن ما قام به اليسوعيون من أعمال ناجحة في التبشير ، وما فعله المبشرون الآخرون من الرومان الكاثوليك ، وما صنعه البرتغاليون من تدخل فعال في كل الشؤون المدنية والسياسية - كل ذلك قد أثار مقاومة عنيفة بين جمهرة مسيحي الحبشة . وكان هذا الشعور مؤلماً حقاً ، حتى لقد بلغ من ألمه أن بعض القواد قد أعلن صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على مخالفة البرتغاليين (٦) ؛ - وسرعان

(١) نفس المرجع والصفحات .

(٢) ص ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٤٨ .

(٣) نفس المرجع ص ١٧٨ .

(٤) حرب نقيبه ص ٢٤ - ٣٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ - ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٤ ، ٢٢٧ .

(٥) حرب نقيبه ص ١٨١ - ١٨٢ ، ١٨٦ .

(٦) *lobi Ludolfi ad suam Historiam Æthiopicam Commentarius* ، (١)

ما اتخذت الحركة شبه الدينية ، وشبه الوطنية التي استقرت هنالك مثل هذه الخطوات الواسعة التي أدت (حول سنة ١٦٣٢) إلى طرد البرتغاليين وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد . وسرعان ما أصبحت حالة بلاد الحبشة في ذلك الحين ضرباً من الفوضى المزعجة وسوء النظام . وقد استغل بعض قبائل الجلا Galla هذه الفرصة فشقت طريقها إلى قلب البلاد حيث لا تزال الأماكن التي استوطنوها باقية إلى الوقت الحاضر .

ويمكن أن يقدر المرء مدى التقدم الذي أحرزه الإسلام في خلال هذه الفترة مما أثبتته رحالة عاش في القرن السابع عشر، إذ يذكر لنا أن منتحلي هذا الدين كانوا في ذلك الوقت منبئين في جميع أنحاء بلاد الحبشة وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان<sup>(١)</sup> . ويلوح أن دين النبي قد كثر في خلال القرن الذي يليه عن طريق إسلام أفراد كانوا يعيشون في عزلة هنا وهناك . وقد ساعد عدم وجود أية حكومة مركزية قوية على ظهور أمراء مستقلين ، وكان كثير منهم يعطف على الإسلام عطفاً شديداً ، مع أن كل أمراء الحبشة ( وذلك طبقاً لأحد القوانين الأساسية للدولة ) لم يكن بد من أن يتبعوا الدين المسيحي . وكذلك تنكر المسلمون لديانهم التي نشئوا عليها ، تطلعاً إلى عظمة الأرستقراطية الحبشية ، وتظاهروا بالتحول إلى المسيحية حتى يتمكنوا من الانتظام في سلك الأشراف ، واستخدموا كل ما لهم من نفوذ في نشر الإسلام<sup>(٢)</sup> بكونهم حكاماً على الولايات المسيحية . ويظهر أنه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح هذا الدين ما كان للمسلمين من تفوق أدنى إذا ووزنوا بسائر أهالي الحبشة من المسيحيين .

ويقول ريبيل Ruppell إنه كثيراً ما لاحظ في خلال رحلاته في بلاد الحبشة ، أنه عند ما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص الذي يشغلها أميناً كل الأمانة ، موثقاً به تمام الثقة ، كان اختيارهم يقع دائماً على شخص مسلم . وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين ، فقال إنهم ( أي المسلمين ) كانوا أكثر حيوية ونشاطاً ، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة ، في الوقت الذي نرى فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا عند ما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت<sup>(٣)</sup> . وإن ما ناله مسلمو الحبشة من هذا التفوق الأدبي على الأهالي المسيحيين ، ليفسر لنا إلى حد بعيد ما أحرزه الإسلام من تقدم مستمر ، وإن كان بطيئاً في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وإن ما أتصف به رجال

Histoire de la Haute Ethiopie, par le R. P. Manoel d'almeida, p. 7. (١)

(Thevenot, vol. ii.)

Massaja, vol. ii, pp. 205-6. (٢)

تنفيذ إجراء شكلي ، إذ أن هؤلاء المرتدين كانوا مسلمين حقيقيين في قلوبهم ولسواكم . ومن ثم كانوا إذا ما ارتدوا إلى رتبة « داس » ، يحبطون أنفسهم بالمسلمين ، ويهدون إليهم في أكثر الوظائف ويفخرونهم بالألقاب والرتبة والتميم . وهكذا انضوت الحبشة المسيحية المحتاجة والآلهة بهذا الجنس السوء ، تحت لواء الإسلام . . .

Ruppell, vol. i, pp. 328, 366. (٣)

الكنيسة الحبشية من انحطاط وجود ، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات لا حد لها ، قد أفسحت للمؤثرات الإسلامية المجال لتعمل في حرية واطمئنان .

وعند ما تحدث مستر بلودن Plowden فنصل لإنجلترا في بلاد الحبشة من سنة ١٨٤٤ إلى ١٨٦٠ م ، عن قبائل الحباب وهي ثلاث قبائل تنتمي إلى فرع التيجرى Tigre ، وكانوا يقطنون بين خطى عرض ١٦° ٣٠' ١٧° إلى الشمال الغربي من مصوع ، قال إنهم اعتنقوا الإسلام ، في خلال مائة العام الأخيرة . وكلهم ما عدا الجيل الأخير ، يحملون أسماء مسيحية . وقد غيروا ديانتهم لما كان للمسلمين الذين كانوا يتجرون معهم من تأثير متصل ، وبما صنعه زعماء الحبشة من تركهم البلاد تدريجياً ، وقد أصبح الآن شاملاً ، لفرط انشغالهم مع جيرانهم في حروب لا تنقطع ، (١) . ومن أساطيرهم أن أحد زعمائهم ويدعى جاوج Jäwej قد رفض المسيحية ودخل في الإسلام ، اعتقاداً منه أن هذا الدين يورث حسن الحظ وطول العمر ، قال حينئذ لنفسه : « حطّمت التابوت قطعة قطعة (٢) ، فأجاب القسيس : « إنى لا أجرؤ على أن أحطم تابوت مريم قطعة قطعة ، عند ذلك أمسك جاوج التابوت بيديه ثم أهوى عليه بفأسه ، فحشمه قطعاً ، وهنا اعتنق القسيس الإسلام ، وأصبح كل ذريتهم شيوخاً للقبيلة حتى الوقت الحاضر (٣) .

وفي هذه الفترة ذاتها تحولت جموع أخرى من أهالي المقاطعات الشمالية في هذه البلاد إلى الإسلام بطريقة مماثلة ، ذلك أن القساوسة كانوا قد هجروا هذه المقاطعات وتعرضت الكنائس للخراب ، ولم يكن ذلك فيما يظهر إلا نتيجة الإهمال ، إذ يقال إن المسلمين في تلك البلاد لا يعرفون التعصب في أية صورة من صوره ، ولا يضمرون للمسيحية أى نوع من العداء (٤) . وهناك شهادة مماثلة أدلى بها رجالون آخرون (٥) تؤيد تقدم الإسلام في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، فقد وجد هؤلاء الرجالون جموعاً من المسيحيين في تحول مستمر إلى هذا الدين . وقد عطف على المسلمين بوجه خاص (راس على) أحد نواب الملك في بلاد الحبشة ، وكانت له السيادة الفعلية على هذه البلاد قبل أن يجلس الملك تيودور على عرشه سنة ١٨٥٣ . ومع أن هذا النائب نفسه كان مسيحياً ، فقد قسم مناصب الدولة ، بل ماغتمه من الكنائس بين أتباع الدين الإسلامي . وفي أثناء حكمه اعتنق دين النبي نصف أهالي الولايات الوسطى من بلاد الحبشة (٦) . وقد مد هذا الدين الآن جذوراً بعيدة الغور في أرض الحبشة ، حتى إن أتباعه ملكوا ناصية التجارة كلها ، كما ملكوا المهن الصغيرة

Plowden, p. 15. (١)

أى تابوت العهد (٢)

Littmann, pp. 69-70. (٣)

Plowden, pp. 8-9. (٤)

Beke, pp. 51-2. Isenberg, p. 36. (٥)

Massaja, vol. xi. p. 125. Reclus, vol. x. p. 247. (٦)

بأنواعها في البلاد ، ونعموا بأملاك واسعة ، وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق هامة ، وظفروا بنفوذ قوى على جمهرة الشعب . وقد قدر مبشر مسيحي ، عاش في هذه البلاد خمساً وثلاثين سنة ، نجاح دعاة المسلمين وحماسهم تقديراً عظيماً بقوله : لو أن هناك أحمد جرانى آخر ينهض وينشر راية النبي ، لصارت بلاد الحبشة مسلمة بأسرها<sup>(١)</sup> . وقد أدى الشقاق الذى وقع بين الحبشة والحكومة المصرية ( التى اشتبكت معها فى حرب من سنة ١٨٧٥ إلى ١٨٨٢ ) إلى إحداث شعور استياء فى وجه الإسلام : فقد انعمت كراهيتهم للعدو الأجنبي المسلم على إخوانهم فى الدين الذين أقاموا بين ظهرانيهم . وفى سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون بمعاً يضم رجال الكنيسة الحبشية ، ونادوا به حكماً أعلى فى المسائل الدينية ، وقرروا وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة . وأعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم ما عدا اليعاقبة ، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين فى الرأى مع كنيسة البلاد . وألزم المسلمون بالتسليم فى خلال ثلاث سنين ، والوثنيون فى خلال خمس . وأذاع الملك مرسوماً بعد ذلك بأيام قليلة ، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التى منحها المسلمون كانت قليلة الأهمية . وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية متى كانوا فى حاجة إليها ، ودفع العشور للقساوسة الذين يقيمون فى مقاطعاتهم الخاصة ، بل أندر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا فى خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلي عن مناصبهم . وكان مثل هذا التنصير الاجبارى الذى لا يشتمل إلا على طقوس العباد ودفع العشور ( عديم الأثر بطبيعة الحال . ففى الوقت الذى تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا فى الخفاء يؤكدون ولاءهم لدينهم القديم . وقد شاهد مساجداً بعضاً من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التى عمدوا فيها قاصدين المسجد ، يلتمسون فيه رجلاً مباركاً من رجال دينهم ، يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه<sup>(٢)</sup> . وإن ما جعل كل هذا التنصير أضعف أثراً وأقل قيمة هو أنه كان مقصوراً على الرجال دون النساء ، ذلك أنه لما كان المرسوم الملكى لم يشر إلى النساء فى قليل ولا كثير ، فانهن لم يتعرضن لسوء بحال ، - وهى حالة ربما دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد فى مستقبل الإسلام فى بلاد الحبشة ، كما أن مساجداً يقيم البرهان الساطع على ما قام به النساء المسلمات من دور خطير فى سبيل نشر دينهن فى هذه البلاد<sup>(٣)</sup> ، فيقول إن الملك جون أرغم حول سنة ١٨٨٠ ما يقرب من خمسين ألفاً من المسلمين على التعميد ، كما أجب عشرين ألفاً من أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجلا<sup>(٤)</sup> . ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور ، فلا يجب اذا عرفنا أن هذه الوسائل التى تقوم على العنف والارهاب ، لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء فى نفوس الأحباش المسلمين

Massaja, vol. xi, p. 124. (١)

Massaja, vol. xi, pp. 77-8. (٢)

Id. pp. 124, 125. (٣)

Oppel, p. 307. Reclus, tome x. p. 247. (٤)

والوثنيين جميعاً نحو الدين المسيحي<sup>(١)</sup>. وقد اغتنم ملك ولاية كافا Kafa الصغيرة (التي كانت تعترف بالسيادة الحبشية بصفة دائمة تقريباً) - واسمه Sawo-Teheno - فرصة ارتباك الملك جون الذي هدده الإباطليون وأتباع المهدي في وقت واحد ، فأعلن (ملك كافا) استقلاله واعتنق الاسلام ليكون بذلك أقوى نفوذاً فيما يعمل . وقد أفلح في مقاومة كل هجوم حتى سنة ١٨٩٧ ، حين غزيت ولايته مرة أخرى وأسره الإمبراطور منليك ملك شوا Shoa السابق ، الذي وطد سلطانه في جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الملك جون سنة ١٨٨٩ . وعاد الدين المسيحي ديناً رسمياً في ولاية كافا بأسرها ، وتجددت العبادة المسيحية في الكنائس التي تركت لم تمس بسوء ، وكان بعضها قد أغلق أو تحول إلى مساجد<sup>(٢)</sup> . ولكن هذه التدابير الصارمة التي اتخذت لصالح المسيحية قد أخفقت في وقف نمو النفوذ الاسلامي في خلال القرن التاسع عشر . فقد أسلمت قبائل بأجمعها ، كانت يوماً ما تدين بالمسيحية ، ولا تزال تحمل أسماء مسيحية ، مثل قبائل تاكليه Taklès (أى نبات يسوع) ، وهبتيه Hebtès (عطية يسوع) ، ونياريام Temaryam (عطية مريم) . وكانت قبيلتا منساع Mänsa مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر ، ثم دان السواد الأعظم منهما بالاسلام في مستهل القرن العشرين . ويلوح أن الجهود التي قام بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم في الإسلام كانت مبهمة السيل بسبب جهل رجال الكنيسة . كذلك قامت حركة مماثلة لنشر الإسلام ، ظلت مستمرة بعض الوقت بين قبائل أخرى<sup>(٣)</sup> .

ولنعد الآن إلى تاريخ إفريقية في القرن السابع الميلادي عند ما كان العرب يسرون بفتوحاتهم قدما من الشرق إلى الغرب على طول الساحل الشمالى . وقد كان فتح مصر أمراً ميسوراً بالنسبة إلى غيره من الفتح ، حيث قامت جموع غفيرة من السكان بمساعدة العرب في وضع حد للحكم البيزنطى . ولا مجال للمقارنة بينه وبين تلك المعارك الدامية ، والمقاومة المتوالية الطويلة الأمد التي حالت دون التوغل في تقدمهم في فتح إفريقية . وقد مضى نصف قرن قبل أن يظفر العرب بالسيادة التامة على الساحل الشمالى الذى يمتد من مصر إلى المحيط الأطلسى . ولم تكد قرطاجنة تسقط سنة ٦٩٨ م حتى زال الحكم الرومانى من إفريقية زوالاً لا رجعة له ، كما أن إخضاع البربر قد مكن العرب من أن يصبحوا سادة هذه البلاد .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نتعرض لتفاصيل هذه الغزوات ، وإنما يحسن بنا أن نحاول البحث عن الطريقة التي انتشر بها الاسلام بين أهالى هذه البلاد المسيحيين . ويؤسفنا أن المادة التاريخية التي تعيننا على تحقيق هذا الغرض قليلة غير وافية . فماذا كان مصير تلك الكنيسة الإفريقية الكبرى التي كانت

(١) Massaja, vol. xi. pp. 79, 81.

(٢) Morié, vol. ii. p. 449.

(٣) Littmann, pp. 68-70. K. Cederquist : Islam and Christianity in

قد أمدت العالم المسيحي بأمثال هؤلاء القديسين ورجال الدين ؟ لقد زالت كنيسة تروليان Tertullian ، وكنيسة القديس ساويريان Cyprian وكنيسة القديس أوجوسطين Augustine ، التي كانت قد خرجت ظافرة من أمثال هذه الاضطهادات الكثيرة ، والتي ناضلت في قوة وعنف عن قضية الأرتوذكسية المسيحية ، كل ذلك ، فيما يظهر ، قد تلاشى كما يتلاشى الضباب .

ولما لم يكن ثمة أخبار محدودة واضحة ، تعود بعض الباحثين أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالي تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين الذي أملت عليه روح التعصب الديني وإكراههم على الدخول في الإسلام . ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الرأي في هذه المسألة الشائكة . أولها عدم وجود الدليل البين الذي يؤيد مثل هذا الرأي . لقد كانت هنالك المذامح وأعمال التدمير ، وكل ما اقترن بحرب دامية طويلة الأمد ، وكانت من الكثرة بحيث تثير الرعب والفرع ، أما ما يتعلق باضطهاد ديني حدث فعلا فإن المؤرخين لم يذكروا عنه إلا شيئا قليلا . وإن بقاء الكنيسة المسيحية الوطنية بعد الفتح العربي أكثر من ثمانية قرون ، لشاهد على روح التسامح التي استطاعت وحدها أن تجعل مثل هذا البقاء أمرا ممكنا .

فن اللازم أن نلتمس الأسباب التي مهدت السبيل إلى تدهور المسيحية في شمال إفريقيا ، في شيء آخر أكثر مما نلتمسها في تعصب الولاة المسلمين . ولكن قبل أن نحاول بسط هذه الأسباب ، يجدر بنا أن نتبين كيف أن عدد الأهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي كان لا بد أن يكون قليلا جداً — وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الإسلامي أقوى دلالة على انعدام وسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام . كما أن هذه الحالة تجعل مثل هذا الزعم واهياً لا ينال شيئاً يذكر من القبول بالنسبة إلى ما كانت تكون عليه الحال لو أن العرب وجدوا هناك كنيسة عظيمة مزدهرة ، عندما أخذوا في فتح إفريقيا الشمالية .

وإن الولايات الرومانية في إفريقيا التي كان الأهالي المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيداً إلى الجنوب ؛ فإن الصحراء الكبرى تقف حاجزاً منيعاً في هذا الاتجاه ، حتى إن اتساع الساحل لا يتجاوز ثمانين أو مائة ميل إلا في القليل النادر<sup>(١)</sup> . ومع أنه كان هناك قبيل غزو الوندال عدد كبير من الأسقفيات ، قد يبلغ الخمسة ، لا يجوز أن يكون هذا العدد مقياساً لعدد المؤمنين من المسيحيين ، نظراً لما جرت عليه العادة التي كانت متبعة في الكنيسة الإفريقية من تعيين أساقفة في معظم المدن الصغيرة الشأن ، والإكثار من تعيينهم على أغلب القرى التي لا شأن لها<sup>(٢)</sup> . ثم إننا لا نشك فيما إذا كانت المسيحية قد امتدت إطلاقاً بين قبائل البربر<sup>(٣)</sup> إلى المناطق الداخلية ، وعند ما انحلت قوة الدولة الرومانية في القرن الخامس الميلادي ، احتشدت قبائل مختلفة ، تنتمي إلى ذلك الجنس العظيم ، وهم الذين يعرفون عند الرومان بأسماء البربر Moors

Gibbon, vol. i. p. 161. (١)

Id. vol. ii. p. 212. (٢)

C. O. Castiglioni : Recherches sur les Berbères atlantiques, pp. 96-7 (٣)

وأهالي إقليم الزاب ( Numidians ) والليبيين Libyans الخ . . . احتشدت في جماعات كثيفة ، وسارت من الجنوب نعيث في الأرض فسادا ، وتخرّب المدن الغنية التي تقع على الساحل . هؤلاء الغزاة كانوا وثنيين من غير شك ؛ فهؤلاء الليبيون الذين رثى سينيبيوس القورينائي Synesius of Cyrene ما قاموا به من أعمال التدمير والتخريب رثاء رقيقاً شجياً ، قد نهبوا الكنائس ، وأحرقوها ونقلوا الآنية المقدسة لاستخدامها في عبادتهم الوثنية الخاصة<sup>(١)</sup> . ولم تفق ولاية برقة Cyrenaica هذه أبداً بما قاموا به من أعمال التدمير . والراجع أن المسيحية في هذه الولاية كادت تزول في زمن الغزو الإسلامي . وإن زعيم البربر في مقاطعة طرابلس Tripolis الذي كان في حرب مع ثورسمند Thorismund ملك الوندال (٤٩٦—٥٢٤م) ، لم يحترم إلا الكنائس الأرثوذكسية ورجالها الذين كانوا يلقون سوء المعاملة من الوندال ، هذا الزعيم قد جهر بدينه الوثني حين قال : « لست أعرف من يكون إله المسيحيين ، ولكنه إذا كان قوياً كما بصورونه ، فإنه سيثار من هؤلاء الذين يحقرون من شأنه ، ويخلص هؤلاء الذين يمجّدونه »<sup>(٢)</sup> . وهناك نوع من الاحتمال أن الكثرة المطلقة من بدو مرتطانية Mauritania كانوا كذلك يدينون بالوثنية .

على أنه مهما يكن اتساع الكنيسة المسيحية فقد تلقت من اضطهادات الوندال ضربة لم تفق منها أبداً . فقد ظل الوندال الآريون قرابة قرن من الزمان ، يضطهدون الأرثوذكس اضطهاداً عنيفاً لا هوادة فيه . فشرّدوا أساقفتهم ، وحرّموا الجهر بإقامة شعائهم الدينية ، وقسوا في تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا في ديانة من فتحوا بلادهم<sup>(٣)</sup> . فلما سحق بليزار يوس Belisaruis قوة الوندال سنة ٥٣٤ م . وأعاد شمال إفريقيا إلى الدولة الرومانية ، لم يلتق في مجمع قرطاجنة<sup>(٤)</sup> إلا ٢١٧ أسقفاً لاستئناف إدارة الكنيسة المسيحية . وبعد أن تعرضوا لاضطهاد مرير طويل الأمد ، استسلموا له مكرهين ، لم يكن بد من أن ينقص عدد المخلصين للدين نقصاً كبيراً . وفي خلال القرن الذي انقضى قبل قدوم المسلمين ، حدثت غارات قام بها البرابرة من قبائل المغرب الذين قطعوا الطريق على الرومان في المدن وغيرها من المراكز الآهلة بالسكان ، واحتفظوا لأنفسهم بالجهال والصحراء والبلاد المكشوفة<sup>(٥)</sup> . فإن انتشار الفوضى وفساد الآداة الحكومية ، فضلا عن نفثي الأوبئة الفتاكة التي تميز بها النصف الثاني من القرن السادس - كل هذه الأمور تضافرت على استمرار أعمال التخريب . وقد قيل إن الحروب وحكومة الإمبراطور جستنيان قد أفنت خمسة ملايين من الإفريقيين . وهجر المواطنون الذين كانوا أيسر حالا بلاداً كانت فيها التجارة والزراعة من قبل مزدهرة أيما ازدهار ، ولكنها أصبحت الآن خراباً لا سبيل إلى علاجه . وهكذا تم خراب إفريقيا ، حتى إن

Synesii Catastasis. (Migne : Patr. Gr., tom. Ixvi. p. 1569.) (١)

Neander ( 2 ) , p. 320. (٢)

Gibbon, vol. iv. pp. 331-3. (٣)

Id. vol. v. p. 115. (٤)

Gibbon, vol. v. p. 122. - ٢٠١ - (٥)

الغريب كان يطوف في كثير من أنحاءها ، أياما كاملة دون أن يصادف وجه صديق أو عدو . زالت أمة الوندال ، وكان قد بلغ عدد أهلها من قبل مائة وستين ألفاً من المحاربين ، عدا الأطفال والنساء والعييد . وكانت تزداد مجموعهم زيادة لا حد لها ، بانضمام عدد من العشائر البربرية التي انقضت في إحدى الحروب الطاحنة الدامية . كذلك حل الدمار نفسه بالرومان وحلفائهم الذين أهلكتهم المناخ والمنازعات المتبادلة وثورة البرابرة ، (١) .

وحدث قبل أن يتقدم العرب الظافرون من مصر لإخضاع الولاية الغربية بعام أي في سنة ٦٤٦ م ، أن الكنيسة الإفريقية التي ناضت كثيراً في سبيل تطهير العقيدة المسيحية ، قد أثارها إلى أبعد حد ما قام من صراع ضد المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة Monothelism ؛ ولكن عند ما قام أساقفة الولايات الدينية الأربع في أبرشية قرطاجنة : وهي مرطانية Mauritania وإقليم الزاب Numidia والولاية الداخلية Byzacena وولاية إفريقية القنصلية Africa Proconsularis ، وعقدوا مجامع لإدانة أنصار هذا المذهب ، وكتبوا خطابات محفلية إلى كل من الامبراطور والبابا ، لم يكن هناك إلا ثمانية وستون أسقفا اجتمعوا في قرطاجنة ليمثلوا هذه الولايات الأخيرة ، واثنان وأربعون يمثلون الولاية الداخلية . أما عدد الذين مثلوا الأسقفيتين الأخيرتين ، فلم يذكر عنهم شيء ، غير أن الأهالي المسيحيين كانوا من غير شك قد عانوا في هاتين الأسقفيتين أشد كثيراً مما كانت تعانيه الأسقفيتان الأخريان اللتان كانتا أقرب إلى مقر الحكومة (٢) . وليس من المحتمل بحال أن يتخلف أسقف من الأساقفة عن الحضور في مناسبة أثار شعوراً كبيراً ، في الوقت الذي تضافرت فيه الحماسة في سبيل العقيدة المسيحية والخصومة السياسية للبلاد البيزنطية على تشجيع هذه الحركة ، وفي الوقت الذي أخذت فيه إفريقية على عاتقها نصيباً كبيراً من إثارة المعارضة التي أدت إلى انعقاد مجمع لايران Lateran الأعظم سنة ٦٤٨ م . ومن المؤكد أن النقص في عدد الأساقفة يدل على نقص كبير في عدد الأهالي المسيحيين . وإذا نظرنا إلى الأسباب المتعددة التي أدت إلى تأخر الأهالي ، فلا ينبغي كذلك أن نجعل أهمية كبيرة جداً لعدد هؤلاء ، لأن من الممكن أن يظل أي كرسي من كراسي الأسقفية مشغولاً زمناً طويلاً بعد أن يخمل ذكر الأسقفية وتصبح قليلة الخطر .

ومن الاعتبارات التي ذكرناها من قبل ، يمكن أن نستنتج في شيء من التأكد أن الأهالي المسيحيين في وقت الغزو الإسلامي لم يكن عددهم كبيراً بحال من الأحوال . وقد ظل عدد الأهالي المسيحيين في خلال

(١) Gibbon, vol. v. p. 214.

(٢) وكانت هذه الولاية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية الذي كان يسمى زوجيتانيا Zeugitania والمنطقة الداخلية منها التي تمتد حتى فزان المسماة بيزاسينا - الدكتور حسين مؤنس : فتح العرب للغرب ( القاهرة ١٩٤٧ ) ص ٢ .

(٣) Neander (1), vol. v. pp. 254-5. J.E.T. Wiltsch : Hand-book of the geography and statistics of the Church, vol. i. pp. 433-4. (London, 1859.)  
J. Bournichon : L'Invasion musulmane en Afrique, pp. 32-3, (Tours, 1890.)

الخمسين عاماً التي انقضت قبل أن يحرز العرب انتصارهم ، ينقص شيئاً فشيئاً من جبراً ما أصابهم من أعمال التخريب في هذا النزاع الطويل . فقد نهبت مدينة طرابلس بعد أن قاست الحصار ستة أشهر ، وقتل جانب من السكان بحمد السيف ، وسيق الآخرون أسرى إلى مصر وبلاد العرب (١) . ودافع أمير روماني عن مدينة أخرى كانت تتاخم الصحراء النوميديّة ، ومعه حامية كبيرة تحملت بشجاعة حصاراً دام عاماً كاملاً ؛ ولما أخذت المدينة عنوة آخر الأمر أعدم جميع الرجال بالسيف ، ووقع النساء والأطفال في الأسر (٢) . وقد قيل إن عدد أمثال هؤلاء الأسرى بلغ كثيراً من مئات الآلاف (٣) . كما فر كثير من المسيحيين (٤) ، بعضهم إلى إيطاليا وأسبانيا (٥) ، وآخرون يلوح أنهم قد طوفوا في الآفاق حتى بلغوا ألمانيا ، نستدل على ذلك مما كتبه البابا جريجوري الثاني Gregory II في خطاب أرسله إلى أسقفية القديس بونيفاس St. Boniface (٦) . وفي الواقع إن كثيراً من المدن الرومانية الكبرى قد أخليت من سكانها إخلالاً تاماً ، وظلت حاوية على عروشها وقتاً طويلاً وتركت لتصبح أطلالاً بالية (٧) ، على حين اختار الفاتحون كما حدث في أحوال كثيرة ، مواقع جديدة تماماً لتأسيس مدنهم الهامة (٨) .

أما البقايا المبعثرة للكنيسة المسيحية التي كانت مزدهرة من قبل ، والتي كانت لاتزال باقية في إفريقية في نهاية القرن السابع ، فمن الصعب أن نزعّم أن الاضطهاد هو المسئول عن فنائها النهائي ، إذا واجهنا الحقيقة القائلة بأن آثار طائفة مسيحية إفريقية كانت قائمة حتى في عصر متأخر يرجع إلى القرن السادس عشر . ومن الحق ما يقال من أن إدريس مؤسس الأسرة الحاكمة في مراكش ، وهي التي نسبت إليه وحملت اسمه ، قد أرغم النصراني واليهود على الدخول في الاسلام في سنة ٧٨٩ م . عندما شرع في تأسيس مملكته لنفسه بحمد السيف (٩) . على أن هذه الحادثة ، لم يكن لها نظير في تاريخ الكنيسة الوطنية في إفريقية الشمالية (١٠) .

(١) Leo Africanus (Ramusio, tom. i. p. 70, D.)

(٢) .. ومدينة ديسن Deussen قديمة جداً ، بناها الرومان على حدود ملكة Buggia وصحراء نوميديا... (Id. p. 75, F.)

(٣) Pavy, vol. i. p. iv

(٤) .. وجميع الذين لم يتحولوا إلى الاسلام ، أو الذين تمسكوا بعقيدتهم وأبوا أن يلتزموا دفع ضريبة الرأس ، قد اضطروا إلى الفرار أمام الجيوش الاسلامية... (التيجاني ص ٢٠٩)

(٥) Leo Africanus (Ramusio, tom. i. p. 7.)

(٦) .. كان بونيفاس لا يرحب مطلقاً بالافريقيين الذين أقبلوا من كل صوب على نظم الكنيسة ، لأنه قد ثبت أن بعضهم كان من أصحاب ماني ، وبعضهم الآخر كان قد عمّد أكثر من مرة ..

Epist. iv. (Migne : Patr. Lat., tom. Ixxxix. p. 502.)

(٧) Leo Africanus (Ramusio, pp. 65, 66, 68, 69, 76.)

(٨) تأسست القيروان سنة ٥٤٥ م ، وفاس سنة ١٨٥ م ، والمدينة سنة ٥٣٢ م ، ومسيلة سنة ٥٣١ م ، ومراكش سنة ٤٢٤ م . (أبو القدا ص ٢٠٠ م ١٩٨ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ١٩١ ، ١٨٧) .

(٩) ابن أبي زرع ص ١٦ .

(١٠) ولدينا حالة مفكوك في صحتها تنسب إلى عبد المؤمن الذي فتح تونس سنة ١١٥٩ م ، أنه أرغم بعض فتناس على الدخول

وإن انحلال الكنيسة في بطن شديد لدليل على التسامح الذي لا بد أن تكون قد عوملت به هذه الكنيسة . فقد وجد بعد الفتح الإسلامي بثلاثمائة سنة تقريباً ما يقرب من أربعين أسقفية كانت لا تزال باقية هناك (١) ، وفي سنة ١٠٥٣ م حزن البابا ليو التاسع على أنه لم يمكن أن يوجد إلا خمسة أساقفة يمثلون الكنيسة الإفريقية التي كانت من قبل تتمتع بالشهرة والازدهار (٢) . والأرجح أن سبب ذلك راجع إلى ما أحدثته الجماعات العربية من مجازر بشرية وتدمير فظيع ، تلك الجماعات التي تدفقت على هذه البلاد قبل ذلك بوضع سنوات ، وملثوا البلاد بالفوضى والمنازعات التي لم تنقطع (٣) . وفي سنة ١٠٧٦ م عجزت الكنيسة الإفريقية عن إعداد ثلاثة أساقفة قضت بهم الحاجة لرسم شخص كان يرغب في منصب الأسقفية ، وذلك طبقاً لما تقتضيه الشريعة الدينية . وقد وجد البابا جريجوري السابع من الضروري أن يرسم أسقفين ليعملا مساعدين لرئيس أساقفة قرطاجنة ؛ ولكن عدد المسيحيين كان لا يزال من الضخامة بحيث كان يتطلب إيجاد أساقفة جدد ليخففوا من عبء العمل الذي كان ثقيلاً على هؤلاء الأساقفة الثلاثة ، حتى إنهم لم يستطيعوا القيام به دون معونة أو مساعدة (٤) . وفي خلال القرنين التاليين ، كانت حالة الكنيسة تزيد ضعفاً على ضعف . وفي سنة ١٢٤٦ كان أسقف مرا كس هو الزعيم الروحي الوحيد الذي كان يشرف على البقية الباقية من الكنيسة القومية (٥) . وكانت آثار ما تبقى من المسيحية حتى هذه الفترة ذاتها ، لا تزال

في الإسلام بالقوة . انظر (2) De Mas Latrie (2), p. 77-8 . وهناك مؤلفان عريان : أحدهما ابن الأثير الذي كان معاصراً ، إلا أنه كان يقيم في دمشق في وسط النشوة الدينية التي أنارتها انتصارات صلاح الدين ، والآخر التيجاني الذي زار إفريقية في القرن الرابع عشر . هذان المؤلفان كتبا أن السلطان صاحب تونس أوغم المسيحيين واليهود القاطنين في هذه المدينة على الدخول في الإسلام ، وأن العصاة قتلوا بلا رحمة . ونحن نشك في حقيقة وقوع هذه التعديلات كلها ، إذ لو كان الأمر بالقتل قد صدر من السلطان في نفوة تنصر لاشباع بعض الرغبات الوقتية ، لكان من الواجب أن يعدل أو أن يرفض . ما دام هذا الأمر يتناقض مع مبدأ الحرية الدينية الذي كان محترماً من كل أمراء المغاربة حتى ذلك الحين . أما الشيء المحقق فهو أن المسيحيين واليهود لم يظهروا متأخرين في تونس وأتتا ترى المسيحيين ، قبل نهاية (عهد) عبد المؤمن قد استوطنوها ، ونعموا كما كانوا في اليهود السابقة ، بالحرية في مراوطة تمارثهم وإقامتهم شعائهم الدينية . . . . ويقول مؤلف عربي قديم ، إنه اخترق بلاد الزاب وإفريقية ، مؤيداً بأنه في خطواته ، معتمداً على البلاد والمدن ، مطعياً الأمان لمن يطلبونه ، وقاتلاً كل من يعص أمره ؛ وتزيد هذه الكلمات الأخيرة شعورنا إزاء مأساة نحو المسيحيين الذين قبلوا الحكم بالقتل الذي قضت به الأقدار . . .

De Mas Latrie (2), pp. 27-8. (١)

S. Leonis IX. Papae Epist lxxxiii (Migne : Patr. Lat., tom. cxliii p. 728). (٢)

مدته الرسالة تتناول موضوع نزاع على الأسقفية بين أساقفة جومي Gummi وقرطاجنة ، ومن المحتمل جداً أن تكون حالة الفرض التي سادت إفريقية في ذلك الحين . قد جعلت أساقفة إفريقية لا يعرفون شيئاً عن الأسقفيات الأخرى ، فضلاً عن أسقفياتهم أنفسهم تلك التي كانت ملاصقة لها . ومن ثم ترى الأخبار التي استقاها البابا قد صورت هذه الأساقفة أقل بما هو عليه في حقيقة الأمر .

A Müller, vol. ii, pp. 628-9. (٣)

S. Gregorii VII. Eipstola xix. (Liber tertius). (Migne : Patr. Lat., tom. cxlvii p. 449)

De Mas Latrie, p. 226 (٥) . وإن عدداً من المسيحيين الأسبان ، الذين كان أجدادهم قد أبعدهوا إلى مرا كس سنة ١١٢٢ كانوا قد أقاموا هناك في وقت متأخر ، يرجع إلى سنة ١٣٨٦ م ، حين سمح لهم بالعودة إلى نيبيلة بفضل ما أسداه إليهم سلطان مرا كس من حسن الصنيع في ذلك الحين (Whishaw, pp. 31-4) .

قائمة بين قبائل بلاد الجزائر (١) (٢). وكانت هذه القبائل قد أحاطت في زمن مبكر ببعض معلومات طفيفة عن مبادئ الإسلام ، ولكن هذا الدين الجديد لم يسيطر على نفوسهم إلا بمقدار يسير جداً ، ثم انمحت من أذهانهم بمرور الزمن حتى تلك المعارف الضئيلة التي تعلوها بادي الأمر ، إلى حد أنهم نسوا كيفية الصلاة في الإسلام . ولما كانوا محصورين في بقاعهم الجبلية المنيعه ، غيورين على استقلالهم ، فقد نجحوا في مقاومة تسرب العنصر العربي إلى بينهم ، ومن هنا قامت في سبيل تحويلهم إلى الإسلام صعاب جمة . وقد قام سكان دير كان تابعاً لطائفة القادرية ، وهم ساقية الحمراء ، ببعض محاولات غير ناجحة كانت ترمى إلى نشر الدعوة بينهم ، ولكن لم ينل شرف النفاذ إليهم ودعوتهم إلى الدين الإسلامي إلا عدد من بربر الأندلس طردوا من أسبانيا بعد سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٢ . وكانوا قد احتموا في هذا الدير ، وتوسم فيهم الشيخ ، أنهم ألبق من يضطلع بتلك المهمة الشاقة التي أعيت جهود تلاميذه من قبل لإعياء تاماً . وقبل أن يبعث بهم في تلك المهمة الدينية خاطبهم قائلاً : « إنه لو اوجب قد ألقى على عاتقنا أن نحمل مشعل الإسلام إلى تلك الأصقاع التي ضيعت ما ورثته من بركات هذا الدين ، ذلك أن هذه القبائل البائسة لم تزود مطلقاً بالمدارس ، وليس لديهم شيخ يعلم أبناءهم مبادئ الأخلاق وفضائل الإسلام . لهذا فهم يعيشون كالحيوان الأعمى ، لا يعرفون إلهاً ولا ديناً . ولكي تنزع عنهم هذه الشقاوات ، عقدت النية على أن أناشد غيرتكم الدينية وهدايتكم لا تدعوا بعد اليوم سكان هذه الجبال غارقين في حالة يرثى لها من الجهل بحقائق ديننا العظمى ؛ انطلقوا وانفخوا في نيران دينهم الزائلة ، وأعيدوا إنارة جذوتها الخامدة ، طهروهم بما قد يظل عالقاً بهم من آثار اعتقادهم القديم في النصرانية . فطسّوهم إلى أن الله لا يقبل الرجس في دين سيدنا محمد ﷺ ، كما لا يقبله في النصرانية (٣) . إنني لا أخفي عنكم أن مهمتكم محفوفة بالصعاب ، ولكن ما اتصفتم به من غيرة لا تقاوم ، وحماسة من أجل دينكم ، سيمكنكم بعون الله من تذليل كل الصعاب . انطلقوا يا أبناءى وأعيدوا إلى الله ورسوله مرة أخرى هذا الشعب الشقي المنغمر في حمأة الجهالة والكفر . انطلقوا يا أبناءى واحملوا رسالة الخلاص أيديكم الله ووفقكم . »

وانطلق الدعاء جماعات ، كل جماعة تتألف من خمسة أو ستة ، إلى وجهات مختلفة في وقت واحد . وذهبوا في أسمال بالية ، كل واحد عكازه في يده . واختاروا أشد أماكن الجبال وحشة ، وأقلها عمراناً ، وبنوا لهم صوامع في الكهوف والأخاديد . وسرعان ما أثار تقشفهم وطول تعبدهم فضول القبائل الذين أخذوا بعد وقت وجيز يبادلونهم الصداقة والود . وتمكن الدعاء شيئاً فشيئاً من الظفر بما أرادوا عن طريق

(١) C. Trumelet : Les Saints de l'Islam, p. xxxiii. (Paris, 1881.)

(٢) ويطلق الجغرافيون الأوربيون لفظ كابييا Kabylia على البلاد الجبلية من ساحل الجزائر . والكلمة مشتقة من قبيلة ( القفظة العربية . (راجع Encyc. of Islam, art. Kabylia)

(٣) قارن هذا بالمواد التي نشرها المجلس الذي عقد في مدريد سنة ١٥٩٦م ، وهو يتعلق بتصوير المسلمين المقيمين في أسبانيا Moriscoes ( أي بعد زوال الحكم العربي منها ) ، وهذا نص إحدى هذه المراد : « لا يسمح مطلقاً لهم ولا لنسائهم ولا لأي فرد آخر أن يفتلوا أو يستعمروا في منازلهم أو في أي مكان آخر ، كما يجب أن تهدم وتخرب حماماتهم كلها . » (J. Morgan, vol. ii, p. 256.)

ما عرفوه من الطب والصناعات الآلية وبعض مزايا أخرى من الحضارة، وأصبحت كل صومعة مركزاً من مراكز التعليم الاسلامي . واجتمع حولهم طلاب للعلم ، وقد انجذبوا إلى تعاليم هؤلاء الذين قدموا إليهم من عهد قريب . وأصبح هؤلاء الطلاب بعد فترة من الزمن دعاة إلى الاسلام بين قومهم ، حتى استطاعوا أن ينشروا دينهم في كافة أنحاء البلاد التي تسكنها القبائل والقرى التي تقع في صحراء الجزائر<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن هذا الحادث السالف الذكر يصور لنا الطريقة التي كان ينفذ بها الاسلام إلى غير هذه الجماعات من القبائل المستقلة في داخل هذه البلاد ، الذين كانوا قد تلقوا أية تعاليم مسيحية من قبل . ولكن معلوماتهم عن هذا الدين كانت قد تضاملت واستحالت إلى شعائر دينية قليلة مبنية على الخرافات<sup>(٢)</sup> . ذلك أنهم لما كانوا منقطعين عن سائر العالم المسيحي ، غير مزودين بمعلمين روحانيين ، لم يكن لهم من وسائل الاعتقاد الديني الذي يقوم على اليقين ما يمكنهم من مناهضة تعاليم دعاة المسلمين .

ولدينا معلومات أخرى قليلة ، يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة التي ذكرناها عن انحلال الكنيسة الإفريقية الشمالية . فهذا رحالة مسلم<sup>(٣)</sup> عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، زار بلاد الجريد وهي الولايات التي تقع جنوبي تونس ، وهو يخبرنا أن الكنائس المسيحية كانت لا تزال قائمة على عهدہ ؛ ومع أنها كانت مهذمة ولكن العرب الفاتحين لم يخربوها . واكتفوا ببناء مسجد قبالة كل من هذه الكنائس . ويتحدث ابن خلدون ( فيما كتبه حول نهاية القرن الرابع عشر ) عن بعض قرى ولاية قسطنطينية<sup>(٤)</sup> ، ويسكنها بعض الأهالي المسيحيين الذين كان أسلافهم قد عاشوا هناك منذ الفتح العربي<sup>(٥)</sup> . وفي نهاية القرن التالي كان لا يزال في مدينة تونس جماعة صغيرة من المسيحيين من أهالي هذه البلاد . يعيشون في إحدى الضواحي بعضهم مع بعض ، منفصلين تمام الانفصال عن تلك البقعة التي أقام فيها التجار المسيحيون الغرباء بعيدين عن كل ظلم أو اضطهاد ، فقد كانوا يعملون حراساً للسلطان<sup>(٦)</sup> . ولا شك أنهم كانوا هم أنفسهم الذين هناهم تشارلس الخامس بعد استيلائه على تونس في سنة ١٥٣٥ على ما أظهره من الثبات على الدين المسيحي<sup>(٧)</sup> :

(١) C. Trumelet : Les Saints de L'Islam, pp. xxviii - xxxvi

(٢) يقول لبو الافريسي أنه في نهاية القرن الخامس عشر نجد جميع سكان الجبال من أهل الجزائر والبوفا ، مع إسلامهم ، قد رسموا صلياً أسود اللون على صدورهم ، وفي بطون راساتهم (Ramusio, i. p. 61.) ، ونظير ذلك بنو مزاب الذين يحتفظون ، حتى اليوم ، بعض طقوس دينية تتعلق بالحرمان والاعتراف (Oppel, p. 299.) ، ويحسرى بعض قبائل البدوية في الصحراء الكبرى بعض طقوس خاصة بزوع من التعبد ، ويستخدمون الصليب زيتة لبعض أمتعتهم وأسلحتهم (De Mas Latrie (2), p. 8.)

(٣) التيجاني ص ٢٠٣ .

(٤) وهي توزر الحديثة ، في تونس

(٥) تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب ، ج ١ ص ١٤٦ ( طبعة دى سلان بالجزائر سنة ١٨٤٧ . )

(٦) Leo Africanus ( Ramusio, tom. i. p. 67.)

(٧) Pavy, vol. i. p. vii.

وكان هذا آخر ما سمعنا عن الكنيسة المسيحية القومية في إفريقيا الشمالية . وإن مجرد بقائها مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أى زعم بأن تحولهم إلى الاسلام قد قام على القوة والاكراه ، حتى ولو لم يكن لدينا الدليل الكافي على روح التسامح التي ظهر بها العرب الحاكمون في مالكة إفريقيا الشمالية على اختلافها ، فهم الذين استخدموا جنوداً مسيحيين<sup>(١)</sup> ، ومنحوا المسيحيين من التجار والمستوطنين بمقتضى معاهدات متكررة ، الحرية في أداء شعائرهم الدينية<sup>(٢)</sup> ، وهم الذين فوض البابوات<sup>(٣)</sup> إليهم العناية بالأهلين من المسيحيين ، كما حضوا هؤلاء على خدمة حكامهم المسلمين في إخلاص وولاء<sup>(٤)</sup> .

---

De Mas Latrie (2), pp. 61-2, 266-7. L. del Marmol-Caravajal : (١)

De L'Afrique, tome ii. p. 54. (Paris, 1667)

De Mas Latrie (2), p. 192. (٢)

Innocent IV, Gregory IX, Gregory VII, Innocent III. . . (٣)

De Mas Latrie (2), p. 273. (٤)

## الباب الخامس

### انتشار الاسلام بين مسيحي اسبانيا

أدخل العرب الظافرون الإسلام في أسبانيا سنة ٧١١ م ، وفي سنة ١٥٠٢ أصدر فرديناند وإيزابلا مرسوماً يقضى بإلغاء شعائر الدين الاسلامي في جميع أرجاء البلاد . ولقد كتبت أسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس Provence إلى الممالك الأوربية الأخرى ، وأنت بهضة جديدة في الشعر والثقافة ، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جله عصر النهضة الحديثة . على أنه يجمل بنا أن نمر مر الكرام على هذه الحياة وما تنطوى عليه من مدنية ورقى ونصر مؤزر في الفن والشعر ، وفي العلم والفلسفة ، وأن نوجه اهتمامنا إلى الحالة الدينية في أسبانيا في ظل الحكم الإسلامي .

لما قدم المسلمون أول الأمر إلى أسبانيا حاملين دينهم ، وجدوا المذهب الكاثوليكي قد استقر في هذه البلاد بعد انتصاره على المذهب الآري . وقد أصدر المجمع السادس في طليطلة قراراً يقضى بأن يقسم كل الملوك بأن لا يسمحوا بانتشار أى مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكي ، وأن ينفذوا القانون بالقوة على الخارجين عليه . وقد تلا هذا القانون قانون آخر يحرم على كل شخص أن يتطرق إلى ذهنه أى شك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، وفي النظم الإنجيلية وتفسير الآباء الروحانيين والمراسم الكنسية والقرايين المقدسة إذا ما صودرت أملاكة أو حكم عليه بالسجن المؤبد . وقد كسب رجال الدين لطافتهم نفوذاً راجحاً في شئون الدولة<sup>(١)</sup> . وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين في المجالس الوطنية التي كانت تجتمع لإقرار الشئون الهامة في الدولة والمصادقة على انتخاب الملك ، وادعت لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لقراراتهم . واتخذ القسس من وراء هذه القوة التي وصلوا إليها سبيلاً لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة العدد في أسبانيا ، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول في المسيحية<sup>(٢)</sup> . وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة وعودهم مخلصين لهم بما حل بهم من المظالم ، فساعدوهم على فتح أبواب المدن ، كما استعان بهم القاتحون في حماية المدن التي وقعت في أيديهم<sup>(٣)</sup> .

Baudissin, p. 22 (١)

Helfferich, p. 68. (٢)

المقرى ١٧ ص ٢٨٠ - ٢٨٢ (٣)

كذلك رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم اليأس والشقاء في عهد المسيحيين الكاثوليك الذين كانت معرفتهم بأصول المسيحية سطحية ، إذا ما ووزنت بذلك التسامح الديني وهذه المزايا الكثيرة التي حصلوا عليها بإلقاء زمامهم للمسلمين .

وكان هؤلاء الأرقاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول من تدين بالاسلام في أسبانيا ، ولا يبعد أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأهلين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية والذين ورد ذكرهم في سنة ٦٩٣ م (١) قد ساروا على منهاج هؤلاء الأرقاء . كما اعتنق هذا الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى (٢) ، يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا والوسطى الذين دانوا بالإسلام عن إيمان ثابت ، متحولين إليه من ديانتهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم ولم يحفلوا بتلقيهم أصولها ، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا ، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم (٣) ، وبعد أن تحول هؤلاء الأسبان إلى الاسلام ظهروا بمظهر الغيبر لدينهم الجديد وانضموا هم وأولادهم إلى جماعة إخوان الصفا الذين عرفوا بالتشرف وشدة تمسكهم بالدين ، ولم يحفلوا بأن يعيشوا عيشة الترف والاهمال التي سادت الطبقة الأرستقراطية العربية (٤) .

ويقول مؤرخو المسيحيين إن فضائل القوط القدماء قد انحطت في وقت الفتح العربي الإسلامي وفسحت الطريق إلى الفساد والخلاعة ، حتى لقد ظهر الحكم الإسلامي كأنه عقاب قد نزل هؤلاء الذين ضلوا الطريق السوي واتجهوا نحو الرذيلة (٥) . ولكن مثل هذا القول طالما يرد في التاريخ الكنسي على حين لا توجد هناك شواهد معاصرة تؤيد صحة هذا الرأي (٦) .

يبد أنه يظهر لنا أن الأمور لم تستقم على مر الزمن ، ذلك أنه لما اشترك الأساقفة المسيحيون في الثورات

Baudissin, p. 7. (١)

Dozy (2), tome ii. pp. 45-6. (٢)

A. Müller, vol. ii, p. 463 (٣)

Dozy (2), tome ii. pp. 44-6 (٤)

So St. Boniface (A.D. 745, Epist. lxxii) (٥)

.. مثلاً حدث للقبائل الأخرى في أسبانيا ، وللقاطعات ، واشعب يرغديا الذين ارتكبوا الكبائر بابتعادهم عن الرب . حتى لقد أراد القاضي الأعظم أن يحمل بهم ، على يد العرب ، عقابه وانتقامه ، يدين ما ارتكبوه من مآثم ، ويدين جهلهم بقانون الرب .. (Eulogius, lib. i. § 30. (Migne : Patr. Lat., tom. lxxxix, p. 761.) .. وارتقلت .. إبان فواتهم (أي العرب) مقابل أسبانيا إليهم ، في الوثائق الذي كنا نقوم بأبحاثنا .. (Migne : Patr. Lat., tom. cxv, p. 761.) .. ونظير ذلك ما ذكره ألفار (2) ، § 18 ، Alvar .. سأحاول أن أعبر القوط الذي صب علينا لما ارتكبناه من آثام . إن جعبة آثامنا ، أيها الاخوة ، تكاسلتنا ، ودانتنا ، وإفساد عاداتنا ، ... لذلك أسألك المولى الذي يؤثر العدل ويأمر وهم بالانصاف إلى هذا الوحش لئلا فرينة في يده .. (pp. 531—2)

Dozy (3), tome i. pp. 15—20; Whishaw, pp. 38, 44. (٦)

التي قامت في بلاط المسلمين في الوقت الذي أصبحت فيه الأبرشيات تُمنح الأساقفة عن طريق المزاد ، وعين الملمحدون الذين يضمرون الإلحاد للكنيسة ، وأصبح هؤلاء بدورهم يمنحون منصب القساوسة أشخاصا تنقصهم الكفاية والغيرة على مبادئ الدين المسيحي (١) — إذا عرفنا هذا استطعنا أن نجزم بأن تحول المسيحيين عن دينهم لم يقتصر على أهل مقاطعة إلفيرة (٢) ، بسبب ذلك الفساد الذي تفرق إلى نفوس رؤسائهم الروحيين (٣) ، فأخذ هؤلاء المسيحيون يبحثون عن بيئة أكثر ملاءمة لحياتهم الدينية والدينية بدخولهم في حظيرة الإسلام .

ولو أن كتاب الكنيسة قد عنوا بتدوين هذه الأحداث ، لوجدنا أسبانيا تقدم لنا من غير شك أمثلة صالحة عن رجال تحولوا عن المسيحية من أمثال بودو Bodo ، الذي كان شماساً في البلاط الفرنسي في عهد لويس الثقي واعتنق اليهودية سنة ٨٣٨ م لكي ، يتمسك بأهداب شريعة الله ، بتركه هذه الحياة الأنيمة كما يقول (٤) . كذلك لا يبعد أن تكون البقية الباقية ل هؤلاء القوط القدماء الذين دانوا بعقائد المذهب الآريوسى الذي ظهرت بعض آثار نهضته في الكنيسة الأسبانية قبيل الفتح العربى (٥) ، قد ساعدت على حث الناس واستمالتهم لقبول هذا المذهب الجديد الذى تتفق العقيدة المسيحية فيه اتفاقاً وثيقاً مع العقيدة الآريوسية (٦) . وسنرى فيما بعد شواهد مماثلة تدلنا على مدى تحول أهل أسبانيا إلى هذا المذهب قبل الفتح العربى ، والذي مهد السبيل لتحول أهل أوروبا الغربية إلى الإسلام قبل الفتح العربى لبلاد الأندلس . ومن الأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه تحول ثيودسكلوس Thiodisclus ، ذلك الرجل الإغريقى الذى خلف القديس إيزيدور Isidore المتوفى سنة ٦٤٦ م فى منصب رئيس أساقفة إشبيلية . فقد اتهم بالإلحاد لقوله بأن المسيح لم يكن إلهاً باتحاده بالله وبروح القدس ، وإنما كان ابن الله عن طريق التبني . لهذا قضى المجمع الدينى بعزله عن

(١) Samson, pp. 377-8. 381.

(٢) Dozy (2), tome ii, p. 210

(٣) أنهم أسقف إجيل Egila ، الذى أرسله البابا أدريان الأول إلى جنوب أسبانيا حول نهاية القرن الثامن ليقيم بعمل من شأنه أن يحول دون أطراد نفوذ الفكر الاسلامى ، القديسين الأسبان الذين عاشوا مع النساء اللاتي اتخذوهن - رارارى لهم .

(Helfferich, p. 83.)

(٤) Alvari Cordubensis, Epist, xix.

.. إتنى أسلم نفسى الى قانون المولى ، فى شوق وطفة ، لأنى أستحق العقاب الأبدى . ..

(Migne : Patr. Lat., tom. cxxi, p. 512.)

(٥) Helfferich, pp. 79-80

(٦) .. إذا فكر المرء ، إلى أى حد بلغ مدى فكرة نبوة المأخوذة من العهد القديم ( من التوراة ) فى نصرانية القبائل الجرمانية الآرية ، بل إذا فكر المرء فى بقاء هذه الفكرة عند القوط الغربيين بعد أن اعتنقوا المذهب الكاثوليكي - إذا فكر المرء فى ذلك اتضح له كيف ظهرت بعد قدوم العرب ، عند الشعوب المسيحية المفتوحة ، تصورات قريبة من الإسلام . ..

(Helfferich, p. 82.)

منصبه وبحرماته حقوقه الكفدية ، فاجأ إلى العرب ودان بالإسلام بين ظهرانيهم (١) .  
 أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام ، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد ، في  
 الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي ، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئاً . وفي الحق إن سياسة التسامح الديني  
 التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد .  
 وإن الشكوى الوحيدة التي شكا منها المسيحيون هي معاملة حكامهم الجدد لهم معاملة تختلف عن معاملة  
 رعاياهم من غير المسيحيين ؛ ذلك لأنه قد فرض عليهم أداء جزية الروم المعتادة وهي ثمانية وأربعون  
 درهما عن الأغنياء ، وأربعة وعشرون عن أهل الطبقة الوسطى ، واثنان عشر درهما عن العمال ، لإعفاتهم  
 من الخدمة العسكرية (٢) . على أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين من الرجال ، على حين أعفى منها  
 النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والعميان والمرضى والمساكين والأرقاء . هذا إلى أن جمع هذه  
 الضرائب قد قام به الموظفون المسيحيون أنفسهم مما خفف وطأتها على الناس (٣) .

على أنه في الأحوال التي كان يعتدى فيها المسيحيون على الدين الإسلامي ، كانوا يحاكمون أمام  
 قضاتهم وفقاً للقوانين المعمول بها في بلادهم (٤) ، ولم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية (٥) .  
 ولا غرو فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية  
 الكاثوليكية ، وكذا ترنيم المزامير وإلقاء المواعظ والاحتفال بالأعياد المسيحية على النحو الذي كانوا  
 يحتفلون به قبل الفتح . ويظهر أنهم لم يعاملوا معاملة إخوانهم في الدين في سورية ومصر بأن يلبسوا ملابس

Lucae Diaconi Tudensis Chronicon Mundi (Andreas Schottus : (١)

Hispaniae Illustratae, tom. iv. p. 53.) (Francofurti, 1603—8.)

Dozy (2), tom ii. p. 41. Whishaw, p. 17. (٢)

Dozy (2), tom ii. p. 39. (٣)

Baudissin, pp. 11—13, 196. (٤)

Eulogius ; Mem. Sanct. lib. i. § 30. . . . يعيش بينهم دون بعض الدين . . . (p. 761) (٥)

Id. ib. lib. i. § 18.

.. لم نرهم قوة من قوى الحكام إلى إنكار دينهم ولم تبعدهم عن عبادة الدين المقدس الموقر . . . (p. 751.)

ويقول John of Gorz ( الذي زار أسبانياً حول منتصف القرن العاشر ) § 124 . . . ويستخدم المسيحيون الذين

كانوا إبان حكم الأماكن المقدسة وأملاكهم بحرية . . .

وبذلك وصف أسقف أسباني حالة المسيحيين وصفاً يفت به إلى جون أوف كورتر فقال . . . لقد وصلنا إلى هذا بسبب أماننا

نخضعنا لقوة الملحد ، وهجرنا عن مقاومة الحكومة . وما لنا من عزاء في هذا الأمر إلا أن الذين يخدمون ، يرحبون بمن يلقونهم ،

وهم يؤيدون للمسيحيين تأييداً حاراً ؛ لا يمتنعوننا من استخدام قوانيننا . وهم في الوقت نفسه راغبون بحبائهم الاجتماعية . وما دام

ليس هنالك إبعاد عن ديانتنا ، فعلياً أن نظاهر ، وقتاً بوقتاً السياسة القادمة علينا ، فنطيعهم ونخضع لأوامرهم طالما لا تحق سياستهم

حجر عثرة في سبيل إيماننا . . . § 122 (p. 302) .

خاصة تمييزهم عن المسلمين ، فتكون مظهراً من مظاهر إذلالهم . وكان المسيحيون المديون ، في القرن التاسع الميلادي على الأقل ، يلبسون نفس ملابس العرب (١) ، كما سمح لهم في وقت من الاوقات أن يبنوا كنائس جديدة (٢) .

كذلك نقرأ عن بناء (٣) عدة أديار جديدة بالإضافة إلى الأديار الكثيرة المزهرة التي أقام بها الرهبان والراهبات الذين عاشوا في أمن وطمانينة لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء . وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملاء من الناس في وشاحهم الصوفي وفق نظامهم الكففي ؛ ولم يكن ثمة ما يدعو القيس إلى إخفاء شارته الدينية . وفي الوقت نفسه لم تحمل المناصب الدينية (٤) دون تقلد المسيحيين المناصب العالية في البلاط أو اندماجهم في سلك الرهبنة (٥) أو انتظامهم في جيش المسلمين (٦) .

ومن الثابت لدينا أن هؤلاء المسيحيين الذين مالوا إلى الصلح ورضوا عن طيب خاطر بحرمانهم ما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي وسلطة . لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى ، حتى إننا لم نسمع في خلال القرن الثامن الميلادي كلمة إلا عن محاولة واحدة للثورة من جانب هؤلاء المسيحيين المقيمين بمدينة بيجه Beja ، ويظهر أنهم انضوا في ثورتهم هذه تحت لواء رئيس عربي (٧) . كما أن أولئك الذين هاجروا إلى الأراضي الفرنسية لكي يعيشوا تحت حكم المسيحيين لم يصبوا في الحقيقة أحسن حالا من إخوانهم في الدين الذين خلفوهم وراهم ظهورهم . وفي سنة ٨١٢م تدخل شرملة لحماية المنفيين الذين لحقوا به عند ارتداده عن أسبانيا من عنق موظفي الإمبراطورية واضطهادهم إياهم . وبعد ثلاث سنين لم ير لويس التقي بدأ من إصدار مرسوم آخر لتحسين حال هؤلاء المنفيين الذين لم يلبثوا أن لجثوا برغم هذا إلى الشكوى ثانية من الإشراف الذين اغتصبوا أراضيهم التي خصصت لهم . ولم يمض وقت طويل على محاولة القضاء على هذه المساوي . حتى عمت الشكوى من جديد ؛ ولم تجدد هذه المراسيم والأوامر الملكية التي صدرت لتحسين حال هؤلاء المنفيين التاسعين . وسوف تصادف في العصور المتأخرة في الجالية الأسبانية Cagots التي فرت من الحكم الإسلامي طبقة محتقرة عوملت معاملة سيئة ووضعت نفسها تحت رحمة بني جنسهم من المسيحيين (٨) .

(١) Baudissin, pp. 16—17.

(٢) تكلم بولوجيوس المتوفى سنة ٩٥٨م (Mem. Sanct. Lib. iii. c. 3.) عن كنائس حديثة البناء . وقد نسبت

هذه الواقعة التاريخيه الى لوثيراند خطأ بناء كنيسة في قرطبة سنة ٨٩٥م (ص ١١١٣) .

(٣) Eulogius : Mem. Sanct., lib. iii. c. 11 (p. 812.)

(٤) Baudissin, p. 16.

(٥) Id, p. 21, and John of Gorz, § 128 (p. 306.)

(٦) Whishaw, pp. 272, 301.

(٧) Dozy (2), tome ii. p. 42.

(٨) Baudissin, pp. 96—7.

وإن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا ، وحرية الاختلاط بين المتدينين بالديانتين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين . وقد كثر التصاهر بينهم<sup>(١)</sup> ، حتى إن إزبدور أحد سكان مدينة بيجه Isidore of Beja الذي شدد النكير على الفاتحين المسلمين ، قد دون مسألة زواج عبدالعزیز بن موسى ( بن نصير ) من أرملة الملك لسذريق ، دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا العمل<sup>(٢)</sup> . هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية ، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية ، فاختنن كثير منهم<sup>(٣)</sup> ، وساروا وفق رسوم الوثنيين و غير المُعَمَّدين ، ( یعنی المسلمين ) في أمور الطعام والشراب<sup>(٤)</sup> .

وإن إطلاق لفظ مستعربين Muzarabes على الأسبان المسيحيين الذين عاشوا في ظل حكم العرب ، يدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التي كانت تعمل بنشاط وهمة في هذه السيل ؛ فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية في جميع أرجاء البلاد<sup>(٥)</sup> ، حتى إن لغة الدين المسيحي قد تطرق إليها الإهمال والنسيان شيئاً فشيئاً . بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية الناس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة<sup>(٦)</sup> . ومن العسير أن تتوقع من العلمايين نفس الحماسة والغيرة التي كان يبديها رجال الدين في هذا النوع من الدراسة . ففي سنة ٨٥٤م نرى أحد كُتَّاب الأسبان يعلن هذه الشكوى ضد مواطنيه المسيحيين فيقول : — « بينما نتبع النظم التي وردت في كتابهم المقدس ( یعنی المسلمين ) و نلتقي بهم لدراسة مذاهب فلاسفتهم — أو الذين يباهون بهذا الضرب من الهذر والإعجاب بمعنى أدق — لاندحض بالحجة والبرهان تعاليمهم الفاسدة ، بل لنفيد من كلامهم الذي يستولى على الأفتدة بجأله ، ومن بلاغة لغتهم — غاضين النظر عن قرارة كتابهم المقدس ، فلا نكون حينئذ إلا قوماً يجعلون من الحيوان معبوداً

(١) انظر كتاب البابا أدريان الأول إلى الأساقفة الأسبان حيث يقول فيه : « .. أضف إلى ذلك أن هناك عبارات مختلفة سمعناها من تلك الأماكن ، تقول ان كثيرين من يطلقون على أنفسهم كاثوليك ، ويميدون في اللغة مع اليهود والكفرة من غير المنتسرين ، يؤكدون أنهم ليسوا مدانين مطلقاً في الطعام أو الشراب أو الذنوب المختلفة أو فيها هو محرم ، فليس مصرحاً لأحد أن يتزوج من الكفرة ، لأنهم أنفسهم سيمنعون بناتهم هؤلاء ، وبذلك يلقى بين في أعضان الكفار . .. »

(Migne : Patr. Lat., tome xcviij, p. 385.)

Isidori Pacensis Chtonicon, § 42 (p. 1266.) (٢)

Alvar : Indic. Lum., § 35 (p. 53.) John of Gorr, § 123 (p. 303.) (٣)

Leuer of Hadrian I, p. 385. John of Gorz, § 123. (p. 303.) (٤)

(٥) لا تزال هناك أبيات من الشعر العربي نظمها شاعر مسيحي في القرن الحادي عشر الميلادي باقية إلى اليوم ، وهي تدل على مهارة فائقة في امتلاك ناصية اللغة ووزن الشعر (Von Schack, 11, 95.)

(٦) وقد أمدنا سمسون رئيس أحد الأديار بأمثلة من الأساليب اللاتينية الرديئة التي كتبها بعض رجال الكنيسة في هذا العصر فلا يقول : « .. لأننا كنا اقتننا البساطة المسيحية .. » ( أي على اعتبار أن البساطة مفعول به .. ولكن تصحيحه قد ورد أسوأ من الأول قال : « .. كنا قد اقتننا لاجل البساطة المسيحية .. » ( يريد اقتننا بالبساطة ) (pp. 404, 406.)

يعبدونه (Apoc. Xiii. 18). وأتى لنا أن نجد في أيامنا هذه أى علمانى مثقف قد انهمك في دراسة الكتاب المقدس ، واهتم بالنظر في مؤلفات آباء الكنيسة اللاتينية ؟ ومن ذا الذى أوتى من الحماسة والغيرة ما يثير في نفسه الرغبة في قراءة مؤلفات المبشرين بالإنجيل أو الأنبياء والمرسلين ؟ وإن شباننا المسيحيين ، برغم تكلفهم اللطف والكياسة وحسن البيان وطلاقة اللسان ، إنما كانوا يسترعون الأنظار بحسن هندامهم وحسن تصرفهم فيما يمرض من الأمور ، وبما عُرف عنهم من حسن الأدب ودماثة الخلق ، وبتشبههم بالبلاغة العربية ، تراهم يتناولون كتب الكلدانيين (يعنى المسلمين) منهم ، ويطالعونها بلطف ويناقشونها في حماسة وغيرة ، ويشيدون بذكرها ، ويمتدحونها بكل ضروب التتميق في اللفظ وحسن البيان ، على حين أنهم لا يفقهون شيئاً من جمال الأدب الكنسى ، ثم يحتفرون جداول الكنيسة التى تنساب إليها من الجنة . وأسفاه ! لقد جهل المسيحيون نظم شريعتهم ، وأصبحت الأمم اللاتينية لا تعير لغتها اهتماماً ، حتى لا تنكاد نجد في جماعة المسيحيين كافة رجلا من كل ألف رجل يستطيع أن يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جلية ، وأنت واجسد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصاً لا يحصى عددهم ، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التى خلفتها اللغة العربية في عصورها الذهبية . حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة — تلك القصائد التى يتجلى فيها أسمى مراتب الجمال ، بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب أنفسهم في قرص الشعر (١) .

وفي الحق إن اللغة اللاتينية بلغت في بعض أجزاء أسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط ، حتى لقد أصبح من الضروري أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين (٢) .

وبينما كانت الآداب العربية التى ازدهرت في ذلك العصر تستولى على الأفئدة بجهاها ، ويقبل الناس على دراستها في حماسة وشغف ، نجد أن أولئك الذين رغبوا في دراسة الأدب المسيحى لم يعد في متناول أيديهم المادة التى كانت تستخدم في تعليم القوط المتبربرين ، ولم يجدوا ، إلا في شئ من الصعوبة ، المعلمين الذين يستطيعون أن يبدوا معهم نوعاً من الدراسة لا يرتفع كثيراً حتى عن المستوى المنحط من الثقافة . وهذه الحاجة الماسة للدراسات المسيحية قد زادت على مر الأيام . ففي سنة ١١٢٥ م كتب المستعربون في أسبانيا إلى ألفونس ملك أرغونة : « لقد نشأنا نحن وآباؤنا إلى وقتنا هذا وترينا بين الأجانب . وإننا نرى الرسوم المسيحية في حرية بعد أن تعمدنا في طفولتنا ؛ بيد أننا لم نكن قط بحيث نستطيع أن نلم بتعاليم ديننا المقدسة . فإننا لا نجرؤ ، بسبب وجودنا تحت حكم الكفار الذين ظللونا دهرًا طويلاً ، على طلب المعلمين

Alvar : Indic, Lum., § 35. (pp. 554-6.) (١)

Von Schack, vol. ii. p. 96. (٢)

من رومة أو من فرنسا . فإنهم لم يقدوا إلينا قط من تلقاء أنفسهم بسبب وحشية الوثنيين الذين ندين لهم بالطاعة ، (١) .

ومن ذلك الاتصال الوثيق بالمسلمين ، ودراسة آدابهم دراسة عميقة - حيث نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار Alvar (٢) الذي عرف بتعصبه على الإسلام ، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل ، حتى إن المسيحيين لم يسمعهم لإقراءته والإعجاب به - كان طبعياً أن تتوقع وجود أدلة على مدى النفوذ الديني : كذلك كانت الحال بلا مرا . ويقال إن إلبندس Elipandus أسقف طليطلة (المتوفى سنة ٨١٠ م) ، وأحد أئمة المذهب الإلحادى القائل بالثنى - الذى ذهب إلى القول بأن عيسى المسيح الرجل ابن الله بالثنى لا بالطبيعة - قد انتهى إلى هذه الآراء المغرقة في الإلحاد عن طريق اتصاله بالمسلمين (٣) . ويظهر أن هذه العقيدة الجديدة قد ذاعت بسرعة في جزء كبير من أسبانيا ، بينما نشر فيلكس أسقف أرجيل Urgel إحدى مدن إقليم قطلونية هذه الآراء في إقليم سبانيا الذى كان تحت حماية فرنسا (٤) . وقد استدعى فيلكس أمام مجمع برياسة شلمان . وأرغم على التفكير عن خطئه ؛ ولكنه عاد إلى إلحاده على أثر عودته إلى أسبانيا . وليس من شك في أن ذلك كان راجعاً (كما ظن البابا ليو الثالث . Leo III في ذلك الوقت) إلى اتصاله بالوثنيين (يعنى بذلك المسلمين) الذين دانوا بنفس هذه الآراء (٥) .

ولما كان أشهر رجال الدين قد تأثروا تأثراً عميقاً من جراء اتصالهم بالمسلمين ، جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام في مسيحي أوروبا كان عظيماً . وليس أدل على صحة هذا القول من التفكير في عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ٩٣٦ م ، للبحث في أحسن الوسائل التى تحول دون أن تفسد هذه العلاقات من صفاء الدين المسيحي ونقاؤه (٦) .

من ذلك نستطيع أن ندرك بسهولة كيف أن عوامل التأثير في الآراء واقامة الشعائر الإسلامية —

(١) Orderic Vitalis, p. 928.

(٢) .. واليوم نقرأ في كتبهم بأعيننا Alvar : Ind. Lum, § 29. وند نشحن تركيب العبارات والعبارات التى يصل بها أنصار ( هذا الدين ) جميعاً ولقى تصاغ كل يوم من أجـهـه في مهارة فائقة وفصاحة عذبة . ..

(Migne : Patr. Lat., tome cxxi, p. 546.)

(٣) Enhueber, § 26, p. 353.

(٤) Helfferich, p. 88.

(٥) .. بعد قليل ، نفض قانون الرب وفر ال الكفار الذين اتفقوا معه ، وأصبح بذلك حائناً لعهده . ..

Frobenii dissertatio de haeresi Elipandi et Felicis, § xxiv. (Migne : Patr. Lat., tome ci, p. 313.)

(٦) Pseudo-Luitprandi Chronicon, § 341. (p. 1115.) .. دعا باسيلوس مجلس طليطلة واشترط

براسته ألا يعاقب المسيحيون باختلاطهم مع المسلمين ، ..

بالإضافة إلى هذه الجهود الواضحة التي بذلت في سبيل تحول هؤلاء المسيحيين (١) — قد أدت إلى ما هو أكثر من مجرد التقارب والاتصال ، كما أنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام ، حتى إن ذريتهم الذين أطلق عليهم اسم الموالدين — ذلك اللفظ الذي يدل على الأشخاص الذين لم يكونوا من دم عربي — سرعان ما اتفوا جماعة كبيرة لها أهميتها وخطرها في الدولة ، وأصبحت بلا شك أغلبية سكان البلاد (٢) ، حتى إننا نقرأ كثيراً عن الجهود التي بذلها هؤلاء الأسبان في مستهل القرن التاسع للتخلص من حكم العرب ، ثم تنشط حركتهم وتتقدم بخطا مسرعة في مناسبات كثيرة ، ويظهرون باسم جماعة الحزب الوطني للأسبان المسلمين .

وليس لدينا إلا اليسير من المعلومات المفصلة عن تاريخ تحول هؤلاء الأسبان الحديث العهد بالإسلام . ويظهر أن ذلك التحول استمر إلى أواخر أيام الحكم الإسلامي ؛ فقد ذكر المؤرخون أن المسيحيين الذين ارتدوا إلى الإسلام وجدوا في مدينة ملقة التي استولى عليها جيش فردينند وإزابلا في سنة ١٤٨٧ م ، وأنهم قد عذبوا عذاباً أفضى بهم إلى الموت ، وذلك بوضع الغاب الحادّ المدبب في أجسادهم .

وفي الحصار الذي انتهى بتسليم مدينة Purchena بعد ذلك بستين ، وعد الفاتحون بالألا يحملوا هؤلاء المرتدين على التحول إلى المسيحية ثانية (٣) . على أن عدداً قليلاً من الأهلين قد ارتد عن الإسلام ليتخلص من الغرامة التي قضت المحاكم الشرعية عليه بأدائها (٤) . وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحي أسبانيا مبلغاً عظيماً ، حتى سحرم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفتنتهم بشعره وفلسفته . وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم : كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالاً فسيحاً لإظهار بأسهم ، وما تكشففت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم — تلك الحياة التي ظلت مغلقة في وجوه الأسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها . أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها ، باعثاً على الدخول في دينهم . هذا إلى أن الإسلام في أسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الأتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمسون من جماعة اخوان الصفا ، وعلى رأسهم علماء

(١) ليس هنالك غير نصوص قليلة توضح مثل هذه العوامل والجهود . بيد أن الإشارة إلى هذه العوامل والجهود تظهر في عبارات بولوجيوس هذه (Liber Apologeticus Martyrum § 20) عن عمد .

.. وفي الحق سيقتقر الدين يرغبون من الكاثوليك في معرفة جنون هذا الأثم ، وهذيان هذا التبشير ، وأوهام البدعة غير المقدسة ، بفكرة أوضح ، من أصحاب هذه الطائفة ، حين يدوسونهم ، قائمهم يعتقدون أنهم على شيء مقدس ، ويؤمنون به ويشرون بعقيدة نبيهم . لا في السر لحسب ، بل في الأضاحيت العامة كذلك . .. (Migne : Patr. Lat., tome cxv. p. 862.)

Dozy (2), tome ii. p. 53. (٢)

Lea, The Moriscos, pp. 17. 18. (٣)

Samson, p. 379. (٤)

الكلام عند أهل السنة الذين كانت لهم الكلمة النافذة في أمور الدولة وقتها ما ، والذين دأبوا في حمية وغيره على إصلاح مذهبهم وتقويم أخلاقهم .

وإذا نظرنا الى ذلك الشعور الديني الذي أحيأ كثرية الأسبان المسلمين ، وذلك التحدى والحقد الذي غلا في صدور المسيحيين حتى دبروا المؤامرات بمؤازرة إخوانهم في الدين الذين كانوا يقيمون خارج حدود بلادهم ، لايسعنا الا الاعتراف بأن تاريخ أسبانيا في ظل الحكم الاسلامي يمتاز ببعده بعداً تاماً عن الاضطهاد الديني . وإذا استثنينا ثلاثاً أو أربعاً من حالات الاستشهاد الحقيقي ، فإن الشيء الذي قد نطلق عليه اضطهاداً أو ما يقرب من الاضطهاد مدة الحكم العربي ، انما تجده في هذه الاجراءات التعسفية التي اتخذتها الحكومة الاسلامية للقضاء على الجنون الذي استولى على عقول بعضهم ، فدفع بهم الى التطوع للاستشهاد الذي نشأ بقرطبة في القرن التاسع . ففي ذلك الوقت ظهرت في هذا الجزء من أسبانيا ( والواضح أن الكنيسة المسيحية في سائر أنحاء البلاد لم تعطف على هذه الحركة ) ، جماعة دينية اشتهرت بتعصبها للمسيحية ، وانتهكت حرمة ديانة المسلمين جهراً وبغير ما سبب ، ورمت نبيهم بالكفر ، وأصرت على تحدى هذه الديانة ، وعرضوا أنفسهم للقتل على أيدي مواطنيهم الذين ضلوا السبيل ومرقوا عن الدين بتحولهم الى الإسلام وتعصبهم له .

وإن هذا الانفعال النفساني الغريب الذي دفع بهذه الطائفة إلى التضحية ، ليظهر ظهوراً بينا لدى جماعة القسيسين والرهبان والراهبات بين سنتي ٨٥٠ و ٨٦٠ م . وقد يبدو أن عادة إطالة التفكير والتأمل بحكم وجودهم في الأديار وعزلتهم في الصوامع ، فيما آل إليه نفوذ المسيحية من ضعف وما بلغتة الحية الدينية من وهن وانحلال ، قد دفع بهم إلى السعي وراء شرف الاستشهاد — الذي سلبهم إياه تسامح حكاهم الكفار — بمناوأة الاسلام والغرض من شأنه وشأن نبيه . ومن الأمثلة التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه تلك الحادثة التي دونت عن أحد الرهبان ويدعى إسحاق ، فقد تقدم إلى القاضي ، وادعى أنه يريد أن يتعلم أصول الإسلام . ولما شرح له القاضي تعاليم النبي بادره بقوله في عنف وشدة : « لقد كذب عليكم (لعنه الله ! ) ذلك الشرير الذي ملأ الخبث قلبه ، وقاد كثيرين من الناس إلى التهلكة وفضى عليهم بالتردى في نار جهنم يوم الدين ، وقدّم إليكم كأساً من النبيذ البارد ليدخل المرض إلى نفوسكم بهذه الشعوذة الشيطانية التي احترفها فلكت عليه مشاعره . وسوف يكفر عن خطيئته بما يحل به من اللعنة الأبدية . ولم لا تخلصون نفوسكم من أمثال هذه المخاطر بفضل ما وهبكم الله من مزية الفهم والإدراك ؟ ولماذا لا تتلمسون النجاة الأبدية برفض هذه الوصية التي تشوب عقائدكم الوثابئة بالرجوع إلى إنجيل دين المسيح (١) ؟ » .

وفي مناسبة أخرى اقتحم اثنان من المسيحيين أحد المساجد وأخذوا يفضان من شأن الدين الإسلامي ، وأعلنا على ملأ من الحاضرين أن هذا الدين سيعود على أنصاره عما قليل بالتهلكة ونار الجحيم (٢) . ومع أن

Eulogius : Mem. Sanct. Pref. § 2. (Migne, tome cxv. p. 737.) (١)

(٢) المصدر نفسه. (p. 794). c. xiii.

عدد هؤلاء المتعصبين للدين المسيحي لم يكن كبيراً<sup>(١)</sup>، خشيت الحكومة الإسلامية سوء عاقبة هذه الحوادث وأوجست خيفة من أن احتقارهم سلطانهم وعدم اكتراثهم لهذه القوانين التي سنوها ضد من يطعن في دينهم قد يؤدي إلى استفحال روح الكراهة وذبوع حركة العصيان بين الأهلين كافة. إذ أن محمداً الأول لم يجد في الواقع بدأ من أن يرسل في سنة ٨٥٣م بجيشاً إلى مسيحيي طليطلة الذين استفزهم يولوجيوس Eulogius ، الذي نصب نفسه للدفاع عن الشهداء ، وأشعل نار الثورة حين وصلت إلى سمعه أنباء هذه الآلام التي كان يقاسمها إخوانهم في الدين<sup>(٢)</sup>. وقد قيل إنه أمر بذبح جميع النصارى . على أن الناس لما أدركوا أنه لم يشترك في هذه الأعمال أي شخص من المسيحيين الذين يمتازون بشيء من الذكاء أو السلطان<sup>(٣)</sup>. (إذ أن ألقار Alvar نفسه يشكو من أن أغلبية القسيسين المسيحيين قد دانوا الشهداء وحكوا عليهم بالخطيئة<sup>(٤)</sup>) ، اكتفى الأمير بتنفيذ القوانين المعمول بها نحو من يطعن في الدين الإسلامي بمنتهى الصرامة . وقد أبدت طائفة الكنيسة التي عرفت بالاعتدال الحكومة فيما بذلت من جهود في هذه السبيل ، ولعن الأساقفة هؤلاء المتعصبين وحرموهم الحقوق الكنسية ، وعقدت في سنة ٨٥٣م مجمع ديني لبحث وسائل القمع التي اتفق عليها الفريقان<sup>(٥)</sup>، وانتهت بالقضاء على هذه الحركة . وقد دون المؤرخون بعد ذلك حادثة أو حادتين منفصلتين من حوادث الاستشهاد - وقعت ثانيتهما في سنة ٩٨٣م ، ولم تقع بعدها أية حادثة مدة الحكم العربي في أسبانيا<sup>(٦)</sup>

(١) يقال إن عدد الشهداء لم يتجاوز الأربعين .

(W. H. Prescott : History of the Reign of Ferdinand and Isabella,  
vol. i. p. 342, n.) (London, 1846.)

Dozy (2), tome ii. pp. 161-2. (٢)

Eulogius : Mem, Sanct. 1, iii, c, vii, (p. 805.) (٣)

.. وان الحقيقة السافرة القاطنة بأنه ليس هناك بين المسيحيين رجل حكيم مهذب ، ولا قائد من فوادهم قد أتى عملاً من هذا القبيل ، قد جعلتهم يؤكدون وجوب القضاء المبرم على الذين لم يسبقهم القائد بنفسه إلى القتال . ..

(٤) يقول ألقار (Alvar : Ind., Lum. § 14.)

.. ألم يحضر حتى أولئك الذين يظهرون أنهم دعائم الكنيسة الذين كان يعتقد أنهم اعتبروا بدون إكراه أو سخط بين يدي القاضي وقدموا شكواهم مندشهود الخير في ساينزكس Cynicus ، بل أيضاً مندشهود أبقور ؟ ألم يقبته رعاة المسيح ، ومعلمو الكنيسة والأساقفة ورؤساء الأديار ، والقسس من الشيوخ والرؤساء فبعرنوا أنهم كانوا هراطقة ؟ ألم يملئوا معتزفين ، دون أن يسألوا ، ويستجوبوا من تلقاء أنفسهم ، ويحكموا على أساس حكمهم الشخصي ، ما لا يحق لهم أن يقولوا ولو أنكروا بالموت ؟ ..

(Migne : tome cxxi. p. 529.)

Alvar : Indic, Lum, p. 15. (٥)

أي عذر يمكن أن تتحمله هؤلاء الذين تركهم فريسة الحسرة الكنى ، والذين اقتصبنا من أفواههم إيماناً بأنهم لن يخرجوا أبداً على دينهم ؟ أولئك الذين مننهم أن يملئوا في آثام الكفار أو يملئوا الملعونين ؟ انا نضطرهم بسوء نية ، أن يقصوا على الانجيل والصابب بالقوة والاكراه ، بل نضطرهم بقسوة وعلع مرير ، مهددين إياهم بعقوبات لم يسمع عنها ، وبالوأن من العذاب كقطع الأطراف وعزب السباط وغير ذلك مما يستولى علينا القزع حين نقوله أو نسمعه . (Migne : tome cxxi. p. 530.)

Baudissin, p. 199. (٦)

وليكن في عهد دولة المرابطين التي تولت حكم بلاد الأندلس ، انفجر بركان التعصب الديني في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من جانب المتحمسين من رجال الدين الإسلامي ، وقامى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب . ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الديني الذي اتمم بذلك الطابع الذي عرف به أمراء المسلمين في أسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين . ذلك أن أحد مسلمي أسبانيا الذي طرد من بلاده حين أقصى العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠ م ، بينما نراه يحتج على اضطهادات محاكم التفتيش ، يثبت بالأدلة القاطعة مدى التسامح الديني الذي سار عليه إخوانه في الدين في هذه الكلمات : « هل حاول أسلافنا المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من أسبانيا حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك ؟ ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمال رسومهم الدينية في نفس الوقت الذي لبسوا فيه طيا السهم ؟ ألم يوص نبينا بأن تترك الحرية الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحمد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حمق وخرق ؟ بل ألم يسمح لهم بالتدين بأى دين آخر يؤثرونه على دينهم إذا دفعوا مقداراً معتدلاً من الجزية في كل سنة ؟ وإذا كانت ثمة أمثلة قد يأتي بها بعضهم للدلالة على إرغام الأهالي على اعتناق الإسلام ، فإن هذه الأمثلة قد بلغت من الندرة بحيث لا تستحق أن تذكر هنا ، وإنما حاولها أناس لا يخشون الله ونبيه ، بل قاموا بهذا العمل من تلقاء أنفسهم مع مخالفتهم لتعاليم الدين الإسلامي وسنة نبيه ، تلك التعاليم التي لا يمكن أن يدنسها أو ينتهك حرمتها إلا كل شخص لا يتحلى بصفات المسلم الحقيقي .... وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئاً ما عن أية حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للحاكم ، بسبب الطرق المختلفة التي اتبعت في إقناع الناس وتلقينهم تعاليم تشبه على نحو ما ، محاكم التفتيش الممقوتة . وإن يدنا مبسوطة دائماً لتلقى كل من وهب الله له نعمة التدين بديننا ؛ ولكن كتابنا المقدس وهو القرآن الكريم لا يجيز لنا أن نتحكم في ضمائر الناس . وإن الذين استجلبوا إلى ديننا قد نعموا بكل ما يمكن أن يتصوره العقل من تشجيع ومعاوضة ؛ حتى إذا اعترفوا بوحداية الله ورسالة نبيه ، صاروا كواحد منا من غير تمييز أو استثناء ، فزوجوا بناتنا وشغلوا المناصب التي يكون أصحابها محللاً للثقة ، ومحاطون بمظاهر الشرف وينعمون بالثراء . وكان أقصى ما رضينا لأنفسنا من هؤلاء ، أن طلبنا إليهم في رقة ولطف أن يلبسوا لباسنا ، وأن يظهرنا بمظهر المخلصين الحقيقيين للدين في كل ما يظهرنا به أمام الناس ، دون أن يعرضوا ضمائرهم للامتحان بشرط أن لا يفضوا من شأن ديننا أو يدنسوه . فإذا فعلوا ذلك أنزلنا بهم ما يستحقونه من العقاب بلا مراعاة ، إذ كان تحولهم إلى هذا الدين عن طواعية واختيار لا عن إرغام وإكراه (١) .

وقد اتخذ رئيس أساقفة بانسية من روح التسامح الحقيقية هذه ، مقالا رئيساً بعنوان : « ارتداد العرب في الأندلس وخيانتهم للدولة » ، وذلك حين أشار على فيليب الثاني بطردهم فقال : « إنهم لم يذكروا بالجيل والحد شيئاً أكثر من حرية الضمير هذه في كافة المسائل الدينية ، تلك الحرية التي سمح الأتراك العثمانيون وغيرهم من المسلمين لرعاياهم أن ينعموا بها ، (٢) .

وإن هذه البذور العميقة التي ألقى بها الإسلام في قلوب أهالي بلاد الأندلس ، يمكن الحكم على مدى عمقها من هذه الحقيقة ، وهي أنه لما طرد آخر بقايا المسلمين من هذه البلاد سنة ١٦١٠ م ، كان هؤلاء الأهالي المساكين لا يزالون يتمسكون بدين آباؤهم ، مع أنهم أرغموا على إظهار تدينهم بالمسيحية أكثر من قرن ، ومع توالي هذه الهجرات التي حدثت منذ سقوط غرناطة ، حتى قيل إنه طرد في ذلك الوقت أكثر من خمسمائة ألف<sup>(١)</sup> . ومن ثم هجرت مدن وقرى برمتها ، تخربت بيوتها وأصبحت أطلالا بالية . حتى لم يعد فيها شخص واحد يقوم ببنائها من جديد<sup>(٢)</sup> . وربما كان هؤلاء المسلمون المتخلفون في أسبانيا جميعاً من سلالة أهالي البلاد الأصليين ، الذين لم يكن بينهم وبين العرب امتزاج ما في الدم ، بل ربما كان هذا الامتزاج قليلاً . وإن الأدلة التي قد نوردتها على سبيل التذليل لدعم هذه الحقيقة من الكثرة بحيث لا نستطيع أن نأتي بها على سبيل الحصر في هذا المقام . ولندكر الآن إحدى هذه الحقائق لتسكون شاهداً على صحة ما نقول ، مستمدين ذلك من كتاب يرجع تاريخه إلى سنة ١٣١١ م . وقد جاء فيه أنه لم يكن من بين المائتي ألف من المسلمين الذين كانوا يعيشون في مدينة غرناطة في ذلك الحين أكثر من خمسمائة من أصل عربي ، على حين كان سائر هؤلاء المسلمين من أهالي بلاد الأندلس الأصليين الذين تحولوا إلى الإسلام<sup>(٣)</sup> . وأخيراً فن المهم أن نذكر أنه حتى أواخر ذلك الوقت الذي احتفظ فيه الإسلام بقوته ونفوذه ، نرى هذا الدين يظفر بمتبعين جدد . ولا غرو فإن المؤرخ حين يدون الحوادث التي وقعت في سنة ١٤٩٩ م ، أي بعد سقوط غرناطة بسبع سنين ، يوجه أذهاننا إلى هذه الحقيقة ، وهي أنه كان من بين العرب في أسبانيا عدد قليل من المسيحيين الذين اعتنقوا دين النبي في عصر متأخر<sup>(٤)</sup> .

Lea, The Moriscos, p. 259. (١)

Morgan, vol. ii. p. 337. (٢)

Id. p. 289. (٣)

Sterling-Maxwell, vol. i. p. 115. (٤)

## الباب السادس

### انتشار الاسلام بين شعوب أوروبا المسيحية في عهد الأتراك

نسمع لأول مرة عن الأتراك العثمانيين في بداية القرن الثالث عشر عندما هربوا من وجه المغول في عدد يقرب من خمسين ألفاً . ثم قدموا لنجدة سلطان قونية الذي أقطعهم ولاية في الشمال الغربي من آسيا الصغرى مكافأة لهم على خدماتهم ضد المغول والإغريق . وكانت هذه الولاية نواة الدولة العثمانية المقبلة التي أخذت تنسج أول الأمر باندماج الولايات الصغيرة التي كان الأتراك السلجوقيون قد تقسموها فيما بينهم . ثم عبر الأتراك إلى أوروبا وأخذوا يضمون إلى ملكهم دولة بعد أخرى ، حتى توقفت انتصاراتهم المطردة أمام أبواب فيينا في سنة ١٦٨٣ (١) .

ولقد باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التي قاموا فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى . ولم تسكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ م ، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت . ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني ، بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها ، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامى الكنيسة الإغريقية . فخرم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً ، ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولاتباعه ولمرؤسبه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق . وقد تسلم جنساديوس ، أول بطريق بعد الفتح التركي ، من يد السلطان نفسه ، عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب ، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية ، وحصان محلي بطاقم فاخر ، وكان يتميز بركوبه في خلال المدينة تحف به حاشيته (٢) . ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توفير وتعظيم ، بل كان متمتعاً أيضاً بسلطة أهلية واسعة ، فكان من عمل البطريركية أن يفصل في القضايا التي تتعلق بالإغريق بعضهم مع

(١) لا مجال هنا لسرد تاريخ هذه الأراضي التي استولى عليها الأتراك ، والتي يمكن سردها بإيجاز فيما يلي : في سنة ١٣٥٣ عبر الأتراك العثمانيون إلى أوروبا أولاً ، وبعد سنوات قليلة أخذوا أدرنة حاضرتهم الأوربية . وفي عهد بايزيد ( ١٣٨٩ - ١٤٠٢ م ) امتدت ممتلكاتهم من بحر إيجة إلى نهر الدانوب ، مشتتة على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية ورومانيا وترافية . ما عدا خلكيدونية والمقاطعة المحيطة بالقسطنطينية مباشرة . ثم احتل مراد الثاني ( ١٤٥١ - ١٤٥١ م ) خلكيدونية ، وسار بفتوحاته قدما نحو الأدرياتيك . وقد أصبح محمد الثاني ( ١٤٥١ - ١٤٨١ م ) ، بعد أن فتح القسطنطينية وألبانيا والبرسة واهرب ، سيد شبه الجزيرة الجنوبية الشرقية ، ما عدا الأجزاء الشمالية التي تحتلها البندقية والجيل الأسود . ثم أضاف سليمان الثاني ( ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م ) إلى ملكة بلاد البحر وجعل بحر إيجة بحراً عثمانياً . وفي القرن السابع عشر ، استولوا على إفريطس ، ونزلت لهم بولندة عن برودوليا .

بعض : فكان لها أن تفرض الغرامات ، وتسجن المجرمين في سجن معد لها ، بل كان لها أن تحكم بالإعدام في بعض الأحيان . بينما صدرت التعليمات إلى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام : وكانت المراقبة التامة على الشؤون الروحية والكنسية (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقاً بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في أيدي البطريرق وأعضاء المجمع الأعظم ، وكان في استطاعة البطريرق أن يدعوهم متى شاء . كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلاً من جانب الحكومة . ولما كان هذا البطريرق معترفاً به موظفاً من موظفي الحكومة السلطانية ، كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان إلى أعمال الحكام الظالمين . كذلك عمل الأساقفة من الإغريق في الولايات معاملة تنطوي على رعاية بالغة ، وعهد إليهم كثيراً من القضايا المتعلقة بشؤونهم المدنية ، إلى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون في أسقفياتهم كما لو كانوا عمالاً من الأتراك على الأهالي الأرثوذكس ؛ وبذلك حلوا محل الأرستقراطية المسيحية القديمة التي استأصل الغزاة شأفتها . ونجد أن رؤساء الكنيسة كانوا بوجه عام أكثر نشاطاً باعتبارهم من الأتراك منهم باعتبارهم قساوسة من الإغريق . وطالما علوا شعبيهم أن السلطان قد اكتسب قبولاً إلهياً بوصفه حامى الكنيسة الأرثوذكسية . ومن ثم أذيع منشور يكفل للأرثوذكس حق استخدام الكنائس التي لم تصادرها الحكومة لتحويلها إلى مساجد ، ويمنح لهم حق الاحتفال بطقوسهم الدينية تبعاً لعاداتهم القومية<sup>(١)</sup> .

وكان من أثر ذلك أن الإغريق ، ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عدداً في كل الولايات الأوربية التابعة للدولة ، قد جعلهم التسامح الديني الذي رخص لهم ، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم ، يسرعون في الموافقة على تغيير ساداتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية . وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيباً من جانب الإغريق ، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد ، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية البلوطونيز وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان ، فقد صيروا الشعب في حالة من العبودية يرثى لها ، بإدخالهم نظام الإقطاع في اليونان ، كما كانوا مكروهين من رعاباهم ، لاختلافهم عنهم في اللغة والجنس والعقيدة<sup>(٢)</sup> . ووجد هؤلاء

Finlay, vol. iii. p. 522. (١)

Pitzipios, seconde partie, p. 75. M. d'Ohsson, vol. iii. p. 52-4.

Arminjon, vol. i. p. 16.

(٢) برسم أحد الرحالة الذين زاروا جزيرة قبرص في سنة ١٥٠٨ صورة من عظم البنادقة في أملاكهم الأجنبية على الوجه التالي :  
« كل سكان قبرص عبيد للبنادقة لكونهم مضطرين إلى دفع ثلث مواردهم أو إدخالهم للدولة سواء من حاصلات أراضيهم أو من الللال أو النبيذ أو الزيت أو الأغنام أو أى شيء آخر . إلى جانب ذلك يستعمل منهم بالعمل للدولة يومين في الأسبوع في أى مكان يحدون تعيينه فيه . وكل من يتخلف منهم عن العمل بسبب انشغاله في بعض أعماله الخاصة ، أو لعله جسمانية ، يتكلف بأن يدفع غرامة عن الأيام التي تفتقر فيها عن العمل . وما زاد هذه الحالة سواء أن هناك بعض الضرائب السنوية ، وغيرها من الضرائب التي

الرعايا أن أى تغيير لحكامهم ، طالما لا يمكن أن ينقلهم الى حالة أسوأ مما هم عليها ، قد يهيء لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة . ومع أن مخلصهم كانوا كذلك غرباء عنهم ، إلا أنهم أثروا التركي الكافر على الكاثوليك المراقطة إيثارا مطلقا<sup>(١)</sup> . كذلك كان الإغريق الذين عاشوا تحت حكم بيزنطة غير المباشر ، فقد كان من الجائز أن يوافقوا على تغيير الحكام . وقد بلغت حاله التدهور والظلم التي ميزت أسرة Palaelogi إلى حد يدعو المتأمل إلى الخوف والذعر . فين الأرستقراطية الفاسدة ، ورجال الكنيسة المستبدين الذين لا يحصيهم العد ، وضغط القانون الباطل ، وإرهاق الحكومة الوضيعة ، وأكثر من هذا ، المقاطعات والمالية والجيش المجهشة بجمع الضرائب والحراج - كل ذلك قد جعل الشعب المنحل خلوا من الحقوق والمبادئ ، لا فرصة أمامه للإصلاح ، ولا أمل له في الانتعاش<sup>(٢)</sup> . وهنا نشير إلى كتابة تؤيد صحة هذا الحكم لأحد المعاصرين الذين يعدون حجة ، حتى لا يظهر أن مثل هذا الحكم قد أمكته روح التعصب الطائفية . فقد عرض الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية لمثل هذا الحكم ضد حكومتها بقولهم : وإن أية دولة لاتخاف القانون تشبه فرسا من غير زمام . لقد سمح قسطنطين وأسلافه لأكابره دولته بأن يستبدوا بالشعب ، فلم تعد في محاكمهم عدالة ، ولا في قلوبهم شجاعة . وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم ، وأصبح الجنود الإغريق لا يفخرون إلا بفخامة الملابس ، والمواطنون لا يخرجون من الظهور بمظهر الغش والخيانة ، والجنود لا يخرجون من الفرار . وأخيرا صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين ، ورفع من شأن محمد الذي ينشد أتباعه المحاربون اللذة في القتال ، والذي لا يخدع قضائه ضائهم<sup>(٣)</sup> . هذه العبارة الأخيرة التي تنطوي على المدح والثناء<sup>(٤)</sup> ، قد تقع موقع الدهش حين يسمعا جيل من الأجيال طالما استنجد به ليحتج على جور الأتراك . ولكن هذا ثابت في وضوح وتواتر بشهادة المؤرخين المعاصرين . فالمؤرخ البيزنطي الذي خلف لنا قصة سقوط القسطنطينية ، يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم نفسه رحب الصدر ، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين ، وكيف جعلهم بألقونه ألفة تامة بأن سمح

فرحت عليهم ، بما جعل عامة الشعب من الفقراء على جانب كبيرة من الغزال والانهيار بحيث كانوا لا يكادون يملكون وسيلة يفون بها على الروح والجسد ما . . . (The Travels of Martin Baumgarten, p. 373.)  
راجع أيضا المقصود التي نقلها هاكيت Hackett في :

History of the Orthodox Church of Cyprus, p. 183.

Finlay, vol. iii. p. 502. (١)

Urquhart, quoted by Clark : Races of European Turkey, p. 82. (٢)

Karamsin, vol. v. p. 437. (٣)

(٤) ويكتب ماوتن كروسوس Martin Crusius بهذه الروح نفسها إذ يقول : .. ومن الغريب أننا لم نسمع مطلقا أن شيئا من الجرائم أو المظالم قد وقع بين البرابرة ( الأتراك ) وبين البقية الباقية في هذه المدينة الكبرى ، فالعدالة تنوح لكل فرد . لذلك وصف السلطان القسطنطينية بأنها ملءا عالم كله : ذلك لأن جميع الناس ينتهون هناك في أمان ، ولأن العدالة توزع على الناس جميعا : على أقلهم شأنًا وأعظمهم نفوذًا . على المسيحيين والكفار سواء بسواء .

(Tureograecia, p. 487.) (Basileae, 1584.)

لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة . وقد اشتهر مراد الثاني بعنائه في تحقيق العدالة وبإصلاحه للمفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الإغريقيين ، وعاقب في غير هوادة أى موظف من موظفيه استبد بأى فرد من رعاياه<sup>(١)</sup> . لهذا رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل ، طائفة من الحكام الصالحين ، واستطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها ، ووجدنا تنظيمًا رائعًا في الشؤون المدنية والقضائية ، وهو إن لم يجعل المساواة تامة بين المسلمين والمسيحيين ، إلا أنه جعل الإغريق أحسن حالا بكثير مما كانوا عليه من قبل . فقد كان ما كلفوا به من مشقة العمل الإجبارى أهون عليهم من ذى قبل ، وكانوا في القليل النادر يدفعون غرامات غير عادية ، وكانت الضرائب التي يدفعونها عبئا خفيفا ، إذا ما قورنت بالالتزامات الإقطاعية ، التي لانتهى ، والتي كان الفرنجة يفرضونها عليهم ، والإرهاق المستمر الذى كانوا يتكبدونه من البيزنطيين . ولا شك أن الإيالات التركية كانت أحسن حكما وأكثر رخاء من معظم جهات أوروبا المسيحية ، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضى كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية ، كما كانوا ينعمون بثار جهودهم في ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظل كثير من الحكام المسيحيين<sup>(٢)</sup> . أضف إلى ذلك عاملا كبيرا كان من أهم العوامل في زيادة نشاط المملكة التجارى ، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائما على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم ؛ وإن كثيرا من المدن الكبرى قد ازدهر ازدهارا كبيرا عند ما خلاصها الفتح التركى مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها ، ومن هذه المدن نيقية التي سلبت لأورخان سنة ١٣٣٠ بشروط ملائمة جدا بعد حصار طويل<sup>(٣)</sup> . وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة في إنشاء الطرق والكبارى مما سهل التجارة في جميع أنحاء الدولة ؛ وقد اضطرت الدول الأجنبية إلى السماح بفتح موانئها لتجار الإغريق ، وكانوا قد منعوا من دخولها في عهد الأباطرة البيزنطيين . ذلك أنهم قد أصبحوا في تلك الحالة يبحرون في ظل الراية العثمانية ، وقد اتخذوا زى الأتراك وعاداتهم ، ومن ثم ظفروا من أمم غربى أوروبا بالاحترام والتقدير اللذين كان الكاثوليك يرفضون دائما حتى ذلك الحين أن يمنحوهما أفراد الكنيسة الإغريقية<sup>(٤)</sup> .

ولسنا نستثنى من هذا السلوك الطيب ، وذلك التسامح الكريم ، إلا أمرا واحدا معروفا ، ذلك هو

(١) Phrantzos, p. 92.

(٢) .. وإذا عانى الصارى أو اليهود ( في الشرق ) في أماكن فيها قضاء أو سوابشات ( وهي وظيفة إدارية تقابل اليوم وظيفة المدير أو المحافظ في مصر ) بحيث لا يستطيع عامة الأتراك أن يفعلوا بهم ما يشاءون ، قائم ( أى اليهود والصارى ) كانوا يثرون أن يعيشوا تحت سيطرة الصارى . ذلك أنهم كانوا لا يتعرضون لأذى ماداموا يدفعون الجزية . أما في الممالك الصارانية فلا حد لما كان على الرعايا أن يؤدوه للدولة طوال العام . ( Tage-Buch, p. 413. )

(٣) Hertzberg, pp. 467, 646, 650.

(٤) Finlay, vol. v. pp.156-7.

ضريبة الأبناء المسيحيين الذين كانوا يؤخذون من آبائهم في سن مبكرة كرها وينتظمون في سلك الإنكشارية المشهورين . وقد استحال هذا الجيش ، بعد أن أنشأه أورخان سنة ١٣٣٠ ، في خلال بضعة قرون ، عمادا لقوة السلاطين الأتراك الغاشمة ، وظل يتغذى بهذه الضريبة المنتظمة ، وكانت تحدث مرة كل أربع سنوات (١) ، عند ما كان قواد السلطان يزورون المقاطعات التي فرضت الضريبة عليها ، فيختارون طائفة من بين الأبناء الذين يبلغ سن الولد منهم السابعة تقريبا . وقد حاول فقهاء المسلمين تبرير هذه الضريبة التي تتنافى مع الإنسانية بأن جعلوا هؤلاء الأولاد يمثلون الخمس الذي جعله القرآن من نصيب الحاكم في الغنائم (٢) ، وأفتوا بأن تجنب الإكراه على اعتناق الإسلام (٣) كان ملحوظا من غير شك بالنسبة إليهم كذلك ، على أن حداثة سنهم التي كانوا يوضعون فيها تحت إرشاد معلمين من المسلمين لا بد أنها لم تكن بحيث تجعل (٤) لهذه النظرية أية قيمة من الوجهة العملية . ولقد طالما عبرت أوروبا المسيحية عن استيائها من هذه الضريبة الوحشية ، ورسم الرحالة الذين تنقلوا في الولايات التركية صوراً مؤلمة للنازل المهجورة والآباء الذين ذرفوا الدفوع على الأطفال الذين انتزعوا منهم انتزاعا . غير أن الجيش في أول نشأته كان قد كثر عدده بسرعة فائقة بتطوع كثيرين من بين المسيحيين أنفسهم (٥) ، وربما كانت الظروف والأحوال التي فرضت فيها هذه الضريبة أولا تذهب بعيدا في تفسير الجحود الذي أبداه الإغريق أنفسهم فيما يظهر . فقد تعرضت البلاد كلها للخراب من جراء الحروب ، وكثيرا ما استهدفت الأسر لخطر الهلاك جوعا . ومن ثم كان الأبناء الذين يتبنون يتامى في كثير من الأحيان ، ولولا تبنيهم لتعرضوا للهلاك . أضف إلى ذلك أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت في ذلك الحين قد انتشرت انتشارا واسع النطاق ، ربما أدى إلى جعل هذه الضريبة أقل إثارة للدهش مما كان متوقعا . ثم إن هذه العادة قد ثبت أنها لم تكن إلا استمرارا للحالة مماثلة كانت قائمة في ظل الأباطرة البيزنطيين (٦) . وقد قيل أيضا إنه لم يكن ثمة ما يدعو القواد الذين كانوا

(١) على أن هذه الفترة لم تكن ثابتة ، ففي أول الأمر كانت الجباية تحدث كل سبع سنوات أو خمس ، ولكنها حدثت في عصور متأخرة ، على فترات أكثر من هذه ، نجا لحاجة الحكومة (Menzel, p. 52) . ويقرر متروفانس كريثوبولوس ، فيما كتبه سنة ١٦٢٥ ، أن الجباة كانوا يقدون إلى المدن إذا وافقت السنة السابعة ، وكان على كل مدينة أن تتطوع بثلاثة أولاد أو أربعة ، أو بولدين على الأقل (p. 205.)

(٢) القرآن سورة ٨ آية ٤٢

(٣) نفس المرجع سورة ١٠ آية ٩٩ ، ١٠٠

(٤) ومع ذلك فإن التبان المسيحيين لم يرغبوا على تغيير عقيدتهم . وكانت مبادئ الحكومة تتعارض مع ذلك طبقا لأحكام القرآن . فإذا كان هؤلاء المرطظون قد استخدموا أحيانا شيئا من الإكراه الذي بدافع تعصبهم ، فقد كان ذلك تساهلا من جانب قيادتهم ؛ على أن هذا الإكراه لم يكن مسموحا به مطلقا من الرؤساء . . .

(M. d'Ohsson, tome iii. pp. 397-8.)

Hertzberg, p. 472. (٥)

(٦) على أنه من المحزن جدا ما حدث يوما من أن الأباطرة المسيحيين كانوا يتعرضون من كل مدينة عددا معينا من الأطفال ، الذين يبدو أن قوام الطبيعية تفرق فرقى هؤلاء الباقين ، الذين تحملوا مشقة إحصائهم إلى الساحة للقيام بواجبات الخدمة العامة ؛

يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه إلا في القليل النادر ، وإنما كان هؤلاء الآباء مشوقين في الغالب إلى إدخال أبنائهم في خدمة تهيء لهم في كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة ناعمة مريحة ، لا تعنيهم الظروف والملابسات ، طالما كان هؤلاء الأسرى الصغار يُنشئون وينقفون كما لو كانوا أولاد السلطان نفسه<sup>(١)</sup> . ثم إن هذا النظام قد يبدو أخف وحشية لو أن الآباء كانوا حقا يفتدون أولادهم غالبا بدفع بعض الاموال<sup>(٢)</sup> . وفي سنة ١٦٢٥ كتب متروphanes Kritopoulos ، وكان بطريقا للقسطنطينية ثم للاسكندرية ، فذكر شتى الحيل التي كان يلجأ إليها المسيحيون تخلصا من عبء هذه الضريبة . من ذلك أنهم كانوا يشترون أولاد المسلمين ويقدمونهم على أنهم مسيحيون ، وأنهم كانوا يرشون الجباة ليأخذوا بدلا من أولادهم أولادا من المسيحيين الذين ولدوا من عنصر منحط ، أو نشأوا تنشئة فاسدة ، أو بمن يستحقون الشق<sup>(٣)</sup> . وتحدث توماس سمث Thomas Smith في جملة آخرين عن إمكان اقتداء الأولاد بالمال ، وقد بلغ من التأثير مبلغا عظيما : وحرص بعض آباؤهم ، بدافع من الشفقة الطبيعية والشعور الديني الصادق على ألا يُسلبوا أبنائهم الذين قد تضطروهم هذه المحنة إلى الارتداد عن نصرانيتهم ، فكانوا يدفعون للأتراك خمسين دولارا أو مائة ، مبلغا يتفاوت قلة وكثرة حسب قدرتهم على الدفع ، ومدى تأثيرهم في جشع الأتراك<sup>(٤)</sup> . وقد أعفى من هذه الضريبة القاسية أهالي مدن خاصة من المسيحيين ، كالقسطنطينية وبعض البلاد والجزائر التي كانت قد اتفقت على هذا الشرط وقت تسليمها للأتراك ، أو كانت قد اشترت هذا الامتياز<sup>(٥)</sup> . وإن هذه الظروف المخففة في بداية حكمهم ، وحالة الرخاء التي يستسلم الناس في ظلها لأية عادة مقررة — ولو أنها لا تصلح بحال أن تكون عذرا لهذا الوضع الذي يتنافى مع الإنسانية — لتعبننا على فهم ما يسميه أحد الرحالة في القرن السابع عشر ، عدم الاكترات

— المدينة والحرية : كذلك عند ما احتل الأتراك الامبراطورية اليونانية . كان لهم نفس الحق في أن يتزعوا من أرباب الأسر أمقلا وهبهم الطبيعة قوة بالغة ..

(David Chytraeus, pp. 12-14.)

Creasy, p. 99. M. d'Ohsson, tome iii. p. 397. Manzel, p. 53. (١)

وقد قال توماس سمث وهو يتحدث عن أمثال هؤلاء الآباء : وآخرون قد لحقهم خرم الدين وطاره ، معجبون اسما بحسب ، نخلوا عنهم ، في سرية وإقبال عظيم ، لا لكي يتخلصوا من مناعهم وأعبائهم لحسب ، بل أملا في أن يحصلوا ، بعد أن يكبروا ، على شيء من السلطان في الحكومة .. (An Account of the Greek Church, p. 12. (London, 1680.))  
وفي عهد مراد الاول ، استخدمت الجيوش المسيحية في جمع ضريبة الأطفال المسيحيين هذه . (Finlay vol. v. p. 45.)

(٢) « على أنه كان من الممكن حقا أن يخلص الآباء هؤلاء الاطفال من الحياة باقتدائهم بالمال ، (David Chytraeus p. 13.)

يذكر دي لا جيتييه De la Guilletiere هذه الضريبة في سنة ١٦٦٩ على أنها من خصائص الأتليين .

(An account of a Late Voyage to Athens, p. 272. London, 1676.)

Confessio, p. 205. (٣)

An Account of the Greek Church, p. 12. (London, 1680.) (٤)

Menzel, p. 52. Thomas Smith : De Moribus ac Institutis Turcarum, (٥)

p. 81. (Oxonii, 1672.)

الذي لا يمكن تعديله ،<sup>(١)</sup> والذي يظلم أن الإغريق كانوا قد وقعوا فيه ، حين طلبوا حكومة جديدة (حكومة الأتراك) عملت على تحسين حالتهم تحسينا ملموسا .

زد على ذلك أن رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين كان عليهم أن يدفعوا ضريبة الرأس في مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية . وكانت الفئات المقررة في القانون العثماني تتراوح بين ٢٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ قروش على كل ذكر بالغ ، كل بالنسبة إلى دخله<sup>(٢)</sup> ، على حين أعفى النساء ورجال الكنيسة<sup>(٣)</sup> . وكانت الفئات في القرن التاسع عشر تتراوح بين ١٥ ، ٣٠ ، ٦٠ قرشا ، كل بحسب دخله<sup>(٤)</sup> . وكثيرا ما تحدث الكتاب المسيحيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر عن هذه الضريبة بتقدير دوكة واحدة عن كل رأس<sup>(٥)</sup> . ولكنهم أخبروا كذلك ، على اختلاف فيما بينهم أنها تتراوح بين ٣ ، ٥ ، ١٠ ، ٢٠ من الريالات أو الدولارات<sup>(٦)</sup> . ولعل التقلبات التي طرأت في القرن السابع عشر على سعر النقد في العملة التركية هي التي تفسر لنا تلك التغييرات الأخيرة . ولكي نقدر على وجه التحقيق ، إلى أي حد كانت هذه الضريبة عبئا على هؤلاء الذين يؤدونها فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستفيض حول تتبع قيمة النقد في هذه الفترة ، وعمل مقارنة مع سائر أبواب المصروفات<sup>(٧)</sup> . ولكنها لا تكاد تكون في ذاتها عذرا وجها لتغيير العقيدة ، كما أشار إلى ذلك

(١) Hill, p. 174.

(٢) Joseph von Hammer (2), vol. ii. p. 151.

ويقرر هانس شيلتبرجر Hans Schiltberger ، الذي أمره الأتراك في سنة ١٣٩٦ م ورجع إلى وطنه ميونيخ بعد أن قضى في الأسر اثنين وثلاثين عاما ، أن الضريبة التي لم يكن بد من أن يدفعها المسيحيون لم تزد على جزئين من مائة من المارك في الشهر . (Reisebuch, p. 92.)

(٣) كانوا يعفون خدام الدين المسيحي ، كما أمر بذلك الله ، كأنهم كانوا يفعلون ذلك احتراماً للنصاب المقدسة التي يفتنونها كما أضحى النساء كذلك من دفع هذه الضريبة .

(De Graecae Hodierno Statu Epistola, autore Thoma Smitho, p. 12.)  
(Trajecti ad Rhenum, 1698.)

(٤) Silbernagl, p. 60.

(٥) Martin Crusius, p. 487; Sansovino, p. 67.

Georgieviz, pp. 98—9; Scheffler, § 56; Hertzberg, p. 648. De la Jonquière, p. 267.

ويقرر كتاب نشر في لندن سنة ١٥٩٥ بعنوان «The Estate of Christians living under the subjection of the Turke» ، أن ضريبة الرأس عن الأطفال المذكور كانت ثمانية شلشات (p. 2) . ويقول ميشيل باودن Michel Bauden إن مقدارها (one sequin) لكل رأس من الذكور . (Histoire du Serrail, p. 7, Paris, 1662.)

(٦) Georgirenes, p. 9; Tournefort vol. i. p. 91; Tavernier (3), p. 11.

(٧) وفي كتاب نشره جوزيف جيور جيورينيس ونيس أساقفة سبسام ( جزيرة في بحر إيجة . يذكرها العرب بصيغة سامير أو سام أو شامس ، Encyc. of Islam) في سنة ١٦٧٨ ، في أثناء زيارته إلى لندن ، بعد ما بوسف عن دخل أورشليم ، الذي

تورنيفورت Tournafort حين كتب سنة ١٧٠٠م عن إسلام الكانديوت Candiot فقال : ويجب أن نعترف بأن هؤلاء التاسعين يبيعون أرواحهم بما يساوي بنسا ، وأن كل ما حصلوا عليه من تبديل دينهم ، هو تغيير زيمهم وتمتعهم بإعفائهم من ضريبة الرأس التي لا تتجاوز خمسة ريالات في العام<sup>(١)</sup> . كذلك قرر شفلر Scheffler الذي كان مولعا بتلوين حالة المسيحيين في ظل الحكم التركي بأقم ما استطاع من ألوان ، أن دوكة واحدة لكل رأس شيء تافه ، ورأى أن يوجه عنايته قبل كل شيء إلى الضرائب غير العادية ، وإتاوات الحرب وغيرها بما كانوا يطالبون بأدائها<sup>(٢)</sup> . وكانت ضريبة الألبان مفروضة على كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء . ذلك أن التفرقة القديمة بين الأراضى التي يدفع عنها المالك المسلم العشر ، والأراضى التي يدفع عنها المالك غير المسلم الخراج لم تكن معروفة لدى العثمانيين<sup>(٣)</sup> . وأيا كانت هذه المتاعب التي لم يكن بد من أن يتجشمها المسيحيون ، فقد نشأت من ظلم الأفراد الذين استغلوا منصبهم الرسمي لابتزاز الأموال من هؤلاء الذين وقعوا تحت سلطتهم . ولم يكن مثل هذه المظالم يتنافى مع الشريعة المحمدية بحسب ، بل كان نادر الوقوع قبل أن يتطرق الضعف إلى الحكومة المركزية ويعانى فوضى السلطات المحلية وتعسفها دون أن توقع عليها عقابا<sup>(٤)</sup> . وهناك فرق واضح كل الوضوح بين ما لدينا من الأخبار الخاصة

== يظهر أن تفصيلاته لم تكن تعد مجفة ، كما أنها كانت مدونة هاتفاثة فراء الانجليز : وإذا قرأت بالمبالغ المذكورة هنا فينبغي أن نذكر أنه يتحدث عن ضريبة الرأس باعتبارها ثلاثة ريالات أو دولارات (pp. 8-9) . .. عندما يتولى (أى رئيس الأساقفة) لأول مرة يقدم له الآباء أو نسيس أبرشية الكنيسة عن مسكنه خمسة عشر دولارا أو عشرين ؛ أما هؤلاء التابعون للكنائس الأخرى فيمنعون بحسب قدرتهم على الدفع . في السنة الأولى من توليه يؤدي كل محوري كنيسة له أربعة دولارات . وفي السنة التالية دولارين ويؤدي كل علفي إليه ثمانية وأربعين أسبرا (asper) . . . (في المعاهدة التجارية التي أبرمت مع إنجلترا سنة ١٦٧٥ ، كانت قيمة الدولار ثابتة على ثمانين أسبرا (Finlay, v. 28) . . . وفي السنين التالية بلغت أربعة وعشرين . ويؤدي أهل سيسام دولارا واحدا عن كل ترخيص ؛ وكل الغريب يدفعون دولارين ، ولكن كل من يأتي بعد الزيجة الأولى ليطلب ترخيصا بزيجة ثانية أو ثالثة يدفع ثلاثة دولارات أو أربعة . . . (pp. 33-4)

Tournafort, vol. i. p. 91. (١)

Scheffler. § 56. (٢)

.. أما فيما يتعلق بهذه الدوكلات التي تزودونها فانكم أنتم أيضا تتخدهون بها اتخذاعا فظيلا . حقا أن الامبراطور التركي لا يأخذ في العادة جزية على الرأس إلا دوكة واحدة ، ولكن أين ضرائب الجمارك والضرائب غير العادية ؟ ألا يأخذ وكلاء السلطان ومهامه شيئا أبدا ؟ أليس ملومين في أوقات الحرب يدفع ضرائب غير عادية ؟ أما الضرائب غير العادية فانها تزيد وتنفص تبعا لسوء حال العصور . والواجب أن يدفع رعايا السلطان هذه الضرائب كما تدفعها نحن . . .

Hammer (2), vol. i. p. 346. (٣)

(٤) .. وقد نطقت المصاعب التي كان يعانيها رعايا السلطان من المسيحيين ، في كل الألمان من تلك الحقيقة وهي أن السلطة المركزية في القسطنطينية لم يكن لها إلا سلطان فعلي مشبه على كل أرجاء الدولة التركية . وإن الظلم اليسير الذي أحدثه موظفو القري ، والذي قد جعله الأحقاد الشخصية شديد الوعانة ، هو الذي أثار أعمال القسوة هذه التي أذهن لها المسيحيون في تركيا سواء في المهرد السابقة أو في الوقت الحاضر حيث تظهر هذه الأعمال أعنف وأشد . وفي الأيام التي تصل أمة من الأمم إلى عظمتها ، قد تكون العدالة بل الشرف بازا. الشعب المحكوم أمرا محتلا . ولكن التادير أن توجد هذه الصفات في أمة تأخذ طريقها نحو التأخر والانحلال . . .

(Rev. W. Denton : Servia and the Servians, p. 15. London, 1862.)

Gerlach, pp. 49, 52.

بحالة المسيحيين في خلال القرنين الأولين من الحكم التركي في أوربا والأخبار التي تتعلق بحالتهم في وقت متأخر ، حين كان دور الانحلال قد بدأ بالفعل . ولكن بما هو جدير بالملاحظة أن ما سجل عن عدد المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام كان قليلا جدا في هذه الفترة نفسها التي كان المسيحيون فيها أشد تعصبا . ولما كانت حالة المسيحيين في القرن الثامن عشر أسوأ منها في أي عهد آخر ، كان من الصعب أن نجد أية إشارة تدل على تحول المسيحيين إلى الإسلام ، وظهر الاتراك أنفسهم بمظهر الذين لا يكثرثرون مطلقا لتقدم دينهم ، كما أصيبوا إلى حد كبير بالشك والإلحاد<sup>(١)</sup> . ودليل آخر يثبت أن ما تحملوه من مشاق كان راجعا إلى فساد الحكومة أكثر منه إلى الاضطهاد الديني ، ذلك أن المسلمين والمسيحيين قد لاقوا المتاعب على سواء<sup>(٢)</sup> . ومع ذلك فقد كان المسيحيون بتأبيعه الحال أكثر تعرضا للعسف وسوء المعاملة لما اعترضهم من صعاب في سبيل الحصول على ما يصلح حالهم بالدفاع عن قضيتهم . ومن ثم لا يبعد أن يكون تغيير الدين وسيلة لجأ إليها طائفة من أفقر طبقاتهم تحررا من متاعبهم .

( ) Businello, pp. 43-4.

(٥) جرت عادة حكومة السلطان المركزية أن تتامل وعاباها من المسلمين بمنى ما عاملت به المسيحيين اللغويين على أمرهم من القسرة والجور . وقد كانت متاعب الاغريق نتيجة لما صدر من الطبقة الحاكمة من اتمة والظلم ، واما سيطر على الادارة العثمانية من فساد ، أكثر من أن تكون نتيجة لمباينة السلطان لتفوضه . كان للاغريق ، في شتى الخاصة ، فرصة للحصول على العدالة من أسقف وشيخ تاجيه ، أحسن مما كان يحصل عليه التركي من القاضي . . . (Finlay, vol. vi. pp. 4-5.)

.. ومن الخطأ أن تزعم أن المسيحيين وعدمهم الفاتحة المظلمة القائمة من الأهالي . فقد كان فساد الأداء العسكرية التركية شاملا ، يروح تحت ثقله جميع الناس على سواء . وربما كان يؤس المسلمين في بعض أنحاء المملكة أسوأ حالا من الواقع من يؤس المسيحيين . وإنما كانت حالة المسيحيين هي التي أثارت أكثر من غيرها شفقة الرحالة . . .

(William Forsyth : The Slavonic Provinces South of the Danube, pp. 157 - 8. London, 1876.)

.. ويقع كل هذا التعسف والبؤس ( يعني في شمال آسيا الصغرى ) على الأهالي من المسلمين والمسيحيين على سواء . . .

(James Bryce : Transcaucasia and Ararat, p. 381.)

.. خيل إل أوربا أن المسيحيين وحدهم هم الذين يذعنون في تركيا للاستبداد والعباد والموان ، الذي نشأ عن العسف ؛ لم يكن هذا مطلقا ؛ فإ من قرة أجنبية كانت تنبى بأمر المسلمين ؛ ومن ثم ربما كان الدين الواقع عليهم أشد ، وتعرضهم مثل غير الظلم أكثر مما تعرض له هؤلاء الذين لا يؤمنون بالثني . . .

(De la Jonquière, p. 507.)

.. وإذا استكنا بما لاحظناه من قبل ، وجدنا أن أحط طبقات المسيحيين في آسيا الصغرى لم يكونوا أسوأ حالا من أشلمهم و تركيا . وإذا كان مسيحيو تركيا الأوربية يستمتون ببعض مزايا ناشئة من تأثير تفوق عددهم على عدد الاتراك ، فإن مسيحي آسيا يراخون حين يرون أن الاتراك يتعرضون من جانب أصحاب الفرد لمثل حالة العسف التي يتعرضون لها هم أنفسهم ؛ وحسبهم أن يتاملوا مع جنس من المسلمين أرق حاشية ، وأند تدنيا ، وأحسن احتالا للذهب من أشلمهم و أوربا . . .

(W. M. Leake : Journal of a Tour in Asia Minor, p. 7. London. 1824.)

وانظر كذلك : Laurence Oliphant : The Land of Gilead, pp. 320-3, 446.

(London, 1880.)

ولكننا إذا استثنينا ضريبة الأبناء التي يلوح أن الإغريق المغلوبين على أمرهم قد أذعنوا لها ولم يظهروا مقاومة تذكر ، والتي يرجع السبب في إلغائها ، لا إلى ثورة قامت ، أو انقلاب وقف في سبيل استمرارها ، ولكن إلى زيادة السكان من الأتراك وعدد المرتدين الذين كانوا يوالون الدخول في خدمة السلطان (١) — فإن المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين — على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين — لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر أوروبا . وإن أصحاب كلفن Calvin في المجر وترانسلفانيا ، وأصحاب مذهب التوحيد Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا ، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة (٢) . ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة ، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي (٣) . وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجأوا إلا إلى تركيا ، في نهاية القرن الخامس عشر (٤) ؛ كذلك نرى القوزاق Cossaks الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء Old Believers الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية ، قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية (٥) . وربما كان يحق لمقاريوس بطريق أنطاكية في القرن السابع عشر أن يهني نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعا البولنديون من الكاثوليك Catholic Poles على روسيين الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية . قال مقاريوس : « إننا جميعا قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين .

(١) وفي القرن السادس عشر أخذت ضريبة الأفعال ثلاثين ؛ وآخر مثال مدون لفرض هذه الضريبة كان في سنة ١٦٧٦ .

(٢) De la Jonquière, p. 333. Scheffler, § 45-6. Gasztowtt, p. 51.

(٣) « لأنني أسمع مع فرط الدهش ، أن الأمر لم يقتصر على ما يروج بين العامة من إشاعات ، ووداما أن الحياة في ظل الحكم التركي شيء مقبول ؛ ذلك أنه يظن أن الإنسان متى دفع دركة واحدة وهي جزية لرأس لم يمرض له بعد ذلك بسوء ، وأن الأتراك ، بالأجمال ، يتركون الناس أحرارا في دينهم ، وأن الثعاري سترد إليهم كنائسهم ، وما شاكل ذلك . بل هناك أيضا آخرون ، ( يعني من المسيحيين ) ممن يجب أن يدركوا الأمور على وجه صحيح ، يفرحون بما يقال لهم ( عن محاسن الأتراك ) ، وهملون للفتاء الذي هم فيه ؛ فإن هؤلاء الثعاري ليسوا هالكين لحسب ، بل هم عصاة ، متهورون ، كفار ، لم ينجسوا إلا من تربة الإلحاد التي تجتجح إلى الثورة ، وإل استئصال شأنة المسيحية . » ( Scheffler, § 48. )

(٤) Hertzberg, p. 650.

(٥) De la Jonquière, p. 34. وقد عمل ريتشارد ستير R. Staper ، وهو تاجر إنجليزي كان في تركيا في عصر مبكر ( سنة ١٥٧٨ ) ، مقارنة ماثلة بقوله : « وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس القلوب ، يسيرم في أعمال الظلام .... سمحوا للمسيحيين جميعا ، للإغريق منهم واللاتين ، أن يببدوا محافطين على دينهم ، وأن يصرفوا ضرائبهم كيف شاءوا ، بأن منحومهم كنائسهم لأداء ضرائبهم المقدسة ، في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جدا ، على حين أستطيع أن أؤكد بحسن دليل اثني عشر عاما نصحتها في أسبانيا ، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية لحسب ، بل إننا في خطر على حياتنا وسلنا . »

(M. Epstein : The Early History of the Levant Company, p. 57.

London, 1908.)

وربما كان عدد القتلى سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً. فيا أيها الخونة ! يامرودة الرجس ! يا أيها القلوب المتحجرة ! ماذا صنع الراهبات والنساء ؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟ .. ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين ؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد انحطاطاً وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين ، وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين ، وهم يظنون بذلك أنهم يحون اسم الأرثوذكس. أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد . . . فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالآديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهوداً أو سامرة : أما هؤلاء البولنديون الملائين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ؛ بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسماً يعرفون أسرار دينهم<sup>(١)</sup> . حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى الترك لعلمهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين ينسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة مسيحية<sup>(٢)</sup>. وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة في أملاك سلطان تركيا . ومع أن ما أتصف به العابثون من عمال الأتراك في أيام انحلال الدولة من ظلم ونقص في روح العدل والإنصاف ربما دفع بعض المسيحيين إلى أن يحاولوا تحسين حالتهم بتغيير عقيدتهم ، فإن أمثال هذه الحالات كانت نادرة في القرنين الأولين من العهد التركي في أوروبا ، تلك الفترة التي ينسب إليها معظم حالات التحول إلى الإسلام . وكان يكون من الغريب حقاً ، لو أن الغيرة التي دفعت العثمانيين في ذلك الحين إلى هداية الناس واستأنتهم إلى الإسلام لم تحملهم قط على مجاوزة حدود التسامح الذي رسمته قوانينهم الخاصة بهم . ومع ذلك فقد قال الذين وقعوا في الأسر بينهم اثنين وعشرين عاماً : « إن الأتراك لم يرغموا أحداً على ترك دينه »<sup>(٣)</sup>. وذكر آخرون شواهد أخرى

(١) Macarius, vol. i. pp. 183, 165. Cf. the memorial presented by Polish refugees from Russia to the Sublime Porte, in 1853. (Gasztowtt, p. 217.)

(٢) « وضع بعضهم نصب عينه نوعاً من الحرية يتطوى على حماقة ... فلما فقدوا الأمل في الحصول على هذه الحرية في ظل حكومة مسيحية ، آثروا أن يعيشوا في ظل الأتراك ، كان هؤلاء كانوا أكثر شفقة في منح هذه الحرية من الحكام المسيحيين . »

[Joannis Ludovici Vivis De Conditione Vitae Christianorum sub Turca, pp. 220, 225.] [Basileae, 1538.]

« وينادي بعض الناس بأن الإيمان حر في ظل الحكم التركي . »

(Othonis Brunfelsii ad Principes et Christianos omnes Oratio, p. 133.) (Basileae 1538.)

رحول سنة ١٥٧٧ كتب أوبرنوس فوليتا Ubertus Folieta أحد أشرف جنوه ، يقول : « وما لئلا نساءك : كيف حدث أن عدداً كبيراً جداً من رجائنا يأوى إليهم باستمرار ، ويتنكر للديانة المسيحية ، وينصرون تحت لواء الشريعة الإسلامية . »

(De Causis Magnitudinis Turcarum Imperii, col. 1209.) (Thesaurus Antiquitatum et Historiarum Italiae, curá Joannis Georgii Graevii, tom. i. Lugduni Batavorum, 1725.)

Turchicae Spurciae Suggillatio, fol. xvii. (a). (٣)

مائلة ، فقد زار أحد سادة الإنجليز تركيا في الشطر الأول من القرن السابع عشر وهو يحدثنا أن ، من النادر أن تجد أى إكراه للنفوس وبالأحرى لا إكراه بالقتل ، إذ لم تكن هناك فرصة تسمح بارتكاب أية جنابة من هذا النوع<sup>(١)</sup> . وبعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً ( أى سنة ١٦٦٣ ) كتب مؤلف<sup>(٢)</sup> كتاب — *Türcken-Schriff* يقول : « وهو في أثناء ذلك ( يعنى التركي ) يجذب ( أى يحول الناس إلى الاسلام ) بالحيلة أكثر مما يجذب بالعنف ، وينزع المسيح من قلوب الناس بالمسكر والخداع . ذلك أن التركي في الحقيقة ، في وقتنا الحاضر ، لا يرغم بلداً من البلاد على أن يكفر بالعنف والإكراه . ولكنه يستخدم وسائل أخرى يستأصل بها شأفة المسيحية من خفة واطف .. فما الذى جرى للمسيحيين إذن ؟ إنهم لم يطردهوا من البلاد ، ولم يجبروا على اعتقاد دين الأتراك : حيثئذ كان لا بد أن يصبحوا من تلقاء أنفسهم أتراكا . »

وقد رأى الأتراك أن أعظم خير يستطيعون تقديمه لآى فرد هو أن يهدوه إلى دين الاسلام<sup>(٣)</sup> . وفى سبيل هذه الغاية لم يدعوا وسيلة للاغراء إلا فعلوها : يحدثنا رحالة هولندى ، عاش فى القرن السادس عشر أنه بينما كان يظهر إعجاباً بمسجد أياصوفيا الكبير ، حاول بعض الأتراك أن يؤثروا فى عواطفه الدينية من طريق إحساسه بالجمال ، فقالوا له : « إنك لو أصبحت مسلماً لاستطعت أن تأتى هنا كل يوم من أيام حياتك . » وبعد ذلك بقرن تقريباً حدث لرحالة إنجليزى<sup>(٤)</sup> ما يشبه تلك الحادثة إذ قال : « وقد يسألون مسيحياً بدافع من فيض حماسهم . فى أدب جم ، كما سألوني أنا نفسى عند مدخل مسجد أياصوفيا : لماذا لانصبح مسلماً فتكون كأحدنا ؟ » وما يدل على الحب الروحى المتوقد الذى جعل هؤلاء القوم فى مثل هذه المنزلة من الغيرة على نشر الدين ، تلك الأفراح الشعبية التى كانوا يحبون فيها من دخلوا طوعاً من المسلمين الجرد فى الإسلام . فكان المسلم الجديد يمتطى حصاناً وبطاف به فى طرقات المدينة ، وهم فى نشوة النصر . فاذا نوسموا فيه خلوص النية فى تغيير دينه ، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته فى حظيرة الإسلام أو كان شخصاً ذا مكانة طيبة استقبلوه بتكريم عظيم ، وأمدوه بما يعينه<sup>(٥)</sup> . ولا شك أنه كان هناك دليل قوى يؤيد قول من قال : « إن فى نفوس الأتراك غيرة لا يكاد يصدقها العقل حين يتهلون الى الله أن يحول الناس الى الإسلام ، أو بعبارة أصح ، أن يحول المسيحيين إلى ديانتهم المارقة : إنهم كل يوم يتهلون إلى الله فى مساجدهم مخاضعين أن يؤمن المسيحيون بالقرآن ، وأن يهتدوا على أيديهم ، ولم يدعوا للتأثير وسيلة من وسائل الترهيب والترغيب . والمقاب والجزاء إلا فعلوها »<sup>(٦)</sup> .

Blount, vol. i. p. 548. (١)

Scheffler, § § 51, 53. (٢)

Dousa, p. 38, Busbecq. p. 190. (٣)

Thomas Smith, p. 32. (٤)

Thomas Smith, p. 42. Blount, vol. i. p. 548. Georgieviz, p. 20. (٥)

Schiltberger, p. 83-4. Baudier, pp. 149, 313.

Alexander Ross, p. ix. Baudier p. 317, cf. also Rycout, vol. i. p. 276. (٦)

« يعتقد المرء أن تحويل الانسان إلى مسلم فضل كبير ، وليس نعمة شخص لديه من الله ما يمكنه من امتلاك عبد إلا ويريد أن

وإن حالات المجتمع المسيحي نفسه قد جعلت هذه الجهود التي تنطوي على الغيرة والحماة الدينية في اكتساب مسلمين جدد أشد أثراً وأعظم قيمة . وبعد تدهور الكنيسة الإغريقية في مقدمة هذه الحالات جميعاً . وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية في الشؤون الزمنية ، نشأ استبداد في الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاسم الذي حرم كل مناقشة في شؤون الأخلاق والدين . والشئ الوحيد الذي أفض مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التي قامت حرباً عواناً على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما في المناقشات النظرية والكرامة المنصرية من شدة ومرارة . وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعى المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة . ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفساً في عبادة العذراء والقديسين والصور والمخلفات الأثرية ؛ وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى المضيض ولما ملوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة ، كالانبثاق المزدوج لروح القدس Double Procession of Holy Spirit ، وأخرى تافهة كاستخدام الخبز الخبز أو الفطير في القربان المقدس ، تقبلوا بصدر رحب تعاليم الاسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية . وقد انتهت إلينا أخبار<sup>(١)</sup> عن طوائف كبيرة من الناس تحولوا إلى الإسلام ولم يكونوا من بسطاء عامتهم لحسب ، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم ، وأخبار عن الطريقة التي أجري بها الأتراك أرزاقاً أسخى على هؤلاء الرهبان والفساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى الدخول في الإسلام . وبينما كانت أدرنة لا تزال العاصمة التركية ( أي قبل سنة ١٤٥٣ ) كان البلاط قد اكتظ بالذين دخلوا في الإسلام . ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك<sup>(٢)</sup> . وكثيراً ما انحاز

== يكون له عبد قز ، قادر على أن يتحمل كل ألوان انتاعب دون ألم ، هذا الشخص الذي يستطيع أن يدعى أنه حوله إلى الاسلام حتى يمتنع بذلك الشرف لكونه قد زاد في عدد لمؤمنين ..

ويروي ترماس سمح كيف كان الشيخ الذي أراه قبر أوردغان في بروسه .. يشخص بصره إلى السماء ، في حنان دافق ، وينهل إلى الله أن يتطاب ، فيحولنا في زمنه أخيراً إلى الديانة الاسلامية . وهذا من غير شك أعظم برهان على حبه إيانا الذي يدفق من تلك الرغبة الرائفة التي تطرى على جهل مطلق ..

(Epistolae duae, quarum altera De Moribus ac Institutis Turcarum agit, p. 20.)  
(Oxonii, 1672.)

(١) وصلت إلينا هذه الأخبار من كتاب لم يعرف اسم مؤلفه الذي كان أميراً في تركيا من سنة ١٤٣٦ إلى سنة ١٤٥٨ .

Turchicae Spurcitiiae Suggillatio, fol. xvii. (a).

Turchicae Spurcitiiae Suggillatio, fol. xi. (b). (٢)

ويحدث ليوناردو أوف سكيو ، رئيس أساقفة ميثيليني Mitylene الذي شهد سقوط القسطنطينية عن الجوع الكبيرة من المرتدين في الجيش الحاضر : .. من الذي أحاط بالمدينة ، ومن الذي علم الأتراك النظام ، غير المسيحيين الأوغاد ؟ إنني شاهد على أن الاغريق واللاتين والألمان وانهم ، وكل نوع آخر من المسيحيين الذين اختلطوا بالترك تعلموا عنهم وعقيدتهم ، والذين نسوا عقيدتهم المسيحية أحضروا المدينة بالقوة . أبها الأوغاد الذين تتكردون المسيح ، يا أتباع عبد المسيح المحكوم عليهم بمذاب الجحيم ، هذه ساعتكم .. (Sansovino, p. 258.)

الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين ، ووجدوا منهم ترحيباً كبيراً : ومن أسبق أمثال هذه الحالات ما يرجع تاريخه إلى سنة ١١٤٠م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور جون كومنين John Comnenes وتزوج إحدى بنات مسعود سلطان قونية<sup>(١)</sup>. وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان ؛ فتجد من بين الداخلين في الإسلام عدداً كبيراً ينتمون إلى بيت باليولوجوس الإمبراطوري ، كما هجر العالم جورج أميروتزيس الطرابزونى G. Amiroutzes of Trebizond المسيحية في أعوامه الأخيرة ، ودونت أسماء أخرى كثيرة من أمثال هؤلاء الأفراد<sup>(٢)</sup>. ولم يطلب الجيل الجديد إلا قبول شهادته البسيطة : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ؛ وقد كتب عنها الكاتب السالف الذكر<sup>(٣)</sup> يقول : « إن الصعوبة كلها تركز في هذه الشهادة الدينية لأنه إذا استطاع أي إنسان أن يقنع نفسه بأنه ممن يعبدون إلهاً واحداً ، فمن السهل أن تسرى فيه سموم خطيئته تحت ستار الدين . هذه هي صخرة الإثم التي ارتطم عليها كثيرون وسقطوا في الحبال التي جرت الهلاك على نفوسهم . هذه هي حجر الطاحون الذي علق حول أعناق كثيرين ففاص بهم في هوة اليأس . ذلك أنه بينما كان هؤلاء الحقى يستمعون إلى الأناك وهم يلعنون عبادة الأصنام ، ويعبرون عن جزعهم من كل صورة أو تمثال كما لو كانت نار جهنم ، وبدأبون على الاعتراف بعبادة الإله الواحد والدعوة إليها ، لم يعد هناك في عقولهم مؤن للثك » .

أصبح الدين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية ، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلقتها المرطفة البوليشية Poelician heresy التي كانت قد قعت في قسوة وعنف قبل ذلك بيضعة قرون . وقد كانت هذه الحركة إلى حد كبير احتجاجاً على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين كما كانت محاولة لتوخى بساطة العقيدة وحياء الورع والخشوع . وبينما كان بعض أتباع هذه البدعة يعيش في بلغاريا حتى وقت متأخر يرجع إلى القرن السابع عشر<sup>(٤)</sup> ، وجد الغزاة المسلمون من غير شك كثيراً ممن كانوا عازفين عن تعاليم الكنيسة الإغريقية وتصرفاتها . ولما كانت كل الظروف غير ملائمة لإنشاء كنيسة من أمثال تلك الكنائس التي ظهرت في الغرب ، فلا شك أن هؤلاء الذين مرقوا من الدين قد وجدوا في الإسلام جواً أكثر ملائمة لمبادئهم . وتحملنا الأسباب المختلفة على الظن بأن ما حدث كان نتيجة للمحاولة الخائبة

J. H. Krause : Die Byzantiner des Mittelalters, pp. 385-6. (١)

(Halle, 1869.)

Hertzberg, p, 616. Finlay, vol. v. p. 118. (٢)

Turchicae Spurciliae Suggillatio, fol. xix. (a). (٣)

Rycaut, vol. i. pp. 710-11. Bizzi, fol. 49. (b). (٤)

التي قامت بجمل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية في أوائل القرن السابع عشر . وكان كيرلوس لوكاريس Cyril Lucaris الذي اختير بطريقاً للقسطنطينية خمس مرات من سنة ١٦٢١ إلى ١٦٣٨ قوة هذه الحركة الدافعة . وكان قد زار جامعات وتبرج وجنيف في شبابه لدراسة اللاهوت في مرا كز التعليم البروتستانتى . وظل بعد عودته يرسل أساتذة الإصلاح الدينى في جنيف وهولندة وإنجلترا ، ولكن تعاليم الكنيسة الانجليزية ومبادئ لوثر لم تصادف رغبة صادقة في نفسه بقدر مصادفته تعاليم جون كلفن John Calvin (١) التي جامد في إدخالها إلى الكنيسة الإغريقية . وقد أيد جهوده في هذه السبيل تأييداً حاراً ، هؤلاء الذين انتحلوا مذهب كلفن في جنيف بأن أرسلوا شاباً عالماً في اللاهوت ، يقال له ليجر Leger ليؤازر الحركة بترجمة كتابات اللاهوتيين من أتباع كلفن إلى اللغة اليونانية (٢) ، كما وجد كيرلوس أعواناً متحمسين في سفراء البروتستانت في القسطنطينية ، ولا سيما سفراء الهولنديين والانجليز الذين أمدوه بالأموال في سخاء . ومن جهة أخرى فإن اليسوعيين الذين أيدهم سفراء الكاثوليك قد جهدوا بكل الطرق أن يحبطوا محاولة تحويل الكنيسة الإغريقية كلفنية ، ونشطوا في تأييد المؤامرات التي درها حزب المعارضة من رجال الكنيسة الإغريقية الذين تأمروا آخر الأمر على قتل البطريق . وفي ١٦٢٩ نشر كيرلوس قانون إيمان A confession of faith . ويظهر أن الغرض الأساسى الذى وضع هذا القانون من أجله هو التعبير عن مذاهب الكنيسة الأرثوذكسية تعبيراً يخالف الكاثوليكية الرومانية بصورة تجعله منطوباً على اتفاق جوهرى مع التعاليم البروتستانتية (٣) . وهو يستعير من كلفن مذاهب القضاء والقدر ، والخلاص بالإيمان وحده ، ويشكر عصمة الكنيسة من الخطيئة ، ويرفض سلطة الكنيسة في تفسير الكتب المقدسة ، ويشكر عبادة التماثيل . وهو في وصفه للمشيئة والمسائل أخرى كثيرة ، أميل إلى مذهب كلفن منه إلى تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية (٤) ، وقد أدى نشر قانون الإيمان من حيث إنه يمثل تعاليم الكنيسة كلها التي كان كيرلوس رئيسها الروحى إلى إثارة معارضة عنيفة بين جمهرة رجال الكنيسة الإغريقية . ولم تمض على وفاة كيرلوس أسابيع قليلة حتى انعقد مجمع لرفض آرائه والحكم عليه بالحرمان . وفي سنة ١٦٤٢ انعقد في القسطنطينية مجمع آخر لنفس الغرض أخذ في تنفيذ كل مقالة من قانون كيرلوس بالتفصيل كما صنع المجمع الأول وانتهى من ذلك بأن أعلن لعنته عليه وعلى أتباعه : — ونحكم على هذا القانون كله بإجماع الآراء وبعبارات لا هوادة فيها بأنه حافل بمسائل الإلحاد ، ومتعارض مع حقيقة ديننا تعارضاً تاماً ، ونعلن كذلك أن واضعه لا يمت إلى عقيدتنا بصلة ، ولكنه نسب إلينا مذهبه الكلفنى زوراً وبهتاناً . وكل من يقرهونه ويحفظونه وهم يعتقدون أنه حق وبرى ، ويدافعون عنه بالكتابة أو الحديث ، فإننا نخرجهم من جماعة المؤمنين باعتبارهم أتباعاً له ، ومشايخين لزندقته ، ومفسدين للكنيسة المسيحية ، ونأمر أن يعاملوا مهما كانت مكانتهم ومرا كزهم معاملة الكفار والفسقة . ولتكن اللعنة عليهم إلى الأبد ، ولينفصلوا عن

Pichler, pp. 164, 172. (١)

Pichler p. 143. (٢)

Id. p. 148. (٣)

على أنه يشك في أن كيرلوس كان حقيقياً هو الذى وضع هذه الوثيقة التي تحمل اسمه . (Kyriakos, p. 100.)

Id. pp. 183—9. (٤)

الأب والابن والروح القدس في هذا العالم وفي العالم الآتي ، محرومين مشهودين ، ضالين بعد الموت ، ويلتزمهم العذاب الأزلي<sup>(١)</sup> . وفي سنة ١٦٧٢ ، انعقد مجمع ناك في بيت المقدس لتفنيدها المقالات الإلحادية التي وردت في قانون الإيمان ، والدفاع عن عقيدة الكنيسة الإغريقية الصحيحة رداً على هؤلاء الذين يظهرونها ملوثة بمذهب كلثن . وبذلك أخفقت محاولة جعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية المذهب كل الإخفاق . فقد كانت مبادئه كلفن تتعارض مع تعاليمها تعارضاً تاماً . وفي الحق أنها قررت في الأذهان كثيراً من العقائد الدينية التي كانت أكثر تشبهاً مع آراء رجال الكنيسة الأرثوذكسية والتي كثيراً ما هاجمتها هذه الكنيسة في مجادلاتها مع أعدائها المسلمين . وكان هذا التقارب إلى فكرة الإسلام قد بوأ هذه الحركة التي تتطلع إلى مذهب كلثن مكاناً في تاريخ انتشار الإسلام : فإن رجلاً سب عبادة التماثيل ، ودم سلطة الكهنوت ونظامه في العسم ، وتمسك بمبادئ القول المطلق بالفضاء والقدر ، وأنكر الحرية بالنسبة إلى الإرادة الإنسانية ، ومالاً الروح الصارمة التي يتميز بها مذهب كلثن والتي كانت تتجاوب مع التوراة أكثر منها مع الإنجيل — ليجد حقاً في الإسلام جواً أكثر ملاءمة مما نجده في الكنيسة الإغريقية في القرن السابع عشر . وقد يكون هناك قليل من الشك في أنه كان من بين أفواج الذين دخلوا في الإسلام في خلال هذا القرن فريق قد انفصل عن كنيسة آبائهم من جراء ممالأتهم لمذهب كلثن<sup>(٢)</sup> وليس لدينا معلومات واضحة تتعلق بعدد أتباع كيرلوس لوكاريس ومدى تأثيرات هذا المذهب في الكنيسة الإغريقية ؛ ولما كان رجال الكنيسة ذوي غيرة على سمعة كنيستهم التي اعترأبناؤها بالدفاع عن سلامة عقيدتها ، وتصمتها من الهرطقة ، فانهم رغبوا في أن يصوروا البطريرق الملتحد بأنه لا يمثل إلا آراءه ، وذلك حين رأوا أن هذه الكنيسة قد جرّحت بسبب اتهامها بمذهب كلثن<sup>(٣)</sup> . ولكن لاشك أن كان له أتباع : فقد صادف قانون الإيمان الذي نشره قبولا في مجمع تألف من أتباعه<sup>(٤)</sup> . وأعلن حرمان أولئك الذين مائلوا هرطفته بقرار من مجمع القسطنطينية الثاني سنة ١٦٤٣ . ومن مجمع بيت المقدس سنة ١٦٧٢<sup>(٥)</sup> . ولاشك أن هذا التكرار كان يكون بلا معنى لو أن أحداً من هؤلاء الأتباع لم يكن له وجود ؛ زد على ذلك أنه قد وصلت إلينا أسماء نفر قليل من هؤلاء الأتباع منهم سوفرونوس Sophronius ، مطران أثينا الذي كان من المؤيدين المتحمسين لحركة الإصلاح<sup>(٦)</sup> ؛ وراهب يقال له نيكوديموس ميتاراس Nicodemus Metaras وكان قد استحدث مطبعة من لندن ونشر رسائل خارجة على مذهب الكنيسة ، كان قد كافاه كيرلوس بكرسي المطرانية كفاء خدماته<sup>(٧)</sup> ؛

Pichler p. 226. (١)

(٢) أما فيما يتعلق بأسرى المسيحيين ، فقد اشتهر البروتستانت بلاشك بين الأتراك بأنهم يظهرون ميلاً إلى المنحول في الإسلام أكبر مما يظهرون الكاثوليك . (Gmelin, p. 21.)

Pichler, pp. 211, 227. (٣)

Id. pp. 181, 228. (٤)

Id. pp. 222, 226. (٥)

Id. p. 173. (٦)

Id. pp. 128, 132, 143. (٧)

والفيلسوف كورايديالوس Corydalleus أحد أصدقاء كيرلوس ، وقد فتح مدرسة كلفنية المذهب في القسطنطينية ، ورجل آخر من الإغريق يدعى جرجانوس نشر مذهباً في التعليم المسيحي ، في أسلوب الحوار ، تمهيدا لبث تعاليم كلثن بين مواطنيه (١) ؛ ونيو فيتوس الثاني Neophytus II ، الذي عين بطريقاً في سنة ١٦٣٦ في الوقت الذي كان فيه كيرلوس منفياً في جزيرة رودس ، وكان تلميذه وابناً متبني له ؛ وقد استدعى معلمه من منفاه وتخلّى له عن كرسي البطريركية (٢) . وكتب كيرلوس إلى جامعة جنيف خطاباً ( بتاريخ يولييه ١٦٣٦ ) قال فيه إن ليجر كان قد فاز بعدد كبير من الداخلين في مذهب كلثن عن طريق كتاباته وتبشيره (٣) ؛ ووصف في خطاب آخر بعث به إلى ليجر كيف جعل أهالي كنديا Candia يحسون بما أحدثه من تأثير (٤) . وقد نفى خلفه (٥) على كرسي البطريركية إلى قرطاجنة ، وهناك شنقه أشياح لوكاريس سنة ١٦٣٩ (٦) . وقد قيل إن أصحاب كلثن علقوا الآمال على تعيين پارتنوس الأول Parthenius I ( وهو خليفة كيرلوس الثاني ) ؛ ولكن نهايته المفاجئة ( سواء أكان موته بتجرع السم أو من جراء نفيه ؛ وهذه مسألة يكتنفها الشك ) قد خيبت آمالهم (٧) . وكان پارتنوس الثاني بطريق القسطنطينية من سنة ١٦٤٤ — ١٦٤٦ من أنصار مذهب كلثن المخلصين . وبالرغم من أنه لم يجسر على أن يجهر بتعليم مبادئ كلثن ، إلا أن ما عثرف عنه من ممالاته لهم قد أدى إلى عزله ، وإرساله إلى المنفى وشنقه (٨) . وعلى ذلك نرى أن تأثير مذهب كلثن كان من غير شك أكثر انتشاراً مما كان يريد أعداء كيرلوس لوكاريس أن يقرروا . وكما قلنا آنفاً ، كان أولئك الذين أبوا أن يسلبوا بقرارات الحرمان التي قضت بها المجامع على زعيمهم ، أكثر اتئلاًفاً من غير شك مع جيرانهم المسلمين منهم مع رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين أقصروهم عن بيتهم . وفي الحق أنه ليس لدينا شواهد قاطنة تدلنا على ما كان لهذا المذهب في تركيا من مؤثرات يسرت إدغال الناس في الإسلام (٩) . ولكن مع ازدياد أي تفسير آخر في هذا الصدد ، يظهر حقا أن من الفروض التي يقرها العقل أن مثل هذه الأحوال كانت من بين العوامل التي زادت زيادة هائلة في عدد

Fichler p. 143. (١)

Le Quien, tom. i. col. 334. (٢)

Fichler, p. 172. (٣)

Hefele, vol. i. p. 473. (٤)

Cyril II. of Berrhoea. وهو (٥)

Le Quien, tom. i. col. 335. (٦)

Id. tom. i. col. 336. (٧)

Id. tom. i. col. 337. (٨)

(٩) على أنه حدث في عمالة سابقة قام بها علماء المذهب البروتستانتي في تونج (١٥٧٣—٧١) لادعال تعاليم كنيسة الإصلاح الجديدة في الكنيسة الشرقية ، أن اعتنق أحد علماء سامتسكيت المسيحيين في جورجيا The Vaivode Quarquar of Samtsketh قانون اغراف أوجسبرج ، ولكنه دخل في الإسلام سنة ١٥٨٠ ( Joselian, p. 140 ) .

المرتدين عن المسيحية من الإغريق في أواسط القرن السابع عشر — وهو وقت قيل فيه إن عدد المرتدين عن المسيحية من الطبقات المتوسطة والمنحطة في المجتمع كان أكبر منه في أى وقت مضى<sup>(١)</sup>. وقد تواتر ذكر حالات الارتداد عن المسيحية من بين رجال الكنيسة، بل من بين أعظم رؤساء الكنيسة شأنًا وأسماءً مقامًا، كالذى يروى عن أحد مطارنة رودس السابقين<sup>(٢)</sup>. وقد قيل إن فريقًا من الأهالي المسيحيين في كورنثة كانوا في سنة ١٦٧٦ يدخلون كل يوم في دين الأتراك، وإن ثلاثة من القسس قد أصبحوا مسلمين قبل ذلك بعام<sup>(٣)</sup>. وفي سنة ١٦٧٩ سُجّلت وفاة أحد الرهبان المرتدين<sup>(٤)</sup>. وفي مناسبة ختان مصطفى ابن السلطان محمود الرابع سنة ١٦٧٥، دخل في الإسلام عدد لا يقل عن مائتي شخص في غضون ثلاثة عشر يومًا من الأفراح الشعبية<sup>(٥)</sup>. وقد نجد أمثلة أخرى كثيرة في الكتابات التي ترجع إلى هذا العهد. وفي سنة ١٦٦٣ أجاد مؤلف معاصر في وصف الاتجاه العقلي الذي اتصف به أمثال هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام: «عند ما تخاطبون الأتراك في مجرى حياتهم العادية، تراهم يقيمون الصلاة، ويرتلون حتى مزامير داود، ويمنحون الصدقات ويفعلون غير ذلك من أعمال الخير، ويعتقدون في المسيح اعتقادًا ساميًا، ويتناولون التوراة في شرف عظيم إلى غير ذلك؛ هذا فضلًا عن أنه كان يمكن أن يصير أى جاهل، خورى كنيسة إذا سعى إلى الباشا التركي بالهدايا؛ ولن يحضركم هذا الخورى كثيرًا على المسيحية. حينئذ سوف تنتهون إلى التفكير في أنهم قوم صالحون، وأن من الممكن جدًا أن يدركهم الخلاص؛ وسوف تنتهون إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدرككم الخلاص كذلك إذا ما صرتم مثلهم أتراكًا مسلمين. بذلك سوف يمتحى من أذهانكم في سهولة ويسر سر الثالوث المقدس، وابن الله المصلوب، وسائر أسرار الدين الكثيرة

(١) Scheffler, § 53-6. Finlay, vol. v. pp. 118-19

(٢) Hammer (1), vol. vi p. 94.

(٣) Spon, vol. ii. p. 57.

(٤) Hammer (1), vol. vi. p. 364.

(٥) Early Voyages and Travels in the Levant, edited by J. Theodore Bent, p. 210 (London, 1893).

ونظير ذلك ما يجتم به ميشل بوديير Michel Baudier وصفه للبهجات في القسطنطينية التي أقيمت بمناسبة ختان محمد الثالث في نصف الأخير من القرن السادس عشر مقرونا بوصف دخول عدد كبير من المسيحيين في الإسلام: «وفي أثناء شهر هذا الاحتفال المهيب هرع الإغريق التاسعون إلى هذا المكان ليدخلوا في الإسلام أفواجًا. وقد هجر بعضهم المسيحية تخلصًا من ظم الأتراك، وبعضهم هجرها أملًا في منفعة خاصة... وقد وجد أن عدد هؤلاء المنبذين قد تجاوز أربعة آلاف نفس.»

The History of the Serrail, and of the Court of the Grand Seigneur Emperour of the Turkes, pp. 93-4. (London, 1635.) Histoire generale du Serrail, et de la Cour du Grand Seigneur, Emperour des Turcs, pp. 89-90. (Paris, 1631.) ]

التي يلوح أنها غير معقولة بصورة ما في نظر الشخص الأسمى . وإذا بروح المسيحية تموت في نفوسكم من حيث لا تشعرون ؛ وإذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالإسلام (١) .

ويتحدث توماس سمث الذي كان في القسطنطينية سنة ١٦٦٩ عن عدد الداخلين في الإسلام من المسيحيين حوالى هذه الفترة . ولكنه ينسب إليهم بواعث أكثر خسة : من المخزن أن نحصى هذا العدد الضخم من القوم الناعسين الذين انقلبوا أترাকা ؛ فأسلم فريق بدافع اليأس البالغ ، وقد عجزوا عن احتمال عبء العبودية وتجنب سفاهات الكفار وإهاناتهم ؛ وأسلم فريق آخر نتيجة مهزلة سقيمة هوجاء ليتبوا مكانة يملكون بها ناصية الحكم ، وينزلون الإهانة بغيرهم من الناس . . . وأسلم فريق آخر تخلصا من ألوان العقاب والبلاء جزاء بما ارتكبوه من جرائم ، ولكي ينعموا بالحرية التي تنطوي على الوحشية والتي قدسها محمد باعتباره مثلاً قد اقتدى به أتباعه . هذه هي البواعث والأسباب الهامة المغربية التي دفعتهم إلى هذا الارتداد ، وما هي إلا دوافع تنشُد الراحة واللذة والرخاء بل تنشُد العيب والآثام ؛ ذلك أنه لا يمكن أن تصور أن يشغرى أحد من الناس عن طريق الإقناع العقلي باعتناق هذه العقيدة التركية وأباطيلها (٢) . ولا نجد بعد هذه الفترة إلا النزر اليسير مما سجله التاريخ عن الداخلين في الإسلام ؛ ولكن مترايه Motraye يورد ذكر كثير من المرتدين الذين انتقلوا إلى الإسلام في القسطنطينية سنة ١٧٠٣ ؛ وكان من بين هؤلاء قسيس فرنسي ، وفريق آخر من الفرنسيين الكاثوليك ، وبعض قساوسة من أزمير (٣) .

وهناك ظاهرة أخرى في حالة الكنيسة الإغريقية ، ساهمت في تضؤل عددها ، تلك هي فساد رعاتها وانحطاط حالتهم ، ولا سيما الطبقة العليا من رجال هذه الكنيسة . وعرضت مقرات الأساقفة ورؤساء الأساقفة للبيع بالمراد بأعلى الأثمان ، وسعى المشترون إلى تعويض خسائرهم باغتصاب ضرائب من كل نوع من رعاياهم ، فبهظوا المسيحيين المساكين بالضرائب العادية وغير العادية ، وجعلوهم يشترون كل الأسرار المقدسة بأسعار باهظة ، وهي التعميد ، والاعتراف ، وقداس العشاء الرباني ، وحالات الغفران ، وحق الدفن المسيحي . بل عقد فريق من رجال الكنيسة تحالفا غير شريف مع الإنكشارية ، فكانت أسماء كثير من الأساقفة وأسماء أسرارهم مدونة في سجل إحدى الأشرطة أو الكتائب الإنكشارية ليضمنوا على الوجه الأكمل حصانة من طغيانهم ، وليتخلصوا من معاقبتهم على ما ارتكبوا من جرائم في ظل حماية هذه الشرذمة

(١) Scheffler, § 55.

(٢) Thomas Smith : An Account of the Greek Church, pp. 15-16.

( London 1680. )

(٣) A. de la Motraye : Voyages en Europe, Asie et Afrique, vol.

i. pp. 306, 308. ( La Haye, 1727. )

التي كان قد أتاح لها ضعف الحكام العثمانيين أن تتبوأ مثل هذا المركز القوي في الدولة<sup>(١)</sup>. وإن الشواهد التي أثبتتها شهود عيان من المعاصرين عن المسلك الجائر الذي ظهر به رجال الكنيسة الإغريقية، لتقدم لنا صورة مخيفة عن آلام المسيحيين. فقد كتب تورنפורت Tournefort في سنة ١٧٠٠ م بعد أن وصف انتخاب بطريق جديد فقال: ولاداعي مطلقا للشك في أن البطريرق الجديد لن يفعل خيرا في عهده، فقد نتج الظلم عن بيع الوظائف الكنسية: وكان أول شيء عمله أن عرّف حاشية السلطان بجميع رؤساء أساقفة رجال الكنيسة وأساقفتهم. وكان أعظم ما عني بدراسته هو معرفة موارد كل رئيس من رؤساء الكنيسة على وجه التحقيق؛ ففرض ضريبة عليهم، وأردف ذلك بخطاب إلى كل منهم يشدد فيه النكير عليهم بإرسال المبالغ المستحقة، وإلا حكم على أبرشيائهم ببيعها في المزاد بأهبط الأثمان. ولما كان رؤساء الكنيسة قد تعودوا هذه الحرفة لم يبقوا قط على أحد من مساعديهم؛ وهؤلاء المساعدون كانوا يعذبون الآباء، والآباء يجردون أبناء رعية الخوري من أموالهم. وقلبا كانوا يرشون أقل نقطة من الماء المقدس إلا إذا تقاضوا ثمنها مقدما. فإذا ما احتاج البطريرق بعدئذ إلى مال، احتال لجمعه بالبيع للأتراك في المزاد بأهبط الأثمان؛ ومن أدى ثمننا أغلى، ذهب إلى بلاد اليونان يطالب رؤساء الكنائس بحقه أمام القضاء. وكان التركي عادة يقتصب اثنين وعشرين ريبالا عن كل عشرين ألفا مما يفرض على رجال الكنيسة، حتى لقد يحصل أحيانا على ألفي ريبال كفاء ما يبذله من جهود. هذا فضلا عما يعهد إليه من أعمال في كل أبرشية. وبمقتضى الاتفاق الذي كان عليه أن يبرمه مع البطريرق، كان من حقه أن يحرم أو يمنع رؤساء الكنائس الذين يرفضون أداء ضريبتهم من المناصب الدينية كلها<sup>(٢)</sup>. بل قبل إنه حتى رجال الكنيسة المسيحية كانوا يحملون أبناء رعية الخوري وبيعتهم ببيع الرقيق، ليحصلوا على المال اللازم لشراء الوظائف الكنسية<sup>(٣)</sup>.

وقد وجدت ألوان الإرهاق التي وقعت في القرن السابع عشر نظيرا لها في القرن التاسع عشر؛ فكانت متاعب المسيحيين التابعين للكنيسة الإغريقية في البوسنة قبل الاحتلال النمساوي، تفسر لنا تماما كلمات تورنפורت. فقد تعود مطران سيرا جيفو Serajevo أن يقتصب ما مقداره عشرة آلاف من الجنيات كل عام من رعاياه المساكين، وهو مبلغ يساوي تماما ضعف راتب الوالي التركي نفسه؛ ولكي يرفع هذا المبلغ الضخم، كان يبتز أموال أبناء رعية الخوري التابعين بكل وسيلة ممكنة، وصدرت الأوامر للسلطات التركية بمساعدة رجال الكنيسة في جباية ضرائبهم، وتحملت القرى المسيحية بأسرها نصيب المدن التي ابتزت أموالها في حالة رفضها أو عجزها غالبا عن مجاراة رؤساء الكنائس المسيحيين في مطالبهم الباهظة<sup>(٤)</sup>.

Pitzipios, Seconde Partie, pp. 83-7. Pichler, p. 29. (١)

Tournefort, vol. i. p. 107 (٢)

وكثيرا ما استخدم سبون Spon نفس هذه اللمحة في ص ١٣٠ ص ٥٦.

Gaultier de Leslie, p. 137. (٣)

A. J. Evans. 267. (٤) وتظهر ذلك ما يقوله ماكنزي وادري: «في معظم جهات العرب القديمة كانت الفكرة التي

وطالما أثار مثل هذا الجور الفادح في نفوس الزعماء الروحانيين الذين كان ينبغي أن يحموا الأهالي المسيحيين روح التمرد كلها سنحت لهم الفرصة (١). فليس بغريب حينئذ أن نعرف أن كثيرا من المسيحيين دخلوا في الإسلام لكي يتخلصوا من مثل ذلك الظلم (٢).

وقد قيل إن ظلما كذسيا من نوع آخر أشد وطأة، كان سببا في تحول أسلاف جماعة قليلة إلى الإسلام. يبلغ عددها حول ٤٠٠٠ من جنوبي رومانيا من منطقة Noanta في إقليم مجلن Meglen التابعة لولاية سلونيك، وهم يروون أن بطريق القسطنطينية في القرن الثامن عشر أقنع السلطان الحاكم وقتئذ بأن المسيحيين الذين يتكلمون اليونانية هم وحدهم الذين يمكن أن يكونوا رعايا مخلصين للدولة العثمانية. عند ذلك حرم السلطان على المسيحيين ألا يتكلموا غير اليونانية، وأنذرهم بقطع ألسنتهم إن لم يفعلوا. فلما بلغ ذلك أهل نواتنا هرب جانب من السكان إلى الغابات، وأسسوا فيها قرى جديدة؛ أما الذين بقوا منهم فقد اعتنقوا الإسلام، وعلى رأسهم أسقفهم، حتى يبقوا بذلك على لغتهم الأصلية (٣).

وعلى الرغم من أن جمهرة رجال الأبرشية كانوا أبرياء من التهم التي وجهها سادتهم إليهم (٤)، كانوا لا يزالون أميين وعلى درجة كبيرة من الجهل. وقد قيل في نهاية القرن السابع عشر إن من العسير أن نجد اثني عشر شخصا في جميع الممتلكات التركية يجيدون اللغة اليونانية القديمة إجادة تامة؛ وكانت القدرة على القراءة من المزايا الكبرى في نظر رجال الكنيسة، على حين كان هؤلاء الأشخاص على جهل تام بمعاني الألفاظ التي وردت في كتب الصلوات (٥).

وبينما كان في المجتمع المسيحي في ذلك الحين ما يدعو إلى الصد والنفور كان في أخلاق الأتراك وحياتهم ما يبعث على التقريب والاجتذاب. وكان تفوق العثمانيين في عصورهم الأولى، إذا ما قورن بانحطاط زعماء الكنيسة المسيحية ومعلميها، لا بد أن يؤثر بطبيعة الحال في العقول الزاهدة التي سمعت الأطلاع المنبعثة من الأناية، ويبيع الوظائف الكنسية، وفساد أفراد الكنيسة الإغريقية. وطلما أثنى

---

== وجدناها مذوبة إن أحد الأساقفة، عبارة تتعلق بشخص انتزع تلك العفوس القليلة التي كان الأتراك قد خلقوها .. (p. 258) وأورد أحد الكتاب وصفا آخر لرجال الكنيسة الإغريقية في (Revue des Deux Mondes (Tome 97, p. 336) إذ قص لنا قصة التالية: .. في مستهل هذا القرن، في تيرنونا، تلقى أحد الببوات ذات يوم، ويدهى برافيم، وكان يجربيا من رعب، مكروها من أسقف، أمرا بمرض منبرية على الروث في الأطل الكنسي، ولكنه لم يقبل: مدتذ انهال عليه المقدم ضربا بفرشاة كبيرة ذات أصابع. ولكن صاحبنا كان قويا؛ فناهضهم، وفتح إلى القاضى بعد أن ترك نوبه رهينة. ولم تغرب الشمس عليه حتى كان مسلما صالحا ..

(١) Pitzipios, Seconde Partie, p. 87.

(٢) Id. Seconde Partie, p. 87. Pichler, p. 29.

(٣) Lazâr, p. 223,

(٤) Finlay, vol. iv, pp. 153-4.

(٥) Tournefort, vol. i. p. 104. Cf. Pichler, pp. 29,31. Spon, vol. i. p. 44.

الكتاب المسيحيون على غير هؤلاء الأتراك وصلابتهم في حياتهم الدينية ، وحماستهم في أداء طقوسهم التي رسمها لهم دينهم ، ومظهر الحشمة والتواضع البادى في زيهم وأسلوب معيشتهم ، وعدم التباهى والادعاء ، وبساطة الحياة التي تلاحظ حتى في العظام أو الأقوياء منهم<sup>(١)</sup> . ويئى مؤرخ السفارة التي أرسلها الإمبراطور ليوبولد الأول إلى الباب العالي من سنة ١٦٦٥-١٦٦٦ تنام خاصا على تعبد الأتراك وانتظامهم في الصلاة ، بل يذهب بعيدا فيقول : « يجب أن نتكلم عن فوضى المسيحيين ، إن الأتراك يدلون على كثير من العناية والغيرة في أداء شعائرهم الدينية : أما المسيحيون فلم يظهروا شيئا من ذلك في دينهم . . . بل أكثر من ذلك كله أننا قد عرفنا بالتجربة المتدين بين المسيحيين : ذلك الذى لا تراه ، في أثناء الصلاة ، لاهيا بعينيه : لا ترى في أنثائها شخصا غير متعلق بموضوع صلاته ، ولا شخصا لا يبدو بين يدي خالقه في مظهر التبريل الظاهرى الذى يتطلبه من المخلوق ،<sup>(٢)</sup> .

حتى الأخلاق في الجنديّة تلتقى حظها من الثناء . فقد أخبرنا كاتب البعثة التي أرسلها شارل الثاني إلى السلطان أن سكان البلاد ، في أثناء مسير جيش من الجيوش ، لم يظهروا أية شكوى من أنهم خسروا شيئا أو أن نساءهم قد تعرضن لسوء المعاملة . كل الحانات الممتدة على خط سير الجنود قد أغلقت وختمت بالشمع قبل وصول الجيش بيومين أو ثلاثة ، ولم يسمح ببيع التبيذ للجنود ، وإلا عرضوا أنفسهم لعقوبة الموت<sup>(٣)</sup> .

وكثيرا ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكفون للعثمانيين محبة ولا ودا ، تقديم المدح والثناء على فضائل الأتراك ؛ فمن أولئك كاتب كان له رأى سيء في عقيدتهم<sup>(٤)</sup> <sup>(٥)</sup> ، يتحدث عنهم بقوله : « حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية ؛ وفي الحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروها ، لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أى حد هؤلاء المسلمون ذوو غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدقهم ؛ وإلى أى حد هم متفانون في إخلاصهم ، قانتون في مساجدهم ؛ وإلى أى حد هم مطيعون لرئيسهم الروحى ، حتى إن التركى العظيم نفسه لا يحاول أمرا إلا بعد مشورة المفتى ؛ وإلى أى حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس في كل يوم حيث وجدوا وأيا كانت مشاغلهم ؛ ما أشد مراعاتهم دائما لصومهم من الصباح حتى المساء طول أيام الشهر بلا انقطاع ؛ وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم ؛

Turchicae Spurcitiæ Suggillatio, fol. xiii. (b) ; fol. xv. (b) ; fol. (1)

xvii. (b) ; fol. xx. (a). Veniero, pp. 32,36. Busbecq, p. 174.

Gaultier de Leslie, pp. 180,182 (2)

Rycaut, vol. i. p. 689. See also Georgieviz, pp. 53-4, and (3)

Menavino, p. 73.

Alexander Ross, p. ix. (4)

(٥) ذكر المؤلف أمثلة من التهم التي روى بها إسكندر روس القرآن الكريم وهي أنهم باطلة أمرنا عن ذكرها .

وما أعظم ما يرى من عنايتهم بالفرياء في نُزُلهم ، سواء بالفقير أو النازح المسافر ؛ لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لحجلنا من جمودنا سواء في عبادتنا أو في تراحمنا ، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا ، فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقومون الحجّة علينا ؛ ولا شك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم ، هي الأسباب الرئيسة لنمو الدعوة المحمدية ، (١) .

وقد وصل مؤرخ حديث إلى مثل هذه النتيجة حين قال : ونجد كثيرين من الإغريق من ذوى المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين ، أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج في خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء ، كانوا يدخلون في دين محمد بمحض إرادتهم . ولا بد أنه كان لتفوق المجتمع التركي من الناحية الخلقية شأن كبير في هذا التحول إلى الإسلام الذي كان كثير الوقوع في القرن الخامس عشر بقدر ما كان للطموح الشخصي للأفراد من أثر في هذه السيل .

وإن جيلا قد راقب انحلال السلطان التركي في أوروبا والتناقص المطرد في ممتلكاته ، وتعود أن يسمع قول من يتحدثون عنه بأنه ( الرجل المريض ) ، الذي يصير إلى الفناء العاجل ، ليجد من العسير أن يدرك تلك المشاعر التي بعثتها الدولة العثمانية في أيام نهضتها الأولى في أوروبا . فإن نجاح الأسلحة التركية بهذه الصورة السريعة النطاق قد ملأ عقول الناس فرعا ودهشا . فقد سقطت الممالك المسيحية ، الواحدة تلو الأخرى ، في أيديهم : فبلغاريا والصرب والبوسنة والمجر كلها قد تخلت عن استقلالها باعتبارها ولايات مسيحية . وشاهدت جمهورية البندقية الشاحنة ممتلكاتها تغتصب من يدها الواحدة تلو الأخرى ، حتى أصبح أسد سان مارك وحده يسيطر على سواحل بحر الأدرياتى . حتى رومة ( المدينة الخالدة ) نفسها قد استهدفت للخطر بتسليم أوترنتو Otranto . وإن الآداب المسيحية ، في النصف الأخير من القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حافلة بالأخبار المفزعة التي تتعلق بالمصير الذي كان يهدد أوروبا المسيحية لولا توقف تقدم الأتراك الناجح ، وتمثل التركي في نظرهم سوطا في يد الله قد صبه على شعبه معاينة له على كفره وخطيئته (٢) ؛ أو هو من جهة أخرى ، القوة الشيطانية المتخاذلة التي تعمل على هدم المسيحية تحت ستار من الدين يقوم على الرياء . ولكن أهم ما نلاحظه هنا ، أن بعض الناس بدأ يسأل : هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذي لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول ؟ هل من المتصور أن مثل هذه الآلاف المؤلفة تتعرض للهلاك الأبدى كما يتعرض الرجل الواحد ؟ كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئين للدين الحق ؟ إنه إذا كان الحق أقوى من الباطل ، وكان الناس جميعا يحبون الحق ويرغبون فيه أكثر مما يحبون الباطل ، فليس من المحتمل أن تجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربتة . كيف استطاعوا أن يقروا على الحق مادام الله يعين على الحق ويؤيده ؟ كيف استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة

Finlay, vol. v, p. 29. (١)

Schiltberger, p. 96. (٢)

العجبية لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل<sup>(١)</sup>؟ فأمثال هذه الأفكار، كما تخبرنا الروايات، قد أغرت الشعوب المسيحية التي عاشت في ظل الحكم التركي إغراء قوياً، كما أغرت بنوع خاص، هؤلاء الأسرى المسيحيين البائسين الذين راقبوا الأعوام تمر متناقلة دون أمل في التخلص أو راحة من الشقاء الذي هم فيه. فهل يمكن أن يستولى علينا الدهش حين نجد مثل هذا الرجل يسأل؟ ولاشك لو أن الله كان راضياً بالدين الذي تشبتم به لما هجركم على هذا النحو، ولساعدكم لتحصلوا على الحرية ولتعودوا إليها مرة أخرى. أما وقد أغلق الله منافذ الحرية دونكم، فربما قضت مشيئة الله أن تتخلوا عنها، وأن تغفروا بتلك الطائفة، وأن يكون خلاصكم على يديها<sup>(٢)</sup>.

وإن العبد المسيحي الذي يصور على هذا النحو تلك الشكوك التي تحيك في صدره كلما مرت السنون البطالة، دون أن تجلب له تحرراً وخلصاً، إنما يعبر هنا من غير شك عن الأفكار التي خطرت لكثير من المسيحيين المنكودين الذين شملهم الاستعباد وظلوا عليه، حتى لجأ آخر الأمر إلى تحطيم أغلال دينه القديم ليدخل في الإسلام. وإن كثيرين من الذين كانوا على أهبة أن يموتوا شهداء في سبيل الدين المسيحي، لو أنهم خيروا بين القرآن والسيف كما تروى الأساطير، أحسوا إحساساً أخذ يقوى شيئاً فشيئاً، بعد أن قضوا سنين طوالاً في الأسر، بتأثير الإسلام من الوجهتين النظرية والعملية؛ وكسبت الإنسانية كثيراً من الداخلين في الإسلام منهم في الوقت الذي أخفقت فيه وسائل العنف<sup>(٣)</sup>. ذلك أنه بالرغم من أن حظ كثير من أسرى المسيحيين كان غاية في التمس، نجد بعضهم الآخر، ممن شغل مراكز في خدمة خاصة القوم، لم يكن في الغالب أحط شأناً من خدم المنازل في سائر أوربا. وبعد أن نظمت الشريعة الإسلامية مسألة الرق، انتزع عن الرق كثير من أشد مظاهره غائظة وفضاظة. ويظهر أنه لم يكن على الأقل في تركيا، شئ من أمثال تلك الأعمال الوحشية والفظائع التي كانت في ولايات القرصنة في إفريقية الشمالية. كان للرقب كما كان لسائر المواطنين حقوقهم، بل قيل إنه كان للعبيد أن يقاضى سيده إذا أساء معاملته، وأنه إذا تحقق القاضى من اختلاف طباعهما اختلافاً بيننا إلى حد تعذر الانفاق بينهما، فله أن يرغم السيد على بيعه<sup>(٤)</sup>.

Turchicae Spurcittiae Suggillatio, fol. xii. (b), xiii. (a). (١)

Id. fol. xxvii. (a). (٢)

(٣) وفي الوقت الذي لم تقض على أجسامهم بما أظهره لهم من رعاية وتقوى، صمم بدهانه الشيطاني على أن يقتل أرواحهم بتجريدهم من إيمانهم. ويمكن أن يشهد على هذه الحقيقة، تلك المبرح من المؤمنين الذين لا يدخلون تحت حصر: ذلك أنه على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا على غاية الاستعداد بأن يموتوا في سبيل العقيدة المسيحية، ومن أجل المسيح، وتخليصاً لأرواحهم، قد نعت فيهم، بافئادهم من الموت الجسدى رحلهم إلى الأسر، سمروهم، فأقدم بمرور الزمن، ودفعهم بحمسة إلى أن ينكروا

إيمانهم بالمسيح. . . . Turchicae Spurcittiae Suggillatio, fol. i.; cf. fol. vi. (a).

Menavino, p. 96. John Harris : Navigantium atque Itinerantium (٤)

Bibliotheca, vol. ii. p. 819. ( London, 1764. )

وكانت حالة الأسرى المسيحيين تختلف بطبيعة الحال باختلاف الظروف وباختلاف قدرتهم على تهيئة أنفسهم لحياة تكثفها المتاعب؛ فالشيوخ والقسس والرهبان وأصحاب المنبت الكريم كانوا أكثر الناس تحملاً، على حين لقي الأطباء والصناع من سادتهم احتراماً باعتبارهم خداماً قد أدوا على خير الوجوه ما أنفق عليهم من مال<sup>(١)</sup>. أما الرقيق المحكوم عليهم بالسجن فقد كانوا بطبيعة الحال أشد الناس تحملاً للمتاعب. وفي الحق أن أطف المعاملات لم يستطع إلا في القليل النادر أن يخلصهم من الشدائد التي اقترنت بمثل هذا المملوك<sup>(٢)</sup>. زد على ذلك أن حنط العبيد الذين كانوا مملوكاً للدولة كان أكثر تعسا من أولئك الذين كانوا مملوكاً للأفراد<sup>(٣)</sup>. وقد جرت العادة بأن يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية في حرية، وكان لهم في سجون الدولة في القسطنطينية قساوسة ومعابد خاصة بهم، كما سمح لرجال الكنيسة بأن يقوموا بإلقاء عظات دينية تعزية للأرقاء المحكوم عليهم بالسجن<sup>(٤)</sup>. وكان عدد العبيد المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام عظيماً؛ وقد ذكر بعض حالات قلية كانوا يهددون فيها، ويعاملون معاملة سيئة لإغرائهم على الارتداد. ولكن جرت العادة بأن سادتهم كانوا لا يرغمونهم على ترك دينهم إلا في النادر<sup>(٥)</sup>، وإنما كانوا يضغطون عليهم أشد الضغط في خلال السنوات الأولى من استرقاقهم، ثم بعد ذلك يتركهم لأنفسهم يتبعون الدين الذي يشاؤون<sup>(٦)</sup>. ولهذا غير أكثر العبيد دينهم ودخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم؛ ولما كانت

(١) ويبنى أن تقرر فيما يتفق بانترك أنهم عاينوا خدمهم ومولاهم الذين استطاعوا أن يفيدوا من خدمهم ومولاهم معاملة أحسن من تلك التي كان الصاري ياملون بها خدمهم وعبيدهم.... فكل الخدم الماهر في فن من الفنون يشتغل بكل ما يرجوه الحر ولا يتقصه إلا التمرر... (G.C. von den Driesch, p. 132.)

(٢) يقول إير-وليم ستيرنج مكسويل W. Stirling-Maxwell عن هؤلاء: «إن المالكين الثامنين الذين كانوا يملكون مجنونين في أية سفينة بحرية تركية، عاشوا عيشة ليست أشد ولا أخف بؤساً من هؤلاء المجرمين المحكوم عليهم تحت شارة الصليب. فقد كان العمل الشاق، والحياة المريرة، والصدمات القاسية من نمب الفرقن على سواء. وفي البر، ربما كان السجن أتركز أو المرعى أشد جهلاً ونفارة من سجين في نالي أو في برشوبة؛ أما في البحر، فله إذاً جاز أن يكون للبؤس درجات فرما تبين المسبح المبكيل في الأغلال التركية من هذه الناحية؛ ذلك أن فريق المجنونين في سفن سلطان كانوا مملوكاً لقبطان في الغالب؛ والمفروض أن الشفقة الطبيعية التي تكون للمالك على ما يملك، قد تتدخل أحياناً في أداء واجبه...»

(Vol. i. pp. 102—3.)

Gmelin, p. 16. (٢)

Id. p. 23. (١)

John Harris : Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. (٥)

ii. p. 810.

(٦) وتعد السنوات الأولى بالنسبة إلى أمثال هؤلاء الثامنين أشق سنى حياتهم، وخاصة إذا ما كانوا حديثي السن؛ إذ أن الترك حاولوا أن يدخلوا الناس في دينهم بالملاطمة، فإن لم يجد ذلك فبالشدّة. فإذا ما انقضت سنوات الفتنة هذه، وجدوا الرق عند الترك تحملاً أكثر منه عند غيرهم... (G.C. von den Driesch, p. 132.) أخذت إلى ذلك ما يقوله جيورجيز من أن أولئك الذين تمسكوا بالدين المسيحي قد أخذوا بعد فترة معينة.

السفارات المسيحية تخشى دائماً من يوم لآخر من أن ينقلب بعض مواطنيهم من الخدم الذين كانوا قد صحبوهم إلى القسطنطينية إلى أوطانهم أترাকা<sup>(١)</sup>، كان من اليسير أن ندرك أن العبيد الذين كانوا قد فقدوا كل أمل في الرجوع إلى أوطانهم وكانوا لا يجدون في محيطهم إلا القليل من التشجيع على الاستمرار في التعليم مدة حياتهم الأولى - لم يكن بد من أن يخضعوا للمؤثرات التي أحاطت بهم، وألا يحسوا بقيود كبيرة تمنعهم من الدخول في جماعة جديدة وفي دين جديد . وقد قال عنهم رحالة إنجليزي عاش في القرن السابع عشر<sup>(٢)</sup> :  
 « كان قليل منهم يعود إلى وطنه ؛ وأقل منهم من كان له من الشجاعة والثبات ما يمكنه من الاحتفاظ بدينه المسيحي الذي تعلمه . وما كان تعلم هؤلاء إلا تائها ولا معرفتهم بمبادئ المسيحية وأصولها إلا ضئيلة . ومن ثم كان بعضهم يأوي إلى ديانة الترك فزعاً مما ران على قلبه من شدائد العبودية من الجزع والحقد المرير . كما أطمع بعضهم الآخر ما كانت تتيحه الشريعة الإسلامية للمسلمين من فنون المجاملة ، والتملق للذائد ، وما أملوه في جعل حياتهم أيسر حالاً وأكثر رخاء بتغيير دينهم ؛ فلما لم يعد أمل في إصلاح حالهم ، تركوا مخلصهم ودينهم المسيحي ، وسرعان ما نسوا وطنهم الأول وأصبحوا لا يعدون أنفسهم غرباء ، بل ادعوا أنهم مواطنون . »

وقد اعتمد كثير بطبيعة الحال على الخلق الشخصي الذي تميز به عبيد المسيحيين أنفسهم على اختلافهم ؛ فقد وقع الكاتب المجهول الذي نقلنا عنه كثيراً فيما سبق ، في أسر طويل الأمد ، مكثه من أن يتحدث بجدارة عن حالهم . فقسمهم إلى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى تشمل هؤلاء الذين تضاوا أيامهم في بساطة تامة ، لا يزالون بتكليف أنفسهم مشقة تلم شيء عن ديانة سادتهم ، وهؤلاء قد اكتفوا بعلمهم أن الترك قوم من الكفار ، ولهذا تجنبوا ، بقدر ما سمحت حالة استرقاقهم ونير استعبادهم ، أن يكون لهم أية علاقة بسادتهم ولا بعبادتهم ، خوفاً من أن يضلوا بخطاياهم ، واجتهاداً في مراعاة الدين المسيحي بقدر ما تسمح به معرفتهم ونفوذهم . وتتألف الطبقة الثانية من هؤلاء الذين يقودهم حب الاستطلاع إلى الدراسة والبحث في

.. إذا استمررا على الديانة المسيحية ، حدث لهم فترة معينة للخدمة يصبحون بعد انقضائها أحراراً . أما عن أولئك الذين ينكرون ديانتنا ، وأن هناك فترة محدودة للخدمة وحتى العودة إلى الوطن ، فأعلمهم في الحرية لا ينحصر إلا في إرادة السيد .. (p. 87.) . كذلك انظر Menavino, p. 65 . وبذكر كاتنا كوزينوس Cantacuzenos هذه الفترة على أنها سبع سنوات : - .. إن عبيدهم يتلون معاملة طيبة لأن محدا أمرهم فيما أمرهم به ألا يظل عبد في العبودية أكثر من سبع سنوات ، لهذا فانه لا أحد يجادل ، أو نادراً ما يجادل المرء أن يخلف ذلك الأمر .. (p.128.)

(١) .. وكان لدى الساري المتخلصين لعبيدهم الذين ذهبوا إلى تركيا أو إلى بلاد إسلامية أخرى سبب كاف للحن على ما كان من كثرة ارتداد أبناء دينهم . وتفيض كتب رؤساء طوائف المرهبين بالفكرى من ذلك الأمر . أما الأرقاء فقد كان من الممكن أن يترج شعور الانكار لموقفهم بشعور الرثاء لحالهم . على أنه طالما تألم المسيحي حين كان يرى أحرار قومه يدخلون في الإسلام . وكان السفراء لا يأتون في أي يوم إن ينصرف عنهم أفراد من حاشيتهم . ولقد أحسنوا صنعا حين كانوا لا يمدون لهنار حتى ينزل عليهم الليل ..

(Gmelin, p. 22.) Cf. Von den Driesch, p. 161.

Thomas Smith, pp. 144-5. (٢)

أفعال الترك . فإذا ما اتسع وقتهم بمعونة الله ، ليفوضوا في طلب أسرارهم ، وأتيح لهم الإدراك الكافي لاختبارهم ، ونور العقل ليتمسوا منه الشرح والتفسير ، فإنهم لا يخرجون من هذه التجربة بحيث لا يمسهم ضرر لحسب ، بل يكسبون لدينهم قوة على قوة . أما الطبقة الثالثة فتألف من هؤلاء الذين اختبروا الدين الإسلامي دون أن يتخذوا لأنفسهم الحيلة اللازمة ، فأخفقوا في الغوص إلى أعماقه والاهتداء إلى تفسيره ، ولذلك ضلوا ؛ فلما اعتقدوا أن باطل الأتراك هو الحق ، فقدوا دينهم ودخلوا في دين المسلمين الزائف ، وبهذا لم يجرؤوا الحراب على أنفسهم لحسب ، بل كانوا قدوة سيئة لغيرهم . وكان عدد أمثال هؤلاء لا يدخل تحت حصر (١) .

لم يخلص الدخول في الإسلام كما أكد بعض المؤلفين ، العبد من الرق ، ولم يطلق سراحه (٢) ، لأن العتق كان باختيار السيد وحده ، وهو الذي طالما وعد حقاً بتحريره لا من طريق أداء فدية ولكن بالدخول في الإسلام (٣) ، ولكنه من ناحية أخرى كان كذلك يرغب بمحض إرادته في أن يجر العبد المسيحي ، حتى ولو كان قد احتفظ بدينه ، بشرط أن يكون قد برهن على أنه غادماً أميناً ، كما كان يرغب في أن يجرى عليه رزقاً لكبر سنه (٤) .

وكان هنالك آخرون شأنهم كشأن هؤلاء العبيد المسيحيين ابتعدوا عن بيئاتهم ومجتمعاتهم ، فوجدوا أنفسهم قد انقطعوا عن الروابط القديمة ، وألقى بهم في وسط جماعة مدفوعة بمسئلتها : اجتماعية ودينية من طراز جديد تمام الجودة . فهذه الجموع الحاشدة من العمال المسيحيين الذين قدموا بعد طوائفهم في البلاد المفتوحة في القرن الخامس عشر إلى أدرنة وسائر المدن التركية للبحث عن عمل ، قد أقنعوا بسهولة ويسر أن يستوطنوا هذه البلاد وأن يدخلوا في الإسلام (٥) . كذلك حدث الأسر المسيحية التي نقلها محمد الثاني من الولايات المغلوبة على أمرها من أوروبا إلى آسيا الصغرى (٦) ، فمن المحتمل أنها انتظمت تماماً في مجموع الأهالي المسلمين على درجات لم تكن في الغالب محسوسة ، كما كانت الحال مع الأرمن الذين حملهم الشاه عباس الأول إلى فارس (١٥٨٧ - ١٦٢٩ م) ، والذين يظهر أن معظمهم كان قد تحول إلى الإسلام في الجيل التالي (٧) .

Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xxxv. (a). (١)

M. d'Ohsson, vol. iii. p. 133. Georgieviz, p. 87. (quoted above.) (٢)

Menavino, p. 95.

Von den Driesch, p. 250. (٣)

Id. p. 131-2. (٤)

Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xi. (٥)

Hertzberg, p. 621. (٦)

(٧) وبموت النبيخ المسنين ، كان يدخل القبان في الإسلام غالباً ، حتى إنك الآن (١٦٥٥) لا تكاد تلمح بائنين

من مسيحي الأرمن في كل تلك السهول المحيطة ، التي كان آباؤهم قد أرسلوا إليها لتسبيدها . . . Tavernier (1), p. 16.

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ظهر أن روح نشر الدعوة الإسلامية بين الأتراك قد اعترها الضعف والفتور . أما السنين الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد فقد شهدت تجدد الاهتمام بالدعاية الإسلامية ، وأخذت الصحف التركية في تسجيل أمثلة من التحول إلى الإسلام . وكان من أجدرهم بالذكر عدد يبلغ ثمانية عشر أميراً تقريباً من أسرة شهاب المالكة في جبل لبنان ، وكانت تدين بالمسيحية مدة قرن تقريباً ؛ وقد قيل إنهم ادعوا النسب إلى قريش ، وقد بذل الأتراك كل جهد في سبيل إعادتهم إلى حظيرة الإسلام . وعين الذين أسلموا منهم في مناصب تدر عليهم ربحاً في الخدمة التركية المدنية (١) .

وفي الصفحات التالية نرى أن نذكر أخباراً أكثر تفصيلاً وتخصصاً تتعلق بانتشار الإسلام بين أهالي ألبانيا والصرب والبوسنة وإقريطش من المسيحيين ، إذ أن تاريخ كل بلد من هذه البلاد ، بعد أن فتحها الأتراك ، يمثل بعض المظاهر الخاصة التي تسترعى الانتباه في تاريخ الدعوة الإسلامية .

يسكن الألبانيون ، عدا بعض من استوطن منهم في اليونان (٢) ، تلك المنطقة الجبلية التي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي من الجبل الأسود إلى خليج أرتا Artá . وهم يكونون عنصراً من أقدم العناصر وأبقاها في أوربا ، ويقال إنهم ينتمون إلى المرع البلاسجي من الكتلة الآرية .

وقد بدأ غزو الأتراك بلادهم سنة ١٣٨٧ م ، ولكن لم يكن بد من أن تسحب الجيوش التركية سريعاً ، واعترف بنفوذ السلطان للمرة الأولى في سنة ١٤٢٣ . واستردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة بزعامة جورج كاستريوتا G. Kastrioti الذي اشتهر باسمه الإسلامي إسكندر بك أو سكندر بك . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التي نسجت حول قصة أيامه الأولى — كيف أسلم في صباه رهينة إلى الأتراك ، وشب بينهم على الإسلام ، وحظى بعطف السلطان . والحقيقة أنه قضى أيام شبابه في بلاده الجبلية ، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذي أحرز فيه النصر عليهم في سنة ١٤٤٤ ؛ وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم قواتهم الغازية مقاومة عنيفة ؛ ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا . وسقطت كرويا Kruya ( آق حصار ) ، حاضرة أسرة كاستريوت في أيديهم بعد أحد عشر عاماً ، ومنذ ذلك الوقت ، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة في كافة أنحاء المملكة ، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع ، وأن خضوع البلاد لم يكن تاماً بحال . وظل بعض الموانئ البحرية يقاوم مدة أطول ؛ وسقطت مدينة دوراتسو Durazzo في سنة ١٥٠١ م ، على حين لم تسلم مدينة أنتيفاري Antivari الواقعة في أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى ١٥٧١ م . وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها القديمة ونظام حكومتها ، وأن تكفل لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم المسيحي ، وألا يتعرض أحد بسوء لكنائسهم ومعابدهم ، وأن يعاد بناؤها إذا تطرق إليها البلى ، وأن يحتفظ المواطنون بأملاكهم كلها ، المنقول منها والعقار ، وألا ينقل كاهلهم بأداء أية ضرائب إضافية .

H. H. Jessup : Fifty-three in Syria, vol. ii, p. 658. (New York, 1910) (١)

ولمعرفة أسماء هؤلاء أنظر : Finlay, vol. vi, pp. 28-9 (٢)

ويظهر أن الألبانيين احتفظوا دائماً في ظل الحكم التركي بنوع من الحكومة شبه الاستقلالية ، وظلت القبائل والدشائر المختلفة يتمتعون بنفس الاستقلال الذي كانوا يتمتعون به قبل الفتح . وعلى الرغم من وجود ولاية لـلاطين الترك ، كانوا لا يطبقون تدخل الموظفين من الترك في إدارتهم الداخلية . وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الحكومة التركية لم يكن في وسعها قط أن تعين أو تقرّ أى حاكم إقليمي لا يكون من أهالي ألبانيا ، ولا أن يدعم نفوذه بأسلحته وسياسته وعلاقته بالناس<sup>(١)</sup> . فقد بلغ ابتزازهم بعنصرهم حداً كبيراً ، وإذا سئل الألباني ، حتى الوقت الحاضر ، عن نفسه أجاب بأنه سكتيار<sup>(٢)</sup> ، قبل أن يجيب بأنه مسيحي أو مسلم - وهذا شاهد قوي جداً يدل على أن الشعور القومي قد محا التفرقة الشديدة بين هاتين الديانتين التي تدخلت تدخلاً عنيفاً في سائر بلاد الدولة العثمانية . فالألبانيون ، النصارى والمسلمون على سواء ، يتكلمون لغة واحدة ، ويؤثرون تقاليد واحدة ، ويراثون طباعاً وعادات واحدة ؛ وإن اعتدادهم بقوميتهم المشتركة لرابط أقوى من أن يسمح لخلافات العقيدة الدينية بأن تقسم الأمة شيعاً متفرقة على هذا الأساس<sup>(٣)</sup> . ولقد خدموا جنباً إلى جنب في الجيوش غير النظامية التي سرعان ما أصبحت بعد الفتح التركي الدعامة الأساسية للحكومة في كل إدارتها الداخلية ، ووجدت كلنا الطائفتين استعداداً واحداً في خدمة الباشوات المحليين ، لأنهم كانوا يعدون أشجع الجنود في الدولة . فقد خدم الألبانيون المسيحيون في الجيش التركي في حرب النم<sup>(٤)</sup> . ومع أنهم ربما كانوا أكثر هدوءاً وإلماً بالزراعة من مواطنيهم من المسلمين ، إلا أن الفرق بين هؤلاء وأولئك ما زال يـيرا ؛ فقد كانوا يحتفظون دائماً بأسلحتهم وصفاتهم العسكرية ، وأظهروا دائماً نفس تلك الروح الصارمة المزهوة ، صعبة المراس ، وعاشوا بنفس ذلك الشعور القومي العنيف ، كما كان لإخوانهم الذين اعتقدوا دين النبي<sup>(٥)</sup> .

(١) Leake, p. 250.

(٢) وهو الاسم الذي ينتقله الألبانيون دائماً على أنفسهم ومعناه سكان الصخور .

(٣) ويقول واحد منهم ، وهو مسيحي ألباني ، متحدثاً عن العداوة القائمة بين المسيحيين والمسلمين في بلغاريا : « أما ألبانيا فقد كان موقفها مختلفاً عن ذلك تمام الاختلاف ؛ إذ أن المسلمين الألبانيين ، كالمسيحيين ، يتكلمون لغة واحدة ، ولهم عادات وأخلاق واحدة ، ويسهون على حرف واحد . وليس بين المسلمين والمسيحيين كراهية مطلقاً ؛ إذ لم يكن بينهم عداوة أجيال . ولم يكن اختلاف الدين باعثاً بحال على الانفصال الحقيقي . وكانوا يعيشون ، عدا حالات عدة ، على قدم المساواة ، يتمتعون بحقوق واحدة ويؤدون واجبات ممتثلة . (Wassa Effendi: Albanien und die Albanesen, p. 59. Berlin, 1879) »

(٤) Finlay, vol. v. p. 46.

(٥) Clark, pp. 175-7. والمرديون Mirdites . وهم من الرومان الكاثوليك المعروفين بتعصم الشديد ( في أبرشية أليسيو Alessio ) ، لن يقبلوا مسلماً أن يعيش في جبالهم ، ولا فرداً من قبيلتهم أن يترك دينه ؛ ولو حاول أى مردى أن يبدل شيئاً من ذلك لفضى عليه بالقتل من غير شك ، إلا إذا أفلح في الحرب من ألمانيا .

( Hecquard : Histoire de la Haute Albanie, p. 224 ) .

وإن لتقدير هذه الحقائق أهمية في تتبع انتشار الإسلام في ألبانيا ؛ إذ يظهر أنه انتشر تدريجاً وفي ببطء على أيدي أهالي البلاد أنفسهم لا نتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية . وإن ما لدينا من تفصيلات عن هذه الحركة لا يعني قليلاً ، فإننا لا نعرف شيئاً ذا غناء عن تاريخ ألبانيا منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى قيام على باشا بعد ذلك بثلاثمائة سنة ؛ فكل ما لدينا من معلومات عن كثرة الداخلين في الإسلام الذي كان بطيئاً ، ولكنه كان مستمراً في خلال هذه الفترة ، مستقى من التواريخ الكهنسية للأبرشيات الختلفة<sup>(١)</sup> ، ومن التقارير التي أرسلت إلى ألبانيا من وقت لآخر وإلى جماعة الدعوة إلى الدين Congregatio de Propaganda Fide<sup>(٢)</sup> . وغنى عن البيان أن طبيعة هذه المصادر تكسب المعلومات التي استقيت منها طابعاً من النقص — ولا سيما فيما يتعلق بالبواعث التي دفعتهم إلى الدخول في الإسلام . ذلك أنه لم يكن من المعقول تقريباً أن رجل الكنيسة الذي يرجع إلى تلك العصور كان يسلم حتى باحتمال أي دخول في الإسلام من طريق الإقناع الصحيح — فضلاً عن كونه يعبر بصراحة عن رأى كهذا فيما يكتبه إلى رؤسائه .

وفي خلال القرن السادس عشر ، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم ، على الرغم من أن تيار الدخول في الإسلام كان قد بدأ منذ حين . وفي سنة ١٦١٠ كان عدد الأهالي المسيحيين يفوق عدد المسلمين بنسبة ١٠ إلى ١<sup>(٣)</sup> . ولما كان المسيحيون يمتطون معظم القرى مع خليط قليل جداً من المسلمين<sup>(٤)</sup> ، يظهر أن حالات الدخول في الإسلام كانت أكثر منها في المدن الكبيرة . ففي مدينة أنتيفاري مثلاً ، بينا أثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة ، تحول السواد الأعظم من هؤلاء الذين بقوا في هذه البلاد إلى الإسلام تدريجاً ، سواء الشريف منهم والوضيع ، حتى أخذ يتناقص عدد الأهالي المسيحيين يوماً بعد يوم<sup>(٥)</sup> . وبازدياد عدد الداخلين في الإسلام حوِّلت الكنائس إلى مساجد — وهذا التصرف مع أنه يتعارض مع شروط الصلح ، ببرره ، فيما يظهر ، التغيير الذي طرأ على عقيدة الشعب<sup>(٦)</sup> . وفي ١٦١٠ لم يكن هنالك إلا كنيستان تعليميتان قد بقيتا في أيدي النصارى من اللاتين . ولكن يظهر أنهما

Published in Farlati's *Illyricum Sacrum*. (١)

Alessandro Comuleo, 1593. Bizzi, 1610. Marco Crisio, 1651. Fra (٢)

Bonaventura di S. Antonio, 1652. Zmaievich, 1703.

Bizzi, fol. 60, b. (٣)

Bizzi, fol. 35, a. (٤)

Farlati, vol. vii. pp. 104, 107. (٥)

(٦) وكذلك شكوا بعضهم من أن قصر رئيس الأساقفة قد امتلكه المسلمون ، إلا أنه كان قد ترك غالباً ثمانين سنين ، إذ أن رئيس الأساقفة ، أمبروسيو ، الذي نبغ بين سنين ١٥٧٩ — ١٥٩٨ ، وجد من الضرر أن يفادر البلاد بعد أن هاجم الاسلام .. بحجة تفوق حد الحذر ، ونذف في حق محمد ، وسب مبادئه الشيطانية ..

كانتا بحيث تسدان حاجات الجماعة (١) ، ويمكن أن ندرك مدى ما بلغه هذا الأمر على وجه التقريب من هذه الكلمات التي جاءت على لسان ماركو بيزي إذ يقول : « هناك نحو ٦٠٠ منزل يقطنها المسيحيون والمسلمون دون تمييز ، سواء منهم اللاتينيون والمنشقون ( أي عن الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية ) ، وأن عدد المسلمين يتجاوز عدد المسيحيين قليلا . كما أن عدد اللاتين يتجاوز عدد المنشقين . »

وفيما وصل إلينا من الأخبار التي تتعلق بالصلوات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين ، نجد بعض ما يرشدنا إلى الحالة التي ظفرت فيها المؤثرات الإسلامية تدريجيا بداخلين في الدين من بين الأهالي المسيحيين ، الأمر الذي يرجع الى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية . وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين ، ولدى النساء المسيحيات ألا يدين أية معارضة في أمثال هذه العلاقات (٢) . وترى الأطفال من الذكور الذين نشئوا عن هذا الزواج المختلط تربية إسلامية ، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن (٣) . ولم يكن لمثل هذا السماح تأثير من الوجهة العملية من جانب رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك في القرايين المقدسة (٤) . وكان من أثر ذلك (على الرغم من أن خوربي الكنائس طالما كانوا يفضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيراً من أولاد الأمهات قد دخلن في دين أزواجهن . على أنهن تمسكن بالعادة التقليدية الخاصة بطقوس العباد التي كان يظن أنها دواء واق من البرص والسحرة والذئاب (٥) . وقد أبدت القساوسة استعداداً لإجراء هذا التقليد لأية امرأة مسلمة تريد أن تعدد أولادها (٦) . كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين (٧) بما أبداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى ؛

(١) Bizzi, fol. 9. حيث يقول : « قد بالقداس في ذلك الصباح لكل الطائفة المسيحية اللاتينية تقريبا . . . وإذا وازنا ذلك بالأحصاء الذي أورده زمايفنتس (fol. 227) فإن أستطيع أن أجزئ على الطل بأن الجماعة اللاتينية المسيحية بلغت في ذلك الحين ما يزيد على ألف نسمة . »

(٢) Bizzi, fol. 27, b; 38, b.

(٣) Viniero, fol. 34. وكذلك جرت العادة في بعض قرى ألبانيا في عصر متأخر يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر . انظر :

W. M. Leake : Travels in Northern Greece, vol. i. p. 49. (London, 1835) :

« وفي بعض القرى تزوج المسلمون بنساء من الإغريق ، وترى أبناؤهم تربية تركية على حين شب البنات على المسيحية ، حتى إن لحوم الخنازير والغنم تؤكل على مائدة واحدة . »

(٤) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, tom. vii. p. 158.

(٥) Bizzi, fol. 10, b. Veniero, fol. 34.

(٦) وبعد وصول ماركو بيزي إلى أديغاري زمن قصير ، أبدت سيده مسلمة تنتمي إلى طبقة راقية رغبتها في تعميد مقلها على يد رئيس الأساقفة نفسه الذي عجزنا أنها شككت شكاة مريرة إلى أحد زعماء المسيحيين في المدينة بقولها « . . . إنني لم أجد من مكان ما يعينني على إسداء تلك المسكرة إليها ، التي الذي يفعله يميأ قساوستي عند طلب أي فرد من عامة الشعب » . (fol. 10, b.)

(٧) وللإطلاع على أمثلة حديثة من تلك العلاقات الودية القائمة بين أتباع كل من الديانتين الذين يعيشون جنباً إلى جنب في قرية واحدة ، انظر :

Hyacinthe Hecquard : Histoire et description de la Haute Albanie (pp. 153, 162, 200). (Paris, 1858).

فمثلا يقول ماركو بترى إنه في يوم عيد القديس إلبيا (الذي يظهر أن الألبانيين كانوا يقدسونه بنوع خاص) وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى (١). وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعظمون مريم العذراء والقديسين المسيحيين ويحجون إلى مقابرهم ؛ كما أن المسيحيين ، من جهة أخرى ، يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاة بالندور (٢). وفي مدينة كاليفاتشي Calevacci ، حيث كان هنالك ستون أسرة مسيحية وعشر أسر من المسلمين ، ساهم أتباع النبي في إعانة كاهن أبرشية . إذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات (٣). وفي مثل هذه الظروف لا يكاد يستولى علينا الدهش إذا علمنا أن كثيرين اعتقدوا الإسلام علانية ، بينما أرضوا ضمائرهم بقولهم إنهم اعتقدوا المسيحية بقلوبهم (٤). وقد علل ماركو بترى مثل هذه الزلة بثلاثة أوجه : الجرى وراء المنفعة الدنيوية ، والرغبة في تجنب أداء الضريبة ، والنقص في ذلك العدد الملحوظ من رجال الكنيسة الأذكيا الذي يشبع حاجات البلاد الروحية (٥). وطالما يعزى الدخول في الإسلام إلى شدة وطأة الضريبة التي تفرض على المسيحيين ، حتى لقد قيل إن جميع القرى إرتدت عن دينها القديم تجنباً لأداء الضريبة . ولما لم ترد أخبار مفصلة عن ذلك ، فإن من المحال أن نحكم بما إذا كان هنالك حقاً أساس كاف للشكوى . أو إذا لم يكن هناك ما يبرر السلوك الذي سلكه المرتدون لاصطناع نوع من العذر لإخوائهم السابقين في الدين — أو أن ذلك كان في الحقيقة مبالغة من جانب رجال الكنيسة الذين خيل إليهم أن الدخول الصادق في الإسلام على أسس منطوية أمر مستحيل تمام الاستحالة . وكانت جزية الرأس بعد ذلك بقرن (في سنة ١٧٠٣) ستة ريبالات عن كل شخص من الذكور ، وكانت هذه الضريبة (عدا ضريبة تسمى الشياتارتشيو Sciataraccio كان مقدارها ثلاثة ريبالات كل عام) هي العبء الوحيد الذي فرض على المسيحيين وحدهم (٦). ولا بد أن تعلق الناس بدينهم كان من الضعف والوهن بحيث انصرفوا عن دينهم لا لشيء إلا ليتخلصوا من عقوبة تافهة كهذه . وإن مجرد وجود مثل هذه الجموع الحاشدة من المسيحيين في ألبانيا في الوقت الحاضر ، ليدلنا على أن العبء لم يكن من الشدة بحيث يرغمهم على الكفر دون أن تكون لهم الخيرة في شيء آخر .

ولو وصل إلينا من المعلومات ما هو أكثر من تلك الشكاوى العامة الغامضة ضد الجور التركي ، لكان في وسعنا أن نقرر على الوجه الأمثل إلى أي حد استطاع هذا الجور أن يكون له مثل هذا التأثير

Bizzi, fol. 38, a. (١)

Garnett, p. 267. (٢)

Bizzi, fol. 36, b. (٣)

Id. fol. 38, b; 37, a. (٤)

Bizzi, fol. 38, b; 61, a; 37, a; 33, b. (٥)

(٦) كان الريال البندقي في القرن الثامن عشر يساوي القرين التركي . (Businello, p. 94)

الذى ينسب إليه : ولكن يظهر أن الشاهد الذى أشرنا إليه لا يكاد يدعم مثل هذه النتيجة . وكان من أثر التقليد المغيب الذى سار عليه البلاط العثماني بيع المناصب فى الولايات عن طريق المزاد بأخس الأثمان ، والشك فى مدى بقاء أمثال الذين يشغلون هذه المناصب ، أن لجأ هؤلاء فى كثير من الأحيان إلى جمع أقصى ما يستطيعون من الأموال باشتراطهم فى جمعها بكل وسيلة . على أنه قيل إن مثل هذه الأعباء كانت شديدة الوطأة على المسلمين كما كانت على النصارى (١) . ومع ذلك كان لا يخلو فى الواقع أن يجد موظف شره جائر ، أن من الأيسر أن يحجور على النصارى ولا يفعل ذلك بالمسلمين ، ولا سيما حينما أغرى النصارى بأن يتصلوا بالبنادقة وبعض الولايات المسيحية الأخرى اتصالا ينطوى على الخيانة ، كما أثبتت حولهم الشكوك فى شق عصا الطاعة واللجوء إلى الثورة .

ومهما يكن من شيء ، فمن الممكن أن يوجد قليل من الشك فيما أحدثه نشاط الإسلام الحماسى وحياته الفتية من تأثير ، فى مقابل ما اتصف به رجال الكنيسة المسيحية من جمود وجهل . ولو رزق الإسلام فى ألبانيا أئمة كثيرين من أمثال الميلا الذى أتى ماركو بتزى على إخلاصه ولطفه وتواضعه ، وكان قد تعود أن يناقشه فى المسائل الدينية ، لكان من المحتمل أن يشق الإسلام طريقه خيرا مما كان (٢) . والظاهر أن الأمية كانت متفشية فى السواد الأعظم من رجال الدين المسيحى ، فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتب برغم إلمامه الضعيف بالقراءة ؛ وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب (٣) . وعلى الرغم من أنه كان من واجهم أن يلقوا القديس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية ، كان هنالك عدد قليل جدا يستطيع أى يدرك شيئا منها ، كما كانوا على جهل بأية لغة عدا لغتهم الأصلية ، وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم (٤) إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر . وقد حمل ماركو بتزى أسقفية البلاد القاصرة مسئولية هذه المساوى . من حيث قلة عدد رجال الكنيسة ، وجهلهم بمهنتهم المقدسة ، ومن حيث هذا العدد العظيم من المسيحيين الذين أدركتهم الشيخوخة ، بل أدركهم الموت ، دون أن يمنحوا التثبيت الكهنسى ، والذين ارتدوا عن دينهم فى كل مكان تقريبا (٥) . وقد تنبأ بزوال المسيحية العاجل فى هذه البلاد إذا لم تعالج هذه المساوى (٦) . كذلك اتهم كثير من القسس باتخاذ الجوارى وشرب الخمر (٧) .

(١) Bizzi, fol. 12-13. Zmaievich, fol. 5.

(٢) Bizzi, fol. 10-11.

(٣) Id. fol. 31, b.

(٤) Bizzi, fol. 60, b.

(٥) Id. fol. 33, b. ويرجع هذا إلى العدد القليل من القساوسة فى تلك الأقطار . ومعرفتهم الناقصة بتلك المهنة ، وعدد المسيحيين الكبير الذين يشبهون . بل يموتون ، دون أن يمنحوا التثبيت الكهنسى ، ويرتدون عن دينهم فى كل مكان تقريبا .

(٦) وإذا لم تتلق ألبانيا معونة أكبر ، فسوف تسوء حالة القساوسة الأعظم من المسيحيين فى مدى سنوات قليلة ، لقلة عدد الأساقفة والقساوسة الذين هم على جانب من الفهم .

(Id. fol. 61, a)

(٧) Id. fol. 36, a. Id. fol. 64, b.

وعما يلاحظ في هذا المقام ، أن القسيسين الألبانيين لم يكونوا حافظة على المطامع القومية والمثل العليا ، كما كان رجال الكنيسة الأرثوذكسية في سائر ولايات الدولة العثمانية ، هؤلاء الذين برغم جهلهم أبقوا بين شعبهم على تقديس الديانة المسيحية التي كونت نواة الحياة القومية عند اليونان<sup>(١)</sup> . وعلى خلاف ذلك ، اعترز الألبانيون بشعور قومي كان منفصلاً تمام الانفصال عن العقيدة الدينية ، كما اعتبروا بروح صادقة ، أن الأتراك ، كما كانوا من قبل ، سادة البلاد وأن من الواجب أن يطاعوا مهما فرضوا من أوامر<sup>(٢)</sup> .

وهناك قصة عجيبة تتعلق بالتحول إلى الإسلام ، قيل إنها حدثت نتيجة لفقدان العلاقات الودية بين أحد القساوسة المسيحيين وشعبه ، وقد جرت هذه القصة على الوجه التالي : منذ أعوام كثيرة ، عند ما كان جميع البلاد يدين بالمسيحية ، تمثلت هنالك في مدينة أسكدار صورة جميلة لمريم العذراء التي كان يهرع إلى معبدها كل عام آلاف من الناس من كافة أنحاء المملكة لتقديم هداياهم ، وتأدية شعائرهم ، والاستشفاء من عليلهم . بيد أنه حدث لسبب من الأسباب أن وقع شقاق بين القسيس وقومه . وفي ذات يوم وفد قوم على الكنيسة في جموع زاخرة معلنين أنهم إذا لم يخضع القسيس لأمرهم فسوف ينبذون دين المسيح ويدخلون في دين محمد . ولما ظل القسيس متشبثاً برأيه ، سواء أكان مصيباً أم مخطئاً ، نزع قومه مسابحهم وصلبانهم من أعناقهم وسحقوها بأقدامهم ، ولما ذهبوا إلى أقرب مسجد ، أدخلهم الملا في حظيرة المؤمنين الصادقين<sup>(٣)</sup> . وكان من جراء الإهمال والجود اللذين ظهر بهما رجال الكنيسة أن أتبح لكثير من المساويء والشذوذ أن تزحف إلى المجتمع المسيحي . ومن ذلك ما يسمونه لإجراء عقود الزواج بدون تصديق الكنيسة أو عمل أى احتفال ديني ، وهو ما نجد له مقارباتاً في الشريعة الإسلامية التي تجعل الزواج عقداً مدنياً . ولكى يعالجوا هذه السيئة لم يكن بد من أن يحرموا الزوج والزوجة من دخول الكنيسة حتى يمثلأ أمر القانون الكنسي ويذهب لإقامة شعائرهم بطريقة منتظمة<sup>(٤)</sup> .

وفي خلال القرن السابع عشر كانت الأحوال الاجتماعية ، وسائر العوامل التي ذكرناها من قبل ، قد آتت ثمرتها في كثرة عظيمة . وبدأ عدد الأهالي من المسيحيين يتدهور تدهوراً سريعاً . ففي فترة قصيرة تبلغ الثلاثين عاماً وتقع بين سنتي ١٦٢٠ ، ١٦٥٠ ، قيل إن حوالي ٣٠٠ ألف من الألبانيين تحولوا إلى الإسلام<sup>(٥)</sup> . وفي سنة ١٦٢٤ لم يكن في أبرشية أتيقارى كلها إلا ألفان من الكاثوليك ، ولم يكن في المدينة

(١) Finlay, vol. v. pp. 153-4. Clárk, p. 290.

(٢) هؤلاء القساوسة اعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأنهم لم يرتكبوا خطية في عقد مثل ذلك الزواج ( كتزويج البنات المسيحيات من المسلمين ) ، وانظروا لأن الترك هم سادة البلاد ، فلا يمكن ، ولا يجوز أن نعص لهم أمراً عند ما يأمرون بأى شيء . . .

(Bizzi, fol. 38, b.)

Garnett, p. 268. (٣)

Bizzi, fol. 38, b; 63, a. (٤)

Kyriakos, p. 12. (٥)

نفسها إلا كنيسة واحدة . وفي نهاية هذا القرن لم تعد حتى هذه الكنيسة تستخدم في عبادة المسيحيين ، إذ لم يبق فيها إلا أسرتان من الكاثوليك الرومان<sup>(١)</sup> . وفي سنة ١٦٥١ كان السواد الأعظم من الطائفة المسيحية في كافة أنحاء البلاد بوجه عام مؤلفا من النساء . إذ كان الذكور من الأهالي قد ارتدوا عن دينهم واعتنقوا الإسلام بمثل هذه الجموع الكبيرة<sup>(٢)</sup> . وظلت الحالة في نهاية هذا القرن على سوتها ؛ ولما كان الكاثوليك في ذلك الحين أقل عددا من المسلمين أصبحت النسب بينهم كنسبة ١ : ١٠ تقريبا<sup>(٣)</sup> ، على حين كانوا قبل ذلك بأقل من مائة عام يفوقون المسلمين عددا حتى أصبحت النسبة بينهم ١٠ : ١<sup>(٤)</sup> . ونقص عدد الأهالي المسيحيين في رئاسة الأسقفية في دوراتزو إلى ما يقرب من النصف في مدى عشرين سنة<sup>(٥)</sup> ؛ وفي مدينة أخرى في أسقفية كرويا تحول الأهالي كافة من المسيحية إلى الإسلام في مدى ثلاثين عاما<sup>(٦)</sup> . ورغم الاحتجاجات المتكررة والنظم التي أحدثها رؤسائهم الروحانيون استمر خوريو الكنائس في تشجيع ما كان يصنعه أفراد كثيرون من رعاياهم من الاعتراف الصريح بالإسلام مقترنا بالمشايعة السرية للدين المسيحي ، وذلك بمنحهم إياهم سر القربان المقدس ؛ وكان من أثر ذلك أن أبناء أمثال هؤلاء الأفراد الذين نشئوا نشأة إسلامية فقدوا إلى الأبد شعورهم نحو الكنيسة المسيحية<sup>(٧)</sup> . كذلك ظلت الأسر المسيحية تزوج بناتها من المسلمين ، وظل خوريو الكنائس يؤازرون مثل هذه الروابط بمنح السر المقدس أمثال أولاء النساء<sup>(٨)</sup> ، برغم ما أظهره رؤساء رجال الكنيسة من سخط على أي تساهل من هذا القبيل<sup>(٩)</sup> . على أن مثل هذا التصرف من جانب صغار رجال الكنيسة لا يكاد يؤخذ على أنه دليل على أية حماسة بالغة منهم في سبيل تزويد رعاياهم بالفائدة الروحية ، بإزاء الاتهامات الموجهة إليهم ، فإن معظمهم قد اتهم بأنهم خلعاء جالبون للعار . فلما ذهبوا إلى الاعتراف ؛ وأدمنوا الانغماس في ملذات الشراب في بيوتهم أيام الأعياد ، وباعوا أملاك الكنيسة ، وظالما تغيبوا عن أبرشياتهم ، فإذا أدبتهم الكنيسة نجحوا في التخلص بوضع أنفسهم تحت حماية الأتراك<sup>(١٠)</sup> . أما الفرنسيسكان والمصلحون والأبررقات<sup>(١١)</sup> الذين كانوا

Farlati, tom. vii, pp. 124, 141. (١)

Marco Crisio, p. 202. (٢)

Zmaievich, fol. 227. (٣)

Bizzi, fol. 60, b. (٤)

Zmaievich, fol. 137. (٥)

Zmaievich, fol. 157. (٦)

Id. fol. 11, 159. (٧)

Id. fol. 13. (٨)

Bizzi, fol. 38, b. Farlati, vol. vii, p. 158. (٩)

Zmaievich, fol. 13-14. (١٠)

(١١) هم طائفة من رهبان الفرنسيسكان انفصلوا عن طائفة أخرى من هؤلاء في القرن الخامس عشر .

قد أرسلوا ليمدوا الشعب بحاجاته الروحية فإنهم لم يصنعوا شيئا إلا المنازعات ومقاواة بعضهم بعضا ؛ وقد انطوى كثير من هذه المنازعات على فضائح عامة الشعب المسيحي وإهمال الرسالة التي جاءوا من أجلها (١) . وفي منتصف القرن السابع عشر ، خلا خمس أبرشيات ألبانية من اثنتي عشرة أبرشية ؛ فلم يزر أسقفية پولاتي Pullati أحد من الأساقفة مدة ثلاثين عاما ، ولم يكن هنالك إلا قسيسان في منطقة بلغ عدد سكانها ٦٣٤٨ نفسا (٢) . وفي بعض الأبرشيات الواقعة في داخلية البلاد ، لم يكن هنالك قساوسة في فترة تزيد على أربعين سنة ؛ ولم يكن هذا راجعا بحال إلى ضغط الجور التري ، ؛ لأنه عند ما أرسل أخيرا أربع بعثات من الفرنسيين قرروا أنهم استطاعوا أن يجوسوا خلال البلاد ويمارسوا مهنتهم المقدسة دون أن يعترضهم أى شيء في هذه السيل (٣) . وكان أسقف سبّا قد أقام مدة طويلة في البندقية ، مما أدى إلى إلحاق خسارة فادحة بأبرشيته . وقد قيل إنه عاش هناك حياة حافلة بالبركات ، وكان قد أناب عنه قسيسا جاهلا كان معروفا بخلاعه وسوء خلقه ، وقد باشر هذا الرجل أعماله الدينية بين ١٢٤٠٠ نفس . ويقول الزائر الديني إنه وفي خلال غياب الأسقف استهدفت الأسقفية لخطر نتيجة لما جرم على نفسه من تحطيم روحه ، والعمل على خراب النفوس التي تحت سلطانه الديني وخراب أملاك الكنيسة (٤) ، وكان أسقف أسكدار ، في نظر رجال كنيسة وقومه ، رجلا ظالما لم يفلح في الاحتفاظ بمركزه إلا بمعونة الأتراك (٥) ؛ ويشكو زمايفتش Zmaievich من الأساقفة عامة الذين أثقلوا كاهل الأبرشيات القائمة في أسقفيتهم بضرائب إجبارية (٦) . ويظهر أن السلطان كان قد منح رجال الدين المسيحي السلطة لأن يفرضوا رسوما على رعاياهم . ومن ثم سمح لرياسة أسقفية أنتيقارى (١٥٩٩ — ١٦٠٧) أن تفرض وتنسلم ، قطعتين من فئة الأسبير Asper من كل أسرة مسيحية ، واثنتي عشرة قطعة عن الزواج الأول (ويعنى هذا المبلغ عن الزواج الثاني ، وأربعة أضعافه عن الثالث) وقطعة ذهبية من كل أبرشية في السنة . ويظهر أنه كان من اليسير الحصول على مساعدة السلطات التركية في جباية هذه الرسوم (٧) .

ولم يكن في كافة أنحاء ألبانيا مدرسة مسيحية واحدة (٨) ؛ وكان القسس في جهل مطبق ؛ أرسل بعضهم

Informatione circa la missione d'Albania, fol. 196. (١)

Crisio, fol. 204. (٢)

Fra Bonaventura, fol. 201. (٣)

Marco Crisio, fol. 202, 205. (٤)

Id. fol. 205. (٥)

Zmaievich, fol. 13. (٦)

Farlati, tom. vii. p. 109. Bizzi, fol. 19, b. (٧)

Marco Crisio, fol. 205. (٨)

لدراسة في إيطاليا ؛ ولكن ماركو كرزيو M. Crisio ينحى باللائمة على هذه الطريقة ، لأن أمثال هؤلاء القسيسين كانوا في خطر من أن يجدوا الحياة في إيطاليا قد بلغت من المتعة بحيث كانوا يرفضون العودة إلى وطنهم . فإذا كان الكهنوت على هذا النحو من الجهل وإهمال الواجبات المقدسة ، فلا عجب إذا عرفنا أن عامة الشعب كانوا لا يعرفون حتى مبادئ دينهم ، وأن أضرارا كثيرة ومفاسد جمة قد نجمت في مجتمعهم ، وهي التي عملت أقصى ما يمكن من التخريب لسكرمة الرب (١) . وقد عاش كثير من المسيحيين أعواما يتسرون النساء علانية مع استمرارهم في منح الأسرار (٢) ، على حين كان لآخرين منهم عدد من الزوجات (٣) . وفي هذه العادة الأخيرة نلاحظ تشابها بين عادات الطائفتين - النصارى والمسلمين - وهو تشابه يزداد وضوحا باعتراف رجال الكنيسة بكفالة المسلمين في تعميد أطفال المسيحيين ، على حين ظل الفسح يجيزون التقليد القديم الخاص بتعميد أطفال المسلمين (٤) .

ولما كانت الكنيسة المسيحية في ألبانيا في النصف الأخير من القرن السابع عشر على الحالة التي وصفناها ، كان أنفه البواعث يكفي لإحداث ارتداد واسع النطاق . وإن العقاب الذي وقع على الكاثوليك الثائرين في النصف الأخير من هذا القرن كان عاملا حاسما أكثر مما ينبغي لإحداث ميول كانت تجذبهم نحو الإسلام وتجعل جموعا كبيرة منهم يخرجون على الكنيسة المسيحية . ويظهر أن الحركة الثورية التي أشرنا إليها والتي أثارها جورج التاسع والثلاثون من رؤساء أساقفة أنتيقارى (١٦٣٥ - ١٦٤٤) الذي حاول عن طريق أساقفة دوراتسو وشقودرة وأليسيو Alessio أن يحرص زعماء جماعة المسيحيين على التآمر على الحكم التركي وتسليم زمام البلاد إلى القوة المسيحية المجاورة ، وهي جمهورية البندقية . ولما كانت البندقية في عهده في سلم مع الأتراك ، لم تكن فرصة مناسبة لتدبير هذه المؤامرة ، إلا أنه في سنة ١٦٤٥ نشبت الحرب بين تركيا وهذه الجمهورية ، وقام البنادقة بمحاولة خائبة للاستيلاء على مدينة أنتيقارى التي كانت في حوزتهم قبل الفتح العثماني بأكثر من ثلاثة قرون (١٢٦٢ - ١٥٧١) . أما الكاثوليك الألبانيون الذين تحيزوا للعدو وأعانوه سرا ، فقد عوقبوا عقابا شديدا وحرموا امتيازاتهم ، على حين كوفئ المسيحيون اليونان (الذين كان لديهم كل ما يثير مخاوفهم من أن يعود حكم البنادقة فظلوا مواليين للحكومة التركية) مكافأة سخية ، ونوهوا باسمهم باعتبارهم مخلصين لبلادهم . وأصبح كثير من الكاثوليك ، إما مسلمين أو منهازين إلى الكنيسة الرومانية . وهذه الحقيقة الأخيرة ذات مغزى كبير من حيث إنها تدلنا على أنه لم يكن ثمة اضطهاد للمسيحيين كهذا ، كما لم تكن هنالك أية محاولة لخلعهم على قبول الإسلام . وقد فعل الكاثوليك الذين دخلوا

Zmaievich, fol. 11. (١)

Id. fol. 32. (٢)

Crisio, fol. 204. (٣)

Zmaievich, fol. 11. Farlati, vol. vii. p. 151. (٤)

في الإسلام هذا التصرف ليتجنبوا حرج مركزهم بعد أن أخفقت مؤامرتهم ، واستطاعوا أن يحققوا نفس الغرض وأن يبقوا في الوقت نفسه على دينهم المسيحي بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية التي اعترفت بها الحكومة التركية رسمياً ، بل كانت تلتقي كذلك رعاية سامية في أنتيفاري في ذلك الحين ، حتى إن هؤلاء الذين تهاونوا في ذلك العمل لم يكن تعلقهم بالدين المسيحي إلا يسيراً جداً . وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على كثرة حالات الدخول في الإسلام في السنين المتعاقبة ، فيعزرو زمايفتش دخولهم في الإسلام في بعض الحالات إلى الرغبة في تجنب أداء الجزية . ولكن ليس من المعقول ، كما يتضح ذلك مما ذكرناه ، أن هذا السبب كان هو الباعث الوحيد القاطع .

في سنة ١٦٤٩ اندلعت ثورة أخرى أكثر تغافاً ، وكان يوسف ماريه بونالدو رئيس أساقفة أنتيفاري (١٦٤٦-١٦٥٤) هو المحرض الأول على الحركة . وتأمر القواد من أهالي مدن أنتيفاري وشقودرة ومدن أخرى على أن يفتحوا أبوابهم لجيوش جمهورية البندقية . ولكن هذه المؤامرة أخفقت كذلك . وقعت الجيوش التركية هذه الثورة بقوة وعنف ، وساعدهم على ذلك الخلافات التي قامت بين المسيحيين أنفسهم . وأبعد كثيرون من الألبانيين الذين كان يخشى تأثيرهم ، من بلادهم إلى داخل الممتلكات التركية ؛ وعبرت قوة مؤلفة من ٣٠٠٠ رجل إلى الحدود ، ودخلت أراضي البندقية ؛ أما البقية الباقية منهم فقد أربهوا بإنشاء الحصون وتسيير الجنود في المقاطعات المتمردة ، على حين فرضت مغارم فادحة على المتذميرين<sup>(١)</sup> . ولم يتخذ الكتاب المسيحيون الذين شكوا لسوء الحظ من الضرائب والمضايقات المجحفة التي كان يضيق بها الأتراك على الألبانيين حتى يدخلوا في الإسلام<sup>(٢)</sup> ، إلا أساليب عامة ، ولم يمدونا بتفاصيل تمكننا من الحكم على ما إذا كان مثل هذه الشكاوى مبرراً بالوقائع الصحيحة . ويمهد زمايفتش لما ذكره من ارتداد ألبي نفس عن دينهم بتعديدا للضرائب وسائر الأعباء التي كان على المسيحيين أن يتحملوها ، إلا أنه يقول إن كل هذه الأمور كان يشترك فيها المسلمون كذلك ، ما عدا جزية الرأس التي كانت تبلغ ستة ريبالات في السنة لكل فرد من الذكور ، وما عدا ضريبة أخرى تسمى شيانار تشيو Sciatraccio وكانت تبلغ ثلاثة ريبالات في السنة<sup>(٣)</sup> . وختم بقوله : «ولما كانت هذه الضرائب طعنة في أوهي جوانب الأمة أعنى الفائدة المادية ، التي تقدرها وتميل إليها ميلاً فذا بالطبيعة أو بالضرورة ، فقد قدمت سبباً وجيهاً لإظهار اللوعة والأسى على فقد نحو من ألبي نفس ارتدوا عن دينهم الصحيح حتى لا يدعونا للجزية<sup>(٤)</sup> ، ولا شيء . فيما ذكره في تقريره يدلنا على أن الضرائب التي لم يكن بد من أن يؤدها الكاثوليك كانت عبئاً لا يحتمل ،

(١) Farlati, vol. vii. pp. 126-32. Zmaievich, fol. 4-5, fol. 20.

(٢) «أخذ عدد عظيم في أن يترك تدريجاً المسيحية لبعض من أداء الضرائب وسائر الاناثوات المنحقة ..»

(Farlati, tom. vii. p. 311.)

Zmaievich, fol. 5. (٣)

Id, fol. 5. (٤)

بلغ من شدة وطأته أنه أجبرهم على ترك عقيدتهم . وعلى الرغم من أنه نسب كثيرا من حالات التحول للإسلام إلى الرغبة في التخلص من الجزية ، إلا أنه يقول بوضوح إن هذه الردة عن الدين المسيحي ترجع في أساسها إلى الجهل المطبق الذي ظهر به رجال الكنيسة (١) ، كما ترجع إلى حد كبير إلى ما قاموا به من منح هؤلاء الذين كانوا يجهرون بالإسلام ، ويظنون مشايخين سرا للعقيدة المسيحية (٢) أسرار الكنيسة المقدسة . ويقول في موضع آخر حين كان يتحدث عن رجال الكنيسة الذين لم يكونوا لائقين للقيام بمنصب خوريين للكنايس ، وعن مباشرتهم منح الجاحدين بالدين والمسيحيين المتسترين أسرار الكنيسة : « هذان هما على وجه التحديد الدافعان اللذان نجمت عنهما كل الخسائر التي عانتها الكنيسة المسيحية في ألبانيا (٣) » . وثمة قليل جدا من الشك في أن الارتداد عن المسيحية على هذا النحو الواسع الطاق في ذلك الحين كان نتيجة لسلسلة طويلة من المؤثرات التي تشبه تلك التي عرضنا لذكرها في الصفحات السابقة ، وأن التخلص من أداء الجزية كان آخر حلقة من هذه السلسلة .

أما الجهود النشطة الفعالة التي قام بها المسلمون أنفسهم ليضموا المسيحيين إلى حظيرة الإسلام ، فليس من اليسير أن نتوقع معرفة شيء منها من تقرير أي زائر ديني . إلا أننا نجد إشارة إلى إحدى المقاطعات التي كان سكانها قد اقتبسوا بمعاشرتهم للترك ، وذاتل هؤلاء الكفار ، وأن أحد الأسباب الرئيسة لتخليهم عن العقيدة المسيحية إنما كان تعاقدهم على الزواج من النساء التركيات (٤) . وليس من شك في أنه كان ثمة مؤثرات إسلامية قوية فعالة ، كما كانت الحال في أبرشيتي بشاشيا Biscascia ، وباسيا Basia اللتين تعرض بمجموع أهلهما الذين يبلغ عددهم نحو ألف شخص ، لحظر ظاهر من الارتداد عن دينهم بسبب الحاجة إلى راع للكنيسة ، وطالما غُرر بهم للخروج عن دينهم ، وأصبحوا في حاجة إلى رعاة للكنيسة ، عقلاء متحمسين ، يشجعونهم في دينهم (٥) .

وتكلم زمايفتش عن إحدى الأسر المسيحية العربية الثبيلة في ضواحي أنتيقارى التي كانت تتمثل في ذلك الحين في أخوين كان أكبرهما قد « راوده » المسلمون البارزون في ناحيته على ترك دينه ، وكان بينه وبينهم صلة وثيقة : ورغب الأصغر في دراسة تهيوه لمنصب الكهنوت الذي « يمكنه من تقديم مساعدة كبيرة للكنيسة المسيحية عن طريق التقدير السامى الذى كان يظهره الأتراك لأسرته التي كانت برغم رقة حالها تلتقى احتراماً من جميع الناس » (٦) . وهذا في الواقع تفسير آخر للحقيقة القائلة بأن المسلمين لم يسيئوا

Zmaievich, vol. 15, 197. (١)

Id. fol. 11. (٢)

Id. fol. 137. (٣)

Id. fol. 149. (٤)

Id. fol. 143-4. (٥)

Zmaievich, fol. 22. (٦)

معاملة المسيحيين في شيء مطلقا، إلا إذا ظهروا بمظهر الساخطين على الحالة السياسية. فإن زمايفتش، الذي كان هو نفسه ألبانيا واتخذ مقامه في أبرشيته بدلا من انتقاله إلى أراضي البندقية، كما فعل فيما يظهر كثير من رؤساء أساقفة أنتيفاري (١)، كان قد قوبل بحفاوة بالغة، وملاطفة رائجة، من عامة موظفي الأتراك، بل من سمو باشا ألبانيا نفسه الذي منحه مكانة سامية في ديوانه، وكان دائما يصحبه إلى الباب عند انصرافه ويستقبله عند الباب لدى وصوله (٢). هذا والمتبرر، الذي ودلّ على أنه أكثر شبها بمسيحي متدفق الإخلاص منه بتركي، قد قدم أدلة مادية على أنه يضم شعورا طيبا نحو المسيحيين بإعفائهم — حين طلب رئيس الأساقفة منه ذلك — من الجزية المستحقة للعام المقبل من أربع مدن مختلفة (٣). وإذا كان أحد من رجال الكنيسة قد عومل من جانب الأتراك معاملة سيئة، فيظهر أن ذلك كان يرجع بوجه عام إلى اتهامهم بمراصلة أعداء الأتراك مراسلة تنطوي على خيانة. كذلك يظهر أن زيارات رجال الدين المسيحي إلى إيطاليا قد أثارت بحق وفي كثير من الحالات أمثال هذه الريب. وبغير ذلك يظهر أنه لم يكن لدى رجال الكنيسة سبب للشكوى من المعاملة التي لاقوها من المسلمين. بل إن زمايفتش ليتحدث عن خوري كنيسة بأنه كان محبوبا جدا من رؤساء الأتراك (٤). وليس من شك في أنه كان في ألبانيا نظائر لحالة قسيس في أبرشية تريبنجة Trebinje في هرتسيجوفينا Herzegovina اتهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر، بسبب علاقته الودية مع المسلمين، بأنه عقد النية على الدخول في الإسلام. وكان من أثر ذلك أن بعث به أسقفه إلى رومة تحت حراسة آمنة (٥).

ويظهر أنه ليس في الفترات المتعاقبة من تاريخ ألبانيا ما يثبت حدوث ارتداد عن المسيحية واسع النطاق كالذي حدث في القرن السابع عشر؛ ولكن كان هنالك حالات عرضية من الدخول في الإسلام حتى عصور حديثة. وفي جنوب ألبانيا في بلاد التوسك Tosks بلغ من كثرة عدد الأهالي المسلمين أن أصبح المسيحيون في حالة سيئة؛ ويروى عن الكر مورتادين Karamurtads، وهم أهالي ست وثلاثين قرية بجوار بوجونياتي Pogoniani، أنهم كانوا حتى نهاية القرن الثامن عشر يدينون بالمسيحية. ولكن لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن سد الهجمات المتوالية التي شنّها عليهم جيرانهم المسلمون من أهالي ليسكوفيكى Leskoviki، اجتمعوا في كنيسة وابتلوا إلى القديسين أن يصنعوا معجزة لمصلحتهم، وأقسموا أن يصوموا حتى عيد الفصح انتظارا للمعونة الإلهية؛ ولكن عيد الفصح أقبل عليهم ولم تصنع المعجزة، ولهذا دخل الأهلون كافة في الإسلام؛ وسرعان ما حصلوا بعدد على الأسلحة التي احتاجوا إليها وذبحوا أعداءهم القدامى في

Farlati, tom. vii, p. 141. (١)

Zmaievich, fol. 7. 17. (٢)

Id. fol. 9. (٣)

Id. fol. 141, (٤)

Farlati, vol. vi, p. 317, (٥)

في ليسكوفيتشي واستولوا على أراضيهم (١). ولم يكن يسمح البتة للطائفة الدينية في ألبانيا أن تقف في طريق نزاع قبلي. ولم يكبد يأتي القرن التاسع عشر حتى غيرت القبائل والقرى الألبانية دينها لأسباب تافهة جدا. فيقال إن فريقا من إحدى القبائل المسيحية دخلوا في الإسلام لأن قسيسهم الذي وكل إليه العمل في قرى كثيرة وزارهم أولا، قد أصر على أن يقول القداس في ساعة مبكرة غير مناسبة (٢).

وقد قيل إن المسلمين في ألبانيا في الوقت الحاضر يبلغ عددهم حوالي المليون، وأن المسيحيين نحو ٤٨٠ ألف، ولكن ضبط هذه الأرقام يحتاج إلى تحقيق. والمرديون كلهم نصارى، خضعوا للسلطان على شرط ألا يسمح لمسلم أن يستقر في أراضيهم، ولكن أنصار كلتا العقيدتين المتنافستين قد وجدوا في كل القبائل الأخرى تقريبا. وقد قيل إن جميع أهالي ألبانيا الوسطى مسلمون تقريبا، وإن أتباع الإسلام يؤلفون نحو ستين في المائة من أهالي ألبانيا الشمالية. ويحتفظ الأهالي المسيحيون بأكثر نسبة في ألبانيا الجنوبية ولا سيما في المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان.

كانت مملكة الصرب أول الأمر تؤدي الجزية للعثمانيين في سنة ١٣٧٥ م، وفقدت استقلالها بعد هزيمة منكرة في كوسوفو (Kosovo) (١٣٨٩)، حيث قتل ملك الصرب والسلطان التركي كلاهما في ميدان القتال. ودخل خليفنا الملكين المقتولين في تحالف ودي، فاعترف ستيفن الأمير الصربي الشاب بسيادة تركيا، وزوج أخته من بايزيد السلطان الجديد، وعقد معه تحالفا أخويا. وفي موقعة نيكوبوليس (Nikopolis) (١٣٩٤) التي ضمنت للأتراك امتلاك كافة أرجاء جزيرة البلقان ما عدا المقاطعة التي تحيط بالقسطنطينية، وحوّل الاتفاق العربي مصير الموقعة المتقلب فذهب النصر للأتراك. وفي ساحة أنقرة (١٤٠٢)، عند ماسحقت القوة التركية، وأخذ تيمور بايزيد نفسه أسيرا، كان ستيفن يشهد المعركة بجيشه الصربية، فخارب بشجاعة من أجل زوج أخته، وبدلا من أن ينتهز الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصا لعهد، ووقف إلى جانب أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم. ثم تمتعت الصرب بشبه استقلال في عهد جورج برانكوفتش G. Brankovich خليفة ستيفن، ولكنه عند ما رفع لواء الثورة سنة ١٤٣٨ غلب الأتراك على المدينة مرة أخرى؛ وحينئذ لم يكن بد من أن تعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين. ولكن هزيمة جون هنيادي J. Hunyady سنة ١٤٤٤ قد حملتها على أداء الجزية مرة أخرى، وانتهى أمرها أن صارت لإبالة تركية في سنة ١٤٥٩.

ولا يبعد أن يكون أهل الصرب الذين اعتقدوا الإسلام بعد موقعة كوفو كانوا على علم بمصير الطائفة المسلمة القليلة العدد التي كانت قد انقرضت من بلاد المجر قبل ذلك بنحو قرن؛ ولذلك آثروا سيادة الأتراك على سيادة المجرين. ويورد ياقوت الوصف التالي لاجتماعه حول سنة ١٢٢٨ ببعض أفراد هذه الجماعة من أتباع النبي في أوروبا الوسطى، وهو يعزو لإسلامهم إلى هؤلاء المسلمين الذين كانوا قد استوطنوا بين

Eliot, p. 401. (١)

Id. p. 392. (٢)

ظهر انهم ؛ قال ياقوت : و وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية (الباشكير) ، شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استغفله عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الإفرنج يقال لهم الهنسكر (الهنغاربيون) = المجرينيون) . نحن مسلمون ، رعية للملكهم ، في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بسلية . إلا أن ملك الهنسكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سورا ، خوفا من أن نعصى عليه . ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فثنايا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد الياپا ينى رومية ( والياپا رئيس الإفرنج وهو عندهم نائب المسيح ، أمير المؤمنين عند المسلمين ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم) ، وقال : وفي غريتنا الأندلس ، وفي شريقنا بلاد الروم ، قسطنطينية وأعمالها ، قال : ولساننا لسان الإفرنج ، وزينا زيهم ، ونخدم معهم في الجنديية ، ونغزو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاثلون إلا مخالفي الإسلام . فسأله عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار ، وسكنوا بيننا ، وتلففوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال ، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام ، فهدانا الله ، والحمد لله ؛ فأسلمنا جميعا وشرح الله صدرنا للإيمان . ونحن نقدم إلى هذه البلاد وتنفقه ، فاذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم<sup>(١)</sup> .

وظل الإسلام قائما بين الباشغردية من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠ حين أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه ، الذين لم يكونوا مسيحيين بعد ، أن يعتدوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد<sup>(٢)</sup> .

لهذا ربما كان يسر المسلمين من أهل الصرب أن يتخلصوا من حكم المجر ، كمواطنهم المسيحيين ، لأنه لما عرض عليهم هؤلاء أن يختاروا بين الحكم الروماني الكاثوليكي في المجر وحكم الأتراك الإسلامي ، دعاهم تقديس الصريين الكنيسة الإغريقية إلى إظهار تسامح المسلمين على روح اللاتينيين التي جبلت على حب التبشير بمذهبهم والتي لا تعرف المصالحة واللين . ومن ثم تمثل أسطورة قديمة مشاعرهم في ذلك الحين : — اشتبك الأتراك والمجربون في حرب ، وبحت جورج برانكوقتش عن جون هنيادي وسأله : ماذا تصنع لو انتصرت ؟ ، فأجاب : أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية ؛ ثم بحت عن السلطان وسأله : ماذا تصنع لدينا لو انتصرت ؟ ، فأجاب : أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد ، وأدع مطلق الحرية لكل فرد في أن يصلي في أيهما شاء<sup>(٣)</sup> . وقد أرغمت خيانة بعض القسوس الصريين حامية بلغراد على التسليم للأتراك<sup>(٤)</sup> ، كذلك وحب صريو سمندرية Semendria الواقعة على نهر الدانوب بالجيوش التركية التي

(١) ياقوت : معجم البلدان ٢ ص ٢٨ ( طبعة القاهرة ١٣٢٢ )

(٢) Geographie d'Abou'féda, traduite par M. Reinaud, tome ii. pp. 294-5.

(٣) Enrique Dupuy de Lôme : Los Esclavos y Turquía, pp. 17-18,

(Madrid, 1877.)

(٤) De la Jonquière, p. 215.

خلصهم من حكم جيرانهم الكاثوليك سنة ١٦٠٠ (١).

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كسوفو مباشرة ، عند ما تحول عدد كبير من أشرف الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى دين محمد ، إذ طال بهم العمر ولم يلجئوا إلى البلاد المسيحية المجاورة ، حتى يضمنوا سلامة ما كسبوه من مزايا قديمة (٢) . وقد وجد السلطان في هؤلاء الأشراف الداخلين في الإسلام أشد الدعاة تحمسا للدين الجديد (٣) . ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربي ظل متمسكا بدينه القديم في خلال الفترة التي تحملوا فيها المتاعب والمشاق . أما في ستارا سربيا Stara Serbia أو الصرب القديمة وحدها (٤) ، التي تولى الآن الجزء الشمالي الشرق من ألبانيا الحديثة ، فقد كان هناك عدد هائل نوعا ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام ؛ بل لقد سار انتشار الإسلام هنا بخطا وثيدة جدا حتى القرن السابع عشر ، عند ما حرض النمساويون أهل الصرب على إذكاء نار الثورة ، حتى إذا ما أخفقت هذه المحاولة ، هاجر أرسنيوس الثالث تسرنويفتش Tsernoïevich ، بطريق ذلك الوقت في سنة ١٦٩٠ مع ٤٠٠٠ أسرة صربية يمتازون الحدود إلى بلاد المجر . وفي سنة ١٧٣٩ حدثت هجرة أخرى مؤلفة من ١٥ ألف أسرة بزعامة أرسنيوس الرابع چورفانوفتش ، وأوشك هذا الجزء من البلاد أن يتجرد من أهاليه الصربيين الأصليين (٥) .

وضغط المستعمرون الألبانيون من الجنوب على البلاد التي خلت بهجرة هؤلاء الهاربين : وكان السواد الأعظم من هؤلاء الألبانيين عند وصولهم من الرومان الكاثوليك . ولكنهم بعد أن استقروا في بلاد الصرب القديمة اعتقدوا الإسلام تدريجا ، ولم يبق اليوم من الألبانيين من الرومان الكاثوليك إلا بقية صغيرة ، على الرغم من أن أفواجا جديدة كانت تتجمع إليهم من الجبال من حين إلى حين . على أن هؤلاء الجدد كانوا ينسجون عادة على منوال أسلافهم ، فيدخلون في الإسلام بعد قليل (٦) .

أخذ الإسلام بعد هذه الهجرة ، ينتشر بصورة أسرع بين البقية الباقية من أهالي الصرب . وكان رجال الكنيسة من الصربيين في غاية الجهل والامية ، فلم يستطيعوا قراءة كتب خدمتهم الدينية إلا في صعوبة ، ولم يعرف أحد منهم الكتابة إلا نادرا ، ولم يعظروا الناس أو يعلموهم أصول الدين بطريقة الحوار . ومن ثم كان من الزاد أن تجد في جميع القرى شخصا عرف صلاة الرب وعرف عدد الوصايا ، حتى القسس

De la Jonquiére, p. 290. (١)

Kanitz, p. 37. (٢)

Id. pp. 37—8. (٣)

(٤) أورد ماكنزي وإربي (Irby) (p. 243) خريطة لهذه البلاد : وهي تشمل بريزين Prizren ، ساطرة الصرب

القديمة ، وإيك Ipek مقر الطريق الصربي ، والمعطة التي وقعت فيها معركة كسوفو .

Kanitz, p. 37. (٥)

Mackenzie and Irby., pp. 250—1. (٦)

أنفسهم كانوا لا يقبلون جهلاً بهذه المسائل الدينية<sup>(١)</sup>. وبعد ثورة ١٦٨٩ عين الباب العالي بطريق لاپك، الرئيس الدينى للصرى ؛ ولكن فى سنة ١٧٣٧، كان من أثر قيام ثورة أخرى أن تعطلت البطرىكة الصرىة تعطلا تاما ؛ وجمعت الكنىسة الصرىة تابعة للبطرىق الإغرىق فى القسطنطىنة . وامتلأت الكنائس بالأساقفة الإغرىق الذىن ظاهروا البكوات والباشوات الأتراك على ابتزاز المسىحىىن المساكن ، وحرمت لغتهم القومىة وجمعت كتب الصلوات السلاوىة القدىمة وجرها وأرسلت إلى القسطنطىنة<sup>(٢)</sup> .

فلا عجب أن ىصىب الدىن المسىحى انحلال وتدهور مع قىام رجال على الكنىسة من هذا القىبل ؛ مثال ذلك أننا نجد فى شعب جورا Gora ( فى مقاطعة برزرىن ) الذىن كانوا قد أخذوا ىدخلون فى الإسلام على أثر الهجرة الكبرى سنة ١٦٩٠ ، أن الصرىىن الذىن ما زالوا متعلقىن بالمسىحىة ، طالما لجئوا إلى أسقف برزرىن الإغرىقى لىبعث إلیهم قسوسا ولو من حىن لآخر . ولكن مساعىهم كلها ذهبت أدراج الرىاح ؛ فظل أبناؤهم من جىر تعمىد ، ونظمت أعمال العرس والدفن من جىر مباركة الكنىسة ، وآلت المبانى المقدسة إلى البلى<sup>(٣)</sup> . كذلك فى مقاطعة أوبولجه Opolje المجاورة . لا ىبعد أن ىكون السواد الأعظم من الأهالى المسلمىن الآن الذىن ىبلغ عددهم ٩٥٠٠ نفس ، منحدرىن من أهالى هذه البقعة الذىن ىتمون إلى أصل سلاوى<sup>(٤)</sup> . وفى مستهل القرن السابع عشر وجد بترى فى مدىنة جانىشو Jagnevo ١٢٠ أسرة رومانىة كاثولىكىة و٢٠٠ أسرة إغرىقىة و١٨٠ أسرة إسلامىة<sup>(٥)</sup> . وبعد ذلك بأقل من مائة عام ، كان كل بىت فى المدىنة ىعد مسلما ، لأن رب كل أسرة دان بالإسلام ولم ىبق على المسىحىة إلا النساء وبعض الأطفال<sup>(٦)</sup> . وحول منتصف القرن الثامن عشر كانت قرىة لجورس Ljurs بأسرها كاثولىكىة . فى سنة ١٨٦٣ كانت هناك ٩٠ أسرة مسلمة و٢٣ أسرة مسىحىة ، أما فى الوقت الحاضر فإن هذه القرىة وما جاورها من القرى قد قد نبذ أهلها المسىحىة عن آخرهم<sup>(٧)</sup> . وكان لا ىزال إلى وقت حدىت بعض آثار باقىة من دىنهم المسىحى القدىم ، قائمة فى بعض القرى كحراق جذع الشجرة لىلة عىد المىلاد وجر ذلك . ىد أن أمثال هذه العادات أخذت تزول فى الوقت الحاضر .

وبعد موقعة كسوفو وسقوط دولة الصرب كانت هضاب الجبل الأسود الموحشة ملجأ لهؤلاء الصرىىن الذىن أبوا الخضوع للأتراك ، ولكنهم عقدوا النىة على التمسك باستقلالهم . ولا مجال هنا لسرد ما كان لهذا

( ١ ) Farlati, vol. vii. pp. 127-8.

( ٢ ) Mackenzie and Irby, pp. 374-5. Kanitz, p. 39.

( ٣ ) Id. pp. 39-40.

( ٤ ) Kanitz, p. 38.

( ٥ ) Bizzi, fol. 48, b.

( ٦ ) Zmaievich, fol. 182.

( ٧ ) Kanitz, p. 38.

الشعب الجرى. من تاريخ كفاح ينطوى على البطولة في وجه هذه الكثرة الهائلة ، وكيف استطاعوا في خلال قرون قضاها في قتال مستمر في ظل حكم أمراءهم الأساقفة<sup>(١)</sup>، أن يقوا على ولاية مسيحية حرة ، في حين كان جميع إخوانها من جنسها قد أجبرت على الخضوع للحكم الإسلامي . ولما كان الأساس الذي قام عليه كيانهم المستقل ، باعتبارهم أمة ، هو تمسكهم بالعقيدة المسيحية التي لا تتزعزع ، لم يكن من المنتظر أن يتخذ الإسلام سيلا بينهم في سهولة ويسر . ولكن في القرن السابع عشر دخل في الإسلام كثير من أهالي الجبل الأسود في المقاطعات الواقعة على الحدود ، والتحقوا بخدمة من جاورهم من الباشوات . وفي سنة ١٧٠٣ جمع دانيال بيتروفش D. Petrovich الأسقف الحاكم في ذلك الحين ، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر في القضاء على المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم . وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا في المسيحية من مسلمي الجبل الأسود قتلوا في ليلة عيد الميلاد في ثبات ورباطة جأش<sup>(٢)</sup> .

والآن ننتقل إلى البوسنة : كانت أحوال الشعب الدينية والاجتماعية في هذه البلاد قبل الفتح التركي تستحق عناية خاصة . ينتمى السواد الأعظم من أهالي هذه البلاد إلى طائفة مسيحية من الخوارج يطلق عليها طائفة البوجوميل Bogomiles ، الذين كانوا قد تعرضوا من القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان ، والذين طالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية عليهم<sup>(٣)</sup> . ففي سنة ١٢٢٥ كتب البابا جون الثاني والعشرون إلى ملك البوسنة يقول : « إلى ولدنا الحبيب الحبيب استيفن أمير البوسنة — لعلنا بأنك ابن مخلص للكنيسة ، نعهد إليك أن تتأصل شأفة الخوارج في ملكك ، وأن تبذل العون والمساعدة لقاضينا فايان Fabian ؛ ذلك أن جمهورا عظيما من الخوارج تجمعوا من نواح كثيرة متعددة ، وتدفعوا جميعا على إمارة البوسنة مطمئنين إلى أنهم سيبزرون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون في أمن ودعة . ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبث العدو القديم ( أى الشيطان ) وتساحوا بسموم باطلهم ، أفسدوا عقول الكاثوليك بظواهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين ، كلامهم يدب ديب السرطان ، ويندسون في تواضع ، ولكنهم يقتلون في باطن الأمر ، وهم ذئاب في ثياب خراف ، يسترون جنونهم الوحشي ، يجعلونه وسيلة للتعمية على خراف المسيح الأبرياء . . وفي القرن الخامس عشر أصبحت آلام البوجوميل لا تحتمل ، حتى إنهم استغاثوا الأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء ، لأن ملك البوسنة والقسيسين كانوا قد بلغوا باضطهاد البوجوميل حدا ربما لم يبلغه أحد من قبل . فهرب عدد كبير منهم يقرب من أربعين ألفا من البوسنة ، واتخذوا ملجأ في البلاد المجاورة . أما الذين لم يوفقوا في الهرب فقد أرسلوا إلى

(١) حكم الجبل الأسود أساقفة من سنة ١٥١٦ إلى ١٨٥٢

(٢) E. L. Clark, pp. 362—3.

(٣) دعا إليها البابا هنريوس الثالث Honorius III في سنة ١٢٢١ ، وجرموردى التاسع في سنة ١٢٢٨ . واتوسد الرابع Innocent IV في سنة ١٢٤٠ ، وبندكت الثاني عشر Benedict XII في سنة ١٢٢٧ . وتأسس ديوان القسيس Inquisition في سنة ١٢٩١ .

رومة مكبلين في الأصفاد . ولكن هذه التداير ، على شدتها لم تضعف من قوة البوجوميل في البوسنة إلا يسيراً ؛ ذلك أن الأخبار في سنة ١٤٦٢ تحدثنا أن الهراطفة كانت في هذه البلاد أقوى منهم في أي وقت مضى . وفي السنة التالية ، عند ما غزا محمد الثاني البوسنة ، وجد الملك الكاثوليكي أن رعاياه قد تحلفوا عنه ؛ وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسي ، مدينة بوبوفاتس Bobovatz الملكية إلى الأتراك ، وأسرع سائر الحصون والمدن إلى الاقتداء بالحصن ، وفي خلال أسبوع انتقلت سبعون مدينة إلى أيدي السلطان ، وأضاف محمد الثاني البوسنة إلى عدد فتوحه الكثيرة (١) .

ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن البوجوميل إلا قليلاً ، ويظهر أنهم دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم في جموع كبيرة على أثر الفتح التركي ؛ أما البقية الباقية منهم فيظهر أنهم اعتقدوا الإسلام بعد ذلك تدريجاً ، على حين هاجر الكاثوليك الرومان من أهالي البوسنة إلى ما جاورهم من أراضي المجر والنمسا . وقد زعم بعض الباحثين (٢) أن جموعاً كبيرة من البوجوميل ، في العهد الأول من الفتح على الأقل ، دخلوا في الإسلام بقصد الرجوع إلى دينهم إذا ما واثمهم فرصة مناسبة ؛ ولما كانوا يلقون اضطهاداً مستمراً ، فلا يبعد أنهم تعلموا كيف ينكرون دينهم إلى حين . ولكن لما لم تواتهم قط هذه الفرصة المناسبة ، كان لا بد أن يصرّفوا النظر عن هذه التية تدريجاً ، ثم نسبتها ذريتهم آخر الأمر . على أن مثل هذا الزعم لا يعدو أن يكون مجرد حدس وتخمين ولا يعتمد على دليل قوي . ولعل السبب في رضا البوجوميل بالسماح لأنفسهم أن ينتظموا في سلك عامة المسلمين المؤمنين راجع إلى مواضع كثيرة تتشابه فيها عقائدهم الخاصة ومبادئ الإسلام . فقد رفضوا عبادة مريم العذراء ونظام التعميد وكل صورة من الكهنوت (٣) . وأنكروا الصليب رمزا دينياً ، وعدوا من عبادة الأصنام الانحناء أمام الصور الدينية والتماثيل وآثار القديسين . وكانت بيوت صلواتهم ساذجة خالية من الزينة ، وهذا على خلاف الكنائس الكاثوليكية الرومانية التي تحلت بالزخارف الزاهية . وشاركوا المسلمين في كراهية الواقيس التي أطلقوا عليها « أبواق الشيطان » ، واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب ، وإنما حل محله شيخ آخر ؛ وهم يتفقون في هذه الناحية في جانب مما جاء به القرآن (٤) . وإن ذمهم الخمر ، وتزمتهم البادية في أسلوب حياتهم ، وتشددهم البالغ في سلوكهم الخارجي ، كل هذه الروابط قد ساعدت على توثيق صلتهم بالإسلام (٥) ، إذ قيل عنهم : « إنك ستري هراطفة هادئين مسابحين كحملان طليقة بالعراء ،

(١) Asboth, pp. 42-95. Evans, pp. xxxvi—xlii.

(٢) Asboth, pp. 96 7.

(٣) « وأبوا حفلات الكنيسة وروضاءها ، وأطافوا على التمسجين من الأرثوذكس اسم القريبيين العميان ، وكانوا يهرونهم كما نهر الكلاب الجبل ؛ وأكذبوا أن العشاء الرباني لا يهان تبعاً لوصية الرب ، وأنه ليس عبارة عن جسد الرب ولكنه كأي خبز آخر .

(Kosmas, quoted by Evans, pp. xxx-xxxii.)

(٤) سورة ٤ آية ١٥٦

(٥) « فإن هذا بنا أذهره الأتراك بحر شارل الثاني عشر ملك السويد من إعجاب : « إن تعدده في الامتناع عن شرب الخمر

ومراظبه على شهود الصلوات العامة مرتين في اليوم ، قد جعلهم يقولون : إنه لمسلم حق . »

(Œuvres de Voltaire, tome 23, p. 200.) (Paris, 1785.)

ساكنين ، شاحبي اللون من صيام يشوبه النفاق ، لا يكثرون الكلام ولا يضحكون بصوت عال ، يطلقون لحام ويظهرون بمظهر الوقار<sup>(١)</sup> ، كانوا يصلون خمس مرات بالنهار وخمسا بالليل ، مرددين صلاة الرب مع سجدة كثيرة<sup>(٢)</sup> . ومن ثم وجدوا التغيير ضئيلا بانتقالهم إلى إقامة الصلوات في المساجد . وإذا كنا قد جمعنا هنا المواضع الكثيرة التي تتشابه فيها عقيدة البوجوميل مع تعاليم الإسلام ، فإن هناك بطبيعة الحال بعض مبادئ تتميز بطابعها المسيحي الذي لا يستطيع أن يقرها مسلم من أهل السنة . ومع ذلك فإن من اليسير أن ندرك بوجه عام كيف استميل البوجوميل تدريجا إلى ترك تلك المبادئ التي كان الإسلام يبندها ولا يقرها . كذلك كان مذهبهم في المانوية الثنوية مما لا تتساح فيه العقيدة الإسلامية ؛ وإنما ظهر الإسلام دائما بمظهر المتساح في قبول مثل هذه التأملات في العقيدة بشرط ألا تؤدي إلى الخروج عن الدين ، وأن تكون الموافقة عامة والقبول شاملا على الأصول الأساسية التي قامت عليها العقيدة من الوجهتين النظرية والعملية .

قدم الأتراك ، كما كانت عاداتهم دائما ، كل مزية لإغراء أهالي البوسنة على قبول الدين ؛ فسمحوا لكل من يعتنق الإسلام أن يحتفظ بأراضيه وممتلكاته ، وأعطيت لإقطاعاتهم من جميع الضرائب<sup>(٣)</sup> . ومن المحتمل أن يكون كثير من الورثة الشرعيين لليونات القديمة الذين كانت الطائفة الكاثوليكية قد انتزعت أملاكهم في جملة الأشراف بسبب أفكارهم الإلحادية ، قد انتهزوا الآن فرصة لاسترداد مركزهم القديم بالإذعان للدين الغالب . واحتفظ البوسنيون المسلون بقوميتهم ، وظل السواد الأعظم منهم يحملون أسماء صربية ولا يتكلمون إلا بلغتهم الوطنية<sup>(٤)</sup> . وفي الوقت نفسه كانوا يبرهنون دائما على غيرة متدفقة على دينهم الجديد ، وسرعان ما تبوأ أشراف البوسنة بفضل شجاعتهم العسكرية وتقديسهم للإسلام وما كان لهم من نفوذ قوى ، مكانة سامية في القسطنطينية ، وأصبح كثير منهم موضع ثقة في مناصب الحكومة الهامة . مثال ذلك أن تسعة من رجال السياسة الذين ينتمون إلى أصل بوسني شغلوا منصب كبير الوزراء في الفترة التي تقع بين سنتي ١٥٤٤ ، ١٦١١ .

وكان آخر ما حصلت عليه الفتوح العثمانية من ممتلكات ، جزيرة إقريطش التي اغتصبت في سنة ١٦٦٩ من جمهورية البندقية بالاستيلاء على مدينة كانديا بعد حصار طويل مضمّن دام نحو ثلاث سنين ، وختم كفاح خمسة وعشرين عاما بين تلك القوى المتنافسة في سبيل امتلاك هذه الجزيرة .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي انضوت فيها إقريطش تحت لواء الحكم الإسلامي . فقد استولى فريق

Kosmas, quoted by Evans, p. xxxi. (١)

Asboth, p. 36. Wetzer und Welte, vol. ii, p. 975. (٢)

Oliver, pp. 17-18. (٣)

Oliver, p. 113. (٤)

من عرب الأندلس المخاطرين على هذه الجزيرة على غرة ، وذلك في القرن التاسع الميلادي ، وظلت تحت سلطانهم حوالي قرن (٨٢٥ - ٩٦١) (١) . وفي خلال هذه الفترة أصبح كل سكان الجزيرة تقريبا مسلمين ، كما أصبح بعض الكنائس أطلالا ، واستحال بعضها الآخر إلى مساجد . ولكن عند ما عاد سلطان الدولة الرومانية إلى الاستقرار في هذه البلاد ، ارتد الشعب مرة أخرى إلى دينهم القديم عن طريق التبشير الذي قام به راهب أرمني ماهر ، وأصبح الدين المسيحي هو الدين الوحيد المعترف به في الجزيرة (٢) . وفي مستهل القرن الثالث عشر اشترى البنادقة الجزيرة من بونيفاس دوق مونتسيرات Monteserrat ، الذي أصبحت هذه الجزيرة من نصيبه بعد تقسيم الدولة لرومانية ، وحكموها يد من حديد . ويظهر أنهم نظروا إليها على أنها شروة لهم أن يحولوها لصالح الحكومة التي استوطنت البلاد ولصالح مستعمرها . وكانت إدارتهم من الظلم والجور بحيث أثار كثيرا من الثورات التي قمت بشدة لا تعرف الرحمة ؛ وفي إحدى هذه المناسبات أخليت مقاطعات بأسرها في ولايات سفاكية ولاسيق Sfakia & Lassiti من السكان . وحُظرت زراعة الغلال في هذه الأرض ، وإلا عرض المخالفون أنفسهم لعقوبة الموت ، حتى إن هذه المقاطعات بقيت جرداء مقفرة مدة قرن تقريبا (٣) . وقد أضفت تلك القسوة المفزعة التي وقع بها مجلس الشيوخ البندقي آخر هذه المحاولات في بداية القرن السادس عشر ، رعبا بالغا إلى حالة البؤس التي أن منها أهالي إقريطش التاعسون . ونستدل على سوء حظهم العاثر في هذه الفترة من تلك التقارير التي دونها أعضاء اللجنة الذين أرسلهم مجلس شيوخ البندقية في الشطر الأخير من هذا القرن نفسه ، لكي يستقصوا حالة سكان الجزيرة . وقد قيل إن أشرف البندقية كانوا يسحقون الفلاحين بأقصى ألوان التعسف والظلم ، كما أصبحت حالة ساداتهم الإقطاعيين أسوأ من حالة الأرقاء ، إلى حد أنهم لم يجرموا قط حتى على تقديم شكواهم من أي لون من ألوان الظلم . وكان على كل فلاح أن يشتغل في أعمال السخرة اثني عشر يوما كل سنة بدون أجر من أجل سيده الإقطاعي . وعندئذ كان في استطاعة سيده أن يرغمه على الاستمرار في العمل ما دام هذا السيد يحتاج إلى خدماته بأجرة إسمية قدرها بنفس في اليوم (أي أربعة مليات تقريبا) . وكاوا يدفعون عن كرومهم ضريبة تماثل ثلث قيمة المحصول ؛ ولكن النش والنفج مجتمعين كثيرا ما أُلحقا في رفع هذه الضريبة إلى ما يعادل الثلثين . وقد تقتصب ثيرانهم وبغالهم لخدمة السيد الذي كان له ألف حيلة أخرى لابتزاز الفلاح المسكين (٤) . ولكن اتضح أن قرارات أعضاء اللجنة لم يكن لها تأثير في إقناع مجلس الشيوخ بالبندقية ، بأن يرفع من مستوى حالة أهالي إقريطش البائسين ويضع حدا لقسوة الأشراف وظلمهم . فقد آثر المجلس أن يستمع إلى نصيحة فرايا ولو ساربي Fra Paolo Sarpi

Amari, vol. i. p. 163; vol. ii. p. 260. (١)

Cornaro, vol. i. pp. 205-8. (٢)

Perrot, p. 151. (٣)

Pashley, vol. i. p. 30; vol. ii. pp. 284, 291-2. (٤)

الذي خاطب الجمهورية في سنة ١٦١٥ في شأن مستعمراتها اليونانية بقوله : « إذا استبد سادة هذه المستعمرات بالفري الواقعة تحت نفوذهم فإن أقوم السبل أن نعوض النظر عنها لأنه قد لا توجد رحمة بينهم وبين رعاياهم<sup>(١)</sup> . »

فلا عجب إذا علمنا من المصادر ذاتها أن أهالي إقريطش كانوا يتطلعون إلى تغيير الحكم ، وأنهم لم يترددوا كثيرا في الخضوع للترك مقتدين في ذلك بسائر أمتهم . حقا لقد هرب كثير إلى تركيا في ذلك الوقت تخلصا من عبء الضريبة الذي أثقل كواهلهم ، مقتضين آثار غيرهم ممن لا يدخلون تحت حصر ، ومن كانوا من حين لآخر قد اتخذوا هناك ملجأ لهم<sup>(٢)</sup> . كذلك هاجرت جموع غفيرة إلى مصر حيث دخل كثير منهم في الإسلام<sup>(٣)</sup> . وقد أزعج أهالي إقريطش بوجه خاص ما أزله رجال الكنيسة اللاتينية بهم من تعسف وإرهاق ، هؤلاء الذين وضعوا أيديهم على الأحباس التي هي من حق رجال الدين من الإغريق . ولم يألوا جهدا في إهانة المسيحيين من أشياع المذهب اليوناني ، الذين ألفوا تسعة أعشار سكان الجزيرة<sup>(٤)</sup> . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأتراك قد استرضوهم بإعادة السلطة الدينية اليونانية . وقد ذكر أحد كتاب البندقية أن هذا الأمر قد تم على الصورة التالية : ذهب أحد كهنة الأبرشية اليونانية أو أحد القسيسين في كانية Canea إلى قسيس القائد التركي ، وأخبره أنه إذا أراد أن يظفر برضا الشعب الإقريطي وأن يجعل البندقية مبغضة إليه ، فلا بد له من أن يعلم أن الدين هو أوثق الروابط التي تحفظ المجتمع الرأقي من وهدة الانشقاق ، وأنه ينبغي أن يعمل في طريق تختلف عن الخطة التي رسمها البنادقة لأنفسهم . فقد بذل هؤلاء قصارهم في استئصال شأفة العقيدة الإغريقية وتأسيس عقيدة رومة مكانها ، وتواطؤوا معها على أن يصدروا أمرهم بعدم بقاء أي أسقف إغريقي في الجزيرة . ومن ثم حسبوا أنهم بعد إقصاء هؤلاء الرعاة الموقرين أنه أصبح من الميسور أن يتمكنوا من قيادة القطعان المتفرقة . وكان هذا التحريم قد أثار بلبلة في عقول أهالي إقريطش إلى حد أنهم كانوا متاهبين في فرح وطاعة للزحيب بأية سلطة تبدى رغبتها في إعادة تأسيس هذا النظام في حكومتهم الدينية — وهو نظام أساسي في مباشرة عبادتهم المقدسة ذاتها . وأضاف إلى ذلك أنه قد تكون هناك وسيلة أخرى لاسترضاء الشعب لو أنهم منحوا مزايا دينهم القديمة ، بل منحوا إلى جانب ذلك مزايا جديدة كذلك . وقد رأى قسيم أن هذه المطالب عادلة ، فبادر إلى الكتابة إلى القسطنطينية بشأنهم ، وهناك أقرروا مطالبهم ، وأمر البطريق اليوناني بأن يمين رئيس أساقفة ليكون مطرانا لولاية كانديا . ورشح كذلك سبعة أساقفة آخرين ليعملوا برياسة المطران<sup>(٥)</sup> .

Pashley, vol. ii. p. 298. (١)

Id. vol. ii. p. 285. (٢)

Id. vol. i. p. 319. (٣)

Perrot, p. 151. (٤)

Charles Edwardes : Letters from Crete, pp. 90-2. (London, 1887.) (٥)

ويظهر أن جموعا كبيرة من أهالي إقريطش دخلت في الإسلام بعد الفتح التركي مباشرة . ولا يبعد أن تكون تلك الوطنية ذاتها التي جعلتهم يتمسكون بدينهم القديم تحت سيادة البنادقة الأجنبية الذين أبقوا عليهم في حرص شديد ، ونظروا إلى أية محاولة ترمي إلى إدماجهم في غيرهم على أنها إهانة لا تقبل (١) ، وحاولوا دائما أن يوحوا إلى رعاياهم بأنهم منحطون — لا يبعد أن يكون ذلك كله قد حملهم على قبول ديانة سادتهم الجدد التي سرعان ما رفعتهم من منزلة الرعايا إلى رتبة الأنداد ، ومنحتهم نصيبا في الحياة السياسية وفي حكومة بلادهم . ومهما تكن العوامل التي أدت إلى تحول أهالي إقريطش إلى الإسلام وانتشاره بينهم انتشارا واسع النطاق ، يبدو أنه مما لا يكاد يصدق العقل أن القوة هي التي غيرت دين شعب كان قبل ذلك بقرون قد تشبث بدينه القديم في قوة وثبات ، برغم ما عاناه من اضطهاد خصم وعقيدة أجنبية . ومهما تكن الوسائل التي انضوا بها إلى صفوف الإسلام ، فقد قيل إن معظم المسلمين بعد الفتح بثلاثين سنة كانوا قد ارتدوا عن المسيحية أو كانوا أبناء مرتدين (٢) . وفي مدة تزيد قليلا على قرن دخل نصف أهالي إقريطش في الإسلام . وكان هناك مسلمون من أهالي إقريطش (ولا يزالون) من أقصى الجزيرة إلى أقصاها ، لا في المدن وحدها ، بل كذلك في القرى والمناطق الداخلية وفي صميم الجبال ، وهم متفقون جميعا في الشكل والعادات واللغة برغم أنهم لغزوا لغزا ودما . ولم يكن هنالك قط ، حتى في الوقت الحاضر ، أية لغة يتكلمها أهالي جزيرة إقريطش سوى اللغة اليونانية ؛ حتى الأتراك القلائل الذين نجدهم هنالك لم يكن بد من أن يتكلموا لغة البلاد ، كما كانت جميع فرمانات الباب العالي وأوامر الباشوات تقرأ وتذاع باللغة اليونانية (٣) . ولم يكن ما حدث بين النصاري والمسلمين في إقريطش من الشعور المرير الذي جعل تاريخ هذه الجزيرة في غضون القرن التاسع عشر تاريخا ينطوي على الحزن والأسى ، خطيرا بحال من الأحوال قبل نشوب الثورة اليونانية ، أيام أن كان مسلمو إقريطش يكثرون من اتخاذ البنات المسيحيات زوجات لهم ، وكن من بنات أصدقائهم المسيحيين (٤) . وقد زاد في توثيق الارتباط الاجتماعي بين هاتين الجماعتين الزى المشترك بينهما ؛ فقد كان أهالي إقريطش من المسلمين والنصارى على سواء متشابهين في الزى ، حتى لقد كان من العسير على المقيمين بينهم فترة طويلة ، أو على اليونان من أهالي الجزر المجاورة (٥) أن يميزوا بين الفريقين في كثير من الأحيان .

وقد سدت الأحداث السياسية الحديثة نقضا كبيرا في سكان إقريطش المسلمين . وفي سنة ١٨٨١ كان عدد المسلمين في الجزيرة ٧٣,٢٣٤ ، وفي سنة ١٩٠٩ نقص العدد على أثر الهجمات المستمرة إلى ٣٣,٤٩٦ (٦) .

Pashley, vol. ii. pp. 151-2. (١)

Id. vol. i. p. 9. (٢)

Perrot, p. 159. (٣)

Pashley, vol. i. pp. 10. 195. (٤)

T.A.B. Spratt: Travels and Researches in Crete, vol. i. p. 47. (٥)  
(London, 1865.)

R. du M.M. vii. p. 99. (٦)

## الباب السابع

### انتشار الإسلام في فارس وأواسط آسيا

إذا أردنا أن نتبع طريق انتشار الإسلام شرقا إلى أواسط آسيا ، وجب أن نرجع قليلا إلى عهد الفتوح العربية الأولى ؛ فإنه لم يكده منتصف القرن السابع الميلادي حتى كانت الامرة الساسانية العظيمة قد سقطت ، ودخلت في حوزة المسلمين ، تلك الإمبراطورية الفارسية الشاسعة ، التي ناهضت رومة وبيزنطة أربعة قرون . ولما تشتت شمل جيوش الدولة الفارسية ، لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسي الذي كان قد استبد بحكمه بمثلو الدولة الساسانية في أواخر أيامها استبدادا امتاز بكثير من ضروب القوضى والعنت . وما أثار غضب الأهلين وجعلهم ينظرون إلى حكامهم نظرة تنطوي على الكراهة والبغضاء ، وزادت شدة الخلف بينهم ، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التي غدت الدين الرسمي للدولة ، والتي كانت من قبل بغيضة عند الأهلين ، ويفسحون المجال لكهنتها ، حتى أصبح لهم نفوذ كبير في الدولة وصاروا على جانب عظيم من القوة في مجالس الملك ، وادعوا أن لهم نصيبا كبيرا في إدارة الشؤون المدنية<sup>(١)</sup> ، واستغلوا نفوذهم في اضطهاد كل الفرق الدينية المخالفة لهم (وكانت كثيرة) . وإلى جانب هذه الجماعات الكثيرة من معتدى المذاهب الفارسية القديمة ، كانت هناك طوائف من المسيحيين واليهود والصابئة ، وأحزاب مختلفة تأثرت بتأملات الأدرين Gnostics<sup>(٢)</sup> والبوذيين والمانونية Manichaens . وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة المريرة الذي أحسه الشعب الفارسي نحو هذا الدين الذي تغلغل في بلاد الفرس ، ونحو تلك الدولة التي وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع ، كما كان كذلك علة ذلك الانتصار الذي حالف الفتح العربي ، وجعله يظهر في صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه<sup>(٣)</sup> . وما إن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه ، حتى تنفس الفرس أنفسهم الصعداء ورحبوا بالعرب ، حبا في الخلاص من ظلم الحكام أولا ، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية ثانيا ، ثم أملا في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر ، وذلك لأن الإسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين ، ومن زرادشتيين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة ، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين ، على أن يدفعوا للمسلمين الجزية<sup>(٤)</sup> . ولقد قيل إن

(١) ذكرت في الأصل غربا

(٢) هي طائفة من الصاري تقول إن المادة قديمة ، وإن الشر من طبيعتها ، وغلطت بين النصرانية ومذهب الماديين واليهوس .

(٣) Cactani, vol. ii, pp. 910-11; A. de Gobineau (1), pp. 55-6. (٤)

(٤) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٧٣

النبي نفسه أوصى بالزرادشتيين خيرا ، وأمر المسلمين أن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وأن تؤخذ منهم الجزية كذلك كَمَا حمايتهم (١) . وقد يكون هذا الحديث قد ذاع في القرن الثاني للهجرة حين تلمس المسلمون حديثا نبويا يبيح التسامح الديني في معاملة أهالي الديانات المختلفة الأخرى التي وجدها العرب في البلاد التي فتحوها ، سواء أدخل معتقو هذه الديانات في عداد أهل الكتاب أم لم يدخلوا (٢) .

وإلى حالة الكنيسة المسيحية في فارس وماساها من اضطراب وارتباك ، يجب أن نذكر تغيير الحكومة الذي خلصها من استبداد ملوك الساسانيين الذين أثاروا الخلاف المير بين البيعاقبة والنسطورين ، كما زادوا في فوضى الأحزاب المتحاربة المتنافرة ، ولقد أشرنا من قبل (٣) إلى الاضطهادات الدينية الأولى . والآن نذكر أنه حتى في عهد احتضار الأسرة الساسانية ، ثارت نائرة خسرو الثاني ، واشتد حنقه من جراء الهزيمة التي أرزها به الإمبراطور المسيحي هرقل ، فأمر باضطهاد المسيحيين المقيمين في داخل حدود مملكته ، والذين تحملوا على اختلاف مذاهبهم كثيرا من ألوان العنت والآلام . ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائي في شعورهم الذي سهل تغيير العقيدة . وإلى جانب الاضطراب السياسي في الدولة ، ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التي أثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة ، فالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسب العقلي الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر ، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد . وبعبارة أخرى كان أهالي فارس ، والأجناس السامية بوجه خاص ، قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة . وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم ، وأن يفتح أمام الناس سبلا واضحة من الآمال الكبيرة ، وأن يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحياتهم السيئة (٤) .

على أن سكان المدن ، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة ، قد رحبوا بالدين الإسلامي واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة ، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة زرادشت وتقيح عبادة النار والأرض والماء ، وهم الذين كان ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء ، ولما في اعتناقه الإسلام أيضا من تركهم في الحال أحرارا ومساواتهم في المذهب الديني (٥) . ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت

(١) أبو يوسف ص ٧٤ ، والبلاذري ص ٧١ (في النهاية) ، ٧٩ ، ٨٠ .

(٢) Caetani, vol. v. pp. 361 (§ 611 n. 1), ٤94-5, 457.

(٣) ص ٦٨ - ٦٩

(٤) Caetani, vol. ii. p. 910.

(٥) De Gobineau (2), pp. 306-10.

نفسها بالأمر الصعب ، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة ، حتى إنه لم يعد لاتباعها هناك مركز يجتمعون حوله ، فوجدوا السبيل سهلا . يسورا لتدينهم بالإسلام لما بين مذهبهم الجديد ومذهبهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة . فالفارسي يستطيع أن يجد في القرآن كثيرا من التعاليم الأساسية في دياناته القديمة وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيرا . وبعبارة أخرى فإنه يصادف بدل اسم أهور مزدا Ahurmazda وأهرمان Ahriman في دياناته القديمة اسم الله وإبليس في القرآن ، كما يجد أيضا أن الله خلق العالم في ستة أيام ، وبقرا عن الملائكة والشياطين ، كما يقرأ قصة براة الإنسان القديم ، وبعث الجسد بعد الموت ، والاعتقاد بوجود الجنة والنار (١) . بل نجد كثيرا من وجوه الشبه في تفصيلات العبادة اليومية ، وأصبح على أتباع زرادشت بعد اعتقادهم الإسلام أن يؤدوا على وفق تعاليم دينهم الجديد ، الصلاة خمس مرات في اليوم كما كانوا يفعلون من قبل على وفق كتابهم الديني القديم المسمى أفستا Avesta (٢) . وكانت هذه القبائل التي تقيم شمال فارس ، والتي قاومت النظام الكنسي لدين الدولة الرسمي في عناد مستمر ، بحجة أن كل شخص كان قديسا في بيته ، وأنه لم يكن به من حاجة لأي واعظ آخر ، ثم لاعتقاده بوجود كائن أعظم وبخلود الروح ، ولأنه عرف أن الإنسان يجب أن يحب الخير لجاره ، وأن يكبح جماح شهواته ، ويسعى في صبر وأناة إلى حياة أحسن حالا من حياته الحاضرة . ولا غرو فإن أمثال هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى كثير من الإقناع لحثهم على قبول دين النبي (٣) . وهناك أيضا كثير من أوجه الشبه بين الدين الإسلامي ومعتقدات بعض فرق الإلحاد في فارس التي أصبحت تحت تأثير المسيحية .

وفضلا عن هذه العوامل التي ذكرناها ، والتي كانت سبب انتشار الإسلام بسرعة مدهشة في بلاد الفرس كما رأينا ، كان ثمة عامل آخر ، هو الشعور السياسي والوطني لهذا الشعب المغلوب ، ذلك الشعور الذي أدى إلى انضوائهم تحت لوام هذا الدين الجديد عن طريق زواج الحسين بن علي من شاهبانو Shāhbānu إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية . وقد رأى الفرس في أولاد شاهبانو والحسين وارثين للملكهم الأقدمين ، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية . وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعاق الفرس الشديد بعلى من جهة ، كما يفسر لنا ظهور التشيع هناك حزبا منفصلا من جهة أخرى (٤) .

ولم تكن القوة أو العنف السبب في اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام ، بدليل هذه المعاملة

(١) Dozy (1), p. 157.

(٢) Haneberg, p. 5.

(٣) Dozy (1), p. 191. A. de Gobineau (1), p. 55.

(٤) Les croyances Mazdéennes dans la religion Chiite, par Ahmed-bey

Agaeff (Transactions of the Ninth International Congress of Orientalists, vol. ii. pp. 509-11. London, 1893.)

والوقوف على بعض هذه العلاقات أظن Goldziher : Islamisme et Parsisme (Revue de l'Histoire des Religions, xliii. p. 1. sqq.) .

التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بمذهبه القديم . ولا يزال إلى الآن في بعض جهات فارس بعض جماعات صغيرة من عبدة النار<sup>(١)</sup> . ومع أنهم قاسوا فيما بعد كثيرا من الاضطهادات ، كان أسلافهم في القرون الأولى للهجرة يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية . وكانت معابدهم محترمة ، حتى إننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين (في عهد الخليفة المعتصم ٨٣٣ — ٨٤٢ م) (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا في هدم أحد معابدهم في بلاد الصغد ، واستخدما حجراته في بناء مسجد مكانه<sup>(٢)</sup> . وفي القرن العاشر الميلادي ، أي بعد فتح فارس بثلاثة قرون ، وجدت معابد النار في العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وجبال أذربيجان وأران ، وبعبارة أخرى في كل كورة من كور فارس تقريبا<sup>(٣)</sup> . كما لم تخل أية مدينة أو كورة في فارس من المجوس أو معابد النار<sup>(٤)</sup> . وقد ذكر الشهرستاني<sup>(٥)</sup> أيضا (حين ألق في عصر متأخر ، في القرن الثاني عشر) اسم معبد للنار في إسفينية بجوار بغداد نفسها<sup>(٥)</sup> .

وبالنظر إلى هذه الحقائق يكون من المستحيل قطعاً أن نقول إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام . ومن المحتمل أن يكون عدد أهالي فارس الذين اعتنقوا هذا الدين في السنين الأولى من الحكم العربي كبيرا جدا للأسباب المختلفة التي ذكرناها . بل إن في بقاء مذهبهم القديم ، وما أثر عن ارتداد الناس عنه تدريجيا في خلال القرون المتتابعة ، يقوى في نفوسنا ما ذهبنا إليه من احتمال تدينهم الإسلام بمحض اختيارهم وفي جو من الهدوء والسلام . وحول أواخر القرن الثامن خلع سامان أحد أشرف بلخ دين زرادشت ، واعتنق الإسلام لمساعدة أسد بن عبد الله والي خراسان إياه ، وسمى ابنه باسم هذا الوالي الذي دخل في حمايته . ومنذ ذلك التحول تسمت أسرة السامانيين (٨٧٤ — ٩٩٩ م) بهذا الاسم . وحول أوائل القرن التاسع ، كان كريم بن شهربار أول ملك اعتنق الإسلام من أسرة قابوس . وفي سنة ٨٧٣ م تحول إلى الإسلام عدد كبير من عبدة النار في بلاد الديلم بتأثير ناصرالحق أبي محمد . وفي القرن التالي ، أي حول سنة ٩١٢ م دعا الحسن بن علي - الذي ينتسب إلى البيت العلوي الذي تأسس على ساحل بحر الخزر الجنوبي ، أهالي طبرستان وبلاد الديلم ، وكان بعضهم يعبد الأوثان ويدين بعضهم الآخر بالمجوسية - إلى الإسلام . فأجاب دعوته كثير منهم ، على حين أصر

Dosabhai Framji: History of Parsis, vol. i. pp. 56-9, 62-7. (١)

(London, 1884.)

ويذكر Nicolas de Khanikoff أنه كان هناك في نهاية القرن الثاني عشر اثنا عشر ألف أسرة من عباد النار في كرمان

في Mémoire sur la partie méridionale de l'Asie centrale, p. 193. (Paris, 1861.)

Chwolsohn, vol. i. p. 287. (٢)

(٣) المسعودي : مروج الذهب ص ٨٦

(٤) الاستطرى ص ١٠٠ و ١١٨ ، وابن حوقل ص ١٨٩ - ١٩٠

(٥) ورد في الأصل ( ص ٢١٠ م ٢ ) Al-Sharastani وابن Al-Shahrastani وهو خطأ معاصري على ما يظهر

(٥) كتاب الملل والنحل، (ed. by Cureton.) part 1. p. 198.

غيرهم على كفره . وكان الحسن بن علي هذا على قدر كبير من العلم والذكا . كما كان ملما بمبادئ المذاهب الدينية المختلفة (١) . وفي سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ — ١٠٠٤ م) دان بالإسلام شاعر مشهور من أهالي بلاد الديلم ، هو أبو الحسن ميار الديلمي ، وكان من عبدة النار ، وذلك بتأثير أستاذه في فن الشعر الذي كان يفوقه في الشهرة وهو الشريف الرضي (٢) .

ويحتمل أن يكون جد ابن خرداذبة الجغرافي المشهور قد تحول إلى الإسلام في ذلك الوقت تقريبا ، وذلك بتأثير أحد البرامكة ، وكان جده أيضا من أتباع المذهب المانوي وأحد كبار كهنة عبادة النار في معبد نوبهار العظيم بمدينة بلخ (٣) .

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي وصلت إلينا عن تحول الناس إلى الإسلام ، يظهر أن اتجاهاً هذا الدين كان يمحض لإرادتهم ، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسي . حتى إذا جاء الغزو المغولي بدأ في تاريخهم عصر أكثر إظلاماً من العصر الذي سبقه . ويبدو أن ألوان البؤس التي لحقت بالمسلمين من الفرس أنفسهم قد ولدت في نفوسهم روح التعصب الديني وعرضت أتباع زرادشت من حين إلى حين لتحمل الآلام التي تنطوي على القسوة والإرهاق (٤) .

وقد بدأت في فارس حول أواسط القرن الثامن عشر الميلادي حركة تثير الاهتمام في تاريخ الدعوة الإسلامية ، وهي ظهور طائفة الإسماعيلية . ولسنا هنا بصدد بحث تاريخ هذه الطائفة ، ولا في المكانة الدينية التي شغلها أتباع هذه الطائفة ، ولا في العوامل الاجتماعية والسياسية التي ساعدت على ظهورها بمظهر القوة ، وإنما الذي يسترعى اهتمامنا هنا هو ذلك النظام المدهش الذي اتبع في نشر الدعوة لذلك المذهب . وكان عبد الله بن ميمون هو الذي بعث في أوائل القرن التاسع الميلادي روحاً جديدة في نفوس الإسماعيلية ونشر تعاليم مذهبهم ، الذي يفوق نظام مذهب الجزويت Jesuits من حيث دقة النظر في الطبيعة الإنسانية والمهارة التامة في تلقين مبادئ هذا المذهب للناس ، كل على حسب قدرته وميوله . وقد أنفذ عبد الله بن ميمون دعائه في كل الجهات متشككين في زى الصوفيين غالباً ، أو في زى التجار وغير ذلك . وقد مرنوا على أن يستحوذوا على عقول الناس جميعاً ، وأن يجذبوا جميع الطبقات إلى رئيس الدعوة الإسماعيلية ، وأن يستخدموا تعاليمهم عن طريق التفاهم مع كل فرد بلغته الخاصة وعلى مقدار عقله . وقد استطاع هؤلاء الدعاة أن يأسروا العامة بما كانوا يقومون به من الأعمال الخارقة للمألوف التي كانت في أعينهم كعجرات ، والتي كانت تثير في نفوسهم حب الاستطلاع . وكانوا يتظاهرون للأتقياء بالتقوى والنحس الديني ، ويظهرون للزهاد

(١) المعردي ٨٣ ص ٢٧٩ ، ٩٣ ص ٤ - ٥

(٢) ابن خلكان ٣٣ ص ٥١٧

(٣) كتاب الفهرست (طبعة فوجل) ص ١٤٩ ص ٢

(٤) لورفرف على مجل حالتهم تحت حكم المسلمين ، أنظر :

المثل الأعلى للفضيلة والحماس الدينى ، ويجلون للصوفيين ما غمض عليهم من التعاليم المعروفة ، ويستخدمون مع من يريدون إدخاله في مذهبهم مراتب مختلفة تناسب مع عقولهم . ومن ثم أخذ هؤلاء وأولئك يوحون إلى المتشوفين بظهور منقذ يصلح الأديان الكثيرة السائدة في ذلك الحين ، فأعلنوا للمسلمين قرب ظهور المهدي المنتظر ، وللإهود ظهور المسيح ، وللنصارى المعزى . بيد أنهم لقنوهم أن ما يطمح إليه كل فرد لا يمكن أن يتحقق إلا برجعة على المنقذ الأكبر . وكان على الداعى الإسماعيلى أن يظهر بمظهر المتحمس لجميع العقائد الشيعية ، ويشير قسوة السنين وظلمهم لعلى وأولاده ، ويجاهر بالخط من شأن الخلفاء السنيين . فإذا ما مهد السبيل على هذا النحو ، وجب عليه أن ينتقل على وفق ما تتطلبه دقة المذاهب الشيعية إلى مبادئ الطائفة الإسماعيلية العميقة فى التأويل . وإذا ما خاطب اليهودى أظهر احتقاره للنصارى والمسلمين ، ووافق المدعو فى تطلعه إلى قرب ظهور المسيح المنتظر ، ولكنه يتدرج معه فى الحديث حتى يعتقد أن هذا المسيح لا يمكن أن يكون سوى على بن أبى طالب ، وهو المهدي الأكبر عند طائفة الإسماعيلية (٢) . وإذا حاول جذب المسيحي وجب أن ينحو باللائمة على مكابرة اليهود وجهل المسلمين ، وأن يعلن احترامه لما جاء به الدين المسيحى من عقائد . ولكنه يشير فى شيء من الحذر إلى أن هذه العقائد عبارة عن رموز وأما ذات معان عميقة لا يجد المرء وسيلة للوصول إليها إلا عن طريق المذهب الإسماعيلى ، كما يجب عليه أيضا أن يشير فى حذر وحرص إلى أن المسيحيين قد أساءوا نوعا تأويل نظرية المسيح المنتظر (الفرقيلط) Paraclete ، وأن هذا المسيح المنتظر لا يوجد إلا فى شخص على بن أبى طالب . وعلى هذا النحو حاول دعاة الإسماعيلية الذين اتخذوا طريقهم إلى بلاد الهند أن يعملوا الهدوكيين على قبول عقائدهم عن طريق إظهار على بن أبى طالب بمظهر أوتار وشنو (S) لعاشر المنتظر The Promised tenth Avatar of Visnu الذى يجب أن يأتى من ناحية الغرب ، أى من ألموت Alamūt . وكذلك كتبوا عن مهدي پرانا Purāna (٣) ونظموا الأشعار فى تقليد الواما كارين Vāmācarins أو الساكتس Śāktas ذوى الأيدى اليسرى الذين كانت حياة الزهد التى عاشوها قد هيأت عقولهم لقبول مذهب الإسماعيلية الباطنى أو التأويلى (١) .

وبأمثال هذه الطرق اتحد عدد هائل من يدينون بأديان مختلفة فى القيام بمشروع لم يعرف حقيقة ما يرمى إليه إلا القليل الأقل من الناس . ويظهر أن مطامح عبد الله بن ميمون كانت سياسية محضة . ولكن الوسائل التى تدرع بها لتحقيق هذه المطامح كانت دينية . ومن ثم جمع الناس تحت لواء واحد وجعلهم ينظرون قرب

(٢) إن هذا لا يتفق مع أصول المذهب الإسماعيلى الذى يقول بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وقرب ظهور أحد أبنائه . وإلا لما استطاعنا أن نفرق بين الإسماعيلية الذين يعتقدون إمامة إسماعيل وأبنائه وبين الاثنا عشرية الذين يعتقدون إمامة موسى الكاظم وأبنائه ، والزيدية وغيرهم من فرق الشيعة التى تزعم بإمامة على بن أبى طالب . أما التصيرية فانهم يزعمون على بن أبى طالب .

(S) كلمة عسكريكية الأصل معناها الشخص الذى جاء إلهما لخلق الكائنات .

(٣) مهدي پرانا أى التفسير الذى كتبه المهدي .

(١) Khoja Vrittānt, pp. 141—8.

ولزيارة الايضاح عن دعاة الإسماعيليين فى الهند ، أنظر الباب التاسع

ظهور الإمام المهدي . وإن نشاط الدعوة وارتباطه بتاريخ هذا الحزب خليق بأن تصدى لذكره بإيجاز في هذه الصفحات (١).

وإن تاريخ انتشار الإسلام في بلاد أواسط آسيا إلى شمالي فارس لا يدل إلا على قليل من نشاط الدعوة الإسلامية . فانه لما وفد قتيبة بن مسلم على سمرقند ، وجد هناك كثيرا من الأصنام كان عبدها يعتقدون أن كل من أنار حنقها تعرض للموت . على أن الفاتح المسلم لم يابه لهذه المخاوف التي أثارها تلك الحرافات ، ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنام . وكان من أثر ذلك العمل أن دان بالإسلام عدد كبير من الناس (٢) . على أن المعلومات التي وصلت إلينا مع قلتها تدل على أن التحول إلى الإسلام كان ، برغم هذا ، ضئيلا في مستهل تاريخ تقدم الفتوح الإسلامية في أواسط آسيا . وفوق هذا يبدو لنا أن أهالي هذه البلاد طالما تظاهروا بانتحالم الإسلام إلى حين ، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح (٣) . ولم يصب العرب النجاح المطلوب في إرغام الأهلين على اعتناق دين الفاتحين حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة .

وفي بخارى وسمرقند اتسمت مقاومة الأهلين للإسلام بكثير من ضروب العنف والعتاد ، حتى إنه لم يسمح بحمل السلاح إلا للذين دانوا بهذا الدين . ولم يجرأ المسلمون أعواما طويلة على أن يظهروا في المساجد أو غيرها من الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدي السلاح ، على حين لم يكن بد من أن تُتَمام الجواسيس لمراقبة الحديث العهد بالإسلام . وكذلك بذل الفاتحون جهودا مختلفة لإدخال الناس في حظيرة الدين ، بل لقد حاولوا تأليفهم بالمال ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد ، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلا من العربية حتى يستطيعوا جميعا فهمه في سهولة ويسر (٤) .

وكان انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر بطيئا بطنا ظاهرا . فقد استجاب بعض الأهلين إلى دعوة عمر الثاني (٧١٧ — ٧٢٠ م) للتدين بالإسلام (٥) ، وتحول عدد كبير منهم على يد أبي صبيدا الذي أخذ في نشر هذه الدعوة بسمرقند في عهد هشام الثاني (٧٢٤ — ٧٤٣ م) (٦) . ولكن جمهور أهالي هذه البلاد لم يعتنقوا الإسلام حتى عهد المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) . وربما كانت هذه العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة إذ ذاك بين بغداد حاضرة العالم الإسلامي في ذلك العصر ، والأترك الذين كانوا قد هاجروا أفواجا لينضموا إلى جند

(١) Le Bon Silvestre de Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, tome

i. pp. Lxvii, cxlviii-clxii.

(٢) البلاذري ص ٤٢١

(٣) الترشيح ص ٤٦

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧

(٥) البلاذري ص ٤٢٦

(٦) الفهرست ٢ : ١٥٠٧ وما يابها .

الخليفة من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام<sup>(١)</sup>. ويظهر أن الإسلام، وقد رسخت قدمه بين القبائل التركية على هذا النحو، لم ينتشر إلا ببطء حتى منتصف القرن العاشر الميلادي، حين دان به بعض رؤساء عشائهم، كما حدث تماما في تاريخ الدين المسيحي عند ما تحول كلوفيس Clovis وبعض ملوك شمالي أوروبا من المتبربرين إلى المسيحية، وافتنى أثرهم في ذلك عدد كبير من القبائل التي ينتمون إليها.

وقد ظهرت في ذلك الوقت قصص دينية خرافية حلت محل الحقائق التاريخية الجديدة، وذلك بصدد تحول الناس إلى الإسلام. فدينونة خيوة مثلا كانت تقديس مصارعا وطنيا يطلقون عليه اسم بهلوان Pahlavān. وكان هذا المصارع في خدمة أحد ملوك خوارزم الوثنيين. ولما سمع ملوك الهند بشهرة بهلوان هذا، أرسل أحد المصارعين في بلاطه يستفز ملك خوارزم لتحديد يوم للمبارزة. وقد حدد يوم لاختبار قوة هذين الرجلين، ودعى عدد كبير من النبلاء والعامّة في خيوة لمشاهدة هذا المنظر، وخاصة إذا علمنا أن من عُصِب في هذه المصارعة كان حقه أن يُطاح رأسه. وفي اليوم الذي سبق يوم المصارعة، عند ما كان بهلوان المقدّس يصلي في الجامع، سمع امرأة عجوزا تدعو الله وتقول: «رب لا تلحق بولدي الهزيمة في مصارعة بهلوان فإنه ليس لي ولد سواه». فأخذت الشفقة بهلوان ورق لحال هذه الأم، وسهل لمصارعه الهندي إحراز الفوز عليه. وأمر الملك بقطع رأسه، وقد نارت نائزته وأخذ الغضب منه كل مأخذ. غير أنه في هذه اللحظة نفسها أخذ الحصان الذي كان الملك معتليا صهونه يعدو مسرعا صوب منحدر خطير، ولحق به بهلوان وأمسك بزمام الحصان، وأنقذ حياة الملك من موت مروع. ولم يكن من الملك إلا أن يادر إلى التدين بهذا الدين الحق شكرا لله واعترافا بآلائه عليه، وذهب المصارع المقدس في طريق الصحراء، وقد ملا الفرح قلبه، وأوى إلى صومعته، وعاش عيشة النسك والزهد، وانقطع إلى العبادة.

وحول منتصف القرن العاشر الميلادي، رويت أسطورة مجيبة عن إسلام ساتوق بغراخان Satūq Bughra Khān مؤسس أسرة إيلكخان الإسلامية في كشمير. فقد أراد خواجا أبو النصر الساماني أحد أمراء السامانيين، وكان على جانب عظيم من التقوى ودمائة الخلق، أن يجد مجالا لإشباع مواهبه الإدارية، فعزم على اتخاذ التجارة حرفة له، مدفوعا في ذلك برغبته في نشر الدين الحق في بلاد الكفار. وبدلا من محاولة جمع الثروة عن طريق مشروعاته التجارية، خصص ساتوق كل أرباحه لتنمية جهوده في إدخال الناس في دينه الجديد. ففي ذات ليلة ظهر له النبي في المنام وقال له: «استيقظ واذهب إلى تركستان حيث تجعد الأمير ساتوق بخاري خان في انتظار حضورك للدخول في الإسلام». ورأى هذا الأمير الشاب في نومه رؤيا مماثلة تحثه على انتظار شخص يدعو إلى الدين. ولما تقابل ساتوق مع أبي النصر الساماني بعد عدة أيام، كان ساتوق على استعداد تام لقبول تعاليمه والتدين بالإسلام. ويظهر أن هذه الأسطورة استندت إلى

(١) August Müller, vol. i. p. 520.

(٢) Cahun, p. 150.

(٣) ابن الأثير ٨٣ ص ٢٩٦ (س ١٩ - ٢٠) ٤٢-3. Grenard, pp. 7sq.

هذه الحقيقة التاريخية ، وهي أن الإسلام امتد من بلاد السامانيين إلى البلاد المجاورة في تركستان ، وأن رعايا هذا الحاكم اقتفوا أثره في التدين بالإسلام ، إذ أنه في سنة ٩٦٠ م اعتنق هذا الدين ماثا ألف من الأسر التركية التي كانت تعيش في الحيام ، والتي لا يبعد أنها كانت تكون الجزء الأعظم من أتراك تركستان بمملكة بخارى خان . وتعزو إليه الأساطير القدرة السحرية في الحروب التي شنها على الكفار ، حتى لقد روى أن شعلة محرقة تخرج من فيه ، وأن سيفه الذي كان يتقلده يبلغ طوله أربعين قدما . وقد قيل إن ساتوق لم يكده يبلغ التاسعة والستين من عمره ، حتى نشر سيفه الرعب في قلوب الكفار الذين كانوا يقيمون في الأراضى الممتدة من ضفاف نهر سيحون جنوبا إلى قُورَه قُورَم شمالا ، فتحولوا إلى الإسلام . كما قيل إن جيوشه المنتصرة دخلت قبيل موته بلاد الصين ، ونشرت الإسلام حتى ترفان Turfan (١) . وإن هذا الوصف الرائع لكفاح هذه الأسرة مع مملكة خستان البوذية ليخلع على بطلها حلة من النجاح الذي لم يتم في الواقع إلا في القرن الرابع عشر الميلادي . ويمكن الحكم على مدى ما بلغه ساتوق بغرا خان من نجاح من أن خلفاه من أسرة إيلكخان أردادوا في سنة ١٠٢٦ م الزواج من أميرات بيت محمود الغزنوى ، فأجابهم محمود بأنه مسلم على حين أنهم كفار ، وأنه ليس من عادات المسلمين أن يزوجوا أخواتهم وبناتهم من الكفار ، ولكنهم إذا دخلوا في الإسلام أمكن النظر في هذه المسألة (٢) . وبعد ذلك بسنين قليلة ، أى بين سنتي ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، طلب بعض الأتراك الذين كانوا لا يزالون على وثنيتهم ، والذين كانوا يعيشون في هضبة التبت من أرسلان خان بن قسدر خان أن يسمح لهم بالاستقرار في ممتلكاته ، لما سمعوا عن عدله وسعة صدره ولين حكمه . ولكنهم لما أصبحوا على مقربة من بالاساغون (٣) ، أرسل إليهم كتابا يدعوهم فيه إلى الإسلام ، ولكنهم رفضوا هذه الدعوة ، فتركهم وشأنهم لما آتته فيهم من روح المسالمة والطاعة . وإيس لدينا معلومات عن كيفية اعتناقهم الإسلام . على أنه يرجح أن هذا قد تم على مر الزمن . ولكنه ليس من اليسير أن تثبت أن هؤلاء هم أفراد هذه الجماعة التي كانت تتألف من عشرة آلاف أسرة تركية من الكفار اعتنقت الإسلام في السنة التالية . إذ أنه قد أثر عن هؤلاء الأخيرين أنهم أغاروا على المسلمين ونهبهم قبل تحولهم إلى هذا الدين (٤) . وكانت غزوة قره ختاي Qara Khitay في بلاد التركستان سببا في تصويب

Grenard, pp. 9—10. (١)

ومن حرب الطلوح هذه ، جعلت منها هذه الرواية حربا مقدسة ؛ وتنسب الرواية إلى ساتوق بغراخان الفتح الذي تم في الواقع على يد خليفته الثانى عشر . ومن الخطأ البين أن تطلق هذه الرواية اسم الأخير على عم ساتوق بغراخان الذى كان لا يزال على وثنيته . وما يؤسف له أن هذه الرواية تجل من شخصين اثنين شخصا واحدا فتعزو إلى نفس هذا الأمير الاغارة على تورقان أى ضد بلاد الغور ، وهذه الاغارة تنسب حقا إلى شخص ثالث (المصدر نفسه ص ٥٠) .

Reverty, pp. 905. (٢)

(٣) كانت سائنة تركستان في خلال القرنين العاشر والحادى عشر ، ولكن موقعها الأصل غير واضح .

(٤) الترخشى من ١٢٤٤ - ١٢٥٠

ضربة عنيفة إلى قوة الإسلام . وكانت تقارير الرحالين الأوربيين حتى القرن الثالث عشر الميلادي توضح أنه كان ثمة طوائف من البوذيين والمناويين والمسيحيين في هذه الجهات (١) .

وكان لدخول الأتراك السلجوقيين في الإسلام أهمية عظيمة . وليس لدينا أى نص نستدل منه على تحولهم إلى الإسلام ؛ إلا أنه في سنة ٩٥٦ م هاجر سلجوق مع قبيلته من بلاد تركستان إلى بخارى حيث دان هو وأتباعه بالإسلام وأصبحوا من المتحمسين له (٢) . وهذا هو أصل الأتراك السلجوقيين المشهورين الذين أحيوا بانتصاراتهم وفتوحهم مجد الجيوش الإسلامية بعد أن خبا ، ووجدوا الممالك الإسلامية في غرب آسيا في إمبراطورية واحدة .

إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي فقدت الدولة السلجوقية كل قوتها ، اللهم إلا إذا استثنينا آسيا الصغرى . وعند ما كان محمد الغورى يوسع رقعة إمبراطوريته من خراسان شرقا حتى شمال بلاد الهند ، انتعشت حركة انتشار الإسلام بين الأفغان ، وجاس خلال ديارهم دعوة من العرب والهنود الذين تحولوا إلى الإسلام وقاموا بحركة نشر تعاليم هذا الدين في حماسة وجرأة ظاهرة (٣) . وتدل الأقاليم على أن الإسلام قد دخل بلاد الأفغان دون أن يلبأ المسلمون في سبيل ذلك إلى شيء من القوة أو العنف . فقد قيل إن العرب احتلوا في القرن الأول الهجرى بلاد الغور إلى هراة شرقا ، وأن خالد بن الوليد ذهب إلى هناك حاملا أبناء الدين الإسلامى ، ودعا أهل هذه البلاد إلى الانضمام تحت لواء النبي ، ثم عاد إليه بصحبة وفد مؤلف من ستة أو سبعة يمثلون الأفغان . ولما عاد هؤلاء إلى بلادهم أخذوا يدخلون أفراد قبائلهم في الدين (٤) . على أن هذه القصة خالية من أى أساس تاريخى . وإن ما وصل إلينا عن اعتناق بعض الأفغان الإسلام لا يعدو ذلك النص الخاص بانتحال ملك كابل في عهد الخليفة المأمون (٥) . ويظهر كذلك أن خلفاء هذا الملك ارتدوا إلى البوذية ، إذ أن يعقوب بن الليث مؤسس الدولة الصفارية لما مد فتوحه إلى كابل في سنة ٨٧١ م ، وجد حاكم هذه البلاد وثنيا . وأصبحت كابل منذ ذلك الوقت بلدا إسلاميا غالبا لأول مرة ، كما لا يبعد أن يكون الأفغان قد أصبحوا بحيث يرحبون الترحيب كله للعمل في جيش فاتح جرى . كجيش يعقوب بن الليث (٦) . على أنه لم تسكد تنتهى فتوح سبكتكين ومحمود الغزنوى ، حتى كان الإسلام قد تمسك وتوطد في كافة أرجاء بلاد الأفغان .

وسيجد القارىء في الباب التالى تفاصيل أخرى عن تاريخ انتشار الإسلام في فارس وأواسط آسيا .

Grenard, p. 76. (١)

Raverty, p. 117. (٢)

Bellew, p. 96. (٣)

(٤) المصدر نفسه ص ١٥ - ١٦

(٥) بلاندى ص ٤٠٢

August Müller, vol. ii. p. 29. (٦)

## الباب الثامن

### انتشار الإسلام بين المغول والتتار<sup>(١)</sup>

لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبياً أشد هولاً من عزوات المغول .

(١) لا بأس من أن نشير هنا إلى الفرق بين القفظين : " تر " و " مغول " ، وإلى التطورات التي داخلت كلا منهما .  
فكلمة " تر " تختلف بالمعنى العام باختلاف العصور : فقد أطلق هذا القفظ على جماعتين من قبائل التتر في قنوش الأورخون التركية Turkish Orkhon التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي ، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة .  
وفي جميع الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي كان القنوشون يسون بالتتر في كل مكان نزلوا فيه ، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم في بلاد روسيا وغرب أوروبا . ويسمى ابن الأثير أسلاف جنكيزخان باسم التتر ، وهم التتر الأول ، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سكيثيا و Scythia ، أو سكوتيا .

ولم يظهر اسم المغول في عالم الوجود حتى القرن العاشر ، ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لوا . زعيم إحدى قبائلهم ، وكان يحمل ذلك الاسم ، ثم أخذ لنفسه السيادة على بقية العشائر المتحالفة ، ومن ثم أطلق اسم البعض على الكل (Lane-Poole : Muh. Dyn. p. 200)

على أن بعض المؤرخين يرون أن لفظ " مغول " لم يكن معروفاً في خارج البلاد التي كانت تسكنها قبائل الرحالة على حدود صحراء جوبي قبل القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) ، كما يقولون باحتمال إطلاق هذا القفظ على جميع هذه القبائل ، حتى أنه نفوذ رجل منهم تسمى بهذا الاسم على جميع تلك العشائر المتحالفة . وقد انقلقت قرة من قري المغول الخيرية إلى بلاد آسيا الصغرى ، وكان أعقابهم ( الذين صاروا أراكا بلاشك ) يسمون بالتتر السود Kara Tatar ، وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك في البلاد الرغبة الواقعة بين أماسيا Amasia و فيصرية . وكان عددهم يناهز الثلاثين ألفاً أو الأربعين ألف أسرة . وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا ، فأزلمهم بإيزيد الثاني العنابي بعض الأماكن في بلاد كهنر وخوازم ، وقد عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمورلنك إلى بلاد آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد .

كذلك ترى في روسيا وشرق أوروبا اسم التتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية ما عدا العنابيين . ويرى بعض المؤرخين من المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه تفرعت معظم بطونها وأخذها . وهو مرادف للتتر عند الفرنجة ، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترا ، ومنهم العنابيون والتتركان . وقد شمل هذا الاسم ( تر ) جميع المغول وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال في الصين .

وأما كلمة " تر " بالمعنى الخاص فهي اسم لشعب معين إذ لا تطلق إلا على سكان حوض نهر الفلجا من بلاد قران Kazan إلى اسراخان ، وكذا على سكان شبه جزيرة القرم ، وجزء من سيبيريا من يتكلمون اللغة التركية . ويظهر أن الشعوب التي كانت مغولا في الأصل واللغة كانت تسمى نفسها بالتتر .

وقد استبدلت كلمة " تر " بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة " مغول " Moghul . ولا يزال لفظ مغل مستعملاً إلى اليوم في بلاد أفغانستان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون عتقطين بلغتهم حتى الآن .

وقد أدخل جنكيزخان تلك التسمية رسمياً في بلاده . على أن كلمة Mongol لم تسد قط في معظم القبايع الغربية من إمبراطورية المغول رغم دخولها رسمياً في تلك البلاد ، كما نعلم ذلك من الرحالة الأوروبيين أمثال يوحنا بيان الكاريني John of Pian El Carpini ووليم روبروك William of Rubruck وغيرهما .

فقد انساب جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من فن الجبال ، واكتسحت في طريقها المراكز الإسلامية وأنت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات غالية وأطلالا بالية ، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدايق الغناء والمروج الخضراء . وبعد أن تحول جيش المغول عن مدينة هراة ، خرج أربعون من أهلها من مخبئهم ، فرارا من الموت . وكان هؤلاء الناعسون هم البقية الباقية من سكانها الذين يربو عددهم على مائة ألف ، وقفوا مهطعين مقنعي رؤوسهم ، ليكون أطلال مدينتهم ، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ . وفي مدينة بخارى ، التي اشتهرت برجال العلم والورع ، اتخذ المغول من مساجدها المقدسة اصطبلات لحيولهم ، ومزقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم ؛ كما سبوا من نجا من الأهلين من القتل ، وجعلوا مدينتهم رمادا تدرره الرياح . وكذلك كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرهما من أمهات مدن آسيا الوسطى ، التي كانت من قبل نجر الحضارة الإسلامية ، وموطن الأولياء وكعبة العلوم ، كما كان ذلك أيضا مصير بغداد ، التي ظلت قرونا عدة حاضرة الدولة العباسية .

وإن المؤرخ المسلم ليقشعر بدنه حين يروى هذه الفظائع ، حتى إن ابن الأثير قد أخذته نفس تلك القشعريرة حين وصف لنا غارات المغول حيث يقول (٢) : ولقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم إليه ( رجلا ) وأؤخر أخرى . فن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيألبت أمي لم تلدني ، ويا ( ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ) (١) ، إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ؛ ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقت الأيام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقابلها ولا ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكر من الحوادث ما فعله بختنصر بنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس . وما للبيت المقدس بالنسبة إلى ماخرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ؛ وما بنو إسرائيل بالفسبة إلى من قتلوا ؛ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، (٢) .

ولكن لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالذ ، كما استطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه . ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانوا يحاولون إحراز قصب السبق في ذلك المضمار . وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كل دبابة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين

(٢) ذكر ابن الأثير ذلك عند كلامه على حوادث سنة ٦١٧ هـ

(١) سورة ١٩ آية ٢٣

(٢) ابن الأثير ١٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم .

وقبل أن نشرع في سرد أخبار هذا النزاع ، نرى من الحسن ، لكي تفهم ما يأتي بإيجاز ، أن تلقى نظرة على أجزاء إمبرطورية المغول بعد وفاة جنكيزخان عند ما انقسمت أقساما أربعة بين أولاده الأربعة . فقد خلفه أجتاي (†) Ugutay ، ثالث أولاده ، الذي خلف أباه خاقان ، وقد آل إليه الجزء الشرقي من الإمبرطورية ، الذي ضم إليه قويلاي فيما بعد ، كل أرجاء بلاد الصين . وملك جغتاي ثاني أولاد جنكيزخان الجزء الأوسط ، وحكم باتون بن جورجي أكبر أولاد جنكيزخان الجزء الغربي ، وتلقب بلقب خان القبيلة الذهبية The Khan of the Golden Horde ، وحكم تولوي رابع أولاد جنكيزخان بلاد فارس التي ضم إليها هولوكو ، مؤسس أسرة إيلخانات المغول في هذه البلاد ، جزءا عظيما من آسيا الصغرى .

كانت الشامانية Shamanism الديانة القديمة للمغول ، الذين كانوا ، على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر ، لا يؤدون له الصلوات ، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة ، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا ، لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم ، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم . ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي ، كانوا يلجئون إلى القسيسين ، وهم الشامان Shamans والسحرة ، أو إلى رجال الطب ، الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم . ولم يكن دينهم معدودا من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم طويلا جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والانصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل ، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدينيين . ومن ثم تأثر المغول بمدنيات تلك الشعوب ، وخرجوا عن بربرية بدواتهم الأولى ، حين وجدوا أنفسهم جنبا إلى جنب مع هذه الأجناس ذات الديانات الراقية . وقد اتفق أن كانت الشعوب التي اختلط بها المغول على أثر فتوحاتهم ، تضم بين أفرادها عددا كبيرا من البوذيين والمسيحيين والمسلمين . وقد تنافس أتباع تلك الديانات الثلاث التبشيرية الكبرى لتحويل أولئك الفاتحين إلى دينهم . ولما هدأت نائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية ، وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم ، ظهورا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى ، فأعفوا قسيسها ودعاتها من الضرائب ، كما منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية . فكانت قساوسة البوذيين يقومون بمناظرات دينية مع قساوسة المغول الشامانيين في حضرة جنكيزخان (١٢٠٦ - ١٢٢٧ م) ، كما كان البوذيون والمسيحيون وأئمة المسلمين محل العطف والرعاية في بلاد مانجوخان (١٢٤٨ - ١٢٥٧ م) وقويلاي (١٢٥٧ - ١٢٩٤ م) (١) . وفي عهد هذا الأخير بدأ المغول في بلاد الصين يذعنون للتأثرات الفعالة التي أحدثتها البوذية المنتشرة حولهم . حتى إذا

(†) أنار تيبين أجتاي (٦٢٤ - ٦٣٩ م = ١٢٢٧ - ١٢٤١ م) خليفة لأبيه جنكيزخان أتباع أخيه جغتاي ، لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضى بأن يدين أكبر الأولاد سنا .

جاء القرن الرابع عشر ، يظهر أن الديانة البوذية كانت قد تسلطت على قلوب المغول وأصبحت ذات سلطان عظيم على نفوسهم<sup>(١)</sup>. ويرجع الفضل في تحويل الناس إلى البوذية إلى رجال الدين Shamans في بلاد التبت الذين ظهروا أكثر الناس حماسة في هذا النشاط الذي يقوم على الدعوة إلى الإسلام . ولا يزال أهالي منغوليا حتى الوقت الحاضر يتمسكون بأهداب هذا الدين ، كما هي الحال عند الكلموك Kalmuks الذين هاجروا إلى روسيا في القرن السابع عشر الميلادي .

ومع أن البوذية استطاعت أخيرا أن تجعل لنفسها المكانة العليا في الجزء الشرقي من إمبراطورية المغول ، لم يكن نفوذ الكنيسة المسيحية بحال قليل الشأن أول الأمر ، فكان يجيش في نفوس رجالها آمال كبيرة وأطماع بعيدة في تحويل المغول إلى هذا الدين . ولقد حمل المبشرون النسطوريون في القرن السابع الميلادي تعاليم الدين المسيحي من الغرب إلى الشرق ، عبر آسيا حتى شمال الصين . وكانت جماعاتهم المبعثرة لا تزال تقيم في هذه البلاد في القرن الثالث عشر . ويذكر بعض المؤرخين أن القسيس يوحنا المشهور Prester John ، الذي كان يحبط باسمه كثير من أساطير القرون الوسطى ، كان رئيس القرابت Kara'its ، وهم قبيلة مسيحية تتارية كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال . ولما غزا جنكيزخان هذه القبيلة ، تزوج بإحدى بنات رئيسها إذ ذاك ، على حين تزوج ابنه أجتاي من نفس هذه الأسرة . وأما كيوك بن أجتاي فإنه ، وإن لم يعتنق الدين المسيحي ، أظهر كثيرا من العطف على ذلك الدين الذي كان يدين بعقائده رئيس وزرائه وأحد كتابه . وكان القساوسة النسطوريون محل رعايته السامية ، في الوقت الذي استقبل في بلاطه السفراء من قبل البابا إنوسنت الرابع Innocent IV<sup>(٢)</sup> . وكانت السلطانان المسيحيان في الشرق والغرب تتطلعان إلى المغول ، لمساعدتهما في حروبهما مع المسلمين . وكان هيتون Hayton ملك أرمينية المسيحي هو العامل الرئيس في إقناع مانجوخان (١٢٤٨ - ١٢٥٧ م) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولوكو<sup>(٣)</sup> (١٢٥٦ - ١٢٦٥ م) ، الذي حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ . على أن يظهر عطفًا شديدًا للمسيحيين ، وللنساطرة منهم بوجه خاص . ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا ، الدين المسيحي ، وعمدوا على أيدي مسيحي هذه البلاد<sup>(٤)</sup> . وقد ولدت الأقاصيص العجيبة التي كانت تشيد بذكر عظمة القسيس يوحنا ونخاره ، والتي ألهمت خيال أهالي أوروبا الوسطى ، الاعتقاد بأن المغول كانوا على المسيحية . وكان يزيد من قوة هذا الاعتقاد تلك الأخبار الباطلة التي وصلت إلى أوروبا عن تحول بعض أمراء المغول على اختلافهم إلى المسيحية ، وعن تحمسهم في الدعوة لهذا الدين والانتصار له . وكان من أثر ذبوع هذه الأخبار أن أرسل القديس لويس St. Louis ولیم روبرك William of Rubruck

De Guignes, tome iii. pp. 200, 203. (١)

Id. tom iii. p. 115. (٢)

Id. p. 125. Cahun, p. 391. (٣)

Klaproth, p. 204. (٤)

سفيرا من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر الدين المسيحي ؛ على أنه سرعان ما تبين أن هذه الأخبار لم تستند إلى أى أساس من الصحة ، على الرغم من أن وليم روبرك قد وجد أن المسيحية كانت محل التسامح في بلاط مايجوخان ، وأن اعتناق عدد قليل من المغول هذا الدين ، قد جعل القيسيين المسيحيين يعتقدون الآمال على مواصلة نشر هذا الدين . ولكن ظهور الاختلافات الدينية بين المسيحيين من اللاتينيين والإغريق والنسطوريين والأرمن ، وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته ، قد جعل الأمل ضئيلا في إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح . ومن المحتمل أن هذه الحاجة الملحة إلى قيام الاتحاد بين المبشرين بالمسيحية هي التي جعلت نجاح جهودهم بين المغول أمرا يسيرا جدا ، حتى إنه بينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها ، كان كل من البوذية والإسلام يوطد قدمه في بلاد المغول . وقد دفعت أوهايم بابا رومة ودعاويه العريضة أولئك الفاتحين لنصف العالم ، والشديدي الأنفة والكبرياء ، أن يعدلوا عما كانوا يحبسون به رسله من ذلك العطف الذى مالوا إلى إظهاره لهم أول الأمر ، كما ساعد غير ذلك من الأسباب على إخفاق حركة التبشير التي قامت بها الإرساليات الرومانية (١) .

وأما النسطوريون الذين كانوا قد ظهروا في ذلك المضمار أولا ، فيظهر أنهم بلغوا درجة من الانحطاط والجمود أعجزتهم عن الاستفادة من هذه الحال . ويقول وليم روبرك (٢) عن النسطوريين في بلاد الصين ، إنهم كانوا شديدي الجهول ، وإنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم التي كانت مدونة بالسرمانية . كما يرسم هذا الكاتب بشرب الخمر والفسق والجشع ، ثم يوازن بين حياتهم وحياة القيسيين من البوذيين موازنة ليست في مصلحتهم البتة . أما أسقفهم فكان لا يزورهم إلا لماما ، حتى لقد حدث أنه لم يزورهم إلا مرة واحدة في مدى خمسين سنة ؛ وكان في هذه المناسبات يقوم برشم جميع الأطفال من الذكور حتى الأطفال الذين كانوا لا يزالون في المهد . ويقول وليم روبرك أيضا إن القيسيين كانوا يتجرون بالمناصب الدينية ، ولا يزالون يجمع الثروات من وراء تعاليم طقوس الكنيسة ، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين (٣) . وفي الأجزاء الغربية من إمبراطورية المغول ، حيث تطلع المسيحيون إلى هذه القوة الناشئة لتساعدهم في الحروب التي شنوها على المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضى المقدسة ، كان الحلف الذى أبرم بين المسيحيين وإيلخانات المغول في فارس قصيرا الأمد ، إذ أن هذه الانتصارات التي أحرزها الظاهر يبرس سلطان

(١) D'Ohsson, tome ii. pp. 226—7. Cahun, p. 408, sq.

(٢) يقول بول Yule عن هذا الكاتب : وقد أمدنا بعبارة تفدح في آداب رجال كنيسهم وأخلاقهم . وهو أحق بالتقدير من أمثال تلك الأحكام التي ينظر إليها كما ينظر إليها المنتقون عادة ، إذ أن عبارة Rubruquis نجعلنا نبيل إلى الفن بأن الذي كتبها كان رجلا قد استكمل ضروب الأمانة والذكاء .

Cathay and the Way Thither, vol. i. p. xcvi.

William of Rubruck, pp. 158-9. (٣)

المالِك في مصر (١٢٦٠—١٢٧٧م) ، ومخالفته مع بركة خان (١٢٥٦—١٢٦٦م) قد دفع إبلخانات فارس إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة . وقد أساء إلى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم في الدين في دمشق وفي غيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي أقامها بين ظهرانيهم مغول فارس الذين أولوهم عطفهم ورعايتهم<sup>(١)</sup> .

وطالما ارتكب أتباع هاتين الديانتين كثيرا من ضروب الوحشية في أثناء ذلك النضال الذي قام بين المغول والمسلمين في بلاد الشام . ولنضرب للقارىء مثلا مما حدث في منتصف القرن الثالث عشر ، كما رواه الجوزجاني الذي يزعم أنه سمع هذه الحكاية حين كان في دلهي . على لسان رجل يدعى السيد أشرف الدين ، وكان قد قدم هذه المدينة من سمرقند : « ومن ثم حكى السيد الأجل أن أحد المسيحيين في سمرقند دخل في ساحة الإسلام ، لحاطه أهل الورع من المسلمين في هذه المدينة بالرعاية ، وأحلوه من أنفسهم محل الاحترام والإجلال ، ووالوا عليه الخيرات . وإذا بأحد رجالات المغول من الكنغار ببلاد الصين يصل إلى سمرقند ، وكان كبير النفوذ عظيم الجاه ، كما كان ذلك اللعين يميل إلى المسيحية ؛ فجاء المسيحيون في هذه المدينة إلى ذلك المغولي ، وبثوه شكواهم قائلين : « إن المسلمين يحرضون أولادنا على التحول عن المسيحية ، ويحولون بينهم وبين المسيح عليه السلام ، ويدفعونهم إلى اعتناق دين المصطفى عليه السلام . وإذا لم يسد هذا الباب في وجه المسلمين تحول أبنائنا جميعا عن المسيحية . فدبر بما لك من قوة وسلطان حلا لقضيتنا . فأمر المغولي بإحضار الشاب الذي تحول إلى الإسلام ، وحاولوا إغرامه بالعدول عن دينه الجديد بالرفق والمال والثراء ، ولكنه أبى أن يرتد عن دينه ، وأن ينزع عن قلبه وروحه هذا الثوب الجديد ، وهو عقيدة الإسلام . ومن ثم ضاق الحاكم المغولي بهذا الشاب ، وأخذ يتحدث عن العقاب الصارم ؛ فسلط كل مافي استطاعته من ألوان العقاب أو ما دبره من صنوف القسوة على هذا الشاب الذي لم يرتد عن دينه بسبب حماسه البالغة لدين الإسلام . ولم تستطع ضربة ذلك الكافر العنيد أن تجعل جرعة الدين اللذيذة تفلت من يده . ولما ظل الشاب ثابتا على الدين الحق ، ولم يكثرث للوعد والوعيد اللذين لقيهما من هذه الجماعة المفسدة ، أمر المغولي اللعين بإزالة العقاب بهذا الشاب أمام الملأ ؛ وقد فارق هذا العالم وهو في سعادة الدين . أجزل الله له المثوبة والأجر . وكان من أثر ذلك أن حل اليأس والحزف بجماعة المسلمين في سمرقند ، ورفعت ظلامه مدعمة بشهادة الزعماء وثقات المسلمين الذين كانوا يقيمون بسمرقند ، وتقدمنا بهذه الظلامه إلى معسكر بركة خان ، وقدمنا بين يديه وصفا لسيرة المسيحيين وأخلاقهم في تلك المدينة . وقد تجملت هذه الحماسة للدين الإسلامي في ذهن ذلك الحاكم على أنه دين مثالي ، وأصبح الدفاع عن الحق ذا سلطان عظيم على مبوله . وبعد أيام تلتى بركة خان هذا السيد بمظاهر التكريم ، واختار طائفة من الأتراك والأشخاص الذين يوثق بهم من زعماء المسلمين ،

(١) ملك القبة الذهبية .

وأمرهم بأن يذبحوا جماعة المسيحيين الذين كانوا قد ارتكبوا ذلك الظلم الشنيع ، وأن يعيشوا بهم إلى الجحيم . ولما صدر هذا الأمر إليهم ، احتفظوا به ، حتى إذا اجتمعت تلك الطائفة البائسة في الكنيسة ، قبضوا عليهم جميعا ، وقتلواهم عن آخرهم ، وبعثوا بهم إلى جهنم ، وأحالوا الكنيسة أطلالا بالية مرة أخرى<sup>(١)</sup> . ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام في مستهل الحكم المغولي غيره من الديانات القوية كالبودية والمسيحية كانت عملا بعيد المنال ؛ إذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول ؛ وإن معظم هذه المدن التي كانت حتى ذلك الحين يجمع الساطة الدينية وكعبة العلم في الإسلام في القارة الآسيوية ، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة ، حتى إن الفقهاء وأئمة الدين الاتقياء كان نصيبهم القتل أو الأسر<sup>(٢)</sup> . ومن بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة جماعة كانت تظهر الكراهية للدين الإسلامي على درجات متفاوتة . فقد أمر جنكيزخان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الإسلام ، ثم سار على نهجه قوبلاي ، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين ، حتى إن كثيرا من المعدمين وجدوا في سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم<sup>(٣)</sup> . وقد عانى المسلمون أقصى ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦-١٢٤٨ م) الذي ألحق بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين ، والذي امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين<sup>(٤)</sup> .

وقد أورد الجوزجاني ، وهو مؤرخ معاصر ، العبارة التالية ، وهي تبين نوع المعاملة التي تعرض لها أحد فقهاء المسلمين في بلاط كيوك : « فقد روى بعض الثقات أن كهنة البوذية كثيرا ما كانوا يوغرون صدر ذلك الأمير على المؤمنين ويحملونه على اضطهادهم . وكان في هذه البلاد أحد أئمة المسلمين ، وهو نور الدين الخوارزمي . . . وقد اتهم من كيوك بعض العلانيين وقساوسة المسيحيين وفريق من كهنة البوذية من عبدة الأوثان ، أن يستدعى ذلك الإمام ليناظروه ويحاجوه ، طالبين منه إقامة الحججة على تفوق الدين الإسلامي وإثبات رسالة محمد — وإلا كان مصيره القتل إذا أعبته الحججة . وقد أجابهم الخان إلى طلبهم وبعث في طلب الإمام . وطرحته على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد النبوة وسلوكه في حياته ، مع موازنته بسلوك غيره من الأنبياء . ثم لما كانت أدلة هؤلاء الملاعين ضعيفة ، خالية من قوة الحق ، نفضوا أيديهم من

(١) الجوزجاني ص ٤٤٨ — ٤٥٠ ، pp. 1288-90. Raverty

(٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء أن راضى الجبور من أهالي الصين كانوا إذا مرضوا أشباحا ، أظهروا البشر والجبور في صلب وإعجاب بمرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء ، يجره حصان قد ربط ذيله برنبة هذا الرجل . وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين (Howorth, vol. i. p. 159)

(٣) Raverty, p. 1146, Howorth, vol. i. pp. 112, 273.

ولم يبلغ هذا القانون إلا بعد أن امتنع التجار المسلمون من زيارة البلاط وتأثرت التجارة من ذلك القانون .

(٤) Howorth, vol. i. p. 165.

تلك المساجلة بالبراهين والحجج ورسوموا خطة من خطط الظلم والسخط على صفحات ذلك التدبير الذي عقدوا العزم على تنفيذه ، فسألوا كيوك خان أن يأمر هذا الإمام بأن يسجد بمجديتين وفق قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليمها ، حتى تثبتين أمامهم وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة . فأمر كيوك ذلك الإمام والمسلم الآخر الذي كان معه بأداء الصلاة حسب الأوامر الدينية المعروفة عند المسلمين . ولما خر الإمام الورع والمسلم الذي كان معه على الأرض ساجدين ، قام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك ، وأسرفوا في إيذائهم ، وأخذوا يضربون رءوسهم في الأرض في شدة وعنف ، واقترفوا معهم بعض الأعمال المخزية . على أن ذلك الإمام الورع لم يأبه لكل هذا العنت والمضايقة ، وأدى الصلاة وآدابها من غير أن يقطعها . ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم ، شخص بصره إلى السماء وقال ( أدعوا ربكم تضرعا وخفية ) (١) . ثم طلب إلى كيوك أن يأذن له بالانصراف ؛ وعاد إلى بيته (٢) .

وقد اضطلع أرغون ( ١٢٨٤ - ١٢٩١ م ) رابع إيلخانات المغول في فارس ، المسلمين في بلاده ، وصرهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية ؛ كما حرم عليهم الظهور في بلاطه (٣) . على أنه على الرغم من جميع المصاعب ، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة (٤) آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الحسف وجعلوها في مواطئ أقدامهم . وسوء الحظ ألا يلقى التاريخ إلا ضوءا يسيرا على تقدم حركة الدعوة الإسلامية هذه ، ولم يبق لدينا إلا قليل من البيانات الضافية عن إسلام بعض أشخاص كانوا أعظم شأننا . ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين في طي الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام . ففي عهد اجتاي ( ١٢٢٩ - ١٢٤١ م ) نقرأ عن إسلام بوذي يدعى Kurguz وكان حاكما على بلاد الفرس من قبل المغول (٥) . وفي عهد تيمور خان ( ١٢٢٣ - ١٢٢٨ م ) كان آندا Ananda حفيد قويلاي ( ١٢٥٧ - ١٢٩٤ م ) وأمير كان سو مسلما متحمسا . كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلى اعتناق هذا الدين . وعلى الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية ، أبقى إلا التمسك بدينه الجديد ، فألقى به في غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلق به (٦) .

ويقرر مؤلف كتاب « منتخب التواريخ » ، أن آندا بنى في خان بالغ ( وهي بكين الحالية ) أربعة

(١) سورة الأعراف آية ٥٥

(٢) الجورجان ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ؛ Raverty, pp. 1160. sqq.

(٣) De Guignes, vol. iii. p. 265.

(٤) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا (Cahun, p. 279.)

(٥) c. d'Ohsson, vol. iii. p. 121.

(٦) رشيد الدين ص ٦٠٠ - ٦٠٢

مساجد تسع مليون شخص في صلاة الجمعة ؛ على أنه ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية أو غيرها من الروايات التي رواها هذا الكاتب عن انتشار الإسلام في بلاد الصين ، من حيث أنه يمثل آندا خلفا لتيمرر خان على عرش إمبراطورية المغول ، ثم يمدنا بعبارة خرافية صرفة عن خلفائه الذين يشير الى أن عددا منهم أعلن إسلامه ، مع أنه ليس لأحد من هؤلاء الخمسة وجود إلا في مخيلة الكاتب (١) .

وكان بركة خان (١٢٥٦-١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول ؛ وكان رئيسا للقبيلة الذهبية في روسيا بين سنتي ١٢٥٦ و١٢٦٧م (٢) . وقد قيل في سبب إسلامه إنه تلاقى يوما مع عير للتجارة آتية من بخارى . ولما خلا بتاجرين منهم سألها عن عقائد الإسلام ، فشرحاها له شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له . وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام ، وحبب إليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين (٣) . على أن الجوزجاني قد ذكر أن بركة خان اعتنق الإسلام منذ طفولته . ولما شب وبلغ سن التعليم ، حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (٤) Khodjand . ويذكر نفس المؤلف (الذي جمع تاريخه في حياة بركة خان) أن كل جيشه كان مسلما ، كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة بأن يحدل كل فارس في جيشه سجادة للصلاة ، حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم . كما لم يكن في جيشه شخص واحد يتعاطى أى مسكر . وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين ؛ كما كان معظم مجالسه ومناظراته مع العلماء . وكانت المناظرات الدينية منها تشغل أكثر مجالسه ، وكان هو سنيا مغاليا شديدا التمسك بدينه (٥) . وقد دخل بركة خان في حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) ، سلطان المماليك في مصر ، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ؛ فقد احتقن بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين . ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحکم بين ملكهم وبين هولاء فاتهم بغداد وهم الذين كانوا ينضون تحت لوائه ، فروا إلى سورية ، حيث يقيمون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس ، الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه (٦) . وكان بيبرس نفسه في حرب مع هولاء ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية

(١) Blochet, pp. 74-7.

(٢) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختارا الزاهدی وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠م رسالة تزيد بالبراهين رسالة النبي النبوية وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة ، وتمدنا بوصف المناظرات التي قامت بين المسيحيين والمسلمين .

(Steinschneider, pp. 63-4.)

(٣) أبو الفارسي ج ٢ ص ١٨١

(٤) الجوزجاني ص ٤٤٧ . Raverty, pp. 1283-4.

(٥) الجوزجاني ص ٤٤٧ . Raverty, pp. 1285-6.

(٦) المقرئ (٢) ؛ ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ ، ١٨٧

منذ أمد قريب . وقد أرسل يبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا إلى بركة خان . وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر ، أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماما ومؤذنا خاصا ، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس<sup>(١)</sup> . وكان من أثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين يبرس وبركة خان ، أن كثرت الوفود من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديننا لهم<sup>(٢)</sup> .

كان الإسلام أقل انتشارا في بلاد الفرس ، حيث أسس هولاء أسرة إيلخانات المغول . ولكي يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر ، تحالف هولاء مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين ، وكانت زوجته المحببة إليه مسيحية ، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها في الدين ، كما تزوج ابنه أباخان (١٢٦٥ - ١٢٨١ م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية . ومع أن أباخان نفسه لم يتخذ المسيحية ديناً له ، امتلا بلاطه بالقسيسين من المسيحيين ، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوروبا ؛ فكان يرسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية . وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين ، كما أرسل لهذا الغرض أيضا بعثا من ستة عشر سفيرا من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤ م ، حيث دخل رئيس أولئك السفراء في المسيحية وعمد مع بعض رفاقه . وقد طمع المسيحيون ، فعاقوا الآمال على اعتناق أباخان المسيحية ؛ ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلا سرايا خادعا ، وكان أخوه تكودار أحمد<sup>(٣)</sup> (١٢٨٢ - ١٢٨٤ م) ، الذي اعتلى العرش من بعده ، أول إيلخانات المغول الذين اعتقدوا الإسلام في فارس . وقد شب على المسيحية ، لأنه ( كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه<sup>(٤)</sup> ) ، « تعمد في صباه وتسمى باسم نيقولا ، ولكنه دان بالإسلام عند ما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفا بهم ، وأصبح مسلما ديننا . ولما ارتد عن المسيحية ، رغب في أن يسمى محمدا خان ، وبذل قصاره في تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده . ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم ، لم يجرؤ على حلهم على اعتناق الإسلام ، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف ؛ حتى إن عددا كبيرا من التتار دخل في عهده في عقيدة المسلمين ، . وقد بعث تكودار أحمد نبيا إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في ذلك الكتاب : « إلى سلطان مصر . أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحدائث ، إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبربته ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام )<sup>(٥)</sup> . فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة

(١) المقريزي (٢) : ١٣ ص ٢١٥

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢

(٣) أو نيكودار على ما يسميه مصنف الحضرة ، وقد سمى أحمد بعد اعتناقه الإسلام .

(٤) Hayton. (Ramusio, tom. ii. p. 60, c.)

(٥) سورة ٦ آية ١٢٥

الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أيينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ، فأضنى علينا من جلاليب الطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها إلينا . فاجتمع عندنا في قوريليان ( Quriltay على الأصح ) المبارك — وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء — جميع الاخوان والأولاد والأمراء الكبراء ، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد ؛ وانفتحت كتبهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، فى إنفاذ الجرم العفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها من كثرتها ، وامتلات الأرض رعبا من عظيم صوتها وشديد بطشها ، إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم الأطواد ، وعزيمة تلين لها الصم الصلاد . ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهام ، وتجرى به فى الأقطار ، رخاء نسائم الأمن والامان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فألهنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن النائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا الله إليه : من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء ، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء . وإننا لانحب المسارعة إلى هز النصال للفضال ، إلا بعد إيضاح المحجة ، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحججة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح . إذ كان الشيخ قدوة العارفين ( كمال الدين عبد الرحمن ) ، الذى هو نعم العمون لنا فى أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن ( لبي ) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه وأنفذنا أقصى القضاء قطب ( الملة و ) الدين . والاتابك بهاء الدين . اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ، ليعرفهم طريقتنا ، ويتحقق عندهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ؛ ويئسنا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الإسلام يحب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى فى قلوبنا أن تتبع الحق وأهله . . . فإن تطلعت نفوس إلى دليل تستحكم بسببه دواعى الاعتماد ، وحجة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره ، وعم أثره . فإننا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره ، فى إيراد كل أمر وإصداره ، تقديمنا لنا موس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الاحمدى ، لإجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ، وقلنا : عفا الله عما سلف ؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أرقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ؛ وإبصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقها بشروط واقفيها . . . وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدنا ، وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها ؛ وإننا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم . وهو يلتمس محالفة سلطان مصر ، وبحيث تعمر تلك الممالك وتيك البلاد ، وتسكن الفتنة النائرة ، وتعهد السيوف الباترة ، وتحل العامة أرض

الهُويّ، وتُخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون، (١) (٢)

وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عند ما يتحول لجأة من قراءة ما اقترفوه من الفضائع وما سفكوه من الدماء، الى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير، التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى سلطان الماليك في مصر، والتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده المسيحيين، المغول الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم لهم في الدين، وشكوه الى قوبيلاي خان، متهمين إياه بأنه عالف بذلك سنن أجداده. وقد قامت في وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبر قتله، ثم خلفه على العرش. وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م) القصير، استرد المسيحيون مكاتهم من جديد، على حين لم يكن بد من أن يلتقي المسلمون الاضطهاد، فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، وحرّم عليهم الظهور في بلاطه (٣).

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على ونيّتهم، حتى دخل غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤ م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأنًا، في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥ م، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس. وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الآخرين الذين سبقوا غازان (٤)، أمل المسيحيون آمالًا كبارًا في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس إلى الدين الإسلامي، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفًا شديدًا، وأسندت اليهم كثيرًا من مناصب الدولة الهامة. وكان يدو خان، سلف غازان، الذي كان رأس الفتنة في فارس، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥ م بضعة أشهر فقط، قد آثر الدين المسيحي، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين المغول، وحرّم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين أو أن ينشر عقائده بينهم (٥).

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيد عدة معابد للبوذية في خراسان. وكان يسر كثيرًا بمصاحبة الكهنة الذين يتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم في هذه البلاد (٦). ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره في المسائل الدينية، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه، واعتاد أن يقيم مناظرات مع أئمة كل من هذه

(١) وصف الحضرة ص ٢٣١ - ٢٣٤

(٢) وقد ورد هذا الكتاب أيضًا في القلنشتدي: صبح الأعشى ٣ ص ٦٥ - ٦٨، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦١١ هـ (أغسطس سنة ١٢٨٢ م)، وقد بحث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازي وأتابك بهلوان. وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٢ م)، وقد ورد هذا الكتاب في القلنشتدي (٧ ص ٢٣٧ - ٢٤٢).

(٣) De Guignes, vol. iii. pp. 263-5.

(٤) هؤلاء هم أرغون (١٢٨٤ - ١٢٩١ م)، وجيخانو (١٢٩١ - ١٢٩٥ م)، وبيشو (أبريل - أكتوبر سنة ١٢٩٥ م)

(٥) C. d'Ohsson, tome iv. pp. 141-2.

(٦) Id. ib. p. 148.

الأديان<sup>(١)</sup>. وقد أيد رشيد الدين، وزيره العالم ومؤرخ عصره، بالبرهان صحة اعتقاده الإسلام، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيره طوال عهده؛ ولو أن معاصريه (وكثيرا ما ردد الكتاب الذين جاؤوا فيما بعد هذه التهمة) أظهروا أنه إنما أذعن لإلحاح بعض الأمراء والمشايخ وتوسلاتهم<sup>(٢)</sup>. وفضلا عن ذلك، يسأل من يتصدى للدفاع عن عقيدة غازان الدينية: أي شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام حاكم في مثل هذه القوة والنفوذ فيلزمه تبديل دينه؟ بل قل اهتمام أمير قلم أسلافه الوثنيون بغزو العالم؟، على أن اعتقاد غازان الإسلام قد جذب إليه، بلا مرأ، قلوب الفرس عند ما كان في نزاع مع يبدو على اعتلاء العرش. وقد عدل المغول من المسلمين الذين كانوا في جيش منافسه عن تأييد دعوى أخيم في الدين. وكانت هذه هي الاعتبارات الحق التي تدرع بها نوروز في حث غازان على قبول دعوته إلى الإسلام. وكان نوروز أميرا مسلما، مالا غازان، وناداه بلقب الأمير، وتنبأ بأنه سيظهر حول ذلك الوقت لحماية عقيدة الإسلام وإعادتها إلى سابق مجدها؛ كما أعلن أنه إذا اعتنق الإسلام، أصبح حاكم بلاد الفرس، وأن المسلمين إذا تخلصوا من نير المغول الوثنيين المؤلم، انتحلوا دعوته واعترفوا بأنه الدين الحق الذي يخلصهم من هلاك محقق، وباركوا آلائه الحرية ودعوا له بالنصر<sup>(٣)</sup>. وبعد قليل تردد جهر غازان بإسلامه، واقتنى أثره جنده وقواده: ووزع المنح على أفرادها وأهل العلم وزار المساجد ومقابر الصالحين، وظهر في كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالي. وقد شب أخوه أولجايتو Uljāytū الذي خلفه في سنة ١٣٠٤ م باسم محمد خدا بنده<sup>(٤)</sup> Khudābandah على المسيحية دين أمه، وعُمد باسم يقول. على أنه لم يلبث أن اعتقد الإسلام بعد موت أمه، وهو لا يزال شابا في مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته<sup>(٥)</sup>.

(١) Id. ib. p. 365.

(٢) Cahun, p. 434. Id. ib, pp. 148, 354.

(٣) C. d'Ohsson, tome iv. pp. 128, 132.

(٤) ذكر ابن بطوطة (ج ١ ص ١١٣) أن اسمه يختلف فيه. وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله، وبنده، ومعناها غلام أو عبد. وقيل خربنده (بفتح الخاء) ومعناها بالفارسية الحمار، وبنده ومعناها غلام أو عبد، فيكون عبد الله، أو غلام الحمار. وقد قيل إن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير أن قنار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته. فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة، والزاملة ما يجعل عليه من الحيوان. ولله يربد هنا الحمار) فسمى خربنده. وذكر براون أن غازان لما تول فر أولجايتو وطال مشردا يرعى الخير في إقليم كرمان وهرمز؛ ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعي الخمر. وقيل أيضا إن أبى العقل كانا يطلقان عليه اسما فيجها حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد، ولذلك سمى خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد في كبره صخرا أو كلبا على عدوه. وقال ابن الوردي (تاريخ بن الوردي ص ٢٦٤) إن خربنده اسمه خدا بنده، وأن ملكة شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وأذربيجان وديار بكر.

(٥) Hammer-Purgstall: Geschichte der Ilchanen, vol. ii, p. 182.

لا يبعد أن تكون سبابا المسلمين قد فن بدور عام في تحويل المغول إلى الإسلام. ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول. ويمكن أن تأتي بأثلة كثيرة تزيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشؤون السياسية. وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية. ويحدثنا ولهم دورك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات. وكيف وقت ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية: وفي عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عند ما أخذنا في شرح

ويذكر ابن بطوطة (١) أن سيرة ذلك الأمير كان لها أثر كبير في نفوس المغول . ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس .

وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره في إمبراطورية المغول الوسطى ، التي كانت من نصيب جنغى ، لا يزال ضئيلا . وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أى ميل إلى الإسلام . وقد ضيق جنغى على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التي ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء . ويذكر الجوزجاني أن جنغى هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة . وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والخط من شأنها (٢) . وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قرا هولاقو Qarà-Hülägu حفيد جنغى وخليفته ، ابنا على الإسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤ م مطالبا بعرش خاقانية جنغى ، الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول . ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buràq Khàn . ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أى أثر بين المغول ؛ فإنا لو رجعنا في الواقع إلى أسماء أبنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل في دين أبيه (٣) . وقد قيل إن براق خان نفسه وقد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة ، قبل موته في سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وإنه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٤) . إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامى ، وأن من دخل في الإسلام في عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى . ولم يتم انتشار الإسلام بين المغول في مملكة جنغى إلا في القرن التالى لإسلام مبارك خان ، وذلك على أثر إسلام طرماشيرين Tarmashirin حول سنة ١٣٢٦ م . وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد . وعلى الرغم من ذلك ، لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد في نفوس المغول ، فإن بوزن Buzan الذى كان خان المغول في عشر السنين التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث أن طرد طرماشيرين من العرش واضطهد المسلمين (٥) . على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم إلا بعد سنين قليلة . وكان ضعف أسرة

== تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا . فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التمسك بدينهم وقيامهم بالحساب ومحرم الحظايا عن طريق التعميد ، رغبت في أن يعهد . ولكن ، بينا كنا نعد العدة لتعميده ، امتلأ صهوة جواده على حين غفلة ، قائلا إنه لا بد من أن يذهب إل داره لاستشارة زوجته . وفي اليوم التالى قال لنا في أثناء حديثه معنا إنه لم يستطع أن يهرق على أن يعهد ، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس . (Rubruck pp. 90-1.)

(١) ابن بطوطة ج ٢ ص ٥٧

(٢) الجوزجاني ص ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ١١٤٥-٦ ، ١١١٠ Raverty,

(٣) رشيد الدين ص ١٧٣-٤-١٨٨

(٤) أبو القاسم ج ٢ ص ١٥٩

(٥) رحلة ابن بطوطة ج ٣ ص ٤٧

جغتاي قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد . ويقول بعض المؤرخين إن إسلام تغلق  
تيمور خان Tuqluq Timür Khàn ( ١٣٤٧ - ١٣٦٣ م ) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل  
الورع والتقوى في مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين . وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا  
على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد ؛ فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يملوا بين يديه . ثم  
سألهم في غضب : كيف جرموا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم  
يجوسون أرضا محرمة . ولما علم الأمير أنهم من الفرس قال : إن الكلب أغلى ثمننا من أي فارسي ، فأجاب  
الشيخ : نعم ! قد نكون أغلى ثمننا من الكلب لو أننا لم نذن بالدين الحق . ولما راع الأمير ذلك الجواب  
أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد . ولما خلا به سألته ماذا يعني بهذه الكلمات ،  
وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماس انفطر لها قلب الأمير حتى كاد يذوب  
كما يذوب الشمع ، وصوّر له الكفر بصورة مروعة اقنع معها الأمير بضلال معتقداته وفسادها وقال :  
ولكنني إذا اعتنقت الإسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدى رعاياي إلى الصراط المستقيم .  
فلتمهني قليلا ؛ فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادي ، فعد لي ، ؛ وذلك أن إمبراطورية جغتاي انقسمت  
في ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة ، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور Tuqluq Timur  
في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه ، وجمع كلمتها كما كانت من قبل ، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال  
الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضا شديدا ؛ فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : سيصبح  
تغلق تيمور يوما ما ملكا عظيما ، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرته مني السلام . ولا تخش أن تذكره بوعده  
الذي قطعته لي . ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش  
إمبراطورية آباة ، تنفيذًا لوصية أبيه ؛ ولكنه لم يستطع أن يظفر بالثول بين يدي الخان برغم ما بذله من  
جهود . وأخيرا لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة : ففي ذات يوم أخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط  
الخان ، فألقى ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه ، فأمر باحضاره ومثوله بين يديه . وهناك أدى رشيد الدين  
رسالة أبيه . ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال : حقا ! ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آباي ،  
ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة . ثم أقر  
بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين ؛ وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر . . .  
ولكن ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا  
بعد واحد ، ويعرض عليهم الإسلام ، فمن قبله جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون  
وعباد الأصنام . وكان أول من عرض عليه منهم ، الأمير تولاك Tūlik ؛ فقال له الخان : ألا تدخل في  
الإسلام ؟ عند ذلك سألت عبرات الأمير وقال : قد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد  
رجال هذا الدين في كاشغر ، وأصبحت مسلما منذ ذلك الحين ؛ ولكنني لم أصرح بذلك خوفا منك .  
فهنس تغلق خان وعانقه ؛ ثم جلس ثلاثتهم . وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء ، فقبلوه جميعا ،

إلا واحدا منهم اسمه جراس Jaras ؛ فقد أنى أن يدخل في هذا الدين ، واقترح عقد امتحان في القوة الجسمانية بين الشيخ وخادمه وكان ضخم الجثة ؛ وقد بلغ من شدة قوته أنه كان يستطيع أن يرفع يديه جملا ثنيا ( ابن حولين ) ؛ فقبل الشيخ المبارزة وقال لذلك الأمير : « إذا لم أصرعه فلن أطلب اليك أن تدخل في الإسلام ؛ وإذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشرف ببركة هذا الدين ، فإنه سوف يهب لي ، بلا ريب ، قوة أستطيع بها أن أظهر على هذا الرجل . » وقد حاول تغلق وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام جهدهم في أن يصرفوا ذلك الشيخ الورع عن تلك المبارزة ، ولكنه أصر على ذلك . « واحشش الناس وأنى بذلك الكافر ووقف كل منهما أمام الآخر ، فتقدم الخادم في غير اكترات اعتزازا بقوته وبدا الشيخ صغيرا ضعيفا جدا بجانب ذلك الرجل . ولم يكذب ييدا الصراع بينهما حتى وكز الشيخ الكافر وكرة قوية في صدره فسقط مغشيا عليه . وبعد قليل عاود الخادم المصارعة ، ولكنه لم يكذب ينهض حتى سقط على أقدام الشيخ وصاح بكلمة الإيمان . فأكبر الناس ذلك الانتصار وعلت أصوات الاستحسان من كل مكان . وفي ذلك اليوم قص ١٦٠٠٠ رجل شعورهم ودخلوا في الإسلام . وأخذت الدهشة من الخان كل مأخذ ، وبدد نور الإسلام غياهب الكفر ، وأصبح الدين الإسلامي منذ ذلك الوقت دين سكان الحضرة في الولايات الخاضعة لسultan خلفاء جنطاي<sup>(١)</sup> . ولكن يظهر أن كثيرين من بدو المغول بقوا بعيدين عن حظيرة الاسلام حتى مستهل القرن الخامس عشر الميلادي ، كما يتضح ذلك من الوسائل العنيفة التي كان يسلكها محمد خان ، أمير مغالستان<sup>(٢)</sup> حول سنة ١٤١٦ م ، لتحويل هؤلاء البدو إلى ذلك الدين . وكان محمد خان أميرا ثريا حسن الإسلام ، نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس . ولم يفتر عن بذل هذه الجهود حتى أصبح معظم القبائل المغولية في عهده المبارك تدين بالاسلام . وقد عرف الناس هذه الوسائل الشديدة الحرج التي تدرع بها لخل المغول على الدخول في الإسلام . مثال ذلك أنه كان إذا لم يلبس أحد المغول عمامة أنفذ في رأسه مسارا من المسامير التي تستعمل في تركيب حدوة الحصان . وذاع استعمال هذا النوع من الوسائل الشديدة الحرج ، جزاء الله خيرا !<sup>(٣)</sup> .

بل إن أمثال هذه الوسائل الصارمة لم يكن لها تأثير في حمل الناس كافة على قبول الإسلام ؛ فقد ظهر في زمن متأخر يرجع إلى نهاية القرن التالي (السادس عشر الميلادي)<sup>(٤)</sup> أحد الدراويش ، واسمه إسحاق ولي ، ووجد بجبالا لتحويل كثيرين إلى الدين الاسلامي في كاشغر وباركند والخطا ، حيث قضى اثنتي عشرة سنة ينشر هذا

(١) أبو الغازي - ٢ ص ١٦٠ - ١٦٨ . محمد حيدر ص ١٣ - ١٥

(٢) لما انحلت قرة غانات جنطاي ، غدا جز. من القسم الشرق من ملكتهم مستغلا استغلا عمليا تحت اسم مغالستان ، وهي ملكة زراعية تلائم عادات رعاة البقر ، وتسمى الآن تركستان الصينية .

(٣) محمد حيدر ص ٥٧ - ٥٨

(٤) كان ذلك في عهد عبد الكريم الذي كان خان كاشغر من سنة ٩٨٣ إلى سنة ١٠٠٣ هـ ( ١٥٧٥ - ١٥٩٤ م ) .

الدين بينهم<sup>(١)</sup>، كما عني أيضا بذكر الاسلام بين أمم الكرغيز والغازاق ، حتى أسلم منهم على يده مائة وثمانون ، وهدم ثمانية عشر هيكلًا من هياكل الوثنيين<sup>(٢)</sup> .

وقد حاولنا ، فيما ذكرناه من قبل أن نبين بعض الخطا التي خطاها المسلمون ليجذبوا إلى دينهم القبائل المتوحشة التي قضت على مراكز ثقافتهم . وبذلك بدأ الاسلام يتخلص تدريجيا من أطلال مجده السالف ، ويتخذ مكانه من جديد باعتباره دينًا ذا سيادة ، بعد أن منى بالتهور والانحطاط أكثر من قرن . وفي أثناء الكفاح الذي احتدم بين أتباع الديانات المتنافسة لجذب المغول إلى دياناتهم ، كان لاعتبارات المنافع السياسية ، بلا ريب ، دخل كبير في توجيه هذا الكفاح لمصلحة جماعة المسلمين . وقد أثارَت مؤامرات العالم المسيحي في الغرب شك المسيحيين الذين نظروا إليهم على أنهم جواسيس يعملون لمصلحة قوة أجنبية . بيد أن بعض المغول الذين كانوا يدينون بعقائد المذهب النسطوري ، استطاعوا بادىء الأمر أن يتقدموا بدعوى أحسن من الدعوى التي تنزع بها غيرهم ، وهي أنهم قوم وطنيون ، واستطاعوا بذلك أن يحملوا على المسلمين لأنهم أتباع دين أجنبي عنهم . فقد اتهم أرغون أحمد تكودار بخيانة شريعة آبائه بأن سلك سبيل العرب الذين لم يعرفهم أحد من أسلافه<sup>(٣)</sup> . وإن الثورة التي أدت إلى طرد طرماشيرين ونفيه استمدت قوتها من الشكوى بأن هذا الملك لم يحفل باليساق أو القوانين القديمة الخاصة بالنظم المغولية<sup>(٤)</sup> . ومع أن مصدر الكفاح قد ظل مثار الشك زمنا طويلا ، رسمت أقدم الاسلام في البلاد التي انتزعت منه . وإن الوسائل التي أحرز بها هذا الدين ذلك النجاح ، لمن المسائل التي يحوطها الغموض والإبهام ، كما أن المعلومات القليلة التي ذكرناها ، تضرب صفحا عن ذكر كثير من تفاصيل هذه القصة . بيد أننا قد سجلنا ما يكفي للدلالة على بعض الأعمال التي أدت إلى تحولات فردية إلى هذا الدين . وقد أشرب آندا روح الإسلام<sup>(٥)</sup> ، وتمتعت البقية الباقية من المؤمنين ، وخاصة الأسرات التركية الإسلامية القديمة ، بنفوذ لا يكاد يحس ، بين المغول الذين استقروا بينهم . على أن هنالك من بين العوامل الفعالة التي ساعدت على نشر الدعوة ، والتي كان لها أهمية خاصة في هذه السبيل ، تأثير الپير Pir وتلاميذه الروحيين . وفي وسط ذلك الحور العميق الذي طغى على المسلمين بعد تدفق سيل الفتح المغولي ، وجد هؤلاء ملجأهم الأول في التصوف . وقد أمد الپير أو المرشد الروحي والطوائف الدينية — كطائفة النقشبندية التي ظهرت بمظهر النفوذ والقوة في القرن الرابع عشر الميلادي ، — الجماعة الإسلامية بحياة جديدة وبثوا فيها حماسة شديدة . وعلى أيدي الپير ودعائه غدا المسلم في آسيا أول الأمر عاملا سلبيا لا يصدر في أعماله عن شعور ووجدان ، ثم أصبح آخر الأمر مشايخا لجماعة الدين القومي التي تناوى حكم المغول الذي كان وقتها ما أجنبيا متبربرا سوقيا<sup>(٦)</sup> .

Martin Hartmann : Der Islamische Orient, vol. i. p. 203 (Berlin, 1899.) (١)

Id, p. 202. (٢)

Assemani, tome iii. part. ii. p. cxvi. (٣)

ابن بطوطة ٣ ص ٤٠ (٤)

رشيد الدين ص ٦٠٠ ص ١ (٥)

Cahun, p. 410. (٦)

ولنعد الآن إلى الكلام على انتشار الإسلام بين أهالي القبيلة الذهبية . كانت هذه الطائفة من المغول تنزل في ذلك السهل الرئيس الحصب الذي يرويه نهر الفلجا ، حيث اتخذت على أحد ضفافه حاضرتها سيريه Serai ، ومنها أرسل أمراء الروس الجزية إلى الخان ؛ وكان لإسلام بركة خان الذي تكلمنا عليه من قبل ، وما كان بينه وبين المماليك في مصر من الصلات الوثنية أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي هذه القبيلة .

ويظهر أنه قد حذا حذوه تدريجاً كثير من أفراد الطبقة الارستقراطية وزعماء القبيلة الذهبية الذين كانوا من أصل مغولي . ولكن يظهر أيضاً أن كثيراً من بطون هذه القبيلة الذهبية قاوموا ذلك الدين وحالوا دون انتشاره بينهم ، حتى إنهم فكروا في خلع بركة خان حين أعلن إسلامه ، وعرضوا تاج المغول الذي اعتقدوا أنه أصبح غير جدير به على منافسه هولاًكو . وبلغ من شدة هذه المقاومة أن انقسم المغول على أنفسهم ، وظهرت بينهم قبيلة نوجاي Nogais كقبيلة منفصلة ، واتخذوا هذا الاسم من Nogay الذي كان قائد قواد الجيوش المغولية في دولة بركة خان . ولما أصبح غيره من أمراء القبيلة الذهبية يدينون بالإسلام ، ظل نوجاي متمسكاً بالشامانية ، وغدا نقطة الاتصال بين كل من هؤلاء الذين أبوا أن يتحولوا عن ديانة المغول القديمة . على أن ابنة هذا القائد التي تزوجت من أحد الشامانيين لم تلبث أن دخلت في الإسلام بعد زواجها بقليل ، وظلت على دينها الجديد ، ولم يصر لها عنه سوء معاملة زوجها واحتقاره إياها (١) .

وقد قيل لأوزبك خان Uzbek Khan ، الذي كان زعيماً للقبيلة الذهبية من سنة ١٣١٣ إلى سنة ١٣٤٠ م ، والذي اشتهر بتحمسه لنشر تعاليم الدين الإسلامي ، وحرصه على تحويل كثير من الأهالي إليه : « واقع بطاعتنا ، وماذا يهمك من ديننا ؟ ولماذا ترك دين جنكيز خان لتعتنق دين العرب ؟ ولكن أوزبك نجح على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة ، في جذب كثيرين وتحويلهم إلى هذا الدين الذي كان من أشد أتباعه حماسة وصلابة ، وإليه يرجع الفضل في توطيد دعائمه وتثبيت أركانه في البلاد التي كانت تحت سلطانه (٢) . وما يدل أيضاً على نفوذ أوزبك ما نجده في القبائل الأوزبكية في أواسط آسيا ، التي اشتقت اسمها من اسمه والتي لا يبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام في عهده . ويقال إنه وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاد روسيا (٣) ، ولكن هذه الخطة لم تصادف شيئاً من النجاح . وفي الواقع يظهر أن نفوذ المغول ، مع أنهم كانوا أصحاب السيادة المطلقة في روسيا مدة قرنين ، كان قليلاً جداً في أهالي هذه البلاد ، وأن هذا النفوذ كان أقل ما يكون في المسائل الدينية . أضف إلى ذلك أنه مما هو جدير بالملاحظة ، على الرغم مما أظهره أوزبك من التحمس في نشر الإسلام وتفانيه في الإخلاص له ، أنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين . فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء ، وذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا ، فسمح لهم بموالاته التبشير لدينهم ونشره في بلاده . ومن أهم الوثائق التي تسترعى

Howorth, vol. ii, p. 1015. (١)

أبو الغازي ج ٢ ص ١٨٤ (٢)

De Guignes, vol. iii, p. 351. (٣)

الانتباه عن التسامح الإسلامي ، ذلك العهد الذي منحه أوزبك خان المطران بطرس في سنة ١٣١٣ م . وقد جاء فيه : « بمشيئة الله العلي القدير وعظمته ورحمته ا من أوزبك الى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم وغيرهم . إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها أو قسيسها بسوء ، ولا أن يستولى على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها ، ولا أن يتدخل في أمورها ، لأنها مقدسة كلها . ومن خالف أمرنا هذا بالتعدى عليها ، فهو أنيم أمام الله وجزاؤه منا القتل . ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة ؛ ولندعه ( أو وكيله ) يقرر وينظم كل المسائل الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم . وإننا فعلن في حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاء أقالمتنا لن نتدخل بأى حال في شئون الكنيسة ولا في شئون المطران ، ولا في شئون المدن والمراكز والقرى والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر ، ولا في خلايا النحل ؛ ولا في الأراضي والمراعي والصحاري ، ولا في المدن والأماكن الداخلة في أملاكها الخاصة ، ولا في الكروم والطواحين ، ولا في مراعي الشتاء ، ولا في أى شيء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها . ولندع بال المطران في راحة دائمة خاليا من كل تعب أو نصب ، ولندع قلبه سليما قويا ، ولندعه يصلى لله من أجلنا ومن أجل أولادنا وأمتنا ، حتى إذا وضع يده على شيء مقدس ، ثبتت عليه التهمة ، وباء بغضب من الله ، وكان جزاؤه القتل ، حتى يلقى مصيره الرعب والفرع في قلوب الآخرين . وإذا فرض الخراج أو غيره من الضرائب : كالرسوم الجركية ، والمسكوس ، وضرائب الطرق والأراضي غير المزروعة ، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا ، فلا يجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس أى لآى أحد من رجال الدين التابعين له : وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه ، يرد إليهم أضعافا ثلاثة . . . ولتكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم . وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين ، فإن يقبل منه أى عذر ولا أن يطلب العفو ، بل يكون جزاؤه القتل . وسوف يتمتع اخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة وفي دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق (١) . »

ويمكن أن نستدل على أن هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد « حبر على ورق » ، وأن التسامح الذي وعد به هؤلاء المسيحيون قد أصبح حقيقة واقعة من هذه الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون Pope John xxii سنة ١٣١٨ م إلى الخان ، يشكر فيها للأمير المسلم ما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين ، ويشي على هذه المعاملة الطيبة التي كان أوزبك يعاملهم بها (٢) . ويظهر أن خلفاء أوزبك خان لم تدفعهم نفس الرغبة التي أظهرها هو في نشر الإسلام ، ومن ثم لم يكن من المتوقع أن ينجحوا فيما أخفق هو فيه . وكان الروس إذا أدوا الضرائب المفروضة عليهم ، تركت لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كيف شاموا . وقد بلغ من تغفل المسيحية في حياة الشعب أنه لم يعد هناك ما يعكر صفو هذه الحياة ، وبذلك

(١) Karamzin, vol. iv. pp. 391-4.

(٢) Hammer-Purgstall : Geschichte der Goldenen Horde in Kiptschak, p. 290.

الجهود لتحويلهم عن دين آبائهم . ويرجع السبب في ذلك إلى أن المسيحية كانت الديانة القومية للشعب الروسي قرابة ثلاثة قرون ، قبل أن يوطد المغول ساطانهم في الأراضي الروسية .

وقد حاول شعب آخر جذب الروس إلى الإسلام قبل ذلك بسنين كثيرة ، ولكنه أخفق كذلك ؛ وهؤلاء هم البلغار من المسلمين الذين وجدوا حول القرن العاشر الميلادي على ضفاف نهر الفلجا ، والذين قد يرجع الفضل في إسلامهم إلى تجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون في الفراء وسائر السلع التي كانوا يحصلون عليها من البلاد الشمالية . على أنه يظهر أن دخول البلغار في الإسلام لا بد أن يكون قد تم قبل سنة ٩٢١ م ، حين أرسل إليهم الخليفة المقتدر ( ٩٠٨ — ٩٣٢ م ) ( ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ ) رسولا من قبله يقوم بتبليغهم على الدين وتعليمهم مبادئ الإسلام وشعائره (١) .

وقد حاول هؤلاء البلغار تحويل فلاديمير Vladimir ملك روسيا في ذلك الحين ( الذي تحدثنا الرواية الروسية ) ، أنه رأى أنه لم يكن بد من أن يختار دينا آخر غير الدين الوثني الذي كان يدين به . ولم يقف في سبيل تحويله هو ورعاياه إلى هذا الدين إلا الحتان وتحريم الخمر المستعملين عند المسلمين ؛ وصرح أن الروس لا يعدلون عنهما ، لأنهما كانا من مباحج الحياة عندهم . وكذلك ابتلى بهذا الإخفاق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر على بحر قزوين ، واستألوا ملك هؤلاء الروس إلى الديانة الموسوية (٢) . وبعد أن أصغى فلاديمير إلى حججهم ، سألم أين بلدهم ؟ فأجابوا : « بيت المقدس . » ولكن الله شقت شملنا في كافة أنحاء العالم غضبا منه علينا ، فصاح : « إذا فقد بؤسهم بلعنة من الله ؛ ومع ذلك فأتم تريدون أن تعملوا غيركم . اذهبوا ! فنحن لا نريد مثلكم ألا يكون لنا وطن . » وكان أحسن ما أثر في نفس فلاديمير تلك الفكرة التي رسمها قيسس لإغريق ، حين عرض صورة شاملة لتعاليم المسيحية ، بعد أن فقد الديانات الأخرى نقدا موجزا ، بادنا بخلق العالم وقصة فناء الإنسان ، وانتهى بالجماع السبع المسكونية التي اعترفت بها الكنيسة الإغريقية ؛ ثم رسم الملك صورة ليوم الدين ، ودخول الصالحين الجنة ، وقذف الكفار في الجحيم ، ووعد بهيرات السماء إذا عمد . ولكن فلاديمير لم يكن يميل إلى الاندفاع في اختيار دين يحل محل دينه الوثني ، ومن ثم جمع زعماء الروس في دونه . ولما أنهى إليهم ما سمعه عن الديانات المختلفة ، سألم أن يمدوه بنصائحهم ، فأجابوا : « أيها الأمير ! إن كل امرئ يمتدح ديانته ؛ فإذا أردت أن تختار أحسنها ، فابعث رجال عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية أمة من الأمم تعظم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى . » لذلك اختار الأمير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأي . ووجد هؤلاء السفراء بين البلغار أما كن حقيرة المظهر ، وصلوات تبعث على الكتابة ، ووجوها واجمة ، ووجدوا بين الألمان الكاثوليك حفلات دينية غالية من الآهة والجلال . وأخيرا بلغوا القسطنطينية : فقال الإمبراطور : « دعهم يشاهدوا جلال إلهنا ، ثم أخذوا إلى كنيسة أياصوفيا ، حيث كان البطريرق ، وهو مرتد ملابسه الرسمية ، يحتفل

(١) عن الباشفرد الذين ورد ذكرهم في ابن فضل وياقوت وشرح C. N. Frachnio (Mémoires de l'Académie Imperiale des Sciences de St. Pétersbourg, tome viii, p. 626, 1822.)

(٢) أبو عبيد البكري ص ١٧٠ - ١٧١

بالقداس . . وإن نخامة البناء ، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة ، وزخارف المذابح ، ورائحة البحور الزكية ، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع ، والاحتفال الديني السحري الذي يتجلى في هيئة وخشوع — كل ذلك ملاً قلوب الروس دهشاً وعجباً . وقد بدا لهم أن هذه الكنيسة لا بد أن تكون مقام العلي الأعلى ، وأنه سبحانه أظهر للبشر مجده في ذلك المكان . ولما عاد الرسل إلى كييف ، وصفوا سفارتهم للأمير ، وتكلموا في احتقار عن ديانة النبي ، ولم يكن لديهم ما يقولونه إلا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية ؛ ولكنهم امتدحوا الكنيسة الإغريقية في حماسة وغيره وقالوا : « إن كل رجل ذاق شربة حلوة ، سوف يعاف من الآن ، أي شراب المذاق . ومن أجل هذا ، لا نرغب — بعد أن وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية — في أية ديانة أخرى ، . وقد استشار فلاديمير زعماء الروس مرة أخرى ، فقالوا له : لو لم تكن الديانة الإغريقية أحسن الديانات ، لما اعتقدتها أبداً جدتك أولجا ، أحكم البشر . ومن ثم لم يعد فلاديمير متردداً . وفي سنة ٩٨٨ م جهر بالمسيحية ؛ وفي اليوم التالي لتعميده نبذ الأوثان التي عبدها أجداده ، وأصدر مرسوماً يقضي بأن يذعن الروس كافة ، سادة وعبداً ، أغنياء وفقراء ، للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية (١) .

وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس . فإنه بعد الفتح المغولي نجد الصفات القومية التي تميز بها الروس والتتار ، الذين احتفظوا إلى الآن بعنصرين منفصلين أحدهما عن الآخر ، وما أضمره من كراهة مريرة للسلطان التتاري ، وإخلاص الروس لدينهم ، ونقص الغيرة الدينية عند التتار — نجد ذلك كله قد جعل الجنس المحكوم بعيداً عن اعتقاد ديانة هؤلاء الذين فتحوا بلاده . وقد زعم بعض أن تحريم الشريعة الإسلامية الخمر كان عقبة في سبيل اعتقاد أهالي روسيا هذا الدين .

ويظهر أنه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض الروس إلى الإسلام ، إلا بعد أن صدر في سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح الديني في كافة أرجاء الإمبراطورية الروسية ، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بها المسلمون . وإن ما حدث من هذه الحالات يعزى إلى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التي قدمها التتار إلى هؤلاء الداخلين في الإسلام ، كما يعزى إلى القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون أنفسهم (٢) .

ولم يكن تثار بلاد روسيا مجتمعين غير عاملين على تقدم انتشار الإسلام في القرون السابقة ؛ فإن السحنة الهلينية الواضحة التي تشاهد بين هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم تثار القرم ، أدت إلى الظن بأن هؤلاء المسلمين قد أدمجوا في مجتمعهم الأهالي من الإغريق والإيطاليين الذين وجدوهم قد استوطنوا شبه جزيرة القرم . كما نجد بينهم أسلافهم الذين دخلوا في الإسلام من الأهالي الوطنيين في هذه البلاد ، ومن سكان مستعمرة جنوه (٣) . ويحدثنا أحد الرحالين في القرن السابع عشر الميلادي أن تثار القرم كانوا يبذلون جهودهم

Karamsin, tome i. pp. 259-71. (١)

Bovronikoff, p. 13. (٢)

Reclus, tome v. p. 831. R. du M. M., tome iii. pp. 76, 78. (٣)

لحث مواليهم على الدخول في الإسلام ، وأنهم جذبوا كثيرين منهم إلى هذا الدين ، بما كانوا يعدونهم إياه من منحهم الحرية إذا استجابوا لرغباتهم<sup>(١)</sup> . وكذلك نشطت الدعوة إلى الإسلام بين تار القرم بعد أن صدر مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥<sup>(٢)</sup> .

ولا بأس من أن نشير هنا إشارة موجزة إلى التتار في لتوانيا ، حيث استقرت جماعات صغيرة منهم منذ أوائل القرن الخامس عشر . وقد احتفظ هؤلاء المهاجرون المسلمون ، الذين أقاموا بين الأهلين من المسيحيين ، بدينهم القديم . ولكن يظهر أنهم ( وقد يكون ذلك لأسباب سياسية ) لم يحاولوا أن يعلموهم مبادئ هذا الدين ؛ بيد أنهم اعتادوا أن يتزوجوا من اللتوانيات والبولنديات ، اللاتي نشأ أبناؤهن نشأة إسلامية ، ولم يسمع لأية مسلمة أن تتزوج من مسيحي . وشجع كبار دوقات لتوانيا زواج النساء المسيحيات من رجال جنودهم التتارية ، الذين قدموا إليهم هبات من الأرض ، ومنحهم مزايا أخرى<sup>(٣)</sup> .

ومن أغرب الحوادث في تاريخ الدعوة إلى الإسلام ، ما كان من تحول القرغيز في بلاد آسيا الوسطى على أيدي علماء التتار ( المليات ) الذين نشروا الإسلام بينهم في القرن الثامن عشر ، باعتبار أنهم دعاة من قبل الحكومة الروسية . وقد أخذ القرغيز ينضمون تحت لواء الروس حول سنة ١٧٣١ م ، وتبدلت الرسائل السياسية معهم كافة باللغة التتارية قرابة ١٢٠ سنة ، واهمين أنهم كانوا يشبهون تار الفلجا من ناحية السلالة البشرية . وهناك نوع آخر من سوء الفهم من ناحية الحكومة الروسية ، وهو أن القرغيز كانوا مسلمين ، على حين كانوا في القرن الثامن عشر جميعا ، على وجه التقريب ، يدينون بالشامانية ، حيث كان عدد كبير منهم لا يزالون يدينون بهذا الدين حتى منتصف القرن التاسع عشر . وفي القرن الذي صمت فيه بلادهم إلى الإمبراطورية الروسية ، عدا قليل من خاناتهم وسلاطينهم ، كانت لهم معرفة ما بالدين الإسلامي - وكانت هذه المعرفة على درجة كبيرة من الاختلاط والغموض . ولم يجد أحد مسجدا واحدا في أرجاء سهول القرغيز كافة ، كما لم يكن هناك أي معلم ديني يقوم بتعليم دين النبي . ودين القرغيز بدخولهم في الإسلام إلى هذه الحقيقة ، وهي أن الروس الذين عدوهم مسلمين ، أصروا على معاملتهم كما لو كانوا كذلك . وقد منحوا الأموال الضخمة لبناء المساجد ، وأرسل عدد كبير من ( المليات ) لإنشاء المدارس وتعليم الأطفال مبادئ الإسلام . وكان علماء القرغيز يتسلمون في كل يوم مقدارا صغيرا من النقود يقوم بنفقتهم ، واستحث الآباء على إرسال أطفالهم إلى المدارس عن طريق الهدايا وغيرها من وسائل التشجيع والإقناع . ومن الأدلة التي لا تقبل الجدل على أن الدعوة الإسلامية قد شقت طريقها في سهول القرغيز من ناحية بلاد روسيا ، هذه الحقيقة الواقعة ، وهي أن هؤلاء القرغيز خاصة ، الذين كانوا أكثر اتصالا بأوربا ، هم الذين

Relation des Tartares, par Jean de Luca, p. 17. (Thevenot, tome i.) (١)

Islam and Missions, p. 257. (٢)

Gasztowtt, pp. 321-3. R. du M.M., xi. (1910), pp. 287. sqq. (٣)

أصبحوا مسلمين أول الأمر. وقد أخذت الشامانية القديمة تسير حتى القرن التاسع عشر في ببطء وتمهل، بين هؤلاء الذين طوفوا فيما جاور بلاد خيوة وبخارى وخوقند، مع أن هذه البلاد كانت بلادا إسلامية عدة قرون (١).

وقد يكون هذا هو المثل الوحيد لحكومة مسيحية شاركت في نشر الإسلام. وليس أقل غرابة من ذلك أن الحكومة الروسية في هذا العصر كانت تحاول أن تفرض المسيحية على رعاياها المسلمين في أوروبا، استمرارا لما بذلته من جهود في القرن السادس عشر على أثر فتح خانية قزان.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، كان كثير من القرغيز الذين يقيمون في السهول الفسيحة الممتدة جنوبا من مقاطعة تيلسك إلى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية، واتصل بعض بالحكومة الروسية لإيفاد بعث تبشيري للدين المسيحي يقيم بين أظهرهم. ولكن الحكومة لم توجههم إلى هذا الطلب بحجة أن هؤلاء الناس كانوا من البربرية والوحشية بحيث لا يكون فهمهم للإنجيل أمرا ميسورا. سرعان ما سارت لنشر الدعوة جماعات أخرى لا تعتمد على حسن نية أية حكومة، كما كانت أكثر غيرة وإدراكا، واحتلت هذا الميدان واجتذبت كافة قبائل القرغيز إلى الدين الإسلامي (٢).

وبعد فتح قزان على أيدي الروس في القرن السادس عشر، تلا احتلال خانية التتار السابقة حركة رسمية للتبشير بالمسيحية، وعمد عدد من سكان الخانية الوثنيين، ونشط رجال الشرطة ورجال السلطات المدنية في تأييد أعمال رجال الكنيسة. بيد أنه، لما لم يكن القسيسون الروسيون يفهمون لغة هؤلاء الذين حولهم إلى الإسلام، والذين لم يلبثوا أن أهملوا شأنهم، لم يكن بد من الاعتراف بأن هؤلاء الذين تحولوا حديثا ويحفظون في غير خجل أو حياء بكثير من العادات التتارية المرذولة، ولم يكونوا يتمسكون بالعقيدة المسيحية أو يعرفونها، ولما أخفقت العظات الروحية، أمرت الحكومة موظفيها بأن يلففوا من هذه الحالة، ويحبسوا الناس، ويكبّلهم بالحديد، ويحولوا بذلك دون تعليم هؤلاء الذين لا يطيعون أوامر المظران رغم تعميدهم، ويشيرون مخاوفهم من ناحية العقيدة التتارية.

وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهودا جديدة لتصير القبائل الوثنية، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم، وبذلوا كثيرا من ضروب الإقناع والإغراء لتعميدهم. ففي سنة ١٧٧٨ أمرت الإمبراطورة كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديث العهد بالمسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية، وتجنب كل اتصال بالكفار، والتمسك بالدين المسيحي وعقائده والثبات عليهما.

The Russian Policy regarding Central Asia. An historical sketch. (١)

By Prof. V. Grigorief. (Eugene Schuyler: Turkistan, vol. ii. pp. 405-6. 5th ed. London, 1876); Franz von Schwarz: Turkestan, p. 58. (Freiburg, 1910.)

Islam and Missions, pp. 251-2, 255. (٢)

على الرغم من هذا كله ، لم يكن هؤلاء الذين أطلق عليهم «التتار» المعمدون إلا مسيحيين اسما . وسرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية ، وتركوا المسيحية ، واعتنقوا الإسلام . ولم يكن هذا الدخول في المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم في عقيدة النبي . وفي الحق أنه لا يبعد أن تكون أسماؤهم قد دونت في السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين ، ولكنهم وقفوا في ثبات وقوة في وجه أية محاولة بذلك لتنصيرهم . ويقول الكاتب في مقال شبه رسمي نشر في سنة ١٨٧٢ : « إنه لحقيقة تستحق الانتباه أن سلسلة طويلة من الارتداد الواضح تتفق مع بداية الإجراءات التي اتخذت لتثبيت الداخلين في العقيدة المسيحية . ولهذا يجب أن يكون هناك سبب معقول لحالات الارتداد هذه ، في نفس الوقت الذي كان من المتوقع أن يحدث خلاف ذلك . » . ويظهر أن الحقيقة كانت تنطوي على أن هؤلاء التتار ، لكونهم قد ظلوا دائما مسلمين بقلوبهم ، قاوموا التدابير الفعالة التي اتخذت لتجعل اعتناقهم المسيحية الاسمي حقيقة واقعة بحال من الأحوال (١) . ولكن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، بذلت جهود لتنصير هذه القبائل الوثنية والإسلامية عن طريق إنشاء مدارس بينهم . وكانوا يؤملون من وراء ذلك أن يجذبوا إليهم شبيبة ذلك الجيل ، إذ ظهر لهم أنهم إذا لم يفعلوا ذلك ، كان من المحال أن يفوزوا بإدخال المسيحية بين التتار . ذلك أن «استمالة مواطني قران — كما يقول أستاذ روسي — أمر صعب المنال ، ولكننا نستجلب نفرا قليلا من سكان القرى الواقعة في السهل ، ونروضهم على مخافة الله ، فإذا ما أصبحوا معنا فإنهم لن يعرضوا عنا أبدا » (٢) . ذلك أن القانون الجنائي الروسي كان يتضمن دائما عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكسية (٣) ، ويعاقب كل شخص ثبت عليه تهمة تحويل مسيحي إلى الإسلام ، بتجريدته من كافة الحقوق المدنية ، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر . وبرغم أوامر الحكومة بنحوت الدعاية الإسلامية في جذب القرى بأسرها إلى عقيدة الإسلام ولا سيما القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي (٤) .

وتعد مدينة قران المركز الرئيس لنشاط هذه الدعوة ؛ وكان يطبع في كل سنة عدد كبير من المنشورات الإسلامية ، في ذلك المكان ، ويذهب الملبات من الجامعة لتحويل الوثنيين في القرى وإعادة التتار ، الذين

D. Mackenzie Wallace : Russia, vol. i. pp. 242-4. (London, 1877. (١)

4th ed.) R. du M.M. vol. ix. (1909), p. 249. Bobrovnikoff, p. 5. sqq.

W. Hepworth Dixon : Free Russia, vol. ii. p. 284. (London, 1870.) (٢)

(٣) مثال ذلك أنه ، في سنة ١٨٨٣ ، سبق فلاحو التتار بقرية أبوزوف Apozof إلى محكمة قران ، لأنهم تركوا المذهب الأرثوذكسي . وقد صرح المتهمون بأنهم كانوا يدينون بالإسلام على الدوام . وقد حكم على سبعة منهم بالأشغال الشاقة لاتهامهم بالكفر ونفى كثير من الذين ارتدوا عن دينهم إلى سيريا . . .

Anatole Leroy-Beaulieu : L'Empire des Tsars et les Russes, tome iii, p. 645. (Paris, 1889-93.)

D. Mackenzie Wallace : Russia, vol. i. p. 245. (٤)

كانوا قد ارتضوا التعميد ، إلى الإسلام . وإن ازدياد عدد التتار المسيحيين الذين أخذوا في زيادة صفوف الإسلام ، قد أثار الفزع في نفوس رجال الكنيسة الأرثوذكسية . ولكن جهودهم قد أخفقت في وقت نجاح المليات في هذه السيليل (١) . وقد دونت الأخبار كثيرا عن دخول الناس في هذا الدين أفواجا ، ولا سيما على أثر صدور مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥ . مثال ذلك ما قيل من أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية أتومفا Atomva في سنة ١٩٠٩ (٢) . وإن عددا بلغ من الكثرة حول ٥٣,٠٠٠ نسمة أسلم بين سنتي ١٩٠٦ ، ١٩١٠ (٣) . وقد قيل إن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي ، الذي كان أكثر رقيا ، كما يرجع أيضا إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع ، والذي كان أكثر تماسكا وقوة (٤) . أضف إلى ذلك أن الأساليب التي لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وأيدتها الحكومة ، لتجعل تلك الطبقة التي كان يطلق عليها التتار المسيحيون أكثر تماسكا بالدين ، قد جعلت العقيدة المسيحية أمرا غير مألوف لديهم (٥) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدما في حماسة بالغة ، وفقدت كل مسلم ساذج أمة داعية إلى دينه ، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين أو أشباه الوثنيين عن أن تقاوم قوة هؤلاء الدعاة . وفي كثير من القرى التي عمد أهلها ، انطلق الرجال في زمن الشتاء يحترفون الحياكة في القرى الإسلامية . وهناك يتحولون إلى الإسلام ، ثم يعودون إلى قراهم حُمسًا يجلبون معهم أفكارا إسلامية يكون لها أثرها في بيوتهم ، (٦) . ومن أهم القبائل التي تأثرت بحركة الدعوة إلى الإسلام قبيلة الثوتياك Votiaks التي كان السواد الأعظم منها مسيحيًا معمدا ؛ بيد أن كثيرا منهم أصبحوا مسلمين في القرن الثامن عشر . وفي مستهل القرن التاسع عشر . ولا يزال تأثير الإسلام آخذا في النمو ، بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه القبيلة اليسيرة ، التي لا تزال على وثنياتها . وإن قبيلة الشيريمس Cheremiss ، كالثوتياك ، قبيلة من الفين Finns (٧) ، لا يزال ربعها على الوثنية ، ولكن كثيرين منها كانوا قد دخلوا في الإسلام ، ولا يبعد أن يبادر معظمهم إلى الدخول في هذا الدين . وقد تجلت حركة الشيريمس إزاء الإسلام في القرن التاسع عشر ؛ ومع أن كثيرين منهم كانوا مسيحيين أسما ، فإن قراهم بأسرها دخلت في الإسلام برغم القوانين التي تحرم التحول إلى أي دين من الأديان عدا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية (٧) . وقد أصبحوا مسلمين باتصالهم المباشر بالباشغرد والتتار الذين

Palmieri, pp. 85-6. R. du M.M., i. (1907), pp. 162. sq. (١)

R. du M.M., ix. (1909), p. 294. (٢)

Id. x. (1910), p. 413. Id. i. (1907), p. 273. (٣)

Id. ix. p. 252. (٤)

Id. p. 249. (٥)

Bobrovnikoff, p. 12. (٦)

(٧) وهي من أصل تبتوتوي كانت تسكن في الشمال شرقي من أوروبا .

Reclus, tome, v. pp. 746, 748. (٧)

كانت تشبه أسرتهم وعاداتهم الاجتماعية أسرة هؤلاء وعاداتهم . وقد بدأت هذه الخطوات أحيانا بالتصاهر الى المسلمين — مثال ذلك أن إحدى أسرات الشيريمس في بعض القرى تصاهرت إلى بعض الباشغرد واعتنقت ديانتهم . ولما كان هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام يلقون في قراهم عتتا واضطهادا بتسميتهم «الكلاب المختونين» ، نراهم يهاجرون ويؤسسون مستعمرة جديدة على بعد أميال ، كما نرى بعض ذوى اليسار من الباشغرد يعينونهم بالمال . ولكن لما كانوا يعدون وثنيين في السجلات الرسمية ، لم يستطيعوا أن يحصلوا على تصريح ببناء مسجد . لذلك انتقل بعض أسرات من الباشغرد التي كانت في الأماكن المجاورة لهم إلى المستعمرة الحديثة ، حتى يجعلوا عدد الأهالي بحيث يسمح لهم بالحصول على التصريح الرسمي المطلوب<sup>(١)</sup> . وطالما اتخذ مثل هذه الخطوة في القرى الأخرى التي جاء المسلمون لاستيطانها والتصاهر إلى من فيها من الشيريمس<sup>(٢)</sup> . وكانت هنالك في أحوال كثيرة حركة واضحة لنشر الدعوة — مثال ذلك أن قرية فرقول كانت في مستهل القرن التاسع عشر أهلة بالشيريمس المسيحيين . على أنه بعد منتصف هذا القرن بقليل ، تحول بعض الأسرات إلى الإسلام على يد أحد الشيريمس بعد أن دخل في جماعة الملييات ، وخلفه في الدعوة بعد وفاته أحد الباشغرد من أهالي قرية أخرى . وبعد ذلك انتقل الذين دخلوا في الإسلام إلى قرى التتار والباشغرد ، بعد أن احتل التتار أماكنهم ، وبعد أن أصبحت القرية بأسرها تارية في واقع الأمر . واحتفظ قليل من شبيبة الجيل بشيء من لغة الشيريمس وتصاهروا مع التتار وخدمهم<sup>(٣)</sup> . وإذا تركنا هذا النشاط في تعليم الناس مبادئ الدعوة جانيا ، وجدنا تأثير التتار في الكلام والعادات بين الشيريمس منتشرا انتشارا ملحوظا جدا . فقد انتشرت لغة التتار بينهم ، وجلبت معها أفكار الإسلام الأدبية والدينية . وبعد إدخال الزى التتارى علامة على تفوق الثقافة . وإذا لم يرتد أحد أفراد الشيريمس الزى الذي يرتديه التتار ، تعرض لسخرية أول تتارى يلتقى به أو لسخرية اخوانه من الشيريمس . وهذه الحركة الثقافية تجنح إلى انتقال ديانة التتار بصفة نهائية<sup>(٤)</sup> . وقد قيل إن الشيريمس قد أصبحوا بعد إسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد ، كما تلقوا معونة التتار الموسرين<sup>(٥)</sup> . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ينظر الروس إلى الشيريمس نظرة احتقار ، ويعدونهم جنسا منحطا ، وينبذونهم بألقاب شائنة ، حتى هؤلاء الشيريمس من المسيحيين الذين يقيمون بين أظهرهم<sup>(٦)</sup> . ولا يزال نحو ربع عدد الشيريمس على الوثنية . ولكن المؤثرات الإسلامية كانت من القوة بينهم بحيث لا يبعد أن يصبح

Eruslanov, pp. 3, 6. (١)

Id. pp. 7-8. (٢)

Id. pp. 5-6. (٣)

Id. pp. 9, 13. (٤)

Id. pp. 17, 20, 36. (٥)

Id. pp. 38-9. (٦)

السواد الأعظم منهم مسلمين على مر الأيام<sup>(١)</sup>. أما الشوفاش Chuvash الذين يبلغ عددهم المليون ، فقد عمدوا بأسرهم تقريبا ، ولا يزال نحو عشرين ألفا منهم على الوثنية ، ولكن الإسلام يضمهم إلى صفوفه تدريجيا ، على حين أصبح بعض الشوفاش من المسيحيين مسلمين . وأصبحت البقية الباقية منهم واقعة تحت تأثير الإسلام . وقد نستدل على امتداد حماسهم نحو الذين دخلوا منهم في الإسلام من إحدى قرى الشوفاش المسيحية التي يمكن أن نتخذها مثلا في هذا الصدد ، فقد قضى قسيسها سنوات كثيرة في جمع ثلثائة روبل Roubles كانت ضرورة لإصلاح الكنيسة. وتحولت ثمانى أسر شوفاشية إلى الإسلام ، لجمع المسلمون ألفي روبل في خلال بضعة أشهر لبناء مسجد<sup>(٢)</sup>. وإن مثل هذا النشاط الحى لبعد صفة تميز بها الدعوة الإسلامية التي كانت منبثة بين القبائل الوطنية في ذلك الحين . وكانت كل أسرة تقبل الإسلام تلتقى المعونة عينا أو نوعا : فالبيت يبنى للفرد ، وياع الحقل والماشية وغيرها لآخر ، فإذا أسلمت أسر كثيرة في قرية من القرى ، بنى لهم مسجد ، وأسست مدرسة لأطفالهم<sup>(٣)</sup>.

وليس لدينا إلا تفصيلات يسيرة عن انتشار الإسلام بين التتار في سيبيريا . ولم ترسخ قدم الإسلام في هذه البلاد إلا بعد النصف الأخير من القرن السادس عشر ، ولكن دعاة المسلمين كانوا يشقون طريقهم من حين لآخر إلى سيبيريا ، حتى قبل هذه الفترة ، أملا في اجتذاب الأهالي الوثنيين لقبول عقيدتهم ؛ ولكن السواد الأعظم من هؤلاء الدعاة قد ماتوا موت الشهداء . وعندما انضوت سيبيريا تحت لواء الحكم الإسلامى ، في عهد كوتشم خان ، كشف أحد الشيوخ المسنين مقابر سبعة من هؤلاء الدعاة ؛ وكان هذا الشيخ قد قدم من بخارى للبحث عنهم إذ كان يتطلع إلى معرفة شيء عن خشوع هؤلاء الشهداء وإخلاصهم في دينهم ، واستطاع أن يدلى بأسماء هذا الفريق من الشهداء ، وكانت ذكراهم لا تزال حتى القرن الأخير موضع تحلة واحترام لدى التتار في سيبيريا<sup>(٤)</sup>. ولما أصبح كوتشم خان (الذى كان من سلالة جوجى خان ، أكبر أبناء جنشكيز خان) خانا على سيبيريا (حول سنة ١٥٧٠) — وكان قد اكتسب حق توليه العرش ، إما عن طريق قيامه بغزو البلاد ، أو (على رواية أخرى) عن طريق دعوة الأهالي إياه لتولى العرش على أثر وفاة الخان السابق دون أن يعقب ذرية<sup>(٥)</sup> ، — بذل قصاره في تحويل رعاياه إلى الإسلام ، وأرسل إلى بخارى في طلب دعاة لمساعدته في هذه المهمة التي تنطوى على التدين والتقوى . وقد خلّف لنا أحد الدعاة الذين قدموا من بخارى أخبارا ، وصف فيها خروجه مع أحد رفاقه إلى حاضرة كوتشم خان ، على ضفة نهر إرتش Irtysh . وهناك مات رفيقه بعد سنتين ، وقفل هو راجعا إلى وطنه لأسباب لم يتعرض هذا الكاتب لذكرها . ولم يلبث إلا قليلا حتى عاد إلى بلاد كوتشم خان ثانية لاستئناف عمله ، وبصحبه رفيق آخر ، وذلك حين عاود كوتشم خان بخارى

Bobrovnikoff, p. 22. (١)

Id. pp. 21-2, 31. (٢)

Id. p. 13. Islam and Missions, p. 257. (٣)

G. F. Müller : Sammlung Russischer Geschichte, vol. vii, p. 191. (٤)

Id. vol, vii, pp. 183-4. (٥)

بطلبه مددا من الدعاة<sup>(١)</sup>. كذلك قدم دعاة من قزان إلى سيبيريا ؛ ولكن تقدم تيار الغزو الروسى وقف جهود كوتشم خان التبشيرية ، قبل أن ينجز منها شيئا كثيرا ، وخاصة عندما وقف كثير من القبائل التي تنضوى تحت حكمه ، يعارضون معارضة قوية كل المحاولات التي بذلها هذا الخان لتحويلهم إلى الإسلام . بيد أنه على الرغم من أن الغزو الروسى وقف هذه الجهود ، لم يتوقف تقدم الإسلام في هذه البلاد بحال من الأحوال ؛ فقد دأب المليات الآتون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى ، والتجار القادمون من قزان ، على مواالاة الدعوة إلى الإسلام في سيبيريا . وفي سنة ١٧٤٥ تسرب الإسلام لأول مرة إلى قبائل التتار التي يطلق عليها Baraba Tatars (وكانت مساكنهم بين نهري إرتس Irtysh وأوب Ob)؛ ومع أن كثيرا منهم كانوا حتى مستهل القرن التاسع عشر لا يزالون على الوثنية ، أصبحوا الآن مسلمين بأسرهم<sup>(٢)</sup>. وقد سبق الكلام على إسلام القرغيز : وتاريخ معظم القبائل الإسلامية الأخرى في سيبيريا على جانب كبير من الغموض ، وإن كان من المحتمل أن يكونوا قد اعتقدوا الإسلام في عصر حديث . وبما هو جدير بالذكر ، تلك الأغاني الشعبية ، التي يتغناها القرغيز ، والتي تحتل مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الإسلامية في الوقت الحاضر . وقد تضمنت هذه الأغاني حقائق الإسلام الأساسية ، مصوغة في أسلوب قصصي أسطوري ، مما جعل هذه الحقائق تصل إلى قلوب عامة الشعب في سهولة ويسر<sup>(٣)</sup>.

Radloff, vol. i. p. 147. (١)

Jadrinzew, p. 138, Radloff, vol. i. p. 241. (٢)

Radloff, vol. i. pp. 472, 497. (٣)

## الباب التاسع

### انتشار الاسلام في الهند

تناول كثير من المؤرخين الأقدمين والمعاصرين على سواء ، الكلام على غزوات المسلمين في الهند وتأسيس النفوذ الإسلامي ونموه في هذه البلاد . بيد أن أحدا لم يحاول إلى الآن أن يكتب عن تاريخ انتشار الإسلام في الهند ، باعتباره شيئا منفصلا عن الانتصارات الحربية والأعمال الإدارية التي قام بها أشياخ هذا الدين . وفي الحق أن مثل هذا العمل يجب أن يبدو أمرا مستحيلا في نظر كثير من هؤلاء المؤرخين . فظالما كانت الهند البلد المختار الذي يدين بوجود الإسلام فيه ، واستمرار ذلك الوجود ، إلى استقرار الشعوب الإسلامية الأجنبية الفاتحة . الذين نقلوا دينهم إلى ذرياتهم من بعدهم ، ولم ينجحوا في نشره فيما وراء بيتهم إلا عن طريق الاضطهاد والإكراه على التحول إلى هذا الدين . ومن ثم يزعم بعض أن روح الدعوة الإسلامية تعلن عن صورتها الحق فيما أحدثه محمود الغزنوي من مذابح البراهمة الوحشية ، وفي اضطهادات أورنج زيب (S) Aurangzeb ، وفي حمل الناس على الختان ، على أيدي حيدر علي ، وتيبو سلطان ومن شاكلهما .

على أننا نجد من بين الستة والسبعين مليوناً (†) من مسلمي الهند عددا هائلا لم يكن للقوة والعنف نصيب في تحويلهم أو في تحويل ذريتهم ، بل كان للتعليم والإقناع وحدهما اللذين لجأ إليهما الدعاة المسلمون تأثيره الفعال في هذه السبيل . وإن هذه الطبقة من هؤلاء الذين تحولوا إلى هذا الدين لتؤلف في حد ذاتها جماعة معينة ، يمكن أن تتميز عن هذه الجماعة التي تحولت عن طريق الإكراه وعن غيرها من العناصر غير المتجانسة التي يتألف منها مسلمو الهند . ويمكننا أن نقسم هذه الجماعة العامة على وجه التقريب ، إلى هؤلاء الذين ينتمون إلى جنس أجنبي ، والذين جاءوا بهذا الدين معهم وأدخلوه في البلاد ، وإلى هؤلاء الذين تحولوا من إحدى الديانات القديمة في البلاد بتأثير بواعث مختلفة وفي عصور متباينة من التاريخ . وتتألف الجاليات الأجنبية في الهند من طوائف أصلية ثلاث : الأولى ، وهي أهمها من حيث العدد ، هي طائفة المهاجرين الذين قدموا عبر حدود الهند الشمالية الغربية ، والذين نجدهم في إقليمي السند والبنجاب بوجه خاص ؛ والثانية هم بقايا أعضاء الطبقة الأرستقراطية أو جيوش الدول الإسلامية الذين أقاموا بكثرة في أعلى الهند وبدرجة أقل بكثير في هضبة الدكن . والطبقة الثالثة والأخيرة ، هم هؤلاء الذين استوطنوا الساحل الغربي ؛ ولا

(S) اسم أحد ملوكهم ومعناه زينة العرش (أورنج = العرش ، زيب = زينة) .

(†) أصبح عدد مسلمي الهند اليوم أكبر مما ذكره المؤلف بكثير

يعد أن يكونوا من أصل عربي ، وقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر<sup>(١)</sup> . ولكن عدد الأسرات ، التي تنتمي إلى أصل أجنبي ، والتي استوطنت بلاد الهند فعلا ، ليس كبيرا في أى مكان إلا في البنجاب وما يجاورها . وفي الحق أن أكثر من نصف مسلمي الهند قد تلقب بألقاب الشعوب الأجنبية المتميزة ، مثل شينخ وبك وخان ، بل بلقب سيد . بيد أن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم من سكان البلاد الأصليين أو من ذرياتهم الذين تحولوا إلى الاسلام ، وتلقبوا بلقب الشخص الذي بلغ أعلى مرتبة بين هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم ، أو اندمجوا في الطبقة الارستقراطية الإسلامية ، حتى ولو كان صادرا عن بواعث أقل أهمية من ذلك<sup>(٢)</sup> . أما هذا القسم الثاني من هذه الجماعة — وهم أهالي البلاد الأصليين الذين تحولوا إلى الاسلام ، — فإن تغيير دين فريق منهم ، كان بعضه راجعا من غير شك إلى ما استخدم من وسائل العنف وضغط السلطات الرسمية ، على حين دخل السواد الأعظم منهم في حظيرة الإسلام بمحض إرادتهم إلى حد بعيد . وإن تاريخ الحركات التي قام بها المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية ، والمؤثرات الاجتماعية التي أدت إلى تحول أهل بلاد الهند إلى الإسلام لم تلق إلى الآن إلا عناية يسيرة جدا . وإن معظم الكتب التاريخية التي نستطيع الرجوع إليها ، والتي تناولت الكلام على المسلمين في الهند ، سواء أكان مؤلفوها من الأوربيين أم من أهالي هذه البلاد ، لا تعدو أن تكون سجلات دونت فيها أخبار الحروب والحملات ، وما أتاه الأمر من أعمال ، على حين لم يثيروا إلى حياة ذلك العصر ، إلا بقدر يسير . فإذا تصدوا لذكر شيء منها ، صاغوه في صورة من التعصب وعدم التسامح الديني . على أننا نستطيع من دراسة أولياء المسلمين ، ومن التقاليد المحلية ، أن ندرك شيئا من الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة ، مستقلين تمام الاستقلال عن الحياة السياسية في البلاد . ولكن يحسن بنا ، قبل أن نتناول الكلام على هذه الأعمال ، أن نأتي ببذرة عما قامت به السلطات الرسمية من نشر الدعوة إلى الاسلام ، وما قام به حكام المسلمين في سبيل نشر عقيدتهم .

بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة ، أرسل العرب حملة إلى بلاد السند ، وأخذ سيل الغزاة يتدفق على بلاد الهند من ناحية الشمال الغربي ، واستمر ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، وكان بعض هؤلاء الغزاة من مؤسسي الإمبراطوريات العظيمة ، وبعضهم الآخر لم يعد أن يكون قوما مخاطرين . على حين أتى بعض بقصد السلب والنهب ، وعادوا محملين بالغنائم والأسلاب ، وبقى بعض آخر يؤسسون بمالك ظل أثرها إلى اليوم . ولكننا لا نعرف عن هؤلاء ، إذا كانوا قد استصحبوا معهم أية بعوث أو دعاة لنشر الدعوة . ولكن ذلك لم يكن راجعا إلى عدم أكثراتهم لدينهم . وقد ظهر لكثير منهم أن غزوتهم بلاد الهند اصطبلت بصيغة الجهاد الديني ، وأن مثل هذه الفكرة قد تجملت في ذهن كل من محمود

Census of India, 1891. General Report by J. A. Baines, p. 167. (١)

(London, 1893.)

Id. pp. 126, 207. (٢)

الغزنوى و تيمور ، وقد دون هذا الأخير فيما دونه عن نفسه بعد أن استولى على دهلى : « لقد قضيت خمسة عشر يوما في دهلى ، بين مظاهر الفرح والنعيم ، أعقد مجالس البلاط الملكية ، وأقيم الأسمطة العظيمة ؛ ثم ذكرت أنتى أتيت إلى هندستان لشن الحرب على الكفار . وقد بارك الله هذه الحملة ، فجعل النصر حليفى والظفر يتبعنى أنى ذهبت . ولقد انتصرت على خصومى ، وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبدة الأصنام ، ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين . الآن وقد تم لى هذا النصر المبين ، أشعر أنه لا يحق لى أن أخلد لى الراحة ، بل أن أبذل جهدى لشن الحرب على كفار هندستان (١) . ومع أن تيمور يتحدث كثيرا عن سيفه الذى استعان به فى نشر الدعوة ، يظهر أنه لم يتذرع بأية وسيلة أخرى أكثر مما فعله بإرسال الكفار إلى الجحيم . ويبدو أن معظم غزاة المسلمين قد سلكوا سبيلا تشبه تماما هذه السبيل . فباسم الله حطمت الأصنام ، وقتل سدنتها ، وهدمت معابدها ، وبنيت مكانها مساجد فى أغلب الأحيان . وفى الحق أن الإسلام قد عرض فى الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون بالقتال (٢) . وقد أملت الرهبة فى بعض الأحيان على الناس أن يقبلوا إلى حين ما عرض عليهم للدخول فى الإسلام ، وأدت إلى حالات تحول إلى هذا الدين ، تلك الحالات التى كانت قصيرة الأمد فى الغالب على الأقل فى الأيام الأولى من الفتح الإسلامى ، ثم لم تصبح ذات تأثير بعد انسحاب الفاتحين . وبما يوضح لنا هذه الحالة قصة هردته Hardatta أحد ملوك (†) بُلندشهر Bulandshahr ؛ فقد سرد لنا كاتب محمود الغزنوى كيف خضع له هردته ، وذلك فيما كتبه هذا الكاتب عن تاريخ حملات محمود ، قال : « وأخيرا (حول سنة ١٠١٩ م) (١٠٤١ هـ) وصل (محمود) إلى حصن باربا (٣) فى بلاد هردات ، وهو أحد رائيس rāis ، ومعناها وملوك فى اللغة الهندية . ولما سمع هردات عن هذه الغزوة التى قام بها جنود الله المحميون الذين تدفقوا كأموج البحر ، تحييط بهم الملائكة من كل جانب ، أخذ منه الغضب كل ما أخذ ، وارتعدت فرائصه ، وخشى أن يخسر حياته بوقوعها تحت طائلة شريعة الله . لهذا رأى أن خير سبيل لنجاته أن يوافق على اعتقاد دين الإسلام ، ما دام سيف الله قد جرد من غمده وسوط العذاب قد رفع . لهذا تقدم مع عشرة آلاف رجل ، وأعلنوا برغبتهم فى التحول إلى الإسلام ونبذهم عبادة الأصنام ، (٤) .

ولا يبعد أن يكون هؤلاء الذين دخلوا حديثا فى الإسلام قد اغتتموا أول فرصة للارتداد عند ما عرض عليهم ذلك إثر انسحاب الفاتحين ، وهى ظاهرة نجد من تقدم من مؤرخى الهند المسلمين يوالون الشكوى منها . ذلك أنه عند ما أغار قطب الدين أيبك على بران فى سنة ١١٩٣ م ، تصدى له فى عنف شندرازن ، الذى

(١) Elliot, vol. ii. p. 448.

(٢) دعا محمد بن قاسم امراء الهند إلى اعتقاد الاسلام ؛ ولا يبعد أن يكون الغزاة الذين جاؤوا بعده قد عملوا مثله على تنفيذ مبادئ الدين (Elliot, vol. i. pp. 175, 207.)

(†) كلمة هندية معناها المدينة العالية .

(٣) أو بران وهو اسم بولاند شهر القديم .

(٤) Elliot, vol. ii. pp. 42-3.

كان راجعا في ذلك الحين ، والذي كان ينحدر من بيت هرده ، وكان مجرد اسمه يدل على عقيدته الهندية ، ولم نعد نسمع بعد ذلك عن وجود مسلمين تحت حكمه (١) .

ولكن يظهر أن هؤلاء الفاتحين كان لديهم شيء يسير جدا مما نسميه «حب النفوس» ، الذي يدفع الدعاة المخلصين إلى نشر الإسلام ، والذي أتم مثل هذه الغزوات العظيمة في سبيل الإسلام . فقد بلغ من اشتغال أسرة الخليجين Khiljis التي حكمت من سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٣٢٠ م ، وأسرة تغلق Tughlaqs التي حكمت من سنة ١٣٢٠ إلى سنة ١٤١٢ م ، وأسرة اللوديين التي حكمت من سنة ١٤٥١ إلى سنة ١٥٢٦ م ، بالحروب ، أنهم لم يستطيعوا في الغالب أن يحفلوا بالأغراض الدينية ، وأنهم قد فكروا في فرض الضرائب واشتراطهم فيها ، أكثر من تفكيرهم في نشر الدعوة (٢) . ولكن الحماسة الدينية لم تنقصهم نقصا تاما . فقد قيل إن الجسكهر Ghakkars مثلا ، وهم شعب متبرر كان يسكن المقاطعات الجبلية شمالي البنجاب ، وكانوا قد أثاروا متاعب جمة للغزاة الأولين ، قد تحولوا إلى الإسلام بتأثير محمد الغوري في نهاية القرن الثاني عشر . وقد أسر الملك المسلم زعيمهم وحته على اعتقاد الإسلام ، وبعد أن أقره زعامته على هذه القبيلة ، أعاده لتحويل أتباعه إلى هذا الدين . ولما كان كثير منهم ذوى إلمام يسير بدينهم القديم ، كان من السهل أن يسود فيهم الإسلام (٣) .

وقد شجع الخليجون - كما يقول ابن بطوطة - على تحويل الناس إلى الإسلام ، وسنوا عادة تقديم الشخص الذي دخل حديثا في الإسلام إلى السلطان ، الذي كان يكسوه كسوة حسنة ، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره (٤) . ولكن الحكام في عهد الأسرات الإسلامية الأولى لم تكن لديهم الحماسة الكافية لنشر تعاليم الإسلام . ومن الصعب أن نجد في تاريخهم ما يشبه هذه العبارة التي دونها فيروز شاه تغلق (١٣٥١ - ١٣٨٨ م) فيما كتبه عن تاريخ حياته قال : ولقد شجعت رعاياي الكفار على اعتقاد دين النبي ، وأعلنت لهم أن كل شخص يردد هذه العقيدة ويصبح مسلما ، يعني من الجزية أو ضريبة الرأس . ولما اتصل هذا

Gazetteer of the N.W.P., vol. iii. part ii. p. 85. (١)

(٢) لم يكن الرواد الحريون الذين أسسوا دولا في شمال الهند ، وأقاموا لهم ممالك في هضبة الدكن عنابة تذكر بالمسائل الروحية؛ فلم يكن لدى معظمهم في الواقع أي وقت لنشر تعاليم الدعوة ، إذ كانوا مشتغلين دائما بالفتح أو الحروب الأهلية . وكانوا في الغالب من سوقة التتر أو المغول ، ولم يكن دين محمد قد تمكن من نفوسهم ، كما أنهم لم يتأثروا بحماسة الأجناس السامية الصادقة التي دفعت أول من رفعوا أول لواء عربي في الإسلام . فقد كانت الإمبراطورية التي أسسوها ذات صبغة حرية خالصة . وظلت هذه الإمبراطورية على هذه الحالة بتأثير ما أحرزوه في فتوحهم من بعض النجاح وما منوا به من خيبة بالنسبة إلى غيرهم في غزواتهم الروحية وكان لديهم من القوة ما يجعلهم يحولون دون أي شيء يشبه الاندماج الديني بين الهندوس ، أو دون جمع القبائل وجعلها أمما . ولكنهم كانوا أبعد ما يكونون عن تحويل الهند إلى الإسلام ، حتى إن دينهم لم يحصل على احتكار للعناصر الإدارية العالية بصفة كاملة نهائية . بين المسلمين أنفسهم .. (Sir Alfred C. Lyall : Asiatic Studies, p. 289.) (London, 1882.)

Firishtah, vol. i. p. 184. (٣)

(٤) ابن بطوطة ٣٣ ص ١٩٧

النبا بمسامع الناس ، تقدم الهندوس زرافات ووجدانا ، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الإسلام ؛ ومن ثم أخذوا يناقشون من كل حذب وصوب . ولما اعتقدوا الإسلام ، أعفوا من الجزية ، ومنحوا الهدايا ، ومظاهر التكريم (١) .

ولما توطن النفوذ الإسلامي ، وخاصة في عهد أسرة المغول ، أصبح نفوذ الإسلام الديني بطبيعة الحال أكثر ثباتا واستمرارا . حقا أن هذه المؤثرات لتتجلى في الحركات الهندوكية التي تقول بوجود الله ، والتي ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد زعم الأسقف لفروي Lefroy أن طابع تعاليم الإسلام الواقعية قد جذب عقولا لم تنفع بنظام الفكرة الحلولية (٢) التي تتميز بالغموض والنسبية (٣) . ولما اصطدم الإسلام ، مع ما عرف عنه من تمثيل قوى لحقيقة وجود الله وتلك الحقيقة التي انبعثت من ، وهي طابع الحق الذي يتميز بالثبات المطلق والمحسوسية البحتة - اصطدم بعقيدة الحلول التي تقوم على الغموض ، وبما قامت عليه هذه العقيدة من نسبية ، تبع ذلك بالضرورة أن الإسلام لم ينتصر في هذه المعركة بحسب ، بل لقد غدا البلم الشافي الذي سرى في شريان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا . وسرعان ما أحيى عقولا كثيرة وبث فيها حياة أكثر قوة ونشاطا ، تلك العقول التي لم تقبل من تلقاء ذاتها أن تتأثر بمثل هذا التأثير الفكري ، (٢) .

وقد ظهر عامل قوى من عوامل التحول إلى الإسلام ، عند ما وقف اعتقاد الناس للديانة الوثنية عقبة دون التقدم بين رجال البلاط عند المسلمين . ومع أن روح التسامح ، التي بلغت ذروتها تحت حكم وأكبر ، الذي كان يدين بالفلسفة الانتقائية (٤) ، طالما مالت الديانة الهندوكية ، بل احترمت الأوقاف الحكومية الخاصة بهذه الديانة في أغلب الأحيان (٥) . ومع أن خوف أكبر من عدم تأييد الجمهور له ورغبته في معالجتهم ، قد أملت عليه سياسة عدم التدخل ، وأنكرت أمثال هذه الأعمال العنيفة ، وثورات التعصب الديني ، التي كانت قد ميزت فترة الفتح والاتصاف الأولى - مع هذا كله ، جذبت أمثال هذه البواعث التي أملتها المنفعة الذاتية كثيرين من الذين تحولوا من الديانة الهندوكية إلى العقيدة الإسلامية . ولقد تحول كثير من أفراد القبائل الهندية Rajputs بهذه الطريقة ،

(١) Elliot, vol. iii. p. 386.

(٢) مذهب وحدة الوجود Pantheism . مذهب فلسفي يقول أصاده إن الله والكون واحد ، أي أن الله حال في كل شيء . وفي كل جزء منه متجدا به حتى يجوز أن يطلق الله على كل شيء .

(٣) النسبية أي المذهب الذي يقول إن المعرفة البشرية شخصية بحتة .

(٤) Mankind and the Church, p. 286. (London, 1907.)

(٥) يراد بهذه الفلسفة مذهب فرقة اغريقية ظهرت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد ، وتقول بعدم الانحياز لحزب ما ، بل باختيار الحسن من كل الأحزاب .

(٦) Sir Richard Temple : India in 1880. p. 164. (London, 1881.) Punjab

States Gazetteers, vol. xxxvi. A. Bahawalpur. p. 183.

ولا تزال سلالتهن إلى اليوم بين الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضي . وربما كان أهم هؤلاء ذلك الفرع الإسلامي الذي ينتمى إلى عشيرة بشجوتي Bachgoti ، وعلى رأسها شريف أوده Oudh الزعيم المسلم الأول . فقد روى في إحدى أساطيرهم أن الإمبراطور « باره » أسر تيلك تشند Tilok Chand ، الذي دان بالإسلام ليسترد حريته . على أن أسطورة أخرى ترجع تحوله إلى الإسلام إلى عهد همايون Humayun . ذلك أن هذا الأمير لما سمع بجمال زوجة تيلك تشند الفاتن ، أمر رجاله فقادوها إليه من أحد الأسواق . ولكن سرعان ما أنبه ضميره وردها إلى زوجها . وكان تيلك تشند قد استولى عليه اليأس ، واعتقد أنه لن يراها أبداً ، واعتراها بهذا الجليل ، اعتقد هو وزوجته الإسلام ، « الذي يلقي الناس مثل هذه العفة التي تنطوي على كرم الأخلاق » (١) . ويدي أفراد القبائل الذين تحولوا إلى الإسلام حماسة بالغة . وكثيراً ما نراهم يقاومون شعائر دينهم القديم بطريقة تثير الدهشة . وفي مقاطعة بلند شهر Bulandshahr مثلاً نرى أسرة مسلمة كبيرة تشتهر باسم لالخانى پٿان Lalkhani Pathans لا تزال تحتفظ ( مع استثناءات قليلة ) بألقابها الهندية القديمة ، وعادات أسراتها في الزواج ، على حين لا تزال هنالك فروع هندية من نفس هذه العشيرة تقيم معها إلى الآن جنباً إلى جنب (٢) . وفي مقاطعة مرزابور Mirzapur لا يزال أفراد قبيلة جشهوروار Gaharwar ، الذين يدينون الآن بالإسلام ، يحتفظون بنظمها وعاداتها وتقاليدها الهندوكية القديمة ، ويصدرون أسماءهم الإسلامية بألقاب الشرف الهندوكية (٣) .

وقد قبل إن الضغط الحكومى لم يكن قط أشد على الهندوس منه في عهد أورنج زيب Aurangzeb . وفي مقاطعات البنجاب الشرقية نجد حالات كثيرة يقال فيها إن جد العشيرة الإسلامية التي تتكون من جماعة هذه القرية قد غير دينه في عهد هذا المتعصب ، ولكي يخلص أرض القرية ، . وفي مدينة جرجاون Gurgaon القريبة من دلهى ، نجد أسرة هندية تنتمى إلى بنياس Banyas الذي لا يزال يحمل لقب شيخ ( الذي انتحله عادة الهندوس الذين تحولوا إلى الإسلام ) ، لأن أحد أفراد هذه الأسرة ، الذي انمحي نسبه الآن ، قد تحول إلى الإسلام ليخلص أملاك أسرته من المصادرة (٤) . وأرغم كثيراً من أفراد القبائل من ملاك الأراضي في مقاطعة كونيور على الدخول في الإسلام لهذا السبب نفسه (٥) . وقد قبل في بعض حالات

Gazetteer of the Province of Oudh, vol. i. p. 466. (١)

Gazetteer of the N.W.P., vol. iii. part ii. p. 46. (٢)

Gazetteer of the N.W.P., vol. xiv. part ii. p. 119. (٣)

في مقاطعة كونيور Cawnpore يحتفظ الفرع الإسلامى من أسرة ديكيت Dikhit بالعبادات الإسلامية في الولادة والزواج والوفاة . ومع أنهم لا يستطيعون تلاوة الصلاة المسماة نماز Namaz عادة ، فانهم يقيمون طقوسهم النسبية بالسجود . ولكنهم يعدون جيجك ديري Chachak Devi (لغة الجدرى والحصب) في الوقت نفسه ليدرهم عن مرض الجدرى ، ويحتفظوا بأواصر الصداقة مع اخوانهم الذين ينتمون الى نفس طبقتهم القديمة . وهم الشكور Thakurs في الحوادث العائلية ، ويسمون عادة بأسماء هندية شائعة .

(Gazetteer of the N.W.P., vol. vi p. 64.)

Ibbetson, p. 163. (٤)

Gazetteer of the N.W.P., vol. vi, p. 64. (٥)

إخرى أن هذا الجدل قد سبق أسيرا أو رهينة إلى دهلي ، حيث أرغم على الختان والتحول إلى الإسلام (١) .  
وينبغي أن نلاحظ أن مصدر هذا التحول الذي تم عن طريق الإكراه إنما هو وليد أسطورة قبلية أو محلية .  
وليس هناك إشارة (بقدر ما أمكنني الوصول إليه) إلى ذلك في العبارات التاريخية الخاصة بحكم أورنج زيب (٢) .  
وبما لا مشاحة فيه أن حكام المسلمين قد حولوا الناس إلى الإسلام بالقوة ؛ ويبدو أنه من المحتمل أن  
ما اتصف به أورنج زيب من غيرة معروفة على عقيدته الدينية قد حمل كثيرا من الأسرار الإسلامية في  
شمال الهند (التي نسي تاريخ تحولهم) على أن تنسب تبديل عقيدتهم إلى هذه الغيرة . وهذا السبب هو أقرب  
الأسباب احتمالا . وشيخ هذا ما نراه في هضبة الدكن ، حيث شارك أورنج زيب ، حيدر علي وتيبو سلطان  
Tipu Sultán (وهم أشهر حكام المسلمين في العصر الحديث) ، فيما شاع من إكراه أسرات مختلفة وطوائف  
من الأهلين ، الذين يبدأ تحولهم إلى الإسلام بلا ريب إلى عهد أقدم من هذا بكثير ، حيث لم يصل إلينا  
أية إشارة تاريخية عن الحوادث التي اكتنفت هذه المسألة (٣) .

ولعل تيبو سلطان هو الحاكم المسلم الذي أخذ على نفسه مهمة تحويل الناس إلى الإسلام بالإكراه .  
ففي سنة ١٧٨٨م أذاع المنشور التالي على أهالي ملييار : « بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على غزو بلادكم ،  
لا تزالون على عصيانكم وتمردكم ، ولا زلتم مصدر القلق والاضطراب . وفي الحروب التي نشبت في خلال  
فصلكم الممطر ، كنتم أنتم السبب في استشهاد كثير من جنودنا . وليكن هذا ، فإن ما فات مات . وإني  
مستعد لأن أتناسى الماضي . وقدحان الوقت الذي يجب أن تعدلوا عن خطتكم ، وتلزموا السكينة والهدوء ،  
وتؤدوا ما عليكم من الضرائب كما يفعل الرعايا الأخيار . وما دامت المرأة فيكم لا تنفع برجل واحد ،  
بل تعاشر عشرة رجال ، وما دمتم تزدون أمهاتكم وأخوانكم ينغمسون في حماة الرذيلة ، فإن جميع الناس  
يولدون من سفاح ، وما دمتم في علاقاتكم أكثر قحة من الوحوش الضارية ، لذلك أرى لزاما عليّ أن أنهاكم  
عن هذه العادات الأثيمة ، وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر . وإذا عصيتم أمرى وغالفتكم عن نصحي ، فقد  
أقسمت قسما حقا غير حانت فيه ولا آثم ، أن أحملكم على الصراط المستقيم ، وأن أنيلكم شرف الإسلام أجمعين ،  
وأن أسوق جميع عظائمكم كبيركم وصغيركم إلى مقر حكومتى . وقد أشعل هذا المنشور نار الثورة في ملييار . ففي

== قارن أيضاً ما ورد في نفس هذا المصدر vol. xiv. part. iii. p. 47. « إن الإذاع المسلمين لم يكن عددهم كبيرا ،  
وهم الآن مسلمون دخلوا حدينا في الإسلام . ويرجع معظمهم تاريخ تحولهم إلى حكم أورنج زيب . ويصفوه بأنه كان أحيانا نتيجة  
للإضطهاد ، وأحيانا أخرى وسيلة لتفكيكهم من الاحتفاظ بحقوقهم إذا عجزوا عن أداء الخراج .. »

Ibbetson, p. 163. (١)

(٢) حقا قال فرشته Firishtah في وروح : « ولقد بلغ من نحمسه لعقيدة محمد أنه كافأ الذين تحولوا إلى الإسلام  
بالإغداق عليهم ، ولو أنه لم يؤثر عنه أنه كان يمتطد هؤلاء الذين يدينون بفتايد أخرى في الأمور الدينية .. »

(The History of Hindostan, translated from the Persian by Alexander Dow,  
vol. iii, p. 361) (London, 1812.)

The Bombay Gazetteer, vol. xxii. p. 222. vol. xxiii. p. 282. (٣)

مستهل سنة ١٧٨٩ أعد تيبوسلطان جيشا جرارا يتألف من عشرين ألف مقاتل لتنفيذ هذا المنشور بالقوة ، وأصدر أوامرا عامة بأن كل شخص في هذه المقاطعة يجب أن يتشرف بالدخول في الإسلام من غير تمييز . وأن دُور الذين يفرون تخلصا من هذا الشرف ، يجب أن تحرق ، وأن يقتنى أثرهم حتى يصلوا إلى مكائهم ، كما يجب أن تستخدم كافة وسائل الصدق والنفاق ، والقوة أو الخداع ، في حملهم جميعا على تغيير دينهم . وعلى أثر ذلك اختنن آلاف من الهندوكيين ، وحملوا على أن يأكلوا لحم البقر . على أن الجيوش الإنجليزية لم تلبث أن قضت على ما بقي من قوة تيبوسلطان في أواخر سنة ١٧٩٠ م ، ولقي هذا الحاكم حتفه في مستهل سنة ١٧٩٩ باستيلاء الإنجليز على سرى رنجاپتم Seringapatem (١) ، وأنكر معظم البراهمة والنيار Nayers الدين الإسلامي ورفضوه ، وعادوا إلى دينهم القديم (٢) .

ويمكن أن نحكم على مبلغ ضآلة تأثير انتشار الإسلام بالإكراه من جانب الحكام المسلمين من هذه الحقيقة وهي ، أنه حتى في المراكز التي يسود فيها النفوذ الإسلامي ، مثل دهلي وأجرا ، لا يكاد يعدو عدد المسلمين في العصور الحديثة على العشرة في المائة من سكان الإقليم الأول ، على حين أن عدد المسلمين في الإقليم الثاني لا يكاد يبلغ ربع السكان (٣) . وهناك مثل بارز نسوقه على عدم أهمية تحويل الناس إلى الإسلام عن طريق الإكراه . ويتجلى هذا المثل في حالة بوده ممل Bodh Mal راجا مجهولي Raja of Majhauri في مقاطعة جوركه پور Gorakhpur . فقد قبض عليه « أكبر » بسبب اختلاسه أموال الخراج ، وحمل إلى دهلي حيث تحول إلى الإسلام وتسمى باسم محمد سليم . على أنه لما عاد ، رفضت زوجته أن تسمح له بالدخول إلى قلعة أجداده ، ولما جذبت عطف رعيته إلى جانبها على ما يظهر ، حكمت بلاده في الوقت الذي كان ابنه بهوانى مال Bhawani Mal قاصرا ؛ وبذلك ظل الحكم في هذا البيت دون أن يتعرض له أحد من غير أفراد (٤) . وقد بقى إلى الآن بعض مخلفات عجيبة تدل على تهاة تحول الناس إلى الإسلام بطريقة مائلة ، نلاحظها في بعض طقوس الطائفة الهندوكية التي يطلق عليها اسم بشنوي Bishnois ؛ ومن شعارها الرئيسية إنكار جميع آلهتهم الهندوكية عدا وشنو Vishnu . وقد اعتادوا حديثا أن يدفنوا موتاهم بدل إحراقهم بالنار ، واتخذوا اسم « غلام محمد » وغيره من الأسماء الإسلامية ، واستعملوا الصيغة التي يستعملها المسلمون في السلام . وقد فسروا انتهاك هذه العادات الإسلامية بقولهم إنهم ذبحوا مرة قاضيا كان قد تدخل في طقوسهم الخاصة بإحراق الأرامل ، فكفروا عن خطيتهم باعتقادهم الإسلام . على أنهم قد رفضوا الآن إقامة هذه الشعار مراعاة للعادات الهندوكية (٥) . على أن بعض حكام المسلمين لم يكونوا ، على الرغم من ذلك ، أكثر نجاحا في إكراه بعض رعاياهم من الهندوكيين على قبول الإسلام ، مما كانوا عليه في الحالات التي ذكرناها

(١) تقع في ولاية بيسور جنوبي الهند ، وقد أسسها حيدر علي في القرن الثامن عشر

(٢) Innes, pp. 72-3, 190.

(٣) Sir W. W. Hunter : The Religions of India ( The Times, February 25th 1888.)

(٤) Gazetteer of the N. W. P. vol. vi. p. 518.

(٥) Gazetteer of the N. W. P. vol. v. part i. pp. 302-3

أنفا ؛ ومهما يكن مبلغ الصدق فيما زعمه بعض الباحثين من أنه (١) ، من المحال أن ندنو حتى من الجانب الديني الخاص بموقف المسلمين في الهند ، من غير أن تتمثل مظهره السياسي أولا ، فإننا نجد بلا ريب أن الإسلام قد أحرز أعظم انتصاراته وأطولها بقاء في نشر الدعوة في الأزمان والأماكن التي كانت فيها قوته السياسية أشد ما تكون ضعفا ، كما كانت الحال في جنوب الهند وفي شرق البنغال . ولا بأس من أن نعرض هنا لبعض أمثال حركات الدعوة ، مبتدئين بجنوب الهند وهضبة الدكن ، وبعد أن نعرض للكلام على تاريخ السند والكتش Cutch وجوجرات ، ننقل إلى البنغال ، وأخيرا نشير إلى بعض ما قام به الدعاة في خارج نطاق هذه الحدود الجغرافية التي تقدم ذكرها . أما هؤلاء الدعاة الكثيرون ، فلم يدون المؤرخون عنهم إلا أخبارا قليلة ، اللهم إلا ما ذكروه عن أسماهم وبجمال أعمالهم ؛ ومن ثم لا نجد في متناول أيدينا تفاصيل في هذا الصدد نظرا إلى ندرة أمثال هذه الأخبار الخاصة بالدعوة بوجه عام .

ويرجع دخول الإسلام في جنوب الهند لأول مرة إلى القرن الثامن الميلادي ، حين قدم جماعة من اللاجئين من العراق ، - وكانوا يرجعون منشأهم إلى المايبلا Mappillas - واستقروا في هذه البلاد (٢) . وكان العرب والفرس يزاولون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها بين الهند وأوروبا مئات كثيرة من السنين . وقد أدى ذلك إلى توالي تدفق النفوذ الإسلامي على الساحل الغربي من بلاد الهند الجنوبية . وكان من أثر تدفق الأجانب المستمر على هذا الإقليم أن نشأ خليط من السكان يتألف بعض منه من الدم الهندي ، وبعض آخر من الدم العربي أو الفارسي ، وذلك في مراكز التجارة الواقعة على طول الساحل . ويبدو أن علاقات ودية وطيدة نشأت بين هؤلاء التجار المسلمين والحكام الهنود الذين بسطوا لهم حمايتهم ومددوا لهم يد المؤازرة والمعاضدة ، نظرا إلى نشاط الحركة التجارية المتزايد ، وما تبع ذلك من رخاء البلاد الذي كان نتيجة لبقاء هؤلاء التجار فيها (٣) . ولم تقف عقبات في سبيل نشر تعاليم الدعوة ، ولقي الذين دخلوا في الإسلام من أهالي هذه البلاد الاحترام والتقدير اللذين لقيهما التجار الغرباء ، مع أنهم كانوا قبل إسلامهم ينتمون إلى أحط طبقة في المجتمع (٤) .

وتصور الأخبار المنقولة عن دخول الإسلام في مليبار ، كما أوردها مؤرخ مسلم عاش في القرن السادس عشر الميلادي ، أن أسبق الدعاة كانوا جماعة من الحجاج في طريقهم لزيارة أترقدم آدم في سيلان . فلما وصلوا إلى جرنجانور Cranganore بعث الراجة في طلبهم ، ووجد الشيخ شرف بن مالك ، زعيم هذه الجماعة ، وكان في صحبة أخيه مالك بن دينار ، وابن أخيه مالك بن حبيب ، الفرصة سانحة لأن يبسطوا له عقيدة الإسلام ورسالة محمد ، فأدخل الله سبحانه في قلبه صدق النبي ﷺ فأمن به ، ودخل في قلبه

(١) Sir Alfred C. Lyall : Asiatic Studies, p. 236.

(٢) نجد على مقبرة من مقابر Pantalayini Kollam تقريبا بحول تاريخ ١٦٦ هـ (Innes, p. 436).

(٣) زين الدين ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٦ .

حب النبي ﷺ ، وأمر الشيخ بأن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام (١). ولما عاد الحجاج من سيلان رحل الملك معهم خفية في سفينة كانت على أهبة الرحيل إلى ساحل بلاد العرب ، تاركا مملكته في أيدي نوابه . وهنا بقي وقتا ما . ولما أوشك أن يعود إلى بلاده ، معتما ببناء المساجد ونشر عقيدة الإسلام فيها ، انتابه المرض ومات . وقد أوصى رفاقه وهو على فراش الموت ، وشدد في الوصية ، ألا يعدلوا عن رحلتهم التي أزمعوا القيام بها إلى مليبار لنشر الدعوة ، وأن يساعدوهم على أداء مهمتهم ، وأعطاهم كتابا إلى نوابه يوصيهم فيها بهم خيرا ، وأمر رفاقه في الوقت نفسه أن يكتبوا حقيقة موته . ولما تسلم شرف بن مالك ورفاقه بهذه الكتب أبحروا إلى جرنجانور ، حيث أتاحت لهم رسالة الملك حفاوة كريمة ومنحة من الأرض عمروا عليها مسجدا . وقد عزم مالك بن دينار على الاستقرار في هذه البقعة ، ولكن مالك بن حبيب سافر في رحلة ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية وبناء مساجد في كافة أرجاء مليبار . وخرج مالك بن حبيب إلى كولم ، بماله وزوجته وبعض أولاده ، وعمر بها مسجدا ، ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته فيها إلى هيلي ماراوى (٢) وعمر بها مسجدا . وكذا تستمر القصة ، فتورد سبعة أماكن أخرى بنى هذا الداعي فيها مساجد ، ثم عاد أخيرا إلى جرنجانور . وقد زار كل هذه الأماكن أخيرا للمرة الثانية ليؤدي الصلاة في كل منها ، ورجع إلى وطنه ، شاكرًا الله وحامدا له بظهور دين الإسلام في أرض ممثلة ككفرا (٣) .

وليس هناك دليل على صحة هذه الرواية من الناحية التاريخية ، على الرغم مما تتصف به من الإسهاب . ويضع الاعتقاد السائد تاريخ وقوع هذه الحوادث المدونة إلى الزمن الذي عاش فيه النبي . وقد ظن زين الدين في شيء قليل من الشك أن هذه الحوادث إنما وقعت بعد المائتين من الهجرة النبوية (٤). ولكن ليس هناك ما يؤيد ترجيح أحد هذين التاريخين على الآخر ، أو ما يؤيد رواية المايبلا الشائعة الخاصة بوجود قبر أحد ملوك الهندوكيين في ظفار على ساحل بلاد العرب ، وقد نقش عليه ، عبد الرحمن السامري ، قدم سنة ٢١٢ هـ ، وتوفي سنة ٢١٦ هـ (٥) . كما يحمل المسجد الذي بنى في مدائي ، والذي قيل إن الذي بناه هو مالك بن دينار ، نقشا تذكرًا لبنائه في سنة ١١٢٤ م (٦) .

على أن الأسطورة تحمل في الواقع الدليل على طابع المسألة الذي اتسمت به مؤثرات نشر تعاليم

(١) زين الدين ص ٢١ .

(٢) هي مدينة مدائي الحديثة .

(٣) زين الدين ص ٢٣ - ٢٤ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥ .

(٥) Innes, p. 41.

(٦) Id. p. 398.

الدعوة التي كانت قائمة على ساحل مليبار قرونا عدة . وكان الأفراد الذين قاموا بهذا العمل تجارا من العرب خاصة . بيد أن ابن بطوطة يذكر كثيرا من علماء الدين الذين اتخذوا تعليم الدين حرفة ، وقد جاءوا من بلاد العرب وغيرها ، وقد قابلهم في مدن شتى على ساحل مليبار (١) . وقد قيل إن زامورن ، وكان أحد كبار أنصار التجارة العربية في قليقوط ، شجع دخول الناس في الإسلام ، ليجهز السفن العربية التي اعتمد عليها في إعلام مكاتته ، كما قيل إنه أمر بأن يكون في كل أسرة من صيادي السمك في بلاده فرد أو أكثر من الذكور ينشئون تنشئة إسلامية (٢) . وفي مستهل القرن السادس عشر قدر عدد أهالي المايبلا بأنهم كانوا يؤلفون خمس سكان مليبار ، وأنهم كانوا يتكلمون بلغة الهندوكيين ، ولم يتميزوا عنهم إلا بلحاهم الطويلة ولباس رأسهم الخاص . ولكن حين قدم البرتغاليون ، كان من الممكن أن يدخل جميع أهالي هذا الساحل في الإسلام . بسبب ما حدث من كثرة تحول الناس إلى الإسلام ، وما كان لتجار المسلمين الذين جاءوا من سائر جهات الهند مثل جوچرات والدكن ، ومن بلاد العرب وفارس ، من نفوذ قوى (٣) .

ولكن يظهر أنه ليس هناك خبر مدون عن الأفراد الذين قاموا بتصيب في نشر الدعوة ، اللهم إلا ما ذكره المؤرخ عبد الرزاق ، الذي ترك لنا وصفا لسفارته التي لم تصادف نجاحا في بلاط زامورن ملك قليقوط . فقد أرسله الشاه روح بهادر أحد ملوك الأسرة التيمورية في هذه السفارة سنة ١٤٤١ ، تلبية لنداء أحد السفراء ، وكان قد أرسله زامورن ملك قليقوط إلى هذا الملك . وكان السفير نفسه مسلما ، وقد صور للسلطان أن إرسال رسالة خاصة إلى الزامورن أمر على جانب عظيم من السمو والأهمية ، وطلب إليه أن يدعو الزامورن لقبول الإسلام اتباعا لأمره تعالى : ( اُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ) (٤) ، وافتح مغلاق الظلمة والباطل الذي أوصد قلبه المظلم ، ودع بهاء نور الإيمان ، وسطوع ضياء الشمس بشرقان من نافذة روحه . وقد اختير عبد الرزاق (٥) لهذه المهمة ، فوصل إلى قليقوط بعد رحلة

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ٨٢ ، ٨٨ وغيرها .

(٢) Innes, p. 190.

(٣) Oboards Barbosa, p. 310.

وكذلك زعم بعض أن سيلان لم تصبح مملكة إسلامية إلا بعد قدوم البرتغاليين . ذلك أنه قيل أن تظهر قرات البرتغاليين في البحار الهندية ، كان تجار العرب سادة التجارة في هذه الجزيرة بلا تازع ( حيث كانوا في الواقع قد كونوا مستعمرات تجارية قبل مولد النبي قرون ) ، كما كانوا يوجدون في كل ميناء ومدينة ، بينما جذبت سهولة التجارة جماعات كبيرة من وفود جديدة جاءت من مستعمراتهم في مليبار . وهنا صنع تجار العرب ما كانوا يصنعونه في أي مكان ، فصاهرروا إلى أهال هذه البلاد ، ونشروا دينهم على طول الساحل . ولكن يظهر أنه لم تقم هناك حركة فعالة صحيحة لنشر تعاليم الدعوة ، بل لم يظهر السغاليون غير راغبين في اعتقاد الاسلام ، كما يظهر أن معظم مسلمي سيلان في الوقت الحاضر ينتمون إلى أصول عربية .

Sir James Emerson Tennent : Ceylon, vol. i. pp. 631-3. (5th ed., London, 1860.)

(٤) سورة ١٦ آية ١٢٦ .

(٥) مطلع السعدين ، ورقة ١٧٣ .

محفوفة بالمخاطر ؛ ولكن يظهر أنه قوبل بمقابلة جافة . وبعد أن مكث هناك نحواً من ستة أشهر ، ترك الأغراض الأساسية ، وقفل راجعاً إلى خراسان فوصل إليها بعد أن تغيب ثلاث سنين .

وهناك جماعة أخرى من المسلمين في جنوب الهند ، وهم الرفوتتان Ravuttans<sup>(١)</sup> ، الذين يعزون دخولهم في الإسلام إلى تعاليم الدعاة الذين يمجدون قبورهم حتى الوقت الحاضر . وكان سيد نتهرشاه<sup>(٢)</sup> (٩٦٩ — ١٠٣٩ م) أشهر هؤلاء الدعاة ؛ وكان قد طوّف كثيراً في بلاد العرب وفارس وشمال الهند ، ثم استقر في ترتشناپلي Trichinopoly ، حيث قضى بقية حياته في العبادة وأعمال الخير ، وحول عدداً كبيراً من الهندوكيين إلى عقيدة الإسلام . وكثيراً ما يؤم الناس قبره وبعدهونه مكاناً للحج . وقد أطلق المسلمون على ترتشناپلي اسم تهرنجر ، تيمناً باسم هذا الولي<sup>(٣)</sup> . وكان سيد إبراهيم شهيد ( ويقال إنه ولد حول منتصف القرن الثاني عشر ) ، وضريحه على شاطئ نهر إراودي بطلا محارباً ، قاد حملة إلى مملكة Pandyan ، واحتل هذه البلاد اثنتي عشرة سنة تقريباً ، ولكنه قتل أخيراً . على أنهم أنقذوا حياة ابنه تقديراً للحكم أبيه الحافل بالخير ، ومنح قطعة من الأرض ، ولا يزال أعقابهم ينعمون بها إلى اليوم . وكان آخر هؤلاء الأولياء شاه الحميد ( ١٥٣٢ — ١٦٠٠ ) ، وقد ولد في مانكپور في شمال الهند ، وقضى معظم حياته في زيارة مشاهد الإسلام المقدسة ، وفي القيام برحلات لنشر الدعوة وخاصة في كل أرجاء جنوب الهند ؛ واستقر أخيراً في ناجور حيث لا يزال أعقاب ابنه المتبنى يتعهدون قبره<sup>(٤)</sup> .

وهناك جماعة أخرى من المسلمين في جنوب الهند ، وهم الدودي كولا Dudekulas ، يعيشون على تنقية القطن ( كما يدل على ذلك اسمهم ) ، ونسج الأقمشة الخشنة ، ويعزون دخولهم في الإسلام إلى بابا نجر الدين الذي يمجدون قبره في بينوكنده Penukonda . وتقول الأسطورة إنه كان في الأصل ملكاً على سيستان ، ثم نزل عن عرشه لأخيه وأصبح من سُؤال الهندو المتدينين . وبعد أن حج إلى مكة والمدينة أمره النبي في الرؤيا بأن يذهب إلى الهند ؛ وهنا قابل تهر شاه ولي ترتشناپلي وتلبذ عليه ، فأرسله في صحبة مائتين من سُؤال المتدينين في بعثة لنشر تعاليم الدين . وتستمر الأسطورة فتخبرنا أنهم استقروا أخيراً في بينوكنده على مقربة من معبد هندي . حيث لم يرحب راجا هذا المكان بوجودهم ، ولكن بدلاً من أن يلجأ إلى القوة ، أجرى اختبارات كثيرة ليقف على ما إذا كان هذا الولي المسلم أو كاهن هذا الراجة

(١) ونجد هؤلاء بصفة خاصة في مقاطعات مدورا ، وتناول Tinnevely وكويم بتور Coimbatore وأركوت الثبالية North Arcot وأمال نيل جيريم Nilgiris من الذين يتكلمون لغة تامل Tamil ( وهي لغة يتكلم بها أهالي جنوب الهند ) .

(٢) وتنطق بحـمة Imperial Gazetteer of India (vol. xxiv, p. 47) اسمه نادر شاه ، ويطلق قادر

حسين خان عليه اسم تندرولي .

(٣) Madras District Gazetteers. Trichinopoly, vol. p. 338. (Madras, 1907.)

Qadir Husayn Khan : South Indian Musalmans, p. 36. (Madras, 1910.)

Qadir Husayn Khan, pp. 36-8. (٤)

أحق بالقداسة التي تؤهله لامتلاك المعبد . وفي اختباره الأخير أمر بكلهما أن يربطا في أكياس مملوءة  
كلسا ، ثم يلقي بها في صحاريج . وقد رسب السكاهن الهندوكي ولم يظهر ، ولكن بابا نجر الدين برهن على  
تفوق عقيدته بأن انتقل بمعجزة إلى تل في خارج المدينة . ومن ثم دخل الراجا في الإسلام ، وحذا حذوه  
عدد كبير من سكان البلاد المجاورة ، وتحول المعبد إلى مسجد (١) .

ولا شك أن تاريخ الإسلام في جنوب الهند ظل دائما يتسم بطابع السلام ، ولكن لا يبدو أن تحول  
الهندوكيين وغيرهم إلى الإسلام عن طريق الإكراه ، الذي ارتكب في الوقت الذي أصبح فيه النفوذ  
الإسلامي مطلقا في عهد حيدر علي ( ١٧٦٧ - ١٧٨٢ ) وتيبو سلطان ( ١٧٨٢ - ١٧٩٩ ) ، يمكن  
أن يوازن بما كانت عليه الحال في تاريخ هذا الجزء من بلاد الهند الذي سبق هذا العهد . على أنه مهما  
يكن من أمر ، فليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن تحويل الناس المطرد إلى الإسلام بالطرق السلبية كان  
من بين الطبقات السفلى (٢) ، كما هي الحال في الوقت الحاضر حين يزداد دخول الناس من حين إلى حين من  
بين أفراد قبيلة تيان Tiyans ، الذين يقال إنهم يكونون إحدى الجماعات التي تعد من أكثر الجماعات تقدما  
في الهند ، وجماعة مكه و Mn Mukkuvans ، أي طبقة السماكين ، وكذلك من طبقة تشرومن Cherumans  
أي حراث الأرض ، وغيرها من طبقات الرقيق ، الذين يخلصهم الإسلام من القيود التي تلحق بالمنبوذين  
في نظام الهند الاجتماعي . وقد يحدث كذلك أن يؤخذ الداخلون في الإسلام من بين النيار والأهالي  
المسيحيين . وفي بوناني Ponnani ، مقر الرئيس الروحي لجماعة المسلمين في ملييار ، توجد رابطة يطلق عليها  
« منة الإسلام سبها » ، أي مجلس منة الإسلام ، حيث يلتقن الذين يدخلون في هذا الدين شعائر دينهم الجديد ،  
وتقدم المساعدات المادية إلى هؤلاء الذين ينظمون في سلك التعليم . وكان متوسط عدد الذين قبلوا في هذا  
المعهد ممن تحولوا إلى الإسلام ٧٥٠ في خلال السنوات الثلاث الأولى من القرن العشرين (٣) . وقد بلغ من  
كثرة تحول الناس من الديانة الهندوكية أن ميول مسلمي الساحل الغربي ، وكذلك الساحل الشرقي لبلاد  
الهند الجنوبية ، كانت تفتح إلى الطابع الهندوكي أو الوطني . ويمثل السواد الأعظم منهم الآن ، اللهم إلا في  
حالة بعض الأسر التي تنتمي إلى أصل أرقى ، كل الصفات التي يتميز بها شعب أصيل في القومية ، مع قليل  
جدا من الدم الأجنبي القديم الذي يجري في عروقهم (٤) . وفي الأقاليم الواقعة على الساحل الغربي نجد  
طغيان التعصب الطبقي يمتاز بالجور والظلم . ولنأت بمثال واحد . ففي تراونكور Travancore  
لا يسمح لبعض الطبقات السفلى أن تقترب من البرهمي بأكثر من أربع وسبعين خطوة ، كما يجب عليهم أن

Qàdir Husayn Khàn, op. cit. pp. 39-42. Madras District Gazetteers. (١)

Anantapur, vol. i. pp. 193-4. (Madras, 1905).

(٢) زين الدين ص ٢٣ (١ ص) ٢٦٠ (١ ص)

Innes, p. 190. Census of India, 1911. Vol. xii. Part. 1. p. 54. (٢)

Report on the Census of the Madras Presidency, 1871, by W. R. (٤)

Cornish, pp. 71, 72, 109. (Madras, 1874).

يصيحوا بصوت كهوت الخنزير وهم يمرون في الطريق إذانا بدنوهم . وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع للتدليل على صحة هذا القول . لذلك لا نعجب إذا رأينا الأهالي المسلمين يزداد عددهم بسرعة بسبب دخول الناس في الإسلام من بين هذه الطبقات السفلى الذين يحررون أنفسهم بذلك من مثل هذا الظلم الذي يحقر من شأنهم ، والذين يرفعون منزلتهم ومنزلة ذرياتهم في المجتمع .

ويقال في الواقع إنه قد بلغ من ازدياد عدد الماييلا الذين يقيمون على الساحل الغربي بسبب من دخل في الإسلام من الطبقة الهندوكية السفلى ، أن أصبح في الإمكان أن تتحول كافة الأجناس السفلى التي تقيم على الساحل الغربي إلى الإسلام في سنوات قليلة (١) .

وأغلب الظن أن الإسلام قد عبر من مليبار إلى جزائر لكديف وملديف (في خليج بنغالة) التي نجد كافة أهلها الآن مسلمين . ويدين سكان هذه الجزائر بدخولهم في الإسلام إلى تجار العرب والفرس ، الذين استوطنوا هذه البلاد ، وتصاهروا إلى الأهالي ، ومهدوا بذلك السبيل لنشر تعاليم الدعوة في نشاط وقوة . وقد زعم بعض أن تاريخ تحول أول سلاطين جزائر ملديف من المسلمين ، وهو أحمد شنورازة (٢) ، كان حول سنة ١٢٠٠ م . ولكن من المحتمل جدا أن تجار المسلمين كانوا قد أدخلوا دينهم إلى الجزيرة قبل ذلك بوقت لا يقل عن ثلاثة قرون ، وأن خطوات هذا التحول لا بد أن تكون من غير شك قد تمت تدريجا (٣) . بيد أنه لم تصل إلينا معلومات تفصيلية عن ذلك التحول .

وفي مالي Malé ، وهي مقر الحكومة ، نجد ضريح الشيخ يوسف شمس الدين ، أحد أهالي تبريز في إيران . وقد قيل إنه كان من دعاة الإسلام الذين أحرزوا نجاحا في نشر الدعوة في هذه الجزائر . ولا يزال الناس يعظمون قبره ، ويقومون دائما على إصلاحه ، كما دفن في نفس هذه الناحية من الجزيرة بعض مواطنيه الذين جاءوا للبحث عنه ، وبقوا في جزائر ملديف حتى زمن وفاتهم (٤) .

ويعزى دخول الإسلام في الأماكن التي تجاور جزائر لكديف إلى داعٍ عربي ، عرفه سكان الجزائر باسم تشبا ملايكا ؛ ولا يزال قبره يشاهد في أندروتة . ولما كان قاضي هذا المكان في الوقت الحاضر يدعى أن هذا الداعي هو جده السادس والعشرون ، لا يبعد أن يكون هذا الداعي قد وصل إلى هذه الجزائر

(١) Report of the Second Decennial Missionary Conference held at

Calcutta, 1882-3 (pp. 228, 233, 248). (Calcutta, 1883.)

(٢) ابن بطوطة ج ٤ ص ١٢٨ . أقم ابن بطوطة في جزائر ملديف في سنتي ١٣٤٣ - ١٣٤٤ م ، وتزوج ابنة وزير ، وكان حفيد السلطان داود ، الذي كان حفيد السلطان أحمد شنورازة ( ج ٤ ص ١٥٤ ) . ومن هذا البيان أخذنا هذا التاريخ وهو سنة ١٢٠٠ م عن طريق الحدس والتخمين .

H.C.P. Bell : The Maldivé Islands, pp. 23-5, 57-8, 71 (Colombo, 1883). (٣)

Memoir on the Inhabitants of the Maldivé Islands. By J. A. Young (٤)

and W. Christopher. (Transactions of the Bombay Geographical Society from 1836 to 1838, p. 74, Bombay, 1844).

في وقت ما في القرن الثاني عشر (١).

كذلك كانت منطقة الدكن مسرحا لأعمال موفقة قام بها كثير من دعاة المسلمين . وقد أشرنا من قبل إلى أن تجار العرب كانوا قد زاروا منذ عصور مبكرة جدا المدن الواقعة على الساحل الغربي . ويروى أن جماعات كبيرة من العرب استقروا في القرن العاشر في مدن إقليم كان كن ، وذلك عند ما تزوجوا من نساء البلاد وعاشوا على شرائعهم وديانتهم (٢) . وفي عصر أسرتي ملوك بهمنى (١٣٤٧—١٤٩٠) وبيجاپور (١٤٨٩—١٦٨٦) دفع إلى الهجرة العربية روح جديد ، فقدم الدعاة مع التجار والجنود من ذوى الغنى واليسار يلتمسون القيام بغزوات روحية لأجل الدعوة إلى الإسلام ، واكتسب الشعب الكافر في تلك البلاد بدعوتهم إلى الإسلام وطلب الاقتداء بهم . ذلك أنه ليس لدينا خبر مدون عن حدوث تحول عن طريق القوة والإكراه في عهد أسرات الدكن المبكرة ، التي يتميز حكمها بتسامح ديني بالغ (٣) .

وقد وفد أحد دعاة العرب ، واسمه پيرماهير (†) غام دايت ، على بلاد الدكن في عصر مبكر يرجع إلى سنة ١٣٠٤ م . ونجد من بين الطبقات المستنيرة في بيجاپور سلالات من الجين Jains تحولت على يديه (٤) . وحول نهاية هذا القرن نفسه ، أدخل ولي مشهور من جلبرجه (S) Gulbarga ، ويدعى سيد محمد جيسودراز (٥) ، عددا من هنود مقاطعة پونا في الإسلام ، كما تسكلت أعماله بمثل هذا النجاح في منطقة بلجام أو بلجاون Belgaum بعد عشرين سنة (٦) . ولا يزال يقيم في دهانو ، سلالة أحد أقرباء أعظم أولياء الإسلام ، السيد عبد القادر الجيلاني ولي بغداد . وقد جاء إلى بلاد الهند الغربية حول القرن الخامس عشر ، وبعد أن أدخل كثيرا من أهالي كان كن في الإسلام ، توفي ودفن في دهانو (٧) . وفي مقاطعة دهاروار جماعات كبيرة من عمال النسيج ، كان أجدادهم قد تحولوا إلى الإسلام على يد هاشم بيرجوجرات ، وكان المعلم الروحي لإبراهيم عادل شاه الثاني أحد ملوك أسرة بيجاپور ، وذلك حول نهاية القرن السادس عشر . وهؤلاء القوم لا يزالون ينظرون إلى هذا الولي بعين الرعاية والتجلة ، ويحترمون ذريته

(١) Innes, pp. 485, 492.

(٢) المسعودى ٣ ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) The Bombay Gazetteer, vol. x. p. 132 ; vol. xvi. p. 75.

(†) پير = مرشد ، وماه = أكبر ، أير = ناسك

(٤) Id. vol. xxiii. p. 282.

(S) اسم مدينة في هضبة الدكن تدخل في ممتلكات نظام حيدر آباد .

(†) كلمة فارسية معناها الطويل الشعر ( جيسو = شعر ، ودار = طويل ) .

(٥) ويطلق عليه أحيانا سيد مخدوم جيسودراز .

(٦) The Bombay Gazetteer, vol. xviii. p. 501 ; vol. xxi. pp. 218, 223.

(٧) Id. vol. xiii. part i. p. 231.

احتراما عظيما<sup>(١)</sup>. ولا تزال سلالة ولي آخر ، يدعى شاه محمد صادق سر مست حسيني ، تقيم في ناسك (S). وقد قيل إنه كان أكثر دعاة المسلمين توفيقا في دعوته ؛ فإنه بعد أن قدم من المدينة في سنة ١٥٦٨ ، تنقل في معظم جهات الهند الغربية ، واستقر أخيرا في ناسك - وكان قد بدأ في هذه المقاطعة داع آخر من دعاة المسلمين ، اسمه خواجة خوند مير حسيني ، عمله في نشر الدعوة قبل ذلك التاريخ بنحسين سنة ، ولاقى نجاحا عظيما في هذه السبيل<sup>(٢)</sup> . وهناك داعيان عريان آخران ، يمكن الإشارة إليهما ، وكان مسرح جهودهما التعليمية في مقاطعة بلجام ، ويدعى أحدهما سيد محمد بن سيد علي ، والآخر سيد عمر عيديروس ييش بان<sup>(٣)</sup>. وهناك حركة أخرى لنشر الدعوة ، يمكن أن يقال على وجه التقريب إنها كانت تتركز حول مدينة الملتان<sup>(٤)</sup> . وكانت هذه المدينة في الأيام الأولى من الفتح العربي ، أحد المراكز الإمامية للإسلام ، حينما كان محمد بن القاسم قد أسس حكومة إسلامية كانت لها السيادة في السند ( سنة ٧١٤ م ) . وفي خلال القرون الثلاثة الأولى من الحكم العربي ، كان طبعيا أن يدخل كثير في دين الفاتحين . وقد استجاب كثير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز لإياهم إلى اعتقاد الإسلام<sup>(٥)</sup>. وتحدث البلاذري (الذي كتب بعد ذلك بمائة عام ) عن شعب ساون داري Sawandari - وقد خضعوا لمحمد بن القاسم ومنحهم السلام على شريطة أن يرحبوا بالمسلمين ويمدوهم بأدلاء لمعرفة بلادهم - واعتبر هذا المؤرخ أنهم أقروا بالإسلام في عهده ؛ وكثيرا ما تشير الرسائل الرسمية التي كتبها الفاتحون إلى دخول الكفار في الإسلام . ويمكن أن نحكم على أن حالات التحول هذه كانت في جوهرها بمحض إرادة الذين أسلموا . من ذلك التسامح الديني ، الذي أظهره العرب لرعاياهم الوثنيين بعد غزوتهم الأولى التي امتازت بشيء من العنف ؛ مثال ذلك ، أنه سمح لشعب برهمن آباد ، وكانت مدينتهم قد فتحت عنوة . بإصلاح معبدهم الذي كان مصدر عيش البراهمة ، وما كان لاحد أن يحرم أو يجال دون إقامة شعائر دينه الخاصة<sup>(٦)</sup> . وكان الفاتحون بوجه عام ، لا يترددون في تخصيص حى من أحياء المدينة لأصحاب الديانات الأخرى ، حيث وجدوا منهم الخضوع والتسليم ، كما كانوا يسمحون للشعب بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة .

وفي خلال المتاعب التي حلت بالخلافة في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي ، آلت بلاد السند ، وكانت الحكومة المركزية قد أهملت شأنها ، إلى الانقسام بين عدد من صغار الأمراء ، وكان أعظمهم

The Bombay Gazetteer, Id. vol. xxii. p. 242. (١)

(S) اسم مدينة في غرب الهند ، وهي مكان مقدس عند الهندوكيين .

Id. vol. xvi. pp. 75-6. (٢)

Id. vol. xxi. p. 203. (٣)

(٤) في زمن الفتح العربي ، كانت أملاك حاكم السند الهندوكي تمتد شمالا حتى هذه المدينة التي لم تعد الآن داخلة في هذه الامارة.

(٥) البلاذري ص ٤٤١ ( في نهاية الصفحة ) .

(٦) Elliot, vol. i. pp. 185-6. (٦)

نفوذا أمراء الملتان والمنصورة . وكان طبيعيا أن يضمف مثل هذا التمسكك من قوة المسلمين السياسية التي كانت في الواقع قد أخذت في الاضمحلال في وقت أسبق من ذلك الوقت في هذا القرن نفسه . ففي عهد المعتصم ( ٨٣٣ — ٨٤٢ م ) ، أعلن هنود سندان (١) أنهم مستقلون ، ولكنهم أبقوا على المسجد حيث سمحوا للمسلمين أن يجتمعوا فيه ويدعوا للخليفة (٢) . وقد نجح مسلمو الملتان في الاحتفاظ باستقلالهم السياسي ، واحتاطوا لأنفسهم من أن يغزوهم أمراء الهنود الذين يجاورون بلادهم ، وذلك بأن أندروهم إذا هاجمهم هؤلاء الأمراء ، أن يحطموا صنما كانت تعظمه الهند وتحمج إليه من أقاصى بلدانها (٣) . ولكن في اللحظة التي كان المسلمون فيها في انحلال من الناحية السياسية ، كان الإسلام لا يزال يحرز نجاحا متواليا في نشر الدعوة . ويروي البلاذري (٤) القصة التالية عن تحول أحد ملوك العيفان إلى الإسلام ، وهي بلاد تقع بين قشمير والملتان وكابل . وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما قد بنى عليه بيت . فرض ابن الملك ، فدعى سدة ذلك البيت ، فقال لهم ادعوا الصنم أن يبرى\* ابني ، فغابوا عنه ساعة ، ثم أتوه ، فقالوا قد دعونا وقد أجابنا إلى ما سألناه . فلم يلبث الغلام أن مات ، فوثب الملك على البيت فهدمه ، وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدة فقتلهم . ثم دعا قوما من تجار المسلمين ، فعرضوا عليه التوحيد ، فوحد ، وأسلم . وهناك أثر من آثار نشر الدعوة ، يشبه ذلك المثل ، أحدثته ، من غير شك ، تلك الجماعات المتعددة من تجار المسلمين الذين حملوا ديانتهم إلى مدن في هندستان ، يدين أهلها بالكفر . ويذكر جغرافيو العرب في القرنين العاشر والثاني عشر ، أسماء كثير من أمثال هذه المدن ، سواء ما كان منها على الساحل وفي الداخل ، حيث بنى المسلمون مساجدهم ، وكانوا أمنين في حماية أمرائهم الوطنيين الذين منحوهم حق الحياة في ظل شرائعهم الخاصة (٥) . وكان تجار العرب في ذلك الحين وسطاء في التجارة بين السند وبلاد الهند المجاورة وبين العالم الخارجي . وجلبوا منتجات الصين وسيلان إلى موافى السند ، وحملوها من هناك ، عن طريق الملتان إلى تركستان وخراسان (٦) .

وكان يكون من الغريب لو أن هؤلاء التجار ، وكانوا منبئين في المدن التي يدين أهلها بالكفر ، أخفقوا في إظهار تلك الغيرة في نشر تعاليم الدعوة التي نجد لها لدى التاجر المسلم في أى مكان . وأغلب الظن أن دخول أسرة سمة Sammas التي حكمت بلاد السند من سنة ١٣٥١ إلى سنة ١٥٢١ م في الإسلام ، كان

(١) وربما كانت سندان في أبراسا ، وهي مقاطعة كتش الجنوبية .

(٢) البلاذري ص ٤٤٦

(٣) الاصطخرى ص ١٧٢ - ١٧٤

(٤) البلاذري ص ٤٤٦

(٥) ابن حوقل ص ٢٣٠ وما يليها . الادريسي :

(Géographie d'Edrisi, traduite par P. A. Jaubert, vol. i. p. 175 sqq.)

(٦) المسعودى ج ١ ص ٢٠٧ .

يعزى إلى تأثير أمثال طوائف التجار هؤلاء . وبينما نجد المؤرخين يخصصون عهد نندا بن بايشيه أحد أمراء هذه الأسرة ، بالإشارة إلى أنه عهد سلام وطمأنينة ، حتى إن هذا الأمير لم يطلب إليه قط أن يركب للقتال ، ولم ينزل له عدو قط إلى ساحة الحرب ،<sup>(١)</sup> تجده يوصف في الوقت نفسه بأنه معروف بعدائه ، وكثرة دخول الناس في الإسلام في عهده . لهذا يمكن أن تكون هذه الكثرة راجعة إلى شيء واحد ، هو الوسائل السلبية في نشر الدعوة . وكان من أشهر هؤلاء الدعاة ، الولي المشهور سيد يوسف الدين ، أحد سلالة عبد القادر الجيلاني . وكان قد أمر في منامه أن يترك بغداد إلى بلاد الهند ويحول سكانها إلى الإسلام . وجاء إلى السند في سنة ١٤٢٢ ، وبعد أن اشتغل بالدعوة هناك عشر سنين ، نجح في أن يجذب إلى الإسلام سبعائة أسرة من عشائر لوهانه ، التي حذت حذو شخصين منهم ، هما سندرجي وهنسراج . فهذان قد دخلا في الإسلام ، بعد أن رأوا من هذا الولي بعض الكرامات . ولما أسلما تسمى الأول آدم جي والثاني تاج محمد . ثم هاجر هؤلاء الأهالي فيما بعد ، إلى كتش ، بزعامة جد الأول ، وهناك زادت جماعتهم بمن انضم إليها من الذين دخلوا في الإسلام من بين عشائر لوهانه في كتش<sup>(٢)</sup> .

كذلك كانت السند مسرحا لأعمال الپير صدر الدين ، أحد دعاة الإسماعيلية ، وكان زعيما لفرقة الخوجة حول سنة ١٤٣٠ . وقد جرت مبادئ هذه الفرقة على التوفيق والملازمة بين المذاهب والعقائد ؛ لهذا تلقب صدر الدين بلقب هندي ، وصرح بقبول بعض العقائد الدينية عند الهنود الذين جد في تحويلهم إلى الإسلام ، وأدخل بينهم كتابا عنوانه دساونار الذي اعتبر فيه على الأونار العاشر ( المهدي العاشر ) أو الصورة المجسدة من وشنو ؛ وكان هذا الكتاب منذ البداية الكتاب المقدس الذي تعتمد فرقة الخوجة . ويقروونه دائما إلى جانب فراش الميت ، كما يقرءونه في فترات خاصة في كثير من أعيادهم . ويزعم هذا الكتاب أن مجسدت وشنو التسعة حقيقية من وجهة نظر أتباع هذه الفرقة ، ولكنها تنقص الحقيقة الكاملة ، كما يجعلون طريقة الوشنوي النافضة تعقيبا لمذهب الإسماعيلية الجوهرى ، وفكرة التجسد وظهور على . أضف إلى ذلك أن هذا الداعي أول براهما على أنه محمد ، ووشنو على أنه على ، وآدم على أنه سيوا Siva . وكان أول الداخلين في الإسلام على يد الپير صدر الدين ، هؤلاء الذين جذبهم إلى هذا الدين من القرى والمدن الواقعة في أعلى السند . كذلك دعا إلى الإسلام في كتش Cutch . ومن هذه البقاع انتشرت مبادئ هذه الفرقة جنوبا من طريق جوجرات إلى بمبي . والآن نجد جماعات الخوجات تقيم في جميع المدن التجارية تقريبا ، في الهند الغربية ، وعلى ساحل المحيط الهندي<sup>(٣)</sup> .

على أن الپير صدر الدين لم يكن أول دعاة الإسماعيلية الذين قدموا إلى الهند . فقد سبقه عبد الله ، أحد

Elliot, vol. i. p. 273. (١)

Bombay Gazetteer, vol. i. p. 93. (٢)

Khojā Vrttānt, p. 208. Sir Bartle Frere : The Khojas : the Disciples (٣)

الدعاة الذي أرسل من اليمن حول سنة ١٠٩٧ م . وقد قيل إنه كان واسع المعرفة ، اعتقد الناس أنه صاحب كرامات كثيرة ، ولهذا أقنع عددا كبيرا من الهندوكيين بصدق ديباته<sup>(١)</sup> . وهناك داع إسماعيلي آخر ، يقال له نور الدين ، اشتهر عادة باسمه الهندي الذي اتخذ لنفسه ، وهو نور ستاجر ، Nur Satagar ، أرسل إلى بلاد الهند من الموت ، معقل زعيم الإسماعيلية الأكبر ، وبلغ جوچرات في عهد الملك الهندي ، سيد هاراج (١٠٩٤-١١٤٣ م)<sup>(٢)</sup> . وقد اتخذ لنفسه اسما هنديا ، ولكنه أخبر المسلمين أن اسمه الحقيقي هو سيد سعادت . وقد قيل إنه أدخل قبائل كنبى Kanbis وخوارويس وأخوار واس ، Khârwas وكورى Koris والطبقات المنحطة في جوچرات<sup>(٣)</sup> .

وكما كان نور ستاجر موضع تكريم واحترام باعتباره أول داع من دعاة الخوجات ، كذلك يعتقد بعض أن عبد الله كان مؤسس فرقة البهرة ، إحدى فرق الشيعة الكبرى الهامة التي ترجع إلى أصل هندي والتي تقيم في جموع كبيرة في مراكر حكومة بمباى التجارية الرئيسة . بيد أن آخرين يعزون شرف القيام بأول دعوة من دعوات فرقة البهرة ، إلى ملاّ على ، الذي يورد أحد مؤرخى الشيعة أخبارا عما أتبعه هذا الملا من الوسائل في نشر الدعوة ، على الوجه التالى : ولما كان شعب جوچرات في تلك الأيام مشركين ، يسلبون زمام دينهم إلى شيخ مسن ، ويطيعون تعاليمه طاعة عمياء ، رأى ملاّ على ألا حيلة إلا أن يسير إلى هذا الشيخ المسن ، ويطلب إليه أن يتلذذ عليه ، وقصد بذلك أن يضع نصب عينيه ما لديه من حجج دامغة وبراهين ساطعة لعله يصبح مسلما ، فيستطيع بعد ذلك أن يحول سائر أتباعه إلى الإسلام . من ثم قضى الملاّ عدة سنين في خدمة هذا الشيخ ؛ ولما عرف لغة القوم ، قرأ كتبهم ، وحصل معرفة بعلومهم . وتمكن شيئا فشيئا أن يبسط لعقلية الشيخ المستنيرة حقيقة العقيدة الإسلامية ، وحثه على الدخول في الإسلام . وبعد أن تحول الشيخ إلى هذا الدين ، حذا بعض تلاميذه حذوه . وأخيرا علم كبير وزراء الملك في هذه البلاد ، ما صار إليه الشيخ من التحول إلى الإسلام ، فسار إليه ليطلع على أمره ، ولم يلبث أن أذعن لإرشاده الروحي ودخل مثله في الإسلام . وظل الشيخ وكبير الوزراء ، وسائر الذين اعتقدوا هذا الدين ، يكتمون إسلامهم وقتا طويلا ، وكانوا دائما يحولون دون أن يصل خبر إسلامهم إلى مسامع الملك خوفا منه . إلا أنه قد نعى إلى الملك آخر الأمر ، أن كبير وزرائه قد اعتقد الإسلام ، فشرع في تحرى ذلك الخبر . وفي ذات يوم ، قدم الملك إلى بيت هذا الوزير ، دون سابق تنبيه ، فوجده في صلاته ، حانيا رأسه ، فتضايق الملك من ذلك . وأدرك الوزير ما يرمى إليه الملك من هذه الزيارة ، وأيقن أن نقمة الملك قد حلت عليه بما ساوره من الشكوك والريب التي أثارها صلته وما قام به من ركوع وسجود ؛ ولكن إلهام الله

(١) Bombay Gazetteer, vol. ix. part ii. p. 26.

(٢) يزعم ك . ب . فضل الله لطف الله أن نور ستاجر قدم إلى الهند في زمن أحدث من ذلك أى في عهد بهما الثانى

(Bombay Gazetteer, vol. ix. part ii. p. 38). ( ١١٧٩ - ١٢١٢ م )

Khojā Vrttānt, p. 154-8. (٣)

ومعوته الإلهية قد هيئاً له ما يناسب المقام ، فقال للملك ، إنه إنما كان يفعل هذه الحركات لأنه كان يلاحظ ثعبانا في زاوية الجدار . فلما التفت الملك إلى زاوية الجدار ليرى مصداق قوله ، أرادت العناية الإلهية أن يرى ثعبانا في تلك الزاوية ، فقبل الملك عذر الوزير ، وخلى ذهنه من كل الشكوك . وكذلك اعتقد الملك الإسلام آخر الأمر ، ولكنه أخفى تغيير دينه لأسباب تتعلق بدولته . على أنه حين اقتربت ساعة وفاته ، وصى بالألحاح بحرق جسده كما جرت بذلك عادة المشركين . وكان من أثر وفاته ، أنه عند ما غزا السلطان ظفر جوچرات ، وكان أحد أشرف السلطان فيروزشاه ملك دهلي كما كان محل ثقة هذا الملك ، صحبه في هذه الغزوة بعض وجوه أهل السنة ، وجروا على محاجة أهالي جوچرات ليعتقدوا المذهب السنّي ؛ لهذا نجد بعض البهرة سنية على حين ظل السواد الأعظم منهم مخلصين لعقيدتهم الأولى ، (١) .

وهناك فرق صغيرة كثيرة في كتش وجوچرات يرجع دخولها في الإسلام إلى الإمام شاه پيرانه (٢) . الذي كان جادا في أعمال الدعوة ، مشتغلا بها في خلال النصف الأخير من القرن الخامس عشر . وقيل إنه حول جمعا هائلا من زراع الهندوكيين إلى الإسلام بأن استسقى لهم ، فطرتهم السماء بعد أن كانوا في قحط فصلين متتابعين . وفي مناسبة أخرى ، حدث أن التقى بجماعة من حجاج الهندو يعبرون من پيرانه في طريقهم إلى بنارس ، فعرض عليهم أن يأخذهم إلى هناك ، فقبلوا ، وفي لحظة وجدوا أنفسهم في المدينة المقدسة ، حيث اغتسلوا في نهر الكنج ، وأوفوا بندورهم . حيث قد تنبهوا ، فألفوا أنفسهم لم يرحوا پيرانه ، فاعتقدوا دين ذلك الولي الذي استطاع أن يصنع مثل هذه الكرامة . وتوفي في سنة ١٥١٢ ، ولا يزال قبره في پيرانه مثابة الحجاج من الهندوكيين والمسلمين على سواء (٣) .

وكثير من مسلمي كتش ، الذين ينحدرون من أصل هندي ، يعظمون داول شاه پير ويعدونه زعيما روحيا لهم ، وكان اسمه الحقيقي ملك عبداللطيف (٤) ، ابن أحد أشرف محمود بيچره (١٤٥٩ - ١٥١١) ، الذي كان ملكا شهيرا من ملوك أسرة جوچرات الإسلامية ، كما تبدأ من عهده تلك الرواية المشهورة التي تؤرخ تحول كثير من الهندوكيين إلى الإسلام (٥) .

على أن دعاة المسلمين في الهند قد لاقوا أعظم النجاح في البنغال خاصة ، من حيث كثرة عدد الذين دخلوا في هذا الدين . وفي البنغال تأسست لأول مرة دولة إسلامية ، في نهاية القرن الثاني عشر على يد محمد بختيار الحلبي ، الذي فتح بهار والبنغال ، واتخذ نجور حاضرة الإمارة الأخيرة . وكان طبيعا أن يساعد استمرار الحكم الإسلامي مدة طويلة ، على انتشار الإسلام . ومع أن الحكم الهندي قد أعيد مدة عشر

(١) نوراثة قشترى : مجالس المؤمنین . ورقة ٦٥ . (India Office M S. No. 1400) .

(٢) مدينة على بعد عشرة أميال جنوب غرب مدينة احمد آباد .

(٣) Bombay Gazetteer, vol. ix. part ii. pp. 66, 76.

(٤) Bombay Gazetteer, vol. v. p. 89.

(٥) Id. vol. ii. p. 378; vol. iii. pp. 36-7.

سنين على يد راجا كانس الذي عرف بتسامحه ، والذي قيل إن حكمه كان محبياً إلى رعاياه المسلمين (١) رفض ابنه جات مل الديانة الهندوكية واعتقد الإسلام . وبعد وفاة أبيه سنة ١٤١٤ ، استدعى كل موظفي الدولة ، وجمعهم ، وأعلن إليهم رغبته في اعتقاد الإسلام ، كما أعلن أنه إذا لم يأذن له كبار رجال الدولة باحتلال العرش ، كان على استعداد لأن يتخلى عنه لأخيه . ومن ثم أعلنوا أنهم يرضون به ملكاً عليهم ، أيا كانت الديانة التي يعتقدونها . وتبع ذلك أن دعى كثير من علماء الدين الإسلامي ليشهدوا أن الراجا قد نبذ ديانة الهندوكيين وجهر باعتقاد الإسلام . واتخذ لنفسه اسم جلال الدين محمد شاه ، وتذكر الروايات أن كثيراً من حالات التحول إلى الإسلام قد تم في عهده (٢) . على أن كثيراً من هذه الحالات كانت راجعة إلى القوة والإكراه ، ذلك أن عهده كان يتميز بأنه العهد الوحيد الذي لم تدون عنه على وجه الإجمال اضطهادات وقعت على رعايا الهندوكيين في خلال الخمسة القرون والنصف قرن من الحكم الإسلامي في البنغال الشرقية (٣) .

على أنه طالما حدثت حالات من التحول إلى الإسلام في أزمان أخرى ، بتأثير الحكومة الإسلامية وضغطها . كان راجيات خرك پور ينتمون إلى أصل هندوكي ، ثم اعتقدوا الإسلام ، لأن أحد قواد أكبر حين غزا ديارهم ، كان قد سمح لهم بأن يحتفظوا بضياغ أسراتهم ، على شريطة أن يدخلوا في الإسلام . وقد حُرم الجند الهندوكي الأكبر لأسرة أسد على خان ، في جنتا كالج (٤) ، مكاتته في طبقته بأن أرغم على أن يشم رائحة لحم البقر ، وأن يضطر إلى اعتناق الإسلام . وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا النوع كان من الممكن تدوينها (٤) .

ونجد مرشد قُلى خان ( ابن أحد البراهمة الذين دخلوا في الإسلام ) ، وكان قد ولاء الامبراطور أورنج زيب حاكما على البنغال في مستهل القرن الثامن عشر ، يفرض قانونا يقضى بأن أى موظف أو إقطاعي لا يؤدي الخراج الذي ألزم أداءه ، أو يعجز عن تعويض ما يلحق البلاذ من خسارة ، يلزم الدخول في الإسلام هو وزوجته وأولاده . هذا إلى أن لهم قانونا شامعا يقضى بأن أى هندوكي سقط من مكاتته في المجتمع بسبب ما اقترفه من مخالفة للقوانين ، لا يستطيع أن يطلب إعادة النظر في قضيته إلا لدى الحكومة الإسلامية ؛ فإذا رفضت الحكومة التدخل ، حرم طريد القانون أية وسيلة لاسترداد مركزه في النظام

(١) وكذلك Firishtah ، ولكن أنظر

H. Blochmann : Contributions to the Geography and History of Bengal. (J. A. S. B., vol. xlii. No. 1, pp. 264-6. 1873).

J. H. Ravenshaw : Gaur : its ruins and inscriptions, p. 99. (London, 1878.) Firishtah, vol. iv. p. 337.

Wise, p. 29. (٢)

(٣) مدينة ساحلية على مقربة من كلكتا .

Census of India, 1901, vol. vi, part i. p. 170. (٤)

الاجتماعى عند الهندوكيين ، وربما كان لا يجد علاجاً لموقفه إلا بالتحول إلى الإسلام<sup>(١)</sup>.

كذلك يظهر أن رواد الأفغان الذين استقروا في هذه الإمارة ، كانوا على جانب من النشاط في نشر تعاليم الدعوة ؛ ذلك أنهم ، إلى جانب ما حصلوا عليه من الأطفال الذين ولدوا من النساء الهندوكيات ، تعودوا أن يشتروا عدداً من الصبيان في أزمان القحط ، وينشئوهم على مبادئ الإسلام<sup>(٢)</sup> . على أن مسلمى البنغال لا يقيمون في جماعات كبيرة في مراكز الحكومة الإسلامية القديمة ، ولكنهم يقيمون في الأرياف ، أى في المقاطعات التى لا نجد فيها أثراً للجاليات التى وفدت إليها من الغرب ، وفى البقاع التى تقيم فيها الطبقات المنحطة من الهندوكيين ، وطريدو المجتمع فى كثرة وافرة<sup>(٣)</sup> . وإن تشابه العادات بين هذه الطوائف المنحطة من الهندوكيين وبين أتباع النبو ، وخصائص هذه الطوائف التى لا تزال تحتفظ بها ، كما احتفظت بالتشابه الجسمانى — كل ذلك يحمل دليلاً واحداً ، كما يحمل على الاعتقاد بأن مسلمى البنغال هم القبائل الأصيلة فى هذه البلاد . وهنا لم يقف فى سبيل تقدم الإسلام شيء من النظم الدينية العنيفة ، لا كما كانت الحال فى شمال غربى الهند ، حيث لقي الغزاة المسلمون ديانة البراهمة زاخرة بحياة غضة ، وقوة ناشئة بعد أن أحرزت النصر فى صراعها مع البوذية ، وحيث كان تأثير الإسلام ، برغم الاضطهادات ، قوة دافعة فى وجه المعارضة التى أبدتها الهندوكيون ، واحتفظ بنفوذه عليهم فى أعماق ساعات الشدة والتدهور . بيد أن دعاة المسلمين قد لقوا فى البنغال ترحيباً عظيماً من السكان الأصليين والطوائف المنحطة من أهالى البنغال الذين لم تتغلغل العقائد الهندوكية فى نفوسهم ، والذين كان حكمهم المعززون بأنفسهم من الآريين ، يحتقرونهم ويفضون من شأنهم . وجاء الإسلام إلى هؤلاء الفقراء وصيادى السمك والقناصين والقراصين وحرثى الأرض من أفراد العشار المنحطة ، فأعلى منزلتهم ورفع من شأنهم . كان الإسلام عقيدة الجنس الحاكم ، كما كان دعاته ذوى غيرة ، حملوا بشارة الوحدانية ، والمساواة بين الناس إلى الأهالى المحقرين المتبوذين . وقد جعلت هذه الآراء التى أدخلها هؤلاء الدعاة ارتداد الهندوكيين عن هذا الدين الجديد أمراً محالاً ، كما جعلت المهتدى إلى الدين وذريته مؤمنين مخلصين إلى الأبد . وبهذه الطريقة ، استقر الإسلام فى أحصب الولايات الهندية وأغناها ، تلك الولاية التى استطاعت أن تسد حاجة السكان الذين بدت كثرتهم فى هذه الولاية أشد ما تكون سرعة وازدحاماً . وقبلما سجلت حالات التحول الإجبارى إلى الإسلام . بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمر فى البنغال السفلى لم يكن راجعاً إلى القوة والعنف ؛ فقد راق الإسلام نظر الأهالى ، كما اتزع السواد الأعظم من الذين تحولوا

Census of India, 1901, vol. vi, part i. Id. p. 30. (١)

Charles Stewart : The History of Bengal, p. 176. (London, 1813). (٢)

H. Blochmann : Contributions to the Geography and History of Bengal, (J.A.S.B., vol. xlii. No. 1, p. 220. 1873).

The Indian Evangelical Review, p. 278. (January, 1883.) (٣)

إلى هذا الدين من طبقة الفقراء . وأدخل في أذهانهم تصورا أرق لمعنى الإله ، ومثلا أسمي للأخوة الإنسانية ، وقدم للعشائر المنحطة التي غصت بها البنغال والتي ظلت أجيالا دينية وضيعة ، أبدا ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية ، منفذا حرا ، تنفذ منه إلى نظام اجتماعي جديد ،<sup>(١)</sup> .

وقد قيل إن ظهور جهود واضحة في نشر الدعوة في البنغال قد أیده ما جاء في بعض أساطيرهم عن حماسة أفراد لأجل دينهم ، ولا تزال أضرحة بعض هؤلاء الدعاة مثابة تكريم وتشريف ، يزورها في كل سنة مئات من الحجاج<sup>(٢)</sup> . ومن أقدم هؤلاء الدعاة الشيخ جلال الدين التبريزي ، الذي توفي سنة ١٢٤٤ م ، وكان تلميذا للولي الأكبر شهاب الدين السهروردي وفي أثناء رحلاته التي قام بها لنشر الدعوة في بلاد الهند ، زار البنغال ، حيث بُني له ضريح تكريما له ، ووقف لهذا البناء هبة خيرية قيمة . أما موقع قبره الحقيقي فغير معروف . وتنسب إليه كرامات كثيرة ؛ منها أنه أدخل في الإسلام أحد باعة اللين من الهندوكيين بنظرة واحدة<sup>(٣)</sup> .

وفي القرن التاسع عشر نشطت حركة الدعوة إلى الإسلام في البنغال نشاطا ملحوظا ، وأرسلت طوائف كثيرة ينتمى أصلها إلى تأثير الحركة الوهابية الإصلاحية ، دعواتهم ينتقلون في هذه المقاطعة ، يطهرون البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة ويوظفون الحماسة الدينية ، وينشرون العقيدة الإسلامية بين الكفار<sup>(٤)</sup> . بقي بعض أخبار عن دعاة المسلمين الذين قاموا بنشر الدعوة في أجزاء من الهند ، غير تلك الأجزاء التي ذكرناها من قبل ، لا بأس من ذكرها هنا . كان من أسبق هؤلاء الدعاة الشيخ إسماعيل ، وكان من أشهر الأولياء الصالحين في بخارى ، كما عرف ثقافته الدينية والدينية . وقد قيل إنه كان أول داع مسلم دعا إلى عقيدة الإسلام في مدينة لاهور التي كان قد قدم إليها سنة ١٠٠٥ م . وقد تدفقت إليه جموع زاخرة ليستمعوا إلى مواعظه ، وسرعان ما تزايد عدد الداخلين في الإسلام على يديه يوما بعد يوم . وقد قيل إنه ما من كافر وفد عليه واتصل بشخصه ، إلا تحول إلى عقيدة الإسلام<sup>(٥)</sup> .

وقد قيل إن تحول سكان سهول البنجاب الغربية إلى الإسلام كان من آثار دعوة بها . الحق الملتاني<sup>(٦)</sup> ، وبابا فريد الدين البكيتاني الذي نبغ حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر<sup>(٧)</sup> . ويذكر المؤلف

(١) Sir W.W. Hunter : The Religions of India. (The times, February, 25,1888.) See also Wise, p. 32.

(٢) Wise, p. 37.

(٣) Blochmann, op. cit. p. 260.

(٤) Wise pp. 48-55.

(٥) غلام سرور : خزينة الأصفيا . ج ٢ ص ١٢ .

(٦) ورواية أخرى تسميه الشيخ بها . الدين ذكريا .

(٧) Ibbetson, p. 163.

الذي كتب سيرة هذا الولي الأخير يانا عن ست عشرة قبيلة ظفر بهم الإسلام بفضل دعوته ؛ ولكن هذا المؤلف ، لم يمدنا لسوء الحظ بشيء من التفصيل فيما يتعلق بنوع العمل الذي قام به هذا الداعي<sup>(١)</sup> .  
ومن أشهر أولياء المسلمين في الهند ، وأحد رواد الإسلام في راجوتانا ، خواجه معين الدين خشتي ، الذي توفي في أجمير سنة ١٢٣٤ م ، وكان أحد أهالي سيجستان شرقى فارس . وقد قيل إنه تلقى نداء الدعوة إلى الإسلام بين كنفار الهند ، حينما كان في طريقه إلى المدينة لأداء فريضة الحج . فهنا تجلى له النبي في منامه ، وخطبه بقوله : « لقد عهد إليك الله القدير بلاد الهند ، فاذهب إليها واستوطن أجمير ؛ ولينتشرن دين الإسلام بعون الله في تلك البلاد ، بفضل تقواك وتقوى من يتبعونك ، . ولي النداء ، وشق طريقه إلى أجمير وكانت في ظل الحكم الهندوكي في ذلك الحين ، وقد سادت عبادة الأوثان في دافة أنحاء هذه البلاد . ومن أسبق الذين تحولوا إلى الإسلام على يديه في هذه البلاد رجل يدعى يوجي ، كان المرابي الروحي للراجا نفسه . وقد جمع هذا الرجل حوله تدريجا عددا عظيما من تلاميذه الذين انتشلهم تعاليمه من صفوف الكفر ، وذاعت شهرته زعيما روحيا ، وجذب إلى مدينة أجمير جموعا كبيرة من الهندوكيين الذين حثهم على اعتقاد الإسلام<sup>(٢)</sup> . وقد قيل إنه أدخل في الإسلام ، وهو في طريقه إلى أجمير ما يقرب من ٧٠٠ شخص من مدينة دهلي .

وكان وصول سيد جلال الدين إلى تلك البلاد ذا أهمية بالغة في تاريخ الإسلام في الهند . وقد قيل إنه ولد في بخارى سنة ١١٩٩ م . وفي سنة ١٢٤٤ ، استقر هذا الداعي في أتش Uch ، التي تقع الآن في أراضي بهاول پور<sup>(٣)</sup> ، وحول جموعا من أهالي البلاد المجاورة إلى الإسلام . وتوفي في سنة ١٢٩١ . وظل أعقابه الذين كان كثير منهم أولياء ينظر إليهم بعين الاحترام والإجلال ، حفظة على ضريحه حتى الوقت الحاضر ، واتخذوا من هذا المكان مركزا لنفوذ ديني واسع النطاق . ويعتقد قوم أن جد هذا الولي ، واسمه سيد أحمد كبير ، ويعرف باسم مخدوم جهانيان ، كان له أثر في تحويل قبائل كثيرة من أهالي البنجاب<sup>(٤)</sup> . ويقع على بعد ميل من شرق أنش ضريح حسن كبير الدين بن سيد صدر الدين الذي كان معاصرا لجلال الدين . وقد قيل إن كلا الأب والابن قد ادخلا كثيرا من الناس في الإسلام ، وقد بلغ من النفوذ الذي نسب إلى حسن كبير الدين ، أنه قيل إن أي هندي كان يعتقد الإسلام ، مجرد نظرة يلقها عليه هذا الولي<sup>(٤)</sup> .  
وفي وقت متأخر كثيرا في هذا القرن نفسه ، وفد على الهند أحد أهالي العراق الفارسي ، ويدعى

(١) أسفر على جوامري فريدي ( ١٠٣٢ م ) ص ٣٩٥ ( لاهور ١٨١٤ ) .

(٢) Elliot, vol. ii, p. 548.

(٣) هي ولاية إسلامية في البنجاب ينتمي سكانها إلى الخلفاء العباسيين .

(٤) Punjab States Gazetteers, vol. xxxvi A. Bahawalpur State. (Lahore, 1908), p. 160 sqq.

وف ص ١٦٢ أسماء بعض القبائل التي نسب تحولها إلى الإسلام إلى مخدوم جهانيان .

Id. p. 171. (٤)

أبا على قَلْتَنْدَر ، واتخذ مقامه في بانى پت (†) Panipat ، حيث توفي وقد أكمل المائة من عمره ، وذلك في سنة ١٣٢٤ م . وينتمى أفراد القبائل من مسلمى هذه المدينة ، وكان عددهم حول ٣٠٠ من الذكور ، إلى شخص يدعى أمير سنكه Singh ، وكان قد تحول إلى الإسلام على يد هذا الولي . ولا يزال قبره مثابة تكريم وتشريف ، يقصد إليه كثير من الحجاج .

ومن أمثال هذا الولي ، رجل فارسي يقال له الشيخ جلال الدين ، وكان قد قدم الهند حول النصف الأخير من القرن الرابع عشر واستقر في سلهت ، في أسام السفلى ، بقصد تحويل أهالي هذه الجهات إلى الإسلام . وقد نال شهرة واسعة كرجل مبارك ، وتنكلت أعماله في نشر تعاليم الدعوة بنجاح باهر (١) .

وفي سنوات أحدث من ذلك ، نجد شواهد كثيرة تدلنا على أن الإسلام كان في طريقه إلى الانتشار في الهند ، وفي نجاح عظيم جدا . وقد دل النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوجه خاص ، على نهضة عظيمة في نشاط الدعوة ، فأصبح عدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام سنويا يتفاوت بين عشرة آلاف ، وخمسين ألفا ، ومائة ألف ، وسبعمائة ألف (٢) . على أنه من العسير أن نحصل على معلومات دقيقة عن وصف الطابع الفردي الخاص الذي يتميز به نشاط الدعوة الإسلامية ، وعن عدم وجود أى نظام مستق أو عن أى شىء يتعلق بأخبار الدعوة ، وإن النجاح الذى لازم أعمال الدعاة المسلمين قد بولغ فيه أحيانا إلى حد بعيد . فنسلا قيل إن رجلا في البنجاب يدعى حاجى محمد قد أدخل ما يقرب من مائتى ألف هندوكى في الإسلام (٣) ، وإن أحد المولوية في بنكلور Bangalore قد افتخر بأنه حول إلى الإسلام ما يقرب من ألف شخص من أهالى تلك المدينة وضواحيها في مدى خمسة أعوام . ولكن الذى لا شك فيه أنه كان هناك دعاة مسلمون اشتغلوا بأعمال الدعوة ، في نشاط وتوفيق . وتنطبق الأمثلة الآتية على هذه الفترة التى أشرنا إليها .

أدخل مولوى بقا حسين خان ، وهو داعية متنقل في البلاد ، ٢٢٨ شخصا في الإسلام ، في مدى سبع سنين ، وكانوا يقيمون في بمباى ، وكان بور ، وأجمير ، ومدن أخرى . وحول مولوى حسن على

(†) مكان في الهند وقعت فيه ثلاث مواقع ساسنة . الموقفة الأولى هزم فيها بابر ، إبرمهم لودهى في أبريل سنة ١٥٢٦ م . والموقفة الثانية هزم فيها جلال الدين محمد أكبر . هيمو البقال في سنة ١٥٥٦ م . والموقفة الثالثة ، وهى أشهرها هزم فيها أحمد شاه الدراني شب مرهه الهندوكى سنة ١٧٦١ م .

(١) ابن بطرطة ج ٤ ص ٢١٧ . Yule, p. 515.

(٢) The Indian Evangelical Review, vol. xvi, pp. 52-3. (Calcutta, 1889-90.)

The Contemporary Review, February 1889. p. 170. The Spectator, October 15, 1887, p. 1382.

Garcin de Tassy : La Langue et la Littérature Hindoustaniens de 1850 (٣) à 1869, p. 343, (Paris, 1874.)

٢٥ شخصا إلى الإسلام ، اثني عشر منهم من أهالي بونا ، والباقي من حيدر آباد وجهات أخرى من الهند<sup>(١)</sup> . وفي مقاطعة خندش ، في مقر حكومة بمباي ، ظفرت دعوة قاضي ناصر آباد ، وهو سيد سفدر علي ، بدخول جمع كبير من الصناع في الإسلام ، وهم الذين زاولوا صناعة الحدادين أو القيون<sup>(٢)</sup> . وحول سنة ١٨٧٠ ، تحول عدد من الأشخاص الذين كانوا يحترفون هذه الصناعة نفسها ، وكانوا يؤلفون زمرة قليلة يبلغ عددها نحو ٢٠٠ شخص في مقاطعة ناسك ، إلى الإسلام بطريقة عجيبة . وكان المبشرون المشيخيون (S) في ناسك يحاولون منذ وقت طويل تحويل أهالي ناسك عن العقائد الهندوكية . وبينما كان هؤلاء الأهالي مترددين بين اعتقاد المسيحية ورفضها ، إذا بأحد فقراء المسلمين من بمباي ، وكان ملما بحسن الإسلام بعبادات تفكيرهم ، يشرح لهم مبادئ الإسلام ، ويفلح في جذبهم إلى هذا الدين<sup>(٣)</sup> .

وكان في باتياله (f) ، مولوى عبيد الله ، وهو أحد الذين دخلوا في الإسلام من البراهمة ، وكان على جانب عظيم من الثقافة ، وقد برهن على أنه داعية غيور على الإسلام . وعلى الرغم مما وضعه أقرباؤه في طريقه أول الأمر من عقبات ، أحرز نجاحا بلغ من عظمه أن الذين دخلوا في الإسلام على يديه ، كادوا يملئون حيا بأكمله من أحياء المدينة . وقد كتب في الجدل مؤلفات ، طبعت طبعا كثيرة ، كانت موجهة إلى الديانتين

(١) أمدي مولوى حسن على بهذه المعلومات قبل وفاته سنة ١٨٩٦ بوضع سنين . وفيها يل تذكر وصفا طريقا لحياته ، ورد في بعض ما نشرته مجلة The Moslem Chronicle (٤ أبريل سنة ١٨٩٦) في نعيه : .. كان معروفا في حياته الخاصة والتعليمية بأنه قن ذكي مفرط الذكاء ، أحرز تقدما كبيرا في حياته العلمية في مدى وقت قصير . واجتاز امتحان الدخول في سن مبكرة جدا ، ومنح مكافأة دراسية ساعدته على نيل درجة البكالوريوس من الطبقة الأولى . ولكن لم يلبث أن دفعه طموحه الفريزي إلى البحث عن الحقيقة ، إلى السفر إلى الخارج والتنقل في بلاد العالم ، فترك دراسته ، وعاشر الناس على اختلاف نزعاتهم : فعاشر فقراء الهند ، وفرقة البنديين والمسيحيين ، ودخل الكنائس ، وجاس خلال الأدغال والأحراج والمدن دون أن يكون له ما يعينه إلا آماله وإخلاصه واعتناؤه المطلق على رحمة الاله الأعظم . وفي مدى سنة واحدة ، تنقل في مختلف المناطق الدينية حتى قبل في سنة ١٨٧٤ وظيفة ناظر في إحدى مدارس باتا .... ولما كان استعداده الفطري يؤهله لأن يكون داعيا إلى العقيدة الإسلامية ، أحس بحنين خفى يدفعه إلى ترك منصبه الذي كان يتقاضى منه مائة روية شهريا . فقدم استقالته ، على كرم من أصدقائه ، وظل وقتا يصدر جريدة شهرية .. نور الإسلام .. وألقى محاضرات كثيرة في الإسلام في باتا ، ثم رحل إلى كلكتا حيث ألقى محاضراته باللغة الانجليزية ، وقد بلغ من تأثيرها في السامعين أن كثيرا من رجال الدين الأوربيين أقروا بصدق الدين الإسلامي ، وكاد أحد الكبراء المعروفين ، وهو بابو بين جندرا بال أن يدخل في الإسلام . وقد دعاه أهالي دعاة لزيارتهم ، وهناك خلقت مواظبه ومحاضراته اسمه في قلوب المواطنين . وقد جعلت مؤلفاته ، ورسائله ، ومحاضراته المتواليه باللغتين الأردية والانجليزية ، في مختلف المدن والبلدان في الهند ، له اسما تاريخيا في العالم . وقد أصبح مائة رجل مسلمين عند ما استمعوا إلى محاضراته وقرءوا كتبه .. وتجلت حماسة في نشر الدعوة حتى آخر لحظة من حياته ، حين سمعه بعض الناس خلسة وهو يقول هل فرائض المرات : .. أترك دينك وصر معدا .. . فلما سئل في ذلك قال إنه يتحدث إلى أحد المسيحيين .

Bombay Gazetteer, vol. xii. p. 126. (r)

نسبة إلى مشيخة الكنيسة . (S)

Id. vol. xvi. p. 81. (r)

(f) اسم ولاية هندي يسكنها الشيخ .

المسيحية والهندوكية . وفي أحد هذه المؤلفات ، يتحدث عن تحوله هو إلى الإسلام ، بقوله : « أنا ، محمد عبيد الله ، بن منشى قُطْطَا مل ، سا كن پايال Payal ، في ولاية بتياله ، أعلن أن هذا العبد الفقير ، كان في طفولته وفي أثناء حياة والده ، أسير عبادة الأوثان ، ولكن رحمة الله انتشلتني يدها ، وجذبتني إلى الإسلام . من ذلك أُنِي انتهيت إلى معرفة مزية الإسلام ونفائص الهندوكية ، فرضيت الإسلام ديننا بقلبي وروحي ، وعدادت نفسي خادما لرسول الله عليه السلام . وفي ذلك الوقت هدتني الفطنة ، التي هي هبة الله ، إلى أنه من فرط الخفاقة والغباوة أن يتبع المرء عادات أجداده اتباعا أعمى ، فيضل بها ، وألا يتأمل ويبحث في مسائل الدين والعقيدة ، التي عليها تعتمد سعادتنا الأبدية أو شقاوتنا . وهذه الأفكار أخذت في دراسة العقائد السائرة ، وبحث كلا منها غير متحيز ولا محاب . فعرفت الهندوكية معرفة تامة ، وتباحثت مع البنديت المتعلمين ، وحصلت على معرفة تامة بالدين المسيحي ، وقرأت كتب الإسلام وتباحثت مع علماء المسلمين . ووجدت في جميعها أخطاء وأباطيل ، إلا الإسلام الذي تجلت لي مزيته جلاء بينا . ولزعم هذا الدين ، النبي محمد ، من المزايا المعنوية ، ما يعجز اللسان عن وصفه ، وهو بمفرده الذي يعرف أصول هذا الدين وقواعده ، وتعاليمه الخلقية ، وشعائره ، كما يدركها إدراكا تاما . والحمد لله إن هذا الدين قد بلغ من السمو أن كل شيء فيه يهدي الروح إلى الله . وبالجملة أصبح التمييز بين الحق والباطل ، بفضل الله ، متجليا عندي تجلي الليل والنهار والظلمة والنور . ولكن مع أن قلبي قد استنار مدة طويلة ، بنور الإسلام وفي قد تعطر بالإذعان للعقيدة ، كانت هواجس الشر والشيطان تكبلي بأغلال من بهجة هذه الحياة الفانية ودعتها ، وكنت في حالة سيئة ، بسبب الشعائر الظاهرية الخاصة بعبادة الأوثان . عندئذ نهتني رعاية الله أخيرا ، إلى متى تحتفظ بهذه الجوهرة التي لا تقدر بثمن ، كأمينة في صدقتها ، وهذا الأريج المنعش مغلقا في علبته ؛ يجب أن تقلد عنقك هذه الجوهرة ، وأن تتنفع بهذا الأريج . هذا إلى أن العلماء قد جهروا بأن من يكتم عقيدته في الإسلام ، ويبقى على زى الكفار وعاداتهم ، فإن مشواه جهنم . لهذا ، وفقه الحمد ، برغت شمس دخولي في الإسلام يوم عيد الفطر من سنة ١٢٦٤ م من أستار سحائبها ، وأديت عباداتي جهازا مع إخواني المسلمين <sup>(١)</sup> .

وقد اتخذ كثير من دعاة المسلمين وسائل المبشرين المسيحيين ، من ذلك الوعظ في الطرقات ، وتوزيع المنشورات ، وغير ذلك من الوسائل . وفي كثير من المدن الكبرى في الهند ، قد يوجد دعاة المسلمين يوميا يشرحون تعاليم الإسلام في بعض الطرقات العامة الرئيسة . ونجد هذه العادة شائعة جدا في بنسكاور ، وقد بلغ من عجة الشعب لأحد هؤلاء الدعاة ، وكان إمام المسجد حول سنة ١٨٩٠ ، أن الهندوكيين أنفسهم كانوا يدعونه أحيانا ليلقي عليهم عظاته . وكان يدعو إلى الإسلام في الأسواق ، وفي مدى سبع سنوات أو ثمان ، ظفر باثنين وأربعين شخصا دخلوا في هذا الدين . وفي بمباي ، يدعو أحد الدعاة المسلمين إلى الإسلام ،

كل يوم تقريبا ، على مقربة من السوق الرئيسة للمدينة ، وفي كلكتا توجد مراكز كثيرة للدعوة إلى الإسلام ، معدة على الدوام لهذا الغرض . وقد نجد بين الذين دخلوا في الإسلام من حين لآخر ، بعض الأوربيين ، ومعظمهم ممن اضطرتهم الظروف إلى الفقر والإعواز . على أن جمهور الداخلين في الإسلام من الهندوكيين<sup>(١)</sup> . ونجد بعض الجمعيات البكثيرة التي نشئت في السنين الأخيرة ، في مراكز الحياة الإسلامية الرئيسة في الهند ، تجعل من بين أهدافها إرسال الدعاة للدعوة إلى الإسلام في الأسواق . ومن أمثال هذه الجمعيات أنجومان حمايت إسلام بلاهور ، وأنجومان حامى الإسلام بأجمير . وهذه الأنجومان بوجه خاص ، تعين دعاة يتقاضون رواتب كفاء قيامهم بهذا العمل . ولكن كثيرا جدا من أعمال الدعوة في الأسواق ، إنما يقوم بها أشخاص يشتغلون في مهنة أو عمل ما في أثناء ساعات النهار ، ويخصصون أوقات فراغهم في المساء لهذا العمل الديني .

ويتجه كثير من الحماسة في الدعوة عند مسلمي الهنود إلى مناهضة ما يقف في سبيل الإسلام من الاتجاهات التعليمية التي ينزع إليها المبشرون المسيحيون ودعاة آريه سماج Arya Samaj ، ومن ثم كانت الجهود التي بذلت في هذه السبيل جهودا دفاعية ، أكثر من أن تكون متصلة اتصالا مباشرا بنشر تعاليم الدعوة . كذلك يصرف بعض الدعاة عنايتهم ، بوجه خاص ، إلى تدعيم الأساس الذي وضع من قبل ، ومحاولة تخليص إخوانهم في الدين من الجهال من خرافاتهم الهندوكية القديمة ، وبث صورة من العقيدة ، أنقى ، في نفوسهم . وإن أمثال هذه الجهود ، ليست في كثير من الأحيان ، إلا استمرارا لذلك النشاط القديم في الدعوة وفي الحق أن ما قام به الدعاة في سبيل إدخال الناس في الإسلام كان في أغلب الأحيان عملا ناقصا مبتورا . ويمكن أن يقال عن كثير من الذين تحولوا إلى الإسلام تحولا اسميا أنهم أشباه هندوكيين . فهم يراعون نظم عشايرهم القديمة ، ويشاركون في الأعياد الهندوكية ، ويقبضون كثيرا من الشعائر الوثنية . كذلك في بعض المقاطعات ، في ميسوات Mewat وكركاون Gurgaon مثلا ، قد نجد جماعات كبيرة من المسلمين لا يعرفون من ديانتهم إلا اسمها ، وليس لديهم مساجد ، ولا يراعون أوقات الصلاة . وهذه هي الحالة ، بوجه خاص ، بين مسلمي القرى أو في الجهات التي يسكن فيها الأهلون بعيدا عن جمهور المؤمنين . أما في المدن ، فإن وجود علماء الدين ، يساعد ، إلى حد كبير ، على مناهضة تأثير العقائد القديمة ، ويعمل على تكوين صورة من الحياة الدينية ، أكثر نقاء ، وأشد إدراكا من الحياة السابقة . على أنه في السنين الأخيرة يمكن أن يقال بوجه عام ، أن هناك حركة تستحق الذكر ، قامت بين مسلمي الهنود ، ترمى إلى أن يأخذوا أنفسهم بحياة دينية ، أشد تمسكا ب شرائع الإسلام . كذلك كان لمدارس التبشير المسيحي أثر كبير جدا في

(١) The Indian Evangelical Review, 1884, p. 128. Garcin de Tassy :

La Langue et la Littérature Hindoustanies de 1850 à 1869, p. 485. ( Paris, 1874. )

Garcin de Tassy : La Langue et la Littérature Hindoustanies en 1871, p. 12.

( Paris 1872. )

حت بعض مسلي الجليل الذي تلا ذلك الجليل على دراسة ديانتهم ، وفي إثارة يقظة في الحماسة الدينية . وفي الحق ، أن انتشار التعليم ، بوجه عام ، قد أدى إلى تمثيل المبادئ الدينية ، تمثلا أكثر إدراكا ، وإلى زيادة عدد المعلمين الدينيين في المقاطعات المجاورة التي أهمل شأنها إلى الآن ، وأيا كان منشأ حركة الدعوة الإصلاحية هذه ، فإن من الممكن أن نلاحظ قيام هذه الحركة في جهات مختلفة جدا من بلاد الهند . ففي مقاطعات البنجاب الشرقية مثلا ، قامت نهضة دينية عظيمة بعد إعلان العصيان والثورة . وتنقل الدعاة في طول البلاد وعرضها ، يدعون المؤمنين إلى نبذ شعائرهم الوثنية ، ويبسطون لهم مبادئ العقيدة الخالصة . وكان من أثر ذلك أن بنيت الآن مساجد في معظم القرى التي يمتلك فيها المسلمون أي نصيب لا يستهان به ، على حين أن الأهالي أخذوا يكفون الآن عن إقامة العبادات الوثنية التي كانت أكبر مظهرا وأكثر علانية<sup>(١)</sup> . وكذلك في راجيوتانه ، نجد القبائل الهندوكية التي كانت تدخل في الإسلام من حين إلى حين في المناطق الريفية ، تصبح الآن أكثر محافظة على أصول الإسلام ، وأشد مواظبة على إقامة شعائرهم الدينية ، وتنبذ العادات القديمة ، التي كانت حتى ذلك الحين تشارك جيرانها الوثنيين في المحافظة عليها . فقبيلة ميرات Merats مثلا ، تتبع الآن الطريقة الإسلامية في الزواج ، بدلا من النظم الهندوكية التي كانوا يتبعونها من قبل . كما أنهم نبذوا أكل لحم الخنزير<sup>(٢)</sup> . وفي البنغال نهضة مماثلة تحدثنا عنها من قبل .

ولكن مثل هذه الحركات وجهود الدعاة الفردية ، لا تكفي مطلقا لشرح سرعة ازدياد عدد مسلي الهند . وكان طبعيا أن يؤدي ذلك إلى أن يتحرى المرء الأسباب الأخرى ، أكثر من أن يتحرى الزيادة العادية في عدد السكان<sup>(٣)</sup> ، تلك الأسباب التي ساعدت على زيادة عدد هؤلاء السكان زيادة هائلة . وإنا نجد الجواب في أحوال الحياة الاجتماعية عند الهندوكيين . وإن الإهانات والاحتقار الذي انصب على الطبقات المنحطة من الهندوكيين على أيدي إخوانهم في الدين . والعراقيل التي لا يمكن التغلب عليها ، والتي وضعت في سبيل أي فريق من هذه الطبقات يرغب في تحسين حالته ، ليوضح لنا في هذه المفارقة العجيبة فوائد النظام الديني الذي لا يفرق بين منبوذ وغير منبوذ ، والذي يهيء مجالا حرا للتمتع بأي مطمح . ففي البنغال مثلا ، يعتقد الإسلام هؤلاء الذين يقومون بنسج القطن ، والذين ينظر إليهم أخوانهم في الدين من الهندوكيين كما ينظر المرء إلى السفلة والطعام ، في جماعات كبيرة ليتخلصوا من المركز الوضيع الذي انحدروا إليه<sup>(٤)</sup> . وهناك مثل واضح جدا عن نوع مماثل في تاريخ الجزء الشمالي الشرقي لهذا الإقليم نفسه . فهنا في سنة ١٥٥٠ أسست قبيلة

Ibbetson, p. 184. (١)

The Rajputana Gazetteer, vol. i. p. 90 ; vol. ii. p. 47. (Calcutta, 1879.) (٢)

The Census of India, 1901. vol. vi. p. 172.

لترعرف على الأسباب التي كان لها أثر في زيادة عدد المسلمين راجع : (٣)

The Census of India, 1901. Vol. vi. p. 172.

E. T. Dalton. p. 324. (٤)

كوجه Kocch الاصلية أسرة بزعامه رئيسهم العظيم «حاجو» Haju. وفي عهد حفيده، لما وجد السواد الأعظم من الناس الطبقات العالية تدخل في حوزة الهندوكية (١)، وألني جمهور الشعب نفسه معتقرا كالمندوبين، دخلوا في الدين الإسلامي (٢).

وإن الخلاص الذي يقدمه الإسلام إلى الهندوكيين من ظلم الطبقات العليا، ليتضح بصورة مجيبة في إقليم تناولى Tinneveli في نهاية القرن التاسع عشر. فإن طائفة منحطة جدا، وهي طائفة الشنار Shanars، قد أصبحت في السنين الأخيرة في رغد من العيش، وبني كثير من أفرادها دورا جميلة. وادعوا أن من حقهم أن يتعبدوا في معابدهم التي كانوا قد أقصوا عنها إلى ذلك الحين. وتبع ذلك قيام هياج قاسى منه الشنار كثيرا على أيدي الهندوكيين الذين ينتمون إلى طبقة أعلى، ولجئوا إلى حظيرة الإسلام. وقد دخل ستائة من الشنار في قرية واحدة في الإسلام، ولم يلبث أن اقتنى الناس أثرهم في أماكن أخرى (٣).

ونستطيع أن نأتى بأمشلة كثيرة مشابهة من جهات أخرى في الهند. فإن الهندوكي الذي نبذته طبقتة بطريقة ما، وطردته تبعاً لذلك أسرته وجماعته التي اعتاد أن يتنقل بينها، كان طبيعياً أن يجذب نحو دين يقبل جميع الناس من غير تمييز، وأن يبوءه في المجتمع منزلة تماثل في المستوى الاجتماعي، تلك المنزلة التي كان قد أقصى عنها. وإن مثل هذا التحول كان يقترن في العادة بإيمان صادق بهذا الدين وعقائده. ولكن الرجال، الذين ربما كانوا لا يكثرثون مطلقاً لعدد الآلهة أو أسماؤها، تلك الآلهة التي دعوا لعبادتها، قد يحسون إحساساً جدياً بحرمانهم وطردهم من الهيئة الاجتماعية، وما نتج عن ذلك من ضياع حقوقهم في طبقتهم. ويصبحون مسلمين من غير أن يكون لهم شعور ديني. ولا بد أن يكون تأثير دراسة الأدب الإسلامي، واتصالهم بحكم العادة بالهيئة الاجتماعية الإسلامية، قد جعل الهنود يحسون ذلك التأثير بطريقة لم يشعروا بها. ففي راجبوتانه وبنديل كهنند Bundelkhand، كانت أمثال هذه النزعات التي تجنح إلى الإسلام ظاهرة في القرن التاسع عشر، بين أمراء راجه پوت (٤) — ولو أن إمبراطورية المغول بقيت، لكان من المحتمل أن تؤدي هذه النزعات إلى تحول هؤلاء الأمراء نهائياً إلى الإسلام.

فإنهم لم يقتصروا على احترام أولياء المسلمين، بل عهدوا في تعليم أبنائهم إلى معلمين من المسلمين، وذبحوا الحيوانات وفق الشريعة الإسلامية، واشتركوا في الأعياد الإسلامية وهم يرتدون زى الفقراء، وصلوا كما يصلي المسلمون المتمسكون بدينهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، زعم بعض أن الأحوال الحاضرة تجعل

(١) لوتوف على إدعال قبائل الأمية في الهندوكية راجع :

Sir Alfred Lyall : Asiatic Studies, pp. 102-4.

E. T. Dalton, p. 89. (٢)

The Missionary Review of the World, N. S. vol. xiii, pp. 72-3. (٣)

(New York, 1900.)

(٤) يتحدث سير ألفرد ليال (Asiatic Studies, p. 29) عن الميل الظاهر إزاء ضيقة الإسلام الذي كان يظهره بعض

الزعماء الهندوكيين من حين إلى حين .

ازدياد تحول الهندوكيين إلى الإسلام أمرا أكثر احتمالا في عهد حكومة بعيدة كل البعد عن التحيز والمحاباة في المسائل الدينية ، بخلاف ما كانت عليه الحال في ظل الممالك الإسلامية ، حين ظفر الهندوكيون بتوحيد كلتهم وزيادة قوتهم من جراء النزاع المستمر مع هؤلاء الأعداء المهاجمين (١) . كذلك كان الهندوكيون يذهبون زرافات ووحدانا لزيارة أضرحة الأولياء ، في يوم إحياء ذكراهم . وكان الرجل الذي لم ينجب أطفالا ، يقدم أكف الضراعة إلى إله المسلمين ، مدفوعا بذلك الشعور الذي يدفع المشرك بأن لا يدع إلها من غير أن يلقى إليه بالمودة ويتقدم بالدعاء . فإذا ما استجيب دعاء أحدهم وقضيت حاجته ، وأنجب ولدا ، بر قسمه ودخل جميع أفراد الأسرة في مثل هذه الحالة (والأمثلة على ذلك كثيرة) في الإسلام (٢) .

وقد يكون حب المرأة المسلبة سببا في تحول الهندوكي إلى الإسلام ، إذ أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريما قاطعا زواج المرأة المسلمة من الكافر . وإذا تبنت المسلمون أطفالا هندوكيين ، تربوا على دين آباؤهم الجدد . كما أن المرأة الهندوكية التي تزوج ممن يتبع دين النبي ، تعتقد في الغالب ديانة زوجها (٣) . ولما كان من النادر أن يحدث العكس ، استلزم ذلك زيادة عدد المسلمين بنسبة زيادة عدد الهندوكيين . وكان الهندوكيون ، الذين طردوا من طبقاتهم لسبب ما ، والفقراء الذين أصبحوا يعيشون على صدقات المسلمين ، أو النساء والأطفال الذين دخلوا في حماية المسلمين إذا مات آباؤهم وأمهاتهم أو هجروهم ( وطبعي أن تحدث أمثال هذه الحالات في أوقات القحط ) — كل ذلك يكون مجرى مستمرا ، ولو أنه صغير ، يزيد في عدد الذين تحولوا إلى الإسلام من الهندوكيين (٤) .

وطالما كانت هناك أحوال محلية تتناسب مع نمو الإسلام . مثال ذلك ما أشرنا إليه من قبل (٥) من أن أي نمو في سيادة المسلمين كان في قرى تيرى Terai التي اتفق أن تساوى فيها عدد الهندوكيين وعدد المسلمين ،

(١) Gazetteer of the Province of Oudh. vol. i. p. xix.

(٢) ولدت بنت واحد فقط . قري تاجبور Ghâtampur في مقاطعة كان فور ، نجد أحد فروع أسرة كبيرة يدين بالإسلام ، استجابة لقسم جدم غام دوبرين Ghâtam Deo Bais . فانه قد نذر ، لما كان يدعو الله في ضريح أحد أولياء المسلمين ، وهو مدار شاه ، أنه إذا استجيب دعاؤه ، أن تفتأ نصف سلكه نشئة إسلامية .

وكانت عبادة أولياء المسلمين شائعة جدا بين بعض أفراد الطبقة السفلى من الهندوكيين ، حتى إن ٢٠٢٣٣٠٦٤٣ هندوكي (أو ٥٠٧٨ /٠ من مجموع سكان هذه المقاطعات ) قد أُنبتوا في تذاكر التعداد الذي أجرى في سنة ١٨٩١ في الولايات الشمالية الغربية وفي أوده Oudh وحدها ، أهم من عباد أولياء المسلمين .

(Census of India, 1891, vol. xvi. part. i. pp. 217, 244.) (Allahabad, 1894.)

Gazetteer of the N.W.P. vol. xi. pp. 64, 238.)

(٣) وقد وردت أمثلة لمثل هذا التحول في

Census of India, 1901, Vol vi. Bengal, part. 1, Appendix ii.

Report on the Census of the N.W.P. and Oudh, 1881, by Edward (٤)

White, p. 62. ( Allahabad, 1882. )

Ibid. p. 63. (٥)

وأن ذلك النمو كان يتبعه دائماً قيام المنازعات حول ذبح البقر وغيره من الشعائر التي تسوء شعور الهندوكيين . وكان الهندوكيون يرحلون من القرية تدريجاً ، غير تاركين وراء عقيدتهم إلا حرائق الأرض من الشمار في خدمة زراع المسلمين ، وينتهي الأمر بهؤلاء إلى اعتقاد دين أسياهم . ولم يكن ذلك منبعثاً من أى إيمان بصدقه ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى ما تجرّه عزلتهم عن إخوانهم في الدين من متاعب .

وكذلك نجد بعض الأمثلة البارزة لتحول الناس إلى الإسلام بين الطبقات الدنيا من الهندوكيين في المراكز الزراعية في أوده Oudh . ومع أن المسلمين في هذه المقاطعة يؤلفون عشر جميع السكان فقط ، لا تزال الجماعات الصغيرة من حراث المسلمين يكتفون ، مراكز مبعثرة للثورة على الظلم الشائن الذي أسلم دينهم إليه هذه الطبقات الدنيا بصورة تبعث على اليأس والقنوط ، (١) .

وإن المزايا التي يقدمها الإسلام لأمثال هذه الطبقات ، كطبقتي الكورى Koris والجمار Chamars اللتين بقينا في أحط دركات المجتمع الهندوكي ، والخلاص الذي نالوه عن طريق تحولهم إلى الإسلام ، قد يفهم على أحسن وجه من هذه العبارة التي تصف حالتهم الاجتماعية باعتبارهم هندوكيين (٢) . ولقد بلغ الكورى والجمار ، الذين يقومون بأعمال النسيج وقطع الجلود لسائر مواطنيهم ، أحط دركات اليأس والانحلال . ففي الولايات الشمالية نجد أكثر هؤلاء في الواقع أرقاء مستعبدين ، ليس من السهل مطلقاً أن تنهياً نفوسهم للافادة من العلاج الذي تقدمه دور القضاء عندنا ، ويهبطون مع أطفالهم جيلاً بعد جيل كما تهبط قيمة السلعة القديمة . وهم يسكنون المحراث للسيد البرهمي أو الشترى (S) ، الذي تحرم عليه كبرياء طبقتهم أن يمسه ، ويعيشون مع الخنازير التي لا تقل قذارة عنهم في أحياء منعزلة بعيدة عن سائر سكان القرية . ولما كانوا دائماً يوشكون أن يموتوا جوعاً ، فإن أشكالهم الهزيلة السوداء ، ذات التقاطيع غير المتجانسة ، ووجوههم التي تلعن بغاوتهم ، وعاداتهم القبيحة التي تبعث على الاشمزاز ، لتصور حظه العائر الذي حكم عليهم بأن يكونوا أحط شأنًا من الحيوان الذي يعيش بين الرجال الذين ينتمون إلى طبقتهم الاجتماعية . ومع ذلك فإن حالة خدام الاسطبلات النشيطين ، الذين يختارون من بين هؤلاء ، والذين يحصلون على أجور طيبة ، ويعيشون عيشة حسنة في كنف سادة من الأوربيين ، لتدل على أنهم بعيدون عن أن تكون حالتهم عاجزة عن التحسن . وأن تغيير الدين هو الطريق الوحيد الممهّد لهم للخلاص ؛ وليس ثمة ما يدعو لأن يكونوا مخلصين لعقيدتهم الدينية التي كانوا يديشون بها .

Gazetteer of the Province of Oudh, vol. i, p. xix. (1)

Gazetteer of the Province of Oudh, vol. i, pp. xxiii-xxiv. (2)

(S) يقسم سكان الهند إلى خمس طبقات : البراهمة وهم طبقة العلماء ورجال الدين ؛ والشترى وهم الجندي ؛ وبش أو بيش . وهم التجار ورجال الأعمال ؛ وشودر ، وهم العليقة الدنيا ؛ وجندال ، وهم لا يفرقون عن الحيوانات . ولا يختلط بعض أفراد هذه الطبقات ببعض بحال من الأحوال .

وإن عدم وجود التعصب الطائفي ، ليكون القوة الحقيقية للإسلام في الهند ، ويمكن له من أن يجذب إليه عددا كبيرا جدا من الهندوكية .

ولكى يتم ما رسمناه من الكلام على الإسلام في الهند ، لا يزال لدينا بعض أخبار نوردتها عن انتشار هذا الدين في قشمير ، ومنها وراء حدود الهند إلى بلاد التبت . ومن بين جميع المقاطعات والولايات في الهند (بخلاف بلاد السند) . تشتمل قشمير على أكبر عدد من المسلمين (أى بنسبة ٧٠٪) بالنسبة إلى جميع السكان . بيد أن الحقائق التاريخية التي تقصر وجود عدد كبير جدا من المسلمين في هذه الولاية ، والتي ترجع كلها تقريبا إلى أصل تُبَّتِي أو هندي ، قليلة جدا لسوء الحظ . ولكن جميع الشواهد تهبنا إلى أن نعزو هذه الحقائق بوجه عام إلى حركة الدعاية المتصلة التي بدأها وقام على تنفيذها الفقراء والدرائش ، وكان من بينهم بعض دعاة الإسماعيلية الذين أرسلوا من قلعة ألموت (١) . (S)

ومن الصعب أن نقول متى بدأ التأثير الذي صبغ البلاد بصبغة إسلامية لأول مرة . وقد قيل إن أول ملوك قشمير من المسلمين ، وهو صدر الدين (٢) ، يدين بدخوله في الإسلام إلى أحد الدرايش ، ويسمى بلبل شاه ، وذلك في مستهل القرن الرابع عشر الميلادي . وكان هذا الولي هو المعلم الديني الوحيد الذي استطاع أن يحقق أمنيته في الوصول إلى حقيقة الدين ، وذلك عندما تطلع إلى نوع من العقائد يكون أكثر قبولا لديه من عقيدته الهندوكية ، التي لم يكن راضيا عنها مقتنعا بها . وحول نهاية هذا القرن نفسه (١٣٨٨م) لقي تقدم الإسلام أعظم رواج بقدم سيد علي الهمداني أحد الفارين من مدينة همذان مسقط رأسه في فارس ، حيث كان قد أثار سخط تيمور . وقد صحبه سبعائة سيد ، وأسسوا أماكن للتنسك في جميع أرجاء البلاد ، ويظهر أنه كان من تأثيرهم أن تحقق قبول الناس لهذا الدين الجديد . على أنه يظهر أن قدمهم قد أثار كذلك روحا قويا من التعصب الديني ، إذ أن السلطان سكندر Sikandar (١٣٩٣ - ١٤١٧م) نال اسم بتشكن Butshikan لتخريبه الأصنام والمعاهد الهندوكية ، وقام وزيره الأول ، وكان هندوكيا قد تحول إلى الإسلام ، باضطهاد عنيف في وجه متحلي ديارته القديمة ، ولكن بعد وفاته أصبح التسامح الديني قاعدة جرت عليها المملكة (٣) . وحول نهاية القرن الخامس عشر قدم من بلاد العراق أحد دعاة المذهب الشيعي ، ويسمى مير شمس الدين ، واستطاع بمعونة تلاميذه ومريديه أن يظفر بعدد كبير من الذين دخلوا في الإسلام في قشمير .

ولما أصبحت قشمير في عهد أكبر أحمدي ولايات إمبراطورية المغول ، قوى النفوذ الإسلامي بطبيعة

Khojā Vrttānt, p. 141. (١)

(S) أسما الحسن الصباح على مقربة من بحر فزون في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

(٢) وتقول رواية أخرى إن اسمه شمس الدين . راجع محمد حيدر ص ١٣٣ (هامش رقم ٢) .

(٣) Firishtah, vol. iv, pp. 464, 469. (٣)

الحال ، وقدم كثير من رجال العلم إلى هذه البلاد . وفي عهد أورنج زيب ، تحول راجا كشتوار ، أحد رؤساء راجه پوت إلى الإسلام بفضل الكرامات التي أظهرها شخص يدعى سيد شاه فريد الدين . ويظهر أن تحوله إلى الإسلام قد تبعه دخول السواد الأعظم من رعاياه في هذا الدين . ولا يزال نرى على طول الطريق التي أحرز فيها أباطرة المغول نجاحا في فتوحهم في بلاد قشمير راجوات من ذراري الراجه پوت من المسلمين (١) .

وإلى شمال قشمير والشمال الشرقي منها ، نرى خليطا من جنس التبت يقطنون ولايتي بلتستان Baltistan ولداخ Ladakh ، وقد استقر الإسلام بينهم قرونا عدة ، ولكن تاريخ دخوله في هذه البلاد والطريقة التي دخل بها غير معروفة لدينا . ويروي مسلوبو بلتستان قصة أخوة أربعة قدموا من خراسان ، ونهضوا بالدين ، بيد أنه يظهر أنه ليس هناك رواية تتعلق بأقدم الدعاة إلى الإسلام في هذه البلاد (٢) . ويظهر أن الإسلام كان حتى منتصف القرن التاسع عشر يحرز تقدما ، ولكن التشجيع الذي قدمه مهراجه رنبير سنكه Maharaja Ranbir Singh لاتباع الديانة البوذية قد وقف في سبيل هذا الاتجاه . وفي لداخ عدد من مولدى الطبقات يطلق عليهم اسم أرغونيون Arghons (٣) ، من أمهات تبتيات وآباء مسلمين ، من التجار الذين قدموا إلى له Leh وحشوا نساء التبت اللاتي تزوجوا منهن على قبول الإسلام . وهؤلاء الأرغونيون مسلمون جميعا ؛ وهم ، كما باتهم يتزوجون من نساء التبت . ويقال إن عددهم يزداد بسرعة أكثر من العنصر التبتى الخالص (٤) . كذلك نقل تجار قشمير الإسلام إلى بلاد التبت الاصلية . ونجد أمثال هؤلاء التجار يستوطنون جميع المدن الرئيسة في التبت ، ويتزوجون من نساء تبتيات ، وكن في الغالب يعتقدن دين أزواجهن . ويقال الآن إن هناك عددا كبيرا يبلغ ألفي أسرة مسلمة في لهاسه Lhasa (٥) . وكذلك شق الإسلام طريقه من التبت من إمارة يونان (٦) ، وفي سو - جنك Su-ching على حدود ولاية زى - شوان Sze-chwan والتبت ، دخل في الإسلام فريق من بين سكان بلاد التبت (٧) . ويقال أيضا إن المؤثرات الإسلامية قد أتت من فارس (٨) ، ومن تركستان (٩) .

(١) F. Drew : The Jummoo and Kashmir Territories. pp. 58, 155.

(London, 1875).

(٢) Drew, op. cit. p. 359.

(٣) Yule : Marco-Polo, vol. i. p. 290. انظر ما ورد عن هذه الكلمة في

(٤) Ahmad Shâh : Four Years in Tibet, pp. 45, 74 (Benares, 1906.)

(٥) Broomhall, p. 206.

وقد أذاع تون سى Tu wen-siu ، زعيم ثورة بانهى Panthey من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٣ ، وكان السلطان الفقل على نصف ولاية يونان Yunnan ست عشرة سنة ، منشورا في لهاسه نفسها في بداية هذه الثورة ليكسب أمدادات من المسلمين (Id. p. 132.)

(٦) Mission d'Ollone, pp. 207, 226, 233

(٧) Broomhall, p. 206.

(٨) A. Bastian: Die Geschichte der Indo-chinen, p. 159. (Leipzig, 1866.)

(٩) R. du M. M., tome i, p. 275 (1907.)

## الباب العاشر

### انتشار الاسلام في الصين

روى عن النبي ﷺ أنه قال : « اطلبوا العلم ولو في الصين »<sup>(١)</sup> . ومع أنه ليس ثمة شاهد تاريخي يدل على أن هذا الكلام قد جاء على لسان الرسول ، فليس من المستحيل أن يكون الرسول قد عرف اسم هذه البلاد ، وذلك لأن الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمن طويل . فكانت حاصلات الشرق ، التي تلتقاها بلاد الشام وموانئ البحر الأبيض ، تمر بنسبة هائلة عن طريق بلاد العرب . وفي القرن السادس الميلادي كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان . وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبين فارس وبلاد العرب لاتزال واسعة الانتشار ، حيث كانت مدينة سيراف ، الواقعة على الخليج الفارسي ، هي السوق الرئيسة للتجار الصينيين . وقد ورد ذكر العرب لأول مرة في التواريخ<sup>(٢)</sup> الصينية في ذلك الوقت الذي ابتداء فيه حكم دولة تانج T'ang (٦١٨ - ٩٠٧ م) ؛ وتشير هذه التواريخ إلى نشأة القوة الإسلامية في مدينا ، كما تتحدث بإيجاز عن التعاليم الدينية للعقيدة الجديدة . أما تاريخ كوانجتونج Kwangtung فيذكر قدوم أول من جاء من المسلمين إلى الصين على النحو الآتي :

« في عهد دولة تانج T'ang وفد على كنتن Canton عدد كبير من الغرباء من مملكة أنام Annam وكمبوديا Cambodia ومدينا وبعض بلاد أخرى . وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله ، وليس لهم في معايدهم تماثيل ولا صنم ولا صورة . وكانت مملكة مدينا قريبة من مملكة الهند . وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا . وكانوا لا يطعمون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر ، ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاما نجسا . ويطلق عليهم الآن اسم هوى هوى Hui Hui<sup>(٣)</sup> . . . ولما استأذنوا الإمبراطور وحصلوا منه على إذن بالإقامة في كنتن . بنوا دورا جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا . وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس اتخبوه بأنفسهم<sup>(٤)</sup> . . . ومن المحتمل جدا ، على الرغم من قلة الشواهد التاريخية الصريحة<sup>(٥)</sup> ، أن الإسلام دخل الصين أول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون

(١) كنز العمال المجلد الخامس ص ٢٠٢ .

(٢) Bretschneider (2), p. 6.

(٣) أنظر أهل هذا الرسم في Deveria, p. 311; Mission D'Ollone, p. 420 Sqq.

(٤) De Thiersant, vol. i. pp. 19-00.

(٥) وفيها يلى ، ينهنا دون D'ollone إلى التشكك في معرفتنا بالاسلام في الصين : لا ندري شيئا من الاسلام في

الطريق البحري القديم . ولكن أسبق النصوص التي يمكن أن تثق بصحتها تشير إلى علاقات سياسية تبادلوها برا عن طريق بلاد الفرس . وعندما توفي يزديجرد آخر ملوك آل ساسان في فارس ، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب الغزاة<sup>(١)</sup>؛ غير إن إمبراطور الصين أجاب بأن بلاد الفرس كانت من بعد الشقة وطول المسافة بحيث لا يستطيع أن يرسل إليه الجيوش المطلوبة ؛ ولكن قيل إنه بعث إلى البلاط العربي سفيرا يدافع عن قضية الأمير الهارب - ومن المحتمل أيضا أن يكون الإمبراطور قد أوصى سفيره بأن يتبين مدى الاتساع والقوة في الدولة الجديدة التي كانت قد نشأت في الغرب . وقيل إن الخليفة عثمان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصيني في عودته سنة ٦٥١ م ، فأكرم الإمبراطور وقادة أول سفير من المسلمين بعث إليه . وفي عهد الوليد (٧٠٥-٧١٥ م) (٨٦-٨٩٦ م) نجد القائد العربي المشهور ، قتيبة ابن مسلم ، الذي ولاه الخليفة على خراسان ، يعبر نهر سيحون ويشرع في سلسلة من الحملات الناجحة ، أخضع فيها على التوالي بخارى وسمرقند ومدنا أخرى ، ومضى قدما في فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية الصينية . وأرسل قتيبة ، في سنة ٧١٣ م ، رسلا إلى الإمبراطور ، فصرفهم ( كما تذكر بعض الروايات العربية ) ومعهم هدايا ثمينة . وبعد سنين قليلة ، تذكر التواريخ الصينية سفيرا يدعى سليمان ، أوفده الخليفة هشام سنة ٧٢٦ م إلى الإمبراطور هزوان تسنج Hsuan Tsung . واكتسبت هذه العلاقات السياسية ، التي قامت بين الدولتين العربية والصينية ، أهمية جديدة في أواخر عهد هذا الإمبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه فتحنى عنه لابنه سوتسنج Su Tsung (٧٥٦ م) ، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسي المنصور ، وأجاب الخليفة إلى هذا الطلب بأن أرسل إليه قوة من الجيوش العربية ، نجح بمساعدتهم في استرجاع عاصمته سينفو Si-ngan-fu وهو تنفو Ho-nan-fu من أيدي الثوار . وفي نهاية الحرب ، لم ترجع هذه القوات العربية إلى بلادها ، بل تزوجت واستقرت في الصين . ويعزى هذا التصرف الذي كان من جانبهم ، إلى أسباب متعددة ؛ فنصورهم رواية من الروايات بأنهم رجعوا إلى وطنهم، ولكنهم لما لم يسمح لهم بالبقاء فيه بحجة أنهم مكثوا مدة طويلة في بلاد تأكل لحم الخنزير ، عادوا ثانية إلى الصين ؛ وتقول رواية أخرى إنهم كانوا ، في كنتن ، على أهبة الإبحار إلى بلاد العرب ، وفي ذلك الوقت عيّرهم الناس بأنهم أكلوا لحم الخنزير في أنشاء الغزو . وكان من أثر ذلك أنهم رفضوا أن يعودوا إلى وطنهم ويعرضوا أنفسهم لخطر مثل هذه الاتهامات من قومهم ؛ وحين حاول حاكم كنتن أن يجبرهم على الرحيل ، انضموا إلى إخوانهم في الدين من تجار العرب والفرس ، وسلبوا المتاجر الهامة في المدينة ؛ فأنفذ الحاكم

== الصين ، ولا تعرف بدقة كيف انتشر في الإمبراطورية ، ولا عدد من ظفر بهم من الذين دخلوا في الاسلام ، ولأما إذا كانت مبادته عاصمة ، ولا تعرف شيئا عن نظامه ، ولا ما إذا كانت له صلات ببقية العالم الاسلامي .. ( Mission d'Ollone, p.I. ) وقد جمع شفر Schefer ما كتبه العرب والفرس عن الصين في :

"Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois".

نفسه بالالتجاء إلى سورها ، ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن حصل من الإمبراطور على إذن لهذه الجيوش العربية بأن تقيم في هذه البلاد ؛ وخصصوا لهم أراضى ، ودورا في مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد<sup>(١)</sup>.

وكان من الشائع بين مسلمى الصين أن أول من دعا إلى الإسلام في بلادهم أحد أخوال النبي ، وكانوا يعظمون قبره المشهور ، في كتنن ، إلا أنه لا يوجد لهذه الأسطورة أى سند تاريخى ، ويظهر أنها نبتت في زمن متأخر<sup>(٢)</sup>. ولاشك أن ظهورها كان نتيجة لرغبتهم في أن يربطوا تاريخ الدين في بلادهم ، ما أمكنهم ، بعصر النبوة — ذلك العصر الذى كان مصدرا خصبا للأساطير في البلاد النائية عن مراكز التاريخ الإسلامى<sup>(٣)</sup>. أما فيما يتعلق بوجود مسلمين في الصين ، وعلى الأخص وجود تجار منهم في الموانئ ، في عهد دولة تانج ، فهناك الدليل الواضح على ذلك : إذ يقول المؤرخ الصينى لهذه الفترة (٧١٣ — ٧٤٢ م) إن برابرة الغرب دخلوا المملكة الوسطى جماعات ، كالطوفان ، جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الأقل ، وأنت من أكثر من مائة مملكة ، تحمل معها كتبها المقدسة كأنها الجزية ، فأخذت هذه الكتب ووضعت في بهو في القصر الإمبراطورى ، خصص لترجمات الكتب المقدسة والكتب القانونية (§). وعلى هذا النحو انتشرت منذ ذلك الحين العقائد الدينية لتلك الأقطار المختلفة . وأخذ بها الناس في إمبراطورية تانج<sup>(٤)</sup>. وقد كتب أحد الجغرافيين العرب ، حوالى سنة ٨٥١ م يصف هذه الجاليات العربية والمساجد التى سمح لهؤلاء التجار ببنائها لإقامة شعائرهم الدينية<sup>(٥)</sup>؛ فقال إنه لم يصل إلى علمه أن أحدا من الصينيين اعتقدوا الإسلام . ولكنه ، وقد لاحظ نفس الملاحظة على الهند ، ربما أخطأ في استقراء معلوماته عن الصين كما أخطأ في استقراء معلوماته عن الهند<sup>(٦)</sup>. ولكن من المؤكد أن ليس هناك دليل واضح على أن المسلمين في الصين قاموا بأى نشاط في نشر تعاليم الدعوة ، والواقع أن ما ذكر عنهم جميعا حتى عصر فتوح المغول ، في القرن الثالث عشر الميلادى ، كان قليلا للغاية . وقد تمخضت فتوح المغول عن حركة هجرة واسعة النطاق هاجر فيها المسلمون على اختلاف

(١) De Thiersant, vol. i. pp. 70—1.

(٢) ناقش برومهور Broomhall هذه الأسطورة مناقشة وافية : Islam in China, chap. iv, vii.

(٣) وعلى هذا النحو يدعى أعمال خوتان Khotan أن أول من نقل الإسلام إلى أرضهم هو جعفر بن عم التبي

(Grenard : Mission Dutreuil de Rhins, t. III. p. 2) وهى خانات كيرديا Cambodia دعواهم في

الإسلام إلى أحد أعمام محمد (R. du M. M., vol. II. p. 138.)

(§) أى الكتب الدينية التى اتفق علماء المسيحيين على صلاحيتها ومحتوا .

(٤) De Thiersant, vol. 1. p. 153.

(٥) Reinand : Relation des Voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et à la Chine, i. pp. 13, 64. (Paris, 1845).

Id. p. 58. (٦)

قومياتهم ، من عرب و فرس و أتراك و غيرهم إلى الإمبراطورية الصينية (١) . فجاء بعضهم إلى الصين تجارا أو صناعا ، و بعضهم جنودا أو مستعمرين ، و جيء بآخرين أسرى حرب . و استقر عدد كبير منهم في هذه البلاد بصفة دائمة ، و تطوروا إلى طائفة كبيرة مزدهرة ، فقدت خصائص جنسها الأول شيئا فشيئا بالزواج من نساء صينيات . و قد تقلد عدة مسلمين مناصب رفيعة تحت إمرة حكام المغول . مثال ذلك ، عبد الرحمن الذى اختير سنة ١٢٤٤ رئيسا على بيت مال الدولة ، و خول حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين (٢) ، و كذلك عمر شمس الدين المشهور بالسيد الأجل و كان من أهالى بخارى ، عهد إليه قويلاي خان ، عندما اعتلى العرش سنة ١٢٥٩ ، فى إدارة بيت مال الإمبراطورية ؛ ثم أصبح حاكما ليو نان Yunnan ، بعد أن فتحت هذه الولاية و ضمت إلى الإمبراطورية الصينية (٣) . و مات السيد الأجل فى سنة ١٢٧٠ ، و ترك بعد وفاته شهرة بأنه كان حاكما فطنا عادلا ؛ إذ بنى فى مدينة يونان معابد لاتباع كنفشيوس بقدر ما بنى فيها من المساجد (٤) .

و قد مثلت ذرية السيد الأجل دورا هاما فى توطيد دعائم الإسلام فى الصين ؛ فكان حفيده هو الذى حصل من الإمبراطور فى سنة ١٣٣٥ على الاعتراف بأن الإسلام ، هو الدين الحق الخالص ، - و هو اسم ظل الإسلام يحمله حتى يومنا هذا - و أذن الإمبراطور فى سنة ١٤٢٠ لشخص آخر من سلالة السيد الأجل بأن يبنى مساجد فى العاصمتين ، سنيانفو Si-ngan-fu و نانكين Nan-kin (٥) . و قد اتخذ مؤرخو الصين ، فى عهد قويلاي خان ، من عدم تعيينه موظفين من الصينيين بدلا من مهاجرى الترك و الفرس ذريعة للشكوى من هذا الملك (٦) . و انجذب أمثال هؤلاء الترك و الفرس إلى شمال الصين ، لما كان يشغله السيد الأجل من مكان رفيع ، و لما أوجدته فتوح المغول من تيسير فى الصلة بين الصين و الغرب . و من المحتمل أن تكون هذه الجماعات الإسلامية المتفرقة ، التى تكاثرت فى معظم ولايات الصين بنسبة كبيرة ، قد أخذت تتكون نتيجة لهذه الهجرات . و قد لاحظ ماركو پولو Marco Polo الذى تمتع بعطف قويلاي خان ، و عاش

(١) و نعرف ، من مذكرة راهب صينى تحول من سنة ١٢٣١ إلى سنة ١٢٢٤ - لال آسيا الوسطى حتى وصل فارس ، أن الصينيين أيضا هاجروا نحو الغرب ، فى البلاد التى فتحها الاسلام ، حيث كانوا يعملون فى بيعة تقوده الدينى ؛ و يقول هذا الراهب فى حديثه عن سمرقند : « إن الصناع الصينيين يعيشون فى كل مكان .. »

(Bretschneider (1), vol. i. p. 78.)

Howorth, vol. 1. p. 161. (٢)

(٣) للاطلاع على تراجم السيد الأجل ، انظر : R. du M. M., viii. p. 344. sqq. and xi. p. 3 sqq.

Mission d'Ollone, p. 25 sqq.

Broomhall, p. 127. (٤)

Mission d'Ollone, pp. 435-6. (٥)

Howorth, vol. 1. p. 257. (٦)

في الصين من سنة ١٢٧٥ إلى سنة ١٢٩٢ ، وجود مسلمين في جهات شتى من يونان (١) . ويقول مؤرخ معاصر لماركو پولو ، إنه في بداية القرن الرابع الميلادي ، كان جميع سكان تاليفو Talifu ، حاضرة يونان ، من المسلمين (٢) ؛ وكذلك ابن بطوطة ، الذي زار عدة مدن ساحلية في الصين ، حول منتصف القرن الرابع عشر ، يتحدثنا عن الترحيب الحار الذي لقيه من إخوانه في الدين (٣) ، ويقرر أن ، في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين بنفردون بسكانهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها ، وهم معظمون محترمون ، (٤) .

ويظهر أن المسلمين في الصين كانوا حتى ذلك العصر يعدون طائفة أجنبية ، ولكنهم بعد زوال دولة المغول في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ، لم يتلقوا زيادة جديدة من الخارج ، نتيجة لسياسة العزلة التي اتخذتها حينذاك الحكومة الصينية ؛ ولما كان الأمر ، على هذا النحو ، من انقطاع الصلة بينهم وبين إخوانهم في الدين الذين يقيمون في أقطار أخرى ، أخذوا في معظم بقاع الإمبراطورية يتحولون شيئا فشيئا إلى الاندماج في العامة من أهالي البلاد ، وذلك بالزواج من نساء صينيات ، وتعود عادات أهل الصين وأخلاقهم . وقدم إليهم مؤسس دولة منج Ming الجديدة ، وهو الإمبراطور هنج و Hung Wu ، كثيرا من الامتيازات ، وتدل كثرة المساجد التي بنيت على اتعاشهم خلال الفترة التي قضتها هذه الدولة في الحكم (١٣٦٨ - ١٦٤٤ م) .

وقد نرى ملوك هذه الدولة صلاتهم الودية بأمرام المسلمين الذين كانوا يقيمون على حدود الصين الغربية ، كما أكثروا من تبادل السفراء مع الأمراء التيموريين . ويعتبر أحد هؤلاء الأمراء ذا أهمية في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية ، وهذا هو الشاه رخ بهادر ، الذي اتهم سنة ١٤١٢ فرصة قدوم سفير صيني إلى قصره في سمرقند ، وضمن رده على الإمبراطور الصيني دعوة إلى الإسلام ، وذلك بأن أرسل مع رسوله ، الذي صحب السفراء الصينيين في عودتهم ، رسالتين ، كانت أولاهما باللغة العربية ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم ! لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . قال رسول الله محمد عليه السلام : لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله ، لا ينصر من خذلهم ولا يطاع من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته ، قال : كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف ، تخلقت الخلق لأعرف ، فعلم أن حكته جلت قدرته ، وعلت كلمته ، من خلق نوع الإنسان ، إيثار العرفان ، وإعلاء أعلام الهدى والإيمان . وأرسله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، ليعلم الشرائع والأحكام ، وسنن الحلال والحرام . وأعطاه القرآن المجيد معجزة ، ليفهم به

(١) Marco Polo, vol. 1. pp. 219, 274 ; vol. ii. p. 66.

(٢) رشيد الدين (Yule's Cathay, pp.)

(٣) رحلة ابن بطوطة ، المجلد الثالث ص ٢٧٥ ، ٢٨٣ ( طبع أوروبا ) .

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٨ .

المنكرين ، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام ، وأبقى بعنايته الكاملة ، وهدايته الشاملة ، آثاره إلى يوم القيامة ؛ ونصب بقدرته في كل حين وزمان ، وفرصة وأوان ، في أقطار العالمين ، من الشرق والغرب والصين ، ذا قدرة وإمكان ، وصاحب جنود مجتدة وسلطان ، ليروج أسواق العدل والإحسان ، ويبسط على رموس الخلائق أجنحة الأمن والأمان ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر والطغيان . ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء ، وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في الملة الزهراء . فوقنا الله تعالى بسوابق لطفه ، ولو احق فضله ، أن نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة ، وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة ؛ وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا ، في الوقائع والقضايا ، بالشريعة النبوية ، والأحكام المصطفوية ؛ ونبنى في كل ناحية ، المساجد والمدارس ، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد ، كي لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها ، وينطمس آثار الشريعة ومراسمها ، ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطنتها ، واستدامة آثار الحكومة وإيالتها بإعانة الحق والصواب ، وإمالة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض ، لتوقع الخير والثواب . فالمرجو والمأمول من ذلك الجانب وأركان دولته ، أن يوافقونا في الأمور المذكورة ، ويشاركونا في تشييد قواعد الشريعة المعمورة . أما الرسالة الأخرى التي كتبت بالفارسية فالدعوة فيها إلى اعتقاد الإسلام أكثر صراحة ، وليس فيها التعميق البلاغي الذي رأيناه في الرسالة العربية : ولما خلق الله الأعظم ، بحكمته البالغة وقدرته الكاملة ، آدم ( عليه السلام ) جعل بعض أبنائه أنبياء ورسل ، وأرسلهم إلى الخلق يدعونهم إلى الحق . وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود ومحمد ( عليهم السلام ) كتاباً وعليهم شريعة ، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه . ودعا هؤلاء الرسل جميعاً الناس إلى دين التوحيد وعبادة الله ، ونهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم ، والملوك والأصنام ؛ ومع أن كلا من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة ، فإنهم كانوا جميعاً متفقين على توحيد الله الأعظم . ولما صار أمر الرسالة والنبوة إلى محمد المصطفى ( صلى الله عليه وسلم ) نسخت كل الشرائع الأخرى . وهو نبي آخر الزمان ورسوله ، وواجب على العالم بأسره — أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغاراً وكباراً — أن يعملوا بشريعته ، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة . هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الإسلام . ومنذ سنوات خلت ، هبياً جنكيز خان للقتال ، وأرسل أبناءه إلى بلاد وممالك مختلفة — فأرسل جوجي خان إلى حدود سراي ، وقرم ودشت قفجاق ، حيث أسلم بعض الشاهات ، من أمثال أوزبك وجاني خان وأرس خان ، وعملوا بشريعة محمد ( عليه السلام ) ، وأصبحوا بذلك مسلمين ، وانتقلوا إلى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام ؛ ومن هؤلاء الملك الصادق غازان وأجايو سلطان والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر — وغيرهم بعدهم حتى ولي العرش والدي المسكرم أمير تيمور كوركان . وقد عمل والدي كذلك بشريعة محمد ( عليه السلام ) في كل البلاد التي حكمها . ونعم المسلمون ، طوال عهده ، برخاء شامل . والآن وقد انتقلت إلى يدي ، بلطف الله وفضله ، بمالك خراسان وماوراء النهر والعراق وغيرها ، فإن حكم البلاد في كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية ؛ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وأبطل يرغو وزالت قواعد جنكيز خان . ومنذ ذلك الحين صار يقينا ومحققا أن الخلاص والنجاة في يوم القيامة ، والسلطان والدولة في الدنيا ، سبها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى ، ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وإنصاف . وإني لأرجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعملوا أتم أيضا بشريعة محمد رسول الله ( عليه السلام ) ، وأن تقووا الإسلام فتنالوا بدلا من سلطان الدنيا سلطان الآخرة (١) .

وليس يبعد أن تكون هاتان الرسالتان قد خلقتا القصة ، التي نشأت في عصر متأخر ، والتي روت أن أحد أباطرة الصين قد تحول إلى الإسلام (٢) . وقد روى هذه القصة ، مع غيرها من القصص ، تاجر مسلم يدعى سيد على أكبر ، قضى سنوات قليلة في بكين ، في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ؛ ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا في الصين ؛ فكان في مدينة كنجنفو Kenjanfu عدد كبير يبلغ ثلاثين ألف أسرة من المسلمين ؛ فلم يؤدوا الضرائب ، وتمتعوا بكرم الإمبراطور ، الذي منحهم هبات من الأرض ؛ ونعموا بالحرية المطلقة في إقامة شعائر دينهم الذي كان الصينيون ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير ، وترك أمر التحول إلى الإسلام حرا ؛ وكان في العاصمة نفسها أربعة مساجد كبيرة ، وما يقرب من تسعين مسجدا غيرها في الولايات الأخرى من الإمبراطورية ، وقد بنيت كلها على نفقة الإمبراطور (٣) .

ولم يكن هناك حتى قيام دولة منشو Manchu سنة ١٦٤٤ خبر عن أية ثورة قام بها المسلمون ، بل يظهر أنهم كانوا راضين كل الرضا بما كانوا يتمتعون به من حرية دينية . ولكن سرعان ما قامت الصعاب على أثر قيام السلطة الحاكمة الجديدة ، فثار المسلمون في ولاية كنسو Kansu سنة ١٦٤٨ ، وكانت هذه هي أول مرة تسلم فيها المسلمون وثاروا على الحكومة الصينية . على أنه لم يكذب أي القرن التاسع عشر حتى أصبحت أية ثورة من هذا النوع تجر على المسلمين عواقب وخيمة ، أو تقطع العلاقات الودية التي قامت منذ البداية بين مسلمي الصين وحكامهم . وتتجلى وجهة النظر الرسمية التي كانت تنظر بها الحكومة الصينية إلى هذه الصلات في القرار الذي نشره الإمبراطور ينج تشن Yung Chen سنة ١٧٣١ : - في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية ، يوجد منذ قرون كثيرة مضت ، عدد كبير من المسلمين ؛ يؤلفون جانبا من الشعب ، أعتبرهم كأبنائي وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقية رعيتي تماما ، ولا أفرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام . وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلامات سرية ضد المسلمين ، سبها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين ، وأنهم لا يتكلمون بلغة الصين ، ويلبسون لباسا يختلف عما يلبسه سائر الأهالي . وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية ، وقد طلب مني أن أتخذ ضدهم تدابير صارمة .

(١) عبد الرزاق السمرقندي : مطلع المعدن وجمع البحرين ، ورقة ٦٠ - ٦١ . (Blochet, pp. 249-52.)

(٢) Zenker, pp. 798-9. Mélanges Orientaux, p. 65. (Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, Sér. ii. t. q.) (Paris 1883.)

(٣) Schefer, pp. 29-30, Zenker, p. 796.

فلما بحثت هذه الظلمات والاثامات لم أجد لها أساسا من الصحة . والواقع أن الدين الذي اتبعه المسلمون ، إنما هو دين أجدادهم ، والحق أن لغتهم ليست كلغة بقية الصينيين ، ولكن ما أكثر اللغات في الصين . أما فيما يتعلق بدور عبادتهم ولباسهم وطريقتهم في الكتابة — وكما يختلف عما عند غيرهم من أهل الصين — فهذه مسائل لا أهمية لها مطلقاً ، وما هي إلا عادة من عادات المسلمين . إنهم يتحلون بالأخلاق الفاضلة كغيرهم من الرعية ، وليس هناك ما يدل على ميلهم إلى الثورة . من أجل ذلك كانت رغبتى أن تطلق لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم ، الذي يهدف إلى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة وتأدية واجباتهم الاجتماعية والمدنية . إن هذا الدين يحترم النظم الأساسية للحكومة ، فإذا نستطيع أن نطلب منه أكثر من هذا ؟ فإذا ظل المسلمون بعد ذلك يتصفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون ، فسأبسط لهم رعايتى بقدر ما أبسطها إلى أبنائى الآخرين . لقد ظهر منهم مدنيون وعسكريون ارتقوا إلى أعلى المناصب . وهذا أقوى دليل على أنهم تطبعوا بطباعنا وتعودوا عاداتنا ، وتعلموا كيف يلائمون بين أنفسهم وبين شرائع كتبنا المقدسة . إنهم يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها أى إنسان آخر . ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية . وقصارى القول أنهم أعضاء خالص في الأسرة الصينية العظيمة وأنهم يجدون دائماً في أداء واجباتهم الدينية والمدنية والسياسية . وحين ينظر القضاة قضية مدنية ، لا تعنيهم ديانة المتخاصمين ، فليس هناك إلا قانون واحد لرعايتى . فن عمل صالحاً كوفى عليه ، ومن عمل سيئاً حق عليه العقاب ، (١) .

بعد ذلك بثلاثين سنة ، أظهر خليفته الإمبراطور كين لنج K'ien Lung دلائل واضحة على عطفه على المسلمين ، وذلك بأن رفع شأن اثنين من ييكوات الأتراك كانا قد ساعدا مساعدة فعالة على إخماد ثورة في الشمال الغربى من الإمبراطورية ، وفى كاشغر ، كما أظهر عطفه ببناء قصور لهم فى بكين ؛ وكذلك شيد مسجداً ليصلى فيه ييكوات الأتراك الذين يزورون القصر الإمبراطورى ، ويصلى فيه أسرى الحرب الذين جىء بهم من كاشغر إلى العاصمة . وكان بين هؤلاء الأسرى فتاة جميلة ، أصبحت جارية للإمبراطور ، ونالت حظوة عنده . ويقال إنه فى سبيل حبها بنى هذا المسجد تجاه قصره مباشرة ، كما بنى قبة فى فناء قصره ، فتمكنت الجارية من أن تشاهد منها أبناء وطنها وهم يصلون ، وأن تشاركهم فى عبادتهم . وقد بنى هذا المسجد من سنة ١٧٦٣ إلى سنة ١٧٦٤ ، وهو يحتوى على نقش مكتوب بأربع لغات ، كتب الإمبراطور نفسه النص الصينى من هذا النقش (٢) .

وبعد أن وقع الثورة فى زنجريا Zungaria ، نقل إليها هذا الإمبراطور K'ien Lung نفسه فى سنة ١٧٧٠ ، عشرة آلاف مهاجر عسكرى من جهات أخرى من الصين ، وتبعهم أسراتهم وغيرهم من الناس ، ليعمروا

De Thiersant, tome i. 154-6. (١)

Broomhall, p. 92 sqq. Devéria : Musulmans et Manichéens chinois. (٢)

(J. A. qme. Sér., tome x. p. 447 sqq.)

البلاد ، ويقال إنهم جميعا دخلوا في دين المسلمين الذين كانوا يقيمون فيها حولهم<sup>(١)</sup>. على أنه ليس لدينا ما نذكره عن مثل هذا التحول الإجماعي إلى الإسلام هل حدث أيضا في بقاع أخرى من الإمبراطورية؟ ولكنه من العسير ، وإن كان عدد السكان في تلك الولايات التي استقر فيها المسلمون الغرباء أكبر منه في سائر الولايات<sup>(٢)</sup> ، أن نفسر وجود عدد كبير من الأهالي المسلمين في كل ولاية من ولايات الصين بأنه إنما يرجع إلى المهجرات الأجنبية ونمو السكان بنوا طبيعيا<sup>(٣)</sup>. وليس من المحتمل أن يكون مسلمو الصين ، الذين نعموا بالحرية الدينية وبمحاية بعض الأباطرة لحريةهم ، قد تجردوا طوال القرون الكثيرة التي عاشوها في الصين ، من تحمسهم لنشر تعاليم الإسلام ، ذلك التحمس الذي يلاحظه الباحثون المحدثون على ذريتهم في عصرنا هذا<sup>(٤)</sup>. وإلى مثل هذا النشاط المباشر في الدعوة إلى الإسلام يعزى إسلام يهود من الصينيين ، بدأ استيطانهم لهذه البلاد من عصر مبكر فشغلوا وظائف في الحكومة وامتلكوا ضياعا واسعة ؛ ولكن جزءا كبيرا منهم تحول إلى الإسلام في نهاية القرن السابع عشر<sup>(٥)</sup>. ولا بد أن هذا النوع من الدعوة إلى الإسلام كان في غاية الرزاق والوقار ، والواقع أنه كان هناك أساليب علنية أخرى في الدعوة أثارت شكوك الحكومة ، كما يتضح من التقرير الذي أرسله حاكم ولاية خوانسي Khwang-Se إلى الإمبراطور كين لنج سنة ١٧٨٣ . وهذا نصه : وإن لي عظيم الشرف أن أحيط جلالكم علما بأن مغامرا يدعى هانفوين Han-Fo-Yun ، من ولاية خوانسي قبض عليه بتهمة التشرد . فلما سئل عن عمله ، اعترف بأنه قضى عشر سنوات يطوف بشتى ولايات الإمبراطورية كي يستطلع أحوال ديارته . وقد وجدنا في إحدى حقائبه ثلاثين كتابا ، كتب بعضها بنفسه ، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها أحد عندنا . وتمجد هذه الكتب ملكا من ملوك العرب يدعى محمدا ، في أسلوب مسرف يدعو إلى السخرية . ونحن قدمنا هذا الضال الذي ذكرناه من قبل للتعذيب ، اعترف أخيرا بأن الغرض الحقيقي من رحلته أن يدعو لهذا الدين الزائف الذي يتعلونه من هذه الكتب ، كما اعترف بأنه قضى في ولاية شنسي Shen-Si مدة أطول مما قضاه في أية ولاية أخرى . لقد اختبرت هذه الكتب بنفسى فوجدت بعضها مكتوبا بلغة أجنبية ؛ ولهذا لم أستطع فهمها : أما بعضها الآخر الذي كتب باللغة الصينية فردى جدا ، ويمكن أن أضيف إلى ذلك أنها كانت أيضا تبعث على السخرية لما فيها من مغالاة في مدح أشخاص ، من المؤكد أنهم ليسوا أهلا لهذا المدح ، لأنى لم أسمع بهم حتى مجرد السماع . وربما كان هانفوين الذى تقدم ذكره أحد الثوار من كفسو Kan-Su . ولا شك أن مسلكه يدعو إلى الريبة ، إذ ماذا كان

(١) De Thiersant, tome i. pp. 163-4.

(٢) يذكر بروم هول Broomhall في الفصل الثانى عشر من كتابه ،، الإسلام في الصين ،، "Islam in China"

أن مجموعهم يتراوح بين خمسة وعشرة ملايين نسمة . أما دلون d'Ollone فإنه يخفض هذا العدد إلى أربعة ملايين نسمة .

(٣) يقال إن المسلمين الصينيين أكثر إنسالا من غيرهم من الصينيين ، ويقدر التعداد الصينى ، الذى يحصى الأفراد حسب

الأسر ، ستة أفراد للامرة من الصينيين المسلمين وخمسة أفراد للامرة من الصينيين غير المسلمين . (Broomhall, pp. 197,203.)

(٤) Vide infra, pp. 309-310.

(٥) Clark Abel : Narrative of a journey in the interior of China. p. 361.

(London, 1818.)

يريد أن يعمل في هذه الولايات التي طاف بها مدة السنوات العشر الأخيرة من حياته ؟ وإني عازم على بحث المسألة بحثا جديا . وفي هذه الأثناء ، أتمس من جلالتم ، أن تأمروا بإحراق صحائف الطباعة ، التي في حوزة أسرته ، وبالقبض على من حفروها ، وبالقبض أيضا على من ألفوا هذه الكتب التي أرسلتها إلى جلالتم ، رغبة في الوقوف على ماتروته في هذا الأمر (١) .

وإن هذا التقرير ليشهد على نشاط واحد ، على الأقل ، من دعاة المسلمين في القرن الثامن عشر الميلادي ، كما يدل على أن نمو الإسلام ، وهو ملاحظه هناك رسل الجزويت (٢) في القرن الثامن عشر ، لا يحتمل أن يكون ضعيف الصلة بالدعوة الصريحة إلى الإسلام ، كما زعم بعضهم . ويعزو دو هلد Du-Halde الزيادة في عدد المسلمين ، في فصل من الفصول القليلة التي خصصها للمسلمين في كتابه الضخم (٣) ، إلى ما اعتاده من شراء الأطفال أيام المجاعات . ولقد استوطن المسلمون مدة تربو على ستائة سنة ، في مختلف الولايات ، حيث يعيشون في هدوء تام ، لأنهم لا يقومون بأية جهود كبيرة لنشر عقيدتهم وكسب مسلمين جدد ، ولأنهم في الأزمان الماضية لم يزد عددهم إلا عن طريق التحالف مع الصينيين والزواج منهم . والسكنهم سائرون ، منذ سنين ، في تقدم ملحوظ بفضل ما لهم من ثروة . فهم يشترون الأطفال الوثنيين حينما كانوا ؛ ولا يبعد آباء هؤلاء الأطفال غضاضة في يعمهم ، لعجزهم دائما عن توفير القوت لهم . وفي أثناء المجاعة التي خربت ولاية تشنتنج Chantong ، اشترى المسلمون ما يربو على عشرة آلاف من هؤلاء الأطفال . ويتزوج المسلمون بالصينيات ، ويشترون لهم الدور ، أو يبنون لهم في المدينة أحياء مستقلة ، بل قرى بأكملها ؛ وحصلوا شيئا فشيئا على مثل هذا النفوذ في جهات عدة ، حتى إنهم لم يبقوا لآي شخص لا يذهب إلى المسجد أن يعيش بين ظهرانيهم . وبمثل هذه الوسائل تضاعف عددهم إلى حد كبير ، خلال القرن الماضي .

وشبهه بهذا ، ما حدث في المجاعة التي اجتاحت ولاية كوآنجتنج Kwangtung سنة ١٧٩٠ ، إذ اشترى المسلمون فيما يقال ، عددا كبيرا يبلغ عشرة آلاف طفل ، كان آباؤهم من الفقر بحيث لم يستطيعوا الإنفاق عليهم ، فرغبوا في التخلص منهم إنفاذا لأبتائهم من الهلاك جوعا ؛ وقد تربى كل هؤلاء على دين الإسلام (٤) . وقد زار القاهرة في سنة ١٨٩٤ صيني مسلم من ولاية يونان ، يدعى سيد سليمان ، فذكر عندما قابله مندوب إحدى الصحف العربية (٥) ، أن عدد الذين يدخلون في الإسلام كل عام ، بهذه الطريقة ، يفوق الحصر والعد . وشهد مسيو دلون M.D'Ollone بما يشبه ذلك ، ويقرر أن عادة شراء الأطفال هذه ، في أيام المجاعات ،

(١) De Thiersant, tome ii. pp. 361-3.

(٢) كتب أحد رسل الجزويت من بكين في سنة ١٧٢١ يقول .. إن طائفة المسلمين تنصع شيئا فشيئا ..

( Lettres édifiantes et curieuses, tome xix. p. 140. )

(٣) J. B. du Halde : Description géographique, historique, chronologique, politique et physique de l'Empire de la Chine, tome iii. p. 64. (Paris, 1735.)

(٤) Anderson, p. 151. Groier, tome iv. p. 507

(٥) نمرات القنون ، ١٧ من شوال ، ص ٣ ( بروت سنة ١٣١١ هـ ) .

منتشرة حتى الآن بين المسلمين في جميع أنحاء الصين ؛ وعلى هذا النحو اشتروا أطفال المسيحيين الذين قتلهم الملاكون Boxers في سنة ١٩٠٠ ، ونشؤهم على الإسلام<sup>(١)</sup> .

ويميل المسلمون في الصين إلى أن يعيشوا جماعة في مدن وقرى مستقلة ، أو يكونوا لأنفسهم في المدن أحياء إسلامية منفصلة ، حيث لا يسمح لأى شخص لا يذهب إلى المسجد أن يقيم بينهم<sup>(٢)</sup> . ومع أنهم يعيشون على هذا النحو من العزلة إلى حد ما ، نراهم حريصين على أن يتجنبوا الظهور العلني بأى مظهر خاص من مظاهر الشعائر الدينية الإسلامية ، التي قد تضايق جيرانهم ، كما نراهم حريصين على ألا يثيروا تعصب مواطنيهم من الصينيين . والمسلمون يلتزمون في حياتهم العادية ما هو شائع حولهم من عادات وطبائع ؛ فهم يتخذون صفائر الرأس والملابس الصينية المعروفة ، كما جرت العادة بأن يلبسوا العمامة في المساجد فقط . وكذلك يتجنب المسلمون هناك بناء مآذن عالية ، في أى مكان يبنون فيه ، تفاديا من إثارة تعصب الصينيين<sup>(٣)</sup> . بل إن مساجدهم كانت في معظم الأحيان تتفق مع المعيار الصيني ، فكانت في الغالب لا تتميز بشيء عن معابد الصينيين<sup>(٤)</sup> أو مساجدهم العادية . وقد فرض القانون أن يكون في كل مسجد لوح للإمبراطور ، منقوش عليه ، وعاش الإمبراطور الخالد إلى الأبد . وكان المسلمون يسجدون أمامها جريا على العادة الصينية المتبعة ، وكانت لهم حيل عديدة في التخلص من ذلك ، إرضاء لضائرتهم وتفاديا من الاتهام بالوثنية<sup>(٥)</sup> . حتى في بلاد التتار الصينية ، التي كان مباحا فيها للجنود المسلمين امتياز خاص يخول لهم أن يعيشوا غير مندمجين في غيرهم ، وأن يكونوا طائفة منفصلة ، كان كبار الموظفين من المسلمين يزودون الزى المخصص لمناصبهم ، ويرسلون شواربهم ، وجدائل شعرهم ، ويقومون في أيام العطلة بما كان مفروضا على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة ، لصورة الإمبراطور ، وذلك بأن يسجدوا لها ثلاث سجودات<sup>(٦)</sup> . وكذلك كان جميع أصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين ، في الولايات الأخرى ، يؤدون في أيام الأعياد الشعائر الخاصة بوظائفهم في معابد كنفشيوس . والواقع أن المسلمين احتاطوا كل الحيلة كي لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة ، وقد نجحوا ، من أجل هذا ، في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية ، كاليهودية والمسيحية . بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنيهم من الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كنفشيوس ، مع فارق واحد ، هو أن المسلمين يسرون وفق تعاليم أجدادهم في الزواج ، والجنائزات ، وغسل الأيدي قبل وجبات الطعام ، وتحريم

Mission d'Ollone, p. 279. R. du M. M., tome ix. pp. 577, 578. (١)

Broomhall, p. 226. Grosier, tome iv. p. 508. (٢)

Vasil'ev., p. 15. (٣)

Broomhall, p. 237. (٤)

Id. pp. 186, 228. (٥)

Arminius Vambéry : Travels in Central Asia. p. 404. (London, 1864.) (٦)

الخزير والخر والدغان ولعب الميسر<sup>(١)</sup>. وكذلك كانت مؤلفات المسلمين الصينيين تجمد كتب كنفسيوس وغيرها من الكتب الصينية ، ونشير ، ما استطاعت ، إلى ما هنالك من الاتساق بين ما في هذه الكتب الصينية وبين تعاليم الإسلام<sup>(٢)</sup>.

كذلك كانت الحكومة الصينية ، تعطى المسلمين من رعاياها دائما (عدا أوقات الثورة) نفس الحقوق والامتيازات التي كان ينعم بها سائر أفراد الشعب . فلا تعلق في وجوههم وظيفه من وظائف الدولة ؛ بل يتمتعون ، بالوظائف حكاما للولايات ، وقوادا للجيش ، وقضاة ووزراء للدولة ، بالثقفة والاحترام من الحكام والشعب جميعا . وقد ظهرت أسماء المسلمين في التاريخ الصيني ، كموظفين مشهورين في الدولة من الناحية الحربية أو المدنية ، بل اشتهروا أيضا في الفنون الصناعية ، والعلوم كالرياضة والفلك<sup>(٣)</sup>.

ويقال كذلك إن المسلمين الصينيين رجال أعمال أذكياء ، وتجار ناجحون ؛ فهم يحتكرون تجارة لحوم البقر ويزاولون تجارات أخرى بنجاح عظيم<sup>(٤)</sup>. وهكذا نجدهم على صلة بكل ناحية من نواحي الحياة القومية ، ونجد لديهم كل فرصة للقيام بالدعاية ، ولكن البعثات المسيحية القليلة ، التي اهتمت بهذا الموضوع ، ترى أن هؤلاء المسلمين لا تدفعهم حماسة خاصة في نشر تعاليم الإسلام<sup>(٥)</sup>. وإن ما هو ثابت من أن عددا كبيرا من المسلمين الصينيين ، يستطيع الواحد منهم أن يعين اسم أول من أسلم من أجداده لدليل على استمرار عملية التحول إلى الإسلام<sup>(٦)</sup>. ومن الواضح أن المسلمين لم يكن مباحا لهم أن يدعوا إلى دينهم في الطرقات ، كما يفعل البروتستانت<sup>(٧)</sup> ، ولكنهم (كما رأينا من قبل)<sup>(٨)</sup> لا يخفون في اغتنام الفرصة إذا ما ساحت لهم ، كي يزيدوا من عدد طائفتهم . ومن كتب المسلمين الدينية كتاب الهداية إلى قواعد الدين الصحيح ، (نشر في كنين سنة ١٦٦٨) ، وهو كتاب يثني على نشاط الدعوة إلى الإسلام ، ويشير إلى هؤلاء الذين دخلوا في هذا الدين حديثا من بين الوثنيين<sup>(٩)</sup>. ويتعلم المحدثون في الإسلام قواعد هذا الدين الأساسية في كتب منظومة<sup>(١٠)</sup> . ويعزو سيد سليمان ، إسلام كثيرين في السنين الأخيرة ، إلى تأثير كتب المسلمين

Vasil'ev, p. 16. (١)

De Thiersant, tome ii. pp. 367, 372. (٢)

Id. tome i. p. 247. نمرات الفنون من ٢٨ شعبان ص ٣ (٣)

Broomhall, p. 224. (٤)

Du Halde, loc. cit. Broomhall, p. 282. (٥)

Mission d'Ollone, pp. 210, 431. (٦)

Broomhall. pp. 274, 282. (٧)

p. 307. (٨)

Broomhall, pp. 231—2. (٩)

W. J. Smith, p. 175. Mission d'Ollone, p. 407 sqq. (١٠)

الصينيين<sup>(١)</sup>. ويقال إن المعهد الإسلامي في هوتشو Hochow بولاية كانسو Kansu يعلم طلبة العلوم الدينية النظرية، ثم يعودون إلى ولاياتهم، إذا ما أتموا دراستهم لينشروا هناك دينهم<sup>(٢)</sup>، كما يقال إنهم بدءوا عملهم هذا في أكثر من حواضر عشر ولايات، أعدوا من فيها من المُلتبّات للترويج للإسلام<sup>(٣)</sup>. ويحول الضباط الحريون إلى الإسلام كثيرا من الجنود الذين يعملون تحت رياستهم، وكذلك يستغل أصحاب المناصب من المسلمين سلطتهم التي يتمتعون بها في الظفر بمسلمين جدد، ولكن لما كانوا كثيرى التنقل من مكان إلى آخر لم يستطيعوا أن يحدثوا مثل هذا التأثير العظيم الذي أحدثته الضباط المسلمون<sup>(٤)</sup>. وقد تحدث كذلك حالات من التحول إلى الإسلام لم تكن نتيجة للدعوة الصريحة إليه. من ذلك أن رحالة تركيا، زار بكين في سنة ١٨٩٥، فذكر أنه رأى هناك ثلاثين مسجدا، كان أحدها، في الأصل، معبدا لأسرة أحد الصينيين الأثرياء؛ وقد أنقذ المفتي وأهناد (عبد الرحمن) حياة هذا الثرى، في أثناء ثورة الملاكمين Boxers؛ فدخل الثرى في دين مخلصه اعترافا له بالجميل<sup>(٥)</sup>. وكانت هناك في الأعوام الأخيرة، بعوث من الترك وغيرهم من المسلمين تزور الصين، وقد حاولت أن تبث في المسلمين الصينيين معرفة بدينهم تكون أوفى وأشمل، كما حاولت أن تثير فيهم حماسهم، ولكن يبدو أن جهود هذه البعوث لم تثمر إلا قليلا<sup>(٦)</sup>.

وفي سنة ١٨٦٧، عبر كاتب روسي<sup>(٧)</sup>، في كتاب هام كتبه عن الإسلام في الصين، عن الفسكرة التي تقول بأن الإسلام مهيا لأن يصبح الدين القومى للامبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعا لذلك، الأوضاع السياسية في العالم الشرقى رأسا على عقب.

وقد مر ما يقرب من نصف قرن على سماع هذه النبوءة المزعجة؛ ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، يحقق هذه التكهّنات؛ بل على العكس من ذلك، يبدو أن الإسلام كان في خلال القرن الماضى آخذا في التأخر أكثر من أن يكون آخذا في التقدم، منذ أن أدت المذاهب الكثيرة التي صحبت قمع الثورات الوثنية التي ظهرت في يونان من سنة ١٨٥٥ إلى سنة ١٨٧٣، وثورة تونججان التي ظهرت في ولاية كانسو وشنشى من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٧٧ ومن سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٨٩٦ إلى نقص عدد الأهالى من المسلمين ملايين من الألفس<sup>(٨)</sup>. وقد أعطى قيام الجمهورية الجديدة المسلمين الصينيين حرية في العمل (الدعوة)، لم تكن

(١) نمرات القنون نفس الاشارة المذكورة سابقا.

(٢) Broomhall. p. 240.

(٣) The Missonary Review of the World, vol. xxv. p. 786 (1912)

(٤) Mission d'Ollone. p. 431.

(٥) R. du M. M., iii. p. 124. (1907)

(٦) Broomhall. pp. 242, 286, 292 sqq.

(٧) Vasil'ev, pp. 3, 5, 14, 17.

(٨) والقونوف على نيت أكثر إسهابا القنونات الاسلامية، أنظر Mission d'Ollone, p. 436.

معمورة في ظل أية حكومة سابقة ، ولكنه لا يزال من سبق الحوادث أن تعرف إلى أي حد يمكنهم أن يفتنوا الفرص التي تتيحها لهم أوضاع الحياة الجديدة . وإن نشر تعاليم الإسلام في الصين الذي ما زال يسير هناك بقدر ما تسمح به الظروف ، ليدل على أمل في التوسع لا يزال وطيدا . ومع أنه قد انقضت أربعة قرون على الوقت الذي استطاع فيه مسلم رحالة (١) في الصين أن يناقش احتمال دخول الإمبراطور في الإسلام ودخول رعيته من بعده ، فإنه لا يزال من الممكن أن يقرر المسلم الصيني في هذا الجيل أن أبناء دينه في هذه البلاد يتعلمون في ثقة إلى ذلك اليوم ، الذي يتصر فيه الإسلام في طول الإمبراطورية الصينية وعرضها (٢) .

---

(١) سيد علي أكبر : ختاي نامه من ٨٣ .. إذا اعتقد إمبراطور الصين الإسلام ، فلا مفر من أن يعتقد رعيته الإسلام كذلك ، لأنهم جميعا يقدسونه إلى حد أنهم يصدقونه في كل ما يقول . فاذا ما قوى هذا الضرع المنبعث من القرب كان كفار الشرق سوف يدخلون في الإسلام ذرافات ورحدانا ، دون أن يبدوا معارضة ، لأنهم مجردون من كل تمصب في المسائل الدينية ..

(٢) نمرات القنون ٢٦ من شوال ٣ ( ١٣١١ هـ ) .

# الباب الحادي عشر

## إنتشار الإسلام في إفريقية

إن تاريخ الإسلام في إفريقية الذي يستغرق فترة تقرب من الثلاثة عشر قرنا، والذي ينتظم ثلثي هذه القارة الواسعة، بما فيها من مختلف القبائل وشتى الأجناس، ليضع مشاكل بعينها في طريق بحث الموضوع بحثا منظما، إذ يستحيل علينا أن نصور انتشار الإسلام في كافة أرجاء القارة تصويرا دقيقا يقوم على نظام تاريخي. وقد عاجلنا في فصل سابق الصلة بين انتشار الإسلام وبين الكنائس المسيحية في مصر وبقيّة إفريقية الشمالية، ثم بينه وبين كنائس بلاد النوبة وبلاد الحبشة؛ أما في هذا الباب فتريد أن نتبع تقدمه بين الوثنيين في إفريقية الشمالية أولا، ثم في السودان وعلى طول الساحل الغربي ثانيا، وأخيرا على طول الساحل الشرقي ومستعمرة الكاب (١).

وإن ما لدينا من أخبار انتشار الإسلام في الشعوب الوثنية في شمال إفريقية، لا يكاد يزيد إلا زيادة طفيفة على تلك الحقائق القليلة التي ذكرناها من قبل عن زوال الكنيسة المسيحية. لقد قاوم البربر الجيوش العربية مقاومة عنيفة، ويظهر أن استعمال القوة في تحويلهم إلى الإسلام كان له أثر أكبر مما استخدم في سبيل هذا التحويل من وسائل الاقناع والترغيب. فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة، ناروا على الدين كما ناروا على حكم الغزاة الذين فتحوا بلادهم، حتى ليقرر المؤرخون العرب أن مرات ارتدادهم عن الدين بلغت اثنتي عشرة مرة (٢). وفي تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر، إشارات قليلة بسيطة عن دخول الأخيرين في الإسلام. ويظهر أن إسلام البربر في بعض الأحيان إنما كان يدفع إليه عليهم بأنه لا فائدة من التماذي في مقاومة الجيوش العربية. فحين وقف البربر في وجه الغزاة سنة ٧٣٠ آخر وقفة لهم، ثبأت الكاهنة (٣)، وكانت نبيتهم، وزعيمتهم المقدامة، أن النصر سيتحول عنهم. وأرسلت أبناءها إلى معسكر القائد العربي، وأوصتهم بأن يسلبوا ويفقوا في صف الأعداء. أما هي فقد اختارت لنفسها أن تموت وهي تحارب في جانب مواطنيها في المعركة الكبرى التي حطمت قوة البربر السياسية، وأخضعت إفريقية الشمالية للعرب. وعقد الصلح بين الفريقين على شريطة أن يقدم البربر اثني عشر ألف محارب إلى صفوف الجيش العربي، وتكون من هؤلاء البربر جيشان، وضع كل منهما

(١) وهناك خريطة غنية تبين توسع الإسلام في إفريقية، في مجلة

"The International Review of Missions," vol. i. p. 652.

(٢) Fournel, vol. i. p. 271.

(٣) واسمها الحقيقي غير معروف.

تحت إمرة واحد من أبناء الكاهنة (١). وبتلك الحيلة، نغنى لإدخال البربر في جيوش العرب، أمل قواد المسلمين أن يدخلوهم في الإسلام، وذلك بأن يطعموهم في الغنائم.

وكان الجيش المؤلف من سبعة آلاف من البربر، والذي أبحر من إفريقيا سنة ٧١١ م ليفتح أسبانيا بقيادة طارق وكان هو نفسه بربريا)، يتألف من أشخاص كانوا قد دخلوا في الإسلام حديثا. وقيل إن دخولهم في الإسلام كان عن يقين ثابت. وقد اختير العلماء والفقهاء من العرب، ليقرؤوا ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم. ويعلمونهم كل ما فرضه الدين الجديد من واجبات (٢). وأظهر موسى، فاتح إفريقيا العظيم، حماسة نحو إعلاء شأن الإسلام، بأن خصص جزءا كبيرا من المال الذي كان يعطيه إياه الخليفة عبد الملك، ليشتري أمثال هؤلاء الأسرى إذا ما تعهدوا بأن يظهرُوا أنهم جديرون بأن يكونوا أبناء أوفياء للإسلام. فكان كلما وجد عددا من الرقيق، معروضا للبيع، عقب أى انتصار، اشترى كل الذين يظن أنهم سيعتقدون الإسلام راغبين، والذين كانوا من أصل كريم، والذين يظهرُون، إلى جانب ذلك، بمظهر الشباب العامل النشط. وكان أول الأمر يعرض على هؤلاء أن يعتقدوا الإسلام، فإذا ما تحولوا إلى خير الأديان، بعد صقل مداركهم وتهيئتهم لاستقبال الحقائق السامية، وكان تحولهم إليه صادقا، استخدمهم على سبيل تجربة كفاياتهم، فإذا أثبتوا استعدادا ومواهب طيبة اعتقدهم في الحال، وعينهم في مرا كرهامة في جيشه، ورفاه حسب كفاياتهم؛ وإذا كان العكس، ولم يظهرُوا صلاحية في أعمالهم، أعادهم إلى مستودع الأسرى العام التابع للجيش، ليتخلص منهم حسب العادة المتبعة عندهم، وهي أن يتزعموا بالسهام ما فيهم من فساد (٣).

أما معرفة إلى أى حد كان إسلام البربر سطحيا، فيمكن أن نحكم على ذلك مما حدث حين عين عمر بن عبد العزيز الورع في سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م) إسماعيل بن عبد الله واليا على شمال إفريقيا، وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في أمور دينهم، فلم يكن يظهر حتى ذلك الوقت أنهم كانوا يعلمون أن دينهم الجديد يحرم عليهم شرب الخمر. ويقال إن هذا الوالى الجديد أظهر نشاطا عظيما في دعوة البربر إلى قبول الإسلام، ولكن الحكم بأن جهوده كلت بالنجاح، بحيث لم يبق واحد من البربر لم يدخل الإسلام. حكم لاشك غير صحيح (٤). وذلك لأن تحويل البربر إلى الإسلام كان من غير شك عمل قرون عديدة؛ بل إنهم يحتفظون حتى الوقت الحاضر بكثير من نظمهم الفطرية التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية (٥). ولم ترسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن

Fournel, vol. i. p. 224. (١)

المقرى ١٠٣ ص ٢٥٣ . (٢)

المقرى ١٠٣ (p. lxxv.) (٣)

Fournel, vol. i. p. 270 (٤)

(٥) والوقوف على ذلك وعلى سرعات المرطقة التي كشفت عن بقايا الدين البربرى القديم، انظر :

اتخذ شكل حركة قومية ، وأصبح مرتبطا بتولى دول البربر الحكم ، تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر في حظيرة الإسلام ، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلال السياسي . أما عن التغيرات المختلفة التي طرأت على حالة البربر السياسية ، فليس هنا مجال الحديث عنها ؛ ولكن الذي يستحق أن نخصه بالذكر في تاريخ الدعوة إلى الإسلام ، هو ظهور المرابطين ، باعتباره حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الإسلامية . وفي مستهل القرن الحادي عشر <sup>٣١١ ق</sup> الميلادي نجد يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، إحدى قبائل الصحراء ، يبحث في المراكز الدينية في إفريقية الشمالية ، في أثناء عودته من حج بيت الله بمكة ، عن معلم تقي متفقه ، يصحبه إلى أبناء قبيلته الجهلة المظلمين داعيا إلى الإسلام : فوجد في أول الأمر أن من العسير أن يعثر على رجل يرضى بترك اعتكافه العلمي ويستبين بمخاطر الصحراء ، ولكنه أخيرا وجد في عبدالله بن ياسين الشخص الذي يليق لهذا العمل ، إذ كان فيه من الإقدام ما يكفي للقيام بمثل هذه الرسالة الشاقة ، وكان تقيا زاهدا في حياته ، متفقا في الدين والشريعة وغيرها من العلوم . وإذا رجعنا إلى القرن التاسع الميلادي وجدنا أن دعاة الإسلام شقوا طريقهم بين بربر الصحراء ، وأقروا فيهم دين النبي ، ولكن هذا الدين لم يجد هناك من القبول إلا قليلا . وقد وجد عبد الله بن ياسين أنه حتى الذين أقروا بالإسلام كانوا يهملون شعائرهم الدينية إهمالا شديدا ، ويستسلمون لكل ألوان العادات المردولة . فكرس نفسه ، متحمسا ، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، وتفقيهم في أمور دينهم ؛ ولكن العنف الذي زجرهم به عن ردائهم ، وحاول بواسطته أن يصلح سلوكهم ، حول عواطفهم عنه ، فدفعه في الغالب إخفاؤه في رسالته إلى أن يهجر هذا الشعب العنيد ويقصر جهوده على هداية السودان إلى الإسلام . ولما استحث على ألا يترك عملا كان قد زاوله من قبل ، لجأ مع من جمعتهم حوله دعوته من تلاميد ، إلى جزيرة في نهر السنغال ، حيث بنوا رباطا أسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة . أما هؤلاء البربر الذين كانوا أكثر استعدادا للتدين ، والذين حملهم على التوبة تفكيرهم في الرذيلة التي أخرجت معلمهم المتدين من بينهم ، لجأوا خاضعين إلى جزيرته يلتمسون منه العفو ، ويتلقون تعاليمه في حقائق الدين المخلصة . وعلى هذا النحو جمعت حوله هناك يوما بعد يوم جماعة من تلاميذه أخذت في النماء ، وكانت على الأخص من لمتونة وهي نخذ من قبيلة صنهاجة ، أخذت أخيرا في الزيادة حتى بلغت حوالي ألف شخص . ورأى بعد ذلك عبدالله بن ياسين أن الوقت قد حان للخروج إلى محيط أوسع للعمل ، فطلب إلى أتباعه أن يعبروا عن شكرهم لله على هذا التنزيل الذي أنعم عليهم به ، وذلك بأن ينقلوا العلم به إلى غيرهم من الناس : وأخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجتهم . فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلموا عما هم عليه غلوا سيولهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيرهم ولجسوا في طغيانهم استغثنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا . ومن ثم ذهب كل رجل إلى قبيلته وعشيرته فوعظهم أن يتوبوا ويصدقوا ، ولكنهم لم ينجحوا في هذه السبيل : وكذلك أخفقت جهود عبدالله بن ياسين نفسه ، الذي ترك رايته لعله يجد رؤساء البربر في ذلك الوقت أقوى رغبة في الإصغاء لدعوته . وأخيرا ،

قاد أتباعه في سنة ١٠٤٢م ، الذين سماهم المرابطين — وهو اسم مأخوذ من نفس المادة وهي الرباط (١) أى الخلوة التي اتخذها في جزيرته بنهر السنغال — وهاجم القبائل المجاورة وأرغمهم على قبول الإسلام . وقد بدأ لقبائل الصحراء ، أن النجاح الذي حالف ابن ياسين في غاراته الحربية ، كان حجة أقوى على إقناعهم من جميع تعاليمه ، وسرعان ما تقدموا طواعية إلى اعتقاد دين كفل لجيوش أتباعه مثل هذه الانتصارات الباهرة . ومات عبد الله بن ياسين في سنة ١٠٥٩ ، ولكن الحركة التي كان قد بدأها لم تمت بموته ، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر الوثنيين لتزيد في جموع أنبياء وطنهم المسلمين ، واعتقدوا الإسلام على أنه القضية التي كالخوا من أجلها ، وتدفعوا من الصحراء على إفريقية الشمالية ، ثم فرضوا سيادتهم آخر الأمر على أسبانيا كذلك (٢) .

ولا يبعد أن تكون الحركة القومية الكبرى التي نشأت بين قبائل البربر ، وأعنى بها ظهور الموحدين في بداية القرن الثاني عشر الميلادي ، قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التي كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين . وقد قرب ابن تومرت ، مؤسس دولة الموحدين ، إلى العامة عقائد هذه الطائفة في التوحيد ، وهي التي تمسكوا بها ، وكان ذلك عن طريق ما ألفه من كتب باللغة البربرية شرح فيها قواعد الإسلام الأساسية ، من وجهة نظره الخاصة ، كما أتاح للقومية البربرية امتيازاً أبعد من هذا ، إذ أمر بأن يكون أذان الصلاة باللغة البربرية (٣) . ومع هذا ، ظل بعض قبائل البربر على الوثنية حتى نهاية القرن الخامس عشر (٤) الميلادي ، إلا أن الاتجاه العام كان بطبيعة الحال سائراً نحو اندماج هذه الجماعات الصغرى في اجتماعات الإسلامية الكبرى . وقد شهد القرن السادس عشر الميلادي نشأة حركة نشيطة ، في نشر تعاليم الدعوة في بلاد المغرب ، كانت ترجع إلى رد الفعل الذي أحدثته انتصارات المسيحيين في أسبانيا وإفريقية الشمالية . وقد أمدت هذه الحركة نظام المرابطين بدافع قوى ، وخرجت جموع كبيرة منهم من الربط في جنوب مراكش ليقوموا بحملة إرشاد سلمية في كافة أنحاء بلاد المغرب ، مجددين عقيدة هؤلاء المسلمين الذين فتر لإيمانهم ، ومحولين إلى الإسلام جيرانهم من الوثنيين (٥) . وقام اللاجئون من أسبانيا بنصبيهم في حركة نشر تعاليم الدعوة إلى الإسلام هذه ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل (ص ١١٣) إذ جاءوا لمساعدة الشرفاء أو أبناء إدريس بن عبدالله ، الذين كانوا قد فروا إلى مراكش هرباً من غضب هارون الرشيد (٦) . ومن الصحراء الكبرى ، ذاعت معرفة الناس بالإسلام أول الأمر بين زنوج السودان . ويكتنف الغموض تاريخ

(١) ولتوقف على هذه الكلمة انظر :

Doutté, Notes sur L'Islam maghribin. (Revue de l'histoire des religions, tom. xli. p. 24-6.)

(٢) ابن أبي ذرع ص ١٦٨ - ١٧٣. A. Müller, vol. ii. pp. 611-13.

(٣) ابن أبي ذرع ص ٢٥٠ Goldziher, p. 71

(٤) Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. p. 11).

(٥) Doutté, xl. p. 354; xli. pp. 26-7.

(٦) Depont et Coppolani, p. 127 sq.

هذه الحركة القديم ، ولكن يظهر أن هناك شيئا من الشك في أن البربر هم أول من أدخل الإسلام في البلاد التي يربوها نهر السنغال والنيجر ، حيث اتصلوا بممالك وثنية كان بعضها (مثل غانا Ghana وسنغاي Sonhgay) عريقا في القدم (١). وكانت القبيلتان البربريتان لمتونة وجداله اللتان تنتميان إلى عشيرة صنهاجة تتميزان بصفة خاصة بجاستهما الدينية في تحويل الناس إلى الإسلام (٢) ، وبجهودهم أثرت حركة المرابطين في قبائل السودان الوثنية . وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراکش (١٠٦٢م) وثاني أمراء دولة المرابطين ، حافلا جدا بدخول الناس في الإسلام . وأخذ كثيرون من الزوج الذين كانوا تحت حكمه يتعلمون مبادئ محمد (٣). وفي سنة ١٠٧٦م طرد البربر ، الذين ظلوا وقتا ما ينشرون الإسلام في مملكة غانا ، الأسرة الحاكمة التي يحتمل أنها كانت أسرة فلي Fulbe ، وأسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة أبيها ؛ وفي القرن الثالث عشر الميلادي فقدت استقلالها واحتلها المندنجو Mandingos (٤).

أما عن دخول الإسلام في مملكة سنغاي Songhay القديمة ، التي يقال إنها وجدت في عهد مبكر يرجع إلى سنة ٧٠٠م ، فلم يذكر لنا إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زا كسي Za-kassi ، وكان الملك الخامس عشر من أسرة زا ؛ وقد أسلم في سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩-١٠١٠م) ، واصطلح على تسميته في لغة سنغاي باسم مسلم دام Muslim-dam . ويبدل هذا الاسم على أنه دان بالإسلام بمحض إرادته لاعن طريق الإرغام ، ولكن لم يرد أي ذكر عن المؤثرات التي دان لها بإسلامه (٥).

وفي هذا القرن نفسه تأسست على النيجر الأعلى مدينتان قدر لهما في القرون المتعاقبة أن تؤثرا تأثيرا قويا في تقدم الإسلام في السودان الغربي — إحداهما مدينة جنى Genne (٦) التي تأسست سنة ٤٣٥هـ (١٠٤٣-١٠٤٤م) (٧)، والتي قدر لها أن تصبح مركزا تجاريا هاما ، والأخرى مدينة تمبكتو Timbuktu وهي مركز هام لتجارة القوافل مع الشمال ، وقد تأسست هذه المدينة حول سنة ١١٠٠م. وقد أسلم كنبورو Kunburu ملك جنى حول نهاية القرن السادس الهجري (أي حول سنة ١٢٠٠م) ، فحذا حذوه سكان المدينة ،

(١) لا مجال هنا لتناول نشأة التاريخ السياسي للممالك المختلفة من السودان الغربي ؛ وقد بحث هذا الموضوع لدى لوجارد Lady Lugard . وهو مؤلف على نحو أكثر ملاءمة للقراء الانجليز وذلك في كتاب عنوانه :

" A Tropical Dependency. An Outline of the Ancient History of the Western Sudan, with an Account of the Modern Settlement of Northern Nigeria." (London, 1905.) H. F. Helmolt : The World's History, vol. iii. chap. ix. (London, 1903.) وانظر كذلك

Blau. p. 322. (٢)

Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. pp. 7, 77.) (٣)

Meyer, p. 91 (٤)

تاريخ السودان من ٣٠٠ . (٥)

ويقال لها جنى أو ديبه (٦)

(٧) ويتبع مير Meyer رأى بارت Barth ؛ ويضع تاريخ السودان (من ١٢) تاريخ هذه المدينة قبل ذلك بحوالي ثلاثة قرون

مركز الضيق ، فان سنغاي جنى ، تمبكتو ، النيجر والسودان

٣١٥

ويقال إن كنبرو لما عزم على اعتقاد الإسلام جمع كل العلماء في مملكته ، وكان عددهم يبلغ ٢٠٠ عالما (ومهما يكن هذا العدد مبالغاً فيه فإن الرواية تبين لنا فيما يظهر أن الإسلام تقدم تقدماً عظيماً في البلاد التابعة لهذا الملك) . ثم طلب إلى هؤلاء العلماء أن يدعوا الله كي ينصر مدينته ، ومن بعدها هدم قصره وبنى في مكانه (١) مسجداً عظيماً (٢) . وكانت تمبكتو إلى جانب شهرتها بالتجارة ، مدينة إسلامية منذ البداية ، ما دنستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن (٣) . وبعد ذلك بسنين صارت ذات شأن كمرکز للتعاليم الإسلامية والتقوى ، وثوافد عليها الطلبة وعلماء الدين في جموع كبيرة ، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية . وقد أتى ابن بطوطة ، الذي تنقل في هذه البلاد في أواسط القرن الرابع عشر على الزوج لحماستهم في أداء عبادتهم وفي دراسة القرآن ، ويخبرنا هذا الرحالة أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام (٤) .

وفي عصره كانت أقوى ولاية في السودان الغربي هي ولاية ملى Melle أو مالى Mali ، وكان أمرها قد علا قبل ذلك بقرن ، بعد فتح غانة على أيدي المندنجو ، وهم من أعظم أجناس إفريقية رقيسا : ويذكر عنهم ليو الإفريقي *Leo Africanus* (٥) أنهم أكثر جميع الزنوج مدينة وأشدهم ذكاً وأجدرهم بالاحترام ، ويمتدح الرحالون المحدثون صناعاتهم ومهارتهم وأماتهم (٦) . وكان هؤلاء المندنجو من أنشط الدعاة إلى الإسلام الذي انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم (٧) .

وكما جله في تاريخ كنو *Kano Chronicle* كانت قبائل المندنجو هي التي عرفت قبائل الحوصة *Hausa* بالإسلام ، وليس تاريخ ذلك محققاً (٨) ، كما هو الشأن في معظم التواريخ المتصلة بتاريخ ولايات قبائل الحوصة :

(١) ويررد فليكس دوبوا Félix Dubois فكرة عن هذا المسجد وعن إعادة بنائه ، وكان قد خربته جماعة شيخو أحد حول سنة ١٨٣٠ ، وذلك في بحثه : *Tombouctou la mystérieuse chap. ix.*

(٢) تاريخ السودان ص ١٢ - ١٣ .

(٣) نفس المرجع ص ٢١ .

(٤) ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٥) Ramusio, tom. i. p. 78

(٦) ويصفهم ونورود ريد Winwood Reade بأنهم شعب طويل القامة ، حسن المنظر مشرق اللون ، مسلمون متدينون ، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة ؛ ولسكنهم أيضا يزرعون القطن ، والفصول السوداني ، وأنواعاً مختلفة من التلال . وقد مرت كثيراً بلقظهم ، وسجاياهم السكرية ، ومظهر نسايتهم الجاد المحترم ، ونظافة قرايم وهدوتها . . .

(W. Winwood Reade: African Sketchbook, vol. i. p. 303.)

(٧) Waitz, 11<sup>er</sup> Theil, pp. 18-19.

(٨) ويضع بالمر (ص ٥٩) دخول الإسلام إلى كنو بين سنتي ١٣٤٩ - ١٣٨٥ ، وتضع رواية أخرى من تواريخ الحوصة داية عهد أول ملوك دوزو من المسلمين حول سنة ١١٥٦ . *(Journal of the African Society, vol. ix. p. ١١٥٦)*

أقوى ولاية في السودان الغربي - ولاية مالى

وذلك لأن قبائل فليبي Fulbe ، التي فتحت هذه الولايات في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، أتلفت معظم سجلاتها التاريخية . ولكن أهمية اعتناق الحوصة للإسلام لا يمكن أن نبالغ فيها ؛ فهم أصحاب نشاط وذكاء ، وقد أكسبتهم مهارتهم الفاتحة في التجارة نفوذا كبيرا بين ستم قبائل التي اتصلت بهم ، فأصبحت لغتهم هي لغة التجارة في السودان الغربي . وحيثما ذهب تجار الحوصة — وهم منتشرون من ساحل غينيا Guinea حتى القاهرة — نقلوا معهم الدين الإسلامي . وستحدث في الصفحات التالية عن نشاطهم في الدعوة للإسلام . أما فيما يتعلق باعتناق الحوصة أنفسهم هذا الدين فإن الشواهد التاريخية تكاد تكون منعدمة تمام الانعدام<sup>(١)</sup> ، كما هو الحال فيما يتعلق بظهور ولايات الحوصة السبع ، وملحقاتها<sup>(٢)</sup> ؛ ويظهر أن أحد دعاة الإسلام الذين بعثوا إلى كينو Kano وكتزنا Katsena كان بلا شك أستاذا مثقفا ورعا ، وكان من تلمسان ، ذلك هو محمد بن عبدالكريم بن محمد المجبلي ، الذي نبغ حول سنة ١٥٠٠ م<sup>(٣)</sup> . ومن الممكن أن تكون الحوصة قد تأثرت في إسلامها بهذه الموجة الكبيرة من السيطرة الإسلامية التي سرت من مصر صوب الجنوب في القرن الثاني عشر الميلادي<sup>(٤)</sup> . ويفخر تجار كردفان وتجار السودان الشرقي على وجه العموم ، بأنهم ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم إلى هذه البلاد بعد سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ١١٧١ . ولكن من المحتمل أنه كان هناك أيضا أوان من النفوذ الإسلامي ، وقد أتى هذا النفوذ من الشمال الشرقي وتطرق إلى إفريقية الوسطى . ومن مصر ، انتشر حتى دخل كانم Kanem ، وهي مملكة واقعة إلى الشمال والشمال الشرقي لبحيرة شاد ؛ وبعد أن اعتقد أهلها الإسلام بقليل أصبحت دولة ذات أهمية كبرى وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة . ويقال إن أول ملوك كانم Kanem من المسلمين حكم إما حول نهاية القرن الحادي عشر أو في النصف الأول من القرن الثاني عشر<sup>(٥)</sup> الميلادي . ولكن التفصيلات التي لدينا عن انتشار الإسلام من الشمال الشرقي أندر حتى من تلك التفصيلات التي ذكرناها من قبل عن تاريخ دويلات السودان الغربي . وإن مجرد ذكر تواريخ تحول ملوك هذه الدويلات إلى الإسلام وتأسيس دول إسلامية ، لا يمدنا إلا بأخبار قليلة ؛ ولكن حقيقة

(١) وكما في سائر جهات العالم الإسلامي ، تضع الرواية أول دخول الإسلام في عهد المؤسس ، ونذكر اسم الفزاري ، أحد صحابة النبي المشهورين ، باعتباره رسولا إلى شعب الحوصة .

J. Lippert, Sudanica. MSOS, iii. part 3, p. 204. (Berlin, 1900).

(٢) ولقروف على أنواع هذه الولايات المختلفة انظر Meyer, p. 27.

Mischlich & Lippert, pp. 138—9. (٣)

(٤) Meyer, loc. cit. ويضع أرتين باشا ( ص ٦٢ ) بداية تدفق العرب المسلمين في عهد مبكر يرجع إلى القرن الثامن .

Becker, Geschichte des östlichen Sudan, p. 162—3. (٥)

Blau, p. 322. Oppel, p. 289.

وفي نهاية القرن الرابع عشر ، نقل عمر بن إدريس قاعدة بلاده إلى غرب بحيرة تشاد في منطقة برونو ، وهي التي أصبح اسم مملكة كانم معروفا بها منذ ذلك الحين .

واحدة تبرز لنا واضحة من هذا السجل التاريخي الهزيل ، تلك هي البطء الشديد في تحول الناس هناك إلى الإسلام . وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الفنتش (§) يعيشون في الأقاليم التي مرت عليها قرون وهي تحت الحكم الإسلامي ، ليدلنا فيما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصورا في المدن طويلا ، ولم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجيا . والواقع أن النفوذ الإسلامي لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التي جعلت جماعة البامبارا Bambara الوثنية يحتفظون بوثنيتهم ، مع أنهم ( وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى ) كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين

وقد حاول مرابط يدعى عُمرُو كبا Umaru Kaba ، أن يحول البامبارا إلى الإسلام فأخفق ، وكان ذلك في أوائل القرن العشرين . وقد أسس هذا الرجل جمعية لإخوان دينية جديدة ، كانت على صلة بالقادرية ، فلما أخفق في جذب أبناء دينه وجه اهتمامه إلى البامبارا الوثنيين ، وحاول أن يدخلهم في الإسلام ويضمهم إلى جماعته . ويظهر أنه كان في طريقه إلى النجاح ، وكان قد حول إلى الإسلام من قبل قرية وثنية في ولاية سنسندنج Sansanding ، حين طرد رئيس الولاية هذا الداعي خارج حدود ولايته ، وأمر من دخلوا حديثا في الإسلام من البامبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة (١) .

وحينما كان الزواج بين أمثال هذه الأجناس وبين غيرهم كالعرب والبربر الذين أكثروا من هذا الزواج ، كان الاندماج في المسلمين يسير سيرا منتظما ، وإن ذلك مضافا إليه ما كان هناك من نشاط في الدعوة قامت به تلك القبائل - وهي فلي والحوصة والمندنجو - التي امتازت بحماسة في سبيل دينها ، كان يساعد على نمو المجتمع الإسلامي لو لم تكن تلك الحروب الطاخنة التي جعلت كل دويلة إسلامية تخرب الأخرى فنهضت قبيلة ملي Malle على أنقاض غانة في القرن الثالث عشر الميلادي وحطمت سنغاي غانة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وخربت سنغاي بدورها بعد ذلك بقرن على أيدي العرب . ولما دالت هذه الدول الإسلامية من جراء المذابح الكثيرة التي تميزت بها الحرب في السودان ، استردت الديانة الفنتشية كثيرا من مكائنها التي كانت قد فقدتها ؛ وكما كان الحال في المسيحية ، كان كذلك في العالم الإسلامي ، إذ كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة في الدعوة إلى درك منحط ، ورضى المسلمون في بعض أجزاء السودان أن يتركوا الوثنية التي كانت تكسبهم دون أن يمسه أي نشاط في نشر تعاليم الإسلام .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي هاجر عرب التنجار Tunjar Arabe من تونس إلى الجنوب ، واخترقوا بورنو Bornu ووداي Wadai حتى وصلوا إلى دارفور ، وجاء غيرهم من الشرق فيما بعد (٢) . وقد لقي أحدهم ويدعى أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثني الذي تعلق به فجعله مشرفا على شئون بيته واستشاره في كل المناسبات . وإن خبرته بأساليب حكم كانت أرقى تحضرا ، من تلك التي كانت

(§) الفنتش كتابة عن الأصنام التي كان النوج والقبائل المتبررة يعبدها .

(١) Maurice Delafosse p. 87.

(٢) Becker : Geschichte des östlichen Sudan, pp. 161—2.

في دارفور ، مكنته من أن يدخل عدة إصلاحات على كل من شئون بيت الملك الاقتصادية وعلى حكومة الدولة . ويقال إنه أخضع لسياسته الحكيمة الزعماء المنتمدين ، وقسم الأراضي بين فقراء السكان ليضع حدا للاغارات الداخلية ، وبذلك أدخل على المملكة شعورا بالطمأنينة والرضا لم يعرفوه من قبل . ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوج ابنته من أحمد ، وعينه خليفة له ، وقد أبدى هذا الاختيار أن الناس ضجت باستحسانه . واستمرت هذه الدولة الإسلامية ، التي تأسست على هذا النحو ، حتى القرن الحاضر . وكانت أسباب الحضارة التي أحدثها هذا الزعيم وذريته قد اقترنت من غير شك ببعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة ، ولكن يظهر أن هؤلاء العرب المهاجرين لم يبذلوا إلا جهدا يسيرا جدا في سبيل نشر دينهم بين جيرانهم الوثنيين . ومن المؤكد أن دارفور لم تدخل في الإسلام إلا بجهود أحد ملوكها ويدعى سليمان ، وقد بدأ حكمه سنة ١٥٩٦<sup>(١)</sup> ، ولم ترسخ قدم الإسلام في الممالك الأخرى ، الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد كوداي وباغرمي ، إلا في القرن السادس عشر . ولكن مملكة وداي كانت المركز الرئيس للنفوذ الإسلامي في ذلك الوقت ، وقد أسسها عبد الكريم حول سنة ١٦١٢ م . ولم تسلم عامة باغرمي إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر<sup>(٢)</sup> .

ولكن تاريخ الدعوة الإسلامية في إفريقية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ضئيل جدا . بل لا أهمية له إطلاقا إذا ما قارناه بالنهضة العظيمة في نشاط الدعوة خلال القرن الحاضر . وكان مسلمو إفريقية في حاجة إلى مؤثر قوي يوقف عزائمهم الخاملة ؛ فقد كانت حالتهم في القرن الثامن عشر ، فيما يظهر ، حالة فتور ديني تقريبا ، وكانت نهضتهم الروحية راجعة إلى تأثير الحركة الوهاية في أواخر القرن الثامن عشر ؛ ومن هنا جاء ما نصادفه في الأزمان الحديثة من بعض الأخبار التي تتعلق بحركات نشر تعاليم الدعوة بين الزوج ، تلك الأخبار التي لم تبلغ من التفاهة والضآلة ما بلغته الأخبار التي سردناها من قبل ، ولكنها تمدنا بتفصيلات شافية عن ظهور عدة أعمال هامة في الدعوة وتقدمها .

وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعة القباي<sup>(٣)</sup> رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دثندديو<sup>(٤)</sup> ، عرف بأنه مصلح ديني وداع محارب . وقد ذهب من السودان إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فعاد من هناك مليئا بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة للإسلام . وتأثر بمبادئ الوهايين ، الذين كانت قوتهم آخذة في النماء في الوقت الذي زار فيه مكة ، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الأولياء ،

R. C. Slatin Pasha : Fire and Sword in the Sudan, pp. 38, 40-2. (١)

(London, 1896.)

Westermann, p. 628. (٢)

القباي ( مفردا بول ) اسم أطلقه هذا الشعب على نفسه ؛ ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة ، أشهرها

نلا وفلاي (Meyer, p. 28.)

Oppel, p. 292. Meyer, pp. 36-7. Westermann, pp. 629-30. (٣)

واستنكر المبالغة في تمجيد محمد نفسه ؛ وهاجم في نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان ، هما شرب الخمر وفساد الخلق .

وحتى ذلك الوقت كانت جماعة الفلبى تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة رعوية ؛ وقد دانت هذه الجماعة بالإسلام في وقت مبكر ، وكانت لا تزال حتى ذلك الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعاة والزراع في مختلف بقاع السودان . وإن ما لدينا من أخبارهم في مستهل القرن الثامن عشر ، ليصورهم لنا في صورة أناس مسالمين ، نشيطين في أعمالهم ؛ ويتحدث عنهم أحد الذين زاروا (١) موطنهم على نهر الجيبيا سنة ١٧٣١ ، فيقول : في كل دولة أو بلد على كل من جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء ، يدعون الفولز ( أى الفلبى ) ، وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية ، لأنهم يتعلونها في مدارسهم ، ولأن القرآن ، وهو أيضا شريعتهم ، مكتوب بهذه اللغة . ولما هم على وجه العموم أكثر بالعربية من اللام أهل أوربا باللاتينية ، إذ أن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى فولى . ويعيشون قبائل أو عشائر ، ويبنون لأنفسهم مدنا ، ولا يخضعون لأى ملك من ملوك البلاد التى يقيمون فيها ، مع أنهم يعيشون في أراضي هؤلاء الملوك ؛ وذلك لأنهم كانوا إذا أسى إليهم ، في قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم ، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين . ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكما معتدلا إلى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد . وهذا النوع من الحكومات يدار دولابه في سهولة ويسر ، لأن الأهالى أصحاب طبيعة هادئة ، ولأنهم تعلوا جيدا ما هو عدل وما هو حق ، حتى إن من يقترف الشر منهم يكون موضعاً لكره الجميع . . . وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد ، يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم ، ويبيعونه بسعر معتدل ، ويشتهرون بالكرم إلى حد أن مواطنيهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم بلد من بلاد فولى ؛ وفوق هذا أكسبهم سلوكهم حدا من الشهرة يجعل من العار أن يعاملهم أحد معاملة غير كريمة . ومع أن إنسانيتهم تعم جميع الناس ، فشفتهم بأبناء جنسهم مضاعفة ؛ وإذا علموا أن أى فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقا اتحد الفلبى جميعا وحرروه . ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبدا واحدا منهم يقاسى الحاجة ؛ بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساؤون بينهم وبين الآخرين . وقلنا بغضبون ، ولم أسمع مطلقا واحدا منهم يسب الآخر ؛ ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة إلى الشجاعة ، إذ أنهم شجعان كأى شعب في إفريقيا ، وهم مهرة جدا في استعمال أسلحتهم ، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات واليطفانات القصيرة ، والقوس والنشاب ، بل يستخدمون البنادق في بعض الأحيان . . . وهم مسلمون متمسكون بدينهم ، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر أو أى مشروب أقوى تأثيرا من الماء .

وقد وحد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة ، المتناثرة في شتى أقاليم الحوصة ، وجعل منهم جماعة قوية . وفى سنة ١٨٠٢ حدثت أول ثورة من مملكة جور التي كانت لا تزال على الوثنية ، والتي بسطت نفوذها على الشمال الأقصى من بلاد الحوصة ؛ وقد حاول ملك جور أن يعوق قوة الفلبى المتزايدة في بلاده ،

فأدى ذلك إلى أن رفع دنفديو علم الثورة ؛ وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوى ، لم يتعرض به للقبائل الوثنية وحدها ويفرض عليها عقيدة النبي ، بل تعرض أيضا لولايات الخوصة الإسلامية ؛ فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى ، وأصبحت كل أراضى الخوصة تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنة ١٨١٦ . ولا يزال قبره في سو كوتو Sokoto مثابة تعظيم جموع كثيرة من زواره . وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه ، اللذين زادا كذلك في توسيع حدود بلاد الفلبي ؛ وتعين مدينة أدماوا ، التي أسست سنة ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية ، حدود فتوحاتهم تجاه الشرق . وكانت مدينة إلورن Ilorin ، في بلاد يوروبا Yoruba ، التي تأسست في عهد دنفديو ، هي الحد الجنوبي الغربي لإمبراطورية بول Pul . وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع في أيدي الفلبي ، على تفاوت في التوفيق والنجاح في الحكم ، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب في الدعوة إلى الإسلام ، حتى قامت الإدارة البريطانية في نيجريا سنة ١٩٠٠ .

وكان دخول القانون والنظام في نيجريا الجنوبية في مصلحة الدعوة إلى الإسلام كما كان الحال في جهات إفريقية الأخرى التي أصبحت تحت الحكم الأوربي . فاستطاع مسلمو الخوصة ، الذين ينتسب بعضهم إلى طائفة التيجانية ، أن ينتقلوا في البلاد بحرية ، وأن ينفذوا إلى القبائل الوثنية التي كانت حتى ذلك الحين تمنع ، في تعصب وصلابة ، تطرق كل المؤثرات الإسلامية إليها . ويقال ان الإسلام في مملكة يوروبا بوجه خاص ترسخ قدمه بسرعة . وهناك أسطورة عن محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد ، في وقت مبكر يرجع إلى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر الميلادى ولكن هذه المحاولة لم تنجح ؛ كان هذا الرجل من الخوصة جاء إلى إيفي Ife ، حاضرة مملكة يوروبا الوثنية وجعل يدعو الناس ويقرأ لهم آيات من القرآن ، وكان لا يستطيع أن يتكلم بلغة يوروبا إلا كلاما ركيكا غير صحيح ، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله : « هلم نعبد الله الذى خلق الجبال والوهاد وخلق كل شيء وخلقنا ، . وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام ، وقد مات بعد وصوله إلى إيفي بأشهر قليلة . وبعد موته وجدوا القرآن معلقا على مشجب في حائط حجرته فصار أهل هذه البلاد يقدسونه على أنه من دين الفتش (١) . وحيث أخفق داعية هذا الدين القديم نجد المحدثين من أبناء دينه ينجحون نجاحا رائعا . وفي فترة الفوضى التي سبقت الاحتلال البريطانى كانت غالبية المسلمين في مدن كبيرة تكتنفها الأسوار ، ولكنهم يستطيعون في ظل الظمأنينة والأمن الجديد أن يستقروا في القرى ، على مقربة من أعمالهم الزراعية . وعلى هذا النحو أخذ نفوذ الإسلام يزداد اتساعا في هذه البلاد . وكما كانت الحال في إفريقية الألمانية الشرقية ، نجد أن وجود مسلمين بين جيوش هذه البلاد قد ساعد على انتشار دينهم ، فكان المحدثون من الجنود يدينون في الغالب بالإسلام كي يتجنبوا سخرية الناس ويظفروا باحترامهم (٢) . وكذلك نلاحظ في مملكة إيجيبو Ijebu ، في نيجريا الجنوبية ، حركة حديثة جدا للدعوة إلى الإسلام ؛ على أن الإسلام لم يدخل في هذا الجزء

R. E. Dennett : Nigerian Studies, pp. 12,75. (London, 1910.) (١)

Islam and Missions, pp. 71-3. The Moslem World. pp. 296-7, 351. (٢)

من نيجريا إلا في سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٨ كانت هناك بلدة بها عشرون مسجدا وأخرى بها اثنا عشر مسجدا (١). ويمكن أن نلاحظ سرعة انتشار الإسلام هذه على طول ضفتي نهر النيجر في نيجريا الجنوبية بوجه خاص؛ ويقرر أحد مبشرى المسيحيين ما يأتي: «عند ما غادرت هذه البلاد في سنة ١٨٩٨ كان هناك قليل من المسلمين بأسفل إده Iddah (٢)؛ ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان، ما عدا أسفل أبو Abo، وعلى هذا النحو من السرعة التي نلاحظها في تقدم الإسلام، سيكون من النادر أن نجد قرية وثنية على ضفتي النيجر في سنة ١٩١٠» (٣).

وهكذا كان في هذا الجزء من إفريقية نشاط كبير في الدعوة إلى الإسلام قام به رجال لم يمتشقوا الحسام في سبيل تحقيق غايتهم، — أعني بذلك تحويل الوثنيين إلى الإسلام. وعلى هذا الأسلوب كان يسير الذين يتبعون بعض المبادئ الدينية الإسلامية الجليلة، تلك المبادئ التي كانت تكون الصفة الغالبة على النشاط الديني في إفريقية الشمالية. وقد حققت جهود دعاة الإسلام نتائج عظيمة خلال القرن التاسع عشر؛ ومع أن كثيرا من أعمالهم لاشك أنها لم تدون قط، لا يزال لدينا أخبار عن بعض الحركات التي بدأها هؤلاء الدعاة. ومن أسبق تلك الحركات حركة يعزى قيامها إلى سي أحمد بن إدريس (٤)، الذي كان يتمتع بشهرة واسعة كعلم ديني في مكة من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٣٣، وكان الزعيم الروحي لجماعة الحضرية، وقد أرسل قبل موته سنة ١٨٣٥ أحد أتباعه، ويدعى محمد عثمان الأمير غني، في رحلة إلى إفريقية لنشر تعاليم الإسلام. ولما عبر البحر الأحمر إلى القصير، شق طريقه حتى بلغ النيل. وهنا بين جماعات إسلامية انحصرت جهوده بصفة خاصة في ضم أعضاء إلى الطائفة التي كان ينتسب إليها؛ ولكنه لم يصادف في رحلته إلى أعلى النهر نجاحا كبيرا حتى وصل إلى أسوان، ونجحت رحلته من أسوان حتى دنقله نجاحا تاما؛ وقد أسرع النوبيون إلى الدخول في الطائفة التي كان ينتسب إليها محمد عثمان هذا، وأثرت في هؤلاء الناس تلك الآهة الملكية التي كانت تحيط به تأميرا فعلا، كما جذبت إليه كراماته في نفس الوقت عددا كبيرا من الأتباع. وفي دنقلة ترك محمد عثمان وادي النيل ليذهب إلى كردفان، حيث مكث زمنا طويلا، وهنا بدأ عمله في نشر الدعوة بين الكفار. وكانت قبائل كثيرة في هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية؛ وقد نجحت دعوة محمد عثمان بين هؤلاء القوم نجاحا رائعا جدا، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوج بوضع زوجات منهم، فنولى نسله منهن بعد أن مات في سنة ١٨٥٣، نشاط الطائفة التي أسسها وتسموا أمير غنية (٥) نسبة إليه. وقبل أن يقوم محمد عثمان برحلته، التي دعا فيها إلى الإسلام بسنين قلائل، كانت جنود محمد علي، مؤسس

(١) Church Missionary Review (1908, p. 640).

(٢) بلدة على النيجر، جنوبي الحدود الشمالية لنيجريا الجنوبية.

(٣) Church Missionary Society Intelligencer (1902), p. 353.

(٤) Rinn, pp. 403-4

(٥) Le Chatelier (1), pp. 231-3.

الأسرة التي تحكم مصر الآن ، قد أخذت توسع من فتوحاتها في السودان الشرق ، وشجعت الحكومة المصرية رسل المذاهب الوثنية العديدة في مصر على القيام بدعاية في هذه البلاد التي عرفوها حديثا ، عسى أن تساعد أعمالهم على تهدئة الحال في هذه البلاد ، فواصلوا نشر الدعوة في تلك الأراضى التي استولوا عليها حديثا حيث قاموا بأعمال صادفت نجاحا كبيرا ، حتى إن ثورة السودان الحديثة بزعامة المهدي قد عزيت إلى الحماسة الدينية التي أثارها دعوتهم<sup>(١)</sup>.

وفي غرب إفريقيا كانت هناك جماعتان تساعدان بنوع خاص على نشر الإسلام ، هما القادرية والتيجانية . وقد تأسست الأولى ، وهي أوسع الجماعات الدينية الإسلامية انتشارا ، في القرن الثاني عشر على يد عبدالقادر الجيلاني ، ويقال إنه كان أشهر أولياء المسلمين كافة وأعظمهم هبة<sup>(٢)</sup> ، - ودخلت القادرية في إفريقيا الغربية في القرن الخامس عشر على أيدي مهاجرين من توات Tuat ، وهي واحة في الشطر الغربي من الصحراء ؛ فاتخذوا من ولتا Walata أول مركز لطريقتهم ، ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد ، فلبجوا إلى تمبكتو في جهة نائية شرق ولتا . وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الإسلامي تأثيرا عميقا ، تدفع بالقادرية الذين كانوا في الصحراء الكبرى وفي السودان الغربي ، إلى حياة ونشاط جديدين ، ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين ، ومقاطعات صغيرة من انضموا إلى القادرية قد انتشروا في أرجاء السودان الغربي من السنغال إلى مصب النيجر . وتقوم المراكز الرئيسة لتنظيم دعوتهم في كينكا وتمبو Timbo (فوتاجالون) ومسرودو Musardo (الواقعة في بلاد مندنجو Mandingo)<sup>(٣)</sup> . وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء وكتاب تمامم ومعلمين . وتسلمت القادرية شيئا فشيئا على من كان يحيط بها . وسرعان ما تطور الدخول في الإسلام من حالات فردية إلى جماعة صغيرة من الذين دخلوا في الإسلام كان يرسل منهم في أغلب الأحيان من هم معقد الرجاء إلى المراكز الرئيسة لهذه الجماعة ، ليتمموادراستهم ، بل كانوا يبعثون إلى مدارس الفيروان أو طرابلس ، أو إلى جامعات فاس والأزهر بالقاهرة<sup>(٤)</sup> . وربما قضوا في هذه البلاد عدة سنوات ، حتى يتقنوا دراستهم الدينية ثم يعودون إلى أوطانهم مزودين تزودا تاما للاشتغال بنشر العقيدة بين مواطنيهم . وعلى هذا النحو تسربت نواة الإسلام إلى عبدة الفنتش والوثنيين ، فنشرت العقيدة تدريجيا نشرا قويا مستمرا ، وقد تم ذلك بخطوات غير محسة في الغالب . وكان المعلمون حتى منتصف القرن التاسع عشر ، يؤسسون المدارس في السودان ويشرفون عليها ؛ وكان هؤلاء المعلمون قد تربوا في كنف القادرية ونظامهم الذي أقاموه على طريقة منظمة مستمرة في دعوة القبائل الوثنية .

Le Chatelier (2), pp. 89-91 (١)

Rinn, p. 175. (٢)

Bonet-Maury, p. 439 (٣)

Id. p. 230. (٤)

وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمى للغاية ، يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره ، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه ، وعلى انتشار التعليم (١) . وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الجماعة ولتقاليد العمامة . ذلك لأن أهم المبادئ التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حب الجار والتسامح . ومع أن الملوك وأصحاب الثراء كانوا يرادفون له هداياهم ، كان كرمه البالغ يجعله دائما في فقر ، ولا نجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين . وكان كلما تكلم عن أهل الكتاب ، لم يزد على أن يعبر عن أسفه على ما هم فيه من باطل ، ويدعو الله أن ينير لهم السبيل . وقد أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح ، الذي كان صفة بارزة في أتباعه في جميع العصور (٢) .

أما التيجانية التي تنتسب إلى طائفة نشأت في بلاد الجزائر حول نهاية القرن الثامن عشر ، فقد سارت منذ قامت في السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على نفس أساليب القادرية في الدعوة . ويمرّى تعدد مدارسهم في الغالب إلى نشر العقيدة ؛ ولكن التيجانية ، التي كانت تختلف عن القادرية ، لم تتورع عن اللجوء إلى السيف ، يستعينون به على إنجاح خطتهم في تحويل الناس إلى الإسلام . وإذا ما قدرنا نشاط هؤلاء في الدعوة إلى الإسلام في إفريقية الغربية تقديرا صحيحا ، فإنه يؤسفنا أن نجد شهرة جهادهم أو حروبهم الدينية قد طغت على نجاح الدعاة المسلمين ، على الرغم من أن أعمال الأخيرين كانت أجدى على انتشار الإسلام من إنشاء دويلات صغيرة قصيرة الأجل . ونجد أخبار الحملات وخاصة عند ما كانت تتناول المشروعات التجارية أو خطط الغزو التي قام بها الجنس الأبيض ، تسترعى بطبيعة الحال انتباه الأوربيين أكثر من أن تسترعى انتباههم الأعمال السلمية التي كان يقوم بها دعاة المسلمين ومعلوم . ولكن تاريخ أمثال هذه الحركات له تلك الأهمية ، وهي أن الغزو — كما كان يحدث دائما في حالة الإرساليات المسيحية أيضا — قد فتح ميادين جديدة لنشاط الدعوة ، وجعلهم يعتقدون بوجود آفاق واسعة من البلاد لا يزال أهلها على الوثنية .

أما أولى الحركات الحربية التي قام بها أفراد التيجانية في نشر الدعوة ، فتعزى نشأتها إلى الحاج عمر الذي كان قد دخل في هذه الجماعة على يد أحد زعمائها الذي تعرف عليه في مكة . ولد الحاج عمر سنة ١٧٩٧ على مقربة من بودور Podor على السنغال الأسفل ، ويظهر أنه كان رجلا كريم السجايا ، ذا نفوذ شخصي ، ومظهر يوحى بالسيطرة والقوة . وكان ابنا لأحد المرابطين ، وتثقف ثقافة دينية متينة ، واشتهر بعله وورعه قبل خروجه إلى الحج سنة ١٨٢٧ . ولم يعد ، من الحج ، إلى وطنه إلا سنة ١٨٣٣ ، حيث نشط في نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة ، وخاصة شيوخ القادرية الذين أثار تساهلهم وتراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه . وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط ، فظفر بكثير من الأتباع ، وكسّم كنيّ جديد ،

Le Chatelier (2), pp. 100-9. (١)

Rinn, p. 174. (٢)

وما إن وافت سنة ١٨٤١ حتى كان قد بلغ فوتاجالون ، حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من الحملات في نشر تعاليم الدعوة بين القبائل التي كانت لانزال على الوثنية ، وكانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال . وفي إحدى هذه الغزوات لقي حتفه في سنة ١٨٦٥ . ولم ينجح ابنه ، أحمد شيخو ، في ضم مختلف الولايات في مملكة أبيه إلا سنوات قلائل ؛ ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدم الفرنسيين ، وانتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا (١) .

ذكرنا من قبل طرفاً عن دخول الإسلام في هذا الجزء من إفريقيا . كانت البذرة التي بذرها هناك عبدالله بن ياسين وأصحابه تتغذى من الصلة المستمرة مع تجار المسلمين ومع عرب واحة الحوض وغيرهم . ويحدثنا رحالة في القرن الخامس عشر كيف جاهد العرب في تعليم رؤساء الزنج شريعة محمد ، مبينين لهم أنه من العار عليهم ، أن يكونوا رؤساء يعيشون من غير أن تكبرن لهم أية شريعة من الشرائع الربانية ، وأن يفعلوا ما فعلت الجماعات المنحطة التي عاشت من غير أن تكون لها شريعة على الإطلاق . ومن هنا ، قد يظهر أن هؤلاء الدعاة الأول استغلوا الطابع الذي تميز به الدين الإسلامي ، ودستور الحكم فيه ليؤثروا في عقول هؤلاء المتوحشين غير المتحضرين (٢) .

ولدينا تفاصيل أوفى عن حركة من هذا النوع ذاته أحدث من تلك ، قامت في جنوب سنغامبيا ، على يد أحد المندنجو ، ويدعى صمودو ، وقد اشتهر باسم سمري ، وهو جندى وثني موير ، ولد حول سنة ١٨٤٦ ، وأصبح مسلماً في عهد مبكر من تاريخ حياته ، وأسس إمبراطورية في جنوب سنغامبيا في البلاد التي يربو بها الحوض الأعلى من نهر النيجر وروافده . وقد كتب أحد مؤرخي هذه البلاد بالعربية عن سيرة سمري ، كتابة تمدنا ببعض تفاصيل ممتعة عن أعماله ؛ ويبدأ كالآتي : —

هذه قصة الإمام أحمد صمودو ، أحد أفراد المندنجو ... لقد أنعم الله عليه بعونه منذ أخذ في زيارة الوثنيين عبدة الأصنام ، أولئك الذين يعيشون بين البحر وبلاد وسولو ، وكان يزورهم بقصد دعوتهم إلى اتباع دين الله ، الدين الإسلامي . ولتعلموا يامن تفرعون هذا أن الإمام صمودو وجه همته أول الأمر إلى بلدة تدعى فولندية . ولما كان يعمل بالكتاب والشريعة والسنة أرسل رسلاً إلى ملك هذه البلدة ، ويدعى سنديو ، يدعوه إلى الإذعان لحكومته ، ونبذ عبادة الأصنام ، وإلى عبادة الإله الواحد العلي الحق الذي تنفع عبادته خلفه في هذه الدنيا وفي الآخرة ؛ ولكنهم تابوا على الخضوع ، ففرض عليهم الجزية ، كما أمر بها القرآن ؛ ولكنهم ظلوا في عماوتهم وصممهم ، لجمع الإمام للجهاد قوة صغيرة تقرب من خمسمائة رجل ، كانوا شجعاناً أشداء ، وحارب هذه المدينة ، فأعانه الله ونصره عليهم ، وقد طاردهم بخيله حتى سلخوا . لأنهم لن يعودوا إلى وثنتهم ، وذلك لأن كل أولادهم الآن في مدارس يحفظون فيها القرآن ، ويلمونها بأطراف من الدين والتهذيب . والحمد لله على هذا (٣) . وليس من الممكن في هذا المقام أن نتتبع سلسلة فتوحاته التي

(١) Oppel, pp. 292-3. Blyden, p. 10. Le Chatelier (3), p. 167 sqq.

(٢) Delle Navigazioni di Messer Alvise da ca da Mosto. (A. D. 1454.)

Ramusio, tome i. p. 101.

Blyden, pp. 357-60. (٣)

تميزت بكثرة المذابح والتخريب (١). وقد بلغ أحمد صمودو أوج قوته حول سنة ١٨٨١ ، وبعد ذلك بقليل دخل في نزاع مع الفرنسيين ، فأسروه سنة ١٨٩٨ بعد سلسلة من الغزوات القاسية ، ومات في سنة ١٩٠٠ . ومع أن فتوحاته انتهت بالقضاء على جموع كبيرة من الوثنيين ذبحهم جنوده القساة ، وتظاهر آخرون بقبول الإسلام بدافع الخوف ، يظهر أنه لم يكن يهدف إلى نفس هذا الغرض الديني الواضح الذي كان يهدف إليه الحاج عمر (٢). وقد خلف للمرابطين من القادرية مهمة الدعوة ، فبدلوا ، بما عرف عنهم من التقاليد التي ساروا عليها في التسامح ، بمجهودا كبيرا لينخفوا من أعماله الوحشية (٣). وفتحوا المدارس في المدن التي كانت قد غلبت على أمرها ، وهناك وضعوا نظام جماعتهم ، وعلموا من دخلوا في الإسلام حديثا ، كما سعوا في نفس الوقت إلى جذب مسلمين جدد .

أما فيما يتعلق بهذه الحركات العسكرية في الدعوة إلى الإسلام ، فمن المهم أن نلاحظ أن الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن أهم ما ساعد على تقدم الإسلام في هذه المناطق ، إذ اتضح أن ما قام به الحاج عمر من تحويل الناس إلى الإسلام بالقوة قد نسي سريعا فيما عدا هذه المناطق الصغيرة التي بقيت في أيدي خلفائه بصفة نهائية . وعلى الرغم من عظمة انتصاراته المؤقتة وحماسة جيوشه ، لم يبق لهذه الدعوة المسلحة إلا آثار يسيرة جدا (٤). أما الأهمية الحقيقية لهذه الحركات في تاريخ الدعوة الإسلامية في إفريقيا الغربية فهي ما أثاره هؤلاء من حماسة دينية ، تجلّت في نشاط الدعوة إلى الإسلام بين الشعوب الوثنية الذي كان واسع النطاق والذي كان ذا طابع سلمي خالص . ولم تكن هذه الحروب الدينية ، إذا ما نظرنا إليها نظرة صحيحة ، إلا أحداثا عارضة في النهضة الإسلامية الحديثة . ولم تكن بحال ما صفة تميز القوى وألوان النشاط التي كانت تؤثر تأثيرا حقيقيا في نشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا : والواقع أنه لو لم يتبع هذه الحروب نشاط متميز في نشر الدعوة ، لدلت على أنها تقريبا لم تكن ذات أثر فعال على الإطلاق في خلق جماعة إسلامية حقة . والواقع أن الحروب الهدامة والقسوة العفائية من جانب الفاتحين من أمثال الحاج عمر وسموري وريبل التيجانية بصفة خاصة ، قد جعلت عقيدة الإسلام مكروهة كرها شديدا من قبائل السودان الوثنية في البلاد التي يرونها السنغال والنيجر . ويكاد يتخذ هذا العداء الذي أضمرته هذه القبائل للدين الإسلامي صورة حركة قومية . ولكن مع هذا كانت لا تزال الدعوة الإسلامية تنشر عقيدة النبي في أجزاء كثيرة من غينا وسنغاميا ،

(١) تناول (3) Le Chatelier هذه المسألة بالتفصيل ص ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) (3) Le Chatelier, p. 237 لم يتدخل سموري في المسألة الدينية بتدخل مباشر . وقد وصل L.G.Binger

إلى هذه النتيجة نفسها ، عن طريق معرفة الشخصية بسموري .

(Le Péril de L'Islam, p. 20.) (Paris, 1906.)

(٣) Le Chatelier (3), pp. 238-40.

(٤) Le Chatelier (2), p. 112. R. du M. M., vol. xii, p. 22.

تلك المناطق التي كان يحمل إليها جماعة الفلبلي<sup>(١)</sup> وتجار من الحوصة في رحلاتهم التجارية المتكررة معارف دينهم ، ونجحوا خلال القرن الماضي والقرن الحالي في الظفر بجموع كبيرة دخلت في الإسلام . ومما هو جدير بأن نخصه بالذكر ، نشاط هؤلاء الدعاة من القادرية وتجار المسلمين الذين كسبوا لدينهم مسلمين جددا أدخلوهم في دينهم منذ جلب الاحتلال الفرنسي للسلام إلى البلاد ؛ وإن تغلغل الدين في السودان الفرنسي بالطرق السلبية ، وكذلك تغلغله في أجزاء أخرى من إفريقية ، كانت قد دخلت حديثا تحت سلطان النفوذ الأوربي ، قد لقي تيسيرا بفضل ما أظهره الموظفون الفرنسيون من الاحترام والتقدير للطبقات المتعلمة ، وكلها بطبيعة الحال من المسلمين ، وما أظهره هؤلاء الموظفون من احتقار سافر للعادات المنحطة والحرافات التي كانت متفشية بين عبدة الفئس الوثنيين<sup>(٢)</sup> .

لكن نشاط نشر تعاليم الدعوة الذي قامت به الفرقة التي سنتحدث عنها لم يكن مقترنا بحال ما يعمل من أعمال العنف والحرب ، ولم يستعمل في خدمة الدين إلا كل ضروب السلام والإغراء . وفي سنة ١٨٣٧ أسس فقيه جزائري ، يدعى سيدي محمد بن علي السنوسي ، جمعية دينية ، تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية . ولم يمض السنوسي سنة ١٨٥٩ ، حتى كان قد نجح ، في تأسيس دولة دينية ، بقوة عبقرته الصافية دون أن يريق الدماء . ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة التي يوسع خلفاؤه حدودها كل يوم<sup>(٣)</sup> . ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن بكل دقة وبما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد تشددا ، تلك المبادئ التي تجعل التبعيد لله وحده ، وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريما تاما . وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين ، وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود أو المسيحيين ، وأن يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة ، إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها ، كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاطهم على تقدم الإسلام ، وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الحضوع للنفوذ الأوربي . وتنتشر هذه الجماعة في إفريقية الشمالية كلها ، وتنتشر زواياها حول بلاد شمال إفريقية من مصر إلى مرا كس ، كما تمتد إلى الداخل ، في واحات الصحراء وفي السودان . وكان مركز تنظيمها في واحة جغبوب<sup>(٤)</sup> في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس . وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة ثم يرسلون إلى كافة أجزاء إفريقية الشمالية دعاء للإسلام . وكانت زواياهم الفرعية (ويقال إنها بلغت ١٢١ زاوية) تتلقى من زاويتهم الرئيسة في جغبوب التعليمات والأوامر في كل

(١) وقبائل الفلبلي جميعا مسلمون متعمسون ، غنيبا وجدوا ، نجد مجددا . . . (Haywood, p. 200).

(٢) Le Chatelier (3), pp. 231, 273, 303. Westermann, pp. 632-3

(٣) محمد بن عثمان المشاشي ص ٨٤ وما بعدها .

(٤) وفي سنة ١٨٩٥ ، هاجر إلى كفره سيدي المهدي ، وهو ابن سيدي محمد السنوسي وخطبته ، لأنها كانت أكثر توسعا من

جغبوب (محمد بن عثمان المشاشي ص ١١١ - ١١٥) ، ولكنه توغل فيما بعد جنوبا إلى منطقة بوركو Borku وتسمى Tibesti ، حيث توفى سنة ١٩٠٢ . وكان رئيس الجماعة في سنة ١٩٠٨ سيدي أحمد ، أحد أقرباء مؤسس الجماعة .

(J. C. E. Falls : Drei Jahre in der Libyschen Wüste, p. 274.) (Freiburg, 1911).

المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هذه الدولة الدينية الكبرى ، التي كانت تضم ، في نظام رائع ، آلافاً من أشخاص ذوى جنسيات وقوميات متباينة ، ولو لم يكن الحال على هذا النحو لفرقت بينهم الفوارق الجغرافية الشاسعة والمنافع الدنيوية . ولما كان النجاح الذى تحقق على أيدى دعاة هذه الجماعة المتحمسين الشيطيين عظيماً ، لم يقتصر وجود أتباعهم على كل إفريقيا الشمالية من مصر إلى مراكش وفى أرجله السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة ، بل نجدهم كذلك فى بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو<sup>(١)</sup> . ومع أن السنوسية كانت فى أول أمرها حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه ، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة ، وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلاماً اسمياً بحثاً ، من أتباع عقيدة النبي المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية . ومن هذا النوع من النشاط ، نذكر على سبيل المثال ، ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليدخلوا فى الإسلام تلك الجماعة التي كانت لا تزال وثنية من قبيلة بيلي Baele ، (وهي قبيلة تسكن بلاد إنيدى Ennedi الجبلية شرقى بوركو) ، بل إنهم حملوا حماسهم الدينية إلى الجماعات الأخرى من القبيلة لما وجدوا معرفتهم بالإسلام معرفة سطحية ، ولم يكونوا إلا مسلمين اسمياً<sup>(٢)</sup> ، أما جماعات التيدا Tedas ، التي كانت تقيم فى تو Tu أو تيبستى Tibesti بالصحراء جنوبى فزان ، والذين لم يكونوا كذلك إلا مسلمين اسمياً ، فإنهم عند ما قدم السنوسية وأقاموا بينهم ، يحملون الدليل كذلك على نجاح جهود هذه الطائفة<sup>(٣)</sup> . يضاف إلى هذا أن دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة فى بلاد الجالا Galla ، فيرسلون إليها كل عام دعاة جدد من هرر ، حيث تتمتع السنوسية هناك بقوة كبيرة ، ومنهم كل الرؤساء فى بلاط الأمير تقريباً بدون استثناء<sup>(٤)</sup> . ويستعين دعاةهم على نجاح جهودهم فى نشر تعاليم الدعوة بفتح المدارس ، وقد ظفروا من استيطانهم فى واحات الصحراء — وخاصة فى وداى Wadai — بزيادة كبيرة فى عددهم ، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم فى جغيبوب ، فإذا ما رأوا أنهم تعلموا مبادئ المذهب تعلموا كافياً ، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم كي يدخلوا إخوانهم فى الإسلام<sup>(٥)</sup> . على أنه قد يظهر أن نفوذ هذه الجماعة فى طريقه الآن إلى الانحلال<sup>(٦)</sup> .

Riedel (1), pp. 7, 59, 162. (١)

G. Nachtigal : Sahara und Sudan, vol. ii. p. 175. (Berlin, 1879-81.) (٢)

Duveyrier, p. 45. (٣)

Paulitschke, p. 214. (٤)

H. Duveyrier : La Conférie musulmane de Sidi Mohammed Ben Ali (٥)

EsSenousi, passim. (Paris, 1886.) Louis Rinn : Marabouts et Khouans, pp. 481-513.

N. Slousch : Les Senoussiya en Tripolitaine. (R. du M. M., vol. i. p. 169 sqq.)

والقوف على نبت بمراجع الحركة السنوسية . أنظر :

Der Islam, iii. pp. 141-2, 312.

R. du M.M., vol. i. p. 181, vol. viii. pp. 64-5. (٦)

ومع أن هذه الأخبار التي دونت عن جهود المسلمين في الدعوة إلى الإسلام بين قبائل السودان الوثنية ضئيلة . فانها ذات أهمية بالنظر إلى النقص العام في الأخبار الخاصة بانتشار الإسلام في هذا الجزء من إفريقيا . ولكن بينما تعوزنا الشواهد التاريخية الثابتة ، نجد المسلمين الذين يقيمون بين أظهر عبدة الفئس وعبدة الأصنام ويمثلون ديانة وحضارة أرقى ، شاهدا حسيبا على الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة ، كما أنهم يختلفون ( وخاصة على الحافة الجنوبية الغربية من منطقة النفوذ الإسلامي ) اختلافا بينا عن القبائل الوثنية التي أفسدت أخلاقها بتجارة الخمر الأوربية . وقد أوضح رحالة حديث<sup>(١)</sup> هذه المفارقة عندما تسكلم عن حالة الانحلال التي وصلت إليها قبائل النيجر الأسفل : « بينما كانت الباخرة تسير في صعدا في مياه النهر ( يعني النيجر ) ، لم أجد إلا قليلا من التغيير للمناظر التي شاهدتها في الأميال المائتين الأولى ، لأن الفتشية والوحشية وتجارة الخمر قد ازدهرت كلها في وحدة مؤتلفة . ولكني لما تركت ورأى المنطقة الساحلية المنخفضة ، وألفيتني على مقربة من الحدود الجنوبية لما يسمونه السودان الأوسط ، لاحظت تحسنا مطردا في المظهر الأخلاقي عند الأهلين ، واختفت الوحشية ، وتبعثها الفتشية في هذه السيل . وزالت تجارة الخمر إلى حد بعيد ، على حين صارت ملابسهم أكبر وأكثر احتشاما ، وأصبحت النظافة عندهم عادة ، على حين دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وأدب جم . وقد دل كل شيء على أن هناك نواة لمبدأ أكثر رقيا إلى حد ما . ومن الواضح أن هذا المبدأ كان يؤثر تأثيرا عميقا في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانا جديدا . ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام . ولما مررت بـ لوكوجا Lokoja عند ملتقى نهر بنوي Benué بالنيجر تركت ورأى المراكز الأمامية لنشر الدعوة الإسلامية ، فلما دخلت السودان الأوسط وجدته في دولة أحسن نسيا في طريقة حكمها ، غاصة بجماعة نشيطة من التجار الأذكياء ، وأناس مهرة في صناعة المنسوجات ، والنحاس ، والجلد ؛ والواقع أنهم شعب تقدم تقدما عظيما في مراق الحضارة والمدنية ، .

ولكي نقدر نشاط الدعوة الإسلامية في نيجريا Nigritia تقديرا صحيحا ، يجب ألا يعزب عن أذهاننا أنه بينما كان الداعي المسلم ، على السواحل وامتداد الحدود الجنوبية لمنطقة النفوذ الإسلامي ، يمد الطريق لدينه ، فإنه كان لا يزال متروكا وراءه هناك مجال واسع للدعاية الإسلامية في الأراضي الداخلية التي تمتد نحو الشمال والشرق ، على الرغم من أن الإسلام رسخت أقدامه في هذه الأراضي منذ زمن بعيد . وكانت هناك جماعات من القويج ، وهم الجنس الزنجي الذي كانت له السيادة على سنار ، يدين بعضهم بالإسلام وبعضهم الآخر بالوثنية . وقد حاول تجار مسلمون من بلاد الثوبة أن يدخلوا هؤلاء الوثنيين في الإسلام<sup>(٢)</sup> .

Joseph Thomson ( 2 ), p. 185. (١)

Oppel, p. 303. (٢)

أما قبيلة جوكون Jukun الوثنية<sup>(١)</sup>، التي دالت دولتها، وكانت قوية يوما ما قبل أن يسير الفلب في سيلب الفوز والغلبة، فقد ناهضت النفوذ الإسلامي الزاحف، مع أن وزير ملكهم كان أجنبيا يختار دائما من المسلمين، وكانت جاليات من الحوصة وغيرهم من المسلمين تستقر بين ظهرانيهم. ولكن هؤلاء المستوطنين من المسلمين لا يصادفون نجاحا في أن يدخلوا في الإسلام أحدا من بين الجوكون الذين كانت تقاليد مجدهم القديم تجعلهم يتمسكون بعقيدتهم القومية، وكانت زعامتها الروحية تتمثل في شخص ملكهم<sup>(٢)</sup>.

ولعله من اليسير أيضا أن نحصى كثيرا من عشائر السودان وسنغامبيا، ما زالت تحتفظ بعاداتها وعقائدها الوثنية، أو تكسو هذه العادات والعقائد بستار من شعائر الإسلام، على الرغم من أن أتباع النبي كانوا (في معظم الأحوال) يحيطون بهم منذ قرون. ولا يزال الكنو Konnohs، وهم فرع من قبيلة مندنجو الكبيرة، يدين معظمهم بالوثنية، ولم يتقدم الإسلام بينهم إلا في السنين الأخيرة<sup>(٣)</sup>. وكان من أثر ذلك أن الحماسة العظيمة في مهمة نشر الدعوة، التي تجلت بين مسلمي هذه الجهات في خلال القرن الحالى، لم تجد مجالاً واسعاً يمكنها من إظهار نشاطها. ومن ثم جاءت الأهمية في تاريخ الدعوة إلى الإسلام في هذه القارة، ثم أهمية حركات الإصلاح في الإسلام ذاته ونهضات الحياة الدينية، وهي مسائل لفتنا النظر إليها من قبل.

أما الساحل الغربى من إفريقية فهو ميدان آخر لمشروع الدعوة الإسلامية، حيث وجد الإسلام نفسه أمام شعب ضخم لم يكن قد أسلم بعد، على الرغم من أنه ازدهر على ساحل غينا، وفي سيراليون وليبيريا، تلك البلاد التي نجد عدد المسلمين فيها أخيراً أكثر من عدد الوثنيين. وهناك ملاحظة من أسبق ما لوحظ على نشاط الدعوة الإسلامية في البلاد المجاورة لسيراليون، نجدها في التماس لحل جماعة سيراليون، Sierra Leone Company أمر مجلس العموم بطبعه، في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢؛ وهذا نصه: «منذ مدة لا تزيد على سبعين عاماً، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلاً، وسموها بلاد مندنجو. وكما هي العادة عند أسانذة هذا الدين (الإسلام) فتحت مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد، وجروا على عادات المسلمين، وخاصة في عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق. وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخراجها من القرآن. واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان. وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية، جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبياً، كما جلبوا لها الاتحاد والطمأنينة. وكان من أثر ذلك، أن ازداد السكان زيادة سريعة، وانتقل إلى أيديهم شيئاً فشيئاً كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها. أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للمندنجو، ويعودون

(٢) وقع في ولاية موري Muri في نيجيريا الشمالية.

(٣) Journal of the African Society, vol. vii. pp. 379-81. (٢)

Haywood. p. 33. (٤)

ومعهم قسط وافر من دينهم وشرائعهم . وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير ؛ ويبدو أن من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشارا سلميا ، في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة المندنجو ، حاملا معه تلك المزايا التي تغلب فيما يظهر دائما ، على خرافات الزنوج<sup>(١)</sup> . ويظهر أن الإسلام لم يجد له منفذا في بلاد مندى Mendi التي تقع على بعد مائة ميل تقريبا جنوبي سيراليون ، إلا في القرن الحاضر ، ولكنه الآن يتقدم تقدما ثابتا . ولا يقوم هناك بالدعوة أية جماعة خاصة من الدعاة تفرغت لهذا الغرض ، بل كل مسلم هناك داعية نشيط . وإذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال منهم ، وأقل من ذلك أو أكثر ، وعزموا على أن يقيموا فيها فترة من الزمن ، سارعوا إلى بناء مسجد وأخذوا ينشرون الدعوة . فهم يتقدمون أولا إلى رئيس المدينة ويحصلون منه على الموافقة على عملهم الذي يقصدون إليه ، وربما ظفروا بوعده منه أن يصبح مشايخا لهم ويعلمونه صلاتهم بالعربية ، أو يُحَفِّظُونَهُ منها القدر الذي يستطيع أن يحفظه أو يعبه . ويمدونه بالصيغ والشعائر التي تستعمل في الصلاة ويحرمون عليه تناول المشروبات الروحية — وسواء روعى هذا الشرط أم لم يراع — أصبح الرجل مسلما<sup>(٢)</sup> . وعلى ساحل غينا تنتشر المؤثرات الإسلامية بوجه خاص على أيدي تجار الحوصة الذين نجدهم في كل المدن التجارية على هذا الساحل ؛ وكلما أنشوا لهم مقرا ، أسرعوا إلى بناء مسجد ، وأثروا في السكان الوثنيين بمسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوقة ، وقد دخلت في الإسلام قبائل بأجمعها من عبدة الفئس دون أن يبذل المسلمون أية جهود خاصة يستوجبها إغراؤهم ، وإنما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون أنه حضارة أرقى من حضارتهم<sup>(٣)</sup> .

أما أشنتي Achanti فكان فيها نواة لمجتمع إسلامي يرجع وجوده فيها إلى سنة ١٧٥٠ ، ولما كان دعاة الإسلام قد لقوا ترحيبا من أهالي هذه البلاد وظفروا بنفوذ كبير في البلاط ، جدوا في العمل منذ ذلك الحين مع نجاح بطيء . ولكنه محقق<sup>(٤)</sup> ؛ واستطاعوا بواسطة مدارسهم أن يسيطروا على عقول الجيل الأحداث ، ويقال إن هناك علامات واضحة على أن الإسلام ستصير له الغلبة في أشنتي إذ دخل فيه كثير من الرؤساء<sup>(٥)</sup> . وفي دهومي Dahomey وساحل الذهب يتقدم الإسلام كل يوم تقدما جديدا ، حتى حين لا يعتقد شيوخ القبائل الوثنية أنفسهم الإسلام نجدهم يبيحون لأنفسهم ، في أوقات كثيرة ، أن يصبحوا تحت تأثير دعاة هذا الدين ، الذين يعرفون كيف يستغلون هذا النفوذ للدعوة بين عامة الناس<sup>(٦)</sup> . وفي هذا الجزء من القارة

Claude George : The Rise of British West Africa, pp. 120-1. (١)

(London, 1902.)

Islam and Missions, pp. 73-4. (٢)

Lippett : Über die Bedeutung der Haussanation für unsere Togo-und (٣)

Kamerunkolonie, p. 200. MSOS, Band. x. (1907), Abteilung III

Waitz : 11er. Theil, p. 250 (٤)

C. S. Salmon, p. 891. (٥)

Pierre Bouche, p. 256. (٦)

تعتبر دهمي وأشتي أهم الدول التي لا تزال يحكمها حكام وثنيون، ويقال إن تحولها إلى الإسلام لا يحتاج إلا إلى زمن قصير<sup>(١)</sup>. ويوجد قرابة ١٠٠٠ مسلم في لاجوس Lagos، كما أن كل المراكز التجارية في الساحل الغربي تضم بين سكانها جماعات إسلامية من القبائل الزنجية الراقية، من أمثال الفلبي والمندنجو والحوصة. وحين يهبط رجال هذه القبائل إلى مدن الساحل، وهم يأتون إليها جماعات ضخمة، إما تجارا وإما جنودا يخدمون في جيوش السلطات الأوربية، لا يعجزون بحال عن أن يؤثروا في زنجي الأراضي الساحلية، وذلك بما لهم من جرأة وروح استقلالية. ويرى زنجي الساحل أن حكام الأوربيين والموظفين والتجار يحترمون الذين يؤمنون بالقرآن أيها كانوا؛ وأن هؤلاء المؤمنين لا يختلفون عنه في الجنس أو المظهر، ولا في الزي أو الطباع اختلافا بعيدا يستحيل معه أن يدخل في زميرتهم، بل إن هؤلاء المؤمنين فضلا عن ذلك قد منحوه حظا من امتيازاتهم على شريطة أن يدخل في دينهم<sup>(٢)</sup>. وإذا ما أظهر الزنجي الوثني، مهما كان خاملا مغمورا، رغبته في قبول تعاليم النبي، بادروا بضمه إليهم، فيصبح واحدا منهم متساويا معهم. وليس قبوله في أخوة المسلمين امتيازًا يمنحونه إياه متبرمين، ولكنه امتياز يمنحه إياه عن رغبة وحرية، دعاة ذوغيرة وحماة في نشر تعاليم الدعوة. ولهذا فن مصب السنغال حتى لاجوس، في مسافة تبلغ ألفي ميل، بندر فيما يقال أن نجد مدينة ذات أهمية على ساحل البحر ليس فيها مسجد واحد على الأقل، ومعه دعاة نشيطون يعملون في أغلب الأحيان جنبا إلى جنب مع معلمي المسيحية<sup>(٣)</sup>.

ولنتقل الآن إلى تاريخ انتشار الإسلام على الجانب الآخر من قارة إفريقيا، ذلك الجانب الذي كان سكانه وثني الصلة بالأرض التي نشأ فيها الإسلام. على أن الحقائق التي دُوت عن المواطن الأولى التي استقر فيها العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جدا؛ ويذكر أحد الكتب التاريخية العربية، وكان قد وجده البرتغاليون في مدينة كلوا Kiloa<sup>(٤)</sup> حين اجتاحتها دون فرانسيسكو دالميدا Don Francisco d'Almeida في سنة ١٥٠٥، أن أول من هاجر كانوا جماعة من العرب نفوا لأنهم اتبعوا تعاليم خارجة على الدين، كان يقول بها شخص يدعى زيدا<sup>(٥)</sup>، من سلالة النبي، وقد سماه إموزيديج (وربما قصدوا بذلك أمة زيدية) نسبة إليه. ولا يبعد أن يكون زيد الذي أشير إليه هنا هو زيد بن علي حفيد الحسين، كما هو واحد من أحفاد علي ابن عم محمد (عليه السلام): وقد ادعى في عهد الخليفة هشام أنه الإمام المهدي، وأشعل نار الثورة بين حزب الشيعة، ولكنه هزم وقتل سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م)<sup>(٦)</sup>. القرن الثامن م

Blyden, p. 357. (١)

C. S. Salmon, p. 887. (٢)

Blyden, p. 202. Westermann, pp. 633-4. (٣)

(٤) تقع على جزيرة على مسافة ٥٠ جنوبي زنجبار.

De Barros, Dec. i. Liv. viii. cap. iv. p. 211. (٥)

(٦) ابن خلدون ج ٢ ص ٩٨ - ١٠٠.

ويظهر أن هذه الجماعة عاشت في خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين ، ولكنها نجحت بالتدريج في بسط مواطنها على طول الساحل ، حتى جاءت جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي ، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين . وجاء هؤلاء في سفن ثلاث برعامة سبعة إخوة ، هارين من اضطهاد ملك لاساه (١) ، وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم . وأول مدينة بنوها هي مجدكو (٢) التي ارتفعت فيما بعد إلى تلك القوة التي جعلتها سيده على كل عرب الساحل . ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم الأموزيديج من حزب يختلف عن حزب اللاجين الجدد ، حيث كان الأولون من الشيعة والآخرين من أهل السنة ، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقدشو ، وارتدوا إلى الداخل حيث اندمجوا في السكان الأصليين وتزوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلفوا بأخلاقهم (٣) .

وقد أنشئت مقدشو حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة ، حينما أدى قديم مهاجرين آخرين من الخليج الفارسي ، إلى إنشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها من ناحية الجنوب . وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليا ، وهو أحد الأبناء السبعة لأحد سلاطين شيراز ويدعى حسنا ؛ ولما كانت أمه حبشية ، ازدراه إخوته ، وعاملوه معاملة قاسية ، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن في مكان ما . لهذا أبحر من جزيرة أرمز Ormuz ومعه زوجته وأولاده وجماعة صغيرة من أتباعه ، وسار متجنباً مقدشو ، التي ينتمي سكانها إلى فرقة دينية تختلف عن الفرقة التي ينتمي إليها ، فضى في طريقه صوب الجنوب ، إذ سمع أن الذهب يوجد في ساحل زنجبار ، وأسس مدينة كلوا ، وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل ، وأن يكون متحرراً من تدخل أسلافه المقيمين بعيداً عنه في الشمال (٤) .

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة ما كان جغرافيو العرب في العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج . وأيا كانت الجهود التي بذها المستوطنون المسلمون في تحويل الزنج إلى الإسلام ، فالظاهر أنه لم يبق لنا سجل عنها . وهناك قصة غريبة محفوظة في مجموعة رحلات قديمة ، لا يبعد أنها كتبت في أوائل القرن العاشر ، تصور لنا الإسلام بأنه دخل في إحدى هذه القبائل على يد ملكها نفسه . ذلك أن سفينة تجارية عربية أقصتها الرياح عن طريقها في سنة ١٩٣٢ م وأرسلتها إلى بلاد الزنج الذين يأكلون لحم البشر ، حيث توقع البحارة موتاً محققاً ؛ ولكن حدث لهم عكس ما توقعوه ، إذ تلقاهم الملك لقاءً رحيباً ورحب بهم ترحيباً كريماً عدة شهور ،

(١) من الممكن أن تكون الكلمة معرفة من الحسا . انظر ابن بطوطة ٣ ص ٢٤٧ - ٨ .

(٢) أو مقدشو كما تسمى عند العرب .

(٣) J. de Barros : Dec. i. Liv. viii. cap. iv. pp. 211-12. (٣)

De Barros, id, pp. 224.-5. See Also Justus Strandes : Die Por- (٤)

tugiesenzeit von Deutsch-und Englisch-Ostafrika, p. 81 sqq. (Berlin, 1899.)

باعوا في خلالها بضاعتهم بشروط مريحة ؛ ولكن التجار ردوا عليه كرمه بخيانة شائنة . فأوثقوه هو وحاشيته حين ركبوا السفينة يودعونهم ، وحلومهم معهم إلى عمان رقيقا ، وبعد سنوات قليلة طوحت الريح بهؤلاء التجار أنفسهم إلى نفس الميناء ، فعرفهم الأهالي وطوقوهم بقواربهم ؛ فسلبوا أنفسهم متوقعين الموت في هذه المرة ، فصلى كل منهم على الآخر صلاة الموت . ثم أخذوا إلى حضرة الملك ، حيث تبنوا في دهش وعجب ، أنه الملك نفسه الذي عاملوه معاملة جد مخزية قبل ذلك بوضع سنين . وبدلا من أن يقتص منهم بأى نوع من القصاص لمسلكهم الغادر ، أبقى على حياتهم ، وتركهم يبيعون بضاعتهم ، ولكنه رفض الهدية الثمينة التي قدموها إليه رفضا ينطوى على التفريع . وقبل أن يرحوا تقدم واحد منهم في جرأة إلى الملك وسأله أن يقص قصة فراره . فوصف لهم كيف أخذ رقيقا إلى البصرة ، ومنها إلى بغداد ، حيث أسلم وتفقه في الدين ؛ فلما هرب من مولاة لحق بقافلة من الحجاج كانت ذاهبة إلى مكة ؛ وبعد أن أدى مناسك الحج ، وصل إلى القاهرة وصعد في النيل صوب بلاده ، فوصل إليها أخيرا بعد أن تجشم كثيرا من الأخطار ، ووقع في الرق أكثر من مرة . ولما عاد إلى مملكته من جديد ، علم قومه دين الإسلام ؛ وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله به عليّ وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام ، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني . . . فعرفوا المسلمين أن باتونا فإننا نحن قد صرنا إخوانا لهم ، مسلمين مثلهم (١) .

ومن هذا المصدر نفسه نعلم أنه حتى في هذه الفترة المبكرة ، كانت جموع كبيرة من تجار العرب ، تختلف إلى هذه البلاد الساحلية . ولكن على الرغم من وجود صلة دامت قرونا بين أهلها وبين المسلمين ، كان تأثيرهم (فيما عدا أهالي السومال) بالإسلام قليلا قلة ملحوظة . وحتى قبل الفتوحات البرتغالية ، في القرن السادس عشر ، يظهر أن ماتم من حالات قليلة من تحول الناس إلى الإسلام كان كله مقصورا على الحدود الساحلية . وكذلك بعد أن تدهور النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم ، وعاد هناك الحكم الغربي تحت إمرة سادة عمان ، وإلى أن جاء القرن العشرين ، كان من العسير أن تبذل أية جهود في نشر معارف الإسلام بين قبائل الجهات الداخلية ، عدا قبائل الجلا وقبائل السومال . ويقول رحالة حديث : لم أر في خلال الرحلات الثلاث التي قمت بها في شرقي إفريقيا الوسطى ، شيئا يحمل على الظن بأن الإسلام هناك قوة تصبغ البلاد بصبغة من الحضارة والمدنية . ومهما كانت القوة الحية في هذا الدين ، فإنها ظلت مستكنة ، ولم يكن العرب ، ولا أحفادهم في هذه البلاد دعاة إسلام . ولست هناك بعثات تدعو إليه ، وإنما قنع أهل مسقط بأن يسير عبيدهم ، إلى حد ما ، وفق شعائر الدين . وقد تركوا قبائل إفريقيا الشرقية ، الذين كانوا في الواقع ، في جهلهم المطبق راضين فيما يظهر بأن يظلوا سعداء في جهلهم . وتظهر عدم قابليتهم للحضارة ظهورا جليا

(١) كتاب عجائب الهند أر

في هذه الحقيقة الغربية : وهي أنهم اتصلوا خمسة قرون بشعب نصف متحضر ، ولم يترك فيهم ذلك أقل أثر للصفات الراقية التي كان يتصف بها جيرانهم - ولم تنبت وتزهر بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين، (١). واستسلم العرب في إفريقية الشمالية كل الاستسلام سعياً وراء التجارة وصيد الرقيق ، فأظهروا فتوراً في ترقية شئون دينهم ، فكان الفارق كبيراً بين نشاطهم وبين ما أظهره إخوانهم في الدين نحو نشر الدعوة في أجزاء أخرى من إفريقية .

على أن هناك حالة جديدة بالذكر نستثنيها ، وهي نشاط نشر الدعوة الذي قام به تجار من العرب أتبع لهم أن يدخلوا أوغندة في النصف الأول من القرن التاسع عشر ؛ ومن المحتمل أنهم عرفوا أن قوة روح الحرية في أهل بجنده جعلت قنص الرقيق من بينهم أمراً مستحيلاً ، ولهذا سعوا إلى كسب ثقتهم عن طريق تحويلهم إلى دينهم . وأسلم كثيرون من أهل بجنده في عهد الملك موتزا Mutesa ، ولكن زيارة استانبول لهذا الملك في سنة ١٨٧٥ أدت إلى دخول إرساليات مسيحية في السنة التالية ، واضمحلت قوة المسلمين في هذه الدولة بالزيادة السريعة في عدد المنتصرين وقيام الحماية الإنجليزية هناك (٢) .

ولكن لا يزال في أوغندة عدد من المسلمين يشغلون مراكز هامة ، ومن المقرر أن دخول الولاية الشرقية في الإسلام أمر ممكن . ويقال إن عدد اضخا من ذوى النفوذ في بلاد بوسوجا Busoga الغنية ، الواقعة في شمال أوغندة ، والتي تخضع لانتجلترا ، قد دخل في الإسلام سنة ١٩٠٦ (٣) . ومع هذا الاستثناء ، كان الإسلام في إفريقية الاستوائية الشرقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر منحصرًا في البلاد الساحلية وما يتاخها من البلاد . وقد يبدو تفسير ذلك ، في أنه لم يكن في مصلحة جلاب الرقيق أن ينشروا الإسلام بين القبائل الوثنية التي يأخذون من بينها ضحاياهم الناعسين ؛ إذ لو تحولت هذه القبائل إلى الإسلام ، لتآخت معهم في الدين ، ولأصبح غير ممكن أن تباغت وتؤخذ رقيقاً (٤) .

ولما منعت تجارة الرقيق لانتشار الحكم الأوربي في إفريقية الاستوائية الشرقية ، تلا ذلك توسع كبير في نشاط نشر الدعوة الإسلامية ، وتوطد السلام والنظام في الجهات الداخلية ، ومدت السكك الحديدية وأنشئت الطرق ، وحينئذ استطاع التاجر المسلم أن يشق طريقه في مناطق كانت مغلقة في وجهه حتى ذلك الحين . وقد اختارت إدارة هذه البلاد موظفيها من بين أكثر السكان المسلمين ثقافة ؛ فأنشأت حكومة إفريقية الشرقية الألمانية آلافا من الوظائف ، أسندتها إلى موظفين من المسلمين ، استغلوا نفوذهم

Mohammedanism in Central Africa, by Joseph Thomson, p. 877. (١)

Roscoe. p. 229 sq. (٢)

Zwemer, p. 236. وبذكر جيردتر Gairdner (ص ٢٦) أن عدد المسلمين يبلغ ٢٠٠٠٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم أربعة ملايين ، ولكنه لم يبين من أى مصدر استقى هذه الأرقام . وبذكر روسكو (ص ٦) أن مجموع سكان أوغندة لا يتجاوز مليوناً واحداً تقريباً .

Richter, pp. 146-7, 154. Merensky, p. 156. Klamroth, p. 4. (٣)

في إدخال قري بأجمعها في الإسلام<sup>(١)</sup>. وكان معلوم مدارس الدولة مسلمين كذلك ، وفي وقت مبكر يرجع إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لوحظ أن معلمي المدارس من السواحلية ، يقومون بنشاط حتى ناجح في نشر الدعوة بين أهالي بندتى ووديجو Bondéi and the Wadigo (الذين يسكنون في الداخل على مسافة قصيرة من الساحل) في إفريقية الشرقية الألمانية<sup>(٢)</sup>. ولكن نشاط هذه الحركة الجديدة في نشر الدعوة أصبح يسترعى النظر إلى حد كبير في الجهات الداخلية<sup>(٣)</sup> في مستهل القرن العشرين ، وخاصة بعد القضاء على ثورة سنة ١٩٠٥ في إفريقية الشرقية الألمانية. وقد سارت حركة التوسع في نشر الدعوة هذه بصفة خاصة ، السكك الحديدية والطرق التجارية الكبيرة ، فانتشرت في خط مستقيم عبر إفريقية الشرقية الألمانية حتى حدودها الغربية على بحيرة تنجانيقا ، وانتشرت نحو الشمال من أوسمبرا Usambara إلى مقاطعة كلنجارو ، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا<sup>(٤)</sup>. وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار ، وخاصة أهالي الساحل ، من السواحليين والجنود وموظفي الحكومة<sup>(٥)</sup> . وينظر الوثنيون هناك إلى قبول الإسلام على أنه دليل على الترقى إلى حضارة ومنزلة اجتماعية أرفع مما هم فيها ؛ ويقال إن الازدراء الذي كان ينظر به المسلمون إلى الوثنيين طالما كان عاملا حاسما في تحولهم إلى الإسلام<sup>(٦)</sup>. ونستطيع أن نتخذ مثلا لتأثير هذا الإحساس من أوسمبرا الغربية ، التي قيل إنها كانت لا تزال في سنة ١٨٩١ موصدة في وجه الإسلام ؛ وكان شعور الرؤساء والشعب كليهما شعورا عداوتيا نحو المسلمين ، فكانوا يكرهونهم ويخافونهم باعتبارهم تجار رقيق ؛ ولكنه لما انتهى عهد تجارة الرقيق وأنشئت إدارة منظمة ، كان أول من عين من الموظفين الوطنيين كلهم تقريبا من المسلمين . وقد أثر هؤلاء في الزعماء وغيرهم من الشخصيات الهامة التي اتصلت بهم إلى حد أن الدخول في الإسلام كان هو التصرف الصحيح للذين اشتغلوا في الدوائر الرسمية ، وبذلك نجحوا في أن يدخلوا في الإسلام بعضا من الزعماء أعظم من هؤلاء الذين نجدهم قد أثروا فيما بعد مثل هذا التأثير في زعماء أقل منهم منزلة<sup>(٧)</sup>. ويظهر أن هناك شواهد قليلة على نشاط دعاة محترفين أو نشاط أية فرقة من الفرق الدينية ، ولكن الشواهد لا تعوزنا على وجود جهود منظمة في نشر الدعوة ، كذلك الجهود التي قام بها معلم مسلم ، ذكر أنه كان يزور منطقة في بلاد كلنجارو كل أسبوع زيارة منتظمة ، وظل على ذلك خمسة شهور يدعو إلى الإسلام ؛ وقد رحب بجهوده الأهالي الذين

R. du M. M., vol. ix. (1909), p. 322. (١)

Oscar Baumann : Usambara und seine Nachbargebiete, pp. 141. (٢)

153. (Berlin, 1891.)

Becker, Islam in Deutsch-Ostafrika, p. 10. (٣)

Id. p. 13 sqq. Klamroth, pp. 14-28. (٤)

Id. p. 53. (٥)

Klamroth, pp. 21, 25, 54. (٦)

Id. pp. 23-4. (٧)

كان يقيم لهم ولائم يقدم لهم فيها طعام الارز وغيره (١). وبما بلغت النظر في هذه الدعوة الحماسية أن الدعاء لم يقصروا اهتمامهم على الوثنيين وحدهم ، بل سعوا أيضا لكسب متحولين إلى الإسلام من بين الأماهي المسيحيين (٢).

وقد شق الإسلام طريقه إلى نياسالاند من الساحل الشرقي أيضا ، ودخلها على أيدي النحاسيين من العرب وحلفائهم الياوس Yaos ، الذين جاء أجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقي ، حيث كانوا قد اعتقدوا الإسلام منذ زمن بعيد . ويقال إنه من النادر أن نرى الآن عريبا في نياسالاند ، ولكن الياوس يؤلفون قبيلة من أقوى القبائل الوطنية ، وينظرون إلى الإسلام على أنه دينهم القومي . ومع أنه لا تبدو هناك دعوة منظمة ، انتشر الإسلام بسرعة فائقة إبان العقد الأول من القرن العشرين ، وكان انتشاره بين بعض القبائل التي تعد من أشد القبائل ذكاء في نياسالاند (٣).

سجل الإسلام مثل هذا النجاح بين قبائل الجلا والسومال : وقد ذكرنا من قبل استيطان الجلافي الحبشة ؛ ومن المحتمل أن هؤلاء المهاجرين ، الذين ينقسمون إلى سبع قبائل ، تسمى بالولسوجلا ، وهو اسم الجنس الذي ينتمون إليه ، كانوا جميعا وثنيين في وقت إغارتهم على هذه البلاد (٤) ، ولا يزال جزء كبير منهم على الوثنية حتى يومنا هذا . وبعد أن استقروا في الحبشة لم يلبثوا أن تأقلموا فيها ، واتخذوا لأنفسهم ، في كثير من الأحيان ، لغة سكان البلاد الأصليين وتعودوا عاداتهم وتطبعوا بطبائعهم (٥).

أما قصة دخولهم في الإسلام فيمكن تفهيمها الغموض : فبينما يقال إن بعضهم أدخلوا كرها في الديانة المسيحية ، نجد أن عدم وجود أية سلطة سياسية في أيدي المسلمين يدحض إمكان القيام بأي نشاط في تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو . وفي القرن الثامن عشر قيل إن معظم الذين في الجنوب يعتقدون الإسلام ، أما الذين كانوا في الجهات الشرقية والغربية فعظمهم وثنيون (٦) . وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى ،

Klamroth, p. 26. (١)

Id. p. 67. (٢)

Becker : Islam in Deutsch-Ostafrika, p. 14. The Moslem World, (٣)

vol. ii. p. 3 sqq.

(٤) ويظهر في حقيقة الأمر أن وصفا حبشيا معاصرا لهذه القبائل في كتاب :

Geschichte der Galla. Bericht eines abessinischen Mönches über die Invasion der Galla in sechzehnten Jahrhundert. Text und Übersetzung hrsg. von A. W. Schleichler (Berlin, 1893),

يصور هذه القبائل على أنهم وثنيون ، على الرغم من أنه لم يرد عن ديانتهم أخبار مفصلة . حل أن ركلوس tome Reclus (x. p.330) يزعم أنهم كانوا مسلمين وقت قيامهم بالذور .

Henry Salt : A Voyage to Abyssinia, p. 299.(London 1814.) (٥)

James Bruce : Travels to discover the source of the Nile, 2nded. vol. (٦) iii. p. 243. (Edinburgh, 1805.)

في عدد أتباع النبي . وفي سنة ١٨٦٧ تنبأ مونتنسجر Munzinger بأن كل قبائل الجلا ستدخل في الإسلام في مدة قصيرة<sup>(١)</sup> . وإذا قد قيل عنهم ، إنهم متعصبون جدا ، فإننا نستطيع أن نستتج أنهم لم يكونوا بحال ما غير متحمسين أو متراخين في اعتقادهم هذا الدين<sup>(٢)</sup> . ولا شك أن هذا الرجل المعتقد الذي ينتمى إلى الجلا والذي قابله داوتى Doughty في خير قد أظهر درجة عظيمة من الحماسة نحو دينه . وكان هذا الرجل قد انتزع من بلده في طفولته وبيع يبيع الرقيق في جدة ؛ فلما سأله داوتى : ألا يزال يضمم السخط نحو هؤلاء الذين سرقوه وأسلوا حياته للعبودية في أقاصى الأرض ، أجاب ، إن شينا واحدا قد عوضني ، - وهو أنى لم أعد غارقا في الجهل بين عبدة الأوثان ؛ ما أعجب عناية الرحمن ؛ تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول هذه ، وتوصلت بها إلى معرفة الدين ، آه ! ما أشد حلاوة الإيمان ؛ صدقني أيها الرفيق العزيز ، إنه أمر يعجز كل قلب عن الإفصاح عنه ، كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السايوة ؛ ولكنني موقن أن الله سيرعك حتى لا تهلك قبل أن تدخل هذا الدين . حقا كم يكون جميلا أن أراك مسلما ، وأن تصبح واحدا منا ؛ ولكنني أعرف أن الأجل بيد الله ؛ يفعل الله ما يشاء .<sup>(٤)</sup>

وبعض السكان ، في قبائل الجلا التي تقيم في بلاد الجلا الصميمة ، مسلمون (إذ كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الإسلام حول سنة ١٥٠٠)<sup>(٥)</sup> ، وبعضهم الآخر وثنيون ، ما عدا تلك القبائل التي تقيم على حدود الحبشة مباشرة ، والتي أرغمها ملك هذه البلاد على اتحال المسيحية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر<sup>(٦)</sup> . والمسلمون بين الجبال قلة ، أما في السهول ، فقد صادف دعاة الإسلام نجاحا رائعا ، ولقيت تعاليمهم قبولا من الناس أخذ ينمو نمو سريعا في خلال القرن الماضي . ويذكر أنطونيو ستشي Antonio Cecchi الذي زار مملكة لمو الصغيرة في سنة ١٨٧٨ ، قصة عن إسلام أبا باغييو<sup>(٧)</sup> Abba Baghibo ، والد الأمير الذي كان يحكم إذ ذاك ، على أيدي مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون في نشر الدعوة في هذه البلاد في زى التجار . وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجلا المجاورة ورجال حاشيتهم ، وظفرت العقيدة الجديدة بعدد من العامة كذلك ، واستمرت تتقدم بينهم ، ولكن السواد الأعظم منهم

Munzinger, p. 408. (١)

I. L. Krapf : Reisen in Ost-Africa, ausgeführt in den Jahren 1837-55. (٢)

vol. i. p. 106. (Kornthal, 1858.)

Arabia Deserta, vol. ii. p. 168. (٣)

Id., vol. ii. p. 109. (٤)

Morié, vol. ii. p. 248. (٥)

Reclus, tome x. p. 309. Basset, pp. 270-1. (٦)

(٧) عنه ما أنشأ الرومان الكاثوليك إرسالية بين قبائل الجلا في سنة ١٨٤٦ . قال لهم أبا باغييو : لو أنكم قدمتم منذ

ثلاثين سنة ، لاعتقدت دينكم ، بل لاعتقدت جميع بني وطني ؛ ولكن تحققين ذلك الآن من الحال . .

(Massaja, vol. iv. p. 103.)

كان يتشبت بعبادته القديمة<sup>(١)</sup>. وقد لقي هؤلاء التجار ترحيبا حارا في بلاط رؤساء الجلا ، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية . ولما كان هؤلاء التجار يرتحلون إلى الساحل مرة واحدة كل عام ، أو مرة فقط كل عامين ، وكانوا يقضون كل ما بقي من الوقت في بلاد الجلا ، كانت لديهم فرص كثيرة ، عرفوا جيدا كيف يتهنزونها للعمل في نشر الدعوة الإسلامية ، وحيثما وضعوا أقدامهم كان من المؤكد أن يظفروا بعدد كبير من الداخلين في الإسلام في مدة قصيرة من الزمن<sup>(٢)</sup> . وقد دخل الإسلام هنا في نزاع مع مبشرين مسيحيين من أوروبا ، صادفت جهودهم نجاحا قليلا جدا<sup>(٣)</sup> ، على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل — وحتى الذين نصرهم الكردينال ماساجا Cardinal Massaja ، فإنهم ( بعد أن طرد من هذه البلاد ) إما اعتقدوا الإسلام ، ولما انتهوا إلى عدم الإيمان ، لا بالمسيح ولا بالله<sup>(٤)</sup> ، — بينما حقق الدعاة المسلمون نجاحا مستمرا ، وشقوا طريقهم بعيدا نحو الجنوب ، وعبروا نهر واني<sup>(٥)</sup> . وكانت غالبية قبائل الجلا التي تقيم في غرب بلاد الجلا لا تزال وثنية قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة بين الذين كانوا في أقصى الغرب ، ونعني بهم الليجا<sup>(٦)</sup> ، كانت في طريقها إلى التدهور ؛ وقد جعل تأثير الدعاة المسلمين الآخذ في النمو ودخل كل قبائل الليجا في حظيرة الإسلام ، في مدى سنوات قليلة ، أمرا محتملا<sup>(٧)</sup> .

وإن إفريقية الشمالية الشرقية في الوقت الحاضر تمثل لنا حقا صورة لنشاط ذى حيوية وحماسة رائعتين في نشر الدعوة من جانب المسلمين . وتفرد من بلاد العرب عدة مئات من الدعاة كل عام . وهم أيضا أكثر نجاحا في جهودهم بين قبائل السومال منهم بين الجلا<sup>(٨)</sup> . ولا بد أن يكون القرب الشديد بين بلاد السومال وبلاد العرب قد جعل الأولى ، في زمن مبكر ، مسرحا لنشاط الدعوة الإسلامية ؛ ولكن يظهر لسوء الحظ أن ما دون من هذا النشاط قليل . وقد ذكر ابن حوقل<sup>(٩)</sup> أن أهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من

(١) Da Zeila alle frontiere del Caffa, vol. ii. p. 160. (Rome, 1886-7.)

Massaja, vol. iv. p. 103; vol. vi. p. 10.

Massaja, vol. iv. p. 102.

(٢) يقول ساشي وهو يتحدث عن إخفاق الرسائل المسيحية : « يجب البحث عن سبب هذا في انتشار الإسلام هنا ، في هذه السنوات الأخيرة ، الذي حمله مئات من رجال الدين والتجار المسلمين ، الذين لم يعوزهم المال والقبالة وانمكن من القنة .. »

(Op. cit. vol. ii, p. 342.)

Id. p. 343.

Reclus, tome xiii. p. 834.

(٦) يوجد الليجا من خط طول ١٠° إلى ٣٠° و٩٠° ومن خط عرض ٣٤° إلى ٣٥° شرقا .

Reclus, tome x. p. 350.

Paulitschke, pp. 330-1.

(٩) ابن حوقل ص ٤١ .

القرن التاسع الميلادي ، ولكن أبا الفداء يتحدث عنهم في النصف الأول من القرن الرابع عشر على أنهم مسلمون<sup>(١)</sup> . ومن المحتمل أن تجارا من العرب اللاجئين إلى السومال هم الذين حملوا الدين عبر البحر . وتشيع لدى السوماليين أسطورة تقول بأن عربيا عريقا في الأصل ، أجبر على أن يغادر بلاده ، فغبر البحر إلى عدل ، حيث دعا إلى الدين الإسلامي بين أجدادهم<sup>(٢)</sup> . وفي القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربيا يدعون إلى الإسلام ، فنزلوا في بربرة على البحر الأحمر ، ومن هناك انتشروا في بلاد السومال ليدعوا إلى الإسلام . وقد شق أحدهم ، وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباي طريقه إلى مدينة هرر حول سنة ١٤٣٠ ، واكتسب هناك كثيرين من الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولا يزال قبره موضع تعظيم في هذه المدينة . وهناك بالقرب من بربرة جبل لا يزال يسمى جبل الأولياء تخليداً لذكرى هؤلاء الدعاة ، الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك في خلوة مقدسة قبل أن ينتشروا في طول البلاد وعرضها لتحويل الناس إلى الإسلام<sup>(٣)</sup> . وقد ساد الإسلام شيئاً فشيئاً في جميع أنحاء إفريقيا الشمالية الشرقية ، ولكن تزايد نفوذ الإمبراطور منليك واحتلاله هرر في سنة ١٨٨٦ أدى إلى تحول عدد معين من الأهالي إلى المسيحية<sup>(٤)</sup> .

ولكن نستكمل هذا الوصف الخاص بانتشار الإسلام في إفريقية ، لا يبق إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة ، وهي أن الدين قد شق طريقه إلى أقصى الجنوب من هذه القارة ، ونعني مستعمرة الكاب . ومسلو الكاب هؤلاء من سلالة أهل الملايو ، جاء بهم الهولنديون<sup>(٥)</sup> إلى هذه البقعة إما في القرن السابع عشر أو الثامن عشر<sup>(٦)</sup> ؛ وهم يتكلمون لهجة محرفة من لغة البوير ، مع خليط كبير من اللغة العربية ، وبعض كلمات إنجليزية وكلمات من لغة الملايو . وهناك كتاب صغير عجيب ، مؤلف بهذه اللهجة ومكتوب بحروف عربية ، وقد نشره وزير المعارف التركية في القسطنطينية سنة ١٨٧٧ ، ليستعمل كتيباً صغيراً لتعليم قواعد الدين

(١) أبو الفداء ج ٢ القسم الأول ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique

Orientale, recueillis par M. Guillain. Deuxième partie, tome i. p. 399. (Paris, 1856.)

R. F. Burton : First Footprints in East Africa, pp. 76, 404. (٣)

(London, 1856.)

R. du M. M., vi. p. 288. (1908.) (٤)

(٥) كان رأس الرجاء الصالح في حوزة الهولنديين من سنة ١٦٥٢ إلى سنة ١٧٩٥ ؛ ولما استردوه بعد صلح أميان Peace of Amiens في سنة ١٨٠٢ ، احتلها البريطانيون من جديد بمجرد نشوب الحرب مرة أخرى .

(٦) وكان من بين هؤلاء الشيخ يوسف ، وهو معلم دين ذو نفوذ عظيم في جاوة وآخر أبطال استقلال بنجام . وفي سنة ١٦٩٤ ساقه الهولنديون سجيناً إلى مستعمرة الكاب ، هو وعائلته ، وكثير من أتباعه . ولا يزال ضريحه يدعى مكاناً مقدساً .

(G. M. Theal : History and Ethnography of Africa south of the Zambesi, vol. ii. p. 263.) (London, 1909.)

الإسلامي<sup>(١)</sup>. وإن الأسماء الهولندية الصرفة التي يتسمى بها بعضهم ، وملاحح الوجه التي تلاحظ في كثير منهم ، ليدل على احتمال أنهم تلقوا في مجتمعتهم في وقت ما بعض أشخاص من أصل هولندي ، أو أن بدعائهم على الأقل مزيجاً كبيراً من الدم الهولندي . وكذلك اكتسبوا بعض متحولين إلى الإسلام من بين الهوتنتوت Hottentots . ولم يكتب عنهم الرحالون الأوربيون<sup>(٢)</sup> بل لإخوانهم في الدين ، حتى الأيام الأخيرة ، إلا مذكرات قليلة . وفي سنة ١٨١٩ لفت كورلبروك الأذهان إلى نمو الإسلام ، في بعض مذكرات ممتعة كتبها عن مستعمرة الكاب ، قال : « يقال إن الإسلام يتقدم بين العبيد والسود الأحرار من أهالي الكاب ؛ ونعني بذلك ، أن الذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام من بين الزنوج والسود على اختلاف أنواعهم كانوا أكثر عدداً من الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية ، وهذا على الرغم من الجهود القوية التي يبذلها مبشرون أتقياء . وقد ثبت أن النفور الشديد الذي أبداه السادة من تعميم عبيدهم كان سبباً من أسباب هذا التحول ؛ وقد نشأ ذلك من بعض أفكار خاطئة أو من فرط تخوفهم من الحقوق التي يناها العبد الذي يُعَمَّد . ولا شك أن العبيد متأثرون بفكرة بقاء هذا النفور ، ولم يكن من التادر أن يجيب العبد ، إذا ما سئل عن بواعث تحوله إلى الإسلام ، بأنه يجب أن يكون له دين ، وأنه لم يسمح له بأن يتنصر . والتعصب في هذا الأمر أخذ في الزوال ، وقد قلت الآن معارضة هؤلاء السادة في تنصير العبيد عما كانت قبل . وقد ثبت أن السادة أخذوا يدركون أن العبيد لا يسيئون استعمال التعاليم التي يتلقونها في واجباتهم الدينية . وهناك جموع آخذة في الزيادة على أيدي المبشرين ( ويوجد في كل بلد من البلدان الرئيسة ) وواحد ممن كرسوا جهودهم على تثقيف العبيد ثقافة دينية ، وبأمل المبشرون ألا تكون جهودهم غير مثمرة . ولكن الداعية المسلم حول جموعاً أكبر بمجهود أقل من مجهود المبشرين<sup>(٣)</sup> . وفي خلال الحسين سنة الأخيرة كان يزور المسلمين في مستعمرة الكاب جماعة من بلاد أخرى من إخوانهم في الدين المتحمسين ، وقد أثاروا الآن اهتمامهم بالتعليم أكثر مما مضى ، وبعثوا بينهم حياة دينية أعمق من تلك التي كانوا يحيونها ، ويقال إنهم يقومون بدعوة حماسية ، وخاصة بين الأهالي السود في الكاب وإنهم حصلوا على نجاح محقق<sup>(٤)</sup> . وإن حركة نشر تعاليم الدعوة هذه قوية في الجزء الغربي من مستعمرة الكاب خاصة . ويقال إن هناك حركة سائرة في طريق التنفيذ لتأسيس كلية في كليرمونت Claremont

(١) M. J. de Goeje : Mohammedaansche Propaganda, pp. 2, 6. (Overgedrukt uit de Nederlandsche Spectator, No. 51, 1881.)

(٢) وقد نبه شخص يدعى كاسيل الأذعان إليهم في سنة ١٨١٤ .

(٣) William Adams : The Modern Voyager and Traveller, vol. i. p. 93. (London, 1834.)

(٤) Sir T. E. Colebrooke : The Life of H. T. Colebrooke, p. 335. (London 1873.)

(٤) F. Coillard : Au Cap de Bonne Espérance. (Journal des missions évangéliques, avril 1899, p. 265.)

بحوار مدينة الكاب ، وأنها ستصبح مركزا لنشر الدعوة الإسلامية . ومن الوسائل التي تستغل الآن تبنتي الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئهم على دين الإسلام<sup>(١)</sup> . ويحج فريق منهم كل عام إلى مكة ، حيث يعين لهم شيخ خاص للإشراف عليهم<sup>(٢)</sup> . وكذلك يقال إن عمال الهنود الذين يأتون للعمل في حقول الماس في إفريقيا الجنوبية دعاة للإسلام .

ولما كانت جزيرة مدغشقر في مكان منعزل ، على بعد يتراوح بين ٢٢٠ ميلا و ٥٤٠ ميلا من الأراضي الأصلية ، فإنها تستدعي ذكرا خاصا . وإن القبيلة الوحيدة التي اعتقدت الإسلام هي قبيلة أنتيمورونا Antaimorona ، التي تحتل جزءا من الساحل الجنوبي الشرقي ؛ ولا شك أن تحولهم إلى الإسلام كان على يد دعاة من بلاد العرب ، ولكن الوقت الذي تم فيه هذا التحول مجهول لنا تماما ؛ وربما أرجعته الأساطير إلى نفس عهد محمد ذاته ، ولكننا لم نحصل إلا في القرن السادس عشر<sup>(٣)</sup> على معلومات موثوق بها عن المسلمين في هذه الجزيرة ، وذلك فيما كتبه الجغرافيون من الطليان والبرتغاليين<sup>(٤)</sup> .

ومن هذا الوصف التاريخي المجمل نستطيع أن نرى أن الأساليب السلبية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في إفريقيا ، ومع أن الإسلام كثيرا ما شهر السيف كأداة يستعين بها على تقدم فتوحاته الروحية ، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه في معظم الحالات جهود سلبية في نشر الدعوة ، وكان الداعية يتعقب الفاتح ليكمل النقص في تحويل الناس إلى الإسلام . والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحا دنيويا سهل إلى حد كبير جدا نجاح الإسلام في جهات كثيرة من إفريقيا ، كما سهله تأسيس دول إسلامية على أنقاض دول وثنية . وإن النار وسفك الدماء طالما ميزا خطة الجهاد ، التي دبرت لاستئصال شأفة الكفار . وإن كليات الشاب العربي الذي كان من البرنو والذي قابله الكابتن بورتن Burton<sup>(٥)</sup> في قصر ملك أبيكوتا Abeokuta ، تعبر بدون شك عن مطامح كثيرين من مسلمي إفريقيا : أعطنا هذه البنادق وهذا البارود . ندخل في الحال هذه الكلاب في الإسلام . ويتردد صدى هذه الكلمات في الرسالة التي يوردها منجو بارك<sup>(٦)</sup> Mungo Park باعتبارها رسالة من ملك فوته نورو Futah Toro المسلم إلى جاره الوثني : « بهذه السكين سينزل عبد القادر ويحلق رأس دامل ، إن دخل دامل في الإسلام ؛ وبهذه السكين الثانية سيدق عنق دامل إن أبي أن يدخل في هذا الدين ؛ فاختر لنفسك » .

(١) Kumm, p. 233.

(٢) C. Snouck Hurgronje (3), vol. ii. pp. 296-7.

(٣) Jacques Bonzon : Les Missionnaires de l'Islam en Afrique. (Revue Chrétienne, tome xiii. p. 295.) (Paris, 1893.)

(٤) G. Ferrand, Les musulmans à Madagascar. pp. 19, 50 sqq. 138. (Paris, 1891.)

Id. Les Migrations Musulmanes et Juives à Madagascar.

(Revue de l'Histoire des Religions, vol. lii p. 381 sqq.)

(٥) Richard F. Burton (1), vol. i. p. 256.

(٦) Travels in the Interior of Africa, chap. xxv. ad fin.

ولسكن بقدر ما يمكن أن يعزى الإسلام إلى البسالة الحربية التي قام بها أمثال هؤلاء المتعصين ،  
لدينا الدليل القاطع الذي شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة بالطرق السلبية وقيام الداعي المسلم  
بأعمال تنطوي على الرفق والأناة ، تلك الأعمال التي عملت في سبيل انتشار الإسلام انتشارا سريعا في  
إفريقية الحديثة ، أكثر مما عمل أي أسلوب من أساليب العنف . وربما استأصل الإسلام حقا شأفة مقاوميه  
بالأساليب الأخيرة ، ولكنه عن طريق الأولى بصفة خاصة أنجز عملية تحويل الناس إلى الإسلام ،  
ولعل نشاط التحول لا يزال يتقدم في كثير من الأقاليم الساحلية والداخلية (١) . وحينما شق الإسلام  
طريقه ، نجد هناك الداعي المسلم حاملا الدليل لعقائد هذا الدين ، — فالتاجر سواء أكان من العرب أم الفلبي  
أم المندنجو ، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته ، وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك  
الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام ، وتنفى عنه كل ما يحتمل أن يتهم به من دوافع شريرة . وإذا ما دخل  
مثل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه ، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة ،  
التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائنا خفيا . وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلق ليفرض احترامه والثقة  
به على الأهالي الوثنيين ، الذين يبدى لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في مدهم بمزاياه ومعارفه السامية ؛ —  
والحاج الذي عاد من مكة مليئا بالحماسة من أجل نشر العقيدة ، التي يقف عليها كل جهوده ، منتقلا من مكان  
إلى آخر ، يعيش على صدقات المؤمنين الذين يحملون الدليل على الحق بين جيرانهم الوثنيين ؛ — وطالب  
العلم الذي يلقي تسكريما باعتباره رجل علم تفقه في الدين والشريعة الإسلامية . بل أحيانا يزاول الطب ،  
أو على الأقل يكون ذا مهمة عظيمة باعتباره كاتب تعاويذ ، وآيات من القرآن ، تطوى في قطع من الجلد  
أو القماش وتعلق على الأذرع أو حول العنق ، وهي مهمة يستطيع أن يستغلها كوسيلة لإكثار عدد المتحولين  
إلى الإسلام ؛ مثال ذلك ، أنه حينما تطلب منه هذه التعاويذ النساء العواقر أو اللاتي فقدن أولادهن أطفالا ،  
يفرض عليهن ، شرطا لنجاح هذه التعاويذ ، أن ينشئن أطفالا المستقبل على الإسلام (٢) . هؤلاء المصلون  
الدينيون ، أو المرابطون أو ألوفاس ، كما يطلق عليهم بحسب اختلاف أسمائهم ، يحظون بأوفى نصيب من التقدير  
وفي بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية دارا لاستقبالهم ، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير ؛  
ففي دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون مناصب الحكومة ، كما يحتلون بين المندنجو مكانة أعظم  
شأنا ، وينالون احتراما يلي احترام الملك ، ويعتبر الرؤساء ، التابعون لغيرهم ، أقل منهم هيبه : وفي تلك الدول التي اتخذ فيها  
القرآن أساسا للحكم في كل المسائل المدنية ، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجا شديدا لكي يفسروا معاني القرآن . وقد

D. J. East, pp. 118-20. W. Winwood Reade, vol. i. p. 312. Blyden, (١)

pp. 13, 202.

Bishop Crowther on Islam in Western Africa. (Church Missionary (٢)

Intelligencer, p. 254, April, 1888.)

بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين ، أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال بلاد أمراء متعادين ، بل مشتبكا بعضهم مع بعض في حرب فعلية . ويجهلهم الناس مثل هذا التبجيل ، لا في البلاد الإسلامية وحدها ، بل في القرى الوثنية ، التي يؤسسون فيها مدارسهم ، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمى أبنائهم ، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله سواء في الحصول على حاجاتهم ، أو في درء المصائب و صرفها عنهم (١) . وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين في مساجد القيروان وفاس وطرابلس (٢) وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية ؛ ولكنهم درسوا بصفة خاصة في الجامع الأزهر بالقاهرة . ويتدفق الطلبة إلى هذا الجامع من كل بقاع العالم الإسلامي ، ومن بينهم في الغالب جماعة من زنوج إفريقية ، — طلبة من دارفور ووداي وبرنو ، بل يشق فريق من المسلمين طريقه سيرا على الأقدام من أقاصى الساحل الغربى ؛ فإذا ما أتموا دراستهم في الدين والشريعة الإسلامية ، صار كثيرون منهم دعاة بين أهالى بلادهم الوثنيين . وينشئ هؤلاء الدعاة في المدن التي يزورونها مدارس يختلف إليها الأطفال الوثنيون والمسلمون على سواء ، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الإسلام وشعائره ، فإذا ما نجح الداعى المسلم ، على هذا النحو ، بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة الساميتين ، فإنه لا يتوانى عن أن يؤثر تأثيرا كبيرا في الأهالى الذين جاء يعيش بينهم ، ويساعده على ذلك أن عاداته وطباعه في الحياة تشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه . ومادام التاجر قد مهد له الطريق من قبل فلا يرتاب فيه الأهالى ؛ وبالتزاوج مع السكان الذين يرحبون بدخوله في نظامهم الاجتماعى ، يتوطد نفوذه ويستقر ، وهكذا تنشر بينهم معارف الإسلام شيئا فشيئا وبطريقة طبيعية إلى أبعد حد .

وقد زاد من تيسير جهود الداعى في نشر الدعوة أن الاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحي والآديان Deism ، وهو أساس الشعور الدينى عند كثير من عبدة الفئس ، يمكن أن يتحول ، في سهولة ، إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين ، وكذلك الحال في بعض مظاهر أخرى في فلسفتهم الدينية . وهكذا نجد أن نظرهم العامة في الحياة وكثيرا من شرائعهم الدينية قابلة لأن تصطبغ بصبغة إسلامية ، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير (٣) .

وإن نزول المسلمين في بلاد وثنية إنما هو كذلك إيدان بفتح باب للتجارة أوسع مدى وانتشارا ، وبالتصال بمراكز إسلامية تجارية كبيرة من أمثال جنى أو سجو Sego أو كانو Kano ؛ كما أن هؤلاء المسلمين قدموا إلى الأهالى نصيبا من مزايا هذه الحضارة المادية مع دين النبي . ومن ثم وقد يكون الداعية بين القبائل الزنجية غير المتحضرة على ثقة دائما من الاستجابة السريعة ؛ فهو يستطيع أن يمدم بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والإنسان تصل إلى القلب وتنمى الإدراك ، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصا بالدخول

(١) D. J. East, pp. 112-13. Blyden, p. 202.

(٢) ويقال إن ما يربو على ألف داع من دعاة الاسلام ، يفادرون طرابلس كل سنة للعمل في السودان .

( Paulitschke, p. 331.)

(٣) وللقوف على بحث مستفيض لفظ هذا الاتصال ، أنظر Forget, p. 28 sqq. Merensky, p. 155.

في وحدة اجتماعية سياسية ، تخولهم حق الحماية والمساعدة في مسافة تمتد من المحيط الإطلنطي إلى سور الصين . وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك دارا إسلامية يجد الأسود الذي تحول إلى الإسلام والذي يستطيع أن يسرد أركان عقيدته ، واثقا من المأوى والقوت والنصيحة ؛ وسرعان ما يجد نفسه ، في بلاده ، عضوا في طبقة ذات نفوذ إن لم يكن في الطبقة المتسلطة . ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة المسلمين في إفريقيا الغربية . أما عدد المتحولين إلى الإسلام ، فإنه كان كبيرا ، سريعا في التحول ، وذلك لسبب واضح ، هو أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة ، يسير سيرا عمليا على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعا وتساويهم أمام الله ، وهي مبادئ يشترك فيها الإسلام مع المسيحية ؛ غير أن هذا الداعي المسلم ، بصفة عامة ، أسرع وأحسم في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يشعر في أغلب الأحيان بأنه مضطر إلى المطالبة بدليل قوى على إخلاص المنتصر قبل أن يصاحفه مصالحة التآخي في المسيحية ، والذي كان دائما يثير تعصبا جنسيا لم يكن محتلا أن يزول في جيل واحد ، حيث كان يعد المسيحي الأبيض ، طوال أجيال ، سيديا ، كما كان يعد الوثني الأسود عبدا<sup>(١)</sup> .

ومن المهم ، أيضا ، أن نلاحظ أن لون الزنجر وجمسه لم يحملأ بأية حال إخوانه الجدد في الدين ، على أن يتعصبوا عليه . ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في نيجيريا Nigritia تقدا جوهريا بسبب عدم كل إحساس باحتقار الأسود — وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة ، كما كانت الحال ، لسوء الحظ ، في كثير من الأحيان ، في العالم المسيحي<sup>(٢)</sup> .

Sir Bartle Frere (1), pp. 18-19. (١)

E. W. Blyden, pp. 18-24. E. Allégret, p. 200. Westermann, pp. 644-5. (٢)

وفي مناظرة شائقة جدا ، وإن كانت قد نسيت الآن ، أمام الجمعية الأنثروبولوجية بلندن ، حول موضوع « جهود المبشرين بين المتبربرين » ، ذكرت حالة مبشر مسيحي في إفريقيا ، تزوج زنيجية . لذلك كان الثمور ضده ، قويا إلى حد أنه وجد نفسه مضطرا إلى مغادرة المستعمرة . أما الداعي المسلم فإنه يشغل بدعوته غير متأثر بأشغال تلك المسارى .

(Journal of the Anthropological Society of London, vol. iii. 1865.)

وقد أجاد شخص كان نفسه زنيجيا في توضيح الفارق بين الطريقة التي تقدم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الأفريقيين ، وذلك في العبارات الآتية : - « بينما تسبب البعث التبشيرية قيام قساوسة من الوثنيين إلى عصر غير معين ، نجد الدعاة المسلمين يتفكرون إلى قلب إفريقيا ، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين ، ويحولونهم إلى الإسلام . وبذلك أصبح الزنوج اليوم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود ، والمسيحية على أنها دين البيض . ورون أن المسيحية تدعو الزنجر إلى الخلاص ، ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حد أنه يقول في نفسه وقد استول عليه القنوط : ليس لي نصيب ولا حظ في هذا الدين . أما الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص ويقول له : إن بلوغك أعلى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك . ومن ثم ركن الزنجر بدافع من الحماسة إلى هذا الدين بروحه وجسده » .

L'islam et le christianisme en Afrique d'après un Africain. (Journal des Missions Évangéliques. 63e année, p. 207.) (Paris, 1888.)

وإن هذه الملاحظة لتفسر إلى حد ما نجاح المسلم إذا ما قورن بالإرساليات المسيحية بين الشعوب الزنجية . ويتضح في أغلب الأحيان أن الأسود المنتصر يميل إلى الإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طباعته في الحياة ، على حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقا به واطمئنانا إليه . وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك في الرسالة الآتية : « إن الإسلام ، على الرغم من تقصيره ، لا يتطلب ، من وجهة نظر أهل نيجريا ، أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول في الإسلام ، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية . يستحيل تحققها في المرحلة الحاضرة من تطور أهل نيجريا ؛ ولا هو يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة . وليست هناك هوة بين الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه ؛ فكلاهما متساو أحدهما مع الآخر ، لا نظريا ، بل عمليا ، أمام الله . وكلاهما إفريقي ؛ وهما من أبناء أرض واحدة . وينفذ مبدأ التأخي الإنساني تنفيذا عمليا ، ولا يعنى الدخول في الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية ، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين . . . وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيري ووقاره — بل بسلوك مسلمي إفريقيا الغربية عامة ؛ وإن هيئة الرجل العامة لتم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس ، يخيل إليك أنه يقول : إن كلا منا يختلف عن الآخر ، ولسكتنا جميعا بشر . وإن انتشار الإسلام الذي نشهده اليوم في نيجريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا . ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرق وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به ويحرره من رقب ألف من الأوهام الخرافية . (١) »

وقد ورد في الروايات الإسلامية أن موسى كان رجلا أسود ، كما قد نتبين ذلك من الآيات القرآنية . « واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ١ ، (سورة ٢٠ : آية ٢٣) ، ونزع يده ، فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملائ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، (سورة ٧ : آية ١٠٥ - ١٠٦) . والقصة الآتية التي وصلت إلينا عن العصر الذهبي للدولة العباسية ، مهمة باعتبارها شاهدا على شعور المسلمين نحو السود . كان إبراهيم المهدي ، أخو هارون الرشيد وابن إحدى الجوارى ، قد نصب نفسه خليفة في بغداد ، ولكن المأمون الذي كان يحكم إذ ذاك (٨١٩ م) هزمه وعفا عنه . ويقص إبراهيم قصة مقابله مع الخليفة على النحو الآتي : — « قال لي المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عني : أنت الخليفة الأسود ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! أنا الذي مننت عليه بالعفو ؛ وقد قال عبد بن الحسحاس : —

أشعار عبد بن الحسحاس فن له      عند الفخار مقام الأصل والورق  
إن كنت عبدا فنفسي حرة ككرما      أو أسود الخلق إني أبيض الخلق

فقال لي : يا عم ! أخرجك الهزل إلى الجدد . . وأنشد :

(١) E. D. Morel : Nigeria, its people and its problems. pp. 216-17.

ليس يزرى السواد بالرجل الشهم ولا بالفسى الأديب الأريب  
إن يكن للسواد فيك نصيب فيفاض الأخلاق منك نصيبى (١)

وعلى هذا النحو ، سرعان ما يصبح الأسود المنحول إلى الإسلام مع المؤمنين على قدم المساواة ، ولا يحول دون ذلك لونه أو جنسه أو أية ملابس من ملابس الماضى . ولا شك أن ما كان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم فى الإسلام ، هو الذى كان يرغبهم فى الانضمام إلى مجتمع دينى تتطلب حضارته التى تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلّى عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية ؛ وما يساعد فى نفس الوقت مساعدة كبيرة جدا على تفسير نجاح هذا الدين ، أن مجرد الدخول فى الإسلام يدل ضمنا على الترقى فى الحضارة ، وأنه خطوة جد متميزة فى تقدم القبيلة الزنجية عقليا وخلقيا وماديا . وكانت القوى المحشودة جنبا إلى جنب مع العقيدة الإسلامية ، تبلغ من القوة والبأس إلى حد أن البربرية والجهل والخرافة الدينية ، تلك الأمور التى كان الدين يجد فى القضاء عليها ، لا تجد إلا فرصة بسيرة فى إطالة المقاومة . وقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية الإسلامية إلى الزنجى الذى تحول إلى الإسلام ، وضوحا يبعث على الإعجاب فى العبارات الآتية : « إن أقيح الرذائل — وهى أكل لحوم البشر ، وتقديم الإنسان قربانا ، ووأد الأطفال أحياء — تلك الرذائل التى نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت فى وقت ما منتشرة فى كل إفريقية ، ولا تزال فى بقاع كثيرة منها ، حتى تلك الجهات التى لا تبعد عن ساحل الذهب وعن مواطننا ، — قد اختفت لجأة وإلى الأبد . والمساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدوا يرتدون الملابس بل يتأنقون فى ملابسهم ؛ والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل ، بدوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال ؛ لأن الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة ، وهو فرض لا ينطوى على تأثير قوى جدا فى غرائزهم التى جبوا عليها . ويميل النظام القبلى إلى فسح المجال لأساس أوسع نطاقا ، وبعبارة أخرى إلى ادماج القبائل بعضها فى بعض لتصبح أمما ، وبازدياد النشاط والمعركة تصير الأمم إمبراطوريات . ونستطيع أن نورد كثيرا من أمثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له فى خلال مئة السنة الأخيرة . ومتى أثيرت الروح الحربية على هذا النحو ، فإن المراكز التى تنبعث منها نار الحرب تصبح أقل عددا وأكثر انعزالا منها قبل . وفى هذه الحالة تكون الحرب أحسن تنظيما كما تكون متأثرة بصورة من صور التقيد ؛ وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الأسباب . وقلّ السلب المطلق الذى لا يقوم على تفرقه بين من يسلبونهم ، كما أصبح تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم أكثر من ذى قبل . وتنشأ مدارس أولية (٢) كذلك المدارس

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٨ .

(٢) إن أول دروس الأطفال فى القراءة عبارة عن مختارات من القرآن ، أما التفاسير وفهوما من الكتب التى ألفت حول القرآن ، فاتها تغذى الدراسات المتقدمة بموضوعات رئيسية . وقد أنشئت منذ قرون مدارس ، من مختلف الدرجات ، فى بلاد داخلية مختلفة يسكنها الزنوج ، تصب سلعة القانون ؛ وفيها يتعلم الناس حتى الفقراء الذين يتلون هل نفقة الحرانة العامة ، ويتعهد فيها الاكفاء بدوايات طويلة من تعلم منظم ، سنوات كثيرة . وليس نظام الدراسة فيها مفسورا دائما هل اللغة العربية أو هل مؤلفاه كتاب —

التي وصفها مونجو بارك Mungo Park منذ قرن مضى . حتى لو أن هذه المدارس اقتصرت على تعليم تلاميذها تلاوة القرآن ، لكأنت ذات قيمة في نفسها ، وقد تكون خطوة في سبيل ما هو أعظم منها بكثير . وقد أصبح المسجد الجديد البناء النظيف ، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات في اليوم ، وقبلة تتجه إلى مكة وإمام وصلاة جمعة ، مركزا للقرية بدلا من دار عبادة الفنش أو اليويو Jujju ذات المنظر البشع . وقد طغت عبادة الله الواحد القهار ، الكائن في كل مكان ، العليم ، الرحيم ، على كل ما لقن الأهالي عبادته من قبل ، طغيانا لا حد له ( وبلغت اللغة العربية ، وهي اللغة التي تكتب بها دائما الكتب الدينية الإسلامية ، حدا يفوق كل وصف من الغنى والجمال . وإذا ما تعلبوا هذه اللغة ، أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة . وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب ، بل هي أدب في ذاتها . وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية — وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدما هائلا في الحضارة . وظهرت صناعات وتجارة ، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم بالإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم ، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات ، تلك المبادلة التي تعرف من هيرودوت أنها وجدت في إفريقية من أقدم العصور ، ولا كالمقايضة بالودع ، أو البارود أو الطبايق أو الروم (S) ، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية في التبادل ، ولسكنها صناعات تنطوي على مهارة فائقة ، وتجارة منظمة نظاما محكما . وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة وتأثير الحكومات الأكثر استقرارا التي جاء بها الإسلام ، وهي مدن نجد أن الرحالين الأوربيين حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها . وإني لبعيد عن القول بأن الدين هو العلة الوحيدة في هذا النجاح النسبي . وإنما أقول إنه ملائم لهذا النجاح ودافع إليه . وقد ساعدت الأحوال الجوية والمؤثرات الأخرى المختلفة على الوصول إلى هذه النتيجة ؛ ولكن ما الذي يحمل إفريقية الوثنية ، حيث توجد الظروف التي تتشابه كثيرا مع تلك ، على أن تقارن بين حالتها وبين هذا النجاح ؟ أما فيما يتعلق بالفرد ، فن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد

---

العرب، وقد بُدِّئَ ط عدد من اللغات القومية للكتابة ، فترجمت كتب من العربية ، وألفت كتب بتلك اللغات القومية ، وكذلك فتحة مدارس تعلم فيها اللغات القومية . . .

Condition and Character of Negroes in Africa. By Theodore Dwight. (Methodist Quarterly Review, January 1869.)

وبذكر الدكتور بليدن Blyden (pp. 206-7) فكتب الآتية على أنها كتب يقرؤها المسلمون في إفريقية الغربية : مقامات الحريري ، وترجمات من أرسطو وأفلاطون إلى العربية ، وترجمة عربية من أبقراط ، والترجمة العربية للعهد الجديد والمزامير التي نشرها جمعية الكتاب المقدس الأمريكية . وللوقوف على كتب المسلمين في إفريقية الشرقية انظر :

Becker ; Islam in Deutsch Ostafrika, p. 18 sqq.

(S) نوع من الحر

السود الذين تحولوا إليه حديثا بالنشاط والعزة والاعتدال على النفس واحترام الذات ، وهذه كلها صفات يندر جدا أن نجدها في مواطنهم الوثنيين أو المسيحيين ، (١) .

وقد كتبنا هذه العبارات السابقة التي اقتبسناها قبل تقسيم الجزء الأكبر من إفريقية بين حكومات أوروبا المسيحية - إنجلترا وفرنسا وألمانيا - ولكن طابع الحضارة الإسلامية الغالب لم ينقطع عن التأثير في العقليّة الرزنيّة أو عن العمل باعتباره أحد المؤثرات التي تساعد على تحويل عبدة الفئس الإفريقيين إلى الإسلام . ولما مست هؤلاء الثقافة الأوربية لجأة ، مضوا قدما في طريق الحضارة ، ولكنهم ، وقد عجزوا عن أن يقيموا جسرا على البرزخ الذي يفصلهم عن حكامهم الأجانب ، وجدوا في الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم (٢) ؛ ولذلك ، كان بعيدا كل البعد على انتشار السيادة الأوربية أن تعوق نشاط الدعاة المسلمين ، بل إن انتشار هذه السيادة قد ساعد إلى حد كبير على تقدم الإسلام . وقد ساعد دخول السلام في بلاد نهكتها من قبل حروب مهلكة أو غارات جلاب الرقيق ، ثم قيام أساليب الحكم والإدارة المنظمة والزيادة في تيسير المواصلات بإنشاء الطرق ومد السكك الحديدية - ساعد كل ذلك على ترويج التجارة ، ومكن التجار والدعاة المسلمين النشيطين من أن يبسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل . وأن يحولوا في الأراضي المألوفة وهم أكثر أمنا وطمأنينة . زد على ذلك أن منع تجارة الرقيق أزال عقبة من العقبات الكبيرة في سبيل انتشار الإسلام في إفريقية الوثنية ، لأنه كان من مصلحة العرب وغيرهم من تجار الرقيق المسلمين ألا يضيقوا مجال أعمالهم بالتآخي في الإسلام مع ضحاياهم الميسور صيدهم (٣) . والآن يكتسب المسلمون متحولين إلى الإسلام من القبائل الوثنية التي لم يمسه نشاط الدعوة أيام تجارة الرقيق . وقد ساعدت الحكومات الأوربية على الوصول إلى هذه النتيجة بتوظيف المسلمين في الوظائف الثانوية في الإدارة المدنية ( حيث لم يكن هناك أشخاص متعلون إلا بين المسلمين ) ، وبتوظيف مسلمين في مدارس الحكومة ، وبجمع جيوشها من بين القبائل الإسلامية ؛ وعلى هذا النحو زادوا من شهرة الإسلام في نظر الإفريقيين الوثنيين - وهي فرصة لم يتوان المسلمون عن استغلالها لمصلحة عقيدتهم (٤) .

Mohammedanism in Africa, by R. Bosworth Smith. (The Nineteenth Century, December 1887, pp. 798-800.) (١)

Le Chatelier, (3). p. 348. (٢)

Forget, p. 95. Merensky, p. 156. (٣)

.. كانت المظنة التي تعود على المسلمين من استغلال سكان البلاد أكثر من تلك التي كانت تعود عليهم من نشر العقيدة بينهم .  
فقر أنهم أدخلوا شعوب إفريقية في الإسلام عن طريق الأساليب الروحية ، لأصبحوا إخوانهم في الدين ، وقساوا معهم في الحقوق ، ولحزمت عليهم سرقتهم واستعبادهم ، أو تسخيرهم في أعمال العبيد ..

Westermann, p. 643. L. de Contenson, p. 244. Kumm, p. 122. (٤)

وليس في القول بأن الإسلام إنما يتقدم بقوة السلاح (١) إلا قليل جدا من الحقيقة ؛ بل الأمر على العكس ، إذ أن تقسيم إفريقية بين السلطات الأوربية ، التي انتزعت السيف من أيدي الرؤساء المسلمين الذين كانوا حينذاك تحت حكمهم ، قد أوجد دعاية يبدو من المحتمل أن تنجح حيث أخفقت قرون من السيادة الإسلامية .

---

(١) وهل ذلك ، يقول مرنسكي . حين بنافس إخفاف الإسلام في السيطرة على جميع إفريقية بعد مضي قرون من الاحتلال ؛ .. نرى أن السبب الرئيسي لهذه الظاهرة الغربية في العلاقات ، هو أن قوة الإسلام الظاهرة عند المسلمين ، تسار انتشار الإسلام ، ويقف أحدهما إلى جانب الآخر ، كما أنهما متداخلان ، يتمشيان معا نهوضا وانحطاطا .. ( p. 156 ) .

## الباب الثاني عشر

### انتشار الاسلام في أرخبيل الملايو

يمدنا تاريخ أرخبيل الملايو في خلال الأعوام الستائة الأخيرة بفصل من أهم الفصول في قصة انتشار الإسلام ، بفضل ما بذله الدعاة من جهود . ففي غضون هذه الفترة كلها ، نجد شواهد تدلنا على نشاط متصل قام به الدعاة المسلمون في جزر الهند الشرقية ، أو في بعضها على الأقل . وفي بدء الدعوة ، لم يكن بد من أن ينفذ الدعاة أعمالهم ، في كل لون من ألوان هذه الدعوة ، دون مساعدة أو معاضدة من جانب حكام البلاد ، وإنما نفذت بقوة الإقناع وحدها ، وصادفهم في سبيل ذلك معارضة شديدة في كثير من الأحيان ، ولا سيما من جانب الأسبان . ولكن الدعاة والوا جهودهم بنشاط لا يعرف الملل ، برغم كل الصعاب ، وبألوان من النجاح متباينة ، وأنجزوا أعمالهم ( وخاصة في الوقت الحاضر ) أينما كانت هذه الأعمال جزئية أو ناقصة . ومن المحال أن نعرف على وجه التحقيق التاريخ الدقيق لأول دخول الإسلام في أرخبيل الملايو . وربما حمله إلى هناك تجار العرب في القرون الأولى للهجرة ، وذلك قبل أن تصل إلينا أية معلومات تاريخية عن حدوث أمثال هذه المؤثرات في تلك البلاد بزمن طويل . وبما جعل هذا الغرض أكثر احتمالاً ، ما نعرفه من أن العرب زاولوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة النطاق منذ عصور مبكرة جداً . ففي القرن الثاني للهجرة ، كانت تجارتهم مع سيلان كلها في أيديهم . وفي مستهل القرن السابع الميلادي ، لقيت تجارتهم مع الصين ، عن طريق سيلان ، رواجاً عظيماً ، حتى لقد وجدنا تجار العرب ، في أواسط القرن الثامن يقيمون في كاتون في جموع غفيرة . وفي الفترة التي بين القرنين العاشر والخامس عشر ، حتى قدوم البرتغاليين ، كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع<sup>(١)</sup> . لذلك نستطيع أن نزعم في شيء من التأكد المقبول ، أنهم لا بد أن يكونوا قد أسسوا مستعمراتهم التجارية في بعض جزائر أرخبيل الملايو ، كما فعلوا ذلك في الأماكن الأخرى في عصر مبكر جداً . ومع أننا لا نجد ذكراً لهذه الجزائر في مؤلفات جغرافي العرب قبل القرن التاسع<sup>(٢)</sup> ، نجد في حوادث سنة ٦٨٤ م في الأخبار الصينية المدونة حسب السنين ، خبراً عن زعيم عربي ، يظن من التعليقات المتأخرة أنه كان زعيم مستعمرة عربية على ساحل سومطرة الغربي<sup>(٣)</sup> .

Niemann, p. 337. (١)

Reinaud : Géographie d'Aboulféda, tome i. p. cccxxxix. (٢)

Groeneveldt, pp. 14, 15. (٣)

على أن الدعاة لابد أن يكونوا قد وفدوا كذلك على أرخبيل الملايو من جنوب الهند ، نستدل على ذلك من بعض خصائص معينة وجدت في العقيدة الإسلامية التي اعتقدها سكان هذه الجزائر . ويتبع السواد الأعظم من مسلمي الأرخبيل المذهب الشافعي ، الذي يسيطر في الوقت الحاضر على سواحل كورومانديل ومليبار ، كما كانت الحال كذلك حول منتصف القرن الرابع عشر ، عندما زار ابن بطوطة هذه البقاع (١) . فإذا قدرنا أن المسلمين في البلاد المجاورة ينتمون إلى المذهب الحنفي ، استطعنا أن نفسر ذبوع تعاليم المذهب الشافعي بشيء واحد ، هو الزعم بأن هذه التعاليم قد جُلبت إلى هناك من ساحل مليبار الذي كان التجار الآتون من جاوة يترددون على موانئه ، كما كان يتردد عليها التجار القادمون من الصين واليمن وفارس (٢) . كذلك لابد أن يكون التشيع قد جاء إلى هناك من الهند أيضا ، أو من فارس ، ولا تزال آثاره قائمة في جاوة وسومطرة . ونعلم مما ذكره ابن بطوطة أن سلطان سُمُدرة (٣) المسلم قد دخل في صلوات ودية مع بلاط دهلي ؛ وكان من بين علماء الفقه الذين خصهم هذا السلطان المتدين بالرعاية قاض من شيراز وآخر من أصفهان (٤) . ولكن قبل هذا الوقت بزمن طويل ، كان التجار المقيمون في الدكن ، الذين قامت الحركة التجارية على أيديهم بين الدول الإسلامية في الهند وأرخبيل الملايو ، قد استقروا في جماعات كبيرة في الموانئ التجارية الواقعة في هذه الجزائر ، حيث ألقوا بذور الدين الجديد (٤) .

ويرجع الفضل في وجود الأهالي المسلمين ، الذين وجدنا ذكرهم في الأخبار التاريخية الأولى التي تشير إلى الإسلام في هذه الجهات ، إلى تلك الجهود التي بذلها تجار العرب والهنود في نشر تعاليم الدعوة . فإنهم بعد أن استقروا في مراكز التجارة ، تصاهروا إلى سكان البلاد ، ومن ثم كوّن أولئك النسوة الوثنيات وعييد أسرتهن نواة الجماعة الإسلامية التي لم يأل أفرادها جهدا في زيادة عددهم . ويمدنا الوصف التالي للوسائل التي اتخذها الدعاة من هؤلاء التجار في جزائر الفيلبين ، بصورة لما كان قد صنعه من غير شك ، تجار المسلمين في الأجيال الكثيرة السابقة : « كان أقوم السبل لإدخال دين المسلمين إلى هذه البلاد ، أن اتخذوا لغة القوم وكثيرا من عادات الأهالي ، وتزوجوا من نسائهم ، واشتروا عبيدا ليرفعوا من قيمتهم الشخصية ، ونجحوا آخر الأمر في أن يدخلوا أنفسهم في زمرة الزعماء الذين يتبومون أرفع مكانة في الدولة . وعملوا يدا واحدة على نحو أكثر حذقا وتناسقا مما كان يصنعه الأهالي ، فزادوا من قوتهم شيئا فشيئا . ولما كانوا يمتلكون عددا من العبيد ، ألقوا فيما بينهم نوعا من الحلف ، وأسسوا ضربا من الحكومات الملكية جعلوها وراثية في أسرة واحدة . ومع أن مثل هذا الحلف قد أمدهم بقوة عظيمة ، أحسوا الحاجة إلى التراضي على شروط ودية مع الطبقة الأرستقراطية القديمة ، كما أحسوا الحاجة إلى أخذ ضمان لحررتهم من هذه الطبقات التي لم

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ٨٠٠ ٦٦ .

(٢) Veth (3), vol. p. 231 . ابن بطوطة ج ٤ ص ٨٩ .

(٣) اسم مدينة سومطرة القديم ، ويقال إنه سفكريني الأصل معناه البحر .

(٤) ابن بطوطة ج ٤ ص ٢٣٠ ، ٢٢٤ .

(٤) Snouck Hurgronje (1), pp. 8-9 .

يكن في وسعهم أن يستغنوا عن تأييدها<sup>(١)</sup>، ولا بد أن يكون المسلمون الذين استوطنوا أرخبيل الملايو، على اختلافهم، قد وضعوا بطريقة تشبه تلك التي تحدثنا عنها، أساسا سياسيا واجتماعيا ثابتا لجهودهم في سبيل نشر تعاليم الدعوة. إنهم لم يفدوا على هذه البلاد غزاة، كما فعل الأسبان في القرن السادس عشر، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام، بل لم يدعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالعلبة والسيادة، لكي يحطوا بذلك شأن السكان الأصليين ويسلبوا حقوقهم، بل قدموا في زى التجار، واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى، ومدينة أزهري في سبيل دينهم، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخصي أو لتنمية ثرواتهم<sup>(٢)</sup>. أما وقد قررنا بصفة عامة الوسائل الثانوية التي اتخذوها في نشر الدعوة، فلنتبع بالتفصيل جهودهم في نشر تعاليم هذه الدعوة في الجزائر المختلفة.

تصور لنا الروايات أن الإسلام دخل إلى سومطرة من بلاد العرب. على أنه ليس هناك أساس تاريخي صحيح لمثل هذا الاعتقاد، ويظهر أن الشواهد كلها تشير إلى أن الهند هي المنبع الذي استقى منه أهالي سومطرة معرفتهم بالعقيدة الجديدة. كانت العلاقات التجارية الفعالة، قد قامت منذ قرون بين الهند وأرخبيل الملايو، ولا يبعد أن يكون أول دعاة في سومطرة تجارا من الهنود<sup>(٣)</sup>. على أنه ليس لدينا أخبار تاريخية عن أعمالهم، وتنسب أخبار الملايو شرف أول دعوة في مدينة أتجه Atjeh، شمال غربي سومطرة، إلى عربي يدعى عبداقة عارف، قيل إنه زار الجزيرة حول منتصف القرن الثاني عشر؛ وقيل إن أحد تلاميذه، برهان الدين، حمل معرفة العقيدة إلى الساحل الغربي حتى بريامان Priaman<sup>(٤)</sup>. ولما كان هذا الخبر غير موثوق بصحته، فإنه مع ذلك قد يوضح وجود بعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة حول هذه الفترة. ذلك أن أخبار مؤرخي الملايو الخاصة بأتجه تجعل سنة ١٣٠٥ تاريخا لاغتيال جهان شاه العرش، وهو الذي تزعم الروايات أنه مؤسس الأسرة الإسلامية. وقد قيل إنه كان أجنبيا، من الغرب<sup>(٥)</sup>، وإنه قدم إلى هذه السواحل ليدعو إلى عقيدة النبي ﷺ. وقد أدخل كثيرين في هذا الدين، وتزوج امرأة من أهالي هذه البلاد، فرحبوا به ملكا عليهم وتلقب بلقب سري بدوكا سلطان، وهو لفظ خليط من السنسكريتية والعربية. والراجح أن العقيدة الجديدة ظلت وقتا ما مقصورة على الموانئ.

Padre Gainza, quoted by C. Semper, p. 67. (١)

Crawford (2), vol. ii. p. 265. (٢)

Snouck Hurgronje : L'Arabie et les Indes Néerlandaises. (Revue de l'Histoire des Religions, vol. Ivii, p. 69 sqq.) (٣)

De Hollander, vol. i. p. 581. Veih (1), p. 60. (٤)

(٥) قد تنطبق هذه الإشارة العامة إما على بلاد العرب وفارس وإما على الهند. ولكن إذا كانت شخصية جهان شاه هذه

حقيقية، فلا يبعد أن يكون قد قدم من كورومانديل أو ساحل المليبار. (Chronique du Royaume d'Atcheh, traduite du Malay par Ed. Dulaurier, p. 7.)

التي اتصل بها تجار المسلمين ، وأن تقدم هذه العقيدة في داخل البلاد كان أكثر بطنا ، فهنا لم يكن بد من أن تصطدم العقيدة بالمؤثرات الهندوكية القوية التي اتخذت لها مركزا في مملكة منانجكباو .

ويتحدث ماركو پولو ، الذي قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالي في ١٢٩٢ م ، عن جميع السكان باعتبارهم عبدة أوثنان ، اللهم إلا في مملكة برلاك الصغيرة على الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة ، حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين كذلك ، لأن تجار العرب ، كما ينبغي أن تعلم ، قد بلغ من كثرة ترددهم على هذه المملكة ، أنهم أدخلوا الأهالي في شريعة محمد ، أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون أو متوحشون يأكلون لحوم البشر<sup>(١)</sup> . أضف إلى ذلك أن أحد أخبار الملايو التاريخية يقول إن أول من ضرب المثل في اعتقاد الإسلام ثم حذا رعاياه حذوه ، هو السلطان علي مغايت شاه ، وكان قد حكم أنجيه من سنة ١٥٠٧ إلى ١٥٢٢<sup>(٢)</sup> . ولكن لا يبعد أن يكون شرف أول حاكم مسلم للدولة قد نُسب إلى هذا السلطان لاعتباره مجدا يضاف إلى الحاكم الذي أسس عظمة أنجيه ، وأخذ في بسط نفوذه على البلاد المجاورة . كما لا يبعد أن يكون الأصوب أنه أحدث أثرا في إنعاش حياة رعاياه الدينية ، أو أنه بث روحا جديدة في هذه الحياة ، لا أن يكون قد أدمهم بأول معرفة بعقيدة النبي . فقد رسخت قدم الإسلام في سومطرة قبل ذلك الوقت بزمن طويل . وتجربنا الروايات التي تتحدث عن مدينة سمدره ، أن شريف مكة أرسل بعثة لتحويل شعب سومطرة إلى الإسلام . وكان قائد الجماعة رجلا يدعى الشيخ إسماعيل . وكان أول ما وصلوا إليه من الأمكنة في هذه الجزيرة ، بعد أن تركوا مليبار ، بلدة پاسوري Pasuri ( وربما كانت على مسافة قليلة من جنوب الساحل الغربي ) ، وبفضل دعوتهم اقتنع شعب هذه البلدة باعتقاد الإسلام . ثم تقدموا شمالا حتى لمبري Lambri ، ثم أخذوا يساحلون الجزيرة حتى وصلوا إلى الجانب الآخر منها ، وأبحروا من هناك حتى وصلوا إلى آرو Aru على الساحل الشرقي من جهة الجنوب ، وهي تقابل ملقا تقريبا . وفي كلتا هاتين البقعتين ، تسكلت جهودهم بنجاح كذلك . وفي آرو ، تحروا الطريق إلى سمدره ، وهي مدينة على الساحل الشمالي من الجزيرة ، ويظهر أنها خاصة كانت هدفا لدعوتهم ، فوجدوا أنهم قد تجاوزوها . ومن أجل ذلك قفلوا راجعين إلى برلاك Parlak ، حيث كان ماركو پولو قد وجد جماعة من المسلمين قبل ذلك بأعوام قليلة ؛ وبعد أن ظفروا بمسلمين جدد في هذه البقعة كذلك ، استأنفوا رحلتهم إلى سمدره . وكانت هذه المدينة ، والمملكة التي تسمت باسمها ، قد تأسست أخيرا على يد شخص يدعى مراسيلو Mara Silu . وقد أقنعه الشيخ إسماعيل باعتقاد الإسلام فاتخذ لنفسه اسم الملك الصالح ، وتزوج من ابنة ملك برلاك فأنجب منها ولدين ، ولكي يترك لكل منهما ولاية بعد وفاته ، أسس هذه المدينة الإسلامية ومملكة پاسي Pasei ، وهي كذلك على الساحل الشمالي<sup>(٣)</sup> .

Marco Polo, vol. ii. p. 284. (١)

Veth (1), p. 61. (٢)

Yule's Marco Polo, vol. ii. pp. 294, 303. (٣)

ولا يبعد أن يكون الملك الظاهر الذي وجده ابن بطوطة حاكما في سمدره عند ما زار هذه الجزيرة في سنة ١٣٤٥ ، أكبر هذين الولدين . وقد أظهر هذا الملك أعظم ما تتجلى به المملكة الإسلامية من أبهة ، وامتدت بلاده مسيرة أيام كثيرة على طول الساحل . كان مسلما من أهل السنة ، غيورا على دينه ، مولعا بعقد المناظرات مع الفقهاء وعلماؤ الدين . وكان بلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم . ويذكر لنا ابن بطوطة اسمي قاضيين ، كانا قد أتيا إليه من فارس ، كما يذكر اسم أمير كان قد ورد رسولا على السلطان في دهلـي . وهذا يدلنا على أن سومطرة كانت من قبل على اتصال بكثير من أرجاء العالم الإسلامي . كذلك كان الملك الظاهر قائدا عظيما ، وقد أعلن الحرب على الوثنيين الذين يقيمون في البلاد المجاورة حتى أذعنوا لحكمه ، وأدوا له الجزية (١) .

وكان الإسلام من غير شك قد أحرز في ذلك العهد تقدما عظيما في سومطرة ، وبعد أن توطدت دعائمه على طول الساحل ، أخذ يشق طريقه الى المناطق الداخلية . وكانت دعوة الشيخ إسماعيل وجماعته قد آتت ثمارا وافرة ؛ فقد تحدث رحالة صيني ، زار هذه الجزيرة في سنة ١٤١٣ ، عن بلدة لامبرى ، فقال إن عدد الأسرات التي كانت تقيم فيها ألف أسرة ، كلهم مسلمون ، و على جانب عظيم من كرم الأخلاق ، وكان ملك آرو وشعب مملكته يعتقدون جميعا هذا الدين نفسه (٢) . وقد حدث ، إما في نهاية هذا القرن نفسه أو في القرن الخامس عشر ، أن وجد دين النبي أشياعا من مملكة منانجكباو العظيمة ، التي امتدت أراضيها يوما ما من الساحل إلى الساحل ، وعلى جزء عظيم من الجزيرة يقع شمالي خط الاستواء وجنوبيه (٣) . وعلى الرغم من أن قوتها كانت لذلك العهد قد انحلت إلى حد بعيد ، ظلت تضع عقبات كبيرة ، باعتبارها معقلا قديما من معاقل الهندوكية . في سبيل تقدم الدين الجديد . ومع هذه الحقيقة ، كان تأصل الإسلام في نفوس رعايا هذه المملكة آخر الأمر أقوى منه في نفوس السواد الأعظم من سكان المنطقة الداخلية من هذه الجزيرة (٤) . ومن الواضح البين ، أن هؤلاء ، وهم أوسط شعوب الجزيرة مركزا ، لم يكن بد من أن يكونوا بأسرهم أسرع دخولا في الإسلام من سكان كثير من سائر المقاطعات التي كانت أشد اتصالا بالمؤثرات الأجنبية . ولا يزال السواد الأعظم من سكان بلاد البتاك Batak ، إلى اليوم ، على الوثنية ، بيد أن الإسلام قد ظفر ببعض آثار فيهم ، مثال ذلك فريق يعيشون على حدود أنجييه ، دخلوا في الإسلام على يد جيرانهم المسلمين (٥) ، وفريق آخر يسكنون في جبال إقليم راو Rau على خط الاستواء ، تحولوا مثلهم

(١) ابن بطوطة ٤ ج ص ٢٢٠ - ٢٢٦ .

(٢) Groeneveldt, p. 94.

(٣) وفي أوج قوتها ، امتدت من ٢° شمالا إلى ٢° جنوبا على الساحل الغربي ، ومن ١° شمالا إلى ٢° جنوبا على الساحل الشرقي ،

ولكنها في القرن السادس عشر ، فقدت سيطرتها على الساحل الشرقي . (De Hollander, vol. i. p. 3.)

(٤) Marsden, p. 343.

(٥) J. H. Moor. (Appendix, p. 1.)

إلى الإسلام<sup>(١)</sup> . كذلك عرفت حالات من إسلام البتك على الساحل الشرقي ، وكانوا على اتصال وثيق بسكان الملايو<sup>(٢)</sup> .

ولم تُجند الجهود النشيطة التي بذلتها أسرة پدرى Padris المتعصبة (ص ٣١٢) لفرض الإسلام على البتك بحد السيف ، فغربوا بلادهم وقتلوا كثيرا منهم . ولكن هذه الوسائل العنيفة لم تجذب أحدا إلى الإسلام . على أنه ، عند ما أخذت الحكومة الهولندية حركة البدرى وضمت إلى أملاكها الجزء الجنوبي من بلاد البتك ، أخذ الإسلام ينتشر بالوسائل السلمية ، وخاصة عن طريق الجهود الحماسية التي بذلها الموظفون المرموسون من الأهالي الذين جاء بهم النظام الجديد والذين كانوا جميعا من سكان الملايو المسلمين<sup>(٣)</sup> ، وكذلك عن طريق نفوذ التجار الذين طوفوا في البلاد ، والذين حذا حذوهم في نشر الدعوة جماعة (الحاجي) وغيرهم من علماء الدين المعروفين . ومن الحقائق الواضحة ، أن البتك الذين كانوا قد أبدوا معارضة عنيدة في دخول الإسلام بينهم قرونا عديدة ، مع أنهم كانوا يحاطون بمجموعتين من السكان المسلمين المتعصبين ، وهما الأتشيون في الشمال وأهل الملايو في الجنوب ، قد استجابوا في السنين الأخيرة للجهود السلمية التي بذلت لإدخالهم في الإسلام ، وأظهروا حماسة في هذه السبيل . ويظهر أن من الممكن إيجاد تفسير لذلك ، فيما اعترى صفاتهم القومية الحاجزة المنيعه ، من ضعف ووهن ، بسبب الاحتلال الهولندي ، والغزو الذي عرض بلادهم للمؤثرات الأجنبية التي دلت على بداية عصر جديد في تطورهم الثقافي ، كما نجد تفسير ذلك أيضا في تلك الخطوات السديدة التي تقدم بها أئمة هذا الدين الجديد ، الذين عرفوا كيف يلائمون بين تعاليمهم و عقائد البتك الراهنة ، وتعاليمهم المتأصلة في نفوسهم<sup>(٤)</sup> . ويظهر أن تأسيس الإرساليات المسيحية بين البتك في سنة ١٨٩٧ قد زود الدعوة الإسلامية في هذه البلاد بياعث لا يستهان به ، بل يظهر أن هذه الإرساليات قد مهدت السبيل لنجاح تلك الدعوة . فقد قيل أن قريتين من قرى البتك ، وكان جميع أهليهما قد تنصروا ، انتقلتا جمعا واحدا إلى الإسلام ، بعد تنصرهما بزمن قصير<sup>(٥)</sup> .

Marsden, p. 355. (١)

Godsdienstige verschijnselen en toestanden in Oost-Indië. (Uit de Koloniale Verslagen van 1886 en 1887.) Med. Ned. Zendelingen, vol. xxxii. pp. 175—6. (1888.) (٢)

وفي سنة ١٩٠٩ ، كان المجموع الكلي لبتك ٥٠٠٠٠٠ شخص ، منهم ٣٠٠٠٠٠ كانوا لا يزالون على الوثنية ، على حين كان ١٢٥

الف مسلمين و ٨٠ ألف مسيحيين . (R. du M.M., vol. viii. p. 183.)

J. Warneck : Die Religion der Batak, p. 122 (Leipzig 1909.) (٣)

G. R. Simon : Die Propaganda des Halbmondes. Ein Beitrag zur Skizzierung des Islam unter den Batakken, pp. 425, 429—30. (Allgemeine Missions-Zeitschrift, vol. xxvii. 1900.) (٤)

R. du M.M., vol. viii. (1909), p. 183. (٥)

ولا يزال في سومطرة الوسطى ، عدد كبير من الأهلالي الوثنيين . على الرغم من أن السواد الأعظم من السكان مسلمون . ولكن هؤلاء على جانب عظيم من الجهل بديانتهم ، اللهم إلا إذا استثنينا عددا قليلا من جماعة الحاجي والمعلمين الدينيين : بل إننا نجد بين شعب كورتجي ، وهم في معظمهم يشايعون الإسلام ويتحمسون له ، بعض الطوائف من الأهلالي لا يزالون يعبدون آلهة أجدادهم الوثنيين (١) . على أن الجهود تبذل في سبيل نهضة دينية ، كما أن دعاة المسلمين يقومون بغزوات جديدة بين الوثنيين ولا سيما على طول الساحل الغربي (٢) . وفي مقاطعة سيبيروك Sipirok أدخل معلم ديني . وكان قد لزم المسجد في المدينة التي كانت تحمل اسم هذه المقاطعة مدة ربع قرن ، جميع أهالي هذه المقاطعة في الإسلام ، اللهم إلا المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك . وكانوا في الغالب من سلالة الأهلالي الذين كانوا عبيدا من قبل (٣) . وقد أفلحت حركة حديثة لفشر الدعوة ، قامت في العقد الأول من القرن العشرين ، في اجتذاب كثير من مسيحيي هذه المقاطعة إلى الإسلام ، بل في اجتذاب فريق من يعيش في وسط المحيط الذي تجلى فيه نفوذ الإرسالية المسيحية (٤) .

وتصور الروايات أن الإسلام دخل إلى بالمبنج Palembang حول سنة ١٤٤٠ على يد رادن رحمت ، وسندكر فيما بعد نبذة عن نشاطه في الدعوة (ص ٣١٩) . ولكن يظهر أن المؤثرات الهندية كانت متأصلة ثابتة في هذه المنطقة ، وأن تقدم الدين الجديد كان بطيئا . وقد قيل إن مسلمي بالمبنج كانوا حتى القرن التاسع عشر ، يعرفون القليل عن دينهم ، إلا ما كان من طقوسه الشكلية ، اللهم إلا سكان الحاضرة الذين كانوا يتصلون بالعرب كل يوم (٥) . ولكن قد يظهر أن في العقد الأول من القرن العشرين ، كان هنالك نهضة للحياة الدينية ، ودعاية آخذة في النمو ، إذ أن تقارير الحكومة الهولندية الخاصة بالمستعمرات قد لفتت الأنظار إلى اطراد انتشار الإسلام بين الوثنيين من أهالي مقاطعات بالمبنج على اختلافها (٦) .

ومن جاوه ، حُمل الإسلام لأول مرة إلى مقاطعات لمبوج Lampong التي تكوّن أقصى حدود سومطرة الجنوبية ، وذلك على يد سيد هذه المقاطعات ، ويدعى مَسْكَ كَمَلَه بومي . وحول نهاية القرن الخامس عشر ، عبر مضيق سُنْدَا Sunda إلى مملكة بنتام على ساحل جاوة الغربي ، تلك المملكة التي كانت قد انتحلت تعاليم الدعاة المسلمين قبل أن يزورها هذا الزعيم بسنوات قليلة . وهنا أسلم هذا الرجل أيضا ،

A. L. van Hassalt, pp. 55, 68. (١)

Med. Ned. Zendelinggen, id. p. 173. (Koloniaal Verslag van 1911, p. 26; 1912, p. 17.) III (٢)

Uit het Koloniaal Verslag van 1889. (Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxiv. p. 168.) (1890.) (٣)

Koloniaal Verslag van 1910, p. 30. (٤)

De Hollander, vol. i. p. 703. (٥)

Koloniaal Verslag van 1904, p. 80; 1905, p. 46; 1909, p. 47; 1910, p. 33; 1911, p. 29; 1912, p. 21. (٦)

وبعد أن أدى فريضة الحج إلى مكة ، نشر تعاليم عقيدته الجديدة التي اعتقدها بين مواطنيه<sup>(١)</sup>. وقد أحرز هذا الدين تقدما لا يستهان به بين أهالي لمبويج ، ولهم مساجد في معظم قراهم ، ولكن الخرافات القديمة لا تزال قائمة في أجزاء المنطقة الداخلية<sup>(٢)</sup>.

وفي مستهل القرن التاسع عشر ، قامت في سومطرة نهضة دينية ، ولم تكن عادمة التأثير في ترويج دعاية للإسلام أبعد مدى وأعظم أثرا. وفي سنة ١٨٠٣ رجع ثلاثة من جماعة الحاجي من مكة إلى وطنهم سومطرة ، وكانوا في أثناء وجودهم في المدينة المقدسة ، قد تأثروا تأثرا عميقا بالحركة الوهاية التي قامت لإصلاح الإسلام ، فأصبحوا الآن يتوقون إلى أن يدخلوا مبادئ هذا الإصلاح بين مواطنيهم ، وإلى أن يبشوا فيهم حياة دينية أكثر صفاء وأشد غيرة . ومن ثم أخذوا في الدعوة إلى التشدد في التوحيد الذي تقول به الطائفة الوهاية ، وحرموا التوسل إلى الأولياء وشرب الخمر والميسر وسائر الأعمال التي تتعارض مع القرآن . وجعلوا عددا من بين إخوانهم في الدين والأهالي الوثنيين على سواء يدخل في مذهبهم . وأخيرا أعلنوا الجهاد على البتة ، ولكن الحركة فقدت صبغتها الأصلية وانحطت فأصبحت حربا وحشية دامية ترمى إلى الغزو ، وذلك بوقوع هذه الحركة في أيدي قوم لا وازع لهم بطمحوون إلى الشهرة . وفي سنة ١٨٢١ وقع هؤلاء الذين يطلق عليهم جماعة الپدري Padris في نزاع مع الحكومة الهولندية ، ولم تأت سنة ١٨٣٨ حتى سقط آخر معاقلمهم وكسرت شوكتهم<sup>(٣)</sup>.

ويرجع جميع أهالي الملايو الذين يقيمون في شبه جزيرة الملايو أصلهم إلى هجرات أنت من سومطرة ، ولا سيما من منانجكباو تلك المملكة المشهورة التي ذكرناها من قبل ، والتي يقال إنها كانت في يوم ما أقوى الممالك في الجزيرة . ولا يزال بعض رؤساء الولايات الداخلية ، في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة الملايو ، يتقلدون مناصبهم من هذا المكان . أما معرفة الفترة التي تمكنت فيها هذه الجاليات من قلب سومطرة في داخل شبه الجزيرة ، فهذا أمر يدخل في باب الحدس والتخمين ؛ ولكن يظهر أن سنغاپور وأقصى الحدود الجنوبية من شبه الجزيرة ، قد تلقت هجرة من هذه الهجرات في أواسط القرن الثاني عشر ، وهي التي أسس أحفادها ملقا بعد ذلك بقرن تقريبا<sup>(٤)</sup> . وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مدينة كبيرة زاخرة ، لما تميزت به من موقع مناسب في طريق التجارة الآتية من الشرق . وهناك قليل من الشك في أن تجار المسلمين الذين استوطنوا هنا ، هم الذين أدخلوا الإسلام إلى هذه البلاد<sup>(٥)</sup> . وتعزو أخبار مؤرخي

Canne, p. 510. (١)

Marsden, p. 301. (٢)

Niemann, pp. 356-9. (٣)

J. H. Moor, p. 255. (٤)

(٥) منذ أبل هؤلاه المنود ، ونحن نتبرم عربا فرسا ، والجورجياتيون ( الذين استفروا في البلاد بسبب التجارة ) قد قام

نفر منهم بتحويلنا إلى دين محمد . ولما كان نفر من أهل البلاد هنا قد أقبلوا على هذا الدين ، لم يلبث هذا ، الوباء الجهنى ..

أن وصل إل ملقا . (De Barros, Dec. ii. Liv vi cap. i. p. 15.)

الملايو عن ملقا تحول هذه المملكة إلى الإسلام إلى عهد أحد ملوكها وهو سلطان محمد شاه، وكان قد اعتلى العرش سنة ١٢٧٦ م. وقد قيل إنه حكم هذه البلاد سنوات قليلة، قبل أن ترسو سفينة بقيادة سيدي عبد العزيز إلى شواطئ ملقا آتية من جدة، وأن هؤلاء القادمين قد أقنعوا الملك بتغيير عقيدته وترك اسمه الوطني، وقد اتخذ لنفسه اسما يحمل اسم النبي<sup>(١)</sup>. ولكن طابع هذه الوثيقة التاريخية العام يجعل الثقة بها والاطمئنان إلى صحتها موضع شك إلى حد بعيد<sup>(٢)</sup>، على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون تاريخ حادثة هامة كذلك الحادثة، قد يكون موضع ملاحظة دقيقة (كما حدث ذلك في جهات كثيرة من أرخبيل الملايو) من شعب يعتز بذكر الحادثة، وبعدها فاتحة عهد جديد في تاريخهم. ويذكر مؤرخ برتغالي تاريخا متأخرا عن ذلك التاريخ ويقول إنه حدث في سنة ١٣٨٤، كما يقول إنه كان قاضيا، قدم من بلاد العرب في هذه السنة، وبعد أن حول الملك إلى الإسلام، سماه محمدا أسوة بالنبي وأضاف كلمة شاه إلى اسمه<sup>(٣)</sup>.

وفي أخبار قويدة، وهي إحدى ولايات شبه جزيرة الملايو، في أقصى الشمال، رواية عجيبية وصلت إلينا عن دخول الإسلام إلى هذه المملكة، حول سنة ١٥٠١ م<sup>(٤)</sup>، واليك هذه الرواية (وقد حذفنا منها بعض حوادث من خوارق العادات) : قدم عالم عربي يدعى الشيخ عبد الله، إلى قويدة، وزار الراجة، وسأل عن ديانة البلاد، فأجاب الراجة ديني ودين رعيتي كلها، هو الذي وصل إلينا من الشعب القديم. إننا جميعا نعبد الأصنام. فقال الشيخ: إذن أما سمعتم جلاتكم قط شيئا عن الإسلام، والقرآن الذي أنزله الله على محمد، ونسخ به كل الديانات الأخرى، وتركها في حوزة الشيطان؟ فقال الراجة: إذن أرجو منك، إن كان حقا ما تقول، أن تعلمنا هذا الدين الجديد، وتهدينا بنوره. وتهلل الشيخ عبد الله تهلل الحاسة المقدسة لسؤال الراجة إياه هذا السؤال، واحتضن الشيخ الراجة، ثم فقه في الدين. ولما اقتنع الراجة بتعاليم الشيخ، أرسل في طلب آنية الأرواح (التي طالما عكف عليها) وأفرغ ما فيها على الأرض يديه. بعد ذلك أمر أن تحضر كل الأصنام التي في قصره، فجمعت بين يديه أكوام من أصنام الذهب والفضة والطين والخشب، وكسرها الشيخ عبد الله قطعاً بسيفه وبفأس، وأحرقت الأجزاء في النار. وطلب الشيخ إلى الراجة أن يجمع كل نساء القلعة والقصر. فلما قدمن جميعا في حضرة الراجة والشيخ، تلعبن عقائد الإسلام. وكان الشيخ مهذبا لطيف المعشر، كما كان جذابا رقيقا في لغته، حتى إنه جذب إليه قلوب ساكني القصر. ولم يلبث الراجة أن أرسل في طلب وزرائه الأربعة المسنين. ولما دخلوا الباب،

(١) Aristide Marre : Malaka. Histoire des rois malays des Malaka.

Traduit et extrait du Livre des Annales malayes, intitulé en arabe Salâlet al Selâtyn, p. 8. (Paris, 1874.)

Crawford (1), pp. 241-2. (٢)

De Barros, Dec. iv. Liv. ii. Cap. 1. (٣)

(٤) تصدق باربوسا Barbosa فيما كتبه سنة ١٥١٦، عن تجار مسلمين كثيرين، كانوا يختلفون إلى ميناء قويدة.

(Ramusio, tom. i. p. 317.)

استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخا يجلس إلى جوار الراجة . فأبان لهم الراجة المهمة التي جاء من أجلها هذا الشيخ . وعندئذ أظهر الزعماء الأربعة استعدادهم للاقتداء بجلالته ، وقالوا : « إننا نأمل أن يعلننا الشيخ عبد الله كذلك » . ولما سمع هذا الأخير هذه الكلمات ، احتضنهم ، وقال لهم إنه يأمل ، لكي يبرهنوا على إخلاصهم ، أن يستدعوا شعبهم بأسره إلى بهو الاستقبال ، ويحضروا معهم كل الأصنام التي تعودوا أن يعبدوها ، والأصنام التي انتهت إليهم عن طريق آباؤهم الأولين . وأجيب الشيخ إلى طلبه ، وأحضرت في الوقت المحدد كل الأصنام التي كان الشعب يحتفظ بها ، وهناك حطمت وحرقت وأصبحت رمادا تذروه الريح . ولم بأسف واحد منهم على ما أصاب آلهتهم الزائفة من الخراب والدمار ، وكانوا جميعا فرحين مستبشرين بدخولهم في حظيرة الإسلام . ثم سأل الشيخ عبد الله الوزراء الأربعة : « ما اسم أميركم ؟ » قالوا : « اسمه برا أونج مهاوانجسا » . قال الشيخ : « فدعونا نستبدل باسمه اسما بلغة الإسلام » . وبعد تبادل الرأي ، طلب الراجة نفسه أن يحول اسمه إلى السلطان مُزلف الشاه ، لأن الشيخ قد أكد أنه اسم مشهور وأنه ورد في القرآن (١) .

والآن بنى الراجة المساجد في البقاع الآهلة بالسكان ، وأمر بأن يُسلح بكل مسجد أربعة وأربعون شخصا على الأقل من السكان ، على أن يكونوا جماعة تقيم في المسجد وتعكف على العبادة ، لأن أي عدد أقل من ذلك قد يكون غير كاف لتأدية الواجبات الدينية . ومن ثم بنيت المساجد ، وألحقت بها طبول كبيرة تُدق لدعوة الناس إلى صلاة الجمع . وظل الشيخ عبد الله ، وقتا ما ، يفتق الناس في الدين ، واثالوا عليه من جميع سواحل قويدة ومقاطعاتها وما جاورها ، وتعلموا على يديه صيغ الإسلام وشعائره .

وقد وصلت أخبار تحول سكان قويدة إلى الإسلام على يد الشيخ عبد الله ، إلى أئجه ، فأرسل إليهم سلطان هذه البلاد ، ورجل يدعى الشيخ نور الدين ، وهو داع عربي ، كان قد قدم من مكة ، بعض كتب ، ورسالة ؛ وهذا نص الرسالة : - « هذه الرسالة من سلطان أئجه ونور الدين إلى أئجينا سلطان قويدة والشيخ عبد الله العيني الذي يقيم الآن في قويدة . أرسلنا إليكم كتابين من كتب الدين ، حتى تتأكد دعائم العقيدة الإسلامية ، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعليما كاملا » . وأرسل الراجة والشيخ عبد الله رسالة بردان فيها على هذه الرسالة ، ويشكرانها على ما أنعم به عليهما . ومن ثم ضاعف الشيخ عبد الله جهوده وبنى زوايا في كل القرى على اختلافها بالإضافة إلى ما فيها من المساجد ، ليكون الانتفاع عاما ، وعلم الناس كل أحكام الدين وشعائره . وكان الراجة وزوجته ملازمين للشيخ ، يتعلمان قرآنة القرآن . وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ . ولكن لم يرغب أحد في أن يهب ابنته زوجة للشيخ ، لأن هذا الرجل المقدس كان يوشك أن يعود إلى بغداد ، وأنه كان لا ينتظر إلا أن يفرغ من تعليم شخص تعليما كافيا يقوم مقامه بعد مغادرته البلاد . وكان للسلطان في ذلك الحين ثلاثة أولاد : راجه معظم شاه ، وراجه محمد شاه ، وراجه سليمان شاه ؛ وهذه الأسماء كان الشيخ عبد الله قد أخذها

(١) مزلف لم ترد في القرآن بهذه الصيغة ، وربما كانت الإشارة إلى قوله تعالى ( سورة ٣٦ آية ٩٠ ) : وأزلقت الجنة للفتين

من القرآن ، وخلعها على هؤلاء الأمراء الذين أسدى هذا الشيخ النصح إليهم بأن يصطنعوا الصبر والأناة ،  
وأن لا يسرع إليهم الغضب في معاشرتهم عبيدهم والطبقات الدنيا ، وأن ينظروا بعين الشفقة والعطف إلى  
عباد الله أجمعين ، وإلى الفقراء والمعوزين<sup>(١)</sup> .

ولا يزعم زاعم أن أعمال الشيخ عبد الله قد كلت بنجاح تام ؛ لأننا نعلم من أخبار أنجييه أن أحد سلاطين  
هذه البلاد ، وكان قد غزا قويدة في سنة ١٦٤٩ ، قد نصب نفسه ، لأن يؤسس الإسلام في البلاد تأسيسا  
أقوى ثباتا ، ويخرب معابد الليار Liar ، أى هياكل الأصنام<sup>(٢)</sup> . وعلى ذلك ، كان قد مضى قرن ونصف  
قرن قبل أن تستأصل شأفة الوثنية من هذه البلاد .

وليس لدينا أخبار أخرى مفصلة في تاريخ تحول أهالي شبه جزيرة الملايو إلى الإسلام ، ولكننا نجد  
في أماكن كثيرة أضرحة دعاة العرب الذين كانوا أول من دعوا بينهم إلى هذه العقيدة ، تلقى من هؤلاء الناس  
تعظيما<sup>(٣)</sup> . وقد أدت معاشرتهم الطويلة للعرب ومسلمي ساحل الهند الشرقى إلى جعلهم محافظين شديدي التمسك  
بفروض دينهم ، واشتهروا بين الناس بأنهم خير من يقتدى به من مسلمي الأرخييل . كما أدى اتصاهاهم  
المستمر بالهندوكيين والبوذيين والمسيحيين والوثنيين من سكان بلادهم ، إلى جعلهم في الوقت نفسه على  
جانب من التساهل والتساح . وهم شديدي التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج إلى مكة .  
ويرون دائما أن المنافع الدينية التي ينالها الناس ، إنما هي في الوقت نفسه ، سعادة دينوية لهم . وإذا وجدوا  
قرية بها أكثر من أربعين منزلا ، ورأوا أن سعتها تستلزم تنظيمها وتعيين موظفين دائمين للقرية ، جعلوا  
من بين أفراد هؤلاء الموظفين داعيا يعظ الناس في الدين . وقد بنوا بطريقة رسمية مسجدا وأسسوه<sup>(٤)</sup> .

وفي الشمال ، حيث تتاخم ولايات الملايو منطقة سيام ، أثر الإسلام تأثيرا لا بأس به بين أهالي سيام  
من البوذيين . ويطلق على من دخلوا في الإسلام منهم السمس Samsams ، وهم يتكلمون لغة هي رطانة  
مزيجة من لغتي الشعبين جميعا<sup>(٥)</sup> . كذلك أدخل في الإسلام فريق من بين القبائل المتوحشة في شبه الجزيرة<sup>(٦)</sup> .  
وإن تاريخ انتشار الإسلام في الهند الصينية يحوطه الغموض والإبهام . ولا يبعد أن يكون تجار العرب  
والفرس قد أدخلوا دينهم إلى المدن الساحلية منذ القرن العاشر ، ولكن يعزى أهم توسع لهذا الدين إلى  
هجرات أهل الملايو التي بدأت في نهاية القرن الرابع عشر<sup>(٧)</sup> .

A translation of the Keddah Annals, by Lieut.-Col. James Low, vol. (١)  
iii, pp. 474-7.

Id. p. 480. (٢)

Newbold, vol. i. p. 252. (٣)

Mc Nair, pp. 226-9. (٤)

J. H. Moor, p. 242. (٥)

Newbold, vol. ii. pp. 106, 396. (٦)

R. du M. M., tome ii. (1907), pp. 137-8. (٧)

والآن ، يجب أن نرجع إلى وراء قرونا كثيرة ، لنتتبع تاريخ تحول جاوة إلى الإسلام . ولا شك أن الدعوة إلى مبادئ الإسلام وإذاعتها في أهالي هذه الجزيرة ، كانت كلها نتيجة لما قام به أفراد من التجار أو من زعماء الجاليات الصغيرة منذ وقت طويل ؛ فلم يكن في جاوة قوة إسلامية مركزية تشع آثارها في مصلحة الدين الجديد ، أو تفرض قبول هذا الدين بالوسائل الحربية . بل على العكس من ذلك ، أصبح دعاة المسلمين في هذه البلاد على ارتباط بالحضارة الهندوكية ، التي كانت قد تغلغلت أصولها في أعماق حياة تلك البلاد ، ورفعت الجاويين إلى مستوى عال من الثقافة والرفق ، ويظهر ذلك أكثر وضوحا في تلك النظم والقوانين التي تختلف عن نظم بلاد العرب وقوانينها اختلافا جوهريا . بل لقد أخفقت الشريعة الإسلامية ، إلى الآن ، في أن توطد دعائمها توطيدا كاملا ، حتى في الأماكن التي تغلب فيها سيطرة الإسلام . وهناك صراع دائم بين أنصار عادات الملايو القديمة ، وجماعة الحاجي ، الذين عادوا بعد أن أدوا فريضة الحج في مكة ، متحمسين متشدين في المحافظة على الشريعة الإسلامية . ومن ثم كان لا بد أن يخطو عمل التحول إلى الإسلام خطوات بطيئة جدا ، ويمكن أن نقول في تأكيد مقبول إنه في الوقت الذي نجد فيه أن من الممكن أن نخلص جانبا من تاريخ هذه الحركة التي قامت على نشر تعاليم الدعوة مما شابه من الأساطير والتقاليد ، نرى لزاما أن يبقى كثير من هذا التاريخ مجهولا لدينا جهلا تاما . ونجد في أخبار الملايو ، التي نفيدها فيما تمدنا به من وصف لأول الداعين إلى هذا الدين ، أن ما كان يدخل ، من غير شك في عمل أجيال كثيرة ، وما كان يجب أن يستمر في خلال قرون شتى ، نراه ينحصر في نطاق سنوات قليلة ؛ وتكتسب أسماء قليلة معروفة ، كما يحدث غالبا في التواريخ الشعبية ، الشهرة والثقة ، وهي في الحقيقة ترجع إلى ما قام به أسلافهم المجهولون من أعمال قوامها الصبر والآناة<sup>(١)</sup> . زد على ذلك أن الأعمال الهادئة العفة التي قام بها كثير من هؤلاء الدعاة ، لم تكن على الأرجح لتسترعى انتباه المؤرخ الذي كان بطبيعة الحال يصوب عنايته أولا وقبل كل شيء إلى أعمال الملوك والأمراء ومن كان على صلة وثيقة بهم . ونحن إذ نفقد مثل تلك المعرفة العظمى ، لا مفر من أن نرضى بتلك الحقائق التي وصلت إلينا .

لذلك نرى أن نورد في الصفحات التالية ، صورة موجزة عن تأسيس الدين الإسلامي في هذه الجزيرة ، كما تصورها الأخبار القومية التي لا شك أنها ، على الرغم من أنها ملأى بالتناقض والحرافات ، تقوم على أساس تاريخي ؛ وبدلنا على ذلك ما نقش على مقابر الشخصيات الهامة التي ذكرت في هذه الأخبار ، وعلى آثار المدن القديمة ونحو ذلك . لهذا لا بأس من أن نقبل الأخبار الآتية ، مع افتقارها إلى دليل يثبت صحتها ، على أنها صحيحة في جوهرها ، على أن نأخذ الحذر الذي سبقت الإشارة إليه ، من نسبة آثار فائقة مفرطة إلى جهود أفراد في نشر تعاليم الدعوة .

كان أول من قام بالمحاولة الأولى لإدخال الإسلام إلى جاوة ، رجل من أهالي هذه الجزيرة حول نهاية القرن الثاني عشر . وقد ترك أول ملوك باجاجاران Pajajaran ، وهي ولاية في الجهة الغربية من الجزيرة ،

ولدين : أما أكبرهما فقد آثر أن يزاول التجارة ، وبأشر بعثة تجارية ذاهبة إلى بلاد الهند ، تاركا أخاه الأصغر الذي خلفه على العرش في سنة ١١٩٠ ، وتلقب بلقب پرابو موندنج ساري Prabu Munding Sari . وفي أثناء تطواف ذلك الابن الأكبر ، لقي بعض تجار العرب ، فدخل في الإسلام على أيديهم ، واتخذ لنفسه اسم حاجي پُروا .

ولما عاد إلى وطنه ، حاول بمعونة أحد دعاة العرب أن يدخل أخاه والأسرة المالكة في دينه الجديد . ولكن جهوده لم تصادف نجاحا ، فهرب إلى الأدغال خوفا من الملك ورعاياه الكفار ، ولم نسمع عنه شيئا بعد ذلك (١) .

وفي النصف الأخير من القرن الرابع ، تكوّنت حركة للدعوة ، نالت نجاحا أعظم ، على يد شخص يدعى مولانا مسلك إبراهيم ، وقد رسا على ساحل جاوة الشرقي مع إخوانه في الدين ، واستقر قريبا من بلدة جريسك Gresik ، وهي قبالة جزيرة مادورة . ويقال إنه كان يُرجع نسبه إلى زين العابدين أحد أبناء أحفاد علي ، وإنه كان ابن عم راجه تشرمن Chermen (٢) . وهنا شغل نفسه في القيام بتحويل الناس إلى الإسلام وأحرز نجاحا في هذه السبيل ؛ وسرعان ما جمع حوله فئة قليلة من المؤمنين . وأخيرا اتصل بابن عمه ، راجه تشرمن الذي قدم إلى هذه البلاد أملا في أن يحول راجه مملكة ماجاهايت Majapahit الهندوكي إلى الإسلام وأن يعقد معه حلفا بعرض زواج ابنته عليه . فلما وصل أرسل ابنه ، صادق محمد ، إلى ماجاهايت ليحدد وقتا للمقابلة ، على حين شغل هو نفسه ببناء مسجد وتحويل السكان إلى الإسلام . وكان من أثر ذلك أن تمت مقابلة الأميرين ، ولكن قبل أن يتمكن من موالة ذلك التأثير الذي بلغوه في ذلك الحين ، تفشى مرض بين شعب راجه تشرمن ، ففضى على ابنته ، وثلاثة من أبناء أخيه ، كان قد صحبهم معه ، وفريقا عظيما من رجال حاشيته ؛ ومن ثم عاد هو إلى مملكته . وقد جعلت هذه الكوارث عقلية راجه ماجاهايت تتحامل على هذا الدين الجديد ، الذي كان ينبغي ، كما قال هذا الراجه ، أن يكون من الأصوب حماية معتنقيه . وكان من أثر ذلك أن أخفقت البعثة . على أن مولانا إبراهيم تخلّف ، ليتعهد مقابر (٣) ذويه وإخوانه في الدين ، أما هو فقد قضى نحبه بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة ، وذلك سنة ١٤١٩ ، ودفن في جريسك حيث لا يزال المسلمون يعظمون قبره ويعدونّه أول رسل الإسلام إلى جاوه .

ويذكر أحد مسلمي الصين ، وكان قد صحب سفارة إمبراطور الصين إلى جاوة في وظيفة مترجم ،

(١) Veth (3) vol. 1. p. 215. Raffles (ed. of 1830), vol. ii. pp. 103, 104, 183.

(٢) موقع تشرمن غير محقق ؛ ويظن فيك Veth (3), vol. i. p. 230 أن من الممكن أن يكون في بلاد الهند ؛ ولكن روفانير Rouffaer (p. 115 n) يورد أسبابا جيدة لتدليل على أن هذا البلد يقع في سومطرة .

(٣) وقد أورد J. F. G. Brumund من ١٨٥ وصفا للجمالة الرائعة لتلك المقابر ، ولا يزال يرى على واحدة منها

آثار نقش مكتوب بحروف عربية .

قبل موت مولانا إبراهيم بست سنوات ، أى فى سنة ١٤١٣ ، قدوم إخوانه فى الدين فى هذه الجزيرة تحت عنوان « وصف عام لسواحل المحيط » ، حيث يقول : « فى هذه البلاد ثلاثة أنواع من الشعب : الأول المسلمون الذين جاؤوا من الغرب واستقروا هنا ؛ وزيهم وطعامهم نظيف مناسب . والثانى الصيغون الذين هربوا واستوطنوا هنا ، وما يأكلون ويستخدمون بديع جدا كذلك ، وكثير منهم قد اعتقدوا الدين الإسلامى وحافظوا على تعاليمه . والثالث الأهالى الذين على جانب عظيم من القبح والفظاظة ، وهم يبيئون ويذهبون حفاة حاسرى الروس ، ويعتقدون فى الشياطين فى خشوع وتبتل . ولكون بلادهم معروفة بذلك أطلق عليها فى كتب البوذيه بلاد الشيطان<sup>(١)</sup> . »

والآن نفترب من الفترة التى أصبح فيها لحكم المسلمين السيادة فى الجزيرة ، بعد أن تسرب دينهم إليها بما يقرب من قرن . وهنا نرى لزاما أن ندخل فى تفصيلات التاريخ ، على نحو أكثر دقة نوعا ما ، لكي نبين أن ذلك لم يكن نتيجة أية حركة قوامها التعصب الدينى ، أثارها العرب ، بل نتيجة ثورة قام بها أهالى البلاد أنفسهم<sup>(٢)</sup> ، الذين (مع أنهم بطبيعة الحال اكتسبوا القوة من وراء ارتباطهم برباط دين مشترك) حرضوا على أن يجمعوا كلهم لينزعوا السلطة العليا من أيدي مساكينهم الوثنيين ، لا بالدعوة إلى حرب دينية ، ولكن عن طريق ما وجهه أحد المطالبين بالعرش من الطامحين ، وكان قد لحقه ظلم ، من تحذير وإنذار ، فأراد التشفى والانتقام<sup>(٣)</sup> .

ونستطيع أن نصف الحالة السياسية فى الجزيرة كما يلى : - كانت الإمارات الوسطى والشرقية من الجزيرة ، وكانت أكثر الإمارات ثروة وعمرانا ، وأبعدها تقدما نحو المدينة ، تحت سلطان دولة ماجاباهيت الهندوكية . وفى أقصى الغرب ، نجد تشريبون Cheribon وإمارات أخرى كثيرة ، صغيرة مستقلة ؛ حين كان سائر الجزيرة ، ويشمل كل المقاطعات الواقعة فى أقصى حدودها الغربية ، خاضعا لملك باجاجاران .

كان ملك ماجاباهيت قد تزوج من ابنة أمير تشامبا Champa ، وهى ولاية صغيرة فى كامبوديا شرقى خليج سيام<sup>(٤)</sup> . ولما كانت تغار من إحدى جوارى الملك الحظيات ، بعث الملك بهذه الجارية إلى ابنه آريه دمر Arya Damar حاكم بالمبنج Palembang فى سومطرة حيث أنجبت منه ابنا اسمه رادن پناه Raden Patah ، وقد رُبي على أنه أحد أبناء الحاكم . وقد قدر لهذا الطفل بعد سنوات ( كما سنرى ) أن يقدم على انتقام فظيع من جراء المعاملة القاسية التى لقيها من أمه . وكانت بنت أخرى من

Groeneveldt, pp. vii. 49-50. (١)

Kern, p. 21. (٢)

Veth (3), vol. i. pp. 233-42. Raffles, vol. ii. pp. 113-33. (٣)

(٤) على أن دو قانير يضع تشامبا هذه ، لا فى كيرديا ولكن على ساحل أعجم الشمال ، ويذكر أنها هى جومبا Djeumpa الحديثة.

(Encyclopaedie van N.-J., vol. iv. p. 206.)

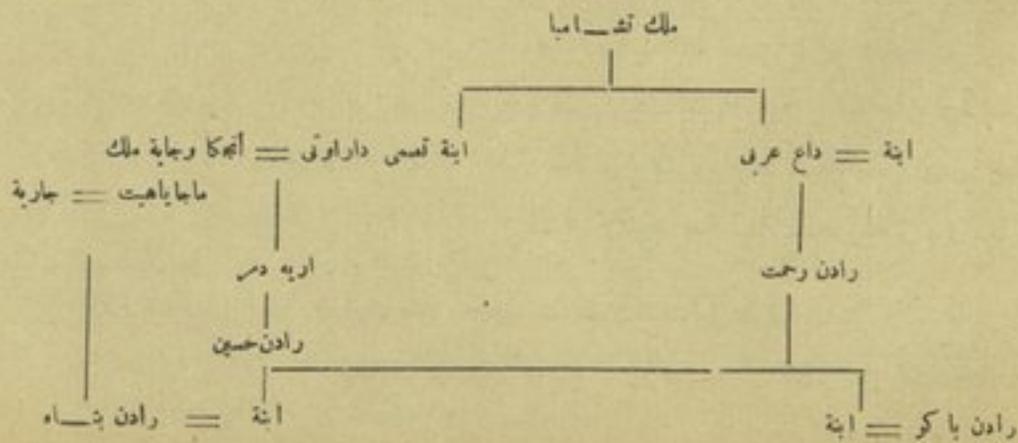
بنات أمير تشامبا قد تزوجت من عربي كان قد قدم إلى تشامبا للدعوة إلى الإسلام<sup>(١)</sup>. ومن هذا الزواج ، ولد رادن رحمت Raden Rahmat الذي اعتنى والده بتربيته على الدين الإسلامي ، ولا يزال الجاويون يعظمونه باعتباره أعظم رسل الإسلام إلى بلادهم<sup>(٢)</sup> . ولما بلغ العشرين من عمره ، بعث به أبواه ومعه رسائل وهدايا إلى عمه ملك ماجاباهيت . وفي طريقه ، مكث شهرين في بالمبنج ، ضيفا على أريه دمر الذي كاد أن يقنعه رادن رحمت اعتقاد الإسلام ، إلا أنه لم يجسر على أن يجهر بإسلامه خوفا من الشعب الذي كان متمسكا أشد التمسك بتقاليدته القديمة . وواصل رحلته حتى بلغ جريسك حيث رحب به أحد دعاة العرب ، واسمه الشيخ مولانا جمدادى الكبرى . باعتباره رسول الإسلام المنتظر إلى جاوة الشرقية ، وتنبأ بأن يكون زوال الوثنية على يديه ، وبأن أعماله ستكلل بدخول كثير من الناس في هذا الدين . وقد قوبل في ماجاباهيت بترحاب عظيم ، من ملك تشامبا وأميرتها . وعلى الرغم من أن الملك كان نفسه غير راغب في الدخول في الإسلام ، حمل رادن رحمت مودة واحتراما ، حتى إنه عينه حاكما على ثلاثة آلاف أسرة في أمپل Ampel على الساحل الشرقي ، على مقربة من جريسك إلى الجنوب . وسمح له بأن يقيم شعائره الدينية ، وأن يدخل من يشاء في الإسلام . وبعد وقت قصير ، جذب إلى الإسلام معظم هؤلاء الذين كانوا تحت سلطته .

ومنذ ذلك الحين ، كانت أمپل مقر الإسلام الرئيس في جاوه ، وذاعت شهرة الحاكم الذي كان يعمل في حماسة بالغة للدعوة إلى دينه ، وطبقت شهرته الآفاق . ومن ثم قدم إلى أمپل شخص يدعى مولانا إسحاق ، لئيد له يد المساعدة في تحويل الناس إلى هذا الدين ، وعهد إليه في مهمة نشر الإسلام في مملكة بلبينجن Balambangan في أقصى الحدود الشرقية لهذه الجزيرة . وهنا شفى ابنة الملك التي كانت مصابة بمرض عضال ، فوهبها أبوها البار زوجة لهذا الشيخ . واعتقدت دين الإسلام وتعمست له ، وأباح أبوها لنفسه أن يتلقى تعاليم الإسلام ، ولكنه حين حثه مولانا على أن يجهر بهذا الدين ، كما كان قد وعده ذلك إذا

(١) لا تزال بقايا المآذن والمقابر الإسلامية ماثلة في تشامبا .

(Bastian, vol. i. pp. 498-9.)

(٢) ووضح جدول الأنساب الآتي صلات القرابة هذه ، كما أشير في نصوص هذا الكتاب : إلى قرابات أخرى فيما بعد .



شفيت ابنته على يديه ، طرده من مملكته ، وأمر بأن يقتل الطفل الذي كانت بنته توشك أن تضعه . ولكن  
الأم بعثت بالطفل خفية إلى جريسيك إلى أرملة مسلمة غنية<sup>(١)</sup> ، فربته كأحسن ما تربي الأم ابنا ، وعلمته  
حتى بلغ الثانية عشرة من عمره ، فأسلته إلى رادن رحمت ليتعمده ويرعاه . وبعد أن عرف قصة هذا الطفل ،  
سماه رادن باكو ، وبعد وقت ، زوجه من ابنته كذلك . بعد ذلك بنى رادن باكو مسجدا في جيري Giri  
في الجنوب الغربي من جريسيك ، حيث أدخل في الدين آلافا من الناس . وبلغ من عظم نفوذه أن عينه  
ملك ماجاباهيت ، بعد وفاة رادن رحمت . حاكما على أميل وجريسيك<sup>(٢)</sup> . وفي هذه الأثناء ، تألفت بعوث  
دينية كثيرة من جريسيك . واستقر ولد رادن رحمت من جهات شتى من الساحل الشمالي الشرقي ، وذاعت  
شهرتهم بفضل حماسهم الدينية ، وإدخال كثير من سكان هذه الجهات في الإسلام . كذلك أرسل رادن  
رحمت داعيا ، يدعى الشيخ خليفة حسين ، إلى جزيرة مادورة المجاورة ، حيث بنى مسجدا وكسب كثيرا من  
الناس للإسلام .

والآن نرجع إلى أريه دمر ، حاكم بالمبنج ( انظر ص ٣١٨ ) . ويظهر أنه ربي أبناءه على الدين الذي  
خشى هو أن يجهر به ، وحينذاك أرسل رادن پناه . عندما بلغ العشرين من عمره ، مع أخيه في الرضاة ،  
رادن حسين ، وكان أصغر منه بسنتين ، إلى جاوة حيث نزلا في جريسيك . ورفض رادن پناه أن يصحب  
أخاه في الرضاة إلى ماجاباهيت ، لأنه كان يعلم تمام العلم منبته ونسبه ، ساخطا على المعاملة القاسية التي  
كانت أمه قد لقيتها ، ولكنه بقي في أميل مع رادن رحمت ، على حين واصل رادن حسين سفره إلى الحاضرة  
حيث احتفى به ، ووكل إليه أمر مقاطعة من المقاطعات ، وأصبح فيما بعد قائد الجيش .

في هذه الأثناء ، تزوج رادن پناه من حفيدة رادن رحمت ، وكون مؤسسة في مكان يدعى بنتره Bintara .  
وكان يتميز بقوته الطبيعية العظيمة ، في وسط بقعة مائة بالآجام ، غربي جريسيك . ولم يكذب يسمع ملك  
ماجاباهيت عن هذه الجالية الجديدة ، حتى بعث برادن حسين إلى أخيه يستقدمه إلى الحاضرة ، ويطلب إليه  
تقديم الطاعة للملك . وقد حمه رادن حسين على أن يفعل ذلك ، فذهب إلى البلاط حيث فطن الناس في الحال  
إلى مشابهته الملك ، وحيث قوبل بترحاب ، وعين رسميا حاكما على بنتره . ولما كان لا يزال يتحرق إلى الانتقام  
ويجئ إلى تخريب مملكة والده ، عاد إلى أميل ، حيث أفضى بخططه إلى رادن رحمت . وحاول هذا الأخير  
أن يطفئ من غضبه ، مذكرا إياه أنه لم يلق قط على يدي أبيه ملك ماجاباهيت ، إلا كل لطف ورعاية ، وأنه  
في الوقت الذي كان فيه الأمير على جانب عظيم من العدل واكتساب محبة الناس ، أبي عليه دينه أن يعلن  
حربا أو يلحق به أذى بحال من الأحوال . على أن پناه لم يقتنع بتلك النصائح ( كما يتضح ذلك فيما بعد ) ،  
فعاد إلى بنتره ، وكانت في ذلك الحين تزداد أهميتها ويكثر سكانها يوما بعد يوم ، على حين كانت جماعات  
كبيرة من الأهالي في البلاد المحيطة تدخل في الإسلام . وكان قد وضع خطة لبناء مسجد عظيم ؛ ولكن بعد

(١) يحفظ الجاويون ذكرى هذه المرأة في شرف عظيم ، وكثير منهم يقدون للعلاء على ضربيها . انظر

أن بدأ بناء هذا المسجد بوقت قصير ، وصلت الأخبار بأن رادن رحمت قد أصيب بداء عيام . فأسرع رادن ببناءه إلى أميل ، حيث ألقى رؤساء الدعوة إلى الإسلام يجتمعون حول فراشه ، وينظرون إليه باعتباره زعيما لهم . وكان من بينهم ولدا رادن رحمت ، وقد تقدم ذكرهما (ص ٣١٩) ، ورادن باكو الذي كان يقيم في جيوري ، وخمسة أشخاص آخرين . ولفظ رادن رحمت نفسه الأخير بعد أيام قليلة ، فزالت بذلك العقبة الوحيدة الباقية التي كانت تقف في سبيل خطط رادن ببناء الانتقامية ، وصحبه الزعماء الثمانية عائدتين إلى بنتره حيث أعانوه على تمة بناء المسجد<sup>(١)</sup> . وتماطوا بينهم ميثاقا غليظا على أن يساعده في محاولته ضد ماجاباهيت . وارتبط الأمراء المسلمون جميعا بهذا الحلف ، عدا رادن حسين الذي ظل مخلصا لسيده هو وأتباعه جميعا ، وأبى أن يدلي بدلوه مع إخوانه في الدين الثائرين .

وتبع ذلك حملة طويلة الأمد ، لا حاجة بنا إلى الدخول في تفصيلاتها ، ولكن في سنة ١٤٧٨م<sup>(٢)</sup> ، بعد أن نشب قتال مستمر دام سبعة أيام ، هُزم ماجاباهيت ، وحلت السلطة الإسلامية محل السيادة الهندوكية في جاوة الشرقية . وبعد ذلك بوقت قصير ، حوَّصر رادن حسين وأتباعه في مكان حصين ، واضطر إلى التسليم ، وسبق إلى أميل ، حيث قابله أخوه مقابلة لطيفة . وهرب عدد كبير من الذين ظلوا مخلصين لديانتهم الهندوكية القديمة في سنة ١٤٨١ إلى جزيرة بالي ، حيث لا تزال عبادة سيوه هي الديانة السائدة<sup>(٣)</sup> . ويظهر أن آخرين كونوا بمالك صغيرة بقيادة أمراء بيت ماجاباهيت الذي ظل وقتا ما على وثنيته ، بعد أن سقطت قاعدة الهندوكيين الكبيرة .

ولقد ظل أهالي جاوة الوسطى على وثنيتهم وقتنا طويلا . حتى في ظل رؤساء المسلمين ، وكان تقدم الإسلام نحو الجنوب من المراكر الأولى للدعوة على الساحل الشمالي نتيجة عمل قرون . ويتجلى بوضوح تأثير عقيدتهم الهندوكية القديمة حتى الوقت الحاضر ، في الأفكار الدينية لأهالي جاوة الوسطى من المسلمين .

(١) لا يزال هذا المسجد قائما ، وينظر إليه الجاويون على أنه من أقدس الآثار في جزيرتهم .

(٢) ويبدو أن هنالك قليلا من الشك في أن هذا التاريخ مبكر جدا . وإن دراسة المصادر البرتغالية تشير إلى هذه النتيجة ، وهي أن ماجاباهيت لم يهزم إلا بعد ذلك الحين بأربعين سنة . (Rouffaer, p. 144.)

(٣) وقد قاوم شعب بالي ، حتى الوقت الحاضر ، معظم الجهود الحاسية التي بذلها المسلمون لحث هذا الشعب على قبول دين الإسلام ، على الرغم من دخول الناس في هذا الدين من حين إلى حين ، ومن تكوين جماعة إسلامية صغيرة من الأهالي يبلغ عددها نحو ٣٠٠٠ نفس ، من جملة السكان الذين يربو عددهم على ٨٦٢٠٠٠ نفس . وكان موقع الجزيرة الملائم للأهداف التجارية ، يجذب دائما إلى شواطئها عددا من الغريباء ، كانوا في أغلب الأحيان يتخلدون من الجزيرة مقرا ثابتا . وبينما نجد بعض هؤلاء الغريباء المستوطنين يحرصون دائما على أن يكونوا بمنأى من أهالي البلاد ، نرى آخرين منهم يتعاقدون معهم على الزواج ، وكان من أثر ذلك أن اندمجوا في جمود الأهالي . وإلى جهود هؤلاء ، يرجع الفضل فيما أحرزه الإسلام من هذا التقدم المؤكد ، وإن كان قدما بطيئا جدا . ويقال إن مسلمي بالي يؤلفون جماعة نشيطة مزدهرة ، زاخرة بالغيرة على ترقية دينهم ، تلك الجماعة التي تزخر - على الأقل - في جزيرتهم الوثنيين ، على الرغم من أن هذه الجماعة لم تصادف نجاحا في إقناعهم ببلد طعامهم الحبيب وهو لحم الخنزير ، من أجل عبادة الله .

(Lieftrinck, pp. 241-3.)

ومن الأدلة الواضحة على تلك الجذور العميقة التي ألفتها الديانة الهندوكية في هذه الجهة من الجزيرة ، تلك الحقيقة ، وهي أن الرجوع إلى كتب القوانين الهندية وبمجموعة قوانين مانو بوجه خاص ، لم يدعن أمام مجموعة القوانين التي كانت أكثر نمشياً مع روح التشريع الإسلامي ، إلا في سنة ١٧٦٨ (١) .

دخل الإسلام إلى الجهات الشرقية من الجزيرة بعد ذلك بستوات قلائل ، وربما كان ذلك في أوائل القرن التالي ، بسبب نشاط الدعوة الذي أظهره الشيخ نور الدين إبراهيم أحد أهالي تشريون . وقد كسب لنفسه شهرة عظيمة لسفائه امرأة كانت مصابة بالجذام . وكان من أثر ذلك أن آلافاً من الناس جاءوا إليه ليتعلموا شعار الدين الجديد . وقد حاول من جاوره من الزعماء أن يناهضوا هذه الحركة أول الأمر ، ولكنهم لما وجدوا أن معارضتهم لا طائل تحتها سمحوا لأنفسهم أن يجسروا مع التيار ، ودخل كثير منهم في الإسلام (٢) . وأرسل الشيخ نور الدين إبراهيم للتشريبيون ، ابنه مولانا حسن الدين ، يدعو إلى الإسلام في بننام ، أكثر ولايات الجزيرة انحرافاً نحو الغرب ، وإحدى ملحقات مملكة باجاجاران الوثنية . وهنا تكلفت جهوده بنجاح عظيم ، بين الداخلين في الإسلام الذين كانوا طائفة من النساك ، يبلغ عددهم ٨٠٠ . وتذكر أخبار هذه الجهة من البلاد ، بنوع خاص ، أن الأمير الشاب قد كسب هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام على يديه ، بوسائل الإقناع اللطيفة وحدها ، وليس بحد السيف (٣) . بعد ذلك ذهب مع أبيه إلى مكة لتأدية فريضة الحج ، وعند عودته ، بسط نفوذه على ساحل سومطرة القريب من بلاده ، دون أن يمتشق سلاحاً ، واجتذب الذين دخلوا في الإسلام على يديه بالوسائل السلمية وحدها (٤) .

ولكن يظهر أن تقدم الإسلام غربى جاوة كان أبطأ بكثير منه في شرقها . فقد نبع ذلك أن قلم نزاع طويل بين عبّاد الإله سيوه وأتباع النبي ، ولا يبعد أن تكون مملكة باجاجاران الهندوكية ، التي يظهر أنها باشرت السيادة على الإمارات في الجهة الغربية من الجزيرة ، في وقت واحد من تاريخ جاوة ، لم تصل إلى نهايتها إلا في أواسط القرن السادس عشر (٥) ، على حين ظلت طوائف وثنية أخرى أقل عدداً ، باقية حتى عصر أحدث من ذلك بكثير (٦) — بل ظل بعضا حتى الوقت الحاضر . وإحدى هذه الطوائف ، وتسمى البدوى Baduwis ، تاريخ ذو أهمية خاصة . وهم ذرية قوم من أشياخ الدين القديم ، هربوا بعد سقوط باجاجاران إلى الغابات ومخابئ الجبال ليتمكنوا من موالاته إقامة شعار دين أجدادهم . وفي عصور أحدث من ذلك ، عندما أذعنوا لحكم سلطان بننام المسلم ، سمح لهم أن يواصلوا إقامة شعارهم الدينية ،

Encyclopaedie van N.-I., vol. ii. p. 523. (١)

Veth (3), vol. i. pp. 245, 284. (٢)

Raffles, vol. ii. p. 316. (٣)

Veth (3), vol. i. pp. 285-6. (٤)

Id. pp. 305, 318-9. (٥)

(٦) ويذكر رحلة كان في جاوة في سنة ١٥٩٦ مملكتين أو ثلاث ممالك وثنية ، يمكنها عدد كبير من الأمال الوثنيين .

(Niemann, p. 342)

على شريطة ألا يسمح لهم بزيادة الجماعات التي تجهر بالعبادة الوثنية<sup>(١)</sup>. ومن الغريب أن يقال إنهم لا يزالون يحافظون على هذه العادة ، على الرغم من أن الحكم الهولندي قد توطدت دعائمه في جاوة مدة طويلة ، وأنه محررهم من ضرورة الإذعان لما اتفقوا عليه منذ القدم . وهم يحددون عددهم تحديدا دقيقا ، بحيث لا يتجاوز أربعين أسرة ، فإذا زادت الجماعة على هذا الحد ، وجب على أسرة أو أكثر أن يتركوا النطاق الداخلي الذي يقيمون فيه ، ويستقروا بين الأهالي المسلمين في إحدى القرى المحيطة بهم<sup>(٢)</sup>.

ولكن على الرغم من أن عمل التحويل إلى الإسلام في غرب جاوة كان أبداً منه في سائر جهات الجزيرة ، كان انتصار الإسلام على العبادة الوثنية التي حل هذا الدين محلها ، أتم منه في المقاطعات التي كانت أسرع في الانضمام تحت حكم راجيات ماجاباهيت ؛ وإنما يرجع ذلك بنوع خاص ، إلى تلك الحقيقة ، وهي أن الديانة الهندوكية لم تكن قد تغلغلت بين الشعب في هذه البقعة ، كما تغلغلت في وسط الجزيرة . والشريعة الإسلامية هنا قوة حيوية ، كما أن الحضارة التي جلبت من بلاد العرب إلى هذه البلاد ، قد اتسقت مع الحكومة وحياة الشعب . وقد لاحظنا أن مسلمي غربي جاوة ، في الوقت الحاضر ، وهم الذين يدرسون ديانتهم دراسة تامة ، ويؤدون فريضة الحج في مكة يؤلفون في العادة ، أشد طبقات الأهالي نجابة ورفاهية<sup>(٣)</sup>. ولقد رأينا من قبل أن طوائف كبيرة من الجاويين ظلوا على وثنتهم قرونا بعد قيام الممالك الإسلامية في الجزيرة . وجميع أهالي جاوة في الوقت الحاضر مسلمون ، عدا قلة ليس لها شأن يذكر . ومع أن كثيرا من الخرافات والعادات قد بقي بينهم من أيام أجدادهم الوثنيين ، لا يزال الميل يتجه دائما إلى إرشاد التفكير والسلوك على هدى تعاليم الإسلام . وقد سارت جهود التحويل إلى الإسلام تلك المدة الطويلة قسما في هدوء وتدرج ، كما يرجع نمو الولايات الإسلامية في الجزيرة إلى تاريخها السياسي أكثر من أن يكون راجعا إلى تاريخها الديني . ذلك أن ما أحرزه الدين من تقدم كان نتيجة أعمال الدعاة أكثر من أن يكون نتيجة أعمال الأمراء .

وفي الوقت الذي كان مسلو جاوة يتآمرون على الحكومة الهندوكية ويضعون حكم البلاد في أيديهم بالقوة والعنف ، كانت تدبّر ثورة لا تحصل في طياتها إلا طابع الهدوء ، في سائر أجزاء الأرخيبيل ، عن طريق الدعوة إلى الإسلام التي قام بها الدعاة الذين كانوا يحروزون نجاحا بطيئا ، ولكنه كان مؤكدا ، فيما بذلوه من جهود في نشر تعاليم الدعوة . ولتوجه عنايتنا أولا إلى تاريخ حركة الدعاة هذه في جزائر ملوكس . ولا بد أن تكون تجارة القرنفل قد أدت إلى ارتباط أهل ملوكس بسكان الجزائر في النصف الغربي من الأرخيبيل منذ أزمان مبكرة جدا ، ونشر الجاويون الذين دخلوا في الإسلام ، وأهل الملايو الآخرون الذين قدموا إلى هذه الجزائر للتجارة ، دينهم بين سكان الساحل<sup>(٤)</sup> . ويرجع رفاق ماجلان Magellan هذا إلى قصة عجيبة ، عن الطريقة التي أدخل بها هؤلاء الرفاق عقائدهم الدينية بين أهالي ملوكس : بدأ ملوك

Raffles, vol. ii. pp. 132-3. (١)

Metzger, p. 279. (٢)

L. W. C. van den Berg (1), pp. 35-6. C. Poensen, pp. 3-8. (٣)

De Barros, Dec. iii. Liv. v. Cap. v. pp. 579-80. Argensola, p. II B. (٤)

هذه الجزائر<sup>(١)</sup>، قبل قدوم الأسبانيين بسنوات قليلة يعتقدون خلود الروح ، ولم يقتنعوا إلا بحجة واحدة ، وهي أنهم كانوا قد رأوا طائرا صغيرا رائع الجمال لا نظير له على الأرض ، ولا على أى شىء يتعلق بالأرض . وقد أخبرهم المسلمون الذين كانوا يزاولون التجارة في هذه الجزائر ، أن هذا الطائر الصغير ولد في الجنة ، وأن هذه الجنة هي المكان الذى تستريح فيه أرواح الموتى . ولهذا السبب ، انضم السادة إلى طائفة المسلمين لأنها تقدم أشياء كثيرة عجبية في هذا المكان الذى تستريح فيه الأرواح<sup>(٢)</sup> .

ويظهر أن الإسلام بدأ يجرى تقدما لأول مرة في هذه البقعة في القرن الخامس عشر . وقد أذن ملك تيدور الوثنى لما قدمه إليه عربى يدعى الشيخ منصور من إقناع ، واعتقد الإسلام مع كثير من رعاياه . وأبدل باسم الملك الوثنى ، تيجيريلى ليجاتو Tijireli Lijatu اسم جمال الدين ، كما سمي أكبر أبنائه منصورا على اسم معلمهم العربى<sup>(٣)</sup> . وكان هذا الأمير الأخير هو الذى أكرم وفادة البعثة الأسبانية التى وصلت إلى تيدور في سنة ١٥٢١ ، بعد أن لاقى بجلان حنفة المشوم بزمن قصير . ويسميه بيجافتا ، مؤرخ هذه البعثة ، باسم ريا سلطان موزور Raia Sultan Mauzor ، ويقول إن عمره كان يزيد على خمس وخمسين سنة ، وإنه لم يمض أكثر من خمسين سنة على قدوم المسلمين للإقامة في هذه الجزائر<sup>(٤)</sup> .

ويظهر أن الإسلام قد رسخت قدمه في جزيرة ترنات المجاورة قبل ذلك بوقت قصير . فقد أخبر سكان هذه الجزيرة البرتغاليين ، الذين قدموا إلى هذه الجزيرة في نفس السنة التى وصل فيها الأسبان إلى تيدور ، أن الإسلام كان قد دخل في بلادهم منذ أكثر من ثمانين سنة بزمن وجيز<sup>(٥)</sup> .

وبروى البرتغاليون كذلك<sup>(٦)</sup> ، أن سلطان ترنات كان أول زعماء ملوكس الذين أصبحوا مسلمين . وتحكى أسطورة دخول الإسلام إلى هذه الجزيرة كيف أثار أحد التجار ، ويدعى داتو ملاحين ، حب الاستطلاع في نفوس الشعب عند ما رأوه يتلو القرآن بصوت عال على مشهد منهم . وقد حاولوا تقليد

(١) في هذه الفترة ، كان أهل ملوكس في أغلب الأحيان ، في ظل حكم الأمراء الأربعة ، نعى بذلك أمراء ترنات Ternate وتيدور Tidore ، وجيلولو Gilolo وبانجان Batjan . وكان الأول أعظمهم نفوذا بكثير ، وامتدت مملكته إلى ترنات والجزائر الصغيرة المجاورة ، وجزء من هلباهيرا Halemahera ، وجانب عظيم من جزائر سليمان Celebes ، وأمبونا ، وبنده Banda . وبسط سلطان تيدور نفوذه على تيدور وبعض الجزائر الصغيرة المجاورة وجزء من هلبا هيرا ، والجزائر الواقعة بينها وبين غينا الجديدة ، ويقترن بذلك الساحل الغربى لغينا الجديدة ، وقسم من سرام Ceram . ويظهر أن أراضي سلطان جيلولو كانت تحصر في الجزء الأوسط من هلباهيرا وفي جزء من ساحل سرام الشمال . بينما حكم سلطان بانجان أجزاء أهمها بانجان ومجموعة أوبى .

(De Hollander, vol. i. p. 5)

Massimiliano Transilvano. (Ramusio, tom. i. p. 351 D.) (٢)

P. J. B. C. Robidé van der Aa, p. 18. (٣)

Pigafetta, tome i. pp. 365, 368. (٤)

(٥) «كلا تقدموا في البلاد أتبع لنا الوثنى تعلم من أهل البلاد سر هذه العقيدة ، وكانت قد دخلت البلاد منذ ثمانين سنة...»

J. de Barros : Da Asia, Dec. iii. Liv. v. Cap. v. p. 580.

Id. ib. (٦)

الحروف المكتوبة في المصحف ، ولكنهم عجزوا عن قراءتها ، فسألوا التاجر كيف تمكن من قراءتها ، على حين عجزوا هم عن أن يفعلوا ذلك . فأجاب أن من الواجب عليهم أولاً أن يؤمنوا بالله ورسوله . ومن ثم أعربوا عن رغبتهم في قبول تعاليمه ، وانتهوا إلى الدخول في العقيدة (١) . وقد قيل إن سلطان ترنات الذي تبوأ أرفع مكانة بين الحكام المستقلين في هذه الجزائر ، قام برحلة إلى جريسك في جاوة ، ليعتقد الدين الإسلامي هناك في سنة ١٤٩٥ (٢) . وقد ساعده فيما بذل من جهود لنشر الدعوة شخص يدعى باتي پُتاه Pati Putah ، وكان قد قام برحلة من هيتو في أمبونا إلى جاوة ليتعلم عقائد الدين الجديد ، وينشر معارف الإسلام بين شعب أمبونا بعد عودته (٣) . على أنه يظهر أن الإسلام لم يخط أول الأمر نحو التقدم إلا خطوات بطيئة ، وأنه لقي معارضة كبيرة من سكان هذه الجزائر ، الذين تشبثوا بخرافاتهم وأساطيرهم القديمة في حماسة وغيرة ، حتى إن الوثنية القديمة ظلت فترة من الزمن مشوبة بتعاليم القرآن ، جاعلة عقول الشعب في حالة مستمرة من القلق (٤) . كذلك جعلت غزوة البرتغاليين تقدم الإسلام أبطأ مما قد يكون لو أن هذه الغزوة لم تحدث . فقد طردوا القاضى ، الذى وجدوه يفقه الناس في عقائد محمد ، ونشروا المسيحية بين الأهالى الوثنيين ، ولقوا في ذلك شيئاً من النجاح ، وإن كان قصير الأمد (٥) . ذلك أنه عندما استغل أهل ملوكس انصراف البرتغاليين الذين اشتغلوا بمتاعبهم الوطنية الخاصة ، في النصف الأخير من القرن السادس عشر ، وحاولوا التخلص من سلطانهم ، دبوا اضطهاداً عنيفاً في وجه المسيحيين الذين استشهد كثير منهم ، وارتد آخرون منهم عن دياتهم ، حتى لم يعد للمسيحية ذلك الشأن الذى كان لها من قبل (٦) . ومنذ ذلك الحين ، هيات مناهضة سلطة المسيحيين السياسية صدراً أرحب لقبول المعلمين المسلمين الذين جاءوا من الغرب في جموع تزداد شيئاً فشيئاً (٧) . وقد أجهز الهولنديون على المسيحية في ملوكس بطرد الأسبان والبرتغاليين من هذه الجزائر في القرن السابع عشر ، ومن ثم حمل الآباء اليسوعيون البقية الباقية القليلة من مسيحي ترنات معهم إلى جزائر الفيليبين (٨) .

ومن هذه الجزائر ، انتشر الإسلام في سائر ملوكس ، مع أن الذين دخلوا في الإسلام كانوا مقصورين فترة من الزمن على سكان الساحل (٩) . وقد جله معظم الذين دخلوا في الإسلام من بين سكان الملايو الذين

Simon, p. 13. (١)

Bokemeyer, p. 39. (٢)

Simon, p. 13. (٣)

Argensola, pp. 3-4. (٤)

Id. p. 15 B. (٥)

Id. pp. 97, 98. (٦)

Id. pp. 155, 158. (٧)

تبعت منه كل مذاهب الكفر ، وخاصة عقيدة محمد البغيضة . ومنذ عام ١٥٨٥ ، حين دخل الهولنديون هذه البحار ، لم تكف هذه العقيدة عن الانتشار وكسب الأنصار واجتذاب قباطة القرامنة . هؤلاء الرؤساء الذين كانوا يحملون معهم شمعات آسيا ، ويخلفون مكانها هذه العقيدة ، وبحولون إليها هذه النفوس . . .

(٨) ولا تزال سلاتهم في ولاية كافيته Cavité في جزيرة لوزن Luzon (Crawford (1), p. 85.)

(٩) W. F. Andriessen, p. 222.

يؤلفون جميع أهالي الجزائر الصغرى ، ولكنهم يسكنون في الأراضى الساحلية ، من الجزائر الكبرى وحدها ، على حين يسكن الألفور Alfurs في المناطق الداخلية . ولكن الذين دخلوا في الإسلام في عصور حديثة قد أخذوا من بين هؤلاء الألفور كذلك (١) . بل كان هنالك في عهد مبكر جدا ، في سنة ١٥٢١ ، ملك مسلم لولاية جيلولو Gilolo على الجانب الغربى من الطرف الشمالى لجزيرة هليماهيرا (٢) . وفي أزمان حديثة ، أدى وجود قوانين خاصة ، سُنّت لمصلحة دين الدولة ، إلى تسهيل تقدم الدين الإسلامى ، إلى حد ما ، بين الألفور الساكنين في المناطق الكبرى : من هذه القوانين أنه إذا ثبت أن أى فرد منهم كان يعاشر فتاة مسلمة معاشرة غير شرعية ، وجب عليه أن يتزوجها ، وأن يدخل في الإسلام ؛ وأن أية امرأة من الألفور تزوج من مسلم وجب أن تعتقد دين زوجها ، وقد يكفّر المرء عما يقترف من آثام يعاقب عليها القانون ، بالتحول إلى الإسلام . وإذا أريد شغل منصب شاغر من مناصب الرؤساء ، فإنه لا ينظر إلى مؤهلات المرشح القانونية . بقدر ما ينظر إلى استعداده لاعتقاد الإسلام (٣) .

وعلى هذا النحو ، ينحصر المسلمون في بورنيو غالبا على الساحل ، مع أن الإسلام قد كسب نفوذا في الجزيرة في عهد مبكر ، أعنى في مستهل القرن السادس عشر . وحول هذا الوقت ، اعتقد هذا الدين شعب بنجرماسين Banjarmasin ، وهى مملكة على الجانب الجنوبى ، كانت خاضعة لمملكة ماجاباهيت الهندوكية ، حتى دالت في سنة ١٤٧٨ (٤) . ويرجع الفضل في دخولهم في الإسلام إلى إحدى الولايات الإسلامية التى قامت على أنقاض مملكة ماجاباهيت (٥) . والقصة هى أن شعب بنجرماسين طلب المساعدة لقمع إحدى الثورات ، وأن هذه المساعدة قدمت لهم على شريطة أن يعتقدوا الدين الجديد . ومن ثم ، قدم عدد من المسلمين من جاوة ، وقضوا على الثورة ، وعملوا بهذا الشرط فتحولوا إلى الإسلام (٦) . وعلى الساحل الشمالى الغربى ، وجد الأسبان ملكا مسلما في بروناى Brunai ، عندما بلغوا هذا المكان في سنة ١٥٢١ (٧) . وبعد ذلك بقليل ، أعنى في سنة ١٥٥٠ ، دخل الإسلام إلى مملكة سوكدنه (٨) Sukadana ، في الجانب الغربى للجزيرة . على أيدي العرب الذين جاءوا من بالمينج في سومطرة (٩) . وأبى الملك الحاكم أن يترك دين آباءه ، ولكن

(١) T. Forrest, p. 68.

(٢) Pigafetta (Ramusio, vol. i. p. 366.)

(٣) Campen, p. 346. Koloniaal Verslag van 1910, p. 56; 1911, p. 52.

(٤) Dulaurier, p. 528.

(٥) تقع دمك Damak على ساحل جاوة الشمالى ، وتقابل جنوبى بورنيو .

(٦) Hageman, pp. 236-9.

(٧) Pigafetta, (Ramusio, tom. i. pp. 363-4.)

(٨) كان قد أسس هذه المملكة ، بجاية قدمت من مملكة ماجاباهيت الهندوكية (De Hollander, vol. ii. p. 67.) وربما كانت قد وقعت بطبيعة الحال تحت تأثير النفوذ الإسلامى بعد تحول الجاويين إلى الإسلام .

(٩) Dozy (1), p. 386.

يبدو أن الدين الجديد، في غضون الأربعين سنة التي انقضت قبل موته (في سنة ١٥٩٠) قد أحرز تقدما كبيرا، وأصبح خليفته على العرش مسلما، وتزوج بنت أمير من أمراء الجزيرة المجاورة، التي كان الإسلام فيها قد توطدت دعائمه توطدا ظاهرا منذ وقت طويل (١)، ويتحدث رحالة (٢) في عهده، زار الجزيرة في سنة ١٦٠٠، عن الإسلام باعتباره الدين الشائع على طول الساحل. على أن سكان المنطقة الداخلية، كما يجبرنا، كانوا جميعا وثنيين — وأكثرهم في الواقع لا يزال على وثنيته حتى الوقت الحاضر. ويظهر أن تقدم الإسلام في مملكة سوكدنة قد لفت الآن أنظار مركز العالم الإسلامي إلى تلك البقعة النائية؛ وفي عهد الأمير الذي خلفه، قدم شخص يدعى الشيخ شمس الدين من مكة يحمل هدية تتألف من نسخة من القرآن، وخاتم مرصع بحجر يمني كبير، مع كتاب ذكر فيه أن هذا الذائد عن الدين، قد مُنح لقب شرف سلطان محمد صفي الدين (٣).

وفي النصف الأخير من القرن الثامن عشر، قيل إن إحدى القبائل التي تسكن في الداخل، وتسمى قبيلة إيدان *Idaans*، وكانت تقطن في المنطقة الداخلية من شمال بورنيو، كانت تنظر إلى مسلمي الساحل نظرة ملؤها الاحترام والتقدير، باعتبار أنهم يعتقدون ديانة لم يدين بها أفراد هذه القبيلة أنفسهم (٤). ويجبرنا *Dalrymple*، الذي استقى معلوماته عن قبيلة إيدان التي تقيم في بورنيو، في أثناء زيارته إلى *Sulu* من سنة ١٧٦١ إلى ١٧٦٤، أن أفراد هذه القبيلة، يكتسبون أسفا صادقا على جهالتهم، وفكرة وضیعة عن أنفسهم لهذا السبب عينه، ذلك أنهم، عند ما كانوا يأتون إلى دور المسلمين أوسفهم، نراهم يظهرهم أشد ألوان التبجيل والاحترام، باعتبارهم ذوي عقول أسمى من عقولهم، ولأنهم يعرفون خالقهم. وهم لا يجلسون في المكان الذي ينام فيه المسلمون، ولا يضعون أصابعهم في نفس التشونان أو علبه الفلفل، ولكنهم يأخذون قليلا منها في خضوع بالغ؛ وهم، في كل حال، يعبرون، بأشد ميولهم وإشاراتهم ضعفا وحقارة، عما يضمرونه من تعظيم للإله الذي لا يعرفونه، بما يظهره من احترام وتوقير هؤلاء الذين عرفوا ذلك الإله (٥)، . ويلوح أن هذا الشعب قد اعتقد الإسلام منذ ذلك الحين (٦)؛ وهذا من الشواهد الكثيرة التي تدل على التأثير القوي الذي أحدثه الإسلام في القبائل التي

Veth (2), vol. I. p. 193. (١)

Olivier de Noort. (Histoire général des voyages, vol. xiv. p. 225.) (٢)

(The Hague, 1756.)

(٣) وقد ترقى صفي الدين حول سنة ١٦٧٧. ولا يبدو أن أباه قد اتخذ لفعمه اسما إسلاميا، وهو لا يعرف — على الأقل —

إلا باسمه الوثني، يتم بهان جهري كوسوما (Netscher, pp. 14-15). Panembahan Giri-Kusuma

Thomas Forrest, p. 371 (٤)

Essay towards an account of Sulu, p. 557. (٥)

B. Panciera, p. 161. (٦)

بلغت أحط درجات المدنية . وقد تحدث حالات من الدخول في الإسلام ، من حين إلى حين ، بين الجاليات المختلفة ، كالعرب ، والبوجي Bugis ، وأهالي الملايو ، والصينيين ( الذين كانوا قد استوطنوا هذه البقاع منذ القرن السابع )<sup>(١)</sup> ، والعييد الذين دخلوا إلى هذه الجزيرة من أقطار مختلفة ، حتى إن مسلي بورنيو في الوقت الحاضر ، يكونون جنسا خليطا من كثير من العناصر<sup>(٢)</sup> . وكان كثير من هؤلاء الغرباء لا يزالون على وثنيته ، عند ما قدموا لأول مرة إلى بورنيو ، وكانوا أرقى حضارة من قبائل الدياك Dyaks الذين غزاهم هؤلاء الغرباء ، وطردهم إلى الداخل حيث لا يزال السواد الأعظم منهم على وثنيته ، اللهم إلا في الجانب الغربي للجزيرة ، حيث تعتقد الإسلام قبائل قليلة العدد من الدياك من حين إلى حين<sup>(٣)</sup> . وعند ما كان الوثنيون من قبائل الدياك يغيرون عقيدتهم ، كان الأعم الأغلب أنهم كانوا أكثر خضوعا للمؤثرات الإسلامية ، منهم للتبشير المسيحي ، أو كانوا يدخلون أولا في المسيحية ، ثم يتحولون إلى الإسلام ؛ ويبدل المسلمون جهودا تنطوي على الحماسة ، لاكتساب الداخلين في الإسلام من بين الدياك الوثنيين والمسيحيين على سواء<sup>(٤)</sup> .

وعلى هذا النحو ، نجد الدين الإسلامي ينمو بنمو بطيئا في جزيرة سلبيس Celebes ، بعد أن نبت بين سكان الساحل ، وشق طريقه ببطء نحو الداخل . على أنه لم يعتقد الإسلام إلا الجانب الأرقى مدنية من السكان . وينقسم هذا الجانب إلى قبيلتين : قبيلة مكسر Macassars والبوجي Bugis ، الذين يسكنون في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ؛ هذا إلى أن البوجي كذلك ، يكونون نسبة كبيرة من أهالي الساحل في أشباه الجزائر الأخرى . ولا يزال الأهالي الذين يقيمون في داخل الجزيرة على وثنيته ، عدا الجنوب الغربي لشبه الجزيرة ، حيث يعتقد الإسلام جميع السكان تقريبا ، وأكثر سكان الداخل من الألفور ، وهم شعب منحط في مستوى الحضارة ، يكون السواد الأعظم من سكان الشمال والشرق والجنوب الشرقي من أشباه الجزائر . وفي أقصى أول أشباه الجزائر هذه ، أي في ميناهسا Minahassa ، دخل الناس في المسيحية في جموع كبيرة . ولم يشق المسلمون طريقهم إلى هذه البقعة إلا بعد أن رسخت أقدام البرتغاليين في هذه الجهة من الجزيرة ، ونجد الألفور الذين حولهم البرتغاليون إلى الكاثوليكية الرومانية ، ينقلبون بروتستانتين على يد الهولنديين ، الذين قام مبشروهم بأعمالهم في ميناهسا ، ولقوا نجاحا عظيما جدا في هذه السيل . ولكن الإسلام يشق طريقه في بطن بين القبائل الوثنية من الألفور في جهات شتى من الجزيرة ، سواء في المقاطعات التي تديرها الحكومة الهولندية مباشرة ، أو في تلك التي كانت تحت

J. Hageman, p. 224. (١)

Veth (2), vol. i. p. 179. (٢)

De Hollander, vol. ii. p. 61. (٣)

Coolsma, p. 556. Koloniaal Verslag van 1911, pp. 38, 41; 1912, p. 30. (٤)

ظل حكم الرؤساء الوطنيين<sup>(١)</sup> . وعند ما زار البرتغاليون الجزيرة لأول مرة ، حول سنة ١٥٤٠ ، لم يجدوا إلا قليلا من الغرباء المسلمين في جوا Gowa ، قاعدة مملكة مكسّر ، وكان أهلها لم يدخلوا في الإسلام بعد . ولم يأخذ الناس في الدخول في الإسلام بصفة عامة إلا في مستهل القرن السابع عشر . وتاريخ هذه الحركة ذو أهمية خاصة ، لأننا نلتمس فيها إحدى الحالات القليلة ، التي كانت تتنافس فيها المسيحية والإسلام لا كتساب ولاء الشعب الوثني . من ذلك ما يقصه مصنف قديم عن إحدى حوادث هذا النزاع بطريقة تثير الإعجاب : « ينظر البرتغاليون إلى كشف قطر على هذا النحو من الأهمية ، على أنه مسألة ذات شأن عظيم ، وقد اتخذت التدابير لكسب عواطف هؤلاء القوم الذين وُجد أن غزوهم أمر ليس من السهولة بمكان ؛ على أنهم كانوا ، من جهة أخرى ، على استعداد لأن يقبلوا المعروف ، وينقلبوا قوما صالحين ، كحلفائهم ، بالمعاملة الطيبة . كان الشعب أشجع بل أحسن فهما وإدراكا من السواد الأعظم من الهنود . ولذلك أخذوا يوجه عام يدركون ، بعد مناقشة قصيرة مع الأوربيين ، أن ديانتهم خالية من أى معنى أو مغزى ، ولم يكن قليل منهم ، ممن كان قد دخل في المسيحية برعاية دون أنطونيو جلقانو Don Antonio Galvano ( حاكم مُلو كَس ) ، قد عرفوا تعاليم المسيحية معرفة كاملة ، بحيث يتسنى تعليمهم ديننا جديدا . على أن الشعب بأسره ، قد أنكر خرافاته القديمة على وجه العموم ، وأصبح يؤمن بالله دفعة واحدة . ولكنهم لم يقنعوا بذلك ، فقررُوا أن يرسلوا ، في وقت واحد ، إلى ملقه يطلبون قساوسة مسيحيين ، وإلى أتشين<sup>(٢)</sup> يطلبون أئمة في الشريعة الإسلامية ، وعقدوا النية على أن يعتقدوا ديانة أول من يقدم عليهم من الذين أرسلوا إليهم . ولكن يظهر أن دون رويس پريرا Don Ruis Perera الذى كان حاكم ملقه في ذلك الحين ، كان يعوزه بعض الاهتمام بشئون الدين ، إذ أحدث تأخيرا كبيرا لا مبرر له ، في إرسال القساوسة المطلوبين . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، لم تكفد مملكة أتشين ، وهى مسلمة متعصبة ، تتلقى خبرا عن استعداد أهالى جزيرة سليبيس وميلهم ، حتى بادرت إلى إرسال سفينة مملوءة بأئمة الشريعة ، الذين وطدوا دعائم دينهم بين سكان الجزيرة توطيدا قويا في زمن قصير . وبعد فترة من الزمن قدم القساوسة المسيحيون ، وحقروا من شأن الشريعة الإسلامية تحقيرا مريرا ، ولكن دون جدوى . فقد اختار أهالى سليبيس ديانتهم ، ولم يعد فى الإمكان حملهم على تغييرها . والحق أن أحد ملوك الجزيرة ، وكان قد اعتقد المسيحية من قبل ، تشبث بدينه ، وتحول معظم رعاياه إليه ، ولكن السواد الأعظم من أهالى سليبيس ظلوا مسلمين ، وهم كذلك إلى اليوم ، كما أنهم أشد حماسة لدينهم من أهالى أية جزيرة من جزر الهند الشرقية<sup>(٣)</sup> .

Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxii. p. 177 ; vol. xxxiv. p. 170. (١)

(٢) أى أتشي .

A Complete History of the Rise and Progress of the Protugeze Empire in the East Indies. Collected chiefly from their own Writers, John Harris : Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. i. p. 682. (London, 1764.) (٣)

وقد قيل إن هذه الواقعة حدثت في سنة ١٦٠٣ (١). وإن كثرة الإشارة إليها في الآداب المعاصرة تجعل الشك في صحتها التاريخية أمرا محالا (٢). وفي ولاية تلسو الصغيرة Tallo، شمالي جوا، التي كانت دائما حليفة لها، لا يزال يُسرى ضريح أحد مشاهير الدعاة إلى مكسر، واسمه خطيب تونجال. وقد برهن أمير هذه الولاية بعد دخوله في الإسلام، على أنه أشد أبطال الدين الجديد حماسة وغيره؛ وعن طريق نفوذه، اعتقد الإسلام، كل القبائل التي تتكلم لغة مكسر على وجه الإجمال. ولم تكن نتيجة هذه الحركة ذات طابع سلبى بحت؛ فقد انجرف أهالي مكسر في تيار حماسهم لدينهم الذي اعتقدوه حديثا، ليقوموا بمحاولة لفرضه على جيرانهم من البوجي. وعرض ملك جوا على ملك بوني Boni أن يعتبره مائثلا له من جميع الوجوه لو أنه عبد الإله الحقيقي وحده. وشاور ملك بوني شعبه في الأمر فقالوا له: «لم نحارب بعد، ولم نهنز بعد». وقد ذاقوا عاقبة الحرب، وحلت بهم الهزيمة. وكان من أثر ذلك أن اعتقد الملك الإسلام، وأخذ من ناحيته يحاول أن يفرض عقيدته على رعاياه، كما حاول أن يفرض هذه العقيدة على ما جاوره من الولايات الصغيرة، بالقوة والإكراه. ومن الغريب أن يقال إن الشعب طلب معونة ملك مكسر، فأرسل رسلا يطلبون إلى ملك بوني أن يجيب عن الأسئلة الآتية: هل فعل الملك ما فعله من الاضطهاد بوحى خاص من النبي؟ أم فعل ذلك تلبية لنداء عادة قديمة؟ أم فعل ذلك جرياً وراء لذته الخاصة؟ فإن كان السبب الأول، فإن ملك جوا يتوق إلى معرفة تفصيل ذلك؛ وإن كان السبب الثاني، فسوف يمد إليه يد المساعدة بإخلاص؛ وإن كان السبب الثالث، فعلى ملك بوني أن يكف، لأن هؤلاء الذين ظن أنه يظلمهم، إنما هم أصدقاؤه جوا. ولم يجب ملك بوني عن شيء من هذه الأسئلة، وسير أهالي مكسر جيشا عظيما إلى تلك البلاد، وتغلبوا عليه في ثلاث معارك متتالية، وأرغموه على مغادرة البلاد، وحولوا بوني إلى إمارة. وبعد أن ظل شعب بوني خاضعا ثلاثين عاما، رفعوا لواء العصيان في وجه مكسر بمساعدة الهولنديين، وادعوا زعامة قبائل سليبيس، بدلا من سادتهم السابقين (٣). ولا شك أن الدعوة إلى الإسلام كانت تسير بين البوجي فيما يظهر تدريجيا وفي بطء (٤)، ولكن لم يكادوا يعتقدون الدين الجديد

(١) The Encyclopaedie van N. — I. وندكر Crawford (1), p. 91.

(vol. i. p. 216) أن تاريخ هذه الواقعة هو سنة ١٦٠٦.

(٢) راجع ما كتبه فرناندو نغارت، وهو فليس أسباني ذهب إلى جزائر الفلبين في سنة ١٦٤٦ وذلك في

(Collection of Voyages and Travels, p. 236. London, 1752.)

وراجع ما كتبه تافرنير Tavernier الذي زار مكسر سنة ١٦١٨، في

(Travels in India, p. 193.) (London, 1678.)

وراجع: Itinerarium Orientale R. P. F. Philippi à SSma. Trinitate Carmelitae Discalceati ab ipso conscriptum, p. 267. (Lugduni, 1649.)

Crawford, vol. ii. pp. 385-9 (٣)

(٤) يظهر أنه لم تبذل جهود غير عادية في مصلحة الدين الجديد، مدة طويلة. ويشعر شعب سليبيس، دون سائر القبائل في الجزائر الشرقية، بأنه يفت البدع، ويلتزم المبادئ القديمة في اعتقاد وتعبث. وهذه الصفات تدل، لأول وهلة، على أنها أحد العقبات التي تنفخ في سبيل انتشار الإسلام. ولا يبعد أن يكون هذا هو السبب الذي أخر اعتقاد الناس هذا الدين الجديد تلك الفترة الطويلة حتى استطاع أن يتسرب إليهم عن طريق تسربله برداء القديم. Crawford (2), vol. ii. p. 387.

حتى أثار هذا الدين ، فيما يظهر ، روح العمل فيهم ، كما أثار العرب من قبل (ولو أن هذا النشاط الذي أوقف حديثا في كل من هاتين الحالتين كان يتحول إلى اتجاهات مختلفة كل الاختلاف ) ، وخلق منهم القوم الذين نراهم الآن ، قوما كانوا من قبل أشجع الناس ، وأكثر سكان الأرخييل مزاولة للتجارة واشتغالا في الملاحة (١) . فهم يشقون طريقهم بسفنهم التجارية ، إلى كافة أنحاء الأرخييل ، من ساحل غينا الجديدة إلى سنغافورة ؛ وقد أدخلت جالياتهم المتنوعة ، التي ميزت قبائل البوجي أنفسهم في تكوين هذه الجاليات تميزا خاصا ، دين الإسلام إلى كثير من الجزائر الوثنية : مثال ذلك ، أن إحدى مستعمراتهم كانت مؤسسة في ولاية تنبسط على جزء كبير من ساحل فلورز الجنوبي حيث أحرزوا النجاح ، بعد أن اختلطوا بالأهالي الأصليين ، الذين كان جانب منهم يتألف من الرومان الكاثوليك ، في " وبل كل سكان هذه الولاية إلى الإسلام (٢) .

كذلك ربط البوجي في بلادهم الأصلية ، جزيرة سليبيس ، بين الجهود في نشر تعاليم الدعوة ، وأعمالهم التجارية ؛ وقد نجحوا ، في مملكة بولانج مونجندو Bolaäng-Mongondou في شبه الجزيرة الشمالي (٣) في خلال القرن الحالى ، في أن يضموا إلى الإسلام عددا من الأهالي المسيحيين الذين يرجع تاريخ تحولهم إلى الإسلام إلى نهاية القرن السابع عشر . وكان أول ملك مسيحي لمملكة بولانج - مونجندو يعقوب منوبو Jacobus Manopo (١٦٨٩ - ١٧٠٩) ، وفي عهده انتشرت المسيحية انتشارا سريعا ، بسبب نفوذ شركة الهند الشرقية الهولندية ، وتبشير رجال الكنيسة من الهولنديين (٤) . وكان جميع خلفائه مسيحيين حتى سنة ١٨٤٤ ، عند ما اعتقد الإسلام الراجح الحاكم في ذلك الحين واسمه يعقوب مانوبيل منوبو . وكان دخوله في الإسلام بداية سلسلة من الجهود في نشر تعاليم الدعوة ، التي كانت قد أحرزت تقدما منذ بداية هذا القرن . ذلك أنه حدث حول ذلك الوقت ، أن الجهود الحماسية التي قام بها بعض تجار المسلمين - البوجي وغيرهم - قد ظفرت بفريق تحولوا إلى الإسلام في إحدى المدن الساحلية لمملكة مونجندو الجنوبية . ومن هذه المدينة ذاتها ، أخذ داعيان من التجار ، يقال لهما حكيم بجوس وإمام تويكو ، ينشران دينهما في سائر أنحاء هذه المملكة . وكان أول ما قاما به ، أن أدخلوا في الإسلام بعض العبيد ، والنساء الوطنيات اللاتي تزوجوا منهن . وقد حث هؤلاء أصدقائهم وأقاربهم على اعتقاد الدين الجديد شيئا فشيئا . ومن مونجندو انتشر الإسلام إلى مملكة بولانج الشمالية . وفي هذه البقعة ، في سنة ١٨٣٠ ، كان الأهالي جميعا إما مسيحيين أو وثنيين ، عدا جاليتين أو ثلاثا من المسلمين . ولكن سرعان ما أحرز دعاة الإسلام المتحمسون من البوجي والعرب الذين ساعدوهم على أداء أعمالهم الخاصة بنشر الدعوة ، نجاحا واسع

Crawford (1), p. 75. De Hollander, vol. ii, p. 212. (1)

Id. vol. ii, p. 666. Riedel (2), p. 67. (2)

(٣) وتقع شرق ميناهسا بين خطي طول ٤٥° ١٢٤ و ١٢٣° ٠ ، وقد قدر عدد سكانها تقديرا يتراوح بين ٣٥.٠٠٠ ..... (٣)

(De Hollander, vol. ii, p. 247.)

Wilken (1), pp. 42-4. (4)

النطاق . ولم يتسلح المسيحيون الذين كانت معرفتهم بعقائد دينهم نافذة للغاية ، والذين كان إيمانهم ضعيفا جدا ، تسلحا تاما بأسلحة الجدل لكي يواجهوا هجمات العقيدة المنافسة . ولما كانت الحكومة الهولندية تنظر إلى هؤلاء المسيحيين نظرة الاحتقار ، ورؤساء الكنيسة يهملون من شأنهم ويكادون يبنذونهم ، بدوا يتطلعون إلى هؤلاء الغرباء ، الذين تزوج بعضهم من نساءهم ، واستقروا بينهم ، وأصبحوا أصدقاءهم . ولما تقدمت مهمة التحويل إلى الإسلام في تلك البلاد ، أصبح تردد هؤلاء البوحي والعرب عليها أكثر . وكان من قبل نادر الوقوع - كما أصبح نفوذهم في تلك البلاد يزداد زيادة كبيرة جدا ، حتى لقد بلغ من عظمه أن تزوج عربي ، حول سنة ١٨٣٢ ، ابنة الملك كورنيلوس منوبو Cornelius Manopo ، وكان يدين هو نفسه بالمسيحية . وحول هذا الوقت نفسه ، هجر كثير من الرؤساء ، وفريق من أعظم الناس نفوذا بينهم ، دين المسيحية واعتقدوا الإسلام . وعلى هذا النحو ، كان الإسلام قد توطدت أركانه في مملكته ، قبل أن يصبح الراجح يعقوب مانويل منوبو مسلما في سنة ١٨٤٤ . وكان هذا الأمير قد طلب مرارا إلى السلطات الهولندية في مندو Manado أن تعين خلفا ليعقوب بستيان ، المعلم المسيحي - الذي كان موته خسارة فادحة للطائفة المسيحية - ولكن دون جدوى . ولما علم من نائب الحكومة الهولندية في مندو أنها على حياد تام من حيث ديانة الشعب ، وأنه لا يعينها أن يكون شعب ولايته مسيحيين أو مسلمين ، ما داموا مخلصين ، صرح أمام الملا أنه قد أصبح مسلما ، وحاول كل وسيلة لئلا يدخل على الدين نفسه . واستغل أحد دعاة العرب وقوع زلزال شديد في السنة التالية ، فتنبأ بخراب بولانج مونجندو ، إذا لم يبادر شعبها إلى الدخول في الإسلام . وهرع كثيرون من فرغهم إلى اتباع هذه النصيحة ، ومد الراجح وأشرافه يد المساعدة للدعاة وتجار العرب ، الذين لم يكونوا على الدوام يستخدمون أرق الوسائل وأنبهها في معاملة الذين تراخوا عن هذا الدين . على أن نصف الأهالي تقريبا لا يزالون على وثنيهم ، وإن كان تقدم الإسلام بينهم ، على بطئه ، مستمرا في صورة مؤكدة (١) .

ولا يبعد أن تكون جزيرة سمبوا Sambawa القريبة كذلك ، قد تلقت معرفتها بهذا الدين من سلبيس ، عن طريق الدعوة التي قام بها الدعاة من مكسر بين سنتي ١٥٤٠ و ١٥٥٠ . وإن جميع السكان الذين نالوا حظا أرق من المدنية والحضارة مؤمنون صادقون ، ويقال إنهم أشد تمسكا في إقامة فرائضهم الدينية من أي شعب من الشعوب الإسلامية التي تجاورهم . ويرجع ذلك بنوع خاص إلى حركة تجديدية بعثها شخص يدعى حاجي علي ، بعد انفجار جبل تمبورا في سنة ١٨١٥ ، تلك الكارثة المفزعنة التي نجمت عن ذلك ، فاستغلت لإثارة الشعب على أن يحافظوا على مبادئ دينهم على نحو أقوى ، وأن يهتدوا إلى حياة أكثر ورعا وتدينا (٢) . ولا يزال الإسلام في الوقت الحاضر يوالى اجتذاب مسلمين جدد في هذه الجزيرة (٣) .

Wilken (2), pp. 276-9. Koloniaal Verslag van 1910, p. 52 ; 1911, p. 47. (1)

Zollinger (2), pp. 126, 169. (2)

Med. Ned. Zendelingen, xxxii. p. 177 ; xxxiv. p. 170. (3)

بذلك يرجع الفضل في تحويل السسك Sasaks ، الذين يسكنون في جزيرة لمبوك Lombok المجاورة إلى الإسلام ، إلى الدعوة التي قام بها البوجي ، الذين يكوّنون مستعمرة كبيرة في هذه البقعة ، وقد قدموا إما عن طريق عبور المضيق من سمبوا ، أو من سليبيس رأسا. ومهما يكن من شيء ، فإن التحويل إلى الإسلام ، فيما يظهر ، قد حدث بطريقة سلبية<sup>(١)</sup>. وينقسم أهالي لمبوك قسمين متميزين ، السسك والبلينيون . أما الجماعة الأولى ، وهم عبارة عن السسك المسلمين ، سكان الجزيرة الأصليين ، فإنها تفوق الجماعة الثانية عددا ، إلا أنهم أصبحوا ، حول منتصف القرن الثامن عشر ، تحت حكم البلينين ، وسرعان ما وجدوا أفواجا من جيرانهم الهندوكيين يحتاجون جزيرتهم<sup>(٢)</sup>. وكان حكم البلينين جازرا للغاية ، وقد بذلوا جهودا — لم تصادف نجاحا كبيرا — لحل رعاياهم المسلمين على اعتقاد الديانة الهندوكية. وحاول السسك ، دون جدوى ، أن يتخلصوا من نير هؤلاء الحكام الجائرين ، ولجئوا إلى الحكومة الهولندية أكثر من مرة ، قبل أن تجلب حملة سنة ١٨٩٤ تبشير السلام إلى الجزيرة ، وأن تقيم إدارة منظمة في ظل الحكم الهولندي . وقد جلبت الحكومة الجديدة معها عددا كبيرا من الموظفين الوطنيين من المسلمين ، الذين يستخدمون نفوذهم في مصلحة دينهم ، ومن ثم كان من المتوقع أن تكون إحدى نتائج الغزو الهولندي للمبوك ، إمداد الإسلام بروح قوية دافعة في هذه الجزيرة<sup>(٣)</sup>.

ونجد في جزائر الفيليبين صراعا بين المسيحية والإسلام لكسب ولاء السكان ، وهذا الصراع يشبه في طابعه ما حدث في سليبيس إلى حد ما ، إلا أنه أكثر عنفا وشدة ؛ فقد اشتبك فيه الأسبان والمسلمون في نزاع عنيف دام ، حتى القرن التاسع عشر . وليس من المحقق أن نقف على الزمن الذي وصل فيه الإسلام إلى هذه الجزائر لأول مرة<sup>(٤)</sup>. وتصور لنا أخبار منداناو Mindanao ، أن الإسلام دخل إلى هذه الجزائر من جوهور Johore ، في شبه جزيرة الملايو ، على يد شخص يدعى شريف كابونجسوان ، الذي استقر مع عدد من الأتباع في الجزيرة ، وتزوج هناك . ويقال إنه أتى أن ينزل إلى الشاطئ . حتى يعده هؤلاء الذين قدموا للقائه عند وصوله ، أن يعتقدوا الإسلام . وتوحي هذه الأخبار القديمة بأن نزول كابونجسوان على الشاطئ ، ودخول شعب منداناو في الإسلام ، قد حدث أول الأمر في غابة الهدوء والسكينة . ولكنه ، بعد أن وطد سلطته ، أخذ يفزو من جاوره من الزعماء والقبائل ، فقبلوا دياناته عندما

(١) Zollinger (1), p. 527.

(٢) وبذكر دي هولاندر De Hollander في سنة ١٨٨٢ أن عدد البلينين ٢٠٠٠٠٠٠ ، وعدد السسك ٣٨٠٠٠٠٠٠ .  
(Vol. i. p. 489)

(٣) Encyclopaedie van N.-I. vol. ii. pp. 432-4. 524. W. Cool: With the  
Dutch in the East. An outline of the military operations in Lombok, 1894.  
(London, 1897.)

(٤) يقول كابن توماس فورست ، في كتابه سنة ١٧٧٥ ، إن العرب قدموا إلى جزيرة منداناو قبل ذلك بثلاثمائة سنة . وإن

مخرج أول عربي ، وكان أحد أشراف مكة ، لا يزال يرى — وهو عبارة عن ١١ كومة لجة من أحجار المرجان الصخرية — .

أذعنوا لسلطانه (١). وقد وجد الأسبان ، وكانوا قد اهتموا إليهم في سنة ١٥٢١ ، أن أهالي الجزائر الشمالية قوم همج يعبدون رموزا ساذجة من الأوثان ، على حين وجدوا قبائل إسلامية أكثر رقيا وحضارة (٢) ، في جزائر منداناو وسولو . وقد قاوم أهالي سولو على وجه الإجمال ، كل الجهود التي بذلها المسيحيون في الغزو والتبشير ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، مقاومة ناجحة ، إلى حد أن المبشرين الأسبان يتسوا من الاستمرار في القيام بأعمال التبشير (٣) . ويرجع نجاح الإسلام إلى حد بعيد ، إذا ووزن بالمسيحية ، إلى الصورة المختلفة التي عُرِضت بها هاتان الديانتان على أهالي هذه البلاد . وقد انطوى اعتقادهم المسيحية على فقد الحرية السياسية كلها ، والاستقلال القومي ، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إليها على أنها رمز العبودية . وقد قدر للوسائل التي اتخذها الأسبان لنشر دينهم أن تجعل هذا الدين منذ البداية غير محبوب لدى الشعب . وكان عنفهم وتعصبهم على طرفي تقيض مع سلوك التسامح الذي ظهر به دعاة المسلمين ، الذين تعدوا لغة الشعب ، وانتحلوا عاداته ، وأصهروا إليه . وبفنائهم في عامة الشعب ، لم يدعوا لأنفسهم كافة الحقوق التي تقتصر على جنس متميز عن سائر الأجناس ، ولا رموا الأهالي بأنهم في مستوى طبقة منحطة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، كان الأسبان يجملون لغة الأهالي وعاداتهم وأحوالهم ، وقد أدى فساد أخلاق هؤلاء الأسبان ، بل شتمهم وجشعهم ، إلى جعل دينهم مبعضا إلى النفوس ، كما كان المقصود من نشر دينهم استخدامه أداة لتقدمهم السياسي (٤) . لهذا فإنه ليس من العسير أن ندرك المعارضة التي أظهرها الأهالي لإزاء دخول المسيحية ، التي لم تصبح في حقيقة الأمر إلا ديانة الشعب في تلك الجهات حيث كان السكان من الضعف ، أو كانت الجزيرة من الصغر ، بحيث مكثوا الأسبان من إخضاع البلاد إخضاعا تاما . ولم يكن بد من أن يرغم المسيحيون من الأهالي ، بعد دخولهم في المسيحية ، على أداء واجباتهم الدينية خوفا من العقاب ، كما أنهم عوملوا معاملة أطفال المدرسة سواء بسواء (٥) . وكانت مملكة منداناو الإسلامية ، حتى زمن احتلال الأمريكيين جزائر

(١) N. N. Saleeby : Studies in Moro History, Law and Religion, pp. 24-5, 53-5. (Manila, 1905.)

(٢) Relazione di Ivan Gaetan del discoprimiento dell' Isole Molucche, (Ramusio, tom. i. p. 375 E.)

(٣) .. وقد ظهر أنهم من العناد لرحمة الله والبعد عن عقيدته بحيث أصبح من المستحيل تقريبا أن يتحولوا إلى النصرانية ..

(Cartas de los PP. de la Compania de Jesús de la Missión de Filipinas, 1879, quoted by Montero y Vidal, tom. i. p. 21.)

(٤) Crawford (2), vol. ii. pp. 274-280. (١)

(٥) وهم قبلوا العناية بتأديته واجب المسيحية التي تلقوها ، ولم يكن بد من أن يرغمهم على أدائه بتعذيبهم من العقاب ، وأن يعرضهم كما يعرض أطفال المدارس ..

Relation des Isles Philippines, Faite par un Religieux, p. 7. (Thevenot, vol. i.)

الفيليين ، ملجأ لهؤلاء الذين رغبوا في التخلص من الحكومة المسيحية البغيضة<sup>(١)</sup>. وقد كوّنت جزيرة سولو ، كذلك ، مع أنها دخلت اسمياً في حوزة الأسبان منذ سنة ١٨٧٨ ، مركزاً إسلامياً آخر مناهضاً للمسيحية ، كما وُجد به المرتدون من الذين يتكلمون اللغة الأسبانية<sup>(٢)</sup>.

وليس لدينا شاهد تاريخي معين ، يبين المدة التي قضاها سكان جزائر سولو في الإسلام ، قبل قدوم الأسبان . وتذكر أخبار سولو اسم الشريف كريم المخدوم باعتباره أول داع إلى الإسلام في هذه الجزائر . ويقال إنه كان عربياً ، ذهب إلى ملقه حول منتصف القرن الرابع عشر ، وأدخل السلطان محمد شاه وشعب ملقه في الإسلام . وقد واصل رحلته شرقاً ، حتى وصل إلى سولو حول سنة ١٣٨٠ ، واستقر في بوانسا Bwansa<sup>(٣)</sup> ، قاعدة سولو القديمة ، حيث بنى له الأهالي مسجداً وتقبل كثير من الرؤساء تعاليمه . وقد قيل إنه زار كل جزيرة في الأرخييل تقريباً ، وإنه أدخل في الإسلام ناساً في أماكن كثيرة . ويقال إن ضريحه في جزيرة سيبوتو Sibutu<sup>(٤)</sup> ؛ كما يقال إن الداعي الذي جاء بعده هو أبو بكر ، وقد ذُكر كذلك أنه عربي ، وأنه بدأ نشاط دعوته في ملقه ، وأنه شق طريقه إلى بالمبنج وبروناي Brunai ، ووصل إلى سولو حول سنة ١٤٥٠ ، وبنى مساجد وقام بدعاية ناجحة . وقد زوجه الراجة بجنندا Baginda ، ملك بوانسا المسلم ، من ابنته ، وجعله وريثه . وإلى أبي بكر يرجع الفضل في تنظيم حكومة سولو وسن قوانينها على أسس إسلامية قديمة ، بقدر ما كانت تسمح به العادات المحلية<sup>(٥)</sup> . وعلى الرغم من أنهم دخلوا في الإسلام منذ زمن بعيد ، فإن المسلمين من أهالي سولو بعيدون عن التمسك بدينهم . وفي الحق أن مؤثرات العبيد المسيحيين ، على اختلافهم ، وكانوا قد نقلوها معهم من جزائر الفيليبين في غاراتهم التي كانت تقوم على النهب والسلب ، كانت في العادة من القوة بحيث زعم بعض الباحثين<sup>(٦)</sup> ، أنهم كانوا قد اعتُرف بأنهم مسيحيون قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن على تقدير أن مثل هذا التغيير لدينهم ، عن طريق إلقاء تأثير قوى غلاب إلى رجال الدين المسيحي ، لا بد أن يقوض دعائم سلطة هؤلاء العبيد ، ويهدد الطريق إلى نقل ممتلكاتهم إلى الحكم الأسباني . وهذه حادثة قد علمتها التجارب القاتلة ، في قوة وعنف ، كل الشعوب

(١) وفي مندناو ، عند قبائل تاجال التي تمسك في الشرق ، عند ما أراد هؤلاء التاجال أن يتخلصوا من نير السادة الكاثوليك البغيض ، تجمعوا وزاد عددهم يوماً بعد يوم ، والتفوا حول رؤساء الأسرات الوطنية . وكان هنالك أكثر من ٣٦ ألف من المسلمين ، يعرفون بأن القرآن دستورهم الوحيد . وقد قدم دعاة المسلمين من الصين والهند رؤساء دينيين ، ومعلمين للأهالي ، بدلا من اليسوعيين الذين طردوا من الجزيرة ، ومن الذين يثقلون الديانة الرسمية . وعلى ذلك جدد هؤلاء المسلمون الدعوة التي بدأها العرب لقائمون ... (A. le Chatelier (2), p. 45.)

(٢) Montero y Vidal, vol. i. p. 86.

(٣) على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من جولو ، قاعدة البلاد الحالية .

(٤) N. M. Saleeby : The History of Sulu, pp. 150, 158-9. (Manila, 1908.)

(٥) Id. pp. 150, 162-3.

(٦) J. H. Moor. (Appendix, p. 37.)

المحيطة التي انتحلت العقيدة المسيحية في تهور واستهتار ، . أضف إلى ذلك ، أن مسلك العدوان الذي ظهر به قساوسة الأسبان الذين أقاموا بعثة تبشيرية في سولو ، قد خلق في نفوس الأهالي نفورا شديدا من الديانة الأجنبية (١) .

ومنذ احتل الأمريكيون جزائر الفيليبين ، أصبح التأثير الإسلامي محدودا إلى حد كبير ، وهو الآن ينحصر في جزيرة پلوان Palawan ، وساحل مندناو الجنوبي ، وبمجموعة جزائر سولو (٢) . ولكن يقال إنه يجد في نشر دعوته بين الجزائر الشمالية ، وإنه بدأ نشاط الدعوة حتى في منيلا Manila . ويقال إن أحوالا معينة قد ساعدت على نجاحه ، ولا سيما تلك الحقيقة ، وهي أن أهالي جزائر الفيليبين يتعاملون على المسيحية ، بسبب المساوية التي أدت بهم إلى حمل السلاح في وجه رهبان الأسبان (٣) .

وقد قوبل الإسلام ، كما ذكرنا من قبل ، بأسمى آيات القبول من شعوب أرخبيل الملايو الذين يتمتعون بحضارة أرقى ، كما أنه لم يرسخ إلا قليلا عند الشعوب التي هي أشد انحطاطا وتأخرا . ومن أمثلة هؤلاء ، البيوان Papuans في غينيا الجديدة ، وفي الجزائر التي تقع إلى الشمال الغربي منها ، نغني بذلك الوايغيو Waigyu والميسول Misool ، والوايغما Waigama والسوتى Salawatti . وكانت هذه الجزائر ، بالإضافة إلى شبه جزيرة أونين Onin ، إلى الشمال الغربي من غينيا الجديدة ، خاضعة في القرن السادس عشر لسلطان باتجان (٤) ، أحد ملوك ملوكس . وبفضل نفوذ حكام باتجان من المسلمين ، اعتقد زعماء البيوان في هذه الجزائر الإسلام (٥) . ومع أن عامة الشعب في المنطقة الداخلية قد ظلوا على وثنيهم حتى الوقت الحاضر ، فإن سكان الساحل مسلمون . ولا شك أن إسلامهم يرجع بنوع خاص إلى تأثير هؤلاء الذين جاءوا من ملوكس واستقروا في هذه البلاد (٦) . وفي غينيا الجديدة نفسها ، يظهر أن فئة قليلة جدا من البيوان قد اعتقدوا الإسلام . وقد دخل هذا الدين إلى الساحل الغربي (وربما إلى شبه جزيرة

Dalrymple, p. 549. (١)

R. du M. M., vii. pp. 115-16. (1909.) (٢)

The Missionary Review of the World, N. S., vol. xiv, p. 877 (New York, 1901.) (٣)

(٤) وأول من اعتنق الإسلام من أمراء باتجان كان شخصا يدعى زين العابدين ، وكان يحكم في سنة ١٥٢١ . عند ما قدم البرتغاليون إلى ملوكس للمرة الأولى .

Robidé van der Aa, pp. 350, 352-3. (٥)

(٦) Id. p. 147 . وقد ورد عن جزيرة ميسول : .. إن كل سكان الساحل مسلمون . . . وسكان الجبل وثليون . . . Id. p. 53 . وورد عن جزيرة سوتى Salawatti : ويظهر فريق صغير من السكان بعقيدة عمدة . على أن السواد الأعظم يتألف من قبيلة بيوان الوثنية . وقد تحول عدد قليل منهم إلى الدين الإسلامي أو اعتنقوا مبادئه ظاهريا . . . (Waigyu) Id p. 299 . وقد دخل في الإسلام بعض البيوان من جزيرة جيبى ، بين وايغيو وها نجايرا ، على يد المسلمين المستوطنين الذين جاءوا من ملوكس .

(Crawford (1), p. 143.)

أونين) على أيدي تجار المسلمين ، الذين أذاعوا دينهم في السكان في عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٦٠٦ (١) . ولكن يظهر أنه لم يصادف نجاحا كبيرا في خلال القرون التي خلت منذ ذلك الحين (٢) . وأبدى البيوان نفورا شديدا من الدخول في الإسلام ، كذلك النفور الذي أبدوه في قبول تعاليم المبشرين المسيحيين الذين قاموا بأعمال التبشير بينهم منذ سنة ١٨٥٥ ، ولم يصادفوا نجاحا كبيرا في هذه السبيل . وقد اتهم مسلدو الجزائر المجاورة بأنهم يحتقرون البيوان احتقارا شديدا بحيث لا يستطيعون أن يبذلوا جهودا لنشر الإسلام بينهم (٣) . على أن هنالك اسم أحد الدعاة ، ويدعى الإمام دِكْر (ربما ذكْر) ؛ وكان قد قدم من إحدى الجزائر على الجنوب الشرقي من سرام Ceram حول سنة ١٨٥٦ ، وأدخل الإسلام إلى جزيرة أدي الصغرى Adi ، جنوبي شبه جزيرة أونين . وبعد أداء رسالته ، عاد إلى وطنه ، بعد أن قاوم إلحاح السكان الذين طلبوا إليه أن يستقر بينهم (٤) . وقد روت الأخبار أن تجار المسلمين من سرام وجُرام قد أدخلوا فريقا في الإسلام من بين الوثنيين في خلال العقد الأول من القرن العشرين (٥) . وتبذل جهود مماثلة لتحويل البيوان في جزائر كي Kei المجاورة إلى الإسلام . وقد قيل إنه كان من الصعب أن نجد في منتصف القرن التاسع عشر ، أي فريق من المسلمين على هذه الجزائر ، لا نستثنى إلا سلالة المهاجرين من جزائر بنده . وقبل ذلك بقليل ، كان الدعاة من سرام قد نجحوا في إدخال عدد في الإسلام ، بيد أنه قلما كانت تراعى تعاليم الإسلام بينهم ، فقد أباحوا لأنفسهم أكل اللحوم المحرمة وشرب المسكرات . على أنه قيل إن النساء كن أشد تمسكا بأهداب الدين من الرجال ، حتى إن بعولتهن كانوا إذا رغبوا في أن يبوحوا لأنفسهم أكل لحم الخنزير ، فعلوا ذلك سرا ، لأن نساءهم كن لا يسمحن بحمله إلى المنازل (٦) . وقد اوحظ في سنة ١٨٨٧ ، أنه كانت هنالك نهضة في الحياة الدينية بين أهالي جزائر كي ، كما كان عدد

(١) Robidé van der Aa, p. 352.

(٢) على أن كابن فورسي يجبرنا في سنة ١٧٧٥ أن .. كثيرا من البيوان قد اقبلوا مسلمين ..

(Voyage to New Guinea, p. 68.)

(٣) Robidé van der Aa, p. 71. .. وقد بلغ من شدة قسوة طبيعة كل من أفراد قبيلة باجو (مفردا بيوان) أنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى اعتناق دين من الأديان . ولم تكن هناك عقيدة أخرى . ولم تكن هناك غير الديانة المسيحية تستطيع أن تجد إلى نفسه شيئا لو قدر للإسلام النجاح ، إذا بذل شيء من الجهد بين هذه الشعوب . وقد ما ظهر لي في خلال رسالت بحس فت بها في هذه البلاد ، لم يتم شعب تيدور ولا شعب سرام أو غيرها قط بأي مجهود جدي لإدخال عقيدة محمد هنا ... وقد تعد رؤساء قبايلين جدا فقط من أمثال راجات أمبات أوف وويجور ، وسلوان ، وميسول ووايجم ، من هؤلاء يجرون هذا الدين ، وذلك بسبب تخلفهم إلى تيدور عدة مرات باعتبارهم بابواين . ولم يحاول أحد قط أن يدخل الإسلام بين الأهالي الأصليين . ولا يعد مطلقا أن يكون ذلك راجعا إلى احترامهم ذلك الدين ، الذي يعدونه فوق مستوى البابواينين بكثير ..

(٤) Robidé van der Aa, p. 319.

(٥) Koloniaal Verslag van 1906, p. 70 ; 1911, p. 52.

(٦) The Journal of the Indian Archipelago, vol. vii, pp. 64, 71.

المسلمين يكثر يوما بعد يوم . وقد برهن تجار العرب من مادية وجاوة وبالي على أنهم دعاة متحمسون للإسلام ، ولم يدعوا وسيلة إلا حاولوها لجذب الداخلين في هذا الدين . وكانوا يدعمون حججهم بالتهديد والعنف تارة ، وبالرشا تارة أخرى . وقد قيل إن العادة قد جرت بأن يتقاضى كل من يدخل حديثا في الإسلام ، ما يساوي مائتي فلورين (§) من الهدايا ، على حين كان الزعماء يتسلطون مبلغا هائلا يساوي ألف فلورين (١) . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، قيل إن نحو من ٨٠٠٠ من سكان جزائر كي كانوا مسلمين من بين مجموع سكان هذه الجزائر الذي يبلغ ٢٣٠٠٠ (٢) .

وإن الصورة العامة التي رسمناها من قبل عن انتشار الإسلام من الغرب إلى الشرق عن طريق أرخبيل الملايو ، لا تؤلف إلا جانبا قليلا من تاريخ أعمال الدعوة إلى الإسلام في هذه الجزائر . وكثير من حقائق هذا التاريخ لم يدون بأكمله ، وإن ما يمكن أن نلتقطه من التواريخ الوطنية ، ومؤلفات الرحالة الأوربيين ، والموظفين والدعاة ، إنما هو متفرق ناقص في جوهره . على أن هناك شواهد كافية تدلنا على وجود جهود سلبية في الدعوة لنشر عقيدة الإسلام في خلال السنوات الستة الأخيرة . حقا إن السيف كان يمتشق أحيانا لتأييد قضية الدين ، ولكن الدعوة والإقناع ، وليس القوة والعنف ، كانا هما الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه . وإن النجاح الرائع هو الذي أحرزه التجار بنوع خاص ، الذين كسبوا السبيل إلى قلوب الأهالي ، بتعلم لغتهم ، واتتجال أخلاقهم وعاداتهم ، وأخذوا في رفق وتدرج ، ينشرون معارف دينهم بأن يدعوا بأن يحولوا إلى الإسلام ، نساء البلاد اللاتي تزوجوا منهن ، والأشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية . وبدلا من أن يعزوا الأهالي في أنفة وكبرياء ، امتزجوا شيئا فشيئا في عامة الشعب ، واستخدموا كل ما يتميزون به من تفوق في العقلية والحضارة في القيام بأعمال التحويل إلى الإسلام ، واصطنعوا لمبادئ دينهم وطقوسه ، شروطا حاذقة ، ومخارج ماهرة ، كانوا يرونها لازمة لتقريب هذا الدين إلى أذهان الشعب الذي كانوا يرغبون في جذبه إليهم (٣) . وفي الواقع ، وكان دعاة المسلمين - كما قال عنهم بكل Buckle - على جانب عظيم من الحكمة والروية (٤) .

وإلى جانب التجار ، كانت هنالك جموع ممن يصح أن نسميهم الدعاة المحترفين - وهم الفقهاء ، والقضاة والحجاج . وكان الحجاج ، في السنين الأخيرة ، نشيطين في نشر تعاليم الدعوة بنوع خاص ، وذلك بحث مواطنهم على لون من الحياة الدينية ، أكثر نشاطا ، وأشد تماسكا ، وبظهورها من بقايا عادات الوثنية

(§) عملة تساوي عشرة فروش تنريا .

(١) G. W. W. C. Baron von Hoëvell, p. 120. Krieger, p. 436.

(٢) Encyclopaedie van N.-I. vol. ii. p. 210.

(٣) Crawford (2), pp. 275, 307.

(٤) Buckle's Miscellaneous and Posthumous Works, edited by Helen (٤)

ومعتقداتها . وإن عدد الذين يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج من كل جهات الأرخييل أخذ في الزيادة على الدوام ، وتبع ذلك نمو التأثير الإسلامي والفكرة الإسلامية نموًا مناسبًا . وقد حاولت الحكومة الهولندية ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أن تضع العراقيل في سبيل الحجاج ، فأصدرت أمرًا بأنه لا يجوز لأحد أن يؤدي فريضة الحج إلى المدينة المقدسة إلا إذا حصل على جواز سفر ، وكان لا بد أن يدفع للحصول عليه ١١٠ فلورين . وكل من يخالف هذا الأمر ، يلزم عند عودته بأن يدفع غرامة تساوي ضعف هذا المبلغ <sup>(١)</sup> . ومن ثم لا تعجب أن نجد عدد الحجاج في سنة ١٨٥٢ ينخفض حتى يصل إلى السبعين . ولكن هذا الأمر لم يلبث أن ألغى في هذه السنة نفسها ، وأخذ عدد الحجاج يزداد منذ إلقائه زيادة ثابتة .

وبلغ متوسط عدد الحجاج في خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر ٧٠٠٠ - وفي خلال العقد الأول من القرن العشرين ٧٣٠٠ <sup>(٢)</sup> ؛ ولكن العدد يتفاوت كثرة سنة فأخرى . وكان أكبر عدد سجل من جزائر الهند الهولندية ١٤٠٢٣٤ في سنة ١٩١٠ <sup>(٣)</sup> .

ولا شك أن مثل هذه الزيادة تعزى بنوع خاص إلى زيادة تيسير المواصلات بين مكة وأرخييل الملايو ؛ ولكن هذا ، كما لاحظ ذلك أحد المبشرين المسيحيين ، لا يقلل بحال من أهمية تلك الحقيقة ، ولا سيما أن الحجاج ، الذين نما عددهم بسرعة فائقة ، لم يفقدوا بحال من الأحوال من صفاتهم ما حصلوا عليه من كثرة عددهم . فالأمر على خلاف ذلك ، يوجد الآن بينهم كثير من هؤلاء أكثر إمامًا وأشمل معرفة بمبادئ الإسلام ، وأشد تشربًا بالنعصب الإسلامي وكرهية الكفار ، منهم قبل أن يؤديوا فريضة الحج . <sup>(٤)</sup> وتحمل تقارير الحكومة الهولندية والمبشرين المسيحيين ، دليلًا لا مراء فيه على تأثير هؤلاء الحجاج ، وحماسهم في نشر تعاليم الدعوة ، وكانوا يعودون إلى أوطانهم مصاحبين ودعاة في وقت واحد <sup>(٥)</sup> . وإلى جانب الحجاج الذين كانوا يقنعون بمجرد زيارة البقاع المقدسة ، وتأدية الشعائر اللازمة ، وهؤلاء الذين يقضون وقتًا أطول هناك لإتمام دراساتهم الدينية ، نجد في مكة ، في الوقت الحاضر ، جالية كبيرة من أهالي الملايو ، الذين اتخذوا مقامهم في المدينة المقدسة إلى الأبد . وهؤلاء على اتصال دائم بمواطنيهم في أوطانهم . وكانت جهودهم في الغالب فعالة في تطهير الإسلام في أرخييل الملايو من شوائب العادات

Neimann, pp. 406-7. (١)

C. Snouck Hurgronje : De hadji-politiek der Indische Regeering, p. (٢)

12. (Overdruk uit Onze Eeuw, 1909.)

Id: Notes sur le mouvement du pèlerinage de la Mecque aux Indes (٣)

Néerlandaises. (R. du M. M., vol. xv, pp. 409, 412.)

Report of Centenary Conference on Protestant Missions, vol. i. (٤)

p. 21. Niemann, p. 407.

Med. Ned. Zendejinggen. vols. xxxii. xxxiv. passim. (٥)

الوثنية ووسائل التفكير الوثني التي بقيت من العهود القديمة . كذلك طبعت في مكة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية باللغات المختلفة التي يتكلمها مسلو الملايو ، وأرسلت إلى كل جهات الأرخبيل . وفي الواقع أن تأثير مكة في الحياة الدينية في هذه الجزائر ، كما قيل بحق ، كان أقوى منه في تركيا أو الهند أو بخارى (١) . وكما كان من الممكن أن تتوقع إذا تأملنا هذه الحقائق ، نجد في السنين الأخيرة نهضة عظيمة جدا في نشاط الدعوة في أرخبيل الملايو (٢) ، وأصبح الحجاج العائدون من مكة ، سواء أكانوا تجارا أم معلمين دينيين ، دعاة إلى الإسلام في البقاع التي كانوا يتصلون فيها بالأهالي الوثنيين . أضف إلى ذلك أن الجماعات الدينية بسطت نظامها على أرخبيل الملايو ، بل لقد وجدت أحدث هذه الجماعات عمدا ، وهي السنوسية ، أتباعا لها في أقصى هذه الجزائر (٣) ؛ وبما يدل على تأثيرها أن كثيرا من سكان الملايو يتسمون باسم سنوسي ، على حين كانوا في مكة يبدلون أسماءهم الوطنية بأخرى عربية (٤) .

وقد اتهم المبشرون المسيحيون الحكومة الهولندية بأنها تساعد على انتشار الإسلام . ومهما يكن من شيء ، فإن من المحقق أن الذي سهل مهمة الدعاة المسلمين هو تلك الحقيقة ، وهي أن لغة الملايو ، التي لا يكاد يتكلمها إلا المسلمون ، قد اتخذت اللغة الرسمية للحكومة الهولندية إلا في جاوة . ولما كان موظفو الدولة من الهولنديين ( من غير العسكريين ) قد ألحقوا في كل مكان بجمع حاشد من المسلمين الذين كانوا موظفين مرموسين ، ورجالا في الهيئة السياسية ، وكتبة ، و مترجمين ، وتجارا ، حملوا الإسلام معهم إلى كل مكان ينزلون فيه . وكان حتما على كل الأشخاص الذين يربطهم بالحكومة عمل ما ، أن يتعلموا لغة الملايو ، وقلبا كانوا يتعلمونها دون أن يصبخوا مسلمين في الوقت نفسه . وعلى هذا النحو ، اعتقد الأهالي ذوو النفوذ والسلطان الإسلام ، وبادرت البقية الباقية إلى الاقتداء بهم (٥) . وبذلك يعمل الإسلام في الوقت الحاضر على طرد الوثنية من أرخبيل الملايو في سرعة .

Snouck Hurgronje (3), vol. ii. pp. xv. 339-393. Encyclopaedie van (١)  
N.-I., vol. ii. pp. 576-9.

(٢) مثال ذلك القنادية والنشيدية والسبانية .

(C. Snouck Hargronje (2), p. 186.) Id. (3) vol. ii. p. 372, etc.

J. G. F. Riedel (1), pp. 7, 59, 162. (٣)

Snouck Hurgronje (3), vol. ii. p. 323. (٤)

Hauri, p. 313. Encyclopaedie van N.-J., vol. ii. p. 524. (٥)

## الباب الثالث عشر

### خاتمة

رعاية المسلمين - :

في العالم المسيحي الحديث ، تتمثل مهمة التبشير في الجمعيات التبشيرية ، والموكابن بالتبشير ككفاء أجور يتقاضونها ، والتبرعات ، والتقارير والصحف . ويبدو أن مشروع التبشير ، تسمية غير صحيحة متى كان مجردا من هيئة مؤلفة تأليفا منظما بصفة مستمرة . وقد روعي في تأليف هيئة الكنيسة المسيحية ، منذ بدء تاريخها ، نشر التعاليم المسيحية بين الكفار . وكان مبشروها ، في أغلب الأحيان ، قساوسة ورهبانا ، يعينون لهذا الغرض بانتظام . وقد توافرت جماعات الأديار (منذ قيام جماعة بندكت فالجماعات التي جاءت بعدها) والجمعيات التبشيرية التي نجدها في أزمان أحدث عهدا ، على اتجاه خاص ينحصر في ترقية إدارة المهمة المسيحية التي اعترف منذ البداية بأنها إحدى واجبات الكنيسة الأساسية . أما في الإسلام فإن عدم وجود أي لون من ألوان الكهنوت أو أية هيئة دينية منظمة أيا كانت ، قد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى في صور مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي تظهر في تاريخ البعث التبشيرية المسيحية . فليس هنالك جمعيات للدعوة (١) ، ولا موكلون مدبرون لهذا الغرض ، كما أنه نجد مواصلة الجهود في هذه السبيل . ويظهر أننا لا نستطيع إلا "جماعات الإسلام الدينية" ، التي يشبه نظامها ، إلى حد ما ، نظام جماعات الأديار في العالم المسيحي . ولكن حتى في تلك الجماعات الإسلامية ، نجد أن عدم وجود فكرة عن نظام الكهنوت ، أو أية نظرية ترى فصل المعلم الديني عن عامة المؤمنين ، أو ترى ضرورة العكوف على تأدية الوظائف الدينية ، والتصريح بها - كل ذلك يجعل الاختلاف الأساسي في النظامين ، يظل قائما في كل مكان ، في وضوح وجلالة .

ومهما تكن المساوى التي نجمت من حاجة المسلمين إلى طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة ، فقد وجدوا ما يعوضهم عنها في ذلك الشعور الناشئ عن المسؤولية التي ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد . ولما لم يكن هنالك واسطة بين المسلم وربيه ، كانت مسؤولية خلاصه الشخصي ملقاة على كاهله وحده ، وكان من أثر ذلك أن أصبح المسلم ، كما جرت العادة ، أكثر تشددا واهتماما في أداء واجباته الدينية ، وأشد تحملا للمتاعب في سبيل تعلم مبادئ دينه وشعائره . وبذلك يؤثر ، وقد رسخت في ذهنه أهمية هذه المبادئ . وتلك الشعائر لنفسه ، أن يصبح رمزا لخلق الداعي إلى دينه بين يدي الكافر . ولم يكن

(١) لم تبدأ هيئة منظمة على غرار الجمعيات المسيحية التبشيرية في الظهور إلا في القرن العشرين ، وقد أوردنا طرفا منها

الساعى فى نشر تعاليم الدعوة ، يُحيل من أدخله فى الدين إلى بعض معلمى دينه الثقات ، الذى ربما يقبل الرجل حديث العهد بالإيمان فى زمرة المسلمين من الناحية الشكلية ، ولم يكن بحاجة إلى الخوف من الرقابة السكندرية لارتكاب خطيئة (§) قارون . وعلى ذلك ، مهما تكن المبالغة عظيمة فى القول ، ومهما ردد الباحثون القول (١) بأن كل مسلم داعية إلى دينه ، يبقى هذا القول حقيقيا . وفى الحق أن قليلا من المسلمين المتمسكين بدينهم تمسكا صحيحا ، الذين يتصلون بالكفار يوما يهملون ما أوصاهم به نبيهم ، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (٢) . ومن ثم نجد ، إلى جانب أرباب الدعوة المحترفين ، — وهم المعلمون الدينيون الذين كرسوا وقتهم ونواحي نشاطهم كله فى مهمة الدعوة — أخبارا تاريخية لنشر العقيدة الإسلامية تتضمن سجلا بأسماء رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع ، من الملك (٣) إلى الفلاح ، ومن كل الصنائع والحرف ، قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم ، — والتاجر المسلم ، على خلاف أخيه المسيحي ، يظهر بنوع خاص بمظهر النشاط فى أمثال تلك الأعمال . ونجد فى ثبت يتضمن أسماء دعاة الهند ، نشر فى صحيفة إحدى جمعيات لاهور (٤) الدينية الخيرية ، أسماء معلمى مدارس ، وكتّاب للحكومة فى مصلحتى القتال والأفيون ، وتجار (وفيهم أحد العملاء فى عربات النقل بالجمال) ، ومحرر إحدى الصحف ، ومجلّد كتب ، وعامل فى مطبعة . فقد خصص هؤلاء الناس ساعات فراغهم بعد إنجاز عملهم اليومي ، للدعوة إلى دينهم فى الطرقات وأسواق المدن الهندية ، ملتصقين اجتذاب مسلمين جدد من بين المسيحيين والهندوكيين جميعا ، الذين كانوا يجادلونهم ويحملون على عقائدهم .

ومما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشر الإسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم ، بل لقد قام النساء المسلمات أيضا بنصيبهن فى هذه المهمة الدينية ؛ فيرجع الفضل فى إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة . ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سببا فى إسلام كثير من الأتراك الوثنيين ، عند ما كانوا قد أغاروا على الأقطار الإسلامية . وقد أنشأ دعاة السنوسية الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو ، شمالي بحيرة شاد . مدارس للبنات ، واستغلوا ما كانت تحدته النساء من نفوذ قوى بين هذه القبائل ( كما كان لهن

(§) مثل يعزب فى حالة ارتكاب إثم كبير .

(١) ويظهر أن الميل إلى نشر تعاليم الدعوة عند كل مسلم ، مهما كان مجا للدينيا ، أمر غريزي إلى حد ما . . .

(Snouck Hurgronje, Revue de l'Histoire des Religions, vol. lvii. p. 66.)

إن المسلم داعية بطبيعته . . . فهو يدبر لدعوة مجده وحسابه الخاصين . . .

(Munzinger, p. 411.) Snouck Hurgronje (1) p. 8; Lüttke (2) p. 30; Julius Richter, p. 152 Merensky, p. 154.

(٢) سورة ١٦ آية ١٢٦ :

(٣) راجع الرسالة الهامة لى وجهها مولاي إسماعيل ، شريف مراکش إلى الملك جيمس فى سنة ١٦٩٨ ، يدعو إلى الإسلام

(Revue de l'Histoire des religions, vol. xlvii. p. 174 sqq.)

(٤) أنجومان حمايت إسلام كاماهراوى رسالة ، ص ٥ - ١٣ (لاهور أكتوبر ١٨٨٩) .

هذا النفوذ بين جيرانهم من البربر) ، فبدلوا جهودهم لجذبهم إلى صفوف الإسلام<sup>(١)</sup> . وفي إفريقيا الشرقية الألمانية ، دخل في الإسلام هؤلاء الأهلالي الوثنيون الذين كانوا يتركون أوطانهم ستة أشهر أو أكثر ، للعمل في السكك الحديدية أو الأعمال الزراعية ، على أيدي نساء مسلمات ، تعاقدوا معهم على زواج مؤقت ؛ فإن أولاء النساء كن يرفضن أن يتعاملن في شيء مع كافر لم يختتن بعد ، فكان يعولتهن يتجنبن ذلك العار الذي كان يلحق مثل هذا اللقب ، بأن يختنوا وبذلك يقبلون الدخول في الجماعة الإسلامية<sup>(٢)</sup> . وقد قيل إن تقدم الإسلام في بلاد الحبشة ، في خلال النصف الأول من القرن الماضي ، كان راجعا ، إلى حد كبير ، إلى ما بذله النساء المسلمات من الجهود ، وخاصة نساء الأمراء المسيحيين ، الذين لم يكن بد من أن يتظاهروا بالتحويل إلى المسيحية ، عندما يتزوجون ، ولكنهم نشوا أبنائهم على شعائر الإسلام ، وبدلوا كل ما استطاعوا في سبيل تقدم ذلك الدين<sup>(٣)</sup> . وتقيم على حدود الحبشة الغربية قبيلة وثنية تسمى البورن Boruns ؛ وقد دخل بعض أفراد هذه القبيلة ، وكانوا قد انتظموا في سلك فضيلة من الزنوج ، تحت لواء الحكومة المصرية الإنجليزية في السودان في الإسلام ، على أيدي نساء الجنود السود ، في الوقت الذي كانت فيه الكتيبة راجعة إلى الخرطوم<sup>(٤)</sup> . ويقال إن نساء قران التريبات بوجه خاص ذوات غيرة ، باعتبارهن داعيات إلى الإسلام<sup>(٥)</sup> . ولا تمنع المتمسكة بدينها ، من أن تختل مكانها إلى جانب الولي من الرجال في زمرة الداعين إلى العقيدة إذا اتفق أنها كانت امرأة . وإن أسطورة النساء المقدسات ، اللاتي ينتمين إلى علي ، واللاتي يقال إنهن طرن في الهواء من كربلاء إلى لاهور ، وإنهن ظفرن بأول من تحول من الهندوكية إلى الإسلام<sup>(٦)</sup> ، بفضل تأثير حياة الصلاة والصوم ، التي كن يحيينها في تبتل وخشوع ، كان من الصعب أن يكون لها أصل تاريخي ، لو أن تأثير أمثال أولاء النساء المقدسات كان أمرا مجهولا تماما . ومن أضرحة القاهرة التي لقيت أوفى نصيب من التعظيم ، ضريح السيدة نفيسة ، حفيدة الحسن (الذي مات شهيدا وهو ابن علي) ، وهي التي أثارته إعجاب الإمام الشافعي نفسه ، أحد من عاصروها من العظام ، بتفقهها في الإلهيات ، والتي رفعتها تقواها ، وتشفها إلى مصاف الأولياء الصالحين . ويروي أنها عندما استقرت في مصر اتفق أنها أقامت بجوار أسرة من أهل الذمة ، وكانت لهم بنت مصابة بداء عضال ، بحيث لم تستطع أن تحرك أطرافها ، ولم يكن بد من أن ترقد على ظهرها طوال اليوم . ولزم الأمر أن يذهب والدا هذه الفتاة المسكينة إلى السوق ذات يوم ، فطلبا إلى جارتها المسلمة أن تتفقد ابنتها أثناء تغيبهما . وباشرت نفيسة هذا العمل الإنساني ، وهي مفعمة بالحب والرحمة . ولما ذهب والدا هذه الفتاة المريضة إلى السوق ، سمعت نفيسة بروحها ، وابتهلت

Duveyrier, p. 17. (١)

Klamroth, p. 12. (٢)

Massaja, vol. xi. pp. 124-5. (٣)

Artin, p. 119. (٤)

R. du M. M., ix. (1909), p. 252. (٥)

(٦) غلام سرور : خزينة الأصفياء ، ج ٢ ص ٤٠٧ - ٤٠٨

إلى الله أن يشفي هذه المريضة البائسة . ولم تكمد تفرغ من دعائها حتى استعادت الفتاة المريضة تحريك أطرافها وأصبحت قادرة على أن تذهب للقاء أبيها عند عودتها . وملا الشكر والامتنان قلوب أفراد الأسرة جميعا ، فاتهموا إلى الدخول في ديانة تلك المرأة التي أسدت إليهم هذا الفضل (١) .

حتى المسلم الأسير ، يفتنم الفرص في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأسر إلى دينه . وقد تسرب الإسلام إلى أوروبا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم ، سيق أسيرا ، ربما في إحدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين ، وسمى به إلى بلاد پتشنج Pechenegs (٢) في مستهل القرن الحادى عشر . وقد بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام ، فاعتقدوه في إخلاص ، حتى إنه أخذ في الانتشار بين هذا الشعب . أما سائر البتشنج الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الإسلام ، فقد ارتابوا من تصرف مواطنيهم ، وانتهى بهم الأمر إلى نشوب القتال بينهم . وقام المسلمون ، وكان عددهم يبلغ نحو من اثني عشر ألفا ، هجمات الكفار في نجاح ، مع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عددا بما يزيد على الضعفين . ودخلت فلول المهزومين دين المنتصرين . ولم تأت نهاية القرن الحادى عشر ، حتى كان الشعب بأسره قد اعتقد الإسلام ، وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد (٣) . وفي عهد الإمبراطور جهانجير (١٦٠٥-١٦٢٨) كان هنالك عالم سنى من علماء التوحيد يدعى الشيخ أحمد مجدد ، وقد تميز بقدرته على مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوع خاص . ولما كان هؤلاء مقرين إلى البلاط في ذلك الحين ، نجحوا في إيداعه السجن بتهمة تافهة . وفي خلال الستين اللتين قضاهما في الحبس ، أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه (٤) . وفي سنوات أحدث من ذلك ، قضت الحكومة البريطانية بنفى أحد مولوية الهند إلى جزائر أندمان نفيًا مؤبدا ، لأنه كان قد قام بتصيب فعال في مؤامرة دبرها الوهايون سنة ١٨٦٤ ؛ وهناك ، أدخل هذا المولوى في الإسلام قبل وفاته كثيرا من المحكوم عليهم . وفي إفريقية الوسطى ، حكم البلجيكيون على زعيم عربى بالإعدام ، فقضى ساعاته الأخيرة ، وهو يحاول أن يدخل في الإسلام ذلك المبشر المسيحى الذى كان قد أرسل إليه ليزجى إليه التعزيمات الدينية (٥) .

عوامل مجامهم : وإذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة في نشر الدعوة إلى حد أنهم كانوا

(١) Goldziher, vol. ii. pp. 303-4.

(٢) احتل البتشنج في ذلك الحين البلاد التي تقع بين الدانوب الأدنى والدون ، وكانوا قد هاجروا إليها من شواطئ نهر

أردال في نهاية القرن التاسع . (Karamsin, vol. i. pp. 180-1.)

(٣) أبو عبيد البكري (توفى سنة ١٠٩٤ م) ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٤) غلام سرور : خزينة الأصفياء ١٣ من ٦١٣ .

(٥) D. Crawford : Thinking Black, p. 202. (London, 1913.)

على استعداد للتحدث عنها في مناسبة وفي غير مناسبة ، - كما يقول داوق في حصافة ودقة ملاحظة ،  
 و حديثهم دائما ( في غير زندقه ) عن الدين ، وفي هذا الحديث ما بذكرهم بما ترتاح إليه نفوسهم من  
 التقوى والورع ،<sup>(١)</sup> - فلنسرده الآن بعض العوامل التي ساعدت على نجاحهم .

في مقدمة هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية<sup>(٢)</sup> ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وكل  
 ما يتطلب من الذي يدخل في الإسلام ، قبول هاتين الشهادتين . وإن تاريخ العقائد الإسلامية كله ،  
 ليخفق في عرض أية محاولة من جانب المقامات الدينية ، لحل جمهرة المؤمنين على الأخذ بأية إشارة منظوية  
 في عبارات أكثر تدقيقا وتعقدا . إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان ، ولا تثير في  
 العادة مصاعب عقلية خاصة ، وإنما لتدخل في نطاق أحط دركات الفهم والفظنة . ولما كانت خالية من  
 المخارج والحيل النظرية اللاهوتية ، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد ، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات  
 الدينية النظرية . ويعبر الشطر الأول من هذه العقيدة عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لا بد  
 منه ، على حين يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة  
 كذلك ، بمعنى أن الله تعالى ، في فترات من تاريخ العالم ، قد وهب بعض تجليه على الخلق ، على لسان  
 أنبياء ملهمين . ولا يستطيع أي فرد أن يوضح ذلك ، أعني الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية ، وما جنته  
 من هذا الطابع من الفائدة في جهودها في نشر الدعوة ، توضيحا يبعث على الإعجاب ، بأكثر مما وضحه  
 البروفسور مونتيه في العبارات التالية :

الإسلام في جوهره دين عقلي ، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية . فإن  
 تعريف الأسلوب العقلي Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة  
 من العقل والمنطق ، ينطبق عليها تمام الانطباق . والحق أن محمدا الذي كان متحمسا لدينه ، كما كان كذلك  
 يمتلك غيره الإيمان ، ونار الاقتناع ، تلك الصفة القيمة التي بثها كثيرا جدا من أتباعه - قد عرض حركته  
 الإصلاحية على أنها وحى وإلهام : على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير ،  
 وإن لدينه كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل . وتتلخص  
 العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحداية الله ورسالة نبيه ، أما من وجهة نظرنا  
 نحن الذين نحلل عقائده تحليلا لا روح فيه ، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة . وهذان المبدأان هما أقل  
 ما ينبغي للاعتقاد الديني ، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل

Doughty, vol. ii, p. 39. (١)

(٢) وقد أكد مرائشي Marracci هذا القول في القرن السابع عشر بقوله : .. لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية  
 البسيطة التي فاقت طاعة الذكاء البشري أو التي هي ، على الأقل ، من الصعوبة بمكان ، إن لم تكن مستحيلة وبين عقيدة القرآن ،  
 لا تصرف عن الأول في الحال ، وأسرع إلى الثانية في ترجيب وقبول ..

(Alcorani textus . . . translatus, p. 9 patavii, 1698).

والمنطق ، وبلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن . وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لم ي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام . وبما لا سييل إلى إنكاره أن كثيرا من عقائد اللاهوت ونظمه ، وكثيرا من الخرافات كذلك ، من عبادة الأولياء إلى استخدام المساج والتعاويد ، قد طُعمم به الجذع الرئيس للعقيدة الإسلامية . ولكن على الرغم من التطور الحصب ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لتعاليم النبي ، حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل . باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة ؛ وقد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية ، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا . وإن هذا الإخلاص كبداً الدين الأساسي ، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين ، والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعا يلهب حماسة وغيره ، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين . وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد ، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هي تبعا لذلك في تناول إدراك الشخص العادي ، أن تمتلك ، وإنما لثمتك فعلا ، قوة عجيبة ، لا اكتساب طريقها إلى ضمائر الناس ، (١) .

ويرى الأسقف لفروي Lefroy أن سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره في فتوحاته وتقدمه ، كامن في إدراك هذا الدين وجود الله ، أكثر منه في وحدانيته ، قال : « ليس قولنا إن الله واحد بأعظم من قولنا إنه موجود - بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة - وأن إرادته هي العليا - وأن سيادته مطلقة - وأن قوته لا تحد . . . وهذا معناه الإيمان بأن هنالك إرادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يجعله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفرع والرهبنة ، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة ، يظهرها ، ويلتزم الطاعة لها ، - ولو أنه من الضروري أن يأخذ في سبيل إظهار هذه الإرادة بأسباب بسيطة بدائية جدا - وهذا هو الذي أمد جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر ، تلك التي بعثت فيهم رُوحا من الانقياد الحربي والنظام العسكري ، كما بعثت فيهم ازدراء الموت ، الأمر الذي ربما لم نعرفه قط في أي نظام سابق . وهذا هو الذي يعطينا في كلمة ، حسب ما نجده متمثلا في أية روح صادقة فعالة بين المسلمين ، ذلك العمود الفقري لأخلاقهم . أعني ذلك الثبات في العزيمة والقوة في الإرادة ، وذلك الصبر الذي لا يعرف سيلا إلى الشكوى ، والاستسلام لأشد المصائب وأصعبها ، - كل ذلك قد ميز خير أنصار العقيدة وجمَّعهم . . (٢) »

وإذا قبل الذي يدخل في الإسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها ، لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض

Edouard Montet : La propagande chrétienne et ses adversaires (١)

musulmans, pp. 17-18. (Paris, 1890.)

Mankind and the Church, p. 283-4. (London, 1907.) (٢)

الدين الخمس : ( ١ ) النطق بالشهادتين ( ٢ ) وإقام الصلوات الخمس في أوقاتها ( ٣ ) وإيتاء الزكاة ( ٤ ) وصوم رمضان ( ٥ ) والحج إلى مكة .

وطالما اعترض بعض الناس على أداء هذا الغرض الأخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية ، ظلت من جملة تعاليم النبي التي تدعو إلى الوجدانية ، ولكن ينبغي ألا يعزب عن الأذهان أن الحج قد اقترن بإبراهيم ، في نظر النبي ، وأن رسالة النبي هي إعادة دين إبراهيم <sup>(١)</sup> . ولكن فوق ذلك كله ، — وهنا تكون أهميته العليا في تاريخ نشر الدعوة في الإسلام ، — ينظم الحج اجتماع المؤمنين في كل سنة ، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم ، من كافة أنحاء العالم ، للصلوة في ذلك المكان المقدس ، الذي يولون وجوههم شطره في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في أوطانهم النائية . ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطيع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة ، وأخوتهم التي ارتبطت بروابط الدين . وفي ذلك المكان ، حيث نجد عملا ساميا من أعمال العبادة المشتركة ، نرى زنجي ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق ؛ ويتعرف التركي الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو . وفي هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، في عطف وحنين ، إلى إخوانهم الأسعد حفا منهم ، الذين تجتمعوا في المدينة المقدسة ، فيحتفلون في أوطانهم بعيد الأضحى ، أو ( كما يسمى في تركيا ومصر ) عيد البيرام أو العيد الكبير . وإن زيارتهم المدينة المقدسة قد أصبحت في نظر كثير من المسلمين ، التجربة التي حثهم على الجهاد في سبيل الله ، وقد أوردنا في الصفحات السابقة إشارات متتابعة إلى ما قامت به طبقة الحاجي من نصيب فعال في أعمال نشر الدعوة .

وإلى جانب نظام الحج ، نجد إيتاء الزكاة فرضا آخر يذكر المسلم دائما بقوله تعالى وإنما المؤمنون إخوة ، <sup>(٢)</sup> — وهي نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش في المجتمع الإسلامي ، وقلبا تعجز عن أن تتجلى في أعمال الشفقة إزاء المسلم الجديد . ومهما يكن جنسه ولونه وأسلافه ، فإنه يقبل في زمرة المؤمنين ، ويتبوأ مكانه على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين .

على أنه ليس من الصواب ، ما زعمه بعض الكتاب الأوربيين من أنه إذا كان عبد الرجل المسلم كافرا ، فإن تحوله إلى الإسلام يؤدي إلى تحرير رقبته . ذلك أن الشريعة الإسلامية تقتضى بأن دخول العبد في الإسلام ، لا يؤثر في حالة العبودية التي كان عليها من قبل <sup>(٣)</sup> . وتختلف حالة العبد المسلم اختلافا كبيرا تبعا لاختلاف مولاه . ولكن الحرية هي جزاء التحول إلى الإسلام في كثير من الحالات . وإن العقول الورعة

(١) قرآن : سورة ٢ آية ١١٨ - ١٢٦ .

(٢) سورة ٤٩ آية ١٠ .

(٣) W. H. Macnaghten : Principles and Precedents of Moohummudan Law, p. 312. (Madras, 1882.)

التقية لتعترف حتى في الاسترقاق بهداية الله إلى الدين الحق ، كما يروى عن الزوج الساكنين في بلاد النيل الأعلى ، الذين لقيهم داووق في بلاد العرب . « لا يوجد في نفوس أولئك الإفريقيين أى حقد من أنهم صيِّروا عبيدا .. حتى ولو أن سُراق البشر القساة قد انتزعوهم من ذويهم . وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم ، يتخذونهم في بيوتهم ، ويختنن الذكور منهم — وإن الذى حرر أرواحهم ، الحنين الطويل إلى أوطانهم ، هو أن الله قد تغفدهم في ملتهم ؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا إن نعمة الله قد تداركتهم منذ أن دخلوا بفضلها في الدين المنقذ . لذلك يرون أنهم في بلد خير من بلادهم ، فهم في ذلك البلد عتقاء الله ، وهم في بقاع تحي حياة أكثر مدنية ، وهم في تربة الحرمين الشريفين ، وفي بلد محمد — لذلك يشكرون الله أن يبعث أجسادهم يوما ما يبيع الرقيق اء (١)

كذلك نجد أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم . وقد أحسن مونتسكيو (٢) في قوله : « إن المرء لأشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر ، منه بأى دين آخر أقل منه احتفالا بالشعائر ، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائما على تفكيره . إن دين المسلم يتمثل دائما في مخيلته ؛ وفي الصلوات اليومية ، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية عاشعة مؤثرة ، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين . يتحدث سعيد بن الحسن ، أحد يهود الإسكندرية ، الذى اعتقد الإسلام في سنة ١٢٩٨ م ، عن مشهد صلاة الجمعة في مسجد باعتباره عاملا حاسما في تحوله إلى الإسلام . في خلال مرض شديد كان قد ابتابه ، رأى في المنام أن صوتا يأمره بأن يجهر بالإسلام . « وعند ما دخلت المسجد ، ( ويستمر في حديثه إلى أن يقول ) « ورأيت المسلمين يقفون صفوفًا كأنهم الملائكة ، سمعت هاتفا يقول ، هذه هي الجماعة التي أخبر الأنبياء ( صلوات الله عليهم ا ) بقدموها . ولما ظهر الخطيب مرتديا عباة ته السوداء ، استولى على شعور عميق من الرهبة . . . ولما ختم خطبته بالكلمات ، إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون . ولما بدأت الصلاة ، أحسست بقوة تدفعني إلى النهوض ، لأن صفوف المسلمين بدت أمامي كأنها صفوف الملائكة ، الذين يتجلى الله القدير في سجدهم وركعاتهم ، ثم سمعت هاتفا يهتف بي : ، إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى نبي إسرائيل في كل العصور ، فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة في كل وقت من أوقات الصلاة ؛ وأيقنت في نفسي أنى خلقت لأكون مسلما (٣) .

فإذا استطاع ربنان أن يقول : « ما دخلت مسجدا قط ، دون أن تهزنى عاطفة حادة ، أو

Arabia Deserta, vol. i. pp. 554-5. (١)

De l'Esprit des Lois, livre xxv. chap. 2. (٢)

Goldziher, Said b. Hasan d'Alexandrie. (Revue des Études Juives, (٣)

بعبارة أخرى ، دون أن يعيبي أسف محقق على أنه لم أكن مسلما ، (١) ، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته ، وسجده الكثرة ، وعبادته للاله الذي لا يراه ، في سكينته واستغراقه ، قد يؤثر في الإفريقي الوثني ، الذي وُهب إدراكا قويا للقوى الخفية ، كما يقترن هذا الإدراك عادة بدرجة منحطة من المدنية . وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال . وإن معارف الإسلام التي عرفها الناس على هذا النحو قد تجذب أحيانا فردا يدخل في الإسلام ، كان من الممكن أن ينصرف عنه لو أنه قدم إليه على صورة لا يرغب فيها ، باعتبارها هبة حرة . ولا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في ملذاتهم الشخصية . وكما قال كارليل : « إن دينه ليس بالدين السهل : فإنه بما فيه من صوم قاس ، وطهارة ، وصيغ معقدة صارمة ، وصلوات خمس كل يوم ، وإمساك عن شرب الخمر ، لم يفلح في أن يكون ديننا سهلا . »

ولكون هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية ، ولكن من غير أن يتفلقوا بها كواهلهم ، أو تجعلهم مغمورين في الحياة ، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع ، تعبيرا ظاهرا في حياة المؤمن ؛ ومن ثم نجدها ، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية تشابكا لا سبيل إلى الفكك منه ، تجعل المسلم الفرد إماما ومعلما لعقيدته ، أكثر ، إلى حد بعيد ، مما هي الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى (٢) . ولما كانت عقيدته مصوغة في مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة ، كانت لا تتطلب من الذكاء إلا قليلا ؛ وإن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو

Ernest Renan : L'Islamisme et la Science. p. 19. (Paris, 1883.) (١)

وقد أكد ذلك كثير من الملاحظين ، ولكن حسبنا في هذا المقام أن نقل كلمات أسقف مسيحي مشهور : « ما من فرد يصل بالمسلمين لأول مرة إلا أخذ بمظهر دينهم هذا... وحينئذ يمكن أن توجد ، في الطريق العامة ، أو في محطة السكة الحديدية ، أو في الحقل ، فإن من أكثر الأشياء شيوعا أن ترى الرجل منهم ، بترك في اللحظة التي يقوم فيها بأداء أعماله أيا كانت ، بدون أدنى تأثير بالزياد أو الظهور ، وفي سكينته وتواضع ، لكي يؤدي صلواته في أوقاتها المحددة . وأكثر من ذلك أنه ما من فرد رأى يوما ساحة المجمع الكبير في دعل في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان ، وهي غاصة بما قد يربو على ١٥٠٠٠ رجل ، وكلم جميعا منهمكون في صلاتهم ، مظهرون أعمق الآيات الاجلال والخشوع في كل إشارة يبدونها ، إلا تأثر تأثرا عميقا بهذا المشهد ، أو أخذ فكرة طابرة عن تلك القوة التي يتصوى مثل هذا النظام تحت لواتها ؛ على حين نجد النظام الدقيق الذي يتجلى في دعوة الناس اليومية إلى الصلاة ، عندما يؤذن الداعي في وقت السحر ، قبل أن يتنفس الصبح ، أو بين ضواض ساعات العمل وضججها ، أو عندما يرضى الليل سدوله كذلك . مفعما بذلك الرسالة ذاتها . »

(Dr. G. A. Lefroy : Mankind and the Church, pp. 287-8.) (London, 1907)

(٢) « وقد يلاحظ المرء ، ويحجب بذلك اللون من الاعتزاز النبيل بالنفس ، الذي يتمسك به المسلمون ، في المتوسط ، في دينهم . »

(Bishop Lefroy : Mankind and the Church, p. 289.)

مكلف بأدائه ؛ فإذا أدى هذه الواجبات ، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع . وقد نجد إلى حد بعيد ، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين ، سر السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس . وإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس ، لقنهم الحقيقة في صورة حاسمة ، دقيقة واضحة ، وفي أسلوب مرثي نحس ، (١) .

ومن الممكن أن نورد كثيرا من الظروف الأخرى التي ساعدت على نجاح الدعوة إلى الإسلام — وهي ظروف تتعلق بأزمان معينة وبلاد خاصة . ويمكن أن نذكر من بين هذه الظروف تلك الفائدة التي تستمدّها أعمال نشر الدعوة الإسلامية من هذه الحقيقة ، وهي أن هذه الدعوة كانت إلى حد كبير في أيدي التجار ، وخاصة في إفريقية وبلاد أخرى غير متمدنة ، حيث نرى الأجنبي موضع الريبة والشك بطبيعة الحال من أهالي هذه البلاد . ففي حالة التاجر ، نجد مهنته المعروفة التي لا ضرر فيها ، تضمن له مناعة من أي إحساس بمثل هذه الريبة ، على حين نرى خبرته بالناس والأخلاق ، وحنكته التجارية في معاملة الناس تزيلانه قبولا حسنا ، وتزيلان ذلك الشعور بالضيق الذي قد ينشأ بطبيعة الحال من وجود الغريب . وهو لا يقع في تلك المساوى التي تعرقل مهمة الداعي المحترف ، الذي يكون معرضا لأن يتهم ببعض الدوافع الشريرة ، من جانب الشعب الذي نجد درجة خبرته وأفق العقلي محدودين ، والذي يرى أن فكرة أى شخص يتحمل أخطار سفر طويل ، ويطرح جانبا كل المشاغل الدنيوية لغرض واحد ، هو أن يظفر بقوم يدخلهم في دعوته ، أمر غامض لا سبيل إلى تفسيره ، بل من جانب قوم من العالم أكثر تمدنا وحضارة على أتم استعداد للشك في إخلاص هؤلاء الذين عهد إليهم في نشر الدعوة من المأجورين .

وتختلف الظروف جد الاختلاف ، حينما لم يكن هنالك من سبيل من أن يظهر الإسلام في مظهر الضارع المتوسل في البلد الغريب ، ولكنه يمثل دين الجنس الحاكم في عزة وكبرياء . وقد بيّنا في الصفحات السابقة أن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى ، أولئك الذين يؤدون الجزية كفاء حمايتهم . وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامي قد تلونت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية ، ظل الكفار ، على وجه الإجمال ، ينعمون في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لم نسكن نجد لها مثيلا في أوربا حتى عصور حديثة جدا . وإن التحويل إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم ، طبقا لتعاليم القرآن : « لا إكراه في الدين ، (سورة ٢ آية ٢٥٧) . أفأنت تنكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؛ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، (سورة ١٠ آية ٩٩ ، ١٠٠) . وإن مجرد وجود كثير جدا من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قرونا في ظل الحكم الإسلامي ، لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء المسيحيون ، كما يدل على أن الاضطهادات التي كانوا يُدعون

B. Kuenen : National Religions and Universal Religions, p. 35. (١)

إلى معاناتها بأيدي الطغاة والمتعصبين ، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمية ، أكثر من أن تكون منبثقة عن مبدأ مقرر من التعصب (١) .

وفي أمثال تلك الأزمان التي حدث فيها الاضطهاد ، كان ضغط الظروف يدفع كثيرا من الكفار إلى أن يصبحوا — من الناحية الشكلية على الأقل — مسلمين . ويمكن إيراد كثير من الأمثلة عن أفراد أكرهوا في مناسبات خاصة على الإذعان لدين القرآن . ولكن مثل هذا التعسف لم يكن بموافقة الشرع الإسلامي في شيء ، سواء منه الديني والمدني . وقد ذكرنا من قبل ( التمهيد ص ٢٠ ) الآيات القرآنية التي تنهى عن الإكراه في الدين ، وتوصي بالدعوة باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة ، ويؤيد هذا المبدأ نفسه ما قرره الأئمة من المسلمين . ولما هرب موسى بن ميمون ، الذي كان قد تظاهر بالدخول في الإسلام في عهد الموحدين ، الذين كان حكمهم ينطوي على التعصب الديني ، إلى مصر ، وأعلن هنالك أمام المملأ أنه يهودي ، اتهمه أحد فقهاء المسلمين من أسبانيا ، بالارتداد عن الإسلام ، وطلب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضى بها الشرع لهذا الجرم . ولكن القاضي الفاضل ، عبد الرحيم بن علي (٢) ، وهو من أشهر قضاة المسلمين ، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم ، ألغى هذا الحكم ، وأعلن بصفة جازمة ، أن رجلا قد أرغم على الدخول في الإسلام ، لا يصح شرعا أن يعد مسلما (٣) . وبهذه الروح نفسها ، نجد

(١) مثال ذلك ما حدث في عهد المتوكل من اضطهاد ، كان نتيجة رد فعل المذهب السني هل كل الأشكال التي تنحرف عن العقيدة التي يدين بها عامة الناس : وما حدث في فارس وفي جهات أخرى من آسيا ، حول نهاية القرن الثالث عشر ، من الانتقام من سلوك القنطرة والأمان الذي ظهر به المسيحيون في ساعة تقدمهم وتقدمهم في ظل المغول الأولين . ( المقرري (٢) ج ١ القسم الأول ص ٩٨ ، ١٠٦ ) . ويقول السمعاتي ( tom. iii. pars. ii. p. c. ) حين يتحدث عن الأسباب التي أدت إلى اضطهاد المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي : .. كثيرا ما أثارنا المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم ، وتصريحات رجال الدين وكبريا . قادتهم ، وسلطتهم أقطابهم العانية ، عاصفة من الاضطهاد ، وخاصة المعادلات بين الأطباء والكتتاب بحد السيطرة المطلقة على أممهم .. وفي خلال الحروب العلية ، طالما وقع مسيحيو الشرق في نعمة العمل على عمالة الغزوات التي قام بها إخوانهم في الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب . وفي تركيا الحديثة ، نجد حركة استقلال اليونان ، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية في أوروبا المسيحية ، ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة ، أشق مما كان يمكن أن يكون لو أنهم لم ينهضوا بالحياة وغورهم من حاكمهم المسلم . وقد أوضح دي جوبينو De Gobineau فكرته أيضا قويا جدا فيما يتعلق بمسألة سماح الإسلام حين قال : .. إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية التي طالما تحدثت وعلت باسمها ، فإنا لا نجد دينا أكثر تسامحا ، بل يمكن أن يقال على وجه التفریب ، أكثر بعدا عن الاكثريات للعقيدة الفردية من الإسلام . هذا التسكون الآل قوى إلى حد أننا إذا استثنينا الحالات التي كان كيان الدولة الواقع في خطر يجعل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة ، فقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية . لا يجوز أن تقف عند ألوان القسوة والعنف الذين ارتكبوا في أية مناسبة . وإذا نظرنا إليها عن قرب ، لن نتردد في معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضة أو راجعة إلى الأهواء البشرية ، أو إلى المزاج المسيطر على الحاكم أو في الشعوب . إن الفعل الديني لم ينجأ إلى هذه الوسائل إلا من حيث هي حجة ولكن في الواقع لا يدخل في نطاقها . ( A. de Gobineau (1), pp. 24-5. )

(٢) لوقرف على ترجمة حياته أنظر ابن خلكان ج ٢ ص ١١١ - ١١٥ .

(٣) ابن العبري (٢) ص ٤١٧ - ٤١٨ .

غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) ، عند ما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام في مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا إلى هذا الدين إلا نظاهرا ونفاقا ، يسمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين في العودة إلى التبت ، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين ، ويقبعون ديانتهم القديمة (١) . ويقص لنا تافرنيير قصة مماثلة عن بعض يهود أصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهادا شديدا إلى حد أنه جعلهم يتحولون إلى الإسلام بالقوة والخديعة كليهما ؛ ولكن الملك (الشاء عباس الثاني) (١٦٤٢ — ١٦٦٧) أدرك أن القوة والرغبة وحدهما قد أرغمتاهم على هذا التحول ، فأذن لهم أن يستردوا ديانتهم وأن يعيشوا في هدوء وأمان ، (٢) . وتدلنا قصة ذكرها رحالة (٣) في فارس يرجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير ، إلى سنة ١٤٧٨ ، كيف عكف أحد حكام المسلمين ، في تلك الأزمان المضطربة ، على القضاء على سورة من التعصب من هذا النوع نفسه في شدة وعنف . بينما كان تاجر أرمني موسر جالسا في حانوته ذات يوم . قدم عليه حاجي (٤) ، كان مشهورا بالتقوى والصلاح ، وألح عليه أن يدخل في الإسلام ، وينبذ المسيحية . ولما أعرب التاجر عن نيته في أن يظل ثابتا على دينه ، وقدم له صدقة ، رغبة في أن يتخلص منه ، أجابه بأنه لا يريد صدقته ، وإنما يريد أن يتحول إلى الإسلام . وأخيرا ضاق الحاجي ذرعا بإصرار التاجر على الرفض ، فاختطف نجاة سيغا من يد أحد المشاهدين ، وضرب التاجر على رأسه ضربة قاصية ، ثم لاذ بالفرار . ولما سمع حاكم المدينة الخبر ، استشاط غضبا ، وأمر بأن يقتل أثر القاتل ويودع في السجن . وجمي بالمذنب بين يدي الحاكم ، فطعنه بيده طعنة قضت عليه وأمر بأن تلقى جسده نهبيا للكلاب ، وقال : «ماذا أبهذه الطريقة ينتشر دين محمد ؟» . ولما أرخى الليل سدوله أخذ عامة الشعب هذه الجثة وحرقوها ، ومن ثم ناسخط الحاكم لهذا التحقير لأوامره . فأسلم هذا المكان إلى عساكره ينهبونه ثلاث ساعات أو أربعا ، ثم فرض غرامة لإمعانا في العقاب . وكذلك استقدم إليه ابن التاجر وعزاه ولاحظه ببهارات طيبة رقيقة . حتى الحاكم المجنون (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) (٣٨٦ — ٤١١ هـ) الذي حملت اضطهاداته كثيرا من اليهود والمسيحيين على أن يتركوا دينهم ويدخلوا في الإسلام ، قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام عن غير رغبة أن يعودوا مرة أخرى إلى دينهم ، وأن يعيدوا بناء أمان كن عبادتهم المخربة (٥) . ولما كان المسيحيون الشرقيون يلقون إهمالا من جانب إخوانهم المسيحيين في الغرب ، وكانوا في الأغلب الأعم عزلا من أي سلاح ، كما كانوا غير محبيين على الإطلاق ، كان يكون من السهل على أي حاكم

C. d'ohsson, vol. iv. p. 281. (١)

Tavernier (1), p. 160. (٢)

Viaggio di Iosafa Barbero nella Persia, (Ramusio, vol. ii. p. III.) (٣)

لأنه يقصد سقا الحاجي بقوله آزي (٤)

المسكين ص ٢٦٠ . وعلى هذا النحو ، أصدر المقتدر (٩٠٨ — ٩٢٢ م) (٤٩٥ — ٥٢٢ هـ) الذي ولي (٥)

من حكام الإسلام الأقوياء ، أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين ، أو ينفيهم من بلادهم ، كما فعل الأسبان بالعرب ، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريباً . وكان من الممكن تماماً أن ينفذ سليم الأول ( في سنة ١٥١٤ ) أو إبراهيم ( في سنة ١٦٤٦ ) تلك الفكرة البربرية التي تصوروها للقضاء على رعاياهم المسيحيين ، كالذي صنعه الأول من ذبح ٤٠٠٠٠ شيعي لتدعيم وحدة العقيدة الدينية بين رعاياه المسلمين . وإن طبقة المفتي الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذي ينطوي على القسوة ، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتساح الإسلامي (١) .

أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن المبدأ الذي وجد قبولاً عظيماً في ألمانيا في القرن السابع عشر (٢) — وهو أن لكل منطقة دينها الخاص — لم يقبله قط أي عاقل مسلم ، فمن الواضح أن هذه الحقيقة ، وهي أن الإسلام دين الدولة لم تعجز في أنها قد أحدثت بعض التأثير في زيادة عدد أنصاره . وإن الأشخاص الذين لم تتغلغل العقيدة الدينية في نفوسهم قد يكونون على استعداد للتأثر باعتبارات المنافع الدنيوية ، وقد يقوم الطموح والمصلحة الشخصية مقام بواعث أكثر قبولاً واستحساناً للتحويل إلى الإسلام . وقد شكك القديس أوغسطين من مثل ذلك في القرن التاسع ، فذكر أن كثيراً من الناس دخلوا في الكنيسة المسيحية ، لا لشيء إلا لأنهم أمّلوا في الحصول على بعض المنافع المادية باعتقادهم المسيحية ، قال : « وما أكثر الذين لا يسعون إلى المسيح إلا لغرض واحد ، هو أن يجنوا من وراء ذلك منفعة لهم ، حسب ما تقتضيه ظروف كل منهم ؛ يكون لأحدهم مهمة ما فيسمى إلى رجال الدين ليحظى منهم بالكلمة الصالحة ؛ ويهرع آخر إلى الكنيسة يطلب منها الحماية من زميل له ، أكثر منه عتاداً وقوة ، قد ضيق عليه الخناق ؛ ويرى آخر بذلك إلى توسيط زميل له بعض الجاه والسطان ، لمصلحته الشخصية . ولهذا حجه ، ولذلك حجه . إن الكنيسة تمتلئ كل يوم بأمثال هؤلاء » (٣) .

زد على ذلك أيضاً ، أن الإسلام لا بد أن يكون قد بدا في نظر القبائل المتبربرة وغير المتعدنة التي شاهدت مجد الإمبراطورية العربية وعظمتها في أوج قوتها ، بمثل ذلك التأثير والسحر اللذين بدت بهما المسيحية حين عرضت على برايرة أوروبا الشمالية ، وعندما وجدوا المسيحية في الإمبراطورية — تلك المسيحية المهذبة

== الخليفة قبل الحاكم بنحو قرن ، وأمره بإعادة بناء بعض الكنائس في الرملة بفلسطين ، وكان المسلمون قد خربوها في أثناء شغب لم يدون التاريخ سببه . (سعيد بن البطريق ٢٤ ص ٨٢) . ويذكر أبو صالح إعادة بناء كنجر من الكنائس والأديار الكبيرة في مصر ، وكانت إما قد خربت في زمن الحرب ( أي في خلال غزوة الفز والأكراد في سنة ١١٦٤ ) ( ص ٩١ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٢٠ ) ، أو دمرت بأيدي المنصبين ( ص ٨٥ - ٨٦ ، ١٨٢ ) ، والمقريزي منقولة في ملحق ص ٣٢٧ — ٣٢٨ ) ، أو آلت إلى الفناء . ( ص ١٠٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ) .

(١) A. de la Jonquière, pp. 203, 213, 312.

(٢) E. Charvériat : Histoire de la Guerre de Trente Ans, tome, ii, pp.

615, 625. (Paris, 1878.)

(٣) In Ioannis Evangelium Tractatus, xxv. § 10.

المقدمة التي تعتمد على الآبهة وجلال النفوذ والسلطان — دينا لبس التاج إلى جانب الملوك ، وقد يتفوق عليهم في السيطرة في بعض الأحيان ، (١)

وبما يجب أن نزيده على ما تقدم ، هذا التأثير البطيء الدائم ، الذي أحدثه الاتصال اليومي بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامي ، مما جعل حتى أحد الكتاب النساطرة في القرن الثاني عشر ، يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم النبي والخلفاء الأولين كلما عرض لذكرهم (٢) ، ويستنزل رحمة الله على عمر ابن عبد العزيز (٣) . وفي عصور حديثة ، يشكو المبشرون المسيحيون من أن نظام التعليم العام في مصر في ظل الاحتلال البريطاني ، ذلك النظام الذي يضطر الأولاد المسيحيون غالباً بمقتضاه إلى أن يجلسوا ويستمعوا للقرآن والدين ( أي الدروس الدينية ) وهما يدرسان لرفاقهم المسلمين ، على حين لا يوجد مكان يمكن عزلهم فيه ، (٤) ، إنما يميل إلى منح المسلمين نفوذاً راجحاً على إخوانهم التلاميذ المسيحيين . ومن أنشط أتباع محمد عبده المفتي الأخير رجل كان في الأصل طالباً قبطياً يدرس الطب ، ثم تحول إلى الإسلام بتأثير التعليم الديني الذي كان قد سمعه يلقن في ساعات الدرس بالمدرسة (٥) .

ولكن سرد أمثال هذه البواعث النافهة يفسر كل حالات التحول إلى هذا الدين أو إلى غيره من الأديان . وينبغي ألا تجعلنا هذه البواعث نغض النظر عن العوامل الأخرى في حياة الدعوة إلى الإسلام التي كان لتأثيرها طابع ديني أكثر تميزاً ووضوحاً . وفي مقدمة هذه العوامل تأثير حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون . وقد يبدو ذلك غريباً في نظر جيل تعود أن ينظر إلى الإسلام على أنه مستودع لكل ألوان الرذيلة ؛ ومع ذلك لا مرأى في أن كثيراً من المسيحيين في عصور أقدم من ذلك ، اتصلوا بمجتمع إسلامي حى ، وتأثروا تأثراً عميقاً بما تجلّى في هذا المجتمع من فضائل . وإذا كانت هذه الفضائل قد أثرت كذلك في الرحالة وفي الغريب ، فلا شك في أنه كان لها بعض التأثير في جذب الكافر الذي أصبح يتصل بهم اتصالاً يومية . من ذلك نجد ركلدوس دي مونت كروسيس Ricoldus de Monte Crucis ، وهو مبشر دومينيكانى زار الشرق في نهاية القرن الثالث عشر ، ينطلق بالثناء على المسلمين الذين كان قد اشتغل بين أظهرهم ، يقول : « استولى علينا الدهش ، كيف أن أعمالاً تتصف بمثل هذا الكمال يمكن أن تحيا في »  
C. Merivale : The Conversion of the Northern Nations, p. 102. (١)

(London, 1866.)

(٢) ماري بن سليمان ص ٦٢ ( س ١٣٠٦٠٤ ) . وعلى ذلك أعرب العالم الماروني يوسف سمعان السمعاني ، في القرن الثامن عشر ، عن فوته من مثل هذا الاذعان لاحساس المسلمين بقوله : « لقد منح محمداً وانصاره ، والأمر الذي لا يمكن أن يذكر دون أن نقسم منه الأبدان ، هو أنه ذكر اسم ذلك النبي ... مع القول المضاف .. عليه السلام .. ذلك القول الذي لا يمت على الدهش ، كما جرت بذلك عادة المسلمين (Assemani, tom. iii. pars. i. p. 585)

(٣) ماري بن سليمان ص ٦٥ ( س ١٦ ) .

Methods of Mission Work among Moslems, p. 62. (٤)

Id. pp. 61-4. (٥)

ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة الإلحادية . لهذا نستعيد الآن في إيجاز أعمال العرب تلك المتصفة بالكمال... من ذا الذي لا يجب إذا تأمل جيدا أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب ؛ أي إخلاص في الصلاة ، وأية رحمة بالفقير ، وأى تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وأى وقار في أخلاقهم ، وفي معاملتهم للغرباء ، وأية مودة تربط بين جنسهم ؟ (١) وعلى هذا النحو امتدح ولیم پی أف نیوبره William Petit of Newburgh حول نهاية القرن الثاني عشر ، رزاة العرب باعتبارها مظهرا من تعاليم نبيهم ، وموحية إليهم بمعنى من التفوق الخالق على المسيحيين ، قال : « ولما كان محمد يبغض السكرى والنهيم في جميع أنحاء الأرض ، فإنه قد علمهم العفة والقناعة ، وقبح الطيب من الطعام ، ونهاهم عن شرب الخمر إلا في أعياد محددة قليلة » ولذلك نرى العرب ، وإن كانوا حقيقة مستسلمين لشهواتهم الجنسية ، متبعين في ذلك كما قيل - سنة ذلك الذي أغواهم ، إلا أنه من المحزن أن نقول إنهم أكثر عفة وأرجح منزلة من رجالنا المسيحيين . وهم آخذون علينا ، يا للعار ! ، فذارتنا بسبب نهمننا وإدماننا تناول المسكرات . ولما سمع صلاح الدين أخيرا ، أثناء اختباره أحوال شعبنا ، وكان صلاح الدين المعول الهدام لاسم المسيحيين منذ عشر سنوات خلت ، أنهم يستخدمون بعض الأطباق عند تناول الطعام ، يروى أنه قال إن أمثال هذه الآنية تعد عارا على الأرض المقدسة . ومن ذلك يتضح أن مظهر مجدنا يثير علينا العرب الذين يباهون باقتصادهم ، كما أنه يشجعهم ، كأن لسان حالهم يقول وقد نبذ الله السكرى ، فلنقتف آثارهم ، ونلق القبض عليهم ، ماداموا لا يجدون منقذا لهم. (٢) .

كان  
يسبب  
على الكاتب  
وشرح  
نفي  
لهكذا  
قول  
كما  
تفعل  
لغيره  
في  
سبيل  
الخدمة

وأدب الصليبيين غنى بمثل هذا التقدير للفضائل الإسلامية ، كما تلقى الأتراك العثمانيون في أيام حكمهم الأولى في أوروبا ، كثيرا من تقدمات المدح والثناء من أفواه المسيحيين ، كما بينا ذلك في أحد أبواب هذا الكتاب .

وهناك في الوقت الحاضر عاملان رئيسان ( فوق ما ذكرنا آنفا بما يصح أن يؤيد وجهة نظرنا ) يعملان على تنشيط الدعوة في العالم الإسلامي . أولهما انتعاش الحياة الدينية التي يبدأ تاريخها من حركة الإصلاح الوهاية في نهاية القرن الثامن عشر ؛ وعلى الرغم من أن هذا الانتقال الجديد قد فقد كل معنى سياسى في خارج حدود نجد زمنا طويلا ، نرى تأثيرها من حيث هي نهضة دينية ملبوسا في كافة أنحاء إفريقيا والهند وأرخبيل الملايو ، حتى إلى الوقت الحاضر ، كما أحييت كثيرا من الحركات التي أحرزت قصب السبق بين أقوى المؤثرات في العالم الإسلامي . وقد أوضحنا في الصفحات السابقة كيف أن كثيرا من البعث الإسلامية الحديثة ، يرتبط ارتباطا وثيقا بتلك الحركة الواسعة النطاق . وإن ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة ، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة ، وما بثته في الدراسة الدينية النظرية وتنظيم الشعائر

Laurent, p. 131.

(١)

Historia Rerum Anglicarum Willelmi Parvi de Newburgh, ed. Hans

(٢)

Claude Hamilton, vol. ii. p. 158 (London, 1856.)

المنسكية من روح دافعة — إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الإسلام الفطرية التي جبلت على نشر تعاليم الدعوة ، كما عمل على الإبقاء عليها .

وهناك عامل آخر يسير مع هذه الحركة الإصلاحية جنباً إلى جنب ، وهو من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف — ذلك أنه ، ولن نذكر إلا وجهة واحدة من هذا الاختلاف ، في الوقت الذي نجد فيه الحركة الوهاية تناهض الحضارة الأوربية المناهضة عنيفة ، نرى العامل الثاني ينزع نوعاً ما إلى التفكير الحديث ، ويقدم صورة الإسلام بما يمشى مع هذه النزعة ، — ذلك هو حركة الوحدة الإسلامية التي تسمى إلى ربط جميع شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف . وعلى الرغم من أن هذا العامل لا يساوى مجال العامل الآخر في الأهمية ، نجد هذا الاتجاه إلى التفكير ، يهب روحاً قوية تدفع إلى القيام بأعمال نشر الدعوة ؛ وإن الجهد الذي يحقق في الحياة الدنيا المثل الإسلامي الأعلى في إخوة المؤمنين كافة لينعكس على مثل العقيدة العليا المكتملة ؛ وإن معنى وحدة شاملة ، وحياة مشتركة تجرى في هذه الشعوب ، لينفخ في قلوب المؤمنين روحاً وحياة ، ويخلق فيها الجرأة على التحدث بين يدي الكفار .

أما معرفة ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية ، فإن المستقبل وحده كفيل ببيان ذلك . على أن مجرد نشاطهم في الوقت الحاضر دليل على أن الإسلام لم يمت . ولم يكن النشاط الروحي للإسلام ، كما زعم عدد كبير جداً من الناس ، متمشياً مع سلطانة السياسي (١) . بل على العكس من ذلك ، نجد فقدان السلطة السياسية والاعتاش المادي ، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة . وقد تعلم الإسلام منافع الشدائد ، ولما كان بعيداً كل البعد عن الانحدار إلى الرخاء المادي لكونه نذير انحلال هذا الدين ، كان من المهم أن تلك البلاد الإسلامية الخالصة ، التي عاشت أطول وقت في ظل الحكم المسيحي ، تتجلى كأشد ما تكون نشاطاً في القيام بنشر تعاليم الدعوة . ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدين مالا يجده في تركيا أو في مراکش .

(١) وقد عبر فرديريك ديفسون موريس عن فكرة من أكثر الأفكار التي تتعلق بهذه العقيدة تداولاً وشيوعاً ، حين يقول :  
" من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلا عند ما كان يهدف إلى الغزو ... "

ملحق (١)

## رسالة الهاشمي إلى الكندي يدعو به إلى الإسلام

فيما يلي نص رسالة الهاشمي يدعو به إلى الإسلام :

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فقد افتتحت كتابي إليك بالسلام عليك والرحمة تشبها بسيدى  
وسيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ ، فإن تقائنا ذوى العدالة عندنا . الصادقين الناطقين بالحق ، الناقلين  
إلينا أخبار نبينا عليه السلام ، قد رروا لنا عنه أن هذه كانت عادته ، وأنه كان ﷺ إذا افتتح كلامه مع  
الناس يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبته إياهم ، ولا يفرق بين الذى منهم والأبى ، ولا بين المؤمن والمشرك ،  
وكان يقول إني بعثت بحسن الخلق إلى الناس كافة ، ولم أبعث بالغلظة والفظاظة . ويستشهد الله على ذلك ،  
إذ يقول : « بالمؤمنين رءوف رحيم (١) » . وكذلك رأيت من حضرته من أئمتنا الخلفاء المهتدين الراشدين  
رضى الله عنهم أجمعين ، أنهم كانوا لفضل أديهم ، وشرف حسبهم ، ونبل همتهم وكرم أخلاقهم ، يقتبعون  
أثر نبيهم ﷺ ، ولا يفرقون في ذلك ولا يفضلون فيه أحدا ، فسلكت ذلك المنهج ، واحتذيت تلك  
السبل ، وأخذت ذلك الأدب المحمود ، فابتدأتك في كتابي هذا بالسلام والرحمة ، لئلا ينكر على منكر  
يقع إليه كتابي هذا .

والذى حملني إليك وحنى على ذلك ، محبتي لك ؛ إذ كان سيدى ونبي محمد ﷺ يقول نجة القريب  
ديانة وإيمان . على أنى كتبت طاعة لرسول الله ﷺ ، ولما أوجه لك عندنا حق خدمتك لنا ، ونصحك  
إيانا ، وما أنت عليه من محبتنا ، وتظهره من مودتنا ، والميل إلينا ، وما أرى أيضا من إكرام سيدى  
وابن عمى أمير المؤمنين أيدى الله لك ، وتقريبه إياك ، وثقته بك ، وحسن قوله فيك . فرأيت أن أرضى لك  
ما قد رضيته لنفسى وأهلى وولدى مخلصا لك النصيحة ومبذلا (٢) ، كاشفا عما نحن عليه من ديانتنا هذه التى  
ارتضاها الله لنا وجميع خلقه ، ووعدنا عليها حسن الثواب فى المعاد ، والأمن من العقاب فى المسآب . . .  
فرغبت لك فيما رغبت فيه لنفسى ، وشفقت عليك لما ظهر لى من كثرة أدبك وبارع علمك وحسن  
تهذبك وجميل مذهبك وشرف حسبك وتقدمك على الكثير من أهل ملتك ، أن تكون مقبلا على ما أنت  
عليه من دياتك هذه ، فقلت : أكشف له عما من الله به علينا ، وأعرفه ما نحن عليه بألین القول وأحسنه  
متبعا فى ذلك ما أذن الله به ، إذ يأمرنى ويقول جل ثناؤه : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، .  
(سورة ٢٩ آية ٤٥) . فلتست أجدالك إلا بالجميل من الكلام ، والحسن من القول ، واللين من اللفظ ،

(١) تمام الآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما هتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم .. »

(٢) كذا فى الأصل ، ولله عرف عن (بذلها) .

لعلك تنتهي وترجع إلى الحق ، وترغب فيما أتوه عليك من كلام الله جل جلاله ، الذي أنزله على خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ، نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . ولم يأبس من ذلك ، بل رجوته لك من الله الذي يهدي من يشاء ، وسألته أن يجعلني سببا في ذلك ، ووجدت الله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » (سورة ٣ آية ١٧) ، ويقول الله أيضا مؤكدا لقوله الأول ، ومن يتبع غير الإسلام ديننا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . (سورة ٣ آية ٧٩) ، ثم أكد ذلك تبارك وتعالى أمراً قاطعاً إذ يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » (سورة ٣ آية ٩٧) .

« وأنت الرجل (عافك الله من جهل الكفر ، وفتح قلبك لنور الإيمان) — تعلم أني رجل أتت عليّ سنون كثيرة ، وقد تبهرت في عامة الأديان ، وامتحنتها ، وقرأت كثيرا من كتب أهلها ، وخاصة كتبكم معشر النصارى ، (وهنا يعدد الأسفار الهامة من العهد القديم والجديد (التوراة) ، وكيف درس الفرق المسيحية المختلفة) . وولقيت جماعة من الرهبان المعروفين بشدة الزهد وكثرة العلم ، ودخلت عمارا<sup>(١)</sup> وديارات وبيعا كثيرة ، وحضرت صلواتهم . . . ورأيت ذلك الاجتهاد العجيب ، والركوع والسجود يالساك الحدود بالأرض ، وضرب الجبهة ، والتسكف إلى انقضاء صلواتهم ، خاصة في ليالي الآحاد وليالي الجمع وليالي الأعياد . التي يسهرون فيها منتصبين الأرجل بالتسبيح والتقديس والتهليل الليل كله ، ويصلون ذلك بالقيام نهارهم أجمع ، ويكثرون في صلواتهم ذكر الأب والابن والروح القدس ، وأيام الاعتكاف التي يسمونها أيام البواعيث ، وقيامهم فيها حفاة على المسوح والرماد ، باكين بكاء كثيرا متواترا بانهمال دموع من الأعين والجفون ، منتحبين بشريق عجيب . ورأيت عملهم القربان ، كيف يحفظونه بالنظافة في خبزهم لإياه ، ودعاتهم عند عمله الدعاء الطويل ، مع التضرع الشديد عند إصعاده على المذبح في البيت المعروف ببيت المقدس ، مع تلك الكؤوس المملوءة خمرا . ورأيت أيضا ما يتدبر به الرهبان في قلايهم أيام صياماتهم الستة ، أعني الأربعة الكبار والاثنتين الصغيرين وغير ذلك . فهذا كله كنت له حاضرا ، ولأهله مشاهدا ، وبه عارفا عالما . ورأيت أيضا مطارنة وأساقفة مذكورين بحسن المعرفة وكثرة العلم ، مشهورين بشدة الإغراق في الديانة النصرانية ، مظهرين غاية الزهد في الدنيا ، فناظرتهم مناظرة نصفة ، طالبا للحق ، مسقطا بيني وبينهم اللجاج والمرء والمكابرة بالسلطة ، والصلف والبذخ بالحسب . وأوسعهم أمنا أن يقوموا بحجتهم ، ويتكلموا بجميع ما يريدونه ، غير مؤاخذ لهم بذلك ، ولا منعنت عليهم في شيء ، كناظرة الرعاع والجهال والسقاط والعوام والسفهاء من أهل ديارتنا ، الذين لا أصل لهم ينتهون إليه ، ولا عقل فيهم يُعوّلون عليه ، ولا دين ولا أخلاق تحجهم عن سوء الأدب ؛ وإنما كلامهم العنت والمكابرة والمغالبة بسلطان الدولة ، بغير علم ولا حجة . وكانوا إذا أنا ناظرتهم وسألتهم مسألة بحث عن عقولهم واعتقادهم وتخرجهم ، يصدقونني عن أمرهم ولا يكذبون في شيء مما كنت أسألهم عنه ، وأجادهم فيه ، وكنت قد عرفت من بواطنهم مثل الذي قد عرفته من ظاهرهم . فكتبت إليك (أصلحك الله!) بهذا الشرح ، وعدوت ما عدت وتنه بعد

(١) هو جمع عمر ، بضم العين ، بمعنى البيعة والسكنية . ولم نجد له في اللسان ولا لجاج جما .

الاستقصاء والبحث الشديد والامتحان له على طول الأيام ، لتلا يظن في أتى غبي بالأمور ، ويعلم من وقع إليه كتابي هذا أتى عارف بجميع أحوال النصارى حق المعرفة .

و فأتنا الآن (متبع الله بك ١) أدعوك بهذه المعرفة كلها مني بدينك الذي أنت عليه وبطول المحبة إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله لي وارتضيته لنفسى ، ضامنا لك به الجنة ضمنا صحيحا ، والأمن من النار ، وهو أن تعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يتخذ له صاحبة ولا ولدا ولم يكن له كفوا أحد ..... وهى الصفة التى وصف نفسه جل وعز بها ، إذ كان ليس أحد من خلقه أعلم به من نفسه . فدعوته إلى عبادة الإله الواحد الذى هذه صفته ، ولم أزد فى كتابي هذا على ما وصف به نفسه (جل اسمه وتعالى ذكره ، علوا كبيرا عما يشركون ١) ، فهذه ملة أبيك إبراهيم صلوات الله عليه ، فإنه كان حنيفا مسلما .

ثم أدعوك وحفظك الله إلى الشهادة والإقرار بنبوة سيدى وسيد ولد آدم ، وصنى رب العالمين وغاتم الأنبياء محمد . . . الذى أرسله الله بشيرا ونذيرا إلى الناس كافة ، بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، (سورة ٩ آية ٣٣) . فدعا الناس أجمعين ، أهل الشرق والغرب ، وأهل البر والبحر ، والجبل والسول ، بالرحمة والرأفة وطيب القول وحسن الخلق واللين . فاستجاب هذا الخلق كله إلى دعوته بالشهادة له أنه رسول الله رب العالمين إلى من يريد انتصاحا ، وأقر الأنام كلهم طائعين مذعنين لما عرفوا من الحق والصدق من قوله وصحة أمره ، وما جاء به من البرهان الصريح والدليل الواضح ، وهو هذا الكتاب المنزل عليه من عند الله ، والذى لا يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتي بمثله ، وكفى به دليلا على دعوته ، وأنه دعا إلى عبادة إله واحد فرد صمد ، فدخلوا فى دينه وصاروا تحت يده غير مكبرين ولا مجبرين ، بل خاضعين معترفين مستنيرين بنور هدايته متطاولين باسمه على غيرهم ممن جحد نبوته وأنكر رسالته ورد أمره مقاوما ومتعاليا ، فكان الله لهم فى البلاد وأذل لهم رقاب الأمم من العباد ، إلا من قال بقولهم وتدين بدينهم ، وشهد على شهادتهم ، لحقن بذلك دمه وماله ، وحرمته أن يؤدى الجزية عن يده وهو صاغر . (وهنا يعدد تعاليم الإسلام المختلفة ، كالصلوات الخمس وصوم رمضان والجهاد ، ويشرح عقيدة بعث المولى ، ويوم الدين ، ويصف منافع الفردوس وأحوال الجحيم) . وفأما نحن فقد ذكرناك ؛ فإن أنت آمنت وقبلت ما يتلى عليك من كتاب الله المنزل انتفعت بما ذكرناك ، وكتبنا به إليك ؛ وإن آبيت إلا المقام على كفرك وضلالك وعنادك للحق ، كنا نحن قد أجرنا ، إذ عملنا بما أمرنا به وكان الحق هو المنتصف منك إن شاء الله . (وهنا يعدد فروض الدين المختلفة ومزايا المسلم ويختم ذلك بقوله) : فقد تولت عليك من قول الله تبارك وتعالى ، وهو قول الحق ، لا خلف لوعده ، ولا تكذيب لقوله فيما سلف من كتابي هذا ، ما فى أفله كفاية . فدع ما أنت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء ، وقولك بذلك التخليط الذى تعرفه ولا تنكره وهو قولكم بالأب والابن والزوج القدس وعبادة الصليب التى تضر ولا تنفع ، فإنى أربأ بك عنه وأجل فيه عليك وشرف حسبك عن حساسة ، فإنى وجدت الله تبارك وتعالى يقول ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، (سورة ٤ آية ٥١) ، وقال جل ذكره ، ولقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن

مريم ، وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ، وماواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ؛ وما من إله إلا إله واحد ؛ وإن لم ينتهوا عما يقولون لسميمون الذين كفروا منهم عذاب أليم ؛ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ؛ والله غفور رحيم ؛ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه حديقه كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنسى يؤفكون . فدع ما أنت فيه من تلك الضلالة ، وتلك الحمية الشديدة الطويلة المتعبة ، وجهد ذلك الصوم الآزم الصعب والشقاء الدائم ، والبلاء الطويل الذى أنت منغمس فيه ، الذى لا ينفع ولا يجدى عليك إلا إتعاك بدنك وتعذيبك نفسك ، وأقبل داخلا فى هذا الدين القيم ، السهل المنهج ، الصحيح الاعتقاد ، الحسن الشرائع ، الواسع السبيل ، ارتضاء الله لأوليائه من عباده ، ودعا جميع خلقه إليه من بين الأديان كلها ، تفضلا منه عليهم به ، وإحسانا إليهم بهدائه إليهم ، ليتم بذلك نعماء عندهم .

فقد نصحت لك يا هذا وأدبيتُ إليك حق المودة وخالص المحبة ، إذ أحببت أن أخلطك بنفسى ، وأن أكون أنا وأنت على رأى واحد وديانة واحدة . فإنى سمعت ربى يقول فى محكم كتابه ، إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها ، أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ؛ جزاؤهم عند ربهم جنّات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه ، (سورة ٩٨ آية ٥ إلى ٨) ، وقال الله فى محكم كتابه فى موضع آخر ، كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، (سورة ٣ آية ١٠٦) . وأشفتك عليك (أبقاك الله!) أن تكون من أهل النار ، الذين هم شر البرية ، ورجوت أن تكون بتوفيق الله إياك من المؤمنين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وهم خير البرية ، ورجوت أن تكون من هذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس ، فإن آيت إلا لإظاظا ولجاجة وجهلا وتماديا فى كفرك وطفيانك الذى أنت فيه ، ورددت علينا قولنا ، ولم تقبل ما بذلناه لك من نصيحتنا ، حيث لم تُرد منك على ذلك جزاء ولا شكرا ، فاكتب بما عندك من أمر دينك ، والذى صح فى يدك منه ، وما قامت به الحجة عندك ، آما مطمئا ، غير مقصر فى حجتك ولا مكاتم لما أنت معتقده ، ولا فرق ولا وجل ؛ فليس عندى إلا الاستماع للحجة منك ، والصبر والإفراز بما يلزمى منه طائعا غير منكسر ، ولا جاحد ولا هائب ، حتى نقيس ما تأتينا به وتتلوه علينا ، ونجمعه إلى ما فى أيدينا ، ثم نخبرك بعد ذلك . على أن تشرح لنا علته ، وتدع الاعتلال علينا بقولك إن الفرع حجبتك وقطعتك عن بلوغ الحجة ، واحتجت أن تقبض لسانك ، ولا تبسطه لنا ببيان الحجة ، فقد أطلقناك وحجتك ، لئلا تنسبنا إلى الكبرياء ، وتدعى علينا الجور والحيف ، فإن ذلك غير شبيه بنا . فاحتج عاقل الله بما شئت ، وتكلم بما أحببت ، وانبسط فى كل ما تظن أنه يؤدبك إلى وثيق حجتك ، فإنك فى أوسع الأمان ، ولنا عليك أصلحك الله ، إذ أطلقناك هذا الإطلاق ، وبسطنا لسانك هذا البسط ، أن تجعل بيننا وبينك حكما عادلا لا يجرور ، ولا يحيف فى حكمه وقضائه ، ولا يميل إلى غير الحق إذا ما تجنب دولة الهوام (١) ؛ وهو العقل الذى يأخذ به الله عز وجل ويعطى ، فإننا قد أنصفناك فى القول وأوسعناك فى الأمان ،

ونحن راضون بما حكم به العقل لنا وعلينا إذ كان ولا إكراه في الدين، (سورة ٢ آية ٢٥٧) ، وما دعوناك إلا طوعاً وترغيباً في ما عندنا وعرفناك شناعة ما أنت عليه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ويمكن أن يكون هنالك قليل جداً من الشك في أمر واحد فيما يتعلق بهذه الوثيقة ، وهو أنها قد وصلت إلينا في حالة ناقصة ، وأنها لقيت على أيدي النساخ المسيحيين تشويهاً وتحريفاً . وإن ما نكاد نراه من عدم وجود ما يدحض تلك العقائد المسيحية الحاسمة دحضاً تاماً ، كعقيدة الثالوث المقدس ، وما نجده من الإشارات إلى أمثال تلك الهجمات في رد الكندي على هذه الرسالة ، ليدل بالتأكيـد على إسقاط تلك العبارات التي قد تكون قد آلمت القراء المسيحيين (١) .

### ملحوظة (٢)

## كتب الجدل بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى

على الرغم من أنه لم يكن للإسلام طريقة منظمة للدعاية ، ولا جمعيات دينية ، ولا وسائل من هذا القبيل للقيام بأعمال الدعوة ، لم يكن هنالك أي نقص في عروض الدين المعقولة التي قدمت إلى الكفار ، وخاصة إلى المسيحيين واليهود . وليس من غرضنا أن نورد وصفاً مفصلاً عن تلك العروض في هذا المقام ، ولكن المهم أن نوجه انتباهنا إلى وجودها ، وحسبنا أن نعمل ذلك لنزيل الخطأ الشائع الذي يقول إن التحول الجمعي هو الصفة الغالبة في انتشار الإسلام ، وإن الإقناع الفردي لم يؤلف أي جانب من مشروعات الدعوة التي قام بها الدعاة المسلمون . ونجد بواكير الجدل الإسلامي ضد الكفار في القرآن ذاته ؛ ولكن منذ القرن التاسع الميلادي تبدأ سلسلة طويلة من الرسائل المنظمة في الدفاع عن صحة الديانة الإسلامية ، وقد ظلت قوية نشيطة حتى الوقت الحاضر . وإن عدد أمثال هذه المؤلفات التي وجهت ضد العقيدة المسيحية ، كان أكبر بكثير مما كتبه المسيحيون في تفنيد الإسلام ، وقد استخدم فريق من أقدر مفكري المسلمين أقلامهم في كتابة هذه المؤلفات ، منهم أبو يوسف بن إسحاق الكندي (٨١٣ - ٨٧٣ م) والمسعودي (المتوفى سنة ٩٥٨ م) وابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤ م) والغزالي (المتوفى سنة ١١١١ م) وغيرهم . ومن الطريف أيضاً أن نلاحظ أن عدة من المرتدين كتبوا يبررون تغيير دينهم ويدافعون عن العقيدة الإسلامية ، منهم ابن جزلة في القرن الحادي عشر ، ويوسف اللبباني والشيخ زيادة بن يحيى في القرن الثالث عشر ، وعبد الله بن عبد الله في القرن الخامس عشر ، ودرويش علي في القرن السادس عشر ، وأحمد بن عبد الله وهو إنجليزي ولد في كبرديج في القرن السابع عشر وغيرهم . وهؤلاء الآخرون كانوا جميعاً مسيحيين

(١) وعلى هذا النحو ، نجد عناصر الأسباب الذي نشر الرسائل الجدلية التي تبودلت بين الفار و « المذنب » (وهو مسيحي تحول إلى اليهودية) بحسب الملاحظة الآتية عقب الرسالة الخامسة عشرة : « إن أربعة عشر سطراً من هذه الصحيفة قد انحلت بحيث لا يمكنك قراءة كلمة واحدة منها . وقد قطع صاحب الكتاب الصحيفة التالية ، حتى لا تقرأ أباطيل المذنب » .

(Migne, Patr. Lat., tom. cxxi p. 483.)

قبل أن يتحولوا إلى الإسلام؛ أما المرتدون من اليهود أيضا، مع أنهم كانوا أقل عددا، فقد كانوا من بين الذين كتبوا دفاعا عن الإسلام. وإلى جانب ما دون في الهند من كتب إسلامية كثيرة للرد على الدين المسيحي، نجد عددا هائلا من المؤلفات الجدلية للرد على الهندوكية: أما أن المسلمين كانوا على هذا النحو من النشاط في سائر الأقطار الوثنية، فليس لدى معلومات عن ذلك.

وسيجد القارىء ذخيرة وافية من المعلومات عن آداب الجدل الإسلامى فى الكتب التالية:

Moritz Steinschneider: Polemische und apologetische Litteratur in arabischer Sprache, zwischen Muslimen, Christen und Juden. (Leipzig, 1877.) ; Martin Schreiner: Zur Geschichte der Polemik zwischen Juden und Muhammedanern (Z. D. M. G., vol. 42, p. 591 ff. 1888) ; W. A. Shedd: Islam and the Oriental Churches, pp. 252-3 ; Carl Güterbock: Der Islam in Lichte der byzantinischen Polemik (Berlin, 1912.)

### ملحوظة (٣)

## جمعيات الدعوة الإسلامية

إن تأليف الجمعيات لمباشرة الدعاية فى طريقة منظمة منهجية، تطور حديث العهد فى تاريخ الدعوة الإسلامية — كما هى فى الواقع حديثة نسبيا فى تاريخ الإرساليات المسيحية. وقد يبدو أن أمثال جمعيات الدعوة الإسلامية هذه، قد تألفت على مثال يقوم على الخبرة والمعرفة لهيئات منظمة مماثلة فى العالم المسيحي؛ وهى ليدت فى ذاتها أشد الدلالات تميزا لروح الدعوة فى الإسلام. وفى العالم الغربى نجد قليلا جدا يمكن ملاحظته فى هذا الصدد. ويظهر أنه لم تكن هنالك أية محاولة قد بذلت لتكوين مثل هذه الجمعية قبل النصف الأخير من القرن التاسع عشر، ولم يكال أسبق الجهود فى هذه السبيل إلا بقليل من النجاح. وعندما كتب ه. م. ستانلى فى سنة ١٨٧٥ فى الصحافة الإنجليزية بحث على إرسال بعث مسيحي إلى موزا ملك أوغندة، أدت العناية الواسعة النطاق التى وجهها الناس إلى دعوة ستانلى إلى تأليف جمعية فى القسطنطينية لنشر الدعوة الإسلامية فى تلك البلاد. ولكن أحدا من الدعاة المسلمين لم يرسل قط إلى أوغندة، وحوال نشوب الحرب الروسية التركية فى سنة ١٨٧٨ أنظار الأتراك عن أى مشروع من هذا القبيل (١). وقد تبين إخفاق ماثل فى تأسيس عمل منظم لنشر الدعوة، عندما حددت الحكومة المصرية الإنجليزية فى السودان مناطق النفوذ للجمعيات التبشيرية المسيحية المختلفة فى المقاطعات التى كان أهلها وثنيين. وقد ادعى بعض مسلمى القاهرة أن جزءا من الأراضى يجب أن يُخصص لاتباع الإسلام؛ ومن ثم أجابت الحكومة بأن كل ما تستطيع عمله أن ترسل دعاة مسلمين، وأن تقدم إليهم نفس التسهيلات التى قدمتها للمبشرين المسيحيين.

ولكن المسألة كان يعوزها التنظيم الأساسى ، فتمرضت للاهمال<sup>(١)</sup> . وفى سنة ١٩١٠ أسس الشيخ رشيد رضا ، صاحب مجلة المنار ، جمعية فى القاهرة ، كانت تهدف إلى تأسيس كلية ( تسمى دار الدعوة والإرشاد ) لتدريب دعاة وجدليين للدين الإسلامى ، وإرسالهم بادية الأمر إلى بلاد الوثنيين والمسيحيين ، بل إلى البلاد الإسلامية التى تبذل فيها الجهود لإقناع المسلمين بالتخلى عن عقيدتهم<sup>(٢)</sup> .

على أن أعظم توسع لأمثال هذه الهيئات المنظمة كان فى بلاد الهند . ومن المحتمل أن تعد أنجومان حامية إسلام فى لاهور من أحسن الهيئات المنظمة ، ولكن مهمة الدعوة لا تؤلف من مجال نشاطها الواسع إلا جانباً يسيراً ، ولهذا لا نستطيع أن نصفها بأنها جمعية لنشر الدعوة نقية بسيطة . وكان الغرض الأصلى الذى تأسست من أجله أنجومان حامى إسلام فى أجمير هو أن تجيب على الاعتراضات التى وجهها إلى الإسلام أعضاء آريه سماج ؛ بيد أنه من بين أغراضها الدعوة إلى الإسلام ، وتزويد المسلمين الجدد بالطعام واللباس<sup>(٣)</sup> . وقد قصرت أنجومان وعظ إسلام ، كما يدل على ذلك اسمها ، جهودها على الدعوة إلى هذا الدين ، على حين كان مولوى بقا حسين خان ( ص ٢٤١ ) كاتم سرها ، وقد نشر ثبوتاً بأسماء من ظفرت بهم هذه الجمعية من الذين دخلوا فى الإسلام — كما فعلت كذلك أنجومان إسلام وأنجومان تبليغ إسلام ( وكانت ترمى إلى تحويل الهندوكيين الذين لم يمكن الاتصال بهم إلى الإسلام ) التى أنشئت فى حيدرآباد ( بالدىكن ) ، ولكن يظهر أن كلا من هاتين الجمعيتين لم تعمرا طويلاً<sup>(٤)</sup> . ومن بين الجمعيات التى أنشئت فى القرن العشرين ، مدرسة إلهييت فى كونهور لتدريب الدعاة ونشر الرسائل دفاعاً عن الإسلام ورداً على الحملات التى توجه إليه . وإن أنجومان إشاعت وتعليم إسلام فى بَطَالَة بالبنجاب ، لتهدف إلى أغراض مماثلة . ولكن أنجومان هداية الإسلام فى دهلى تعد أعظم هذه الهيئات المنظمة ، وينضم إليها عدد كبير من الجمعيات الأخرى يبلغ أربعاً وعشرين جمعية<sup>(٥)</sup> ، فى جهات مختلفة من الهند . وترسل هذه الأنجومان الدعاة للدعوة إلى عقائد الإسلام ولعقد مناظرات مع غير المسلمين ، كما تقوم بنشر الكتب الجدلوية ، وخاصة فى الرد على الهجمات التى يوجهها أعضاء آريه سماج .

Artin. p. 35. (١)

The Moslem World, vol. i. p. 441. R. du M. M., vol. xv. p. 374 ; (٢)  
vol. xviii. pp. 216, 224.

Rajputana Herald, April 17, 1889. (٣)

Mohammedan World of To-day, p. 183. (٤)

(٥) ورد ثبت بأسماء هذه الجمعيات فى ص ١٩ من : The Annual Report for the year 1328 H.

## مراجع الكتاب

### ١ — مراجع عربية وفارسية — مذكورة بالإشارات المختصرة

- ابن أبي أصيمة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . القاهرة ١٢٩٩ .  
ابن أبي ذرع : روض القرطاس . باريس ١٨٦٠ .  
ابن الأثير : كتاب الكامل في التاريخ . ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦ .  
ابن إسحاق : سيرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ .  
ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة . باريس ١٨٥٢ - ١٨٥٨ .  
ابن حوقل : المسالك والممالك والمقاويز والممالك . ليدن ١٨٧٣ .  
ابن خلدون : كتاب العبر ودوران المبتدأ والخبر في أيام العرب والعبر . بولاق ١٨٦٧ .  
ابن خلكان : Biographical Dictionary, translated by Baron Mac Guckin de Slane (Paris, 1843-71.)  
ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، نشره سخاو . ليدن ١٩٠٥ - ١٩٢١ .  
ابن سعد : Die Schreiben Muhammads und die Gesandtschaften an ihn. (Skizzen und Vorarbeiten von J. Wellhausen. Viertes Heft. Berlin, 1889.)  
ابن العبري : Gregorii Barhebraei Chronicon Ecclesiasticum, ed. J. B. (١) Abbeloos et T. J. Lamy. (Louvin, 1872-77.)  
(٢) أبو الفرج . تاريخ مختصر الدول طبعة الصالحاني ( بيروت ١٨٩٠ ) .  
(٣) Gregorii Abulpharagii sive Bar-Hebraei Chronicon Syriacum, ed. et vert. P. J. Bruns et G. G. Kirsch. (Lipsiae, 1789.)  
أبو شامة : Arabische Quellenbeiträge zur Geschichte der Kreuzzüge Übersetzt und herausgegeben von E. P. Goergens und R. Röhricht. Erster Band : Zur Geschichte salah ad-din's. (Berlin, 1879.)  
أبو صالح : تاريخ أبي صالح ( أكتفورد ١٨٩٥ ) .  
أبو عبيد البكري : Fragments de géographes et d'historiens Arabes et Persans, inédits, relatifs aux anciens peuples du Caucase et de la Russie meridionale, traduits par C. Defrémery. (J. A. iv me série, Tome xiii, 1849.)  
أبو الغازی : Histoire des Mogols et des Tatares par Aboul-Ghâzi Behâdour Khan, traduite par le Baron Desmaisons. (St. Petersburg, 1871-4.)  
أبو القدا : Géographie d'Aboulféda, traduite par M. Reinaud. (Paris, 1848.)  
أبو يوسف : كتاب الخراج . القاهرة ١٣٠٢ .  
أحمد بن يحيى المرتضى : المعتزلة مشتق من كتاب الملل والنحل نشره السير توماس أرنولد ( ليبرج ١٩٠٢ ) .

- الأردني : صفة المغرب والأندلس ، نشره دوزي ودی غريه . ( ليدن ١٨٦٦ ) .  
الأردني : فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأردني البعري ، نشره و. ن. ليز Lees (كلكته ١٨٥١) .  
الإصطخري : كتاب المسالك والممالك . نشره دى غريه  
(Bibliotheca Geographorum Arabicorum I. Leiden, 1870.)  
أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار . نشره ه. ديرنبوخ ، القسم الثاني  
(Publications de l'École des Langues Orientales Vivantes. ii me. ser. tome xii  
(ii me. Partie). (Paris, 1886.)  
البلاذري : فتوح البلدان . ليدن ١٨٦٦  
بهاء الدين (بن شداد) : سيرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين . (بتافيا ١٧٣٢)  
تاريخ السودان : لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ، نشره هوداس . باريس ١٨٩٨ .  
التيجاني : Voyage du Scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant  
les années 706, 707, et 708 de l'Hégire (1306 - 1309) ; traduit de l'arabe par M.  
Alphonse Rousseau (J. A. iv me. serie, tome xx., 1852).  
الجوزجاني : منهاج مراجع الجوزجاني ، طبقاتي ناصري نشره و. ناساو ليز (كلكته ١٨٦٤) .  
رشيد الدين : جامع التواريخ . تاريخ مبارك غازاني نشره بلوشيه (سلسلة جيب التذكارية - xviii) (لندن ١٩١١)  
زين الدين (المعري المليباري) : تحفة الجماهدين في بعض أحوال البرنكاليين . لشبونه ١٨٩٨ .  
سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . (باريس ١٩٠٦—١٩٠٩)  
سابرس (بن المقفع) : أخبار بطاركة الاسكندرية (بيروت ١٩٠٤ —)  
سيد علي أكبر : Trois chapitres du Khitay Naméh. Texte Persan et traduction  
française par Charles Schefer (Mélanges Orientaux. Publications de l'École des  
Langues Orientales Vivantes. 11 e. série. Vol. ix. Paris, 1883.)  
صليبا بن يوحنا : المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعنوانه جيمسوندى . (روما ١٨٩٦) .  
العطري : تاريخ الرسل والملوك (نشره دى غريه . ليدن ١٨٨٥ — ١٨٩٣)  
عبد الرزاق السمرقندي : مطلع السعدين وجمع البحرين (India Office MS. No. 2704.)  
عبيد الله : تحفة الهند ، دهل ١٣٠٩ هـ  
عرب فقيه : فتوح الحبيشة نشره ريفيه باسيه . باريس ١٨٩٧ — ١٩٠٩  
عمرو بن مني : المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعنوانه جيمسوندى (روما ١٨٩٦)  
غلام سرور : غزوة الأصفيا . (لاهور غير معروف تاريخ الطبع)  
فرشته (محمد قاسم) : History of the Rise of the Mahomedan Power in India,  
translated from the Persian of Mohamed Kasim Ferishta by John Briggs. (London, 1829.)  
ابن القديم : كتاب القهرست . نشره فلوجل . (ليزج ١٨٧١ — ١٨٧٢)  
مادي بن سليمان : المجدل طبع مع ترجمة لاتينية بعنوانه جيمسوندى (روما ١٨٩٩) .  
محبوب المنبجي : العنوان الكامل بفضائل الحسكة . (بيروت ١٩١٢) .

Voyage au pays des Senoussia, traduit par V. Serras et محمد بن عثمان المشاشي :  
Lasram (Paris, 1903.)

محمد حيدر : تاريخ رشيدى . نقله إلى الإنجليزية . ن . إلياس و . ديبسون روس ( لندن ١٨٩٥ ) .

المعوى : مروج الذهب ( باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ ) .

A short history of the Copts, translated from the Arabic by (١) المقرئ  
S. C. Malan. (London, 1873.)

Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte, traduite par M. Quatremère. (٢)  
(Paris, 1837-45.)

المقرئ : فتح الطيب ترجمة Pascual de Gayangos ( لندن ١٨٤٠ - ١٨٤٣ )

المكين : تاريخ المسلمين ( بتأليف ١٦٢٥ )

الرشقى : أخبار بخارى ( باريس ١٨٩٢ )

المسدي : ترجمة شارلس هاملتون ( لندن ١٧٩١ )

ياقوت : معجم البلدان ( ليزج ١٨٦٦ - ١٨٧٣ )

بهي بن آدم : كتاب المراج ( لندن ١٨٩٦ ) .

## مراجع إفرنجية

( عناوين المراجع التي ذكرت مرة واحدة في هذا الكتاب قد اكتفينا بإيرادها كاملة في الهوامش )

Aa (P. J. B. Robidé van der) : Reizen naar Nederlandsch Nieuw-Guinea, met  
Geschied- en Aardrijkskundige Toelichtingen. (The Hague, 1879.)

Abh. f. d. K. d. M. hrsg. v. d. D M G : Abhandlungen für die Kunde des Morgen-  
landes, herausgegeben von der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft. (Leipzig.)

Allégret (E.) : L'Islamisme en Afrique. (Revue Chrétienne, iii<sup>me</sup> sér., tome xiv. (Paris, 1901.)

Alvar : (1) Alvari Cordubensis Epistolae. (Migne, Patr. Lat. tom. cxxi.)

(2) Indiculus Luminosus. (id. ib.)

Alvarez : Viaggio nella Ethiopia al Prete Ianni fatto par Don Francesco Alvarez  
Portughese. (1520-27.) (Ramusio. Tom. i.)

Amari (Michele) : Storia dei Musulmani di Sicilia. (Florence, 1854-72.)

Amélineau (E.) : Etude sur le Christianisme en Égypte au septième siècle. (Paris, 1887.)

Anderson (John) : Chinese Mohammedans. (Journal of the Anthropological Institute  
of Great Britain and Ireland, vol. i. London, 1872.)

Andriessen (W. F.) : De Islam in Nederlandsch Indië. (Vragen van den Dag. Am-  
sterdam, 1889.)

Argensola (B. Leonardo de) : Conquista de las Islas Malucas. (Madrid. 1609.)

Arminjon (Pierre) : Étrangers et protégés dans l'empire ottoman. (Paris, 1903.)

Artin (Yacoub Pasha) : England in the Sudan, translated by George Robb.  
(London, 1911.)

- Asboth (J. de) : An official tour through Bosnia and Herzegovina. (London, 1890.)
- Assemani (J. S.) : Bibliotheca Orientalis Clementino-Vaticana. (Rome, 1719-28.)
- Barbaro : Viaggio di Iosafa Barbaro nella Persia. (Ramusio Tom. ii.)
- Barbier de Meynard (A. C.) : Un document turc sur la Circassie. (Centenaire de l'École des Langues Orientales Vivantes. Recueil de Mémoires publié par les Professeurs de l'École. Paris, 1895.)
- Barbosa (Odoardo) : Libro di Odoardo Barbosa Portoghese dell' Indie Orientali, 1516, (Ramusio, Tom. i.)
- Barros (J. de) : Da Asia. (Lisbon, 1777-8.)
- Basset (René) : Études sur l'Histoire d'Éthiopie. (Paris, 1882.)
- Bastian (A.) : Die Völker des östlichen Asien. (Leipzig, 1866.)
- Baudier (Michel.) : Histoire Générale de la Religion des Turcs. (Rouen, 1641.)
- Baudissin (W. W. Graf von) : Eulogius und Alvar. Ein Abschnitt spanischer Kirchengeschichte aus der Zeit der Maurenherrschaft (Leipzig, 1872.)
- Baumgarten (Martin) : The travels of. (A Collection of Voyages and Travels. London, 1752.)
- Becker (C. H.) (1) Materialien zur Kenntnis des Islam in Deutsch-Ostafrika. (Der Islam, vol. ii. Strassburg, 1911.)
- (2) Papyri Schott-Reinhardt I, herausgegeben und erklärt. (Veröffentlichungen aus der Heidelberger Papyrus-Sammlung, iii.) (Heidelberg, 1906.)
- (3) Zur Geschichte des östlichen Sudan. (Der Islam, vol. i. Strassburg, 1910.)
- Beke (T. C.) : Routes in Abyssinia. (J. R. Ogr. Soc., vol. xiv. 1844.)
- Belin : Fetwa relatif à la condition des Zimmiz et particulièrement de, Chrétiens, en pays musulmans, depuis l'établissement de l'islamisme jusqu'au milieu du viii<sup>e</sup> siècle de l'hégire, traduit de l'arabe par M. Belin. (J. A. iv<sup>me</sup> série, tome xviii., 1851.)
- Bell (H. I.) : Greek Papyri in the British Museum. Catalogue, with Texts, vol. iv. —The Aphrodito Papyri, edited by H. I. Bell. With an appendix of Coptic Papyri, edited by W. E. Crum. (London, 1910.)
- Bellew (H. W.) : The races of Afghanistan. (Calcutta, 1880.)
- Benedict of Peterborough : Gesta Regis Henrici Secundi Benedicti Abbatis. Edited by William Stubbs. (London, 1867.)
- Berg (L. W. O. van den) : (1) De Mohamedaansche geestelijkheid en de geestelijke gøederen op Java en Madçera. (Ts. ind. t.-l.-vk. Vol. xxvii., 1881.)
- (2) Le Hadhramout et les Colonies Arabes dans l'Archipel Indien. (Batavia, 1886.)
- Bijdr. t. d. t. l. en vlk : Bijdragen tot de Taal-, Land- en Volkenkunde van Nederlandsch-Indië, uitgegeven door het Koninklijk Instituut voor de Taal-, Land- en Volkenkunde van Nederlandsch-Indië. ('s Gravenhage)
- Bizzi : Relazione della visita fatta da me, Marino Bizzi, Arcivescovo d'Antivari, nelle parti della Turchia, Antivari, Albania e Servia. alla Santità di Nostro Signore Papa Paolo Quinto. 1610. (Bibliotheca Barberina, Rome. Nr. Ixiii. 13.)
- Blau : Chronik der Sultane von Bornu, bearbeitet von Otto Blau. (ZDMG., vol. 6. 1852.)
- Blochet (E.) : Introduction à l'Hittoire des Mongols de Fadl Allah Rashid ed-Din. ("E. J. W. Gibb Memorial" Series. xii.) (London, 1910.)

- Blount : A voyage into the Levant; a brief relation of a journey lately performed by Master Henry Blount, Gentleman. 1634-36. (A Collection of Voyages and Travels. London, 1745.)
- Blunt (W. S.) : The Future of Islam. (London, 1883.)
- Blyden (E. W.) : Christianity, Islam and the Negro Race. (London, 1888.)
- Bobrovnikoff (S.) : Moslems in Russia. (The Moslem World, vol. i. London, 1911.)
- Bokemeyer (H.) : Die Molukken. (Leipzig, 1888.)
- Bonaventura di S. Antonio : Informatione di Fra Bonaventura di S. Antonio, Reformato di S. Francesco, Miss<sup>io</sup> d'Albania. (Assisi, li 30 Luglio, 1652.) (Bibliotheca Chigiana, Rome. G. iii., 94.)
- Bonet-Maury (G.) : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique. (Paris, 1916.)
- Bouche (Pierre) : La Côte des Esclaves et le Dahomey. (Paris, 1885.)
- Bretschneider (E.) : (1) Mediæval Researches from Eastern Asiatic Sources. (London, 1888.)  
(2) On the Knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies. (London 1871.)
- Broomhall (Marshall) : Islam in China. (London, 1910.)
- Brosset (M. F.) : Histoire de la Géorgie. (St. Petersburg. 1849-58.)
- Brumund (J. F. G.) : Bijdragen tot de kennis van het Hindœisme op Java. (Vertr. Bat. Gen. van K. en W. Deel xxxiii. 1868.)
- Budge (E. A. Wallis) : The Egyptian Sūdân, its history and monuments. (London, 1907.)
- Burchard : Burchardi de Monte Sion Descriptio Terræ Sanctæ. (Perergrinatores Medii Aevi Quatuor. Ed. J. C. M. Laurent. Lipsiæ, 1864.)
- Burckhardi (J. L.) : (1) Travels in Nubia. (London, 1819.)  
(2) Travels in Syria and the Holy Land. (London, 1822.)
- Burton (Richard F.) : (1) Abeokuta and the Camaroon Mountains. (London, 1893.)  
(2) First Footprints in East Africa. (London, 1856.)
- Busbecq (Augier Ghislen de) Omnia quæ extant. (Amstelodami. 1660.)
- Businello (P.) : Historische Nachrichten von der Regierungsart der osmanischen Monarchie. (Leipzig, 1778.)
- Caetani (Leone, Principe di Teano) : Annali dell' Islâm. (Milano, 1905- )
- Cahun (Léon) : Introduction à l'histoire de l'Asie. Turcs et Mongols. (Paris, 1896.)
- Campen (C. F. H.) : Nalezingen op het opstel over de godsdienstbegrippen der Halemaherasche Alfoeren. (Ts. ind. t.- l.- vk. Deel xxviii. 1883.)
- Canne (H. D.) : Bijdrage tot de Geschiedenis der Lampongs. (Ts. ind. ti.- l.- vk. Deel xi. 1862.)
- Cantacuzenos : Trattato di Theodoro Spandugino Cantacusino de costumi de Turchi. (Venice, 1573.)
- Chavannes (E.) : Documents sur les Tou-Kiue (Turcs Occidentaux. (Sbornik Trudov Orchonskoy Expedicii. VI. St. Petersburg, 1903.)
- Chiragh 'Ali : Maulavi Cheragh Ali : A Critical Exposition of the Popular Jihâd. (Bombay, 1885.)
- Chwolsohn (D.) : Die Ssabier und der Ssabismus. (St. Petersburg, 1856.)
- Chytræus (David) : Oratio de statu ecclesiarum hoc tempore in Græcia, Asia, Africa, Ungaria, Boëmia, etc. (Wittebergæ, 1580.)
- Clark (E. L.) : The Races of European Turkey. (New York, 1878.)
- Comuleo : Istruzioni al Rev<sup>do</sup> Don Alessandro Comuleo Archiprete di S. Girolamo di Roma mandato da Papa Clemente Ottavo al Gran Duca di Moscovia, et altri

- Principi, et Potentati delle Parti Settentrionali. Con una Relatione del Medesimo Comuleo fatta à S. Santità sopra le cose del Turco. (Bibliotheca Barberina, Rome. Nr. lviii. 33.)
- Contenson (L. de) : Chrétiens et Musulmans. (Paris, 1901.)
- Coolsma (S) : De Zendingeeuw voor Nederlandsch Oost-Indië. (Utrecht, 1901.)
- Cornaro (F.) : Creta Sacra, authore Flaminio. Cornelio. (Venice, 1755.)
- Crawfurd (John) : (1) A Descriptive Dictionary of the Indian Islands and adjacent Countries, (London, 1856.)  
(2) History of the Indian Archipelago. (Edinburgh, 1820.)
- Creasy (Sir Edward S.) : History of the Ottoman Turks. (London, 1878.)
- Crisio : Summario della Relatione della Visita di Albania, fatta per ordine della Sac. Cong<sup>na</sup> da Don Marco Crisio Sacerdote Albanese. 1651. (Bibliotheca Chigiana, Rome. G. iii. 94.)
- Crusius (Martin) : Turcogræcia. (Basileæ, 1584.)
- Darlymple (A.) : Essay towards an account of Sulu. (Journal of the Indian Archipelago and Eastern Asia. Vol. iii. Singapore, 1849.)
- Dalton (E. T.) : Descriptive Ethnology of Bengal. (Calcutta, 1872.)
- Delafosse (Maurice) : Les confréries musulmanes et le maraboutisme dans les pays du Sénégal et du Niger. (Renseignements Coloniaux et Documents publiés par le Comité de l'Afrique Française et le Comité du Maroc. No. 4. Paris, 1911.)
- Depont (Octave) et Coppolani (Octave) : Les confréries religieuses musulmanes. (Alger, 1897.)
- Devéria (Gabriel) : Origine de l'Islamisme en Chine. (Centenaire de l'École des Langues Orientales Vivantes. Recueil de Mémoires publié par les Professeurs de l'École. Paris, 1895.)
- Dobschütz (E. von) : Die confessionellen Verhältnisse in Edessa unter der Araberherrschaft. (Zeitschrift für wissenschaftliche Theologie. 41<sup>er</sup> Jahrgang, 1898.)
- Döllinger (J. J. T.) : Mohammed's Religion nach ihrer inneren Entwicklung und ihrem Einflusse auf das Leben der Völker. (Munich, 1838.)
- Doroſtamus (Athanasius) : Neueste Beschreibung derer Griechischen Christen in der Türckey, aufgesetzt von Jacob Elssner. (Berlin, 1737.)
- Doughty (Charles M.) : Travels in Arabia Deserta. (Cambridge, 1888.)
- Dousa : Georgii Dousæ de Itinere suo Constantinopolitano epistola. (Lugduni Batavorum, 1599.)
- Doutté (E.) : Notes sur l'Islam maghribin. (Revue de l'Histoire des Religions; XL, XLI. Paris, 1899, 1900.)
- Dozy (R. P. A.) : (1) Essai sur l'histoire de l'Islamisme. (Leyde, 1879.)  
(2) Histoire des Musulmans d'Espagne. (Leyde, 1861.)  
(3) Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, 3<sup>me</sup> éd. (Leyde, 1881.)
- Driesch (G. C. von den) : Historische Nachricht von der Röm. Kayserl. Gross-Botschaft nach Constantinopel, welche . . . der Graf Damian Hugo von Virmondts rühmlichst verrichtet. (Nürnberg, 1723.)
- Dulaurier (M. E.) : Addition au memoire intitulé Liste des pays qui relevoient de l'empire javanais de Madjapahit. (J. A. iv<sup>me</sup> série, tome xiii. 1849.)
- Duveyrier (H.) : La confrérie musulmane de Sidi Mohammed Ben 'Ali Es-Senoûsi. (Paris, 1886.)

- East (D. J.) : Western Africa. (London, 1844.)
- Elias of Nisibis : F. Bæthgen : Fragmente syrischer und arabischer Historiker. (Abh. f. d. K. d. M. hrsg. v. d. DMG. Vol. iii. No. 3. 1884.)
- Elliot (Sir H. M.) : The History of India, as told by its own historians. The Muhammadan Period. Edited by Prof. John Dowson. London, 1872-7.)
- Encyclopædie van Nederlandsch-Indië, met medewerking van verschillende ambtenaren, geleerden en officieren, samengesteld door P. A. van der Lith en J. F. Snelleman. (Leiden. 1899-1905.)
- Enhueber (J. B.) : Dissertatio de hæresi Elipandi et Felicis. (Migne, Patr. Lat. tom. ci.)
- Eulogius : Memoriale Sanctorum. (Migne, Patr. Lat., tom. cxv.)
- Evans (A. J.) : Through Bosnia and the Herzegovina. (London, 1876 )
- Farlati (Daniel) : Illyricum Sacrum. (Venice, 1769-1819.)
- Finlay (G.) : A History of Greece, from its Conquest by the Romans to the present time. (Oxford, 1877.)
- Forget (D. A.) : L'Islam et le Christianisme dans l'Afrique Centrale. (Paris, 1900.)
- Forrest (T.) : A Voyage to New Guinea and the Moluccas. (London. 1779.)
- Fournel (Henri) : Les Berbers. Étude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes. (Paris, 1875.)
- Frere (Sir Bartle) : (1) Eastern Africa as a field for Missionary Labour. (London, 1874.)  
(2) Indian Missions. 3rd. ed. (London, 1874.)
- Gaetan : Relazione di Ivan Gaetan del discoprimiento dell' Isole Molucche. (Ramusio. Tome. i.)
- Gairdner (W. H. T.) : The Reproach of Islam. (London, 1909.)
- Garnett (L. M. J.) The Women of Turkey and their Folklore. The Jewish and Moslem Women. (London, 1891.)
- Gasztowtt (Thadée) : La Pologne et l'Islam. (Paris, 1907.)
- Gazetteer of the Bombay Presidency. (Bombay, 1877-1904.)
- Gazetteer of the North-Western Provinces of India. (Allahabad, 1874-84.)
- Gazetteer of the Province of Oudh. (Lucknow, 1877.)
- Gazetteer of Rajputana. (Calcutta, 1879 )
- Georgieviz (Bartholomæus) : De Turcarum Moribus Epitome. (1598.)
- Georgirenes (Joseph) : A Description of the Present State of Samos, Nicaria, Patmos and Mount Athos. (London, 1678.)
- Gerlach (Stephan) : Tage-Buch der von zween . . . Römischen Kaysern . . . an die Ottommanische Pforte . . . abgefertigten . . . Gesandtschaft. (Frankfurt, 1674.)
- Gfrörer (A. F.) : Byzantinische Geschichten, hrsg. von J. B. Weiss. (Graz, 1872-7.)
- Gibbon (Edward) : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. (London, 1881.)
- Gmelin (M. F.) : Christensclaverei und Renegatenthum unter den Völkern des Islam. (Berlin. 1873.)
- Gobineau (A. de) : (1) Les Religions et les Philosophies dans l'Asie Centrale. (Paris, 1865.)  
(2) Trois Ans en Asie. (Paris, 1859.)
- Goldziher (Ignaz) : Muhammedanische Studien. (Halle, 1889-90.)
- Gottheil (R. J. H.) : Dhimmis and Moslems in Egypt. (Old Testament and Semitic Studies in memory of William Rainey Harper, Vol. ii. Chicago, 1908.)
- Grenard : J.-L. Dutreuil de Rhins. Mission Scientifique dans La Haute Asie, 1890-1895.

- II<sup>me</sup> Partie. Le Turkestan et le Tibet, étude ethnographique et sociologique, par F. Grenard. III<sup>me</sup> Partie. Histoire, Linguistique, Archeologie, Géographie, par F. Grenard. (Paris, 1898.)
- Grenard : La légende de Satok Boghra Khân et l'histoire, par M. F. Grenard. (Journal Asiatique. ix<sup>me</sup> série, tome xv. Paris, 1900.)
- Groeneveldt (W. P.) : Notes on the Malay Archipelago and Malacca, compiled from Chinese sources. (Verh. Bat. Gen. van K. en W. Deel xxxix. 1880.)
- Grosier (J. B. G. A.) : De la Chine, ou description générale de cet empire. (Paris, 1819.)
- Guignes (C. L. J. de) : Histoire générale des Huns, des Turcs, des Mogols, (Paris, 1756-8.)
- Hackett (J.) : A History of the Orthodox Church of Cyprus. (London, 1901.)
- Hageman (J.) : Bijdrage tot de Geschiedenis van Borneo. (Ts. ind. t.-l.-vk. Deel vi. 1856.)
- Hammer-Purgstall (Joseph von) : (1) Geschichte des osmanischen Reiches. (Pesth. 1827-35.)
- (2) Des osmanischen Reichs Staatsverfassung und Staatsverwaltung. (Wien. 1815.)
- (3) Geschichte der Goldenen Horde in Kiptschak. (Pesth. 1840.)
- (4) Geschichte der Ilchanen. (Darmstadt, 1842-3.)
- Haneberg (B.) : Das muslimische Kriegerrecht. (Munich, 1871.)
- Hasselt (A. L. von) : Volksbeschrijving van Midden-Sumatra. (Leiden, 1882.)
- Hauri (J.) : Der Islam in seinem Einfluss auf das Leben seiner Bekenner. (Leiden, 1883.)
- Haywood (A. H. W.) : Through Timbuctu and across the Great Sahara. (London, 1912.)
- Hefele (C. J.) : Beiträge zur Kirchengeschichte, Archäologie und Liturgik. (Tübingen, 1864.)
- Helfferich (Adolf) : Der Westgothische Arianismus und die Spanische Ketzer-Geschichte. (Berlin, 1860.)
- Hertzberg (G. F.) : Geschichte der Byzantiner und des Osmanischen Reiches. (Berlin, 1882-3.)
- Hill (Aaron) : A Full and Just Account of the Present State of the Ottoman Empire. (London, 1709.)
- Hoëvell (G. W. W. C. Baron von) : De Kei-eilanden. (Ts. ind. t.-l.-en vk. Deel xxxiii. 1890.)
- Hollander (J. J. de) : Handleiding bij de Beoefening der Land- en Volkenkunde van Nederlandsch Oost-Indië. (Breda, 1884.)
- Hoveden : Chronica Magistri Rogeri de Hovedene, edited by William Stubbs. (London, 1868-71.)
- Howorth (Sir-H. H.) : History of the Mongols. (London, 1876-80.)
- Hurgronje (C. Snouck) : (1) De beteekenis van den Islam voor zijne belijders in Oost-Indië. (Leiden, 1883.)
- (2) De Sjottarijjah-secte. (Med. Ned. Zendelingen. Vol. xxxii. 1888.)
- (3) Mekka. (The Hague, 1888-9.)
- Ibbetson (D. C. J.) : The Musulmans of the Panjab. (Indian Evangelical Review. Vol. x. Calcutta, 1884.)
- Informatione del Segretario de Propaganda Fide circa la missione d'Albania de fra-tri Riformati di S. Francesco. (Bibliotheca Chigiana, Rome. G. iii. 94.)
- Innes (C. A.) : Malabar and Anjengo : by C. A. Innes, edited by F. B. Evans. (Madras District Gazetteers.) (Madras, 1908.)
- Isenberg (C. M.) : Abessinien. (Bonn, 1844.)
- Ishok of Romgla : Chronique de Michel le Grand, traduite sur la version arménienne du prêtre Ischok par Victor Langlois. (Venise, 1868.)
- Isidori Pacensis Chronicon. (Migne, Patr. Lat., tom. xcvi.)
- Islam and Missions, being papers read at the second Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World at Lucknow, January 23-28, 1911, edited by E. M. Wherry, S. M. Zwemer, C. G. Mylrea. (New York, etc., 1911.)

- J. A. : *Journal Asiatique*. (Paris.)
- J. A. S. B. : *Journal of the Asiatic Society of Bengal*. (Calcutta.)
- J. R. Ggr. Soc. : *Journal of the Royal Geographical Society*. (London.)
- Jacques de Vitry : *Jacobi de Vitriaco Libri Duo. Quorum prior Orientalis, sive Hierosolymitanae : Alter, Occidentalis Historiae nomine inscribitur. Opera D. Francisci Moschi editi*. (Duaci, 1597.)
- Jadrinzew (N.) : *Sibiren : Geographische, ethnographische und historische Studien, bearbeitet von Ed. Petri*. (Jena, 1886.)
- Jessup (H. H.) : *The Mohammedan Missionary Question*. (Philadelphia, 1879.)
- John of Gorz : *Vita Ioannis Abbatis Gorziensis, auctore Ioanne Abbate S. Arnulfi*. (Migne, Patr. Lat., tom cxxxvii.)
- John of Nikiu : *Chronique de Jeau, Evêque de Nikiou. Publié et traduit par H. Zotenberg. (Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale. Tome xxiv. Première Partie. Paris, 1883.)*
- Joinville : *Ceuvres de Jean, Sire de Joinville, ed. N. de Wailly*. (Paris, 1867.)
- Joselian (Plato) : *A Short History of the Georgian Church, translated by S. C. Malan*. (London, 1866.)
- Kanitz (F.) : *Die fortschreitende Arnautisierung und Muhamedanisierung Alt-Serbiens. (Oesterreichische Monatsschrift für den Orient. Vienna, March, 1888.)*
- Karamsin (N. M.) : *Histoire de l'Empire de Russie*. (Paris, 1819-26.)
- Keane (A. H.) : *Asia, edited by Sir Richard Temple*. (London, 1882.)
- Kern (H.) : *Over den invloed der Indische, Arabische en Europeesche beschaving op de volken van den Indischen Archipel*. (Leiden, 1883.)
- Khoja Vrtant by Sachedina Nanjiani. (Ahmadabad, 1892.)
- Klamroth (M.) : *Der Islam in Deutschostafrika*. (Berlin, 1912.)
- Klaproth (J. von) : *Aperçu des entreprises des Mongols en Géorgie et en Arménie dans le xiii siècle. (J. A. série ii., tome xii, 1833.)*
- Krehl (Ludolf) : *Das Leben des Muhammed*. (Leipzig, 1884.)
- Kremer (A von) : (1) *Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen*. (Vienna, 1875.)  
(2) *Culturgeschichtliche Streifzüge auf dem Gebiete des Islams*. (Leipzig, 1873.)  
(3) *Geschichte der herrschenden Ideen des Islams*. (Leipzig, 1868.)  
(4) *Notizen gesammelt auf einem Ausfluge nach Palmyra. (Sitzb. d. Akad. d. Wiss., Philos.-hist. Cl. Vol. v. 1850.)*
- Krieger (Maximilian) : *New Guinea*. (Berlin, 1899.)
- Kritopoulos (Metrophanes) : *Metrophanis Critopuli Confessio. (E. J. Kimmel : Monumenta Fidei Ecclesiae Orientalis. Pars. II.) (Jenae, 1850.)*
- Kumm (H. K. W.) : *Khont-hon-nofer, the Lands of Ethiopia*. (London, 1910.)
- Kyriakos (A. Diomedes) : *Geschichte der orientalischen Kirchen von 1453-1898*. (Leipzig, 1902.)
- La Jonquière (A. de) : *Histoire de l'Empire Ottoman*. (Paris, 1881.)
- La Saussaye (P. D. Chantepie de) : *Lehrbuch der Religionsgeschichte*. (Freiburg I. B., 1887-9.)
- Lammens (Henri) : *Études sur le regne du Calife Omayyade Mo'awia 1<sup>er</sup>*. (Université Saint-Joseph, Beyrouth (Syrie). *Mélanges de la Faculté Orientale*, I.) (Beyrouth, 1906.)
- Lane (E. W.) : *The Manners and Customs of the Modern Egyptians*. 5th ed. (London, 1860.)
- Laurent (J. C. M.) : *Peregrinatores Medii Aevi Quatuor*. (Lipsiae, 1864.)
- Lazar (Victor) : *Die Südrumänen der Türkei und der angrenzenden Länder*. (Bukarest, 1910.)
- Le Chatelier (A.) : (1) *Les Confréries musulmanes du Hedjaz*. (Paris, 1887.)  
(2) *L'Islam au xix<sup>e</sup> siècle*. (Paris, 1888.)  
(3) *L'Islam dans l'Afrique Occidentale*. (Paris, 1899.)
- Le Quien (Michael) : *Oriens Christianus*. (Paris, 1740.)

- Lea (H. C.): *The Moriscos of Spain: their conversion and expulsion.* (London, 1901.)
- Leake (W. M.): *Researches in Greece.* (London, 1814.)
- Leo Africanus: *Della Descrittione dell' Africa, par Giovanni Lioni Africano.* (Ramusio, Tom. i.)
- Leslie (Gaultier de): *L'Ambassade à la Porte Ottomane, ordonnée par Sa Majesté Impériale, Léopold I., exécutée par Gaultier de Leslie, Comte du S. Empire.* (1665-66.) (Rycaut, tome ii.)
- Liefrinck (F. A.): *Bijdrage tot de kennis van het eiland Bali.* (Ts. ind. t.-I.-vk. Deel xxxiii. 1890.)
- Littmann (Enno): *Bemerkungen über den Islam in Nordabessinien.* (Der Islam, vol. i. Strassburg, 1910.)
- Low (Col. James): *A Translation of the Keddah Annals.* (Journal of the Indian Archipelago and Eastern Asia, Singapore, 1849.)
- Luca (Jean de): *Relations des Tartares.* (Thevenot)
- Ludolf de Suchem: *Ludolphi, Rectoris Ecclesiae Parochialis in Suchem, de Itinere Terrae Sanctae Liber, herausgegeben von E. Deycks.* (Stuttgart, 1851.)
- Lüttke (Moritz): (1) *Aegyptens neue Zeit.* (Leipzig, 1873.)  
(2) *Der Islam und seine Völker.* (Gütersloh, 1878.)
- Luitprandi (Pseudo-) *Chronicon.* (Migne, Patr. Lat. tom. cxxxvi.)
- Lyll (Sir Alfred C.): *Asiatic Studies.* (London, 1882.)
- MSOS: *Mittheilungen des Seminars für Orientalische Sprachen.* Berlin.
- Macarius (Patriarch of Antioch): *Travels of, from the Arabic of the Archdeacon Paul, translated by F. C. Belfour.* (London, 1829-34.)
- Mackenzie (G. Muir) and Irby (A. P.): *Travels in the Slavonic Provinces of Turkey-in-Europe.* (London, 1867.)
- Mackenzie (K. R. H.): *Schamyl and Circassia. Chiefly from materials collected by Dr. Friedrich Wagner, edited by.* (London, 1854.)
- McNair (F.): *Perak and the Malays.* (London, 1878.)
- Marsden (William): *History of Sumatra.* (London, 1811.)
- Marsigli (L. F.): *Stato Militare dell' Imperio Ottomanno.* (Amsterdam, 1732.)
- Mas Latrie (J. M. J. L. de): (1) *Histoire de l'île de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan.* (Paris, 1852-61.)  
(2) *Relations et commerce de l'Afrique septentrionale avec les nations chrétiennes au moyen âge.* (Paris, 1886.)
- Massaja (Guglielmo): *I miei trentacinque anni di missione nell' Alta Etiopia.* (Roma, 1885-93.)
- Massimiliano Transilvano: *Epistola di, della ammirabile et stupenda navigazione fatta per gli Spagnuoli lo anno MDXIX. attorno il mondo.* (Ramusio, tom. i.)
- Med. Ned. Zendelinggen; *Mededeelingen van wege het Nederlandsche Zendelinggenootschap.* (Rotterdam.)
- Menavino (G. A.): *Vita et Legge Turchesca.* (Venice, 1573.)
- Menzel (Theodor): *Das Korps der Janitscharen.* (Beiträge zur Kenntnis des Orients. Band i. Jahrbuch der Münchner Orientalischen Gesellschaft, 1902-3. Berlin.)
- Merensky (A.): *Mohammedanismus und Christentum in Kampfe um die Negerländer Afrikas.* (Allgemeine Missions-Zeitschrift, Band xxi. Gütersloh, 1894.)
- Methods of Mission Work among Moslems, *Being those Papers read at the First Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World held at Cairo April 4th-9th, 1906, and the discussions thereon, which by order of the Conference were not to be issued to the public, but were to be privately printed for the use of missionaries and the friends of missions.* (New York, etc., 1906.)
- Metzger (E.): *Die Baduwis auf Java.* (Globus, Band xliii. Braunschweig, 1883.)
- Meyer (P. C.): *Erforschungsgeschichte und Staatenbildungen des Westsudan.* (Ergänzungsheft No. 121 zu "Petermanns Mitteilungen.") (Gotha, 1897.)
- Michael the Elder: *Chronique de Michael le Syrien, patriarche jacobite d'Antioche* (1166-1199), éditée . . . par J. B. Chabot. (Paris, 1899-1901.)

- Migne, Patr. Gr.: *Patrologia Graeca*. (Paris, 1857-66.)  
" Patr. Lat.: *Patrologia Latina*. (Paris, 1844-55.)  
Milman (H. H.): *History of Latin Christianity*. (London, 1872.)  
Mischlich und Lippert: *Beiträge zur Geschichte der Haussastaaten von A. Mischlich*. Mit Einleitung von Julius Lippert. (MS OS VI. (1903), Abtheilung III.)  
Mission d'Ollone: *Recherches sur les Musulmans Chinois par le commandant D'Ollone, le capitaine De Fleurette, le capitaine Lepage, le lieutenant De Boyve*. Études de A. Vissière. Note de E. Blochet et de divers savants. (Paris, 1911.)  
Mohammedan World: *The Mohammedan World of to-day, being papers read at the First Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World held at Cairo, April 4th-9th, 1906*. (New York, etc., 1906.)  
Monteroy Vidal (D. José): *Historia de la Pirateria Malayo-mahometana en Mindanao, Joló y Borneo*. (Madrid, 1888.)  
Moor (J. H.): *Notices of the Indian Archipelago*. (Singapore, 1837.)  
Moore (Francis): *Travels in the Inland Parts of Africa*. (The World displayed: or a curious collection of voyages and travels. London, 1760.)  
Morgan (J.): *Mahometism explained*. (London, 1723-5.)  
Morié (L. J.): *Histoire de l'Éthiopie*. (Paris, 1904.)  
Moslem World (The), a quarterly review of current events, literature, and thought among Mohammedans, and the progress of Christian Missions in Moslem lands. (London, 1911-.)  
Müller (August): *Der Islam im Morgen- und Abendland*. (Berlin, 1885-7.)  
Müller (G. F.): *Sammlung Russischer Geschichte*. (St. Petersburg, 1761.)  
Muir (Sir William): (1) *The Caliphate; its rise, decline and fall*. (London, 1891.)  
(2) *Life of Mahomet*. (London, 1858-61.)  
Munzinger (Werner): *Abessinien*. (Petermann's Mittheilungen. Gotha, 1867.)  
Neander (A.): (1) *General History of the Christian Religion and Church*. (London, 1851-8.)  
(2) *Memorials of Christian Life*. (London, 1852.)  
Netscher (E.): *Kronijk van Sambas en van Soekadana*. (Ts. ind. t.-l.-vk. Deel i. 1852.)  
Newbold (T. J.): *Political and Statistical Account of the British Settlements in the Straits of Malacca*. (London, 1839.)  
Nicholson (Reynold A.): *A Literary History of the Arabs*. (London, 1907.)  
Niemann (G. K.): *Inleiding tot de kennis van den Islam*. (Rotterdam, 1861.)  
Ohsson (C. d'): *Histoire des Mongols*. (The Hague, 1834-5.)  
Ohsson (M. d'): *Tableau général de l'Empire Othoman*. (Paris, 1820.)  
Olivier (L.): *La Bosnie et l'Herzégovine, ouvrage publié sous la direction de Louis Olivier*. (Paris, n. d.)  
Oppel (A.): *Die religiöse Verhältnisse von Afrika*. (Zeitschrift der Gesellschaft für Erdkunde zu Berlin, Vol. xxii. 1887.)  
Orderici Vitalis *Historia Ecclesiastica*. (Migne, Patr. Lat. tom. clxxxviii.)  
Palmer (H. R.): *The Kano Chronicle, translated with an introduction* (Journal of the Royal Anthropological Institute, Vol. xxxviii. 1908.)  
Palmieri (Aurelio): *Die Polemik des Islam*. Aus dem Italienischen übersetzt von Prof. Valentin Holzer. (Salzburg, 1902.)  
Panciera (B.): *I Musulmani* (Florence, 1877.)  
Pashley (Robert): *Travels in Crete*. (London, 1837.)  
Paulitschke (Philipp): *Harar. Forschungsreise nach den Somäl- und Galla-ländern Ost-Afrikas*. (Leipzig, 1888.)  
Pavy: *Œuvres de Mgr. L.-A.-A. Pavy, Evêque d'Alger*. (Paris, 1858.)  
Perceval (A. P. Caussin de): *Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet, et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane*. (Paris, 1847-8.)  
Perrot (Georges): *L'île de Crète*. (Paris, 1867.)  
Phrantzes (Georgios): *Annales*, ed. B. G. Niebuhr. (Bonnae, 1838.)  
Pichler (A.): *Geschichte der Protestantismus in der orientalischen Kirche im 17. Jahrhundert, order Der Patriarch Cyrillus Lucaris und seine Zeit*. (Munich, 1862.)

- Pigafetta (M. Antonio): Viaggio atorno il mondo fatto et descritto per. (Ramusio, Tom. i.)
- Pitzipios (J. G.): L'Église orientale. (Rome, 1855.)
- Plowden (W. C.): Travels in Abyssinia and the Galla Country. (London, 1868.)
- Poensen (C.): Brieven over den Islam-uit de Binnenlanden van Java. (Leiden, 1886.)
- Polo (Marco): The Book of Ser Marco Polo, the Venetian, concerning the Kingdoms and Marvels of the East, translated and edited by Sir Henry Yule. Third Edition, revised by Henri Cordier. (London, 1903.)
- Prutz (H.): Kulturgeschichte der Kreuzzüge. (Berlin, 1883.)
- R. du M. M.: Revue du Monde Musulman, publié par la Mission Scientifique du Maroc. (Paris.)
- Rabbath (Antoine): Documents inédits pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient. Tome premier. (Paris, 1905.)
- Radloff (W.): Aus Siberien. (Leipzig, 1884.)
- Raffles (Thomas Stamford): The History of Java. (London, 1817.)
- Ramusio (G. B.): Navigazioni et Viaggi. (Venice, 1559.)
- Raverty: Tabakat-i-Nasiri: a general history of the Muhammadan Dynasties of Asia, by Minhaj-ud-Din, Abu-'Umar-i-'Usman. (London, 1881.)
- Reade (W. Winwood): African Sketch Book. (London, 1873.)
- Reclus (Elisée): Nouvelle Géographie Universelle. (Paris, 1876-91.)
- Reinaud, see *أبو القناد*
- Renaudot (E.): Historia Patriarcharum Alexandrinorum Jacobitarum. (Paris, 1713.)
- Report of Centenary Conference on the Protestant Missions of the World, held in London, 1888, edited by Rev. J. J. Johnston. (London, 1889.)
- Rev. col. int.: Revue Coloniale Internationale. (Amsterdam.)
- Richter (J.): Die Propaganda des Islam als Wegbestreiterin der modernen Mission. (Missionswissenschaftliche Studien. Festschrift zum 70. Geburtstag des Herrn Prof. Dr. Gustav Warneck.) (Berlin, 1904.)
- Riedel (J. G. F.): (1) De Sluik-en Kroesharige Rassen tusschen Selebes en Papua. (The Hague, 1886.)  
(2) The Island of Flores or Pulan Bunga. The Tribes between Sika and Manggaraai. (Rev. col. int., tome ii. 1886.)
- Rinn (Louis): Marabouts et Khouan. (Algiers, 1884.)
- Roscoe (John): The Baganda. (London, 1911.)
- Ross (Alexander): A Needful Caveat, or Admonition, for them who desire to know what Use may be made of, or if there be danger in Reading the Alcoran. (The Alcoran of Mahomet, translated out of Arabick into French, by Sieur de Ryer, . . . and newly Englished, for the satisfaction of all that desire to look into the Turkish Vanities.) (London, 1688.)
- Rouffaer (G. P.): Het tijdperk van godsdienstovergang (1400-1600) in den Maleischen Archipel. (Bijdr. t.d.t.l. en vlk., dl. 50.) (1899)
- Rubruck: The Journey of William of Rubruck to the Eastern Parts of the World, 1253-55, as narrated by himself. Translated . . . by William Woodville Rockhill. (Hakluyt Society. Second Series. No. iv.) (London, 1900.)
- Rüppell (Eduard): Reise in Abyssinien. (Frankfurt am Main, 1838.)
- Rycaut (Sir Paul): Histoire de l'état présent de l'empire ottoman, traduit de l'Anglais de Monsieur Ricaut, par M. Briot. (Amsterdam, 1672.)
- Sachau (Eduard): Über den zweiten Chalifen Omar Ein Charakter-bild aus der ältesten Geschichte des Islams. (Sitzungsberichte der Königlichen Preussischen Akademie der Wissenschaften. Berlin 1902.)
- Sacy (Le Bon Silvestre de): Exposé de la Religion des Druzes. (Paris, 1838.)
- Salmon (C. S.): British Policy in West Africa. (Contemporary Review, 1882.)
- Samson: Samsonis Abbatis Cordubensis Apologeticus Liber. (Henrique Florez: Espana Sagrada, tom. xi.) (Madrid, 1747-74.)
- Sansovino (Francesco): Historia Universale dell' Origine et Imperio de Turchi. (Venice, 1573.)

- Schack (A. F. Graf von): Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien. (Stuttgart, 1877.)
- Schefer (C.): Notice sur les relations des peuples musulmans avec les Chinois, depuis l'extension de l'Islamisme jusqu'à la fin XV<sup>e</sup> siècle. (Centenaire de l'École des Langues Orientales Vivantes, 1795-1895. Recueil de Mémoires publiés par les Professeurs de l'École. Paris, 1895.)
- Scheffler (Johannes): Türcken-Schrift: von den Ursachen der Türckischen Uebersetzung und der Zertretung des Volckes Gottes. (1664.)
- Schiltberger (Hans): Reisebuch, herausgegeben von V. Langmantel. (Tübingen, 1885.)
- Semper (C.): Die Philippinen und ihre Bewohner. (Würzburg, 1869.)
- Shedd (W. A.): Islam and the Oriental Churches. (Philadelphia, 1904.)
- Silbernagl (Isidor): Verfassung und gegenwärtiger Bestand sämtlicher Kirchen des Orients. 2<sup>te</sup> Auflage. (Regensburg, 1904.)
- Simon (G.): Islam und Christentum im Kampf um die Eroberung der animistischen Heidenwelt. Beobachtungen aus der Mohammad-änermission in Niederländisch-Indien. (Berlin, 1910.)
- Sitz. d. Akad. d. Wiss., Philos.-hist. Cl.: Sitzungberichte der philosophisch-historischen Classe der kaiserlichen Akademie der Wissenschaften. (Vienna.)
- Smith (Thomas): Remarks upon the Manners, Religion and Government of the Turks. (London, 1678.)
- Smith (W. J.): The Present Phases of the Mohammedan Question. (The Churchman. London, Jan., 1888.)
- Spons (Jacob): Reisen durch Italien, Dalmatien, Griechenland und die Morgenländer. (Nürnberg, 1713.)
- Sprenger (A.): Das Leben und die Lehre des Mohammed. (Berlin, 1861.)
- Steinschneider (Moritz): Polemische und apologetische Litteratur in arabischer Sprache, zwischen Muslimen, Christen und Juden. (Leipzig, 1877.)
- Stirling-Maxwell (Sir William): Don John of Austria. (London, 1883.)
- Tavernier (J. B.) (1) The six voyages. (London, 1677.)  
(2) Travels in India. (London, 1678.)  
(3) A New Relation of the Inner-Part of the Grand Seignor's Seraglio. (London, 1677.)
- Thevenot (M.): Relations de divers voyages curieux. (Paris, 1696.)
- Thiersant (P. Dabry de): Le Mahométisme en Chine. (Paris, 1878.)
- Thomas of Marga: The Book of Governors: the Historia Monastica of Thomas, Bishop of Margā A. D. 840, edited by E. A. Wallis Budge. (London, 1893.)
- Thomson (Joseph): (1) Mohammedanism in Central Africa. Contemporary Review, Dec., 1886.)  
(2) Note on the African Tribes of the British Empire. (The Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland. Vol. xvi. London, 1887.)
- Tournefort (J. P.): A Veyage into the Levant. (London, 1741.)
- Ts. ind. t.-l.vk.: Tijdschrift voor Indische Taal-, Land- en Volkenkunde. (Batavia.)
- Turchicæ Spurcitæ et Perfidie Suggillatio et Confutatio (Paris, 1516.)
- Vambéry (Arminius): (1) Geschichte Bochara's. (Stuttgart, 1872.)  
(2) Sketches of Central Asia. (London, 1868)
- Vasil'ev (V. P.): Spread of Mohammedan Zaith in China (St. Petersburg, 1867.)
- Veniero: Descriptione dell' Imperio Turchesco del Rever<sup>mo</sup> Mons<sup>re</sup> Maffeo Vaniero, Arcivescovo di Corfù. (R. D. Marci Bibliotheca, Venice. Classe vii. Cod. 882.)
- Verh. Bat. Gen. van K. en W.: Verhandelingen van het Bataviaasch Genootschap van Kunsten en Wetenschappen. (Batavia.)
- Veth (P. J.): (1) Atchin en zijne betrekkingen tot Nederland. (Leiden, 1873.)  
(2) Borneo's Wester-Afdeeling. (Zaltbommel, 1854.)  
(3) Java, geographisch, ethnologisch historisch. Tweede Druk bewerkt door J. F. Snelleman en J. F. Niermeyer. (Haarlem, 1896-1907.)

- Vivien de Saint-Martin (L.) : Nouveau Dictionnaire de Géographie Universelle. (Paris, 1879-95.)
- WZKM : Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes.
- Waitz (Theodor) : Anthropologie der Naturvölker. (Leipzig, 1860.)
- Wansleben (J. M.) : Histoire de l'église d'Alexandrie. (Paris, 1677.)
- Wassaf : Geschichte : persisch herausgegeben und deutsch übersetzt von Hammer-Purgstall. (Vienna, 1856.)
- Weil (Gustav) : Geschichte der Chalifen. (Mannheim, 1846-51.)
- Wellhausen (J.) : Skizzen und Vorarbeiten. (Berlin, 1885-99.)
- Westermann (D.) : Islam in the West and Central Sudan. (The International Review of Missions, vol. i. Edinburgh, 1912.)
- Wetzer und Welte's Kirchenlexicon. Zweite Auflage. (Freiburg im Breisgau, 1885 sqq.)
- Whishaw (B. and E. M.) : Arabic Spain. (London, 1912.)
- Wilken (N. P.) en (1) Gedachten over het stichten einer zending in Bolaäng-Mongondou. (Med. Ned Zendelinggen. Vol. xi., 1867.)  
(2) Het Heidendom en de Islam in Bolaäng-Mongondou. (id. id.)
- Wise (James) : The Muhammadans of Eastern Bengal. (J. A. S. B. Vol. lxiii., Part iii., 1894.)
- Wright (William) : A short History of Syriac Literature. (London, 1894.)
- Wüstenfeld (F.) : Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke. (Göttingen, 1882.)
- Yule (H.) : Cathay and the Way thither. (London, 1866.)
- ZDMG : Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft. (Leipzig.)
- Zenker (J. T.) : Das chinesische Reich, nach den türkischen Khatainamen. (Z.D.M.G., vol. xv. Leipzig, 1861.)
- Zmaievich : Notizie universali dello stato di Albania e dell' operato da Monsig. Vincenzo Zmaievich, arcivescovo di Antivari, esaminate nelle Congregazioni Generali di Propaganda Fide di 4 Debr. 1703-12 Febr. 1704. (Bibliotheca Barberina, Rome, Nr L. 126.)
- Zollinger (H.) : (1) The Island of Lombok. Journal of the Indian Archipelago, vol. v. (Singapore, 1851.)  
(2) Verslag van eene reis naar Bima en Soembawa. (Verh. Bat. Gen. van K. en W. Deel xxiii 1850.)
- Zwemer (S. M.) : Islam : A Challenge to faith. (New York, 1908.)

## فهرس عام

- أرشين : أنظر أتجيه  
 أناس - أسقف الرها ، بيني كناس : ٦٠ ، ٦٢  
 أحمد - من عرب التنجار : ٢٧٢  
 أحمد بن إدريس : ٢٧٦  
 أحمد تكودار : أنظر تكودار  
 أحمد جرائي : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣  
 أحمدشورازة - أول ملك مسلم في جزائر ملديف : ٢٣٠  
 أحمد شيخو : ٢٧٩  
 أحمد مجدد : ٣٤٤  
 الأخطل - شاعر البلاط : ٦٠  
 أدرنه : ١٤١  
 أدماوا : ٢٧٥  
 أدى : ٣٣٧  
 أرخبيل الملايو : ٣٠٥ - ٣١٢ ، ٣١٦ - ٣٤٠  
 أرسلان خان بن قدرخان : ١٨٧  
 أرغنة - زوجة قرا هولاقو : ٢٠٢  
 الأرغونيون : ٢٥٠  
 أرغون - خامس إيلخانات المغول : ٢٠٠ ، ٢٠٥ :  
 يضطهد المسلمين : ١٩٦  
 أرماتولي Armatoli : ٥٩  
 الأرمن : هامش مقدمة الطبعة الأولى ، ٨٧ - ٨٨  
 ١٩٨٠ ، ١٥٥  
 ازمايقتش - في ألبانيا : ١٦٤ - ١٦٨  
 الأزهر - الجامع : ٢٧٧ ، ٢٩٨  
 أسامة بن منقذ : ٨٢  
 الأسبان - في أرخبيل الملايو : ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،  
 ٣٣٤ - ٣٣٦  
 أسبانيا - الإسلام فيها : ١١٦ - ١٢٨  
 إسرائيل - موظف مسيحي : ٦١  
 أسرة تالنج : ٢٥١ ، ٢٥٣  
 الأسرة الساسانية - الكنيسة المسيحية في عهدها :  
 ١٨٠ ، ٦٥
- أرو - في سومطرة : ٣٠٨ ، ٣٠٩  
 آريه دمر : ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠  
 آندنا - نائب كنسو : ١٩٦ ، ٢٠٥  
 أباقا خان : ١٩٨  
 الأبخاز : ٩١  
 إبراهيم - مسيحي يتولى بيت المال : ٦٠  
 إبراهيم الأول - سلطان تركيا : ٣٥٣  
 ابن تومرت : ٢٦٨  
 ابن حنبل : ٧٤  
 ابن خرداذبة : ١٨٣  
 أبو بكر - الخليفة : ٤٦ ، ٢٥  
 أبو الحسن ميمار - يدخل في الإسلام : ١٨٣  
 أبو طالب : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨  
 أبو الفرج بن الجوزي : ٧٠  
 أبو فوح الأنباري - كاتب مسيحي : ٦٠  
 أتباع زرادشت : ١٧٩ - ١٨٣  
 أتجيه : ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٩  
 الأتراك - تحولهم إلى الإسلام : ١٨٦ - ١٨٨ : في  
 الصين : ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ : في جيوش  
 المغول : ١٩٦ هامش ٤ . أنظر أيضا الأتراك  
 السلاجقة والأتراك العثمانيون  
 الأتراك السلاجقة : ٨١ ، ٨٧ ، ١٨٨  
 الأتراك العثمانيون - الإدارة : ١٣٠ - ١٣٢ :  
 الفتوحات : ١٢٩ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ،  
 ١٧٥ : صفاتهم الخلقية : ١٤٩ - ١٥١ ، ١٥٢ :  
 جورهم : ١٣٦ : حماسهم في نشر الدعوة : ١٤٠ :  
 هامش ٦ من نفس الصفحة ، ١٤١ : فرض  
 الضرائب : ١٣٢ - ١٣٧ : تسامحهم الديني :  
 ١٣٨ - ١٤٠ ، ١٧٠ ، ١٧١  
 آتش : ٢٤٠

١٣٨ : في الصرب : ١٧٢ : في ترانسلفانيا : ١٣٨ :  
 في تركيا : ١٤٧ - ١٤٨ :  
 الإغريق - في القرم : ٢٠٩ : في ظل الحكم التركي :  
 ١٢٩ - ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ :  
 إفريقية الشرقية الألمانية : ٢٩٠ - ٢٩٣ ، ٢٩١ :  
 إفريقية - كنيسة الشمال : ١٠٧ - ١١١ ، ١١٤ - ١١٥ :  
 الإسلام في إفريقية : ٩٢ - ١١٥ ، ٢٦٥ - ٣٠٤ :  
 تقسيم إفريقية وسهولة انتشار الإسلام : ٢٨٠ :  
 ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٣ - ٣٠٤ :  
 الأفغان - تحولهم إلى الإسلام : ١٠٨ : في البنغال : ٢٣٨ :  
 إقريطش : مقدمة الطبيعة الأولى للمؤلف ١٧٥ - ١٧٨ :  
 أكبر : ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٩ :  
 الألبانيون : ١٥٩ ، ١٥٦ - ١٦٩ :  
 أثار : ١٢٣ ، ١٢٦ :  
 الألفور : ٣٢٦ ، ٣٢٨ :  
 إلورن Ilorin : ٢٧٥ :  
 أميل - في جاوه : ٣١٩ ، ٣٢١ :  
 أمبونا : ٣٢٥ :  
 الأميرغنية - جماعة : ٢٧٦ :  
 أميروزيس - جورج : ١٤٢ :  
 أنتيشاري : ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ :  
 أنجومان : أنظر الجمعيات في الهند  
 الأنكشارية : ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٤٧ :  
 أهل الكتاب : ١٨٠ :  
 أورخان : ١٣٢ ، ١٣٣ :  
 أورنج زيب : ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٩ :  
 أوزبك : ٢٠٦ :  
 أوزبك خان : ٢٠٦ - ٢٠٧ :  
 أوسميره : ٢٩٠ :  
 اوغنده : ٢٨٩ :  
 أولجايتو : ٢٠١ :  
 أولياء المسلمين - الهندوكيون يعبدونهم : ٢٤٧ :  
 هامش ٢  
 أونين - شبه جزيرة غينا الجديدة : ٣٣٦ :  
 إيجيبو - بلاد في نيجريا الجنوبية : ٢٧٥ - ٢٧٦ :

أسرة شهاب - في جبل لبنان : ١٥٦ :  
 أسام : ٢٤١ :  
 أسكدار : ١٦٤ :  
 الإسلام - أخوة المسلمين : ٤٤ ، ٧٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٩ :  
 ٣٤٧ ، ٣٠٠ :  
 الإسلام - أسباب انتشاره : ٣٤٥ - ٣٥٥ : في  
 إفريقية : ٢٩٦ - ٣٠١ ، ٣٠٣ - ٣٠٤ : في  
 ألبانيا : ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦ - ١٦٧ : في بلاد  
 العرب : ٣٩ ، ٤٣ : في البوسنة : ١٧٥ : في  
 مصر : ٨٥ ، ٩٤ - ٩٥ ، ٩٨ : في الهند :  
 ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ٢٤٤ - ٢٤٨ : في أسبانيا :  
 ١١٧ : في تركيا : ١٣٩ - ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ :  
 ١٥٠ - ١٥٥ : في عهد نبي أمية والعباسيين :  
 ٦٦ - ٧٣ ، ٧٠ - ٧٣ هامش ٤  
 الإسلام - الجانب الطقسي منه : ٣٤٨ - ٣٥٠ :  
 الإسلام - دين رسالة : ١٧ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ :  
 الإسلام - دين عالمي : ٣٤ - ٣٦ :  
 الأسلوب العقلي في الإسلام : ٦٨ - ٦٩ :  
 إسماعيل بن عبد الله - والي شمال إفريقية : ٢٦٦ :  
 أسيد بن حضير - تحوله إلى الإسلام : ٣١ :  
 أشنتي : ٢٨٥ :  
 الاضطهاد الديني - محظور في القرآن : ٢٠ - ٢١ :  
 اضطهاد المسلمين - على أيدي المغول : ١٩٥ - ١٩٦ :  
 ٢٠٢ : على أيدي الروس : ٢١١ :  
 اضطهاد المسيحيين على أيدي المسلمين : ٧٠ - ٧٤ :  
 ٣٥١ هامش ١ : بنو تنوخ : ٥٠ : في ألبانيا :  
 ١٦١ ، ١٦٦ - ١٦٧ : في أرمينيا : ٨٨ : في  
 مصر : ٩٥ - ٩٦ : في جورجيا : ٨٩ - ٩١ : في  
 إفريقية الشمالية : ١١٢ : في فارس : ٢٠٠ : في  
 سمرقند : ١٩٥ : في أسبانيا : ١٣٧ : في تركيا :  
 ١٣٣ ، ١٣٦ - ١٣٧ :  
 اضطهاد المسيحيين على أيدي إخوانهم في الدين -  
 في البوسنة : ١٤٨ - ١٤٩ : في إقريطش : ١٧٧ :  
 في قبرص : ٩٧ هامش ٢ : في مصر : ٦٥ ، ٩٢ :  
 ٩٥ هامش ٥ : في فرنسا : ١٣٠ : في المجر :

٢٦٥ - ٢٦٩ : في السودان : ٢٦٩ - ٢٧١  
بربرة : ٢٩٤  
الرتفاليون - في الحبشة : ١٠٣ : على ساحل إفريقية  
الشرقية : ٢٨٦ ، ٢٨٨ : في الهند : ٢٢٧ : في  
أرخيل الملايو : ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩  
بركة خان : ١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٦  
برلاك - مملكة في سومطرة : ٣٠٨  
البرن - قبيلة : ٣٤٣  
برنو : ٢٧١ - هامش ٥ ، ٢٧٢ ، ٢٩٨  
برمن آباد : ٢٣٢  
بروناي - في بورنيو : ٣٢٦  
البشكير : أنظر الباشغرد  
بشونق - طائفة هندوكية : ٢٢٤  
بطرس - مطران الكنيسة الروسية : ٢٠٧  
بقايا عادات مسيحية بين المسلمين : ١١٤ هامش ٢ ،  
١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢  
بكام - مسيحي موسر يني كنائس : ٦٤  
بكل - يتحدث عن دعاة المسلمين : ٣٣٨  
بلال : ٣٦ ، ٣٥  
بلتستان : ٢٤٩ - ٢٥٠  
بلجام : ٢٣١ ، ٢٣٢  
البغار : ٢٠٨ - ٢٠٩  
بلبنجن - مملكة في جاوة : ٣١٩  
بلند شهر : ٢١٩ ، ٢٢٢  
البلو - قبيلة : ١٠١  
البليونيون - في لمبوك : ٣٣٣  
البليون : ١٠١  
بمبارا : ٢٧٢  
البنادقة - في ألبانيا : ١٦٥ - ١٦٦ : في إفریطش :  
١٧٦ ، في الأملاك التركية : ١٣٠  
بنتام - في جاوة : ٣٢٢  
بترة - في جاوة : ٣٢٠  
البنجاب : ٢٣٩ - ٢٤١ ، ٢٤٥  
بنجر ماسين - مملكة في بورنيو : ٣٢٦ - ٣٢٧

الإيدان - قبيلة في بورنيو : ٣٢٧  
الإيلخانات - دولتهم : ١٩٣ - ١٩٤ ، ١٩٦ ،  
١٩٨ - ٢٠٢  
البابا أدريان الأول : ١١٨ هامش ٣ ، ١٢١  
هامش ١  
البابا إنو سنت الثالث : ١١٥ هامش ٣  
، ، ، الرابع : ١١٥ هامش ٣ ، ١٧٣  
هامش ٣ ، ١٩٢  
البابا جريجوري التاسع : ١١٥ هامش ٣  
البابا جريجوري الثاني : ١١١  
البابا جريجوري السابع : ١١٢ ، ١١٥ هامش ٣  
البابا جون الثاني والعشرون : ١٧٣ ، ٢٠٧  
البابا ليو التاسع : ١١٢  
البابا ليو الثالث : ١٢٣  
باجاجاران - مملكة في جاوة : ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣٢٢  
الباشغرد - في المجر : ١٧٠ : في روسيا : ٢١٣ - ٢١٤  
باغرمي : ٢٧٣  
بالاساغون : ١٨٧  
بالمينج : ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٦  
بالي - جزيرة : ٣٢١ ، ٣٣٨  
بايزيد - سلطان تركيا : ١٦٩  
بييد ماريام - ملك الحبشة : ١٠٢  
البيوان : ٣٢٦ - ٣٣٨  
بتزي - ماركو ، في ألبانيا : ١٥٩ - ١٦١  
البتشنج : ٣٤٤  
البتك : ٣٠٩ - ٣١٠ ، ٣١٢  
بجندة - الإسلام بينهم : ٢٨٩  
بخاري - بغزوها العرب : ١٨٥ : بينها المغول :  
١٩٠ ، السلجوقيون يقبلون فيها الإسلام : ١٨٨  
بختيار خلجي : ٢٣٦  
البدري - في سومطرة : ٣١٠ ، ٣١٢  
البدووي - في جاوة : ٣٢٢  
براق خان : ٢٠٢  
البربر - المسيحية بينهم : ١٠٨ ، الإسلام بينهم :

في أرخبيل الملايو : ٣٠٦ ، ٣١٦ - ٣١٧ ، ٣٢٣ -  
٣٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ : في سيبيريا : ٢١٥  
تجار العرب - ينشرون تعاليم الدعوة : ٢٩٨ وما يليها ،  
٣٣٨ ، ٣٥٠ : بين المغول : ١٩٧ : في إفريقيا :  
١٠٥ ، ٢٧١ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ،  
٢٩٨ ، ٣٠٣ : في الهند : ٢٢٥ ، ٢٣٣  
تجارة الرقيق - إلغاؤها يسهل انتشار الإسلام :  
٢٨٩ - ٢٩٠  
التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه في ألبانيا :  
١٦٠ ، ١٦٧ : في الهند : ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،  
٢٢٨ - ٢٢٩ ، ٢٣٧ : في كشمير : ٢٤٩ : في  
مراكش : ١١١ : في مغالستان : ٢٠٤ : في  
تونس : ١١١ هامش ١٠ : في تركيا : ١٣٣ ،  
١٤٧ ، ١٥٣  
التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه - منهي  
عنه : ٢٠ ، ٢١ ، ٧٨ ، ٧٨ هامش ٥ ، ٣٥١ -  
٣٥٣  
التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه - انعدامه  
والشواهد المعاصرة على ذلك : ٧٥ - ٧٦ ، ١٣٩ -  
١٤٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤  
التحول إلى المسيحية عن طريق الإكراه - في  
الحيشة : ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٦ : في أمبونيا : ٢١ -  
٢٢ : في أوروبا : ٢١ ، ٢٢ ، ١٧٠٠ : في بلاد الجلا :  
٢٩٣ : في جزائر الفيليبين : ٣٣٤ - ٣٣٥  
تحول المسلمين إلى المسيحية - في إفريقيا : ١٧٦  
ترانسبايليا : ٢٢٨  
تركستان : ١٨٦ - ١٨٧  
ترنات : ٣٢٤ - ٣٢٦  
التسامح الديني مع المسيحيين - في مصر : ٩٢ - ٩٣ :  
في خراسان : ٧٥ - ٧٦ : في شمال إفريقيا : ١١٥ :  
في روسيا : ٢٠٧ - ٢٠٨ : في أسبانيا : ١١٩ -  
١٢٠ ، ١٢٧ : في سوريا وفلسطين : ٥٥ - ٥٦ ،  
٨٦ : في تركيا : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٩ ، ١٥٧ -  
١٦٧ ، ١٦٨

البنغال : ٢٣٧ - ٢٣٩ ، ٢٤٥  
بنكاور : ٢٤١  
بنو تغلب : ٤٩ - ٥٠  
بنو تنوخ : ٥٠  
بنو غسان : ٤٧ ، ٥١  
بنو النمر : ٤٨ ، ٤٩  
بهره - جماعة : ٢٣٥ - ٢٣٦  
بهلوان - ولي خيوه : ١٨٦  
الوجوميل : ١٧٣ - ١٧٥  
البوجي - في بورنيو : ٢٣٨ ، في سلييس : ٣٢٨ ،  
٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣  
بوده مل - راجه مجهولي : ٢٢٣  
البوذية - في نزاع مع الإسلام : ١٩٠ ، ١٩٢ ،  
١٩٥ ، ١٩٦  
البوذيون - الذين أسلموا : ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ -  
٢٥٠ ، ٣١٥ ، ٣٥٢  
بورنيو : ٣٢٦ - ٢٨  
البوسنة : ١٤٨ ، ١٧٣ ، ١٧٥  
بول : أنظر القلي  
بولاج مونجندو - في سلييس : ٣٣١ - ٣٣٢  
البولنديون - الكاثوليك في ظل الحكم الروسي : ١٣٨  
بوناني : ٢٢٩  
بويرس - أحد سلاطين الماليك في مصر : ١٩٣ -  
١٩٤ ، ١٩٧ ، ١٩٨  
بيت المقدس : ٨٢ ، ٥٥  
بيدو خان : ٢٠٠  
بيرانه : ٢٣٦  
بيلي - قبيلة : ٢٨٢  
بينو كنده : ٢٢٨  
تبت : ٢٥٠  
تار بريرة : ٢١٦  
التار - في لنوانيا : ١٨ ، ٢١٠ ، في روسيا : ٢٠٩ -  
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٥ : في سيبيريا : ٢١٥ - ٢١٦  
تجار الرقيق - لا ينشرون الدعوة الإسلامية : ٢٨٨ - ٢٨٩ :

الجيل الأسود : ١٧٢ - ١٧٣  
جات مل - إسلامه : ٢٣٧  
جتا كالج : ٢٣٧  
الجدل بين المسيحيين والمسلمين : ٨٧ - ٧٨ ، ٩٧ ،  
١٩٥ - ١٩٦ ، ١٩٧ ، هامش ٢ ، ٣٦١ - ٣٦٢  
الجراح بن عبد الله - والي خراسان : ٧٦  
جراني : أنظر أحمد جرائي  
جرجانوس : ١٤٥  
جرجيس - أسقف البحرين : ٧٩  
جردنو : ١٨  
جريسك : ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥  
الجزية - يدفعها الرعايا من غير المسلمين : ٥٧ - ٥٩ ،  
٩٣ ، ١٠٢ ، ١٨٠ : ويدفعها أيضا المسلمون  
الجدد : ٥٧ ، ٧٦ - ٧٧ ، ٩٣ ، هامش ٢ : إعفاء  
بني تغلب : ٤٩ : والمسلمين الجدد : ٩٣ ، ٢٢٠ ،  
٢٢١ : والجنود المسيحيين في الخدمة الإسلامية :  
٥٩ : مقاديرها : ٥٧ : في بيت المقدس : ٥٥ :  
في النوبة : ٩٨ : في أسبانيا : ١١٩ . أنظر  
أيضا ضريبة الرأس  
جستنيان : ٥٢ ، ٦٨ ، ٩٢ ، هامش ١ ، ١٠٩  
جغروب : ٢٨١ ، ٢٨٢  
جغطاي : ٢٠٢  
جلال الدين محمد شاه - ملك البنغال : ٢٣٧  
جلرجه : ٢٣١  
الجلال : ٢٩١ - ٢٩٣ : في الحبشة : ١٠٤ ، ٢٩١  
الجماعات الدينية - أثرها : ٢٠٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٤١  
جمال الدين - أول ملك مسلم لتيدور : ٣٢٤  
جمعيات الدعوة الإسلامية : ٢٦٢ - ٣٦٣  
الجمعيات - في الهند : ٢٤٤ ، ٣٦٣  
جنكين خان : ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٥٧  
جنشاديوس - بطريق القسطنطينية : ١٢٩  
جني : ٣٦٩  
الجهاد - في إفريقيا : ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ - ٢٩٦ :  
في سومطرة : ٣١٢  
جوا - في سليبيس : ٣٣٠ ، ٣٣٩

التساحح الديني مفروض على المسلمين : ٢٠ - ٢١ ،  
٧٢ هامش ٤ ، ٣٥١  
تساميا : ٣١٨  
تشرمن : ٣١٧  
تشرومن : ٢٢٩  
تشريون : ٣١٨ ، ٣٢٢  
التعصب الديني - النهى عنه : ١٨٢ . وانظر أيضا  
التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه - منهى عنه  
تعميد الأطفال المسلمين : ١٥٩ ، ١٦٥  
تغلق تيمور خان - ملك كاشغر : ٢٠٣  
تفوق المسلمين الأدنى - في الحبشة : ١٠٤ : في أسبانيا :  
١١٧ : في تركيا : ١٥١  
تسكودار - أول إيلخان مسلم : ١٩٨ - ٢٠٠ ،  
٢٠٥  
تسو - في سليبيس : ٣٣٠  
تيمكتو : ٢٦٩ ، ٢٧٧  
تاوولي : ٢٤٦  
التوسك - في ألبانيا الجنوبية : ١٦٨  
تونس : ١١٤  
تويو : ٣٤٢ - ٣٤٣  
التيان : ٢٢٩  
تيبستي : ٢٨٢  
تيو سلطان : ٢٢٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩  
النيجانية - جماعة : ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠  
تيدور : ٣٢٤  
تيلك تشند : ٣٢٢  
تيمور : ٢١٩ ، ٢٤٩  
نيودسكلوس - رئيس أساقفة إشبيلية ، يعتقد الإسلام : ١٨  
نيودور - أسقف نستوري : ٧٩  
نيودور أبو قره : ٧٧  
الجمام : ٢٥٣ ، هامش ٣  
چاوج - زعيم حبشي : ١٠٥  
جاوة : ٣٠٦ ، ٣١٦ - ٣٢٣  
جبريل - مطران فارس : ٧٩  
جبريل - طيب نصراني لهارون الرشيد : ٦١

خوقند : ٢١١  
 خيوه : ٢١١ ، ١٨٦  
 دارفور : ٢٧٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨  
 داغستان : ٩٠  
 دانيال - أسقف غابور : ٨٠  
 داوتي - مقتنيات من كتابه : ٢٩٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨  
 دس أوتاز - كتاب الخوجات المقدس : ٢٣٤  
 دعاة الإسماعيلية : ١٨٣ - ١٨٤ ؛ في الهند : ١٨٤  
 ٢٣٤ - ٢٣٥ ؛ في كشمير : ٢٤٩  
 دعاة المسلمين - جاءوا من بغداد إلى الهند : ٢٣١  
 ٢٣٤ ؛ ومن بخارى إلى الهند : ٢٣٩ ، ٢٤٠  
 وإلى المغول : ١٩٧ ، ٢٠٣ ؛ وإلى سيبيريا :  
 ٢٥١ ؛ ومن فارس إلى الهند : ٢٣٠ ، ٢٣٩ -  
 ٢٤١ ، ٢٤٩ . أنظر أيضا التجار والسجناء والنساء  
 باعتبارهم دعاة إلى الإسلام .

#### الرعاة المسلمون :

إبراهيم أبو زرباي : ٢٩٤  
 ابن حنبل : ٧٠  
 أبو بكر : ٣٣٥  
 أبو صيدا : ١٨٥  
 أبو عبد الله محمد : ١٠١  
 أبو علي قلندر : ٢٤١  
 أبو الفرج بن الجوزي : ٧٠  
 أبو النصر الساماني : ١٨٦  
 إسحاق : ٣١٩  
 إسحاق ولي : ٢٠٤  
 إسماعيل - الشيخ : ٣٠٨  
 إسماعيل - من أولياء بخارى : ٢٣٩  
 الإمام تويكو : ٢٣١  
 الإمام ذكر : ٣٣٧  
 الإمام شاه پيرانه : ٢٣٦  
 باتي بتاه : ٣٢٥  
 برهان الدين : ٣٠٧  
 بقا حسين خان : ٢٤١ ، ٣٦٣

جوجرات - انتشار الإسلام فيها : ٢٣٥ - ٢٣٦  
 الجورجيون : ٨٨ - ٩٠ ، ١٤٥ هاشم ٩  
 جوكون - قبيلة : ٢٨٤  
 جون - ملك الحبشة : ١٠٦  
 جيري : ٣٢٠  
 جيلولو : ٣٢٤ هاشم ١ ، ٣٢٦  
 جيمس الثاني - ملك إنجلترا ، يدعى إلى الإسلام :  
 ٣٤٢ هاشم ٣  
 الجين - إسلامهم : ٢٣١  
 الحاج عمر : ٢٧٨ ، ٢٨٠  
 الحاجي : أنظر طبقة الحاجي  
 حاجي بروا : ٣١٧  
 الحاكم : ٢٢ ، ٣٥٢  
 الحبشة : الإسلام فيها : ١٠١ - ١٠٧ ، ٣٤٣ ؛  
 الهجرة إليها : ٢٧ ؛ بلال أول ثمار الحبشة : ٣٥٢ ، ٣٥٦  
 الحج إلى مكة : أنظر طبقة الحاجي  
 حفص بن الوليد - وإلى مصر والمسيحيون : ٩٣  
 الحكم الروسي - المسلمون في ظله : ٩١ ، ٢١٠ - ٢١٥  
 الحكومة البيزنطية : ٥٢ - ٥٤ ، ٦٧ - ٦٨ ؛ في  
 إفريقية : ٩٤ ، ١٠٩ ، ٩٥ ؛ في اليونان : ١٣٠ - ١٣١  
 الخوصة - قبائل : ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،  
 ٢٧٥ ؛ باعتبارهم ناشرين للدعوة : ٢٧١ ، ٢٨٥ ؛  
 على ساحل إفريقية الغربي : ٢٨٦  
 حيدر علي : ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩  
 الحيرة : ٥٠  
 خالد بن الوليد : ٤٦ ؛ في الحيرة : ٥٠ ؛ أسطورة  
 الأفغان الخاصة بخالد : ١٨٨  
 خالد القسري - بنى كنيسة : ٦٣  
 ختان : ١٨٧ ، ٢٠٤ ، ٢٥٣ هاشم ٣  
 خديجة : ٢٤ - ٢٥ ، ٢٨  
 الخراج : ٧٦  
 خراسان - إسلام نصارى خراسان : ٧٥ - ٧٦  
 الخلجيون - الإسلام في عهدهم : ٢٢٠  
 خلقدونية - مجمع : ٥٣ ، ٩٢  
 خوجه : أنظر طبقة الخوجات

الشریف کابو نجسوان : ٣٣٣  
الشریف کریم المخدوم : ٣٣٥  
شمس الدین - میر : ٢٤٩  
صدر الدین : ٢٣٤ - ٢٣٥  
الضحاک بن سفیان : ٤٢  
ضمائم بن ثعلبة : ٣٩ - ٤٠  
طفیل بن عمرو : ٤١  
عبد الرزاق : ٢٢٧ - ٢٢٨  
عبد الله بن یاسین : ٢٦٧ - ٢٦٨  
عبد الله - الشيخ : ٣١٣ - ٣١٥  
عبد الله عارف : ٣٠٧  
عبد الله النجفی : ٢٣٤ - ٢٣٥  
عثمان دنفدیو : ٢٧٣ - ٢٧٥  
عروة بن مسعود : ٤١  
عُمرُو کبا : ٢٧٢  
عمرو بن مالک : ٤٢  
عمرو بن مرة : ٤٠  
عیاش بن أنى ربيعة : ٤٢  
نجر الدین : ٢٢٨ - ٢٢٩  
فرح علی : ٩١  
فريد الدین : ٢٣٩  
مالک بن دینار : ٢٢٥ - ٢٢٦  
مالک بن حبيب : ٢٢٥ - ٢٢٦  
محمد بن عبد الکریم بن محمد المجبلی : ٢٧١  
محمد بن الهذیل : ٦٩ هامش ٤  
محمد عبيد الله : ٢٤٣  
محمد عثمان الأمير غنى : ٢٧٦  
مصعب بن عمير : ٣١٠ ٢٧  
معین الدین خشتی : ٢٤٠  
ملك إبراهيم : ٣١٧  
ملك عبد اللطيف : ٢٣٦  
ملا علی : ٢٣٥ - ٢٣٦  
میا ملایکا : ٢٣٠  
منصور - الشيخ : ٢٢٤  
منك کله بومی : ٣١١

بلبل شاه : ٢٤٩  
بهاء الحق : ٢٣٩  
جلال الدین التبریزی : ٢٣٩  
جمادی الکبری : ٣١٩  
جمال الدین : ٢٠٣  
حاجی محمد : ٢٤١  
الحسن بن علی : ١٨٢  
حسن الدین : ٣٢٢  
حسن علی : ٢٤١ - ٢٤٢  
حسن کبیر الدین : ٢٤٠  
حکیم بجوس : ٣٣١  
خطیب تونجال : ٣٣٠  
خليفة حسين - الشيخ : ٣٢٠  
خوندمیر حسینی : ٢٣٢  
داتو ملا حسین : ٣٢٤ - ٣٢٥  
داول شاه بیر : ٢٣٦  
درویش منصور : ٩١٠ ٩٠  
دنفدیو : أنظر عثمان دنفدیو  
رشید الدین : ٢٠٣  
سیدی عبد العزیز : ٣١٣  
سید أحمد کبیر : ٢٤٠  
سید جلال الدین : ٢٤٠  
سید سفدر علی : ٢٤٢  
سید شاه فريد الدین : ٢٤٩  
سید صدر الدین : ٢٤٠  
سید علی همدانی : ٢٤٩  
سید عمر عیدروس بیس بان : ٢٣٢  
سید محمد بن سید علی : ٢٣٢  
سید محمد جیسو دراز : ٢٣٢  
سید تهر شاه : ٢٢٨  
سید یوسف الدین : ٢٣٤  
شاه الخید : ٢٢٨  
شاه محمد صادق سرمست حسینی : ٢٣٢  
شرف بن مالک : ٢٢٥

- مهاير خام دايت : ٢٣١  
ناصر الحق أبو محمد : ١٨٢  
نور الدين : ٢٣٥  
نور الدين إبراهيم : ٣٢٢  
نور ستاجر : ٢٣٥  
وائل بن الأسقع : ٤٢  
يوسف شمس الدين : ٢٣٠  
الدعوة الإسلامية - نشاطها وخصائصها : ٢-٣٤١ ؛  
القرآن يحض عليها : ١٨ - ١٩ ، ٣٤٢ ؛ في عهد  
الضعف السياسي : ١٨ ، ١٢٨ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ،  
٣٣٢ ، ٣٣٤ ؛ جهود غير موفقة في نشرها في بلاد  
العرب : ٣٨ - ٣٩ ، ٤٢ ؛ في إفريقيا : ٢٧٥ ؛  
في الهند : ٢٢٧-٢٢٨ ؛ في جاوه : ٣١٧-٣١٨ ؛  
بين المغول : ٢٠٦ ؛ بين البيوان : ٣٣٦-٣٣٧ ؛  
بين الروس : ٢٠٨  
الدكن - تجار من الدكن في أرخبيل الملايو : ٣٠٦  
دمشق : ٦١ ، ٥٤  
دنقله : ٩٩ ، ٩٩ هاشم ٢٧٦ ، ٢  
دهانو : ٢٣١  
دهومي : ٢٨٥  
الدودي كولا : ٢٢٨  
دولة المرابطين : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ١٢٧  
دولة الموحدين : ٢٦٨ ، ٣٥١  
الدياك : ٣٢٨  
الديلم : ١٨٢  
دين الرسالة - تعريفه : ١٧  
الذميون : ٥٥ - ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧٢ هاشم  
٧٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ . أنظر أيضا  
المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي ، والمجوس  
( أتباع زرادشت )  
راجه بوت - إسلامهم : ٢٢١ - ٢٢٢ ؛ مؤثرات  
إسلامية بينهم : ٢٤٦  
رادن پاكو : ٣٢٠ - ٣٢١  
رادن بتاه : ٣١٨ ، ٣٢٠  
رادن حسين : ٣٢٠ - ٣٢١  
رادن رحمت : ٣١٩ - ٣٢١  
راس علي - حاكم إقليم في الحبشة : ١٠٥  
رستم - أول ملك مسلم لكارثلي : ٩٠  
الرفوتان : ٢٢٨  
ركلدوس دي مونت كروسييس - يتحدث عن  
مزايا المسلمين : ٣٥٤  
روبرت سانت ألبانس : ٨٣  
روبرك - ولیم ، رسول إلى خاقان المغول : ١٩٢-١٩٣  
الروس - في ظل الحكم الإسلامي : ٢٠٦ - ٢٠٩  
الروسيا - المغول فيها : ٢٠٦ وما يليها . أنظر  
أيضا التتار  
الروم - صهيب أول ثمار الروم : ٣٣ ، ٣٥  
رومانيا الجنوبية - أهلها : ٥٩ ، ١٤٩  
ريموند الثالث - كونت طرابلس : ٨٣  
رينو : ٨٠ - ٨١  
زامورن - ملك فليقوط : ٢٢٧ - ٢٢٨  
زمايفتش : أنظر ازمايفتش  
الزنج - الإسلام بينهم : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨  
زنجبار : ٢٨٧  
زواج المسلمين من نساء مسيحيات : ١٢١ هاشم  
١٥٩ ، ١٦٣ ، ١  
زيلع : ٢٩٣ - ٤  
زين العابدين - أول ملك مسلم لباتجان : ٣٣٦  
هاشم ٤  
ساتوق بغراخان : ١٨٦  
ساحل الذهب : ٢٨٥  
ساحل غينا : ٢٨٥  
سامان - يعتقد الإسلام : ١٨٢  
ساوو تهنو - ملك كافا ، يعتقد الإسلام : ١٠٧  
السجناء المسلمون - باعتبارهم دعاة إلى الإسلام : ٣٤٤  
سرام : ٣٣٧  
السك - في لبوك : ٣٣٣  
سعد بن أبي وقاص : ٢٥  
سعد بن معاذ - إسلامه : ٣١

سيراليون : ٢٨٤  
سيف أرعد - ملك الحبشة : ١٠١  
سيلان - الإسلام فيها : ٢٢٧ هامش ٣  
سيوف الإسلام : ١٩ ، ٢٢ ، ٤٦ ، ٧٨ ، هامش ٥  
٢١٩ ، ٣٣٩  
السيد الأجل : ٢٥٤  
السيد أشرف الدين : ١٩٤ - ١٩٥  
سيد سليمان - مسلم صيني : ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤  
سيد علي أكبر - تاجر مسلم في بكين : ٢٥٧ ،  
٢٦٤ هامش ١  
الشافعية - جماعة : في أرخبيل الملايو : ٣٠٦  
الشامانية : ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ - ٢١١  
شاه روخ بهادر : ٢٢٧ ، ٢٥٥  
الشراكية : ٩١  
شرلمان : ٢١ ، ١٢٠ ، ١٢٣  
الشريف الرضى : ١٨٣  
السنار - يعتقدون الإسلام : ٢٤٦  
الشهداء - المسلمون : ٢٦ ، ٤١ ، ١٩٤  
الشوقاش : ٢١٥  
قويذة : ٣١٣ - ٣١٥  
شيانا راتشيو - ضريبة : ١٦٠ - ١٦٦  
الشيخ جلال الدين التبريزي : ٢٣٩  
الشيخ يوسف : ٢٩٤ هامش ٦  
الشيريمس : ٢١٣ - ٢١٥  
الشيعة - في إفريقية : ٢٨٦ ؛ في الهند : ٢٣٤ - ٢٣٦ ؛  
في كشمير : ٢٤٩ ؛ في جاوه وسومطره : ٣٠٦ ؛  
في فارس : ١٨١ ، ١٨٣ ؛ في تركيا : ٣٥٣  
صدر الدين - أول ملك مسلم لكشمير : ٢٤٩  
الصرب : ١٦٩ - ١٧٣  
الصلاة العامة عند المسلمين - تأثيرها : ٣٤٨ - ٣٤٩  
صلاح الدين - والصليبيون : ٨٢ - ٨٣ ، ٣٥٥ ؛  
المسيحيون في مصر في عهده : ٩٦ ، ٣٥١  
الصليبيون : ٨٠ - ٨٤  
صمودو : ٢٧٩ - ٢٨٠  
صويب - أول ثمار الروم : ٣٣ - ٣٥

سعيد بن الحسن - يتحدث عن صلاة الجماعة عند  
المسلمين : ٣٤٨  
السفاح - خليفة : ٩٣  
سفرونيوس - مطران أثينا : ١٤٤  
سكندر بك : ١٥٦  
سلان - أول من أسلم من الفرس : ٣٥  
سلوييه - مسيحي في خدمة الخليفة المعتصم : ٦٠  
سمايت : ٢٤١  
سلوتي - جزيرة : ٣٣٦  
سليبيس : ٣٢٨ - ٣٣٤  
سليم الأول - سلطان تركيا : ٣٥٣  
سمبوه : ٣٣٢  
سمدره : ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩  
سمرقند - سفارة صينية إليها : ٢٥٥ ؛ صناع الصين  
فيها : ٢٥٤ هامش ١ ؛ دخول الإسلام إليها :  
١٨٥ ؛ في ظل حكم المغول : ١٩٤  
سمري : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، هامش ٢ ، ٢٨٠  
سموري : أنظر سمري  
السند : ٢٣٢ - ٢٣٤  
سندان : ٢٣٣  
السنغال : ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠  
سنغاي - مملكة : ٢٦٩ ، ٢٧٢  
سنار : ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٨٣  
السنوسية - جماعة : في إفريقية : ٢٨١ ، ٣٤٢ ؛ في  
أرخبيل الملايو : ٣٤٠  
السواحليون - ينشرون الدعوة الإسلامية : ٢٩٠  
سوبة - مسجد يبنى فيها : ٩٨  
السودان : ٢٦٩ - ٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٤  
سوكدنة - مملكة في بورينو : ٣٢٦  
سوكوتو : ٢٧٥  
سولو - جزائر : ٣٣٤ - ٣٣٥  
السومال - الأهالي : ٢٩٣ - ٢٩٤  
سومطرة : ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٣  
سيام - الإسلام فيها : ٣١٥  
سيريا : ٢١٥ - ٢١٦

العبيد المحكوم عليهم بالسجن : ١٥٣  
 عثمان - إسلامه : ٢٥ ؛ علاقته مع الصين : ٢٩٥ ؛  
 إيراد مصر في عهده : ٩٣  
 عدل - المملكة الإسلامية : ١٠٢  
 العرب : أنظر فتح العرب ، وفتوح العرب ، والمجتمع  
 العربي ، ونجار العرب ، والقبائل العربية ، واللغة  
 العربية ، والمسيحيون العرب  
 العرب - في إفريقية ؛ في الحبشة : ١٠١ ؛ على  
 الساحل الشرقي : ٢٨٧ - ٢٨٨ ؛ في النوبة :  
 ٩٨ - ٩٩ ؛ في السومال : ٢٩٤ ؛ في السودان :  
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ؛ في أوغنده : ٢٨٩ ؛  
 في الصين : ٢٥٢ - ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٣٠٥ ؛ في الهند :  
 ٢١٧ - ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ - ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ؛  
 في الهند الصينية : ٣١٥ ؛ في أرخبيل الملايو :  
 ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ؛  
 ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ - ٣٤٠ ؛ في  
 شبه جزيرة الملايو : ٣١٣  
 العرب - في أسبانيا : ١٢٨  
 عسيفان : ٢٣٣  
 علي بن أبي طالب : ٢٥  
 علي مغايت شاه - ملك أتجيه : ٣٠٨  
 عمر بن الخطاب - وبنو تغلب : ٤٩ ؛ إسلامه :  
 ٢٧ - ٢٨ ؛ عهده : ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٦ ؛ ينشر  
 الإسلام : ٥٠ - ٥١ ، ٥٧ ؛ إخضاعه بيت المقدس : ٥٥  
 عمر بن عبد العزيز - ومصر : ٩٣ ؛ وشمال إفريقية :  
 ٢٦٦ ؛ والسند : ٢٣٢ ؛ وماوراء النهر : ١٨٥ ؛  
 أوامر بهدم الكنائس المحدثه : ٦٢ ؛ المؤرخ  
 المسيحي يضيف إلى إسمه قوله رضى الله عنه :  
 ٣٥٤ ؛ إيراد مصر في عهده : ٩٣ ؛ الخاسه في  
 الإسلام : ٧٦ - ٧٧  
 عمر بن يوسف - وال مسيحي على الأنبار : ٦٠  
 عمر شمس الدين : أنظر السيد الأجل  
 غازان : ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٣٥٢  
 غينا الجديدة : ٣٣٦  
 فارس - انتشار الإسلام فيها : ١٨٠ - ١٨٤ ، ١٩٨ وما يليها

الصين - الإسلام فيها : ١٩٦ - ١٩٧ ، ٢٥٢ - ٢٦٤  
 الصينيون - بورينو : ٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ في جاوه :  
 ٣١٧ - ٣١٨ ؛ في منداناو : ٣٣٥ ؛ هامش ١  
 ضريبة الأطفال المسيحيين : ١٣٣ - ١٣٥ ، ١٣٨  
 ضريبة الرأس في ألبانيا : ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ؛  
 في تركيا : ١٣٥ - ١٣٧ . وأنظر الجزية  
 الطائف : ٤١ ، ٢٩  
 طبرستان : ١٨٢  
 طبقة الپير - باعتبارهم دعاة إلى الإسلام ؛ في الهند :  
 ٢٣١ ، ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٢٣٦ ؛ في ظل المغول : ٢٠٥  
 طبقة الحاجي - ونشاط الدعوة : ٢٤٧ ؛ في إفريقية :  
 ٢٧٨ ، ٢٩٧ ؛ في أرخبيل الملايو : ٣٣٨ ، ٣٣٩ ؛  
 في جاوه : ٣١٦ ؛ في سمبوه : ٣٣٢ ؛ في سومطره :  
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢  
 طبقة الخوجات : ٢٣٤  
 طرما شيرين خان : ٢٠٢ ، ٢٠٥  
 طيماناوس - بطريق نسطوري : ٦٤ ، ٧٧  
 عبد الرحمن - مدير الشؤون المالية في الحكومة  
 الصينية : ٢٥٤  
 عبد الرحمن السامري - ملك هندوكي معروف : ٢٢٦  
 عبد الرحيم بن علي - خبر عن التحويل إلى الإسلام  
 عن طريق الإكراه : ٣٥١  
 عبد العزيز بن مروان - والي مصر : ٦٠ ، ٦٣  
 عبد القادر الجيلاني : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨  
 عبد الكريم - مؤسس مملكة وداي : ٢٧٣  
 عبد الله - أول ملك مسلم لباغرمي : ٢٧٣  
 عبد الله بن إسماعيل الهاشمي - رسالته إلى الكندي :  
 ٧٧ - ٧٨ ، ٣٥٧ ، ٣٦١  
 عبد الله بن مسعود : ٢٦  
 عبد الله بن ميمون : ١٨٣ ، ١٨٤  
 عبد الله بن ياسين : ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ٢٧٩  
 عبد المسيح بن إسحاق الكندي : ٧٧ - ٧٨ ، ٣٥٧  
 عبد الملك - الخليفة : ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٢٦٦  
 العبودية - في ظل المسلمين : ٣٤٧ - ٣٤٨ ؛ في ظل  
 الأتراك : ١٥٢ - ١٥٥

القديس أوجوسطين - يتحدث عن عوامل التحول إلى المسيحية : ٣٥٣  
 القديس لويس - حربه الصليبية : ٨١ ، ٨٤ ؛ سفارته إلى خاقان المغول : ١٩٢ - ١٩٣ ؛ يتلقى سفارة من المغول : ١٩٨ ؛ يتحدث عن معامته الكفار : ٢٢  
 القديس يوحنا الدمشقي : ٧٧  
 القرغيز : ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٦  
 القمر - الإسلام فيها : ٢٠٩ - ٢١٠  
 قران : ٢١١ - ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٤٣  
 قسطنطين - تساريفتش كاخث ، يعتقد الإسلام : ٩٠  
 قسطنطينية - المسيحيون فيها : ١١٤  
 قويلاي خان : ١٩١ - ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٥٤  
 الكاب - مستعمرة : ١٨ ، ٢٩٤ - ٢٩٦  
 كابل : ١٨٨  
 كارين الثاني : ٢١١  
 كاستربوتا - جورج : ١٥٦  
 كاشغر - الإسلام فيها : ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤  
 كانم : ٢٧١  
 كتزنا : ٢٧١  
 كتش : ٢٣٤ ، ٢٣٦  
 كردفان : ٢٧١ ، ٢٧٦  
 كرجز - Kurguz - حاكم بوذي على فارس يعتقد الكرمورتاد - ألبانيا : ١٦٨  
 كريتوبولوس - متروفانس ، يتحدث عن جزية الأبناء المسيحيين : ١٣٣ هامش ١ ، ١٣٤  
 كريم بن شهريار : ١٨٢  
 كشمير : ٢٤٩  
 كفرة : ٢٨١ هامش ٤  
 كفتو - المسلمون فيها : ٨١  
 كلفن : أنظر مذهب كلفن  
 كلوا : ٢٨٦ ، ٢٨٧  
 كمبوديا : ٢٥١ ، ٢٥٣ هامش ٣  
 الكنائس المبنية في البلاد الإسلامية : ٥٥ هامش ٧ ، ٦٢ - ٦٤ ، ٩٧ ، ١٢٠ ، ٣٥٢ هامش ٥

فارس - نزعات إلحادية في الكنيسة المسيحية في فارس : ٦٥ - ٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠  
 فتح العرب للإمبراطورية البيزنطية : ٥٤ - ٥٦ ؛ فتح مصر : ٩٢ - ٩٣ ؛ في شمال إفريقيا : ١٠٧ ، ١١٠ ، ٢٦٥ - ٢٦٦ ؛ فتح فارس : ٤٨ - ٤٩  
 فتوح العرب - التي لا تهدف إلى نشر الدعوة : ٥٤ - ٥٦  
 الفرس - أول مسلم فارسي : ٣٥ ؛ الفرس في الصين : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ؛ في الهند الصينية : ٣١٥ ؛ في سومطرة : ٣٠٦  
 فلاديمير : ٢٠٨ - ٢٠٩  
 الفلبين - حالتهم في القرن الثامن عشر : ٢٧٣ - ٢٧٤ ؛ في القرن التاسع عشر : ٢٧٤ - ٢٧٥ ؛ يتلفون تواريخ الحوصلة : ٢٧١ ؛ نشاط الدعوة : ٢٧١ ، ٢٩٧ ؛ على ساحل إفريقيا الغربي : ٢٨٦  
 فلنو - المسلمون فيها : ١٨  
 فلورن : ٣٣١  
 الفلبينيين - جزائر : ٢٢٥ ، ٢٢٣ - ٢٢٦  
 فوتاجالون : ٢٧٧ ، ٢٧٩  
 الفوتياك : ٢١٣  
 الفوئج - الإمبراطورية : ٩٩ ، ١٠١ ، ٢٨٣  
 فيروز شاه تغلق : ٢٢٠  
 فيلسكس - أسقف أرجيل : ١٢٣  
 فيلو كرينوس - أسقف يعقوبي : ٧٩  
 القادر - الخليفة : ٧٩  
 القادرية - جماعة : ١١٣ ، ٢٧٧ ، ٧٨ ، ٢٨١ ، ٣٤٠ هامش ٢  
 القازاق : ٢٠٥  
 قبائل الجزائر Kabils : ١١٣ - ١١٤  
 القبائل العربية - إسلامها : ٣٧ - ٣٨ ، ٣٩ - ٤١  
 قبرص - القبط فيها يعتقدون الإسلام : ٩٧ هامش ٢ ؛ في ظل الحكم البندقي : ١٣٠ هامش ٢  
 القبط : ٩٢ - ٩٨  
 القبيلة الذهبية : ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٠٦  
 قتيبة بن مسلم : ١٨٥ ، ٢٥٢

لهاسه - المسلمون فيها : ٢٥٠  
لوكاريس - كيرلس ، بطريق القسطنطينية : ١٤٣ -  
١٤٥  
لوهانة - تحولهم إلى الإسلام : ٢٣٤  
لويس السابع : أنظر القديس لويس  
ليريا : ٢٨٤  
المابلا : ٢٢٥  
ماجبا بهيت : ٣١٧ ، ٣١٨ - ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧  
٣٢٦ هامش ٨  
مادوره : ٣٢٠ ، ٣٣٨  
المأمون - خليفة : ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٨٨ : السباح  
بيناء كنانس : ٦٣ - ٦٣ ، لقاءه عمه إبراهيم :  
٣٠٠ - ٣٠١  
مانجو خان : ١٩٢  
مبارك شاه : ٢٠٢  
المتوكل - خليفة : يتخذ تدابير تعصية : ٢٢ ، ٧٢ -  
٣٥١ ، ٣٥٢ هامش ١ : أوامر بهدم كنانس محدثة : ٦٣  
المتجمع العربي في زمن محمد : ٢٩ - ٣٠ ، ٤٢ - ٤٣  
المجر : أتباع كلغن فيها : ١٣٨ : المسلمون فيها ١٤١  
هامش ٢ ، ١٧٠ - ١٧١  
مجلان : ٣٢٣ - ٣٢٤  
المجوس : انظر أتباع زرادشت  
محمد : ٢٤ - ٤٥ ، ٤٨  
محمد بن القاسم : ٢١٩ هامش ٢ ، ٢٣٢  
محمد بن علي السنوسي : ٢٨١  
محمد الثاني - سلطان تركيا : ١٢٩ ، ١٥٥ : في البوسنة  
١٧٤  
محمد خان - أمير مغالستان : ٢٠٤  
محمد خدا بنده : ٢٠١  
محمد شاه - سلطان ملقا : ٣١٢ - ٣١٣ ، ٣٣٥  
محمود الغزنوي : ٢١٧ ، ٢١٨ - ١٩  
مداني : ٢٢٦  
مدغشقر : ٢٩٦  
المدينة : ٢٩ - ٣٣ ، ٣٦ - ٣٧ ، ٣٩ - ٤٠  
مذهب آريوس - في أسبانيا : ١١٨  
مذهب التيني - في أسبانيا : ١٢٣

كنتن : ٢٥١  
الكندي : أنظر عبد المسيح بن إسحاق الكندي  
كنسو : ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣  
كنو : ٢٧٠ هامش ٨ ، ٢٧٠ - ٢٧١  
الكنيسة الإغريقية - محاولة جعلها كلفنية : ١٤٣ -  
١٤٥ : في ظل الحكم البيزنطي في القرن الخامس  
عشر : ١٤١ : في ظل الحكم التركي في القرن  
السابع عشر : ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ : في البوسنة :  
١٤٨ : في إقريطش ، في ظل الحكم البندقي : ١٧٧ :  
في الصرب : ١٧٢  
الكنيسة النسطورية - في ظل الحكم الإسلامي : ٩٤ ،  
٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩  
الكنيسة اليعقوبية - في الحبشة : ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٧ :  
في مصر : ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٢ - ١٠١ : في النوبة :  
٩٨ - ١٠١ : في فارس : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٥ - ٧٦ ،  
١٨٠ : إحصاءات : ٧٤  
كواركوار - كبير ممتسحي يعتقد الإسلام : ١٤٥ هامش ٩  
كوتشم خان : ٢١٥  
كوجه - قبيلة دخلت في الإسلام : ٢٤٥ - ٢٤٦  
كي - جزائر : ٣٢٧ - ٣٢٨  
كين لنج - امبراطور الصين : ٢٥٨  
كيوك خان - معاملة المسيحيين : ١٩٢ ، ١٩٥ :  
والمسلمين : ١٩٥ - ١٩٦  
لاجوس : ٢٨٦  
لتوانيا - الإسلام فيها : ١٨ ، ٢١٠  
لداخ : ٢٥٠  
لقروي - أسقف يتحدث عن أسباب انتشار الإسلام :  
٣٤٦ : وعن الإسلام في الهند : ٢٢١ : وعن  
صلوات المسلمين العامة : ٣٤٩ هامش ١  
لكديف - جزائر : ٢٣٠  
اللغة العربية - استعمالها أداة ممكنة لنشر الإسلام :  
٦٨ ، ١٢١ - ١٢٣  
لمبري - في سومطرة : ٣٠٨  
لمبوك : ٣٣٣  
لمبونج - مقاطعات : ٣١١  
لمتونة - عشيرة : ٢٦٧ ، ٢٦٩

المسيحيون الإغريق يعفون من ضريبة الرأس : ٥٩  
المسيحيون - الجنود في خدمة المسلمين ، أثناء  
الحروب الصليبية : ٨٣ ، ٨٦ ؛ في إفريقيا الشمالية :  
١١٤ - ١١٥ ؛ في أسبانيا : ١١٩ - ١٢٠ ؛ في  
تركيا : ٥٩ ، ١٣٤ هامش ١ ، ١٥٧ ؛ يعفون من  
أداء ضريبة الرأس : ٥٩

المسيحيون - رجال الكنيسة الذين أسلموا : ٧٩ ،  
٨٠ ؛ في الحبشة : ١٠٢ ؛ في مصر : ٨٣ ؛ في  
أسبانيا : ١١٨ ؛ في تركيا : ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،  
١٤٨ هامش ٤ ، ١٤٩

المسيحيون العرب - إسلامهم : ٤٧ - ٥١ ؛ تحالفهم  
مع العرب المسلمين : ٤٧ - ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ؛ في  
العصور الحديثة : ٥١

المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي - حالتهم : ٤٩ -  
٥٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ٩٠ ،  
٩٣ - ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ،  
١١٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٥٧ ،  
١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،  
١٧٩ - ١٨٠ ، ٣٥٢ . أنظر أيضا الذميون

المسيحيون - يدخلون في الإسلام ؛ في بورنيو :  
٣٢٧ - ٣٢٨ ؛ في سلبيس : ٣٣١ - ٣٣٢ ؛ في  
الهند : ٢٢٩ ؛ في سومطرة : ٣١١ . وانظر أيضاً  
المسيحيون ورجال الكنيسة .

المسيحيون - الموظفون الذين عينتهم الحكومات  
الإسلامية : ٦٠ - ٦١ ؛ في مصر : ٩٦ ؛ في  
أسبانيا : ١٢٠

المسيحيون - يوثرون الحكم الإسلامي على الحكم  
المسيحي : ١٣٧ - ١٤٠ ؛ في الدولة البيزنطية :  
٥٣ - ٦ ، ٨٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ؛ في اليونان في  
ظل حكم الفرنجة والبنادقة : ١٣٠ ؛ في المجر :  
١٣٨ ؛ في أسبانيا : ١١٦ - ١١٧ ؛ في الصرب :  
١٧٠ - ٧١ ؛ في ترانسلفانيا : ١٣٨

مصر - المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي : ٩٢ - ٩٤ ،  
٩٦ - ٩٧ ؛ كنائس تنبئ : ٦٢ - ٦٣ ، ٩٧ ، ٣٥٢ ،  
هامش ٥

مذهب كلن والإسلام : ١٣٨ ، ١٤٣ - ١٤٤  
مذهب المشيئة الواحدة : ١١٠ ، ٥٢  
المرابطون : ٢٦٨ ، ٢٩٧  
مراد الثاني : سلطان تركيا : ١٣٢  
مراكش - المسيحيون فيها : ١١١ ، ١١٢ هامش ٥  
المرديون : ٥٩ ، ١٥٧ هامش ٥ ، ١٦٩  
مرشد قلى خان : ٢٢٧  
مرك برقيتي - مطران يعقوب : ٧٩ هامش ٥  
مرو - دخول مسيحيها في الإسلام : ٧٥ - ٧٦  
مروان - خايقة : ٢٢  
المستضىء - خليفة : ٦٤  
المستعربون : ١٢١

مسلمو الأسبان - نشاطهم في الدعوة : ١١٣  
المسلمون - في ظل الحكم المسيحي ؛ في الحبشة : ١٠١ ،  
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ - ٣٤٣ ؛ مستعمرة الكاب :  
٢٩٤ - ٢٩٦ ؛ إفريقيا : ١٧٥ - ١٧٦ ؛ مصر :  
٣٥٤ ، ٣٦٢ - ٣٦٣ ؛ إفريقيا الشرقية الألمانية :  
٢٨٥ - ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ - ٣٠٤ ،  
٣٤٣ ؛ المجر : ١٦٩ - ١٧٠ ؛ الهند : ٢٣٩ ،  
٢٤١ - ٢٤٨ ، ٣٦٣ ؛ لاجوس : ٢٨٦ ؛  
لتوانيا : ٢١٠ ؛ أرخبيل الملايو : ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٣ ،  
٣٢٨ - ٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ - ٣٣٦ ،  
٣٣٨ - ٣٤٠ ؛ الجبل الأسود : ١٧٢ - ١٧٣ ؛  
نيجريا : ٢٧٥ ، ٢٧٦ ؛ النوبة : ٩٨ - ٩٩ ؛  
الامبراطورية الروسية : ٩٠ ، ٩١ ، ٢١١ - ٢١٥ ،  
٢١٦ ، ٣٤٣ ؛ أسبانيا : ١٢٤ ، ١٢٧ - ١٢٨  
المسلمون يراعون الطقوس المسيحية - في ألبانيا :  
١٥٩ - ١٦٠ ، ١٦٥

المسلمون - الذين يتكلمون اللغة البولندية : ١٨  
المسلمون الذين يتكلمون الهولندية : أنظر مستعمرة  
الكاب

المسيحية - البدع المسيحية تهيء للدخول في الإسلام :  
٩٤ ، ١١٨ ، ١٤٢ ، ١٧٤ - ١٧٥ ؛ التحول إلى  
المسيحية عن طريق الإكراه : أنظر التحول عن  
طريق الإكراه .

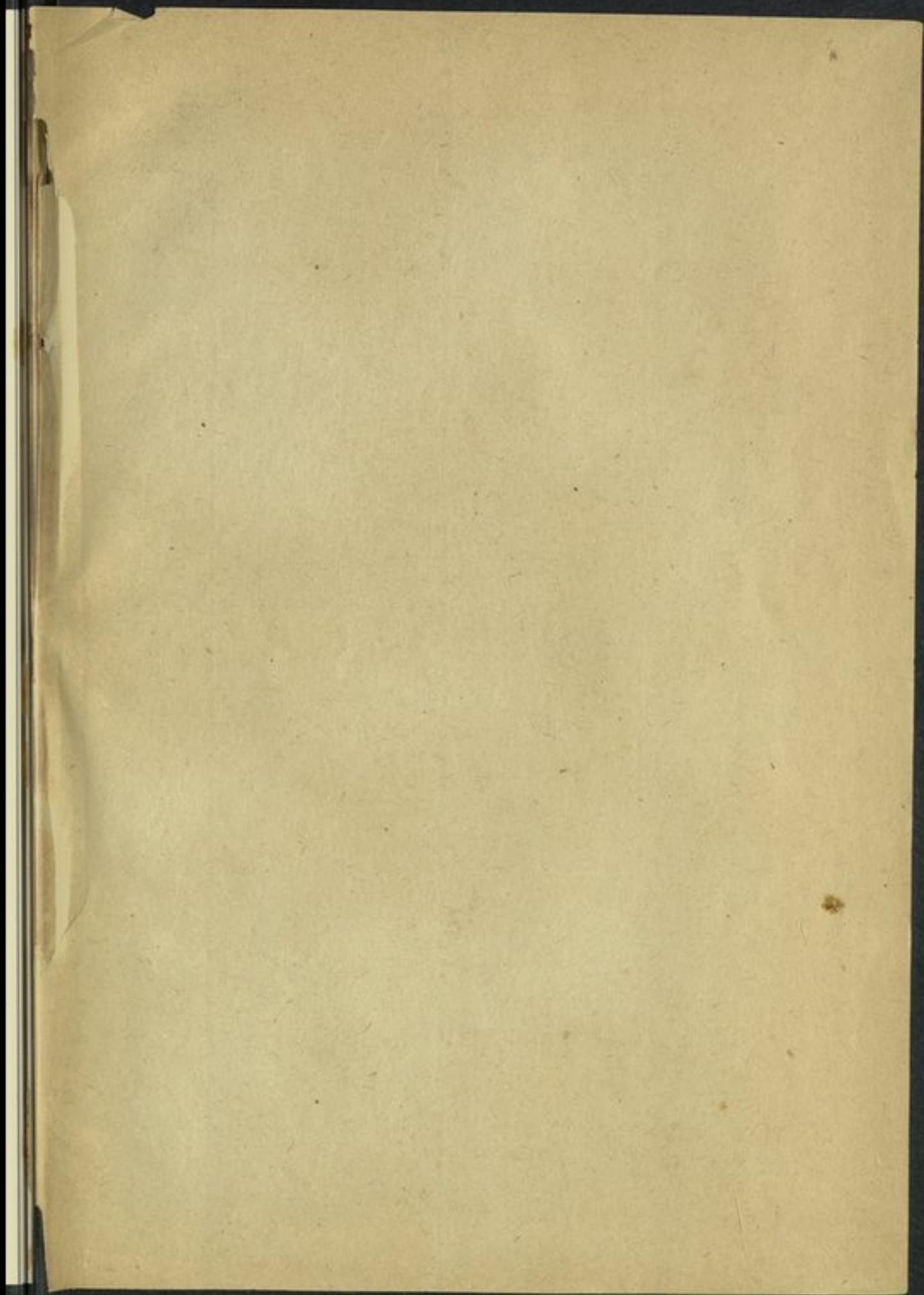
منج - دولة : ٢٥٥  
مندناو : ٣٣٣ - ٣٣٥، ٣٣٥ هامش ١  
المنديجو : ٢٦٩، ٢٧٩، ٢٩٧ ؛ باعتبارهم دعاة  
إلى الإسلام : ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٩٧ ؛ على ساحل  
إفريقية الغربية : ٢٨٤، ٢٨٦ ؛ لا يزال منهم  
وثنيون : ٢٨٤  
المنصور - خليفة : ٢٥٢، ٧٠  
منليك - إمبراطور الحبشة : ٢٩٤، ١٠٧  
منيلا : ٣٣٦  
المهدى - خليفة : ٧٢، ٦٣، ٥٠  
مهدي سُرانا : ١٨٤  
موتزا - ملك أوغنده : ٢٨٩  
موسى بن ميمون : ٣٥١  
موظفو المسلمين وجنود الحكومات المسيحية  
ينشرون الدعوة الإسلامية في إفريقية : ٢٧٥  
٢٨١، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٠٣ ؛ في أرخبيل الملايو :  
٣٠٩، ٣٣٣، ٣٤٠  
المولدون - في أسبانيا : ١٢٤  
ميتاراس - نيكوديموس : ١٤٤  
ميرات - قبيلة : ٢٤٥  
ميسول - جزيرة : ٣٣٦، ٣٣٩ هامش ٦  
ميناهسا : ٣٢٨  
ناسك : ٢٣٢، ٢٤٣  
نجم الدين مختار الزاهدي : ١٩٧ هامش ٢  
النساء المسلمات يدعون إلى الإسلام : ١٠٦، ١٠١  
هامش ٤، ٣٤٣ - ٤٤  
الناطقة بين المغول : ١٩٢ - ١٩٣  
نصر بن هارون - موظف مسيحي : ٦١  
نعمة الله - بطريق يعقوبي : ٧٩ هامش ٦  
نفيسه : ٣٤٣ - ٤٤  
القشبنديّة - جماعة : ٢٠٥، ٣٤٠ هامش ٢  
نواتا - مسيحيوها يعتقدون الإسلام : ١٤٩  
النوبة : ٩٨ - ١٠١، ٢٨٣  
النوبيون - ينظمون في سلك الجماعة الأميرغية : ٢٧٦  
النوجاي : ٢٠٦

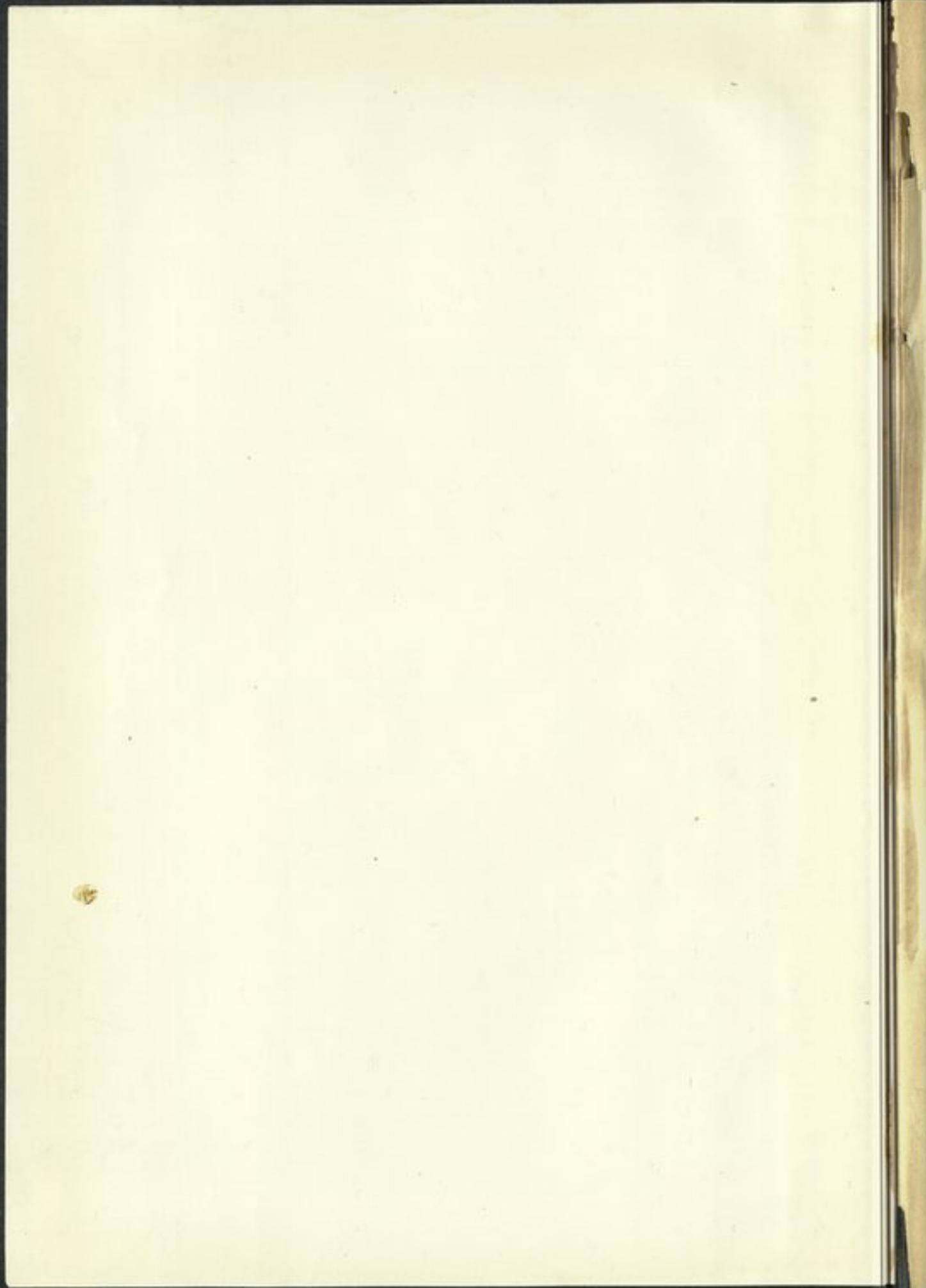
نصر - المسيحيون البيعاقبة في مصر : أنظر القبط  
معايد النار ، في فارس : ١٨٢ - ١٨٣  
معاوية - يستخدم مسيحيين : ٦٠ ؛ إيراد مصر في  
عهده : ٩٣  
المعتزلة : ٦٩ - ٧٠، ٧١  
المعتصم - الخليفة ؛ حكمه : ١٨٢، ١٨٥، ٢٣٣ ؛  
يستخدم موظفين من المسيحيين : ٦٠ ؛ يرسل  
رسلا إلى النوبة : ٩٨  
المعتضد - الخليفة : ٦٠  
مغالستان : ٢٠٤  
المغول - فتوحاتهم : ١٨٩ - ١٩٠، ١٩٥ ؛ تنصرهم :  
١٩٢ ؛ لإسلامهم : ١٩٧ - ٢٠٠، ٢٠١ - ٢٠٦ ؛  
في الصين : ٢٥٤ ؛ في جورجيا : ٨٨ - ٨٩ ؛ يضطهدون  
المسلمين : ١٩٥ - ٢٠٢، ٦ ؛ دينهم القديم :  
١٩١ ؛ علاقاتهم بأمرام المسيحيين : ١٩٢ - ١٩٣  
١٩٨ . أنظر أيضا التتار  
مقاريوس - بطريق أنطاكية : ١٣٨  
المقتدر - خليفة : ٧٠، ٧٢، ٣٥٢ هامش ٥  
مكة - عرب منها يقيمون في أرخبيل الملايو : ٣٠٨ ،  
٣١٤، ٣٢٧ ؛ الحج إليها : ٣٤٧ ؛ مركز ديني  
للعالم الإسلامي : ٣٣ . أنظر أيضا طبقة الحاجي  
مكسر - مملكة في سلبيس : ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣١  
مكبه ون : ٢٢٩  
ملايو - شبه الجزيرة : ٣١٢ - ١٥  
الملايو في مستعمرة الكاب : ٢٩٤  
المتنان : ٢٣٢، ٢٣٣  
مديف - جزائر : ٢٣٠  
ملقا : ٣١٢، ٣٣٥  
ملك بن الوليد - موظف مسيحي : ٦١  
الملك الظاهر - ملك سمدرية : ٣٠٩  
ملوكس : ٣٢٣ - ٣٢٥  
مليار : ٣٢٣ - ٢٧، ٣٠٦، ٣٠٧ هامش ٥  
ملي : ٢٧٠، ٢٧٢  
منا نجبكو - مملكتها : ٣٠٩، ٣١٢  
منة الإسلام سبها : ٢٢٩، ٢٤٣

- نور الدين - الخوارزمي ، يساء إليه في بلاط كيوك :  
١٩٥ - ١٩٦  
نياسالاند : ٢٩١  
الهادي - خليفة : ٧٧  
هارون - أسقف يعقوبي : ٨٠  
هارون الرشيد : ٦٣ ، ١٧ ؛ يجوز على المسيحيين :  
٧١ ؛ يسمح ببناء كنائس : ٦٣  
مردته : ٢١٩  
مرر : ٢٩٤ ، ٢٨٢  
المهرطقة البوليشية : ١٤٢ ، ٨٧  
مرقل : ٣٤ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٦ ، هامش ٤ ، ١٨٠  
هشام - خليفة : ٢٥٢  
هلياميرا : ٣٢٦  
الهند : ١٨٤ ، ٢١٧ ، ٢٤٨ ، ٣٦٣ ؛ تسرب  
الإسلام من الهند إلى أرخبيل الملايو : ٣٠٦  
الهند الصينية - الإسلام فيها : ٣١٥  
الهندوكية والإسلام - في الهند : ٢١٧ - ٢٤٨ ؛ في  
جلوه : ٣٢١ - ٣٢٣  
هنيادي - جون : ١٦٩ ، ١٧٠  
هونتوت : ٢٩٥  
هولاكو : ١٩٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٦  
الهولنديون في أرخبيل الملايو : ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٣١ -  
٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ . وانظر المسلمون الذين  
يتكلمون الهولندية .  
هوى هوى : ٢٥١  
هيتون - ملك أرمينية : ١٩٢ ، ١٩٨  
واختنج السادس - ملك جورجيا : ٩٠  
وايجما - جزيرة : ٣٣٦
- وايجيو - جزيرة : ٣٣٦  
وداي : ٢٧٢ ، ٢٨٢ ، ٢٩٨  
الوليد - خليفة : ٦٣  
الوهايون - حركتهم الإصلاحية وأثرها : ٣٥٥ -  
٣٥٦ ؛ في إفريقية : ٢٧٣ ؛ في البنغال : ٢٣٩ ؛  
في سومطرة : ٣١٢  
باركند : ٢٠٤ - ٢٠٥  
يثر : أنظر المدينة  
يزدانخت : ٧٨ ، ٧٨ هامش ٥  
زيد الثاني - خليفة : ٦٣  
يشوع - بطريق يعقوبي : ٧٩ هامش ٦  
يشوع ياف الثالث - بطريق نسطوري : ٧٥  
يعقوب بن الليث : ١٨٨  
يعقوب مانويل منوبو - أول ملك مسلم لبولانج  
مونجندو : ٣٣١  
يعقوب منوبو - أول ملك مسيحي لبولانج مونجندو :  
٣٣١  
ينج تشن : ٢٥٧  
اليهود : محاولة إدخال الروس في دينهم : ٢٠٨ ؛  
يهودي يرغم على الدخول في الإسلام : ٣٥١ ؛  
في الصين : ٢٥٩ ؛ في المدينة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ؛  
في أسبانيا ، يرحبون بالعرب : ١٣١ ؛ اليهود  
الاسبان يلجئون إلى تركيا : ١٣٨  
يوروبا - بلاد : ٢٧٥  
يوستوس ستيفن : ٨٥  
يوسف - مطران مرو : ٧٧ ، ٧٩ هامش ٧  
يونان : ٢٥٠ ، ٢٥٤ - ٢٥٥

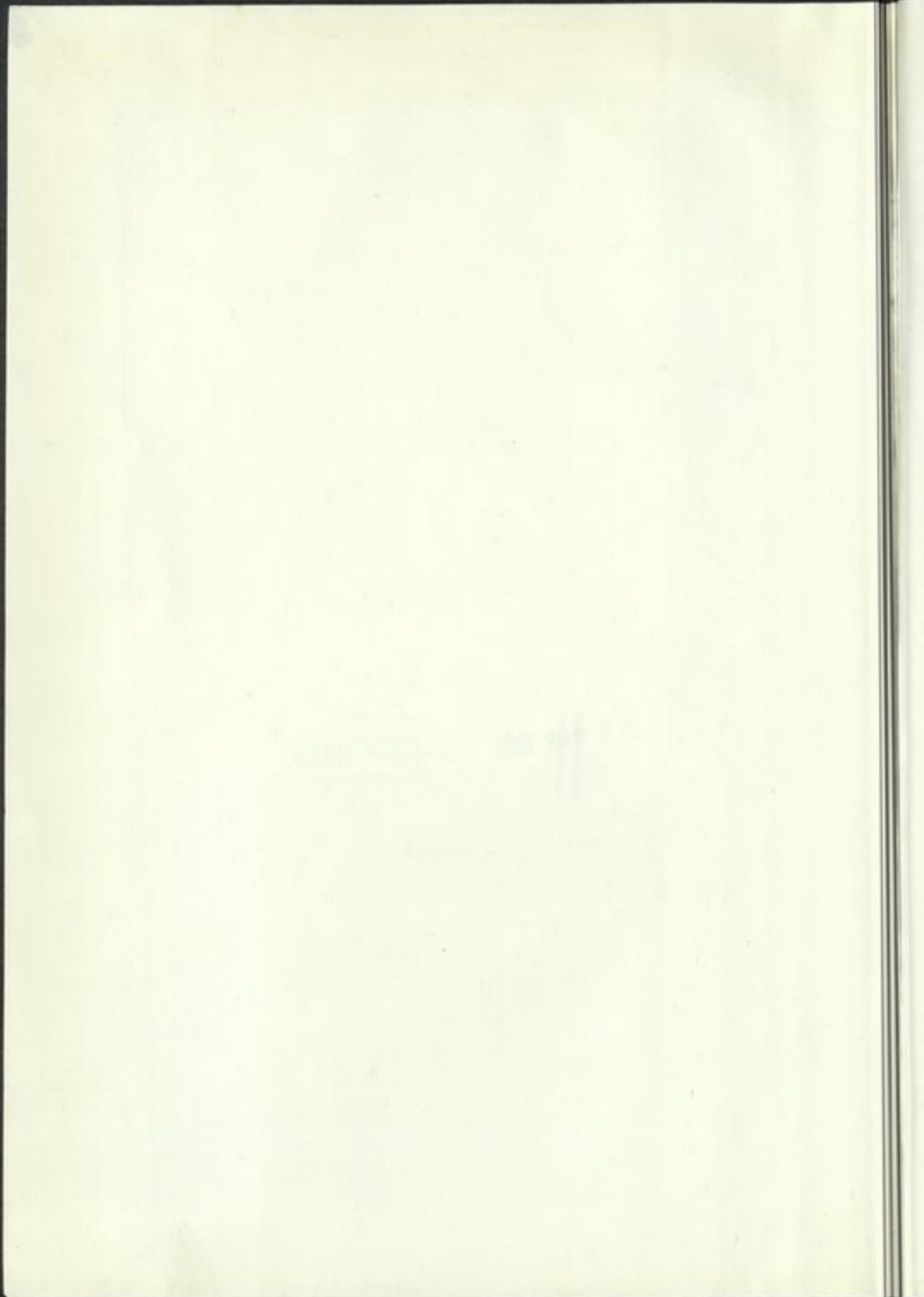
## تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	١٩	وغيرهم	وغيرهما
٢٢	٢٢	تتحقق من البواعث	بتحقق البواعث
٢٣	٩	أضافت	أضاف
٢٥	١٤	الحشبة	الحبشة
٤٢	١٨	الأسقع	الأسقع
٤٤	١٨	سقط سهوا قول الشاعر :	
		إذا أنت لم تنفع فضر فائما يرجى الفتى كما يضر وينفعا	
٤٤	هامش (٢)	استقيننا له	استقيننا عنه
٥٠	٢٢	واستدل	واستدل
٥٩	١٥	سكوتارى	أسكدار
٩١	١٦	سكوتارى	أسكدار
١٣٢	هامش (٢)	يبدأ بالعبارة (وكتب جبرلاخ Gerlach سنة ١٥٧٧ يقول :)	
١٥٩	٩	بدين	بدين
٢٠٢	٢١	أول ملك مسلم	أول ملك مسلم في كاشغر
٢٠٤	٢٣	والخطا	وختان
٢٠٤	هامش (١)	ص ١٦١ - ١٦٨	١٦٨ - ١٦٦
٢٠٨	هامش (١)	Frachnio	Fraehnio
٢١٩	هامش (٣)	بولندشهر	بلندشهر
٢٢٧	هامش (٣)	Oboards	Oboardo
٢٢٨	هامش (١)	مدورا	مادوره
٢٥٣	هامش (٣)	ويعزو خانات	وتعزو عشائر الجام
		كبوديا	في كبوديا
٢٧٣	١٠	(بعد إلا في القرن السادس عشر سقطت العبارة الآتية : وكان أول ملوك باغرى من المسلمين السلطان عبد الله الذى حكم من سنة ١٥٦٨ إلى سنة ١٦٠٨)	
٢٨٥	١٧	Achanti	Ashanti
٢٨٥	٢١	Dahamey	Dahomey
٣٢٢	٢٤	Arabe	Arabs











حسنة حسن ابراهيم  
الدعوة الى الاسلام  
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES  
01002698

297  
[REDACTED]

